

التبصرة

للإمام أبي الفتح عبد الرحمن بن الجوزي

(٥١٠ - ٥٩٧ هـ)

تصنيف

الدكتور مصطفى عبد الواحد

[ينشر لأول مرة على نسخ مكتبة نكت]

المجلد الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

الطبعة الثانية
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلّكس: Nasher 41245 Le

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فناكس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على خير أنبيائه ورسوله ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وبعد ، فهذا كتاب « التبصرة » للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي أقدمه للامة الإسلامية ، وهو الكتاب الثالث من كتب ابن الجوزي للتوارة التي لم تطبع من قبل ، وكان لي شرف إخراجها إلى الناس ، وكان أولها « ذم الهوى » الذي طبع منذ عشرة أعوام وثانيها « الوفا بأحوال المصطفى » وكان بعده بأربعة أعوام ، وقد رأيت في تراث ابن الجوزي ما يستحق العناية والاهتمام ..

ولابد أن أعرض في هذا التقديم لأمر ثلاثة : للؤف ، والموضوع ، والكتاب .

ابن الجوزي :

أما المؤلف فهو^(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن حماد ، بن أحمد بن محمد بن جعفر ، الجوزي القرشي القتيبي البكرى ، البغدادي ، الفقيه الحنبلي ، الواعظ ، الملقب بجمال الدين الحافظ .

والجوزي : نسبة إلى قرية الجوز - كما يقول ابن خلكان - أو إلى محلة الجوز بالبصرة كما يقول ابن العماد .

(١) ترجمته في شذرات الذهب ٣٢٩/٤ ووفيات الأعيان ٣٢١/٢ وتذكرة الحفاظ ١٣٠/٤ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي .

(پ)

ولد سنة عشر أو ثمان وخمسة أو قبلها ، كما يقول ابن الماد ، وكذلك يردد ابن خلكان ميلاده بين سنة ثمان وعشر ، ومات سنة سبع وتسعين وخمسة .

ونشأ يتيمًا لئذ مات أبوه وله ثلاث سنين فربته عمته .

قال عن نفسه : « فإن أبي مات وأنا لا أعقل ، والأُم لم تلتفت إلي »^(١)

ولكنه نشأ شغوفًا بالمعرفة محبا للطلب ، فسمع الكثير ونظر في جميع الفنون كما قال : « فركز في طبعي حب العلم ، وما زال يوقني على اللهم فإلهم ، ويملئني إلى من يملئني على الأصوب ، حتى قوّم أمرى » .

شيوخه :

لما تخرج ابن الجوزي حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل ابن ناصر ، وهو خاله ، فاعتنى به وأسمه الحديث ، وحفظ القرآن وقرأه على جماعة من القراء بالروايات .

وقد كان لابن الجوزي شيوخ يبلنون سبعة وثمانين منهم على بن عبد الواحد الدينوري ، وابن الحصين ، وأبو عبد الله البارعي ، وأبو الوقت السجزي ، كما كان معظما لأبي الوفاء بن عقيل متابعا لأكثر ما يجده من كلامه .

الواعظ المحدث :

وقد اتجه ابن الجوزي منذ نشأته إلى الوعظ ، فوعظ من صغره وفاق فيه الأقران ونشأت له في ذلك ملكة مجيبة وبديهة حاضرة وتاب على يديه الآلاف وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء :

قال : « ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف ، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس ، وكم سالت عين متجبر بوعظي ، لم تسكن نسيلا » .

(١) عبارات ابن الجوزي في الحديث عن نفسه منقولة من كتابه « حيد الخاطر » في مواضع متفرقة .

(ج)

وقد كان مجلسه في بعض الأحيان يقدر بمائة ألف ، وحضر مجلسه الخليفة المستنصر ،
عدة مرات من وراء الستر .

وسيتضح هذا الجانب في عرضنا لموضوع الكتاب .

كذلك اشتهر ابن الجوزي بمعرفة الحديث ولقب فيه الحافظ وصنف فيه الكثير ،
وبلغ من وثوقه بنفسه فيه أن قال :

« ولا يكاد يذكر لي حديث إلا ويمكنني أن أقول : صحيح أو حسن أو محال » .

وليس هذا غرورا ولا ادعاء ، ولكنه قول من يعرف قدر نفسه ويحيط بموهبته ،
ولقد أخلص ابن الجوزي لعم الحديث وبذل في سبيل بلوغ المرتبة العالية فيه الكثير .

ومن ذلك ما يذكره عن نفسه : « كنت في زمان الصبا أخذ معي أرغفة يابسة
فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند المساء ، فكلمنا
أكلت لقمة شربت عليها ، وعين هتقي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأثر ذلك عندي
أنى عُرفت بكثرة سماعي لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه وأحوال
الصحابة وتابعهم ، فصرت في معرفة طريقه كابن [بل] أجود » .

وقد ذكر ابن خلكان أنه جمعت برأيه أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم فحصل منها شيء كثير ، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي ينسل به بعد
موته ففعل ذلك ، فكفّت وفضل منها .

عالم واسع :

ولم تكن شهرة ابن الجوزي في الوعظ والحديث لتمتد من التبحر في غيرهما
والإشارة في ألوان الثقافة الأخرى فبرع في علوم مختلفة وحاز مكانة في أكثر من
ميدان ، وطلب من كل فن ما أطاق .

قال : « إني رجل حُبب إلي العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبب إلي

(د)

فن واحسد منه ، بل فنونه كلها ، ثم لا تقتصر همى فى فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه » .

وقد جنى من تحصيله الكثير ثمرة فائقة جعلت له منزلة عالية فى جوانب الثقافة الإسلامية وأحلقته مكانا مرموقا مما جعله يقول فى آخر عمره : « وما نلتُه من معرفة العلم لا يقاوم » .

وهو فى ذلك يمثل شمول الثقافة العربية وسمة آفاقها .

فهو إلى جانب تبحره فى علوم القرآن والسنة واشتهاره فى ميدان الوعظ يشارك فى علم التاريخ وكتبه فيه لا تقل درجة عن المصادر الموثوق بها ، وأشهرها كتابه « المنتظم فى تاريخ الأمم » كما يثبت أصالته فى علوم اللغة بكتب متعددة منها : تذكرة الأريب فى اللغة ، والوجوه والنظائر ، وتقويم اللسان ، وللمقيم المقعد فى دقائق العربية . وما كان لواعظ محدث أن يسع اهتمامه باللغة إلى هذا الحد الذى يجعله يؤلف فيها ، ولكن ابن الجوزى كان كثيروه من الأئمة الأقدمين ، يؤمن بوحدة الثقافة الإسلامية ويرى أن بعضها يخدم البعض وأن الاختصار منها على جانب ضيق فى الأفق وقصور عن المعرفة .

بل إنه نظر فى الطب والفراصة والتجارب وله فى ذلك آثار . إلى جانب أنه كانت له حاسة أدبية مرهنة تظهر فى أسلوبه الذى يتميز بالقدرة على اختيار الألفاظ فى مواضعها وبالتلون فى الصور والمهارة فى الاقتباس ، كما يتجلى ذلك فى كتابه الذى نعرضه اليوم . كما كان ابن الجوزى ينظم الشعر فى مناسبات مختلفة ، وقد ذكر له ابن خلكان بعض المختارات ، منها قوله يخاطب أهل بغداد :

عذيرى من فتية بالعراق	قلوبهم بالجفا قلبُ
يرون العجيب كلام الغريب	وقول القريب فلا يُعجبُ
ميازيهم إن تندت بخير	إلى غير جيرانهم تغلبُ
وعذرهم عند توبيخهم	مغنية الحى لا تطربُ

وهكذا كان الرجل عالما أدبيا وفقهيا محدثا وواعظا مفكرا ، وقف موقف النقد من عصره وفكره .

موقفه من عصره ومجتمعه :

كان لابن الجوزى موقف متميز فى صلته بعصره ومجتمعه . فلم يكن من وعاظ السلاطين أو حاشية للوك الذين تُشكل بهم الزينة أو يملأون حيزا محدد لم فلا يتجاوزونه . بل كان الرجل ذا شخصية فذة ، عرف مكانته من بيئته وعصره ، فانطلق يساهم بسلحه الذى يملك ، وهو البيان والتعليم ، وتباعد عن ظل السلطان ونجا من المداهنة فى قوله أو الرأى بملء ، فاستطاع أن يستلم بكلمة الحق وأن يعرف الإصرار فى الرأى والقوة فى الحجة والإقناع .

وتلج خطته فى الإصلاح ومنهجه فى الثورة على الفاسد والانحرافات فى كتابه « تلبيس إبليس » الذى حدد فيه موقفه من الفكر والسلوك فى عصره .

وفى هذا الكتاب يخض ابن الجوزى شذوذ أدياء التصوف ومخالفاتهم للشريعة بحجاب كبير ، وقد اشتهر بعدائه للبدع وإنكاره لكل ما يخرج عن المدى الإسلامى الصحيح . .

وهو بهذا سقى سلفى ، لا يرتبط بمذهب يحمله التعصب على نصرته ، ولا يأوى إلى رأى يذود عنه أو يقنع به ، بل هو مجتهد فى فهم الكتاب والسنة متقبلاً لما سائر العقل من الأثر ، ولهذا لم يبال أن يخالف أحداً من سبقوه ما دام ضياء العقل وبهاء النقل فى يده !

ولذلك تراه يرثى على الإمام الغزالى كل ما لا يتسق مع المنهج الفقهى الذى ارتضاه الغزالى نفسه ، إذ كان الغزالى للتصوف يناقض فى بعض الأحيان الغزالى الفقهى ! فكان ابن الجوزى يوجب من ذلك وياقت إليه .

وقد كان ابن الجوزى حنبلياً المذهب ، إلا أنك لا تحس منه وقوفاً عند رأى ، بل

(ح)

من الكتابة والتصنيف ، ولكن هذا المدد الذي يُذكر لكتبه محوط بالتهويل والمبالغة ، ولعلمهم كانوا يمدون الأجزاء من الكتاب الواحد كتباً متعددة .

والذي يُذكر من كتبه في التراجم التي كتبت له لا يكاد يبلغ المائة ، والمؤسف أن القدر الذي بقي من كتبه لا يزال أكثره في طوايا النسيان يحتاج إلى من يُعنى به ويصونه من الضياع ، وهو بحاجة إلى جامعة إسلامية أو هيئة علمية تنفض عنه غبار الدهر وتدفع عنه يد البلى ، وإن الأزهر الشريف لأولى بذلك وأحق . .

إن ابن الجوزي يحد من يهتم بكتبه وآثاره من المستشرقين ، وكثير من كتبه المخطوطة في موضع العناية في المكتبات والجامعات الأوروبية وحين أخرجت كتابه « ذم الهوى » لم أجد في مكتباتنا العربية نسخة منه يعول عليها ، على حين وجدت النسخة الأصلية التي قرئت على ابن الجوزي في مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا الغربية وأخرى صحيحة كتبت بعده بقرن في مكتبة باريس الأهلية !

ولمأتني لأكرر الدعوة هنا إلى أن تصان آثار ابن الجوزي وتتبع كتبه المفقودة أو النائية عنا ونسترد عن طريق نشرها من أيدي الأوروبيين الذين عنوا بترائنا وحازوا أصوله على حين غفلة منا واستهانة .

ولا بأس أن نذكر هنا بعض ما عرف من كتب ابن الجوزي في الفنون المختلفة ونشير إلى المطبوع منها .

١ - في علوم القرآن وتفسيره :

١ - المغني في علوم القرآن .

٢ - فنون الأفنان في مجائب علوم القرآن

٣ - زاد المسير في علم التفسير

٤ - المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن

(ط)

- ٥ - التفسير الكبير في عشرين مجلدا
- ٦ - إخبار أهل الرسوخ بمقدار الناسخ والنسوخ [طبع سنة ١٣٢٢ هـ]

ب - علوم الحديث :

- ١ - الكشف في أحاديث الصحيحين
- ٢ - تهذيب المسند . عشرون مجلدا
- ٣ - المختار من أخبار المختار
- ٤ - مشكل الصحيح - أربعة مجلدات
- ٥ - جامع المسانيد - سبع مجلدات
- ٦ - الموضوعات [طبع بالهند]
- ٧ - الواهيات
- ٨ - الضمفاء
- ٩ - تلقيح فهم أهل الأثر [طبع بالهند]

ج - الوعظ :

- ١ - بستان الواعظين
- ٢ - نتيجة الإحياء . اختصر به إحياء علوم الدين للقرنالي
- ٣ - تبصرة الأخيار
- ٤ - روح الأرواح [طبع]
- ٥ - الثبات عند الممات
- ٦ - المؤرد المذب
- ٧ - لفنة الكبد إلى نصيحة الولد [طبع]
- ٨ - القمص والمذكرون

(ى)

- ٩ - منهاج المريدين
١٠ - التبصرة [وهو الذى تقدمه اليوم]
١١ - المدهش [طبع]
١٢ - رموس القوارير فى الخطب والمحاضرات والوعظ والتذكير . [طبع]
١٣ - تنبيه النائم الشر على حفظ مواسم المعمر
١٤ - الياقوتة فى الوعظ

د - التاريخ والتراجم :

- ١ - المتنظم [طبع]
٢ - مختصر المتنظم
٣ - مناقب عمر بن عبد العزيز [طبع]
٤ - شذور المقود فى تاريخ اليهود
٥ - صفة الصفوة [طبع]
٦ - مناقب أحمد بن حنبل .
٧ - الذهب السبوك فى سير الملوك
٨ - فضائل القدس .
١٠ - أخبار النساء
١١ - مثير الهمم الساكن إلى أشرف الأماكن
١٢ - مناقب عمر بن الخطاب [طبع]
١٣ - الوفا بأحوال المصطفى [طبع]

٥ - علم الكلام :

- ١ - التعقيق في مسائل الخلاف
- ٢ - الإنصاف في مسائل الخلاف
- ٣ - دفع شبهة التشبيه والرد على الجسمة [طبع]
- ٤ - تجريد التوحيد للنيد

و - اللغة والأدب :

- ١ - تقويم اللسان
- ٢ - للقيم اللقط في دقائق العربية
- ٣ - تذكرة الأريب
- ٤ - الوجوه والنظائر في اللغة
- ٥ - الأذكياء [طبع]
- ٦ - الحق والمنفلون
- ٧ - ذم الهوى [طبع]
- ٨ - المقامات
- ٩ - لقط للنافع في الطب والقراءة عند العرب

ز - النقد الديني والاجتماعي :

- ١ - صيد الخاطر [طبع]
 - ٢ - تلبيس إبليس [طبع]
- وهذا التراث الوثير قليل من كثير مما كتب ابن الجوزي ، وكله من كتب شتى

منثورة في المكتبات القاصية ، مما يجعل حقا علينا أن نصون هذا التراث حتى لا نحرم أمتنا من كنوز علمائها وهداياها ، وحتى لا يحجب عنا هذا الضياء أشد ما نكون حاجة إلى سناه وهداه .

هذا الكتاب

والكتاب الذي تقدمه اليوم لابن الجوزي هو أجمع ما ترك ابن الجوزي في علم الوعظ الذي اشتهر به وغلب عليه . فقد كان ابن الجوزي - كما قدمنا - صاحب ملكة في الوعظ جعلته يؤثر في الناس ويجمع حوله القلوب . وقد صاحبه هذه البرعة منذ نشأته . وقد أراد ابن الجوزي أن يسجل ملامح هذه اللوحة في كتاب التبصرة الذي أراد منه أن يكون كتابا في « علم الوعظ » ينفي عن النظر فيما صنمه بعض الأعمام من كتب في هذا الموضوع ، كما يذكر ابن الجوزي في مقدمة كتابه^(١) .

ومن هنا أراد ابن الجوزي أن يحمل من كتابه مرجعا في هذا العلم يُنفي عن النظر فيما سواه فتوسع فيه ما شاء وتفنن ، وجمع فيه بين مواد من الثقافة الإسلامية ونظمها في سياق لا اضطراب فيه ولا اختلاف .

وقد قسم ابن الجوزي كتابه إلى تسع طبقات تجمع أبوابا كثيرة من جوانب العقيدة والتشريع والأخلاق والتقصص والسير ، وكلها تحوى مائة مجلس ، معظم صدورها تقوم على خبر أورواية وأجمازها تقوم على آيات مختارات مما يرقق القلوب ويهذب النفوس والأخلاق .

ولا يذكر لنا ابن الجوزي في مقدمته شيئا عن كتب الوعظ التي ألقت من قبل ، وأظن أنه ما سبق ابن الجوزي أحد في هذا الباب إلا الإمام أبو حامد الغزالي في كتبه المروفة ، إلا أنه لم ينح بها منحى الصلعة والتفنن في علم بيئته ، ولكنه جعلها كتب حقائق ومعارف .

أما ابن الجوزى فإن كتابه هذا يمثل تطور صناعة الوعظ كفن مستقل له خصائصه الأسلوبية وملاحظه البديعية التي أثرت فيه وميزته إلى عهد قريب .

إلا أن كتاب التبصرة لا يمكن اعتباره مكتابا خالصا فى الوعظ ، رغم ما يجمعه من فنونه للتنوعة ، فيه كما أشرت مواد من الثقافة العربية تجعل له قيمة علمية إلى جانب حاجته الخلقية :

١ - ففيه مادة واسعة من التفسير ، تستعرض الأقوال وتحشد الروايات وتفصل الآراء ، إذ أن ابن الجوزى فى آياته المختارة وفى شرحه لما بينى عليه مجالسه ، يعنى بإيراد أقوال للفسرين على نحو مفصل ، ويذكر لكل قول ما يؤيده من رواية ، مما نرى فيه نموذجا للتفسير بالنقل والأثر .

ب - وفيه مادة لنوعية أصيلة ينقلها ابن الجوزى عن أئمة اللغة والنحو كسيبويه والزجاج والفراء وابن الأنبارى وأبو عبيدة ، كاستشهاده على أن أصل ملك^(١) ملاك . وكتفسيره القنوى لقوله تعالى : « وضاق بهم ذمنا^(٢) » وتفسيره للريح الخفوم^(٣) ، وكتحريمه لقراءات : « وحور عين^(٤) » وغير ذلك مما يشيع فى الكتاب من وجوه وقراءات .

ج - وفيه مادة أدبية ، هى أوسع ما تضمنه الكتاب ، وهى ذلك الشعر الذى جعله ابن الجوزى وسيلته فى التأثير والإيحاء .

وهذا الشعر هو أم مادة قدمها إلينا الكتاب ، من حيث إنه حفظ لنا تراثا أدبيا إسلاميا لم يمتح به أصحاب المجموعات والمختارات الأدبية ، هو شعر الزهد والرقائق والتأمل والاعتبار ، وبعض هذا الشعر معروف النسبة ، وهو قليل ، وقد نسبت إلى أصحابه كأمية ابن أبى الصلت وسابق البربرى وأبو المتاهية وابن منذر ، وكثير منه لا يعرف قائله ، ولم يرد فى المصادر الأدبية للتداول .

(ن)

وما يزيد في قيمة هذا الشعر الوارد في كتاب التبصرة ، أنه ليس نظماً سخيلاً ولا تكلفاً متمحلاً ، وإنما هو - في أغلبه - شعر يجمع مقاييس الجودة في شكله ومضمونه ويصدر عن عاطفة صادقة ونظرة حكيمة ، مما يبطل الوهم الذي كان يسود بين النقاد الأقدمين من أن أعذب الشعر أكذبه ! وأن الشعر نكد يضاف في الغير ويقتوى في الشر !

والحق أن ابن الجوزي قد أسدى إلى الأدب الإسلامي صنعة لا تنكر حين جمع في كتابه هذا الحشد الضخم من المختارات الشعرية التي تصور كيف تمثل الأدب العربي معاني الإسلام وكيف عبر عن الحقائق التي آمن بها الوجدان العربي ، ولو أن ابن الجوزي عني بنسبة هذا الشعر إلى قائله لمت الفائدة ولاستطعنا أن نصدر حكماً في مواقف المصور الأدبية من قضية الأدب الإسلامي على نحو دقيق .

ويقتوى في ظني أن ابن الجوزي قد أورد في هذا الكتاب شيئاً من أشعاره هو ، إذ كان ابن الجوزي ينظم الشعر ، كما ذكر ذلك ابن الهاد وابن خلكان ، وما كان يقتصر عن النظم في هذا الموضوع الذي ملّك عليه اهتمامه وجرى مع طبيعته .

ويمتاز ابن الجوزي في استشهاده بالشعر بحاسة مرفهة تجعله يضع كل شاهد في موضعه الذي يؤثر فيه غاية التأثير ، وذلك دليل على القدرة على الرواية والتذوق الأدبي الصحيح .

د - ويبقى بعد ذلك مادة الوعظ في الكتاب ، وهي تلك المقالات الإنشائية المجموعة في الغالب ، التي ضمنها ابن الجوزي معانيه في الحث على الزهادة والتذكير بالآخرة والتحذير من الذنوب ، وهي أغلب المعاني التي ترد في هذه المقالات .

واختيار ابن الجوزي للسجع في هذا الجانب دليل على ما كان للسجع من تأثير على الأسماع ، وقد أتى ابن الجوزي بسجعه طبيعياً غير مستكره ، مما يدل على تفننه في

(س)

التعبير وامتلاكه لزمَام أسلوبه . كما عني ابن الجوزي في هذه المقالات بالصور البيانية من استعارة وتشبيه وكناية ، قصدا إلى التأثير أو الإيضاح .

وإئن كان ذوقنا الأدنى في العصر الحديث لا يرضى عن السجع ولا يؤثمه في التعبير ، إلا أنه لا يمكن تطبيق هذا المقياس على عصر ابن الجوزي الذي كان يرى في السجع قدرة أسلوبية وخاصة في مواطن التأثير والتعذير .

وابن الجوزي قد عرف في أسلوبه كلا اللونين : الرسل والسجع ، ويمثل أسلوبه الرسل كتابه : صيد الخاطر الذي جمعه تأملات طليقة في جوانب الدين والفكر والحياة . فلم يكن يلتزم السجع في كتبه ولكنه رأى ذلك اللون الهدى مناسباً لمجال الوعظ الذي يتطلب التفنن في التأثير والإيحاء ، ونحن نعلم أن السجع ليس معيباً لذاته ، وإنما يعاب حين يستكره الأسلوب عليه وتضطرب المعاني من أجل الإتيان به ، أما حين يأتي مطاوعاً للفكرة موافقاً للسياق فهو عمود مرعوب .



وهكذا نرى في كتاب التبصرة مجموعة من ألوان الثقافة الإسلامية والعربية الأصيلة إلى جانب لونه الأدبي الطريف ، وذلك ما جعلني أرى في نشره فائدة محققة إلى ما فيه من صَوْن لثراث ابن الجوزي وإحياء آثاره .

وقد التزم فيه ابن الجوزي الصحة فيما يذكره من روايات وأخبار ، إلا في جانب قليل ، كحديث موضوع أشرت إلى وضعه نقلاً عن ابن الجوزي نفسه ، وكأخبار وهب ابن منبه الواهية التي يتحدث فيها عن القدماء بغير حجة ولا أثر ، وقد أشرت إلى ذلك في موطنه .

(ع)

منهج التحقيق :

اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على أربع نسخ خطية :

١ - نسخة مكتبة طلعت ١٤٤٩ تصوف وقد كتبت في القرن السابع الهجري إلا أن بها خروما في مواضع متفرقة . ورمزت إليها بحرف (ا)

٢ - نسخة مكتبة طلعت ١٤٤٨ تصوف وهي كاملة وبها زيادات عن النسخة السابقة وقد رمزت لها بحرف (ب) ويبدو أنها مكتوبة في نحو القرن التاسع الهجري .

٣ - نسخة دار الكتب ٢٦٠١ تصوف وأظنها منقولة عن النسخة السابقة إذ أن أخطاءها واحدة . ورمزت لها بحرف (ج) .

٤ - نسخة مكتبة طلعت رقم ١٤٩٢ تصوف وهي مختصر لكتاب التبصرة اسمه : تذكرة الأبقاظ من تبصرة الوعاظ ، اختصره محمد بن ملا الحنفى في القرن الثامن الهجري .

وهذا المختصر دقيق جدا في كتابته وتصحيحه ، وقد كنت أعتمد عليه في تصويب أخطاء نسخ ب ، ج في المواطن المفقودة من نسخة ا التي تعتبر النسخة الأم ، لولا أنها غير كاملة .

وقد أنبت أهم الفروق بين هذه النسخ ، وضبطت ما يحتاج إلى الضبط ، وعرفت ببعض الأعلام ، وخرجت كثيرا من أحاديث الصحيحين ، ونسبت ما أمكنني الاهتداء إليه من الشعر إلى أصحابه ، وشرحت الألفاظ الغريبة التي تحتاج إلى الشرح ، وراعت في ذلك كله الاختصار والاقتصار على المهم ، إذ أن الكتاب طويل يبلغ في أصله ثلاثة أجزاء كبيرة ، فلم أر أن أزحم هذا الأصل الطويل بما يزيد طولا أو يخرج به عن مقصوده .

(ف)

وقد وقعت في هذا الجزء أخطاء يسيرة أشرت إلى أهمها ، وسوف أثبت ما يظن لي بعد ذلك منها في الجزء الثاني من الكتاب .

وحسبى في هذا العمل ما فيه من نية صالحة وجهد مبذول ، وأن يكون فيه مشاركة في حفظ تراث الإسلام وإبلاغ رسالته ، والله الخلد في الأولى والآخرة ومنه وحده المعونة والتوفيق ؟

د . مصطفى عبد الواحد
مجمع اللغة العربية - القاهرة

ربيع الثاني سنة ١٣٩٠ هـ
يونية سنة ١٩٧٠ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله . قال الشيخ الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي رحمه الله عليه :

الحمد لله الذي لا أول لوجوده ولا آخر لجوده ، وصلى الله على خير مبعوث بشرائه وحدوده ، وعلى الصحابة وأزواجه وجنوده ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن جماعة من أصحابي أحبوا التشاغل بعلم الوعظ ولم يحدوا فيه كتاباً يجوز الاعتماد عليه ، وإن جماعة من الأعاجم صنعوا كتباً في ذلك ملأوها بالأحاديث الباطلة والمغالي القاسدة ، فآثرين إلى حسن اللفظ غير باحثين عن الصّحة ، فمَنّهم تكثير الجمع ، ونهَمّهم تحريك الطبع ، فرمّا ذكروا أشعارَ العشق والحبة التي توجب انبساط المبتدئ وتبعدة عن التلمينة والخوف ، أو تُميل قلبه إلى حب الدنيا ، وربما ذكروا [من] أحاديث الرخص الكذب ما يُهَوِّن المعاصي . إلى غير ذلك ، وقد ذكرت عيوبهم في كتاب القصص عن القصص .

فرغب أصحابي في إملاء كتاب يُفنى عن الغطر في تلك الكتب ، فأجبتهم لاجتنابهم عن الباطل واجتلابهم إلى الحق ، فأملت في هذا الكتاب مائة مجلس جلست ، مُعظم صدورها على روايات ، وجلت أمجازها على آيات ، وفيها ما صدره مَنّي على أحاديث إلا أني جلست الصدور في مجالس الصدور على تسع طبقات :

الطبقة الأولى تشتمل على قصص الأنبياء والقديماء ، وفضائل الصحابة والعصايات .

الطبقة الثانية تشتمل على فضائل أيام السنة ولياليها المذكورات .

الطبقة الثالثة تشتمل على ذكر خلق ابن آدم والأرض والسموات .

الطبقة الرابعة تشتمل على فضل العلم والمعاملات .

الطبقة الخامسة تشتمل على ذكر ذم للمامى والمكروهات .
الطبقة السادسة تشتمل على ذكر الموت والقيامة والنار والجنان .
الطبقة السابعة تشتمل على وعظ أرباب الولايات .
الطبقة الثامنة تشتمل على التعازى عن الأموات .
الطبقة التاسعة تشتمل على مواعظ ومختصرات .
فأما أبحار المجالس فعلى آيات مُطلقات .
وقد جمع هذا الكتاب من فنون التخيرات المنتخبات ما ينفى البتدى ولا يستغنى
عنه المنتهى . والله الموفق للخيرات .

وها أنا أذكر عدد المجالس فى كل طبقة من الطبقات ، وما محتوى عليه من الآيات ،
ليتخير المتكلم ما يتكلم به مما يليق بالآوقات .
الطبقة الأولى فيها أربعة وثلاثون مجلساً : الأول صدره فى ذكر آدم ، وعجزه
« التائبون العابدون » .

الثانى صدره قصة هابيل وقايل وعجزه : « وسارعوا إلى مفارقة من ربكم » .
الثالث صدره ذكر إدريس وعجزه : « قل انظروا ماذا فى السماوات » .
الرابع صدره قصة نوح . وعجزه : « يومَ نَحْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا »
الخامس صدره قصة عاد . وعجزه : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا مَّا يَسْلُ الظَّالِمُونَ » .
السادس صدره قصة نمرود وعجزه : « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادَى لِلنَّاسِ » .
السابع صدره قصة الخليل صلوات الله عليه ، وعجزه : « قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا
على إبراهيم » .

الثامن صدره قصة بناء الكعبة وعجزه : « فِى بُيُوتِ الَّذِينَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ » .
التاسع صدره قصة الذبيح ، وعجزه : « لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ »
العاشر صدره قصة لوط . وعجزه : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَتُصَّوْا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » .

الحادى عشر صدره قصة ذى القرنين . وعجزه : « فهل يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ » .
الثانى عشر صدره قصة يوسف صلى الله على محمد وعليه . وعجزه : « وَقَفَى رَبُّكَ إِلَّا
تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » .

الثالث عشر صدره قصة أيوب صلى الله على محمد وعليه وعجزه : « إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ
بِمَا صَبَرُوا » .

الرابع عشر صدره قصة شبيب صلى الله على محمد وعليه . وعجزه : « كَلَّا إِذَا
بَلَغْتَ التَّرَاقِي » .

الخامس عشر صدره قصة موسى صلى الله على محمد وعليه . وعجزه : « إِنَّ الْأَبْرَارَ
لَنَفِي نَعِيمٍ » .

السادس عشر صدره قصة الخضر . وعجزه : « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ » .

السابع عشر صدره قصة فارون . وعجزه : « ذَرِّمُوا يَٰكُلُوا وَيَشْتَبُوا » .

الثامن عشر صدره قصة بلعام وعجزه : « فَاعْتَبِرُوا يَٰأُولِيَ الْأَبْصَارِ » .

التاسع عشر صدره قصة داود . وعجزه : « أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » .

العشرون صدره قصة سليمان . وعجزه : « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ » .

الحادى والعشرون صدره قصة : بلقيس وعجزه « لَا أَقْسَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

الثانى والعشرون صدره قصة سبأ وعجزه : « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ » .

الثالث والعشرون صدره قصة يونس . وعجزه : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ مِائِينَ

الرابع والعشرون صدره قصة زكريا وعجزه : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا » .

الخامس والعشرون صدره قصة مريم وعيسى . وعجزه : « وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا » .

السادس والعشرون صدره قصة أهل الكهف وعجزه : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » .

السابع والعشرون صدره فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعجزه : « إِنَّمَا لِلْمُؤْمِنِينَ

الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »

الثامن والمشرون صدره فضائل أبي بكر الصديق رضى الله عنه وعجزه : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » .

التاسع والمشرون صدره فضائل عمر رضى الله عنه وعجزه : « وجوه يومئذ ناعمة لسميها راضية » .

الثلاثون صدره فضائل عثمان رضى الله عنه وعجزه : « والله يدعو إلى دار السلام »
الحادى والثلاثون صدره فضائل علي رضى الله عنه وعجزه : « إن الأبرار يشربون من كأس » .

الثانى والثلاثون صدره فضائل عائشة رضى الله عنها وعجزه : « والذي تولى يكبره منهم » .

الثالث والثلاثون صدره فضائل الصعابة رضى الله عنهم وعجزه : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » .

الرابع والثلاثون صدره فضائل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعجزه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

الطبقة الثانية فيها أحد عشر مجلساً :

الأول صدره في ذكر عاشوراء والحرم وعجزه : « ولا تقتلوا النفس » .

الثانى صدره في ذكر رجب وعجزه : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً » .

الثالث صدره في ذكر القراج وعجزه : « سبطان الذى أسرى بعده ليلاً » .

الرابع صدره فضائل شعبان وعجزه : « أم حبيب الذين اجترحوا السيئات » .

الخامس صدره فضائل ليلة النصف من شعبان وعجزه : « حم والكتاب اللين » .

السادس صدره فضائل رمضان وعجزه : « كتب عليكم الصيام » .

السابع صدره لاتصاف رمضان وعجزه : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .

الثامن صدره ذكر العشر وليلة القدر وعجزه : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .
التاسع صدره في ذكر عيد الفطر وعجزه : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

العاشر صدره فضل عشر ذي الحجة وعجزه : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِي
الْحَاضِي عشر صدره ذكر يوم عرفة وعجزه : « وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ » .
الطبقة الثالثة فيها ثلاثة مجالس :

الأول صدره ذكر خلق ابن آدم وعجزه : « ثُمَّ إِنَّمَا بَعَدَ ذَلِكَ لَنِيْتُونَ » .
الثاني صدره في ذكر خلق السموات وعجزه : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ » .
الثالث صدره في ذكر الأرض ومجائبها وعجزه : « فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ
وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » .

الطبقة الرابعة فيها ثمانية وعشرون مجلسا :

الأول صدره في فضل العلم وعجزه : « فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا » .
الثاني صدره في ذكر الطهارة وعجزه : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » .
الثالث صدره في ذكر الصلوات وعجزه : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مَزَاةٌ الْحَسَنَى » .
الرابع صدره في ذكر الزكاة وعجزه : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ » .
الخامس صدره في ذكر الصيام وعجزه : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَّمَ مَا تُوَسُّوْنَ
بِهِ نَفْسُهُ » .

السادس صدره في ذكر الحج وعجزه : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ » .
السابع صدره في حق الأخوة والصداقة وعجزه : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ
قِيَامًا وَقُعُودًا » .

الثامن صدره في ذكر المزة وعجزه : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » .

التاسع صدره في الأمر بالمعروف وعجزه : « فإذا نُفِخَ في الصورِ » .
 العاشر صدره في ذكر التوبة وعجزه : الأخلَاء يومئذٍ بعضهم لبعض
 عدوٌ إلا المتقين » .

الحادى عشر صدره في ذكر الصبر وعجزه : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ
 مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ » .

الثانى عشر صدره في ذكر الشُّكْر وعجزه : « إِنَّ الدِّينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » .
 الثالث عشر صدره في ذكر الخوف وعجزه : « وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » .
 الرابع عشر صدره في النية والإخلاص وعجزه : « أَوْ لَمْ نَمُتْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ
 وَجَاءَكُمْ اللَّذِيرُ » .

الخامس عشر صدره في اليقين وعجزه : « وَالصَّافَاتِ صَفَا » .
 السادس عشر صدره في الزُّهْد وعجزه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ » .
 السابع عشر صدره في فضل الفقر الفقراء وعجزه : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجَنِّ
 يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ » .

الثامن عشر صدره في محاسبة النفس وعجزه : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ » .
 العشرون صدره في التقوى والمراقبة وعجزه : « يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى
 الرَّحْمَنِ وَفْدًا » .

الحادى والعشرون صدره في ذكر الورع وعجزه : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ »
 الثانى والعشرون صدره في ذكر القلب ، وعجزه : « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ
 السَّمَاءُ بَنَاهَا » .

الثالث والعشرون صدره في ذكر التفكُّر ، وعجزه : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » .
 الرابع والعشرون صدره في ذكر التوكل وعجزه : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى
 الْأَرْضَ خَاشِعَةً » .

الخامس والعشرون صدره في ذكر الحبة وعجزه : « من يرتد منكم عن دينه » .
 السادس والعشرون صدره في الرضا وعجزه : « والطور وكتاب مسطور » .
 السابع والعشرون صدره في فعل المعروف وعجزه : « وما قدروا الله حق قدره »
 الثامن والعشرون صدره في الدعاء وعجزه : « إذا وقعت الواقعة » .

الطبقة الخامسة تشتمل على ذم المامى والكروهات فيها أحد عشر مجلداً :
 الأول صدره في ذم الغيبة ومعامى اللسان . وعجزه : « فوربك لنعجزنهم والشياطين »
 الثانى صدره كسر شهوة النفس وعجزه : « لا تأكلوا الرِّبا » .
 الثالث صدره في ذكر شهوة الفرج وعجزه : « وللك على أرجائها » .
 الرابع : صدره في ذم الحسد وعجزه : « إذا الشمس كورت » .
 الخامس صدره في ذم القضب وعجزه : « إن يوم الفصل كان ميقاتاً » .
 السادس صدره في ذم الكبر وعجزه : « وكذلك أخذ ربك » .
 السابع صدره في ذم الدنيا . وعجزه : « اعلوا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو » .
 الثامن صدره في ذم البخل وعجزه : « الذين يؤفون بعهده الله » .
 التاسع صدره في ذم الأمل وعجزه : « اقتربت الساعة » .
 العاشر صدره في ذكر مكائد الشيطان وعجزه : « كلاب لا تكرمون البنين » .
 الحادى عشر في التحذير من الغرور وعجزه : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا » .

الطبقة السادسة تشتمل على ذكر الموت والقبر والقيامة والنار والجنان فيها
 خمس مجاليس :
 الأول صدره في ذكر الموت وعجزه : « قل إنَّ اللوت الذى تفترون منه
 فإنه مَلَأَ نَحْسُكُمْ » .
 الثانى صدره في ذكر القبر ، وعجزه : « حتى إذا جاء أحدهم الموتُ قال
 ربِّ ارجعنى » .

- الثالث صدره في ذكر القيامة وعجزه : « ويسألونك عن الجبال » .
- الرابع صدره في ذكر الجنة وعجزه : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ » .
- الخامس صدره في ذكر جهنم وعجزه : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا » .
- الطبقة السابعة : فيها مجلسان :
- الأول لوعظ السلطان .
- الثاني لتذكير أرباب الولايات .
- الطبقة الثامنة فيها مجلسان : الأول والثاني في التنازلي .
- الطبقة التاسعة فيها مواعظ مختصرات . وذلك تمام المائة .
- والله للشكور والحمد على كل حال .

الطَّبِيقَةُ الْأُولَى
فِيهَا أَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ مَجْلَسًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأول في ذكر^(١) آدم عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذي سبّر^(٢) بقدرته الفلك والفلك ، ودبّر بصنمته النور والخلق ، اختار آدم لحسده الشيطان وغبطه الملك ، واقتضوا^(٣) بالتسبيح والتقديس فأما إبليس فهلك^(٤) « قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » تعالى عن وزير ، ونزّه عن نظير ، قَبِلَ من خلقه اليسير ، وأعطى من رزقه الكثير ، أنشأ السحاب الغزير يحمل الماء الغدير ليم عباده بالغدير ويُمِير ، فكما قصر القَطَر في الوقع صاح الرعد بصوت الأمير ، وكلا أغلقت مسالك النيث لاح البرق يوضح وينير ، فقامت الورق على الورق تصدح بالمدح^(٥) على جنات الفدير ، فالجناد ينطق بلسان حاله ، والنبات يشكلم بحركاته وبأشكاله ، والكل إلى التوحيد يُشير ، ليس كئله شيء وهو السميع البصير .

أحمده وهو بالحمد جدير وأقر بأنه مالك التصوير والتصيير .

وأصل على محمد رسوله البشير النذير ، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق وعلى عمر ذى القُدَل العزير^(٦) ، وعلى عثمان بجهز جيش العسرة في الزمان العسير ، وعلى علي المخصوص بالوالة يوم الفدير ، وعلى عه العباس المستحق به الماء الغدير ، [جد سيدنا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أدام الله أيامه لإدامة رَضْوَى وثبير^(٧)] .

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وألهمنا القيام بحقوقك وبارك لنا في الحلال من رزقك ، وعُدّ علينا في كل حال برّ فلك ، واشغنى بما أقول والحاضرين من خَلْقِكَ برحمتك يا أرحم الراحمين .

(١) : في ذم آدم . وهو تحريف . (٢) : ج : سير . (٣) : ١ : فافتخر .
(٤) : ج : فيها هلك . (٥) : ١ : تصدح وتمدح . (٦) : الزبير : الناصر المؤيد .
(٧) : ليست في ١ .

قال الله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة ^(١) » .

« إذ » كلمةٌ جُمِلَتْ لما مضى من الأوقات ، فكأنه قال اذكر ذلك الوقت .

والملائكة واحد مَلَك والأصل مَلَأَك وأنشد سيبويه :

فلست يأنسى ولكن للملأك تنزل من جوار السماء يصب ^(٢)

ومعنى مَلَأَك : صاحبُ رسالة . يقال مَأَلَكَة ومَلَأَكَة ^(٣) .

واختلف العلماء ما المقصود بإعلام الملائكة بخلق آدم عليه السلام على تسعة أقوال :

أحدها : أنه أراد إظهار كبر إبليس ، وكان ذلك قد خفي على الملائكة لما يرون من

تعبده . رواه الضعاف ، عن ابن عباس .

والثاني : ليُبلِ طاعةً للملائكة . قاله الحسن .

والثالث : أنه لما خلق الله تعالى النارَ جزيعةً للملائكة ، فقال : هذه لمن عصافى

فقالوا : أو يأتي علينا زمان نمصيك فيه ؟ فأخبرهم بخلق غيرهم . قاله ابن زيد .

والرابع : أنه أراد إظهار تجزيم ما يقوله لأنهم قاسوا على حالٍ من كان قبل آدم .

والخامس : أن الملائكة التي طردت الجن ^(٤) من الأرض قبل آدم أقاموا في الأرض

يمعدون ، فأخبرهم أنى جاعلٌ في الأرض خليفة ليوطنوا ^(٥) أنفسهم على العزل .

والسادس : أنهم ظنوا أن الله لا يخلق خلقاً أكرمَ منهم ، فأخبرهم بما يخلق .

والسابع : أنه أعلمهم بما سيكون ليعلموا علمه بالحداثات .

والثامن : أنه أراد تعظيم آدم بذكره قبل وجوده .

والتاسع : أنه أعلمهم أنه خلقه ليُسكنه الأرض وإن كان ابتداء خلقه في السماء .

والخليفة : القائم مقام غيره . يقال : خلف الخليفةُ خلافةً وخليفٌ ^(٦) ، وعلى وزن

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ . (٢) الكتاب ٧/٣٧٩ ط الأمية . (٣) الكتاب :

« وقالوا مَأَلَكَة ومَلَأَكَة ولأعيرد رسالة » ٧/٣٧٩ . (٤) ١ : التي طردت المفسدين

(٥) ١ : ليوطنوا . (٦) ١ : يقال : خلف خليفه خلافةً وخلفاً .

ذلك أحرف منها : خَطْبِي من الخطبة ، وَرِدِّي من الردِّ ، ودَلِيلِي من الدلالة ، وَحِجْبِي من حِجْرَتِي ، وَهَزْبِي من هزمتُ .

قال أبو بكر ابن الأنباري : والأصل في الخليفة : خليف فدخلت الهاء للبالغة في مدحه بهذا الوصف كما قالوا علامة ونسابة وراوية .

وفي معنى خلافته قولان : أحدهما : خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه . روى عن ابن عباس ومجاهد .

والثاني : أنه خلف من كان في الأرض قبله . روى عن ابن عباس .

قوله تعالى : « أَتَجْمَلُ فِيهَا مِنْ يُفْسِدُ فِيهَا » الألف للاستفهام وفيها ثلاثة أقوال : أحدها أنه استفهام إنكار ، والتقدير : كيف تفعل هذا ، وهو لا يليق بالحكمة . وروى يحيى بن كثير عن أبيه قال : كان الذين قالوا هذا عشرة آلاف من الملائكة فأرسلت عليهم ناراً فأحرقتهم .

والثاني : أنه استفهام إيجاب ، تقديره : ستجعل كما قال جرير :

• أَلَسَمَ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا • ، قاله أبو عبيدة .

والثالث أنه استفهام استسلام .

ثم في مرادهم أربعة أقوال : أحدها أنهم استسلموا وجه الحكمة في جعل من يُفسد .

والثاني : أنهم استسلموا معصية المستخلفين فكأنهم قالوا : كيف يصونك وقد استخلفتهم ، وإنما ينبغي أن يسبّحوا كما نسبّح نحن .

والثالث : أنهم تعجبوا من استخلاف من يفسد .

والرابع : أنهم استفهموا عن حال أنفسهم ، فتقدير الكلام : أتجعل فيها من يفسد ونحن نسبّح أم لا . ذكره ابن الأنباري .

وللرّاد بالقصاد العمل بالمعاصي ، وسَفَكَ الدَّم : صبّه وإراقته . وشَدَّدَ السَّيْنَ أَبُو نُهَيْك .
وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « يَسْفُكُ » بضم الفاء .

والتنبيه: التنزيه لله من كل سوء . والتفديس : التطهير . والمعنى : نزهك ونظمك .
قوله تعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » أى أنه سيكون من ذريته أنبياء وصالحون .
وأما خلق آدم فأخبرنا هبة الله الشيباني قال : أخبرنا الحسن بن علي التميمي ، قال :
أخبرنا أحمد بن جعفر ، قال أخبرنا عبد الله بن أحمد ، قال : حدثني أبي ، قال حدثني
محمد بن جعفر ، عن عوف الأعرابي ، عن قسامة بن زهير عن أبي موسى ، عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ،
فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ،
والخفيف والطيب والسهل والحزن ، وبين ذلك » .

واختلف العلماء فيمن جاء بالطين الذي خلق منه آدم ، على قولين : أحدهما : أنه
إبليس . قاله ابن عباس وابن مسعود . والثاني : ملك الموت قال السدي عن
أشياخه : بعث الله ملك الموت فجاء بالطين فَبَلَّ ثم ترك أربعين سنة حتى أتته ثم
نَفَخ فيه الروح .

حدثنا عبد الله بن محمد القاضي ويحيى ابن علي اللدي ، قال أخبرنا أحمد بن يحيى الثوري ،
قال أخبرنا ابن حَبَّابة ، قال حدثنا البغوي ، قال حدثنا هُذَيْبَة ، قال حدثنا حماد بن سلمة
عن ثابت ، عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما نَفَخ في آدم الروح
مارت فطارت فصارَتْ في رأسه فطس فقال الحمد لله . فقال له الله تعالى : رحمتك الله .

قال العلماء : خُلِق آدم يوم الجمعة وكان طوله ستون ذراعاً وعرضه سبعة أذرع .
وفي تسميته آدم قولان : أحدهما لأنه خُلِق من أديم الأرض . قاله سعيد بن جبيرة .
وأديم الأرض وجهها .

والثاني : أنه مأخوذ من الأدمة وهي سُمرَة اللون . قاله الضحاك .

قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » والصحيح أن هذا على إطلاقه فإن قوما قالوا :
علمه أسماء الملائكة .

قوله تعالى : « ثم عَرَضَهُمْ » يعنى السَّمِيَّات فقال للملائكة : « أنبئوني » أى أخبروني بأسماء هؤلاء .

وفى قوله : « إن كنتم صادقين » ثلاثة أقوال : أحدها : إن كنتم صادقين أن بى آدم يفسدون ويسفكون الدماء . قاله الشدى عن أشياخه .

والثانى : إن كنتم صادقين أنى لا أخلق أعلم منكم وأفضل . قاله الحسن .
والثالث : أن المراد إبليس ، لأنه قال : إن فضلت عليه لأهلكه فالتقدير إن كنت صادقاً أنك تفعل ذلك فأنبئنى بأسماء هؤلاء .

« فلما أنبأهم بأسمائهم » أقرت للملائكة بالسجود « قالوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا » فقال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم . قال الله تعالى : « ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض » أى ما غاب فيها « وأعلم ما تُبدون » من الطاعة « وما كنتم تكتمون » من أن الله لا يخلق أفضل منكم ، وقيل : ما كنتم إبليس من الكبر .
ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس .

أنبأنا محمد بن عمر الأرموى ، قال أنبأنا أبو الحسين محمد بن على المهندي ، قال أنبأنا ابن شاهين ، قال أنبأنا عبد الله بن سليمان ، قال حدثنا هارون بن زيد ابن الزرقاء ، قال حدثنا ضمرة بن ربيعة ، عن قادم بن مسور ، قال : قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم أول من سجد له إسرافيل فأنابه الله عز وجل أن كتب القرآن فى جبهته .

قوله تعالى « اسكن أنت وزوجك الجنة » زوجه حواء خلقت من ضلعه وهو فى الجنة . والرعد : الرزق الواسع . وفى الشجرة المنهى عنها خمسة أقوال : الأول الحنطة . والثانى الكبر . روى ابن عباس . والثالث التين قاله عطاء وقتادة . والرابع شجرة الكافور روى عن على عليه السلام ^(١) . والخامس النخلة ، قاله أبو مالك .

قوله تعالى : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا » أى حَلَمَها على الزَّلَل ، وقرأ الأعمش
فَأَزَلَّها أى عن الجنة ، قال السدى : دخل الشيطان فى فم الحية فكلمهما . وقال الحسن :
نادىهما من باب الجنة .

فإن قيل : إن كان آدم نعمة فعميته كبيرة والكبائر^(١) لا تجوز على الأنبياء
وإن كان نسي فالتسيان معفو عنه .

فالجواب : أن العلماء اختلفوا ، فقال بعضهم : فَعَلَ ذلك عن نسيان والأنبياء
مطالبون بحقيقة التيقظ ونمويده التحفظ أكثر من غيرهم ، والنسيان ينشأ من الذهول
عن مراعاة الأمر ، فكانت المؤاخذه على سبب النسيان .

وقال بعضهم : تَمَدَّد [الأكل^(٢)] لكنه أكل متأولا وفى تأويله^(٣) قولان :
أحدهما أنه تأول الكراهة^(٤) دون التحريم . والثانى : أنه نَهَى عن شجرة فأكل من
جنسها فلما أن المراد عين تلك الشجرة .

قوله تعالى : « قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا » قال ابن عباس : أهبط آدم وحواء
وإبليس والحية . أما آدم فأهبط على جبل بالهند يقال له « واسم » وحواء بمجدة والحية
بنصيبين ، وإبليس بالأبلة^(٥) وكان مكث آدم فى الجنة نصف يوم من أيام الآخرة .
وهو خمسمائة سنة . وأنزل معه الحجر الأسود وعصا موسى ، وكانت من آس الجنة
فأمره الله تعالى أن يذبح كبشا من الضأن مما أنزل الله تعالى إليه ، فذبحه ثم جَزَّ صوفه ،
فنزله حواء ، فنسج لنفسه جبَّة ولحواء دِرْعًا وخمارا ، وعلمَّ الزراعة فزرع فنبت فى الحال
فحصد وأكل ولم يزل فى البكاء .

قال وهب بن منبه : سجد آدم على جبل بالهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه فى
وادی سَرْدَرِيب فأُنْبِتَ الله تعالى فى ذلك الوادى من دموعه الدارصينى والقرنفل ،

(١) ب : والكبيرة . (٢) ليست و ا . (٣) ا : وفى تأوله . (٤) ا : الكراهية .
(٥) ا : بالأبلة .

وجعل طير ذلك الوادى الطواويس ثم جاءه جبريل عليه السلام فقال : ارفع رأسك فقد عُفِرَ لك ، فرفع رأسه ، ثم أتى الكعبة فطاف أسبوعا ، فساأته حتى خاض في دموعه ^(١) .

وأما الكلمات التى تلقاها آدم فى قوله تعالى : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَنْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ^(٢) .

قال العلماء : التقي آدم وحواء بعرفات فتعارفا ثم رجعا إلى الهند فآخذا مغازة بأويان فيها وولدت حواء لآدم أربعين ولدا فى عشرين بطنا ، وبعرفات مسح الله ظهر آدم فخرج جميع ذريته فشرهم بين يديه ، فرأى فيهم رجلا فأنجبه ^(٣) فقال : من هذا ؟ قال : داود . قال : كم عمره ؟ قال : ستون سنة . قال : فزده من عمرى أربعين . فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : ما فعلت . فأنتم الله عز وجل لآدم ألف سنة وأكل لداود مائة .

وهذا الجحد إنما ينسب إلى النسيان .

ومرض آدم أحد عشر يوما وجاءته الملائكة بالكفان والحنوط فقبض يوم الجمعة [وصلى عليه] ^(٤) .

وفى حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة لما صلت على آدم كبرت عليه أربعا ^(٥) .

وقال ابن عباس : مات [آدم] ^(٦) على نود وهو الجبل الذى أهبط عليه فصل عليه شيت وكبر ثلاثين تكبيرة .

(١) ومن أين لوجه بن منه هذا العلم الذى لاشاهد عليه ولا دليل ! لقد كان السلف ينساعون فى رواية مثل هذه الأساطير ولينهم لم ينموا ! - (٢) سورة الأعراف ٢٣ . (٣) ١ : أنجبته (٤) ليستق ١ . (٥) ١ : ان الملائكة صلت على آدم وكبرت عليه أربعا (٤) من ١ .

ولما ركب نوح السفينة حمل آدم ودفعه بيت المقدس ، ولم يمت حتى بلغ ولده
وولد ولده أربعين ألفا .
وقال عروة : لما مات آدم وضع عند باب الكعبة وصلى عليه جبريل ، ودفنته
لللائكة في مسجد الخيف [والله أعلم ^(١)] .

فصل

وقد حذرت قصة آدم من الذنوب وخوفت عواقبها ، وكان بعض السلف يقول :
غُرِّت السفينة ونحن نيام ! آدم لم يُسَمَّحْ بَلْعَمَةٍ ولا داود بنظرة ، ونحن على
ما نحن فيه !

الكلام على البسملة

يا ناظرًا يَرَوْنِي بِعَيْنِي راقِدٍ ومُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرِ مُشَاهِدٍ
مَنِيَّتْ نَفْسُكَ ظُلْمَةً وَأَبْجَحَتْهَا طَرَّقَ الرَّجَاءُ وَهِيَ غَيْرِ قَوَاصِدٍ
تَصِلُ الذُّنُوبُ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْجِي دَرَجَ الْجَفَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ ^(٢)
وَنَسِيتُ أَنْ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمَ مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

روى الضحاك عن ابن عباس قال : بينما آدم يبكي إذ جاءه جبريل عليهما ^(٣) السلام ،
فسلم عليه فبكى آدم فبكى جبريل لبكائه وقال : يا آدم ما هذا البكاء ؟ فقال ^(٤) :
يا جبريل وكيف لا أبكي وقد حوّلني ربّي من السماء إلى الأرض ومن دار النعمة إلى
دار البؤس . فانطلق جبريل بمقاتته فقال الله تعالى : يا جبريل انطلق إليه وقل له : يا آدم
يقول لك ربك : ألم أخلقك بيدي ؟ ألم أنفخ فيك من روحي ؟ ألم أسجد لك
ملائكتي ؟ ألم أسكنك جنّتي ؟ ألم أسرك فصيتني ؟ وعزّي وجلال لو أن ملء
الأرض رجالا مثلك ثم عصّوني لأنزلتهم منازل العاصين غير أنه يا آدم سبقت رحمتي
غضبي ، وقد سمعت تضرعك ورحمت بكاءك وأقلت عثرتك .

(١) من أ . (٢) ج : بها يفوز العابد . (٣) ١ : عليه السلام . (٤) ١ : قال .

طَوَىٰ لِمَنْ قَرَنَ ذَنْبِهِ بِالْإِعْتِزَارِ ، وَتَلَاوَاهُ بِاسْتِغْفَارِهِ آتَاهُ اللَّيْلُ [وَأَطْرَافُ ^(١)]
النَّهَارِ ، وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ أَحْكَمَ عَقْدَ الْإِمْرَارِ ، أَيُّهَا الْعَامِيُّ تَفَكَّرْ فِي حَالِ أَيْيِكَ ،
وَتَذَكَّرْ مَا جَرَىٰ لَهُ وَيَكْفِيكَ ، أَبَدَ بَعْدَ الْقُرْبِ مِنْ رَبِّهِ ، وَأَهْبِطْ مِنَ الْجَنَّةِ لُثُومَ ذَنْبِهِ ،
وَأَسْرَهُ الْمَدَىٰ بِخُدَيْمَتِهِ فِي حَرْبِهِ [وَيَسْمَىٰ فِي هَلَاكِكَ فَاعْتَبِرْ بِهِ ^(٢)] فَرَحَمُ ^(٣) اللَّهُ أَمْرًا
تَأْهَبُ لِحَارِبَةِ عَدُوِّهِ فِي رَوَاحِهِ وَغَدُوِّهِ ، فَإِنَّهُ مَرَّاصِدُهُ ^(٤) فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيَحْسُنُ لَهُ
بِالْمَكْرِ وَالتَّوْبِيفِ الْأَمَلِ ^(٥) ، وَيَذَكِّرُهُ الْهَوَىٰ وَبِنَسِيهِ الْأَجَلِ ، فَيُخَلِّبُ أَحْسَنَ
الْجَنَّتَيْنِ ، فَالْزَامِي يُطْلَبُ الْغُلَلُ .

أَصْبِرْ لِمَرِّ حَوَادِثِ الدَّهْرِ	فَلْتَحْصِدَنَّ مَقَبَةَ الصَّبْرِ
وَاجْهَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَيْتَتِهَا	وَإِذْخَرْ ^(١) لِيَوْمِ تَفَاضُلِ الذَّخْرِ
فَكَأَنَّ أَهْلَكَ قَدْ دَعَاكَ ظَمْ	تَسْمَعُ وَأَنْتَ مُحْشَرَجُ الصَّدْرِ
وَكَاثِمُهُمْ قَدْ قَلْبُوكَ عَلَى	ظَهَرَ السَّرِيرِ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي
وَكَاثِمُهُمْ قَدْ زَوَّدُوكَ بِمَا	يَتَزَوَّدُ الْمَلِكِيُّ مِنَ الْعَطْرِ
يَالَيْتَ شَعْرَىٰ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا	غَسَلْتَ بِالْكَافُورِ وَالسُّدْرِ
أَوَّلَيْتَ شَعْرَىٰ كَيْفَ أَنْتَ عَلَى	نَبَشِ الضَّرِيحِ وَظُلَّةِ الْقَبْرِ
يَالَيْتَ شَعْرَىٰ مَا أَقُولُ ^(٢) إِذَا	وَضِعَ الْكِتَابَ صَبِيحَةَ الْحَشْرِ
مَا حُجِّبَتِي فِيمَا أُتَيْتُ عَلَى	عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَمَا عَنَرِي
يَا سَوْأَنَا عَمَّا اكْتَسَبْتُ وَيَا	أَسْفَىٰ عَلَى مَا فَاتَ مِنْ عَمْرِي
أَلَا أَكُونُ عَقْلًا شَائِي فَاسْتَقْبَلْتُ مَا اسْتَدْبَرْتُ مِنْ أَمْرِي ^(٣)	

بِامْضِيعِ الزَّمَانِ فِيمَا يَنْقُصُ الْإِيمَانُ ، يَا مُعْرِضًا عَنِ الْأَرْبَاحِ مُتَعَرِّضًا لِلْخُسْرَانِ ،
مَتَى تَنْتَبِهْ مِنْ رَقَادِكَ أَيُّهَا الْوَسْطَانُ ، مَتَى تَفِيقَ لِنَفْسِكَ ؟ أَمَا حَقٌّ أَمَا أَنَّ ؟

(١) مَنْ ب . (٢) سَقَطَتْ مِنْ أ . (٣) أ : وَهَامُوهُ عَدُوَّهُ فِي رَوَاحِهِ وَغَدُوَّهُ .

(٤) أ : مَرَّاصِدُهُ . (٥) ب : وَيَحْسُنُ لَهُ بِالْمَكْرِ وَالتَّوْبِيفِ وَالْأَمَلِ .

(٦) أ : وَادْخُلْ . مَعْرِفَةٌ . (٧) أ : يَالَيْتَ شَعْرَىٰ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا . مَعْرِفَةٌ . (٨) سَقَطَ مِنْ أ .

رجوتَ خلوداً بعد ما مات آدم ونوح ومن بعد النبيين من قَرن
وسوّفت بالأعمال حتى تصرمتَ سينوك فلا مال ولا ولد يُنقى
فشرّ لدار أُنسلد فاز مشرّ إليها ونال الأمن في منزل الأمن
لقد شغلنا أُمّ دُفر^(١) برُخرف شغلنا به عن طاعة الله ذى المنّ
عجبتُ لِدُنْيا لا تُسرّ وإنما تشوب على تلك اللسرة بالحزن
ونحن عليها عاكفون كأنما ينابنا نيه^(٢) من فعلها حلم الجفن
إلامَ ترفض قول الناصح وقد أنكأ بأمر واضح ، أترضى بالشين والقبائح ، كأنى
بك قد نُقلت إلى بطون الصفائح وبقيت محبوساً إلى الحشر تحت تلك الضرائح ، وختم
الكتاب على آفاتٍ وقبائح .

إنّا على قلعة من هذه الدار نساق عنها^(٣) بإساءة وإبكار
ننكى وندبُ آثارَ الذين مضوا وسوف تُلحق آثارُ بآثار
طالت عمارتنا الدنيا على غرير ونحن نعلم أننا غير عمار
يا من يُحسّ بترّحال على مجلّ ليس المحلة غير الفوز من نار^(٤)
فأترك مفاخرة الدنيا وزينتها يومُ القيامة يومُ الفخر والعار
لقد أمانت الدنيا للنواظر عيوبها ، وكشفت للبصائر غيوبها ، وعددت على السامع
ذنوبها ، وما مرمت حتى أمرت مشرورها^(٥) ، فلذتها مثل لعمان بزق ، ومُصيبتها
واسعة انلرق ، [سوّت^(٦)] عواقبها بين سلطان الغرب والشرق ، وبين عبد [قن^(٧)]
وحقير ولا فرق ، فأنجما منها ذو عدد ولا سلّم فيها^(٨) صاحب عدد ، مزقت والله
الكلّ بكف البدد ثم ولّت وما ألوت على أحد .
أخبرنا أحمد بن محمد اللداوي^(٩) قال أنبأنا الحسن بن أحمد بن البنا ، قال حدثنا

(١) أم دفر : الدنيا . (٢) حكنا في ب . والنقطة كلها ساقطة من ا ، والله بالتصريك : المسألة
توجد عن غفلة . (٣) ب : نساق منها . (٤) ا : غير الفوز والنار . (٥) ب : شروها . معرفة .
وما أنيسته من ا . (٦) سقطت من ب . (٧) ب : ولا سلّم عليها . (٨) ا : بعدها بإسناده
قال حدثني أخاوي .

الحسين بن بشران ، قال حدثنا ابن صفوان ، قال : حدثنا أبو بكر القرشي ، قال : حدثني أبو علي الطائي ، قال حدثني الحارثي ، عن ليث ، أن عيسى بن مريم عليه السلام رأى الدنيا في صورة مجوز هُتَاءَ عليها من كل زينة فقال لها : كم تزوجت ؟ فقالت : لا أحصيهم . قال : أو كلهم مات عنك أو كلهم طلقك ^(١) ؟ قالت : بل كلهم قتل ^(٢) .

فقال عيسى : يؤمّا لأزواجك الباقين كيف لا يمتبرون بأزواجك الماضين !

إلّا مَنُ تفرّ بالأمل الطويل وليس إلى الإقامة من سبيل
فدع عنك التملّ بالأمانى فما بَمَدَ للشيب سوى الرحيل
أتأمن أن تدوم على الليالي وكل أفتن قبلك من خليل
وما زالت بنات الدهر تُنفى ^(٣) بنى الأيام جيلاً بعد جيل

لله حرّ أقوام تركوا الدنيا فأصابوا ، وسموا منادى « والله يدعو » فأجابوا ، وحضروا مشاهد التقي فأجابوا ، واعتذروا مع التحقيق ثم تابوا ، وقصدوا باب مولا م فارّذوا ولا خابوا .

أخبرنا ^(٤) عبد الوهاب بن المبارك ، قال حدثنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، قال : أخبرنا محمد بن علي بن الفتح ، قال أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق ، أنبأنا ابن صفوان حدثنا أبو بكر القرشي ، أخبرنا محمد بن الحسين ، قال حدثني عبد الله بن عثمان ، قال حدثني عمار بن عمرو البجلي ، قال سمعت عمر بن زر ^(٥) يقول : لما رأى المابذون الليل قد هجم عليهم ونظروا إلى أهل الغفلة قد سكنوا إلى فرشهم ورجعوا إلى ملاذهم ، قاموا إلى الله سبحانه وتعالى فَرَحِينَ مستبشرين بما قد وهب الله لهم من السهر وطول التهجد ، فاستقبلوا الليل بأبدانهم ، وبأشروا ظلمته بصفاح وجوههم ، فانقضى عنهم الليل وما انقضت لفسهم

(١) ب : قال : فكلهم طلقك أو كلهم مات عنك . (٢) ا : قالت : بل كلهم مات عني .

(٣) ا : وما زالت خطوب الأرض تنفي . (٤) ا : أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بإسناده إلى عمار ابن عمرو البجلي . (٥) ا : عمرو بن دينار .

من التلاوة ، ولا ملّت أبدانهم من طول العبادة ، فأصبح التريقان وقد ولّى الليل برنح وقَبَن ، فاعلموا لأنفسكم في هذا الليل وسواده ، فإنّ المنون من غُبن خير الدنيا والآخرة^(١) ، كم من قائم لله تعالى في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حُفَرته ، وكم من قائم قد نديم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله تعالى للعابدين غدا .

أخبرنا عمر بن ظُفر^(٢) ، قال أنبأنا جعفر بن أحد ، قال حدثنا عبد العزيز بن علي ، قال حدثنا علي بن عبد الله الصوفي ، قال حدثني علي بن العباس ، قال حدثني علي ابن سلمان ، قال : رأيت علي بن أبي طالب رضى الله عنه في النوم فسمعت يقول :

لولا الدين لم يزد يقومونا وآخرون لم سرّد يصومونا
لدكّدت أرضكم من تحتكم سحرا لأنكم قوم سوء ما تطيعونا

يا من أعماله كلها إذا تؤّملت سقطت^(٣) ، كم أثبت له عمل فلما عديم الإخلاص^(٤) سقط ، يا حاضر الدهر في الدنيا فإذا جاء الدّين خلط ، يجعل همه في الحساب فإذا صلّى اختلط ، يا ساكنا من الصواب فإذا تكلم لفظ ، يا قريب الأجل وهو يجرى من الزّلال على نبط ، يا متسكّاف الدّرن لم يُفسّل ولم يَمُط ، يا من لا يَمُطه وهنّ العظم ولا كلام الشّمط أما خطّ الشّيب يضحك في تفرّق الرأس إذا وخطّ ، أما اللّقام للرّحيل وعلى هذا شرط ، يا من لا يرعوى ولا ينتهى^(٥) بل على منهاج الخطيئة فقط ، يا مُثبّتا قبيح^(٦) للمامى لو تاب لا نكشط ، أما تميل إلى الصواب أما تترك الفلأط^(٧) ، يا من إذا قيل له : ويحك أقسط قسط^(٨) ، إلى كم جَوّر وظلم إلى كم جَهَل وشطط ، ويحك بادر هذا الزمان [الخلال^(٩)] اللّقط ، فالصّعة غنيمة والعافية لقط ، فكأنك بالوت قد سلّ سيفه عليك واخترط ، أين العزيز في الدنيا أين الفنى للفتيط ، خيم بين القبور وضرب فسطاطه

(١) : خير الليل والنهار . (٢) ب : أخبرنا مظفر . عرفة . (٣) ب : يا من أعماله
إذا تأملت كلها سقط . (٤) ب : فلما طوب بالإخلاص سقط . (٥) ب : ولا يتوى .
(٦) ا : قبح . (٧) ب : أما تؤثر إلا الفلأط . (٨) ا : يا من كلما قيل له أقسط قسط .
(٩) ليست في ا .

في الوسط ، وبات في اللحد محبوباً كالأسير للربط ، واستلبت ذخائره ففُرِّغ الصندوق والسَّقَط^(١) ، وتمزق^(٢) الجِلْدُ المستحسن وتمشط الشعر القَطَط^(٣) ، فكانه ما رجَّله قط وكأنه ما امشط ، وبُمد [عنه من يحبه إى والله وسخط^(٤)] ورضى ورائه^(٥) بما أصابوه وجعلوا نصبه السَّخَط ، وفرَّقوا^(٦) ما كان يجمعه بكف البخل والقفط ، ووقع في قَفَر لا ماء فيه ولا حَنَط^(٧) ، وكَم حَذَر من وقوعه وكَم أَوْقَف^(٨) على الثَّقَل ، وكَم حَدَث أن سعد بن مُعَاذ في القبر انفضط ، ويمك اقبل نصحي ولا تتمرَّض للسخط ، واحذر من المامى فبلقصة زلَّ آدم وهبط ، ويمك اغتَم^(٩) رخص السُّر فكان قد قحط وبادر للسلامة^(١٠) فكان قبض من بسط ، وتفكر كيف كُفَّ بالعقوبة كُفَّ من انبسط ، أترى تقبل [قول^(١١)] النذير أولا تصدِّق الفرط .

(١) السَّقَط : وعاء من جلد . (٢) ب : ومزق . (٣) تمشط : سلقط . والقَطَط : الشعر الصغير الجلد . (٤) ليست في أ . (٥) أ : ورضى ورائه . (٦) وفرَّقوا ما جمعه . (٧) ب : ولا غبط . (٨) ب : وكَم أَوْقَف . (٩) أ : واغتم . (١٠) أ : وبادروا السلامة . (١١) ليست في أ .

الكلام على قوله تعالى :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »

قد أمر الله سبحانه وتعالى بالتوبة فقال : « وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا »^(١) ووعد القبول فقال : « [وهو الذي] يقبل التوبة عن عباده »^(٢) وفتح باب الرجاء فقال : لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ^(٣) .

أخبرنا هبة الله بن محمد بن المذهب ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثني أبي ، أخبرنا يحيى بن سعيد ، حدثنا شعبة ، حدثنا عمرو بن مرة ، سمعت أبا بريدة قال : سمعت الأغر يحدث عن ابن عمر^(٤) أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة . انفراد بإخراجه مسلم .

وبالإسناد حدثنا أحمد ، حدثنا حسن بن محمد ، حدثنا محمد بن مطرف ، عن زيد ابن أسلم ، عن عبد الرحمن بن البيلماني^(٥) قال اجتمع أربعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم » . فقال الثاني : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم » . فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال وأنا سمعته يقول : « إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بصحوة » . فقال الرابع : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يفرغ بنفسه » .

(١) سورة التوبة ١١٢ . (٢) سورة النور ٣١ . (٣) سورة الشورى . (٤) سورة الزمر ٥٣ . (٥) الذي في صحيح مسلم ج ٨ ص ٧٣ ط استنبول : باب استعجاب الاستغفار والاستكثار منه : « قال سمعت الأغر ، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، يحدث ابن عمر قال : قال رسول الله (ص) الخ . (٦) ١ : ابن السني .

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل بأرض دوية لمهلكة^(١) معه راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى مكاني الذي أضللتها فيه فأموت فيه، فأني مكانه فقلبتُه عيناه، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه، فله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده^(٢).**

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: **ياداود لو يعلم الذرّيون عني كيف انتظاري لم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لما نوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبي، ياداود هذه إرادتي في المذبرين عني فكيف إرادتي بالمقيلين علي!**

إخواني: الذنوبُ تغطّي على القلوب، فإذا ظلمت امرأة القلب لم يبين فيها وجه الهدى، ومن علم ضرر الذنوب استشعر الندم.

قال أبو علي الرّوذباري رحمه الله: « من الأغترار أن نسي فيحسن إليك فتترك التوبة توهماً أنك تُسامح في المفقوات » ١.

فواحباً^(٣) لمن يأمن وكَم قد أخذ آمن من مأمن، ومن تفكر في الذنوب علم أن لذات الأوزار زالت والعامي بالعامي إلى النار آلت، ورُبَّ سَخَط قارنَ ذنباً فأوجب بُدأ وأطال عتباء، وربما بُغَت العامي بأجله ولم يَبْلُغ بعض^(٤) أمّله، وكَم خير فاته بأفاته، وكَم بليّة في طي جناياته.

قال إيمان لا بنه: يا بني لا تؤخّر التوبة فإن الموت يأتي بفتة.

فأندُ النفسَ الأملَ والهوى رائدَ الرّولن

قتلَ الجهلُ أهله ونجا كل من عقل

(١) سقطت من ١. (٢) صحيح البخاري ١٧٠/٣ كتاب الدعوات باب التوبة وصحيح مسلم ٩١/٨ من طرق متعددة. (٣) ١: يا حببا من. (٤) ١: يبيس.

فاغتم دَوَّةَ الشَّيْبَةِ واستأنف العمل
أيها اللَّبْتِيُّ الحَصُونِ وقد شابَ واكْتَهَلْ
أخبر الشَّيْبَ عَنْكَ أَنْكَ فِي آخِرِ الْأَجَلِ
فسلامَ الوقوفِ فِي عَرَصَةِ الْمَجْزِ وَالْحَكْلِ
مَنْزِلٌ لَمْ يَزَلْ يَضِيقُ وَيَنْبُو بِمَنْ نَزَلَ
أَنْتَ فِي مَنْزِلٍ إِذَا حَلَّه نَازِلٌ رَحَلَ

طوى لمن غسل دَرَنَ الذُّنُوبِ بَتَوْبَةٍ ، وَرَجَعَ عَنْ خَطَايَاهُ قَبْلَ قَوْتِ الْأَوْبَةِ ، وَبَادَرَ^(١)
المسكن قبل أن لا يمكن ، من رأيتَ مِنْ آفَاتِ دُنْيَاهُ سَلِمَ ، ومن شاهدته صَحِيحًا وَمَاسِقِمَ ،
وَأَيَّ حَيَاةٍ مَالُوتٍ لَمْ تَنْخَمِ^(٢) ، وَأَيَّ عُمُرٍ بِالسَّاعَاتِ لَمْ يَنْصَرَمِ ، إِنْ الدُّنْيَا لَتُزْوَرُ جَائِلٌ ،
وَسُرُورٌ إِلَى الشُّرُورِ آيِلٌ ، تُرْدِي مُسْتَزِيدَهَا وَتُوْذِي مُسْتَفِيدَهَا ، يَبْنَا طَالِبُهَا يَضْحَكُ أَبْكِيتهُ
وَيَفْرَحُ بِسَلَامَتِهِ أَهْلُكُنْهَ ، فَنَدِمَ عَلَى زَلَّهِ^(٣) إِذْ قَدِمَ عَلَى عَمَلِهِ ، وَبَقِيَ رَهْنٌ خَوْفُهُ وَوَجَلُهُ ،
وَوُدَّ أَنْ لَوْ زِيدَ سَاعَةٌ فِي أَجَلِهِ ، فَأَهُوَ إِلَّا أَسِيرٌ فِي حُفْرَتِهِ ، وَخَيْرٌ فِي سَفَرَتِهِ ، وَهَذِهِ
وَأِنْ كَانَتْ^(٤) صَفَةً مِنْ عَنَّا^(٥) نَأَى ، فَكَذَا نَكُونُ [لَوْ أَنَّ الْعَاقِلَ ارْتَأَى^(٦)] :

سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا سَبِيلُ مَسَافِرٍ وَلَا بُدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مَسَافِرٍ
وَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَمَلِ عُدَّةٍ وَلَا يَسِيَا إِنْ خَافَ سَطْوَةَ قَاهِرٍ
وَمُطَرِّقَ طُرُقٍ لَيْسَ تَسْلُكُ دَائِمًا وَفِيهَا عِقَابٌ بَدَدَ صَنْبِ التَّقَاطُرِ

أخبرنا المبارك بن علي ، أنبأنا علي بن محمد بن العلاف ، أنبأنا علي بن أحمد الحملي ،
حدثنا جعفر بن محمد الخلواس ، حدثني إبراهيم بن نصر ، قال حدثني إبراهيم بن بشار ، قال : كنت
يومًا مع إبراهيم بن آدم في صحراء ، إِذْ أَتَيْنَا عَلَى قَبْرِ مَسْمُومٍ ، فَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ وَبَكَي . فَقُلْتُ :
قَبْرٌ مِنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : هَذَا قَبْرُ حَمِيدِ بْنِ جَابِرٍ أَمِيرِ هَذِهِ الدَّلْنِ ، كَانَ غَرِيفًا فِي بَحَارِ هَذِهِ الدُّنْيَا ،

(١) ب : وبادر . محرقة . (٢) ا : لا تنخم . (٣) ب : إذا قدم . (٤) ا : إن كانت .
(٥) ا : من هو عنا . (٦) سقطت من ا .

ثم أخرجه الله منها ، لقد بلغني أنه سرَّ ذات يوم بشيء من ملاهي دنياه ثم قام من مجلسه [ونام] ^(١) مع من يخصه ^(٢) من أهله ، فرأى رجلا واقفا على رأسه بيده كتاب ، فنأوله إياه ^(٣) [فقرأه] ^(٤) فإذا فيه : تَوَاتَرُونَ فَأَنِيَا عَلَى بَاقٍ ^(٥) ، وَلَا تَنْتَرِ بِلَيْكِكَ وَسُلْطَانِكَ وَعَيْبِكَ وَوَلَدِكَ ، فَإِنَّ الْقَدَى أَنْتَ فِيهِ جَسِيمٌ لَوْلَا أَنَّهُ عَلِيمٌ ، وَهُوَ مُلْكٌ لَوْلَا أَنْ بَعْدَهُ هُلْكٌ ، وَهُوَ فَرَحٌ وَسُرُورٌ لَوْلَا أَنَّهُ لَهْوٌ وَغُرُورٌ ، وَهُوَ يَوْمٌ لَوْ كَانَ يَوْمُكَ فِيهِ بَنْدٌ ، فَسَارِعْ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَقُولُ : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » .

فانتبه فزعا [مرعوبا] ^(٦) وقال : هذا تنبيهٌ من الله عز وجل وموعظة . فخرج من ^(٧) ملكه لا يتمُّ به أحد وقصد هذا الجليل فتعبد فيه ، فلما بلغني أمره قصدته فسالته فحدثني بيده أمره وحدثته بيده أمرى فارتأت أقصده حتى مات ، وهذا قبره رحمه الله تعالى ^(٨) .

أخبرنا أبو بكر الصوفي ، أنبأنا أبو سعيد بن أبي صادق ، أنبأنا ابن باكوية ، حدثنا عمر بن محمد الأزدي يتي ، حدثنا علي بن محمد القرشي ، حدثنا علي بن الوفي ، قال حدثنا منصور بن عمار قال : خرجت ليلة وظننت أنني قد أصبحت وإذا على ليل ، فقدمت عند باب صغير ، وإذا بصوت شاب ^(٩) يبكي ويقول : وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ، وقد عصيتك حين عصيتك وما أنا بتكالك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرض ولا بنظرك مستخف ، ولكن سؤلتني نفسي وغلبت علي ^(١٠) شقوتي ، وغرني سترك للرخصي علي ، والآن ^(١١) فين عذابك من ينقذي ، ويحبلى من اتصل إن قطعت حبلك عني ، واسألتاه من تصرم أياي في معصية ربى ، ياويلي ! كم أتوب وكم أعود ، قدحان لي ^(١٢) [أن أستحي من ربى .

(١) سقطت من أ . (٢) ب : مع من حضره . (٣) ب : فتأوله .
(٤) سقطت من أ . (٥) ب : لا تواترون فإن علي ياتي . (٦) سقطت من ب . (٧) ب : عن ملكه .
(٨) راحة الله عليه . (٩) بصوت شاب يبكي . (١٠) ب : وغلبتني شقوتي . (١١) ب : فالآن من عذابك من يستغنى . (١٢) من ب .

قال منصور : فلما سمعتُ كلامه قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْأَجْنَاةُ ^(١) » الآية . فسمعت صوتاً واضطراباً شديداً ومضيتُ لحاجتي ، فلما أصبحت رجعت ، وإذا جنازة ^(٢) موضوعة على ذلك الباب ، ومحموز تذهب وتجيء فقلت لها : من هذا الليت ^(٣) منك ؟ فقالت : إليك عني لا تجدد عليّ أحزاني . قلت إني رجل غريب ، قالت هذا ولدي ، مرّ بنا ^(٤) البارحة رجل لا جزاء الله خيراً قرأ آية فيها ذكر النار ، فلم يزل ابني يبكي ويضطرب حتى مات .

قال منصور : هكذا والله صفة الخائفين يا بن عمار .



يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية ، يا أسير المعاصي ابك على الذنوب الماضية ، يا مبارزاً بالقبائح أتصبر على المأوية ؟ يا ناسياً ذنوبه والصُّعْفَ للنُفْسِ حاوية ، أسفاً لك إذا جاءك الموت وما أنتبت ، واحسرة لك إذا دُعيت إلى التوبة فما أجبت كيف تصنع إذا نودى بالرحيل وما تأقبت ، ألت الذي بارزت بالكبائر وما راقبت :

قد مضى في اللهو عُمرى	وتناهى فيه أُمُرى
تَمَرَّ الأَكْيَاسُ وأنا	واقفٌ قد شيبَ أُمُرى ^(٥)
بانَ رِيحُ النَّاسِ دُونِي	ولحيتُ بانَ حُمرى
ليتني أَقْبَلَ وعطيتُ	ليتني أَتَمَمَّعَ زَجُرى
كلَّ يَوْمٍ أنا رَهَقٌ	بَيْنَ آتَمَائِي وَوَزَرِي
ليت شِعْرى هل أرى لى	هِمَّةً فى فَكِّ أَسْرى
أو أرى فى ثوبٍ صِدْقٍ ^(٦)	قبل أن أنزلَ قَبْرِى

(١) سورة التهم ٦ . (٢) ب : فإذا أنا بجنازة . (٣) من ب : من الليت ؟ (٤) ا : مر بى .
(٥) ب : شهر الأكياس أُمُرى * والفريط قد شلت فكرى
ولعلها عرفة . (٦) ب : أو أرى توبة صدق .

وَنَجَّ قَلْبِي مِنْ تَنَاسٍ ۖ مُقَامِي يَوْمَ حَشَرِي
وَاشْتَغَالِي عَنْ خَطَايَا أَتَقَلَّتْ وَاللَّهِ ظَهْرِي ^(١)

كان لبعض العصاة أم تعظه ولا ينتفى ^(٢)؛ فر يوماً بالمقابر فرأى عظماً تحيراً، فنه
فانفت في يده [فانفت نفسه ^(٣)] فقال لنفسه: أنا غداً هكذا! فزم على التوبة فرفع رأسه
إلى السماء وقال: يا إلهي اقبلي وارحمي ^(٤). ثم رجع إلى أمه حزينا فقال: يا أماه
ما يصنع بالآبى ^(٥) إذا أخذه سيده؟ فقالت: يدلّ قدميه ويديه ويخشن ثلبسه ومعلمه. قال:
يا أماه أريد جبة من صوف وأقراصا من شعير وافعلي بي ما يفعل بالبعد الآبى من مولاه،
لعل مولاي يرى ذلى فيرحمني. ففعلت به ما طلب. فكان إذا جنّ عليه الليل أخذ في
البكاء والمويل، فقالت له أمه ليلة: يا بنى ارفق بنفسك. فقال: يا أماه إن لي موثقاً
طويلاً بين يدي ربّ جليل، فلا أدري أيؤمر بي إلى ظلمٍ ظليل أو إلى شرٍّ متّيل، إني
أخاف عتلاً راحة بعده [أبدأ] ^(٦)، وتوبيخاً لا عفو معه. قالت: فاسترح قليلاً.
فقال: الراحة أطلبُ يا أماه، كأنك باخلاتني غداً يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار!
فمرت به ليلة في نهجده هذه الآية: «قَوِّدَكَ لَنَسَكَلْتَهُمْ أَجْمِينَ، عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ» ^(٧) ففكر فيها وبكى واضطرب وغشي عليه فجعلت أمه تناديه ولا يجيبها فقالت
له: قرّة عيني أين التلّقي؟ فقال بصوتٍ ضئيف: إن لم تجدني في حرّة القيامة فلي مالكا
عني! ثم شفق شهقة فأت. رحمه الله. فخرجت أمه تنادى: أيها الناس هلموا إلى
الصلاة على قبيل النار! فلم يرَ أكثرُ جماعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم.
هذه والله علامة ^(٨) الحيين وأمارات الصادقين وصفات الحزوين.

مَأْتُمُ الَّذِينَ مَا تَنْقُضِي آخِرَ الدَّهْرِ أَوْ يَحْلُوا الْأَحْوَادُ

(١) سقط من: ١. (٢) ب: ولا ينتهى. (٣) من ب. (٤) ب: أقلّ مني والليل نوبتي.
(٥) ما قبل بالبدا الآبى. (٦) ليستوف. (٧) سورة الحجر ٩٢، ٩٣. (٨) ماش: ١: علامات.

وَحَقِيقٌ أَنْ^(١) يَنْوَحُوا وَيَبْكُوا قَدْ عَصَوْا مَا جَدَّاءَ رَمَوْفًا وَدُودًا
 كُلُّ شَيْءٍ أَحْزَانُهَا لِنَفْسٍ وَلَنَا الْحَزْنُ قَدْ نَرَاهُ جَدِيدًا
 كَيْفَ تَقْنَى أَحْزَانُ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ مِرَارًا وَخَانَ مِنْهُ الْعُيُودُ^(٢)
 وَنَحْنُ نَفْسِي مَا أَقُولُ إِذَا مَا أَحْضَرَ اللَّهُ رُسُلَهُ لِي شُهُودًا
 ثُمَّ قَالَ اقْرَأْ مَاذَا عَلِمْتَ وَجَاوِزْ مَا كَانَ مِنْكَ فِيهِ الْخُيُودُ
 ثُمَّ نَحْنِي لِمَا اسْتَقَرَّتْ مِنْ أَلْطَفِ قِيَامِ وَبَارَزَتْ قِيَامِ وَكُنْتُ شَهِيدًا
 أَيَا كَثِيرِ الشَّقَاةِ ، يَا قَلِيلِ الرَّفَاقِ ، يَا مَرِيرَ اللَّذَاقِ ، [يَا قَبِيحَ الْأَخْلَاقِ^(٣)] يَا عَظِيمِ
 التَّوَانِي قَدْ سَارَ الرَّفَاقُ ، يَا شَدِيدَ التَّمَادِي قَدْ صَعِبَ اللَّعَاقُ ، يَا خِلَاصَكَ مُعْذَمٌ^(٤) وَمَا لِلنَّفَاقِ
 نَفَاقٌ ، يَا مَعَاصِيكَ فِي إِحْدَاكَ وَالْعَمْرُ فِي إِنْشَاقِ^(٥) ، وَسَاغِي الْأَجَلِ مُجَدِّدُ كَأَنَّهُ فِي سَبَاقِ ،
 لَا الْوَعْدُ يَزْجُرُكَ ، وَلَا الْمَوْتُ يَنْذُرُكَ ، مَا تَطَاقُ .

سَمِيعُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

«الْمُتَسَمِّحُونَ بِالْعَاصِيُونَ»

سَبْعَانُ مِنْ وَفَقِ [لِلتَّوْبَةِ]^(١) أَقْوَامًا ، ثَبَّتْ لَهُمْ عَلَى صِرَاطِهَا أَقْدَامًا ، كَفَرُوا الْأَكْفَ
 عَنْ الْحَارِمِ احْتِرَامًا ، وَأَتَمَّبُوا فِي اسْتِدْرَاكِ الْفَارِطِ عِظَامًا ، فَكَفَرُوا عَنْهُمْ ذُنُوبًا وَأَنَامًا^(٢) ،
 وَنَشَرُوا [بِالْتَّنَاءِ^(٣)] عَلَى مَا عَمِلُوا أَعْلَامًا ، فَهَمُّ عَلَى رِيَاضِ اللَّذَائِعِ بِتَرْكِ الْقَبَاحِ يَقْتَضِبُونَ ،
 التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ .

كَشَفَ لَهُمْ سُجُوفَ الدُّنْيَا فَرَأَوْا عِيُوبَهَا ، [وَأَلَاحَ لَهُمُ الْآخِرَى فَتَلَوَّحُوا غُيُوبَهَا ، وَبَادَرُوا
 شَمْسَ الْحَيَاةِ بِمَخَافَتِ غُيُوبِهَا^(٤)] وَأَسْبَلُوا مِنْ دُمُوعِ الْأَجْفَانِ عَلَى تِلْكَ الْأَشْجَانِ غُرُوبَهَا ،
 وَاشْتَقَلُّوا بِالطَّاعَاتِ لِحَصُولِ مَرْغُوبِهَا ، وَحَثَّمُوا الْإِيمَانُ عَلَى الْخُوفِ فَلَا يَأْمَنُونَ ،
 التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ .

(١) ب : بَأَن . (٢) ١ : كَيْفَ يَفَارِقُ الْأَحْزَانُ مِنْ عَاهَدَ اللَّهَ مِرَارًا وَخَانَ الْعُيُودُ
 وَلِيهِ تَحْرِيفٌ . (٣) لَيْسَتْ فِي ب . (٤) ب : لِخِلَاصِكَ مَفْهُومٌ . (٥) ب : مَعَاصِيكَ
 فِي إِزْدِيَادِ وَالْعَمْرُ فِي الْخِلَاقِ . (٦) مِنْ : ب . (٧) ب : ذُنُوبًا كَانَتْ عِظَامًا . (٨) سَقَطَ مِنْ أ .

ندِموا على الذنوب فذُوبوا^(١)، وسافروا إلى المَطْلُوب فاعْتَرَبُوا، وَسَقَوْا غَرْسًا
اخْطُوفَ دَمْعَ^(٢) الْأَسَفِ وَشَرَّيُوا، فإِذَا أَقْلَقْتُمْ الْحَدْرَ طَاشُوا وَهَرَبُوا، وَإِذَا هَبَّ عَلَيْهِمُ
نَسِيمُ الرِّجَاءِ عَاشُوا وَطَرَبُوا، فَتَأَمَّلْ أَرْبَابَهُمْ وَتَلَمَّحْ^(٣) مَا كَسَبُوا، وَاعْلَمْ أَنَّ نَيْلَ النَّصِيبِ
بِالنَّصَبِ يَكُونُ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ.

نظروا إلى الدنيا بيمين الاعتبار، فعملوا أنها لاتصلح للقرار، وتأملوا أساسها فإذا
هو على شَفَا جُرْفٍ هَارٍ، فَفَنَفَسُوا^(٤) بِالصَّيَامِ لَذَّةَ الْهَوَى بِالنَّهَارِ، وَبِالْأَسْحَارِ يَسْتَفْتِرُونَ،
التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ.

هَرَبُوا لِلنَّازِلِ الْأَنِيَّةِ، وَفَصَدُوا عُرَى الْهَوَى الْوُثِيَّةِ، وَبَاعُوا الثَّقَانِي الْبَاقِي وَكَتَبُوا
وُثِيَّةً، وَحَلُّوا بِجَانِبِ الصَّبْرِ فَوْقَ مَا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ، وَطَلَبُوا الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ،
هَكَذَا يَكُونُ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ.

أَبْدَانَهُمْ قَلَقَى مِنَ الْجُوعِ وَالضَّرَرِ، وَأَجْفَانَهُمْ قَدْ حَالَقَتْ فِي اللَّيْلِ السَّهَرِ، وَدَمَوْعُهُمْ
تَجْرِي كَالْيَحْيَى دَائِمَةً لِلطَّرِ، وَالْقَوْمُ قَدْ تَأَهَّبُوا فَهَمُّ عَلَى أَقْدَامِ السَّفَرِ، عَمِلُوا عَلَيْكُمْ وَمَرَّوْا
لَدَيْكُمْ وَمَا عَنْدَكُمْ خَيْرٌ، وَتَرَعَمَتْ حُدَاتُهُمْ لَوْ أَنَّكُمْ تَسْمَعُونَ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ.

يَا رَبِّ سِرِّبْنَا فِي سَرِّبِ النَّجَابَةِ، وَوَقِّنَا لِلتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَافْضَحْ لِأَدْعِيَّتِنَا أَبْوَابَ
الْإِجَابَةِ، يَا مَنْ إِذَا سَأَلَ لِلضُّطَرِّ أَجَابَهُ، يَا مَنْ يَقُولُ لَشَيْءٍ كُنْ فَيَكُونُ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ.

(١) ب : ذُوبُوا . (٢) ب : دَمْع . (٣) ب وتأمل ما اكتسبوا .

(٤) ب : فَنَفَسُوا .

المجلس الثاني

في قصة قاييل وهابيل

الحمد لله الذي نصب من كل كان على وحدانيته برهانا ، وتشرف على خلقه كاشاء عزاً وسلطاناً [وتشرف في خليقته كاشاء عزاً وسلطاناً^(١)] واختار التقين فوهب لهم [بنعمته^(٢)] أمناً وإيماناً ، عمّ المذنبين برحمته عفواً وغفراناً ، ولم يقطع أرزاق أهل المصيبة جوداً وامتناناً ، وأعاد شؤم الحسد على الحاسد لأنه ارتكب عدواناً ، « وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ يَاتِلْتُمْ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا^(٣) » .

روح أهل الإخلاص بنسب قربة ، وحذر يوم القصاص بحسم كربة ، وحفظ السالك نحو رضا في سربة ، وأكرم المؤمن به إذ كتب الإيمان في قلبه ، حكم في بريته فأمر ونهى ، وأقام بمعونه ما ضف ووهى ، وأيقظ بموعظته من غفل وسها ، ودعا للذنب إلى توبة لغفران ذنبه .

أرسل قتيلاً ودبوراً ، فأنثر زرعاً لم يكن منشوراً ، وجعل الشمس سراجاً والقمر نورا ، بين شرقه وغربه .

رد^(٤) عيون العقول عن صفته وأغشاها ، وأنذر بيوم محاسبته من يخشاها ، وخلق لأدم حواء « فَلَمَّا تَشَاوَاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ^(٥) » .

ليس بحسم فيشبه الأجسام ، ولا بمتجوف فيحتاج إلى الشراب والطعام ، ولا تحدث له صفة فيطرق^(٦) عليها انعدام ، نصفه بالنقل من غير كَيْفٍ والسلام ، وإمن الله ألهي والشبه .

أحدّه حدّ عبده لربه معتذر إليه من ذنبه ، وأقرّ ببيوعه إقراراً تخلص من قلبه ، وأصلى على رسوله محمد وآله وصحبه ، أبي بكر الصديق ضجيمه في تربيه ، وعمر الذي لا يسير

(١) ليست في ١ . (٢) سورة الأئمة ٢٧ . (٣) ١ : ورد . (٤) ١ : يطرز .

الشیطان فی سرّیه ؛ وعثمان الشہید لا فی صف حرّیه ، وعلى علیّ معینہ ومفینہ فی کربّہ ،
وعمّہ العباس للقدّم علی اہلہ وحزبہ^(١) .
[اللهم أصلح کلاً منا یا صلح قلبہ وأنمّ علیہ بفقران ذنبہ ، وانفعنی وکلّ حاضر
مجسده ولّبہ^(٢)] .

قال الله تعالى : « وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا^(٣) » .
ولدت حمّاء لآدم أربعین ولدا^(٤) ، وكانت لا تلد إلا نواماً ذكراً وأنثى ، وأول
الأولاد^(٥) قابيل وتوامته قلیا ، وجاء هابیل وتوامته لہودا .
وقابيل وهابيل هما المراد بقوله تعالى : « ابْنَيْ آدَمَ » .
وقد حکى ابن إسحق أنها حملت بقابيل فی الجنة . وفيہ بُمدّ .
و « النّبأ » : الخبر . ومضى قوله « بالحق » : أى كما کان . والقربان : فُتلان من
القرب ، قربان لاسبب^(٦) .

روى الشدى عن أشياخہ أن آدم علیہ السلام کان یزوّج غلامَ هذا البطن جاریة
البطن الآخر ، وجاریة هذا البطن غلامَ ذلک^(٧) البطن . وكانت أخت قابيل أحسن
من أخت هابيل ، فطلب هابيل أن ینسکح أخت قابيل ، فأبى علیہ ، فقرّبا قرباناً
لیتقبّل من أحقهما بالستحسنة .

قرب هابيلُ جدّة سمیة ، وقرب قابيلُ حُزمة سُبُل ، فنزلت النار فأكلت
قربانَ هابيل ، وترك قُربان قابيل ، فنضب وقال : لأحتلّک .
وقوله : « لَنْ بَسَطَ » اللام لام القسم ، تقدیره : أقسم أنّ بسطت . وجوابہ :

(١) لى ب زيادة : « جد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين الواجبة طاعته في شرق العالم وغربه » .
وقد ألزمت « ب » بهذه الزيادة في كل باب . ونحن نهملها دائماً . فلعلها مقصدة . (٢) من ا .
(٣) سورة المائدة ٢٧ . (٤) هامش ب : بطننا . (٥) ب : وأولاً ولادہ . (٦) ب : بسبب .
(٧) ب : ذاك .

« مَا أَنَا بِبَاطِلٍ » وللفى : مَا أَتَصِيرُ لِنَفْسِي « إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ » أَنْ أَبْطِلَ يَدِي لِلْقَتْلِ ^(١) .

« إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَأْمِي وَإِيْمِكَ » أى ترجع يَأْم قَتْلِي وَإِيْمَكَ الَّذِي مَنَعَ مِنْ قَبُولِ قُرْبَانِكَ . وللفى : إِنَّمَا أُرِيدُ هَذَا إِنْ قَتَلْتَنِي .

« فَطَلَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ » أى زَيَّيْنَتْ لَهُ قَتْلَهُ . وفى كيفية قَتْلِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ رَمَاهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى قَتَلَهُ . رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : جَاءَهُ وَهُوَ نَائِمٌ فَضْرَبَ رَأْسَهُ بِصَخْرَةٍ ، رَوَاهُ مُجَاهِدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّالِثُ : رَضَخَ رَأْسَهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ .

وفى مَوْضِعٍ سَرَّعَهُ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا جَبَلُ تَوْرٍ ^(٢) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : عِنْدَ عَقْبَةِ حِرَاءٍ . حَكَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ . وَالثَّالِثُ : بِالْبَصْرَةِ . قَالَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَأَصْبَحَ مِنَ الْغَلَّابِينَ » أى صَارَ مِنْهُمْ ، وَخَسِرَاهُ بِمَعْنِيهِ ^(٣) رَبَّهُ وَيَسْخَاطُ وَالِدِيهِ ، وَمَصِيرُهُ إِلَى النَّارِ .

وَرَوَى مُجَاهِدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ لَمَّا قَتَلَهُ حَمَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ مِائَةَ سَنَةٍ فَلَمَّا مَشَى تَخَطَّ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ ، وَإِذَا قَدْ وَضَعَهُ إِلَى جَنْبِهِ ، إِلَى أَنْ رَأَى غَرَابِينَ اقْتَتَلَا فَقَتَلَ أَحَدَهُمَا الْآخَرَ ، ثُمَّ بَحَثَ الْأَرْضَ فَوَارَاهُ ، فَقَالَ حِينَئِذٍ : « يَتَوَبَّلَتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ » فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ عَلَى تَحْمَلِهِ لَا عَلَى قَتْلِهِ !

وَكَانَ عَمْرُ هَابِيلَ حِينَئِذٍ عَشْرِينَ سَنَةً وَعُمَرُ قَابِيلَ خَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً . فَلَمَّا قَتَلَهُ هَرَبَ إِلَى الْيَمِينِ .

وَحَزَنَ آدَمُ عَلَى هَابِيلَ فَكَثَرَ مِائَةَ سَنَةٍ لَا يَضْحَكُ ! وَقَالَ :

تَفَسَّرَتِ الْبِلَادُ وَمِنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مَغْبِرٌ قَبِيحُ
تَفَسَّرَ كُلُّ ذِي طَلَمٍ وَلَوْ نِ وَقَلَّ بِشَاشَةِ الْوَجْهِ الْمَلِيحُ

(١) : إِنْ أَبْطَلْتُ يَدِي لِلْقَتْلِ . (٢) : نُوْدُ . (٣) : ب : بِمَجِيئِهِ بِمَعْنِيهِ رَبَّهُ .

وأوصى آدم بنى هابيل الأبا بنكحوا بنى قابيل ، وشاعت المعامى فى أولاد قابيل ،
وم الذين غرقوا فى زمن نوح ، وانقرض جميع نسل بنى آدم سوى نسل شيث ، وكان
شيث وصى آدم ، وأنزل الله عليه حسين صحيفة . وأقام بمكة بمحج ويمتصر ، وبني السكمة
بالحجارة والعين ، فلما احتضر أوصى إلى ابنه أنوش ، وأنوش أول من غرس النخل ،
وعاش تسعمائة سنة وخمس سنين ، وولد له قينان ، فأوصى إليه أنوش ، وولد
لقينان مهلايل فأوصى إليه ، وولد لمهلايل رد^(١) فأوصى إليه ، وولد ليرد إدريس
عليه السلام .

وفى زمن يرد عُبِدَت الأصنام .

وسبب ذلك ما أنبأنا به عبد الوهاب بن المبارك ، أنبأنا الحسين بن عبد الجبار ،
أنبأنا أبو جعفر بن المُلَّة ، أنبأنا محمد بن مهران الشَّيرَازِيّ ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد
الجوهري ، حدثنا الحسن بن خليل القتيبيّ ، حدثنا أبو الحسن علي بن الصباح ، أنبأنا
هشام بن محمد بن السائب ، قال أخبرني أبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس رضى الله
عنهما ، قال : كان بنو شيث يأتون جسد آدم وهو فى مفارقة فيعظمونه^(٢) ، فقال رجل
من بنى قابيل : يا بنى قابيل إن لبنى شيث ذوّاراً يدورون حوله ويعظمونه وليس
لكم شيء ، فنعت^(٣) لهم صنأ .

وأخبرني أبي قال : كان ودّ وسوّاع وبنوث وبنوق ونسرقوما صالحين ، فأتوا
فى شهر ، فخرج عليهم ذوو أقاربهم ، فقال رجل من بنى قابيل : هل لكم بأقوم أن
أعمل لكم خسة أصنام على صورهم ؟ [قالوا : نعم . فنعت لهم خسة أصنام على
صورهم^(٤)] فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه ، فيعظمه ويسمى حوله حتى ذهب
ذلك القرن ، وجاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول ، ثم جاء القرن
الثالث ، فقالوا : ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم ، فبدوهم وعظموا
أمرهم ، واشتد كفرهم ، فبمث الله عز وجل إليهم إدريس ، فدعاهم ، فلم يزل أمرهم

(١) : يزيد . (٢) ب : يعظمونه . (٣) : أ : لعت . (٤) : سقطت من ب .

يشند حتى أرسل الله تعالى نوحاً وجاء الطوفان .

فأما قابيل فإنه عذب بعد قتله أخاه .

فروى ابن جرير عن مجاهد قال : علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى نخلها من يومئذ إلى يوم القيامة ، ووجهه في الشمس حينما دارت دارت عليه ، عليه في الصيف حصيرة من نار وفي الشتاء حصيرة من ثلج .

قال مجاهد : وقال عبد الله بن عمرو : إنا لنعدّ أن ابن آدم القاتل يقايم أهل النار العذاب قسمة صحيحة ، عليه شطر عذابهم .

ويشهد لهذا القول ما أخبرنا به هبة الله بن محمد بسنده عن مسروق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سنّ القتل » .

أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين .

وروى أهل السير أن إبليس أتى قابيل فقال له : إنما تُبَيِّلُ قريبان أخيك لأنه كان يبعد النار . فبني بيت نار وعيها واتخذ أولاده للزماير والطبول والمنازف .

وقوله تعالى : « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ » قال أبو الفتح النحوي : يقال قتل ذلك من أجلك بفتح الهمزة ، ومن أجلك بكسرهما ، ومن إجلالك^(١) ، ومن جَلَّكَ ومن جرَّكَ .

ومعنى گتينا : فرضنا . « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِشَيْرِ نَفْسِ » أي قتلها ظلماً ولم تقتل نفساً ، « أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ » أي وبغير فساد تصحق به القتل ، « فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا » لأن الناس كلهم من شخص ، فيُتَصَوَّرُ من القول أن يأتي بمنزل ما أتى به آدم . « وَمَنْ أَحْيَاهَا » أي استنقذها من هلكة .

(١) ب : ومن إجلالك .

وقد حُدِّثت^(١) هذه القصة من الحسد ، فإنه أحوَجُ^(٢) قايِلٌ إلى القتل ، كما أخرج
إبليس إلى الكفر .

والقتلُ أمرٌ عظيم ، ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة
في الدماء^(٣) » .

أخبرنا أبو الحصين ، أنبأنا ابن للذهب ، حدثني أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله
ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا أبو النضر ، قال : أنبأنا إسحاق بن مسعود ، عن أبيه ،
عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لن يزال المرء في فُحَةٍ من دينه ما لم
يصب دماً حراماً » .

انفرد بإخراجه البخاري^(٤) .

وبالإسناد قال أحمد : حدثنا جعفر ، حدثنا شُعْبَةُ ، قال سمعت يحمي المخبر يحدث
عن سالم بن أبي الجعد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : « تَكَلَّفْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا يَحْمِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْذًا قَاتَلَهُ
يَمِينُهُ أَوْ شِمَالُهُ ، أَوْ دَاجِهِ تَشْخَبُ دَمًا فِي قَبْلِ الْعَرْشِ يَقُولُ : يَا رَبِّ سَلِّ عَبْدَكَ
فِيهِ^(٥) قَتَلَنِي » !

أخبرنا علي بن عبد الله أنبأنا ابن النُّقُور ، أنبأنا أبو حفص الكِتَّانِي ، حدثنا
البَقَوِي ، حدثنا محمد بن عباد المَكِّي ، حدثنا حاتم - يعني ابن إسماعيل - عن بشير يعني
ابن مهاجر ، عن ابن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَتَقْتُلُ
لِلْؤْمَنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ تَمَالِي مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا » .

وفي حديث آخر : « من أعان على قتل امرئ مسلم ولو بشطر كَلَةٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ : آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » .

(١) ب : وقد جرت . (٢) ب : فإنه أخرج . (٣) أخرجه البخاري في كتاب الديان
٢٤٦/٢ . (٤) البخاري ج ٣ ص ٢٤٦ « كتاب الديان » (٥) ب : فبا .

فإن قيل ما معنى شعر^(١) كلمة ؟ فالجواب : أن يقول « أئن » كما قال عليه السلام :
« كنى بالسيف شأ » بى شاعدا .
فالخذر [الخذر]^(٢) من الذنوب فى الجلة ، وأشدّها ما يتعلّق بالخلق ، وأعظمها
القتل ، والخطايا كلها قبيحة ، والدّين النصيحة .

الكلام على البسملة

استغفر اللولى فقد ذهب^(٣) شيم^(٤) الملوك وربنا اللك
لم يجمعهم مما أئم^(٥) ما جمعوا قدما وما ملّكوا
لم ينفع الثّرين^(٦) ما جمعوا منها ولا الطّاعين ما سفكوا
قلّ فرح الصّلاء^(٧) إذ صلّوا وليندم الثّقاك^(٨) إذ فسكوا
ميّزت جومهم حياتهم وأنام^(٩) القدار فالتبّكوا
إن الملوك إذا هم احتضروا ودّوا هلاك أنهم نكسوا^(١٠)
[فإذا أسائل عن لِدائق^(١١) فالأخبار تجمّع أنهم هلّكوا
وعلمت^(١٢) أين مضى الخليل فما أنا بالنّسأى أبة سلّكوا
وعجت^(١٣) من نفى إذا ضعكت^(١٤) ومن الأنام إذا هم ضعكوا
رحل الأعرّة^(١٥) عن ديارهم أهون^(١٦) بما أخذوا وما تركوا
واللّال^(١٧) بين الناس مَقَمّ^(١٨) والحقّ للأرواح مُشترك^(١٩)
ونفرتنا الدينا السيئة والآمال^(٢٠) والآجال^(٢١) تَمُوتُ^(٢٢)
ونفوسنا كعصائهم وقت^(٢٣) للصّائدين ودوتها الشّبك^(٢٤)
متبهرات فى حبائلها^(٢٥) وهى^(٢٦) جناح ضمه الشّرك^(٢٧)
لله سبعت الجواهر والأعراض^(٢٨) والأنوار والفلك^(٢٩)

(١) : بشطر . (٢) سقطت من أ . (٣) ب : شم الملوك . (٤) : اللّدين .
(٥) : الصّالحون . (٦) : الفاتكون . (٧) : أنهم نكس . (٨) : ما بين القوسين ساقط من أ .
(٩) : وهى جناح .

وتقدّس الظلماتُ خالقها والشهبُ أفرادُ ومُشَبِّكُ
خُشْمَتِ لَبَازِيهَا البَّسِيطَةُ والأَجْبَالُ^(١) والقِيَمَانُ والنَّبَكُ^(٢)
وتحدّثت عنه الطَّوَالِعُ والأَبْرَاجُ^(٣) والسَّكَّانُ^(٤) والحُرُوكُ
والحَوْتُ مَجْدُ فِي النُّجُومِ كما فِي الزَّائِرَاتِ يَمَجِّدُ السَّمَكَ
[والبَيْضَ والصُّفْرَ الفَوَاقِعُ والمُحَمَّرُ والسَّوْدُ والحَلَكُ
والطَّيْرَ والوحشَ الرَوَاتِعَ والسَّيَّحُ^(٥) والإنسَ والملكُ

أَيْنَ آيَاكَ مَرُّوا وَسَلَكُوا ، أَيْنَ أَقْرَانِكَ أَمَّا رَحَلُوا وَانصَرَفُوا ؟ أَيْنَ أَرْيَابِ
الْقُصُورِ أَمَّا أَقَامُوا فِي الْقُبُورِ وَعَكَّفُوا ، أَيْنَ الْأَحْيَابِ هَرَمَ الْحَبِيبُونَ وَصَدَّفُوا ،
فَانْقَبِ لِنَفْسِكَ فَالْتَقِطُوتُ^(١) قَدْ عَرَفُوا ، فَسَتَحْمَلُكَ الْأَهْلُ إِلَى الْقُبُورِ وَرَبِّمَا
مَرُّوا فَانْحَرَفُوا .

[نَادَتْ يَوْشَكَ رَحِيلُكَ الْأَيَّامُ أَفَأَنْتِ تَسْمَعُ أَمْ بِكَ اسْتِمَاعُ
تَأْتِي الْخَطُوبُ وَأَنْتِ مُتَبِّهٌ لَهَا فَإِذَا مَضَتْ فَكَأَنَّهَا أَحْلَامُ^(٢)]

يَا غَافِلًا مَا يَنْبَغِي ، يَا حَامِلًا مَا لَا يَطِيقُ ، أَلَسْتَ الَّذِي بَارَزْتَ بِالذَّنُوبِ مَوْلَاكَ ،
أَلَسْتَ الَّذِي عَصَيْتَهُ وَهُوَ يَرَعَاكَ ، أَسَفًا لَكَ مَا الَّذِي دَهَاكَ حَتَّى يَهْتَ هَذَاكَ هَوَاكَ ، يَالَيْتَ
مِثْلَكَ أَبْصَرْتَ ذُلَّ الْخَطَايَا قَدْ عَلَاكَ .

أَنْضَعُكَ أَيُّهَا الْعَاصِي وَمِثْلَكَ بِالْكَأْخَرَى
وَبِالْخَزْنِ الطَّوِيلِ عَلَى الَّذِي قَدَّمْتَهُ أَوْثَى
نَسِيتَ قَبِيحَ مَا أَسْلَفَ تَوَالِيهِ الرِّجْحُ لَا يَنْتَسَى
فَبَادِرْ أَيُّهَا السَّكِيمُ نَ قَبْلَ حُلُولِ مَا نَحْشَى

(١) ب : والآجام . (٢) النبك : جم نبكة ، معركة وتكن وهي أكمة عمدة الرأس ،
أو الثل الصغير ، أو أرض فيها صعود وهبوط . (٣) ب : والسكانات . (٤) ا : فالتيقطنون .
(٥) سقط من ا .

يَقْلَعُ وَإِخْلَاصٍ لِمَنْ لَمْ يَرْضَ
 كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : يَا بَنَ آدَمَ أَنْتَ فِي حَبْسٍ مِنْذُ كُنْتَ ، أَنْتَ مُحْبُوسٌ فِي
 الصُّلْبِ ، ثُمَّ فِي الْبَطْنِ ، ثُمَّ فِي الْقَمَاطِ ، ثُمَّ فِي الْمَكْتَبِ ، ثُمَّ تُصِيرُ مُحْبُوسًا فِي الْكَذِّ عَلَى
 الْعِيَالِ ، فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ الرَّاحَةَ بِمَدِّ اللَّوْثِ ، لَا تَكُونِ فِي حَبْسٍ أَيْضًا !
 وَكَانَ أَبُو حَازِمٍ يَقُولُ : اذْهَبُوا إِلَى اثْنَيْنِ ، أَضْمِنَ لَكُمْ الْجَنَّةَ : عَمَلًا بِمَا تَكْرَهُونَ
 إِذَا أَحْبَبَهُ اللَّهُ ، وَتَرَكًا لِمَا تُحِبُّونَ إِذَا ذَكَرَهُ اللَّهُ .
 وَقَالَ : انْظُرْ كُلَّ عَمَلٍ كَرِهْتَ اللَّوْثَ لِأَجْلِ فَاتْرُكْهُ وَلَا يَضُرَّكَ مَتَى مِتَّ .

يَا رَضِيعَ الْمَوْتِ وَقَدْ آتَى فَطَامَهُ ، يَا طَالِبَ الدُّنْيَا وَقَدْ حَانَ حِمَامُهُ ، أَلَا دُنْيَا خُلِقَتْ
 أَمْ بِمَحْمِلِهَا أُبْرِتْ ؟ !

أَخِي لِمَا الدُّنْيَا حَمْلَةٌ تَنْفَصِي وَدَارُ غُرُورٍ آذَنْتَ بِفِرَاقِي
 تَرَوُّدَ أَخِي مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْكُنَ الثَّرَى وَتَلْتَفَّ سَاقِي لِلْمَوَاتِ بِسَاقِي

يَا مَنْ لَا يَتَعَطَّ بِأَبْيِهِ وَلَا بِابْنِهِ ، يَا مُؤَثِّرًا لِلْقَائِي عَلَى جَوْدَةِ ذَهْنِهِ ، يَا مُتَعَوِّضًا عَنْ
 فَرْحِ سَاعَةِ بَطُولِ حَزْنِهِ ، يَا مُسْتَخَفًّا لِلْعَالِقِ لِأَجْلِ الْخَلْقِ ضَلَالًا لَا لِمَفْنَةٍ ^(١) ، أَمَا لَكَ عِبْرَةٌ فِيمَنْ
 ضُفِّضَ مَشِيدَ رُكْنِهِ ، أَمَا رَأَيْتَ رَاحِلًا عَنِ الدُّنْيَا يَوْمَ ظَعْنِهِ ^(٢) ، أَمَا تَصَرَّفْتَ فِي مَا لَهُ
 أَكْفٌ ^(٣) غَيْرُهُ مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِ ، أَمَا انْصَرَفَ الْأَحْيَابُ عَنْ قَبْرِهِ حِينَ دَفْنِهِ ، أَمَا خَلَا
 بِمَسْكَنِهِ ^(٤) فِي ضَيْقِ سَجْنِهِ ، تَنِيهِ وَاللَّهُ مِنْ وَسْئِهِ لَقَرَعَ سِنُّهُ ، وَلَقِيَ فِي وَطْنِهِ مَا لَمْ
 يَخْطُرُ ^(٥) عَلَى ظَنِّهِ ، يَا ذَاكَ مَقْتُولِ هَوَايَا خَسِرَانَ عَبْدٍ بَطْنِهِ .

يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا ادْخَرْتُ لِيَوْمِ بُؤْسِكَ وَافْتِقَارِكَ
 فَتَنْزِلُ ^(١) بِمَنْزِلِ تَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ادْخَارِكَ
 أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ بِاغْتِرَارِكَ وَمُنَاكَ فِيهِ بِانْتِظَارِكَ

(١) : لِقَتْنِهِ . (٢) : الْأَصْلُ : ضَمْنِهِ . (٣) : ب : كَف . (٤) : ب : أَمَا تَحْلِي بِمَكْتَبِهِ .
 (٥) : ١ : مَا لَمْ يَحِمْ . (٦) : ١ : وَلَقَدْ نَزَلَ مِنْزَلًا .

ونيت ما لا بد منه وكان أولى بادكارك
ولو اعتبرت بمن مضى^(١) لكفك علماً باعتبارك
لك ساعة تأتيك من ساعات ليك أو نهارك
فتصير مختصراً بها فهي من قبل احتضارك
من قبل أن تُقلى وتُهي^(٢) ثم تُخرج من ديارك
من قبل أن تتشاغل^(٣) الزوار عنك وعن مزارك^(٤)

أخبرنا عمر^(٥) بن زعفر ، أخبرنا جعفر بن أحمد ، حدثنا عبد العزيز بن علي ، أنبأنا
ابن جهم ، حدثنا أنطليدي ، حدثنا ابن مسروق ، حدثنا محمد بن الحسين ، قال : حدثني
ابن عبد الوهاب ، قال : قال رجل لداود الطائي : أوصني . فدمعت عيناه ، وقال : يا أخى إنما
الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة بعد مرحلة ، حتى ينتهى ذلك إلى آخر سفرهم ،
فإن استطعت أن تقدم كل يوم زاداً لما بين يديك فافعل ، فإن انقطاع السفر عن قريب
والأمر أهمل من ذلك ، فتزود لنفسك واقض ما أنت قاض ، فلكأنك بالأمر قد بفتك ،
إني لأقول لك هذا وما أعلم أحداً أشدّ تنصيراً مني !! ثم قام وتركه .

يا لاهياً بالنايا قد غره الأملُ وأنت عما قليل سوف ترحلُ
تبغى الحقوق بلا زاد تقدمه إن الخفين لبأ تغمروا وصلوا
لا تركنن إلى الدنيا وزخرفها فانت من عاجل الدنيا ستنتقل
أصبحت رجو غداً يأتي وبعد غدٍ وربّ ذى أملٍ قد خانه الأملُ
هذا شبابك قد ولت بشأته ما بعد شيبك لاهو ولا جدلُ
ماذا التعللُ بالدنيا وقد نشرت لأهلها صيحة في طيها عللُ

(١) : لو اعتبرت بما مضى (٢) : من قبل أن تضي وتلق . (٣) : تتأمل .
(٤) ب : عمران . عرفة . (٥) هذه القطعة في ديوان أبي العتاهية باختلاف يسير من ١٢٦ ط بيروت .

الكلام على قوله تعالى :

« وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ »

لقد دعاكم إلى البدار مولاكم ، وفتح باب الإجابة ثم استدعاكم ، ودلّكم على منافعكم وهذاكم ، فالتفتوا عن الهوى فقد آذاكم^(١) ، وحثوا حزم جزمكم ، وصبّوا ذنوب الحزن على ذنوبكم ، وسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ .

بابه مفتوح للطالبين ، وجنابه مبذول للراغبين ؛ وفضله ينادي : يا غافلين ، وإحسانه ينادي الجاهلين ، فاخرجوا من دائرة اللذنين ، وبادروا مبادرة التائبين ، وتعرضوا للتسبات الرحمة تخلّصوا من كربكم ، وسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ .

كم شغلتم^(٢) بالعامى فذهب^(٣) القرض ، وبارزتم بالخطايا ونسيتم القرض ، وأعرضتم عن النذير وهو الشر الأبيض ، وحضركم^(٤) على اكتساب حظكم فإ^(٥) نفع الحظ ، وطالت آمالك بحد أن^(٦) ذهب الشباب الفص ، ورأيت سلب القرناء ولقد أندر البعض البعض^(٧) ، ففرتوا إلى الله من سجن الهوى فقد ضاق طوله والقرض ، وسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .

روى مسلم في أفراد من حديث أنس بن مالك قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى بدر حتى سبقوا المشركين ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض .

قال : يقول^(٨) حميد بن الحسام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : نعم . قال : يخبر يخبر يا رسول الله . فقال : ما يحملك على قولك يخبر يخبر ؟ قال : لا^(٩) والله يا رسول الله لا أرجأ أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها .

(١) ب : آذاكم خاكم . (٢) ب : شغلكم . (٣) ب : وقد ذهب . (٤) ب : وحضركم .

(٥) ب : وما . (٦) ب : بعد إذ ذهب . (٧) ب : وقد أندر البعض . (٨) ب : قال : فقال .

(٩) من أ .

قال : فأخرج نمرات من قرّنه فجعل يأكلهن ثم قال : إن أنا حييت حتى آكل
نمراني هذه إنها لحياة طويلة^(١) . فرى بما كان معه من الفرم قاتل^(٢) حتى قُتل .
وقد روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أيضا في يوم أحد : قوموا إلى جنة عرضها
السماوات والأرض . فقام عمرو بن الجموح وهو أعرج فقال : والله لأخفرن بها^(٣)
في الجنة . فقاتل حتى قُتل .

قال : الواقدي : لما أراد عمرو بن الجموح الخروج إلى أحد ، منعه^(٤) بنوه ،
وقالوا : قد عذرك الله . فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن بقي يريدون
حبيسي عن الخروج معك وإني أطأ بمرجعي [هذه^(٥)] في الجنة ، فقال :
« أما أنت فقد عذرك الله » ثم قال لبيته : لا عليكم أن لا تنعموه لعل الله عز وجل
يرزقه الشهادة . نفلوا سبيله .

قالت امرأة هند بنت عمرو بن خُزام : كأي أنظر إليه موليا^(٦) ، قد أخذ دَرَقته^(٧)
وهو يقول : اللهم لا تردني إلى خربني^(٨) وهي منازل بني سلمة .

قال أبو طلحة : فنظرت إليه حين انكشف للسيلون ثم تابوا ، وهو في الرعيل
الأول ، لكأني أنظر إلى ظِلْع^(٩) في رجله وهو يقول : أنا والله مشتاق إلى الجنة !
ثم أنظر إلى ابنه خلاد^(١٠) [وهو^(١١)] يمدو [معة^(١٢)] في إثره حتى قتلا جميعا .

وفي الحديث^(١٣) أنه دفن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمر وأبو جابر في قبر واحد ،
تقرب السيلُ قبرهم^(١٤) ، فغفر عنهم^(١٥) بسدبت وأربعين سنة فوجئوا^(١٦)
لم يتغيروا^(١٧) كأنهم^(١٨) ماتوا بأَس^(١٩) .

لله دَر قوم بأدروا الأوقات ، واستدركوا المفوات ، فالعين^(٢٠) مستفولة بالدفع عن

(١) ب : إنما الحياة طويلة . (٢) ه : ثم قاتلهم . (٣) ه : بها . (٤) ب : منعه . (٥) ا :
انصد عذرك الله . (٦) من ب . (٧) ا : مليا . (٨) البرقة : الترس من جلد بلا خشب ولا عقب .
(٩) ا : إلى حربي . (١٠) الأصل : إلى ضلع . (١١) من ه . (١٢) ب : وفي حديث آخر .
(١٣) ب : قدما . عنهما - فوجدا - لم يتغيرا - فكانت مائة بالأس . (١٤) ا : مالميون .

الحرّمات ، واللّسان مجبوسٌ في سِجْنِ الصَّمْتِ عن المَلَكات ، والكفُّ^(١) قد كُفّت بالغُوفِ عن الشهوات^(٢) ، والقَدَمُ قد قُيِّدَت بقيد المحاسبات ، واللّيلُ لَدَيْهِمْ^(٣) يَحْتَارُونَ فيه بالأصوات ، فإذا جاء النهار قطعوه^(٤) بمقاطعة اللذات ، فكُم من شهوة ما بلغوها حتّى للمات ، فتَبْقُظُ لِلْحَاقِمِ من هذه الرَقَدَات ، ولا نطمئن في الإخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات ، ولا نُؤَمِّلُ النجاة وأنّ مقيم على الموبقات « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْمَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » .

عَجِبًا لَأَمْنِكَ وَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ وَبَقْدِ الْفِ لَآ تَزَالُ تَرْوَعُ^(٥)
أَقْدَرُ رَضِيَتْ بِأَنْ تُكَلِّمَ الْهَلَى وَإِلَى النَّيَةِ كُلَّ يَوْمٍ تَدْفَعُ
لَا تَحْدَعْنَكَ بَعْدَ طَوْلِ تَجَارِبِ دُنْيَا تَفْرُ بَوَصلَهَا وَتَقْطَعُ
أَحْلَامُ نَوْمٍ^(٦) أَوْ كَظَلِّ زَائِلٍ إِنْ الْيَبِيبُ بِمَثَلِهَا لَا يَحْدَعُ
وَتَزِدُّنَ يَوْمَ فَرَقِكَ دَائِبًا^(٧) أَلَيْسَ نَفْسُكَ لَا أَهْلَكَ تَجْمَعُ

لَمَّا عَلِمَ الصَّالِحُونَ قَصَرَ الْعُمْرِ ، وَحَسَمَ حَادِي « وَسَارِعُوا » طَوَّارًا مَرَاهِلَ الْيَلِ مع النهار انتباهًا للأوقات .

كان في مسجد أبي مسلم الخولاني سوطٌ يخوف به نفسه ، فإذا فَرَضَ بِهَا بالسوط . وكان مصلّي وهب بن منبّه فرائشه أربعين سنة ، وبقى أربعين^(٨) سنة يصلي الفجر بوضوء المساء !

وكان أَوْثَسُ الْقَرْنِي يقول : لأعبدن الله تعالى عبادة الملائكة . فيقطع ليلة قائما وليلة راکما وليلة ساجدا .

وكان علي بن عبد الله بن العباس يسجد كلَّ يوم ألفَ سجدة ، فسُمِّي السَّجَّاد . وكان كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ يعصب رجله بالغرق لكثرة صلاته ، فازدحم الناس على جِسرِهِ ،

(١) : ١ : والأَكْفُ . (٢) : عن الشهوات . (٣) : ب : واللّيل لَدَيْهِمْ . (٤) : ب : قطعوه .
(٥) : ١ : لا يَزَالُ يَرْوَعُ . (٦) : ب : أَحْلَامُ نَوْمٍ . (٧) : ب : لَقَدْ يَوْمُكَ دَائِبًا .
(٨) : ب : عشرين .

فَزَلْ يَصِلْ لثَلَا يَبْطُلُ^(١) .

ودخلوا على زُجْلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودَّت ، وبكت حتى حُمِيتْ ،
وَصَلَّتْ حتى أَقْمِدَتْ ، فذاكروها شيئا من العفو ، فشبهت ثم قالت : عَلِمْتُ^(٢) بنفسى
قَرَحَ فُوَادَى وَكَلَّمَ كَبْدَى ، وَاللَّهِ لَوِدِدْتُ أَنْ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقْنِي . فَقِيلَ [مَا^(٣)] :
ارْفُقْ بِنَفْسِكَ . فَقَالَتْ : إِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ [قَلَائِلُ^(٤)] تَسْرِعُ ، مِنْ^(٥) فَاتَهُ شَيْءُ الْيَوْمِ
لَمْ يَدْرِكْهُ غَدًا . ثُمَّ قَالَتْ : يَا إِخْوَتَاهُ لِأَصْلَيْنِ^(٦) اللَّهُ مَا أَقْلَفْتَنِي جَوَارِحِي ، وَلَأَسْوَمَنْ^(٧) لَهُ أَلَامٌ
حَيَاتِي ، وَلَأُبْكِيَنَّ مَا حَلَّتْ الْمَاءُ عَيْنَايَ ، أَيُّكُمْ يَحِبُّ أَنْ يَأْمُرَ عَبْدَهُ بِأَمْرِ فَيَقْعُرَ^(٨) !
فَهَذِهِ^(٩) وَاللَّهِ صِفَاتُ الْمُجْتَهِدِينَ ، وَهَذِهِ خِصَالُ^(١٠) اللَّبَادِرِينَ ، فَانْتَبِهُوا يَا غَافِلِينَ .

دَارِكٌ فَاسْمُوكِ^(١) بِالْوَاوِ وَلَا تَنْقُ بِالْمُرُ^(٢) الْفَائِي
يَأْتِي لَكَ الْيَوْمُ بِمَا تَشْتَهِي فِيهِ وَلَا يَأْتِي لَكَ الْفَائِي
وَيَأْمُلُ الْبَائِي بَقَاءَ الَّذِي^(٣) يَبْنِي وَقَدْ يُمْتَلَسُ الْبَائِي
تَصْبِيحُ فِي شَأْنٍ بِمَا تَنْقَى الْأَمَالُ وَالْأَلَامُ فِي شَأْنٍ^(٤)
فَانْظُرْ بَيْنَ الْحَقِّ مُتَبَصِّرًا إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَعِرْفَانٍ
هَلْ نَالَ مِنْ جَمْعِ أَمْوَالِهِ يَوْمًا سِوَى قَبْرِ وَأُكْفَانٍ^(٥)
أَلَيْسَ كَثْرَى بِمَدْمَا نَالَهُ زُخْرِيحٌ عَنْ قَعْرِ وَإِيْوَانٍ
[وَعَادَ فِي حُفْرَتِهِ خَالِيًا بِزُجْةٍ يَبْنِي وَدِيدَانٍ^(٦)]
كَمْ تَلْمِزُ الدُّنْيَا بِأَبْنَائِهَا تَلَاعِبُ الْخَمْرِ بِشَوَارِبِ
وَالنَّاسُ فِي صُحْبَتِهَا ضَعُكَةٌ قَدْ رَفَضُوا الْبَاقِيَ الْفَائِي
وَمَنْ نِيَامَ عَنْ مُلَائِمَاتِهَا تُبْصِرُ فِي زَى يَقْطَانِ

(١) ب : حتى لا يبطل . (٢) ١ : على بنفسى . (٣) من ب . (٤) من ب .

(٥) ب : فن . (٦) ١ : هذه . (٧) ب : خصال . (٨) ب : لما أمرك .

(٩) ب : بالمرى الثاني . (١٠) ١ : وتأمل الباقي بقاء الذي . محرفة . (١١) ب :

بصبح في شأن بما ينتقى الألام والأمال في شات

(١٢) ١ : سوى ظن وأكفان . (١٣) من ب .

سَجَّعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى :

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ »

أَيُّ فِي السَّرِّ وَالضَّرِّ

صَدَقُوا فِي الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ ، وَصَبَرُوا عَلَى نَزُولِ^(١) الْبَلَاءِ ، وَقَامُوا فِي دِيَارِ الْحَيِّ الظُّلَمَاءِ ،
يَشْكُرُونَ [عَلَى]^(٢) سَوَائِجِ النِّعَمَاءِ ، سَجَرَتْ دُمُوعُ جَفُونِهِمْ جَرِيَانِ الْمَاءِ ، فَأَرْجَحَهُمْ فِي الْعَامَلَةِ
رَبُّ السَّاءِ ، يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ .

بَذَلُوا الْمَالَ وَمَالُوا إِلَى السَّخَاءِ ، وَطَرَقُوا بَابَ الْفَضْلِ بِأَنْامِلِ الرَّجَاءِ ، وَتَلَحَّجُوا وَعَدَّ
الصَّادِقَ بِمَزِيلِ الْعَطَاءِ ، وَتَأَقَّبُوا لِلْحَضُورِ يَوْمَ الْإِقَاءِ ، وَقَدَّمُوا الْأَمْوَالَ ثَقَّةً بِالْجَزَاءِ ،
يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ .

أَنَاجَوْا بِيَابَ الْعَلِيِّ طَلَبًا لِلشَّفَاءِ ، وَصَبَرُوا رَجَاءَ الْعَافِيَةِ عَلَى شُرْبِ الدَّوَاءِ ، فَإِنْ
ابْتَلَوْا صَبَرُوا ، وَإِنْ أُعْطُوا شَكَرُوا ، فَالْأَسْرَى عَلَى السَّوَاءِ .
تَاللَّهِ لَقَدْ شَنَلْنَاهُمْ حُبًّا عَنِ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ ، وَلَقَدْ عَامَلُوهُ^(٣) يَبْتَازُ الْمَسَاكِينَ وَالْفُقَرَاءَ
[الَّذِينَ]^(٤) يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ » الْكَفَمُ : الْإِمْسَاكُ عَلَى مَا فِي النَّفْسِ .

أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ ، حَدَّثَنِي أَبِي ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ ،
حَدَّثَنِي أَبُو مَرْحُومٍ ، عَنْ ابْنِ الْحَصَنِ ، قَالَ أَنْبَأَنَا ابْنُ الْمُذَهَّبِ ، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ ، حَدَّثَنَا
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ بْنُ مَعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَنْ كَظَمَ
غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى [يَوْمَ الْقِيَامَةِ]^(٥) » عَلَى رَمُوسِ الْخِلَائِقِ
ثُمَّ يَخَيَّرُ أَيُّ الْحُورِ الْعِينِ شَاءَ^(٦) .

قَالَ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ ، عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ ، عَنْ الْحَسَنِ ، عَنْ ابْنِ عُمرَ ،

(١) ب : عَلَى نَوَالِ الْبَلَاءِ . (٢) مِنْ ب . (٣) ب : وَعَامَلُوهُ . (٤) لَيْسَتْ فِي . (٥) مِنْ ب .

(٦) ١ : مِنْ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تجرّع عبدٌ جرعةً أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى .
قوله تعالى : « وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ » .

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما زاد الله عبداً بمفواً إلا عزاً » .

وقال علي عليه السلام : إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقُدرة عليه .
وشتم رجلٌ عمر بن دَرّ فقال : لا تفرطنَّ في شتمنا ، ودعْ للصالح موضعاً ، فإننا لانكفئُ من عصى الله فينا إلا أن نطيع الله فيه . وشتم رجلٌ الشَّعْبِيَّ فجعل يقول : أنت كذا وأنت كذا ، فقال الشعبي : إن كنت صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك .

وأتى هرُب بن عبد العزيز برجل كان قد نذر إن أمكنه الله منه ليفعلن به وليفعلن . فقال له رجاء بن حيوة : قد فعل الله ما تحب من الظفر فافعل ما يحب من العفو .

وأغضب رجل لمر بن عبد العزيز ، فأطرق طويلاً ثم قال : أردت أن يستغفرني الشيطان بمر^(١) السلطان فأنا الآن منك اليوم مانئاً^(٢) منى غداً .

وقال له رجل وهو على النبر : أشهد أنك من الفاسقين . فقال : لا أجيز^(٣) شهادتك .
وقيل للفضيل بن مروان : إن فلانا يشتمك فقال : لأغيظن^(٤) من أمره ، يغفر الله لنا وله . قيل له : ومن أمره ؟ قال : الشيطان .

قوله تعالى « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ » .

الفاحشة : القبيحة ، وهى الكبائر ، والاستغفار يعوثر الذنوب^(٥) .

أسفاً لمبدئ^(٦) كلما كثرت أوزاره قل استغفاره وكلما قرب من القبور قوى

عنده القصور .

(١) : بزم . (٢) : ما تال . (٣) : لا يجيز . (٤) : لا أغضب من أمره .

(٥) : ب : الذنب . (٦) : ب : العبد .

يَا مُذْمَنَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحْيِ اللَّهَ فِي الْخُلُوةِ ثَانِيكََا

غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمَاهُا وَسَتَرَهُ طُولُ مَسَاوِيكََا

إِخْوَانِي : إِنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَارًا ، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَارًا ، وَمُضْمَنُونَ أَجْدَانًا ، وَكَاشَتُونَ رُفَاتًا وَمَبْمُوثُونَ أَفْرَادًا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مِنْ شَرِّ تَجْرِيدَا وَجَدِّ تَشْمِيرَا ؛ وَنَظَرُ فِي الْمَالِ ^(١) وَعَاقِبَةُ الْمَصِيرِ ، وَمَغْبَةُ الْمَرْجِعِ ، وَكُفَى بِالْجَنَّةِ نَوَالًا وَبِالنَّارِ نَكَالًا .

فَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا اقْتَرَفَ فَعَاتَرَفَ ، وَوَجَلَ فَعْمَلَ ، وَحَاذَرَ فَبَادَرَ ، وَعُغِّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ ، وَرَاجَعَ فَتَابَ ، وَتَزَوَّدَ لِرَحِيلِهِ وَتَأَهَّبَ لِسَبِيلِهِ ^(٢) .

فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ غَضَاظَةِ الشَّيَابِ إِلَّا الْحَرَمَ ، وَأَهْلُ بَضَاعَةِ الصَّحَّةِ إِلَّا السَّعْمَ ، وَأَهْلُ طَوْلِ الْبَقَاءِ إِلَّا مَفْاجِئَ الْفَنَاءِ ، وَاقْتِرَابَ الْقَوْتِ وَزُولَ الْمَوْتِ ، وَأَزَفَ الْإِنْتِقَالِ وَإِشْفَاءَ الزَّوَالِ ، وَحَفْزَ الْأَنْهِي ، وَعَرَقَ الْجَبِينِ وَامْتِدَادَ الْعِرْزَيْنِ ، وَعِظَمَ الْقَلْقِ وَقُبُضَ الرِّمَقِ . جَمَلْنَا اللَّهَ وَإِلَاحَكُمْ مِنْ أَفَاقِ لِنَفْسِهِ وَفَاقِ بِالتَّحْفِظِ أَبْنَاءَ حِنْفِهِ ، وَأَعَدَّ عِدَّةَ تَصْلُحَ لَزْمِهِ ، وَاسْتَدْرَكَ فِي يَوْمِهِ مَا مَضَى مِنْ ^(٣) أَمَسِهِ ، قَبْلَ ظُهُورِ الْمَجَانِبِ وَمَشِيبِ ^(٤) الذَّوَانِبِ ، وَقُدُومِ النَّائِبِ وَزَمِ الرَّاكِبِ ، إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ .

(١) ب : ونظر في كرة المؤمل . (٢) ١ : وتزود للرحلة وتأهب للفتنة . (٣) ١ : في .

(٤) ب : وحبيب .

المجلس الثالث

في ذكر إدريس عليه السلام

الحمد لله الذي لم يزل عليا عظيما عليا ، جبارا قهارا قادرا قويا ، رفع سنف السماء بصنفته فاستوى مبنيها ، وسطح المهاد بقدرته وسفاه كلا عطش ريتا ، وأخرج صنوف الثبات فكسى كل نبت زينا ، وقسم الخلاق سعيدا وشقيا ، [وقسم ^(١)] الرزق بينهم فقري فقيرا وغنيا ، والعقل فجعل [منهم ^(٢)] ذكيا وغيبيا ، ألم إدريس الاحتيا على جنته فهو يتناول من لذاتها ويلبس حليا ، « وأذكر في السكتب إدريس إنه كان صديقا نبيا » . فهو الذي جاذ على أوليائه بإسماده ، ويين لم مناهج الهدى بفضلته وإرشاده ، ورمي الخالفين [له ^(٣)] بطردته وإسماده ، وأجرى البرايا على مشيته ومراده ، وأطلع على سر المبد وقلبه وفؤاده ، وقدر صلاحه وقضى عليه بفساده ، فهو الباطن الظاهر وهو القاهر فوق عباده .

أحمد على إسماده وإبراده ، حمد معترف [له ^(٤)] بإنشائه وإيجاده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تجلو قلب قائلها من رين سواده ، [وأشهد ^(٥)] أن محمدا عبده ورسوله [المرسل ^(٦)] إلى [جميع ^(٧)] الناس في جميع ^(٨) بلاده .

صلى الله عليه وعلى أبي بكر حارس الإسلام يوم الردة عن ارتداده ، وعلى عمر الذي نطق القرآن بمراده ، وعلى عثمان مشترى سيلع السهر بتقده وقاده ، وعلى علي قانع أعدائه ومهلك أضداده ، وعلى عه المباس آخذ البيعة لئلا العقبة على مراده .

اللهم احرسنا بصينك التي لا تنام ، واحفظنا من الخطايا والآثام ، وارحمنا بنضك يا ذا الجلال والإكرام ، واقضى الحاجزين بما يحرم على لسان من الكلام برحمتك يا عظيم يا علام .

(١) من أ . (٢) من ب . (٣) من أ . (٤) من ب . (٥) ب : في كل .
(٦) (٤ - الثمرة)

قال الله تعالى : « وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا » .
إبريس اسمه أخنوخ بن يَرْد بن مِهْلِيل ابن قيدار ^(١) بن أنوش بن شِيث
ابن آدم عليه السلام .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو أولُ نبي بُعث بعد آدم ، وكان يصعد له في اليوم
من العمل مالا يصعد لبنى آدم في السنة ، فخلعه إبليس وعصاه قومه ، فرفعه الله مكاناً
علياً ، وأدخله الجنة .

قال علماء السير : ولد إدريس في حياة آدم ، وقد مضى من عمر آدم ستائة سنة
واثنتان وعشرون سنة ، وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة . فدعا قومه ووعظهم ونهاهم
الآيلاسوا ^(٢) ولد قابيل ، فغالبوه فجاهدوه وسبوا منهم واسترق ^(٣) .

وهو أول من خط بالقلم وخط الثياب ، ورفِع وهو ابن ثلاثمائة وخمس ستين سنة .
وعاش أبوه [آدم ^(٤)] بعد ارتفاعه مائة وخمسة وثلاثين سنة .

وفي المكان الذي رفع إليه ثلاثة أقوال : أحدها أنه في السماء الرابعة . وفي الصحيحين
من حديث مالك بن مَعْمُرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث للمراج أنه رأى
إدريس في السماء الرابعة . وقد روينا أن الجنة في السماء الرابعة .

والقول الثاني : أنه في السماء السادسة . رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث :
أنه في السماء السابعة . حكاه أبو سليمان الدمشقي .

وفي سبب رفعه ^(٥) إلى السماء ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كان يصعد له من العمل
مثل ما يصعد لجميع بني آدم ، فأحبّه ملك الموت ، فاستأذن الله تعالى في خُلّته : فأذن له ،
فهبط إليه في صورة آدمي ، وكان يصّعبه ، فلما عرفه قال : إني أسألك حاجة . قال : ماهي .
قال : تذيبني الموت فلملّ أعلم شدّته فأكون أشدّ له استعدادا . فأوحى الله تعالى إليه :
أن اقبض روحه ساعة ثم أرسله . ففعل . ثم قال [له ^(٦)] : كيف رأيت الموت ؟ قال :

(١) : ابن قينان . (٢) : أن لا يسبوا . عرفة . (٣) : واستغرق . (٤) : من ب .

(٥) : صوته . (٦) : من ب .

أشدَّ ما يلقى عنه ، وإني أحبُّ أن تربي النار . فغله فأراه إياها فقال : إني أحب أن تربي الجنة فأراه إياها فلما دخلها وطاف فيها قال له ملك الموت : اخرج . فقال : والله لا أخرج حتى يكون الله عز وجل يخرجني . فبعث الله عز وجل ملكا يحكم^(١) بينهما ، فقال : ما تقول : يا ملك الموت . فقص عليه ما جرى . فقال : ما تقول يا إدریس ؟ قال : إن الله تعالى يقول^(٢) : « كل نفس ذائقة الموت » وقد ذقته . وقال : « وإن يسكم إلا واريدها » وقد وردت . وقال لأهل الجنة : « وما ثم منها بمخرجين » فوالله لا أخرج حتى يكون الله يخرجني ، فسمع هاتفا من فوقه يقول : يا ذني دخل وبأسرى فعل . فغل سبيله .

وهذا معنى ما رواه زيد بن أسلم مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) .

فإن قيل : من أين لإدریس هذه الآيات ؟

فقد أجاب بعض العلماء فقال : كان الله تعالى قد أعلم إدریس وجوب الورد وامتناع الخروج من الجنة فقال ذلك .

القول الثاني : أن ملكا من الملائكة استأذن ربَّه عز وجل أن يهبط إلى إدریس ، فأذن له ، فلما عرفه إدریس قال : هل بينك وبين ملك الموت معرفة ؟ قال : ذاك أخى من الملائكة . قال : هل تستطيع أن تنفعني عند ملك الموت ؟ قال : [نعم]^(٤) [سأقول له فيك فيرتق بك . اركب بين جناحي . فركب إدریس فصعد به إلى السماء ، فلقى ملك الموت]^(٥) [فعرفه أنه يريد أن يسأله كم بقي من عمره]^(٦) فقال الملك للملك الموت : إن لي إليك حاجة . قال أعلم ما حاجتك ، تكلمني في إدریس وقد عي اسمه من الصحيفة ، ولم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ! فأت إدریس بين جناحي للملك .

(١) ب : حكيم . (٢) ب : قال . لا نستطيع الاطئنان إلى هذه الروايات التي لا يؤيدها نص صحيح وحسبنا أن نرى فيها صورة لما كان يجب لأهلدين من خيال . (٤) من : أ . (٥) ليست في أ . (٦) من : أ .

رواه مكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أن إدریس مشى يوماً في الشمس فأصابه وهجها^(١) ، فقال : اللهم خفف ثقلها عني يحملها . فأصبح الملك اللوكل بالشمس وقد وجد من خفتها ما لم يعرف . فسأل الله تعالى عن ذلك ، فقال : إن عبدي إدریس سألني أن أخفف عنك حملها فأجبتة . فقال : يارب اجمع بيني وبينه واجعل بيننا خلة . فأذن له فأناه فكان فيما قال له إدریس : اشفع لي إلى ملك الموت أن يؤخر أجلي . قال : إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، ولكن أكلمه فيك ، فما استطاع أن يفعل فعل . ثم حله الملك على جناحه فوضعه عند مطلع الشمس ، ثم أتى ملك الموت فأخبره ، فقال ليس ذلك لي ، ولكن إن أحببت أعلمته متى يموت . فنظر في ديوانه فقال : إنك كلمتني في إنسان ما أجده يموت إلا عند مطلع الشمس . قال : فإنه هناك قال : انطلق فما تجده إلا ميتاً .

روى هذا عن ابن عباس وكعب رضى الله عنهما .



وقال علماء السير : وكان إدریس قد أوصى قبل رفعه إلى ولده متوشلخ ، وكان ولداً صالحاً . وولد لمتوشلخ لملك ، وولد لذلك نوح عليه السلام .

وكان من الملوك في زمن إدریس طهمورت ملك الأقاليم كلها ، ونفى الأشرار ، وهو أول من كتب بالفارسية واتخذ الخيل والبغال والحمير والكلاب لحفظ المواشي ، واستمرت أحواله على الصلاح : ثم ملك أخوه « سيم شيد »^(٢) وتفسير جم شيد : سيد الشعاع ، سمي بذلك لأنه كان وضيئاً جميلاً ، فلك الأقاليم كلها وسار السيرة الجليلة ، وابتدع عمل^(٣) السيوف والسلاح وصنعة القز ، وجعل الناس أربع طبقات : طبقة مقاتلة ، وطبقة فقهاء ، وطبقة كتّاب وصناعا وحرّاثين ، وطبقة خدما . وعمل أربع خواتيم : خاتماً للحرب والشرط وكتب عليه : الأمانة . وخاتماً للخراج وجباية

(١) ب : وجهها . (٢) كذا بالأصل . وفي الطبري ١ / ٨٨ : جم الشيد . والشيد معناه عديم الشعاع . (٣) ب : حل السيوف .

الأموال ، وكتب عليه : العارة . وخاتماً للبريد وكتب عليه : الوحا^(١) . وخاتماً للمظالم وكتب عليه : العدل . فبقيت هذه الرسوم في ملوك القُرُوس إلى أن جاء الإسلام .

وأُزِمَ من غلبه من أهل الفساد بالأعمال الصَّمية مِن قَطْع الصَّخُور من الجبال والبناء وعمل الحمامات . وأُخرج من البحار والمادن ما ينتفع به الناس من الذهب والفضة والجواهر والأدوية . وأُحْدِثَ النُّيُورُ لجملة عيда .

ثم إنه يَطْرُقُ قَادَعِي الرُّبُوبِيَّة ، فسار إليه بيوراسب^(٢) ، وهو الضحَّاك بن الأَفْئُوب ، فظفر به فشره بنشار .

وملك الضحَّاك القُرُوسَ أَلْفَ سنة ، وكان يدين بدين البراهمة^(٣) .

وبين^(٤) إدريس ونوح [كانت] الجاهلية الأولى التي قال الله فيها : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »^(٥) .

تفكروا إخواني في أهل الفساد و [في]^(٦) أهل الصلاح ، وميزوا أهل الخسران من أرباب الأرباح ، [فياسرعان عمر يُفْنِيهِ السَّاءُ وَالصَّبَاحُ^(٧)] فتأهبوا للرحيل فيأقرب السَّراح ، وتفكروا فيمن غرَّته أفرأحُ الراح ، كيف راح عن الدنيا فارغ الراح^(٨) ، فاهلوى ليل مُظْلَم ، والفكر مصباح .

الكلام على البصحة

اسم ما أحلاه لسمي ما أعلاه ، قَرَبَ الحَبِّ وَأَذْنَاهُ ، وبلغ المؤثِّل من فَضله مُنَاهُ ، من لا ذِبْحِيَّاهُ سَمَاهُ ، ومن استعطاه أعطاه ، أنبت به قلوبُ العارفين ، وولبت من محبته

(١) الوحا : الإسراع . (٢) الأصل : بيوراسب . والتصويب من تاريخ الطبري ١ / ٨٨ ط الحسينية المصرية . (٣) ١ : الإبراهيمية . (٤) ١ : ودين إدريس ونوح كانت للجاهلية . (٥) من ١ . (٦) سورة الأعراب . (٧) سقطت من ١ . (٨) ١ : وتفكروا فيمن غره لإفراح الرواح ، كيف راح عن الدنيا فارغ المراح . محرفة .

أَفْتَدَى الشَّاتَيْنِ ، وَخَضَعَتْ لِحَبْتِهِ رِقَابُ التَّكْبِيرِينَ ، وَإِنَّمَا حَبَبُ كُلِّ قَلْبٍ حَزِينٌ ^(١)

سَاكِنٌ فِي الْقَلْبِ يَمُورُهُ لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ

وَهُوَ مَوْلَايَ ^(٢) رَضِيتُ بِهِ وَنَصِيْبِي مِنْهُ أَوْفَرُهُ

غَابَ عَنِ سَمْعِي وَعَنِ بَصَرِي فَسَوِّدَا الْقَلْبَ يُبْهِرُهُ

للهِ دَرَّ السَّنَةُ بِذِكْرِى تَجْرِى ، وَيَانْفِرُمُ وَهُمْهُمْ إِلَى بَابِى تَسْرَى وَيَا رَاحَةَ أَبْدَانِهِمْ
تَعَبْتُ بَيْنَ نَهْيٍ وَأَمْرِى ، طَالَمَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِمْ وَمِ عَلَى بَابِ شُكْرِى ، رَفَضُوا شَهْوَاتِهِمْ
فَالنَّفُوسُ فِي أَسْرِى ، قَطَعُوا جَوَادَ الْجِدِّ وَأَنْتَ فِي الْغَفْلَةِ مَا تَدْرَى ^(٣) .

[اذْكُرْ ^(٤)] اسْمُ مَنْ إِذَا أَطْلَعْتَهُ أَفَادَكَ ، وَإِذَا أَتَيْتَهُ شَاكَرَكَ زَادَكَ وَإِذَا خَدَمْتَهُ
أَصْلَحَ قَلْبَكَ وَفَوَّادَكَ .

قَالَ الشَّيْخُ : لَيْسَ لِلْأَمْرِ مِنَ الْجَوْهَرِ إِلَّا لَمَسُهُ ، وَلَيْسَ لِلْجَاهِلِ مِنَ ذِكْرِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا النُّطْقُ بِاللَّسَانِ .

ذِكْرُكَ لِي مُؤْنَسٌ يِعَارِضُنِي بِعِدْدِي عَنْكَ مِنْكَ بِالْفَقْرِ

وَكَيْفَ ^(٥) أَنْبَاكَ يَا مَدَى حَمَمِي وَأَنْتَ مِنِّي بِمَوْضِعِ النَّظَرِ

يَا مَنْ يَرْجُو الثَّوَابَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ، وَيُرْجَى التَّوْبَةُ بِطُولِ الْأَمَلِ ، أُنَقُولُ فِي الدُّنْيَا قَوْلَ
الزَّاهِدِينَ وَتَعْمَلُ فِيهَا عَمَلَ الرَّاعِبِينَ ، لَا بِقَلِيلٍ مِنْهَا تَقْنَعُ ، وَلَا بِكَثِيرٍ مِنْهَا تَشْبَعُ ، تَكْرَهُ
الْمَوْتَ لِأَجْلِ ذُنُوبِكَ وَتَقِيمُ عَلَى مَا تَكْرَهُ [الْمَوْتُ لَهُ ^(٦)] تَنْفِيكَ ^(٧) فَسُكِّ عَلَى مَا تَتَّظَنُّ
وَلَا تَغْلِبْهَا ^(٨) عَلَى مَا تَسْتَيْقِنُ ، لَا تَتَّقِ مِنَ الرِّزْقِ بِمَا ضَمَّنَ لَكَ وَلَا تَعْمَلُ مِنَ الْعَمَلِ
مَا قُرِضَ عَلَيْكَ ، تَسْتَكْتَرُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِكَ مَا تَحْقِرُهُ ^(٩) مِنْ نَفْسِكَ .

أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا كَالْحَلِيقَةِ ، لَيْنَ لَمَسُهَا ^(١٠) وَالسَّمُّ النَّافِعُ فِي جَوْفِهَا ، يَهْوِي إِلَىهَا الصَّبِيُّ

(١) ب : وَإِنَّمَا حَبَبُ كُلِّ قَلْبٍ حَزِينٌ . وَلَهَا عَرَفَةٌ . (٢) ب : وَهُوَ مَوْلَايَ . عَرَفَةٌ .

(٣) سَقَطَتْ مِنْ أ . (٤) مِنْ أ . (٥) ب : فَكَيْفَ أَنْبَاكَ . (٦) سَقَطَتْ مِنْ أ .

(٧) ب : تَقْلِبُهَا . (٨) ب : وَلَا تَغْلِبْهَا . (٩) ب : مَا تَحْقِرُهُ . (١٠) أ : سَبَّهَا .

الجاهل ويَحْذَرُهَا ذُو اللَّبِّ الْعَاقِلُ ، كَيْفَ تَقْرَأُ بِالْدُنْيَا عَيْنُ مَنْ عَرَفَهَا ، وَمَا أَبْعَدُ
أَنْ يُنْقَطَعَ عَنْهَا مِنَ الْقِيَامَةِ :

حَقِيقٌ بِالْتَوَاضُعِ مَنْ يَمُوتُ وَحَسْبُ الْمَرْءِ مِنْ دُنْيَاهُ قَوْتُ
فَمَا لِلْمَرْءِ يُصْبِحُ ذَا اهْتِمَامٍ وَحُزْنٍ لَا تَقُومُ بِهِ النُّعُوتُ
فِي هَذَا سَتَرٍ حُلٍّ عَنْ قَرِيبٍ إِلَى قَوْمٍ كَلَامُهُمُ السَّكُوتُ

أَخْبَرَنَا هَرَبْنُ ظُفَرٌ ، بَسْنَدُهُ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ زِيَادٍ قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الْمَطَّارَ
يَقُولُ : حَضَرْتُ جَنَّتِيْدَا عِنْدَ مَوْتِهِ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا ، وَكَانَ قَاعِدَا يَصِلُ وَيَنْتَنِي
رَجْلَيْهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ وَيَسْجُدَ ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى خَرَجَتْ الرُّوحُ مِنْ رَجْلَيْهِ ،
فَنَقَلَ عَلَيْهِ تَحْرِيكَهُمَا ، وَكَانَتْ رَجُلَاهُ قَدْ تَوَرَّمَتَا ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : مَا هَذَا يَا أَبَا
الْقَاسِمِ ؟ قَالَ : هَذِهِ نَمَّ اللَّهُ أَكْبَرَ . فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ
لَوْ اضْطَجَعْتَ ؟ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ هَذَا وَقْتُ يُؤْخَذُ مِنْهُ . اللَّهُ أَكْبَرُ . فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ
حَتَّى خَرَجَتْ رُوحُهُ .

طَوْبَى لِمَنْ تَنَبَّهَ مِنْ رِقَاعِهِ ، وَبَكَى عَلَى مَاضِي فُسَادِهِ وَخَرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الْمَاضِي إِلَى دَائِرَةِ
سَدَادِهِ ، عَسَاهُ يَمْحُو بِصَحِيحِ اعْتِرَافِهِ قَبِيحَ اقْتِرَافِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ فَلَا يَنْفَعُ ،
وَيَمْتَنِرُ فَلَا يُسْمَعُ :

قَدْ قَلْتُ لِلنَّفْسِ وَبَالَغْتُ وَزِدْتُ فِي الْعَثَبِ وَأَكْثَرْتُ
يَا نَفْسُ قَدْ قَصَّرْتُ مَا قَدْ كُنْتُ تَبْتَغِي قَدْ قَرُبَ الْوَقْتُ
جِدِّي عَسَى أَنْ تُذَكَّرَ بِمَا مَضَى قَدْ سَبَقَ النَّاسُ وَخَلَفْتُ
أَنَا الَّذِي قَدْ قَلْتُ دَهْرًا غَدَاً أَتُوبُ مِنْ ذَنْبِي^(١) فَمَا تُبْتُ
لَوْ كُنْتُ ذَا عَقْلٍ لِمَا حَلَّ بِي نَحْتُ عَلَى نَفْسِي مَا عِشْتُ
وَاحْشَرْنِي يَوْمَ حِسَابِي إِذَا وَقَفْتُ لِلْعَرَضِ وَحُوسِبْتُ

(١) ب : مِنْ ذُنُوبِي . عُرْفَةٌ . وَمَا أَثْبَتَهُ مِنْ أ .

وَاجْتَلَيْتُ إِنْ قِيلَ لِي قَدْ مَضَى وَقْتُكَ تَفْرِيطًا وَوَجَّهْتُ
وَلِي كِتَابًا نَاطِقًا بِالَّذِي قَدْ كُنْتُ فِي دُنْيَايَ قَدَمْتُ
تُعْمَلِي الدُّنْيَا بِأَهْوَايَا لَوْلَا شَقَاءُ الْحِطُّ مَا مِلْتُ
وَقَدْ تَحَيَّرْتُ وَلَا عُذْرَ لِي إِنْ قُلْتَ إِنِّي قَدْ تَحَيَّرْتُ

قال عيسى بن مريم عليه السلام : لا ينقظر امرؤ بتوجهه غداً ، فإن بينك وبين
غداً يوماً وليلة ، وأمر الله غداً ورائح .

بادر أيها الشاب قبل الكرم ، واغتم أيها الشيخ الصحة قبل السقم ، قيل أن يتمكن من
بدنك الألم ، ويقول لسان العتاب : ألم [أقل لك ألم ^(١)] قال نبينا صلى الله عليه وسلم :
« نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ ^(٢) » .

وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يصفر ويخضر ، وحج ثمانين حجة .
وصام منصور بن العتير أربعين سنة وقام ليها ، وكان يبكي طول الليل ، فقالت له
أمه : يا بني لذلك قتلت قتيلًا ؟ فيقول : أنا أعلم بما صنعت نفسي ^(٣) :

جَنَحْتُ شَمْسُ حَيَاتِي وَتَدَنْتُ لِلْفُرُوبِ
وَتَوَلَّى لَيْلُ رَأْسِي وَبَدَأَ غَسْرُ اللَّشِيْبِ
رَبِّ خُلِّصْنِي قَسْدًا جَنَّتْ ^(٤) فِي بَحْرِ الذَّنُوبِ
وَأَنْلِي الْمَغْوَةَ لَا أَرَى رَبًّا مِنْ كُلِّ قَرِيبِ

السلام على قومه تعالى :

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ الْأَرْضِ ^(٥) ﴾

سبحان من أظهر المجائب في مصنوعاته ، ودلَّ على عظمته بمبتدعاته ، وحثَّ
على تصفح عبده وآياته ، وأظهر قدرته في البناء والنقض ، والهييم والغنى ، ﴿ قُلْ انظُرُوا
مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ الْأَرْضِ ﴾ .

(١) سقطت من ب . (٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق . (٣) ا : بما صنعت نفسي .
(٤) في اللسان ١٧٨/٣ : لمج القوم إذا ولعوا في اللعبة . وهي معظم الماء . (٥) سورة يونس ١٠١ .

سعد من تدبر ، وسلم من تفكر ، وفاز من نظر واستعبر^(١) ، ونجا من بحر الهوى من نصبر^(٢) وهلك كل الهلاك وأدبر ، من نسي الموت مع الشعر المبيض « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » .

يا أرباب الفلة اذكروا ، يا أهل الإعراض احضروا ، يا غافلين عن النعيم اشكروا ، يا أهل الهوى خلو الهوى واصبروا ، فالدنيا قنطرة تجوزوا واعبروا ، وتأملوا هلال الهدى فإن غم عليكم فاقدروا ، فقد نادى متبادي الصلاح حتى على الفلاح ، فأستمع أهل الطول والعرض « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » .

إخواني : ليس المراد بالنظر إلى ما في السموات والأرض ملاحظته بالبصر ، وإنما هو التفكير في قدرة الصانع .

أخبرنا محمد بن عبد الله ، قال حدثنا عبد الله بن علي الدقاق ، أنبأنا أبو الحسين ابن بشران ، أنبأنا إسماعيل الصفار ، حدثنا سعدان ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعشى ، عن عمرو بن مرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن أم الدرداء رضى الله عنها أنها قالت : « تفكر لحظة خير من قيام ليلة » .

وقيل لها : ما كان أفضل عمل أبي الدرداء ؟ قالت : التفكير .

وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة .

وقال الحسن : ما زال أهل العلم يؤدون بالتفكير على التذكر ، وبالتذكر على التفكير ، ويناطقون القلوب حتى نطق ، فإذا لها أسمع وأبصار ، فنطقت بالحكمة وضربت الأمثال ، فأورث العلم .

وقال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . وقال : من لم يكن كلامه حكمة^(٣) فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو .

(١) ونبر . (٢) ب : ونجا من عن الهوى تبصر . (٣) ١ : من لم يكن علامة حكمة التفكير فهو لغو . محرفة .

وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ^(١) ﴾ قال :
أمنع قلوبهم من التفكير في أمرى .
وكان لقمان يجلس وحده ويقول : طول الوحدة أفهم للتفكير ، وطول التفكير
دليل على طريق الجنة .

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرةُ امرئ قط إلا عليم ، ولا عليم إلا عمل .
وينبأ أبو شريح العابد يمشى جلس فتفتن بكسائه وجعل يبكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟
قال : تفكرتُ في ذهاب عمرى وقلةُ عملى واقترابُ أجل !
وينبأ داود الطائى في سطح داره في ليلة قمرء تفكر في ملكوت السموات
والأرض فوقع إلى سطح جاره ، فلما أفاق قال : ما علمت بذلك ^(٢) .

واعلم أن التفكير ينقسم إلى ^(٣) قسمين : أحدهما يتعلق بالبعد . والثانى بالمعبود جل جلاله .
فالما للتعلم بالبعد : فينبغى أن يتفكر : هل هو على مصيبة أم لا ؟ فإن رأى زلةً
تداركها بالتوبة والاستغفار ثم يتفكر في نقل الأعضاء ، من المصاعب إلى الطاعات ،
فيجعل شغل العين العبرة ، وشغل اللسان الذكر ، وكذلك سائر الأعضاء .
ثم يتفكر في الطاعات ليقوم بواجبها ويحجز واهتها ، ثم يتفكر في مبادرة الأوقات
بالنوافل طلباً للأرباح ، ويتفكر في قصر العمر فينتبه حذراً أن يقول غداً : « يا حسرتنا
على ما فرطتُ في جنب الله » .

ثم يتفكر في خصال باطنه فيقيم الخصال اللذمومة ، كالكبر والعجب والبخل
والحسد ، ويقول ^(٤) الخصال الحمودة ، كالصدق والإخلاص والصبر والخوف .

وفي الجملة يتفكر في زوال الدنيا فيرفضها ، وفي بقاء الآخرة فيتممرها .
أخبرنا إسماعيل بن أبى بكر المقرئ ^(٥) ، أنبأنا عاصم بن الحسن ، أنبأنا بشران
ابن صفوان ، أخبرنا أبو بكر بن عبيد ، قال قال محمد بن الحسين ، حدثني حماد بن

(١) سورة الأعراف ١٤٦ . (٢) سقط من أ . (٣) ب : على قسمين .

(٤) ب : ويول . (٥) أ : المقرئ .

عثمان ، حدثني سعيد بن نعلبة ، قال : قال النضر بن النضر^(١) لإخوانه : زوروا الآخرة في كل يوم بقلوبكم ، وشاهدوا الموت بتوهمكم ، وتوسّدوا القبور بفكركم ، واعلموا أن ذلك كائن لا محالة ، فختار^(٢) لنفسه ما أحب من المنافع والفهم أيام حياته .

وأما التعلق بالمعبود جل جلاله فقد منع الشرع من التفكير في ذات الله عز وجل وصفاته فقال عليه السلام : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله ، فإنكم لن تقدّروا قدره » .

فلم يبق إلا النظر في الآثار التي تدل على المؤثر .
وجميع الوجودات من آثار قدرته .

وأوجب آثاره الأدنى ، فإنك إذا تفكرت في نفسك كفى ، وإذا نظرت في خلقك شقى . أليس قد فعل في قطرة [من]^(٣) ماء ما لو انقضت الأعمار في شرح حكمته ما وقّت !

كانت النقطة مغموسة في دم الحيز ، ومقياس القدرة^(٤) يشقّ السمع والبصر ، خلق منها ثلاثمائة وستين عظماً وخمسمائة وتسما وعشرين عضلة ، كل شيء من ذلك تحتها حكمة ، فالعين سبع طبقات ، وأربعة وعشرون عضلة لتحريك حذقة العين ، وأجفانها ، لو نقصت منها واحدة لاختل الأمر ، وأظهر في سواد العين على صغره صورة السماء مع اتساعها ، وخالف بين أشكال الحناجر في الأصوات ، وسخّر^(٥) المعدة لإفضاع الغذاء ، والكبد لإحالة إلى الدم ، والطحال لجذب^(٦) السوداء والمرارة لتناول الصغراء [كلها]^(٧) والمروء كأنخدم للكبد تنقذ منها الدماء إلى أطراف البدن .

فيا أيها الغافل ما عندك خبر منك ، فما تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل

(١) : أبو النضر . (٢) : فختار . (٣) : من ب . (٤) : ١ : وتأتى القدرة شق السمع والبصر . (٥) : ب : وسخن . (٦) : ب : يجذب . (٧) : من ب .

وتشيع فتنام، وتفضي فتخام، فباذا تميّزت على البهائم !

ارفع بصرَ فِكرِكَ إلى عجائب السموات ، فتلحّ الشمس في كل يوم في منزل ، فإذا انخفضت برّد الهواء وجاء الشتاء ، وإذا ارتفعت قوى الحرّ ، وإذا كانت بين اللّزولين اعتدل الزمان ، والشمسُ مثل الأرض مائةً ونيّفًا وستين مرةً وأصفر الكواكب مثل الأرض ثمانى مرّات .

ثم اخفض بصرَكَ إلى الأرض ترى فيجّاجها مدلّةً للتسخير ، فامشوا في مناكبها وتفكروا^(١) في شُرُبهَا بعد جذبِها بكأس القطر ، وتلحّ خروج النبات يزفّل في ألوان الحُلل على اختلاف الصُّور والطُوم والأرابيح ، وانظر كيف نزل القطر إلى عِرْقِ الشجر ، ثم عاد ينجذب^(٢) إلى فروعها . ويجرى في تجاويها بمرق لا تفتقر إلى كلفة .

فلاحظْ النافل^(٣) في ذلك لإسماع الرعد بأذنه ورؤية النبات والمطر بعينيه .
كلّا ! لو فتح بصرَ البصيرة لقرأ على كل قطرة ، ورقة^(٤) خطأً بالقلم الإلهي ، [تعلم]^(٥) أنها رِزْقُ فلان في وقت كذا .

ثم انظر إلى المادن لحاجات الفقير إلى المصالح ، فمنها مُودّع كالرصاص والحديد ، ومنها مصنوع بسبب غيره^(٦) كالأرض السبخة يجمع فيها ماء المطر فيصير ملحاً .

وانظر إلى انقسام الحيوانات ما بين طائر وماشٍ وإلهامها ما يصلحها .

وانظر إلى بُدْ ما بين السماء والأرض كيف ملأ ذلك الفراغ هواً لتستشق منه الأرواح وتشيع الطير في تيّاره إذا طارت .

وانظر بفكرِكَ إلى سمة البحر وتسخير الفلّك فيه ، وما فيه من دابة .

(١) : وتفكر . (٢) : ينجذب . (٣) : أفلا يلاحظ العاقل في ذلك لاستيعاب الرعد بأذنه . ولعلها معرفة . وما أثبتته من ب . (٤) : ب : على كل قطرة ورقة . (٥) : سقطت من أ . (٦) : لسبب من غيره .

قال يحيى بن أبي كثير : خلق الله ألف أمة ، فأسكن ستانة في البحر وأربعمئة في البر .

وإيحياً لك لو رأيت خطأ مستحسن الرقم لأدركك^(١) الدهش من حكمة الكاتب ، وأنت ترى رِقَومَ القُدرة ولا تعرف الصانع ، فإن لم تعرفه بتلك الصنعة فتمجّب كيف أمّنى بصيرتك مع رؤية بصرك !

سبح على قومه تعالى

﴿ وما تُنفِى الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون ﴾

كيف تصحُّ الفكرة لقلب غافل ، وكيف تقع البقطة لقليل ذاهل ، وكيف يحصل الفهم للبدّ عاقل ، هجاً لفرط الأيام فلائيل ولما نل إلى ركني مائل ، لقد خاب الغافلون وفاز المتقون « وما تُنفِى الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون » .

من كُتِبَ عليه الشقاء كيف يَسَلِّم ، ومن عَمِيَ قلبه كيف يفهم ، ومن أُنْزِلَ عليه طيبه كيف لا يَسْتَم ، ومن اعوجَّ في أصل وضعه فبيد أن يتقوّم ، هيات من خلق للشقاء فلشقاء يكون ، « وما تُنفِى الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون » .

كم عمل ردّ على عامله ، وكم أمل رجح بالغلبة على آمله ، وكم عامل بالغ في إتمام مفاصله فهبت^(٢) ریح الشقاء لتبديد حاصله ، لقد نُودِيَ على المطرودين ولكنهم ما يسمعون « وما تُنفِى الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون » .

عشتُ دهرًا بالتظنّي هائمًا في كل فنّ

فإنما من أمّ دفر^(٣) بأباطيل التميّ

أبغضها وهي تضيئي^(٤) من تحت الجين

(١) : لأورثك . (٢) ب : وهبت . (٣) أم دفر : الدنيا . (٤) تضيئي : تظلي . روى ثعلب عن ابن الأعرابي : ضئ إذا ظلم . قال أبو منصور : يتكلمه مقلوب من مام .
السان ٢٢١/١٩ .

فَأَتَى تَذَنِّي إِلَيْهَا وَلَدَيْ^(١) فَوْقَ الْمَسَنِ
نَمْ لَا أَخَذُ مِنْهَا مِثْلَ مَا تَأْخُذُ مِنِّي
أَيُّهَا الْمَجَلَّ عَنْهَا وَهُوَ شَبَّهِ اللَّتَائِي
لَيْسَ لِلزَّرْعِجِ بِالسَّيْرِ رَكُوبُ الْمُطْلَانِ
لَيْتَ شِعْرِي وَالَّتِي تُنْزِلُ رِي بَأْتِي وَلَوْ أَنَّ
أَيُّ شَيْءٍ صَحَّ مِنْهَا لِلْحَرِيسِ اللَّتَائِي
أَنَا إِذَا أَشْكُو فَلَا تَنْدُ مَعَ شَكْوَى اللَّتَائِي
كَحَبَّةٍ ظَلَّ يَبْكِي لِلْحَمَامِ اللَّتَائِي

سَجْعٌ عَلَى قَوْلِ نَعَالِي

﴿ فَمَنْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾^(٢)

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَعَاصِيهِمْ وَجَهْلِهِمْ ، النَّاسِينَ مِنْ سَبْقِهِمْ ، الْمَعْرِضِينَ عَلَى قَبِيحِ
فِعْلِهِمْ ، كَمْ لَيْسَ الرَّدَى يُمِثِّلُهُمْ ، لَقَدْ بُولَغَ فِي اجْتِنَاطِ أَصْلِهِمْ ، فَتَرَاهُمْ مَا يَكْفِي فِي
تَوْبِيخِهِمْ ، « فَمَنْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » .

قُلْ لِلْمُذْنِبِينَ تَأَمَّلُوا الْمَوَاقِبَ ، الْآثَامُ تَبْقَى وَتَفْنَى الْأَطْيَابُ ، وَالذُّنُوبُ تُحْمَى
وَمَا يَنْفُلُ السَّكَاتِبُ ، وَالسَّهْمُ مُفَوَّقُ الرَّاهِي صَائِبُ ، وَاللِّذَاتُ وَإِنْ نِيلَتْ فَبَعْدَهَا
الْمَصَائِبُ ، فَلْيَتَدَبَّرِ الْعَاقِلُ وَلْيَحْضُرِ الْغَائِبُ ، قَبْلَ أَنْ يُوْخَذَ الْجَهْلَالُ عَلَى جَهْلِهِمْ ، « فَمَنْ
يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » .

إِنْ كَانَ غَيْرُكَ قَدْ أَجَابَ الدَّاعِي قَسَكَاثِي بِكَ قَدْ نَمَاكَ النَّاعِي
قَدْ طَالَ بَاعُكَ وَالْمَنِيَّةُ بَعْدَ ذَا لَيْسَتْ إِذَا صَالَتْ قَصِيرَةُ بَاعِ
وَمَلَأَتْ تَمْتَكُ بِالْمَوَاعِظِ ظَاهِرًا حَقِ اشْتَهَرَتْ بِهِ وَلَسَتْ بِوَاعِي

تسقى بنفسك في المتاعف جاهداً^(١) لا تظن وارفق بها يا ساعي
ولقد جمعت من التبايح باطناً مالا تَصْنُهُ جِوْمُ أَغَايِ
كم قد غررت بظاهري متجمل مثل السراب جرى ببطن القاع
يمت الذي يبتقى بما يفنى غداً يا من رضى بتبينة المتبايع

أيها العبد انظر بعين فكرك وعقلك ، هل تجد سبيلاً لخلاص مثلك مع إقامته
على فعلك ، أين اعتبارك بانطلاق أسلافك ، أين فكرك في فراق ألافك ، متى تنقل
عن قبيح خيلافك .

قل للفراط يستعد ما من ورود الموت بُدْ
قد أخلق الدهرُ الشبا بَ وما مضى لا يُستردْ
أو ما يخاف أخو العا صي من له البطشُ الأشدْ
يوماً يُماين موقفاً فيه خطوبٌ لا تُنحَدْ
فلألم يشتغل النَّقى في لَهْوِه والأمر جدْ
أبدأ مواعيدُ الزما نِ لأهلِه نسبٌ وكَدْ
يا من يؤمل أن يقيم به وحادي الموتِ يَحْدُو
وترويح داعيةُ النُّو نِ على مؤملها وتَفْدُو
يَحْتال في ثوب النعم م ودونه قَبْرٌ وَلَحْدْ
والعمر يَقصر كلُّ يَوْ مٍ في الأمال مدْ

أيقظنا الله وإياكم من هذه الرقدة ، وذكرنا الموت وما يأتي بعده ، وألمنا
شكره على النعم^(٢) وحمده ، إنه كريم لا يرد عبده .

[وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل]^(٣) .

(١) ب : جاهداً . وما أميته من ا . (٢) ب : وألمنا على الشكر وحمده . (٣) ليست ل ا

المجلس الرابع

في ذكر نوح عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذي تَسَبَّحَهُ البهار الطوافح ، والسَّحُب السوافح ، والأبصار اللوامح ،
والأفكار والقرايح ، العزيز في سلطانه ، الكريم في امتنانه ، سائر المذنب في
عصيانه ، رازق الصالح والطالح ، تقدَّس عن مِثْل وشبيه ، ونَزَّه عن نقص يعتريه ، يعلم
خافية الصدر وما فيه من مِرْ أضميرته الجوانح ، لا يشغله شاغل ولا يُبْرِمه سائل
ولا يُنْقِصه نائل ، تعالى عن النَّد المائل والضد المكادح ^(١) ، يسمع تغريد الورقاء على
الفنن ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ويتكلم فكلامه مكتوب في الألواح مسموع
بالأذن بغير آلات ولا أدوات ولا جوارح . أنزل القطر بقدرته وصَيَّغ لَوْن النبات
بحكمته ، وخالف بين الطعوم بمشيئته ، وأرسل الرياح لواقع . موصوف بالسمع والبصر ،
يُرى في الجفة كما يُرى القمر ، من شبهه أو كَيْفَه فقد كفر . هذا مذهب أهل السنة
والأثر ، ودليلهم جلي واضح . ينبغي من شاء كما شاء ويهلك ، فهو السَّلم للسَّلم والسَّلم
للمهلك ، لم ينتفع كنعان بالنسب يوم الفرق لأنه مشرك ، « قال يانوحُ إنه ليس مِن
أهلك إنه عمل غير صالح »

أحمده على تسهيل المسالك ، وأشكره على ستر القبائح ، وأصلي على رسوله محمد
أفضل غاي وخير رائج ، وعلى صاحبه أبي بكر ذي الفضل الراجح ، وعلى عمر العادل
فلم يراقب ولم يسامح ، وعلى عثمان الذي بايع عنه الرسولُ فيالها صفقة راجح ، وعلى عليٍّ
البحر الخضم الطافح ، وعلى عه النبأش الذي أخذ البيعة له ليلة العقبة وكلُّ الأهل
نازح ، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، وهبْ طالحنا لصالحننا وسامحننا فانتَ الحليم
المسامح ، واغفر لنا ذنوبنا قبل أن تشهد علينا الجوارح ، ونُبْهنا من رَقَدَات الغفلات

(١) المكادح : السكاج . وأصل السكاح المعى والحرس والذؤوب في العمل .

قبل أن يصيح الصائح ، وانعنى بما أقول والحاضرين بمنك ، فنك الفضل والناصح .

قال الله تعالى : « وقال اركبوا فيها ^(١) » .

ولد نوح عليه السلام بعد وفاة آدم ، ثمان مئة وعشرين سنة . وهو نوح بن لَمَك ^(٢)
ابن متوشلخ بن إدريس .

ولما تم له خمسون سنة بمته الله عز وجل ، وقيل إنه بعث بعد أربعمائة سنة من
عره ، وكان الكفر قد عم ، فكان يدعو قومه فيضربونه حتى يفتش عليه . فأمره
الله تعالى أن يصنع سفينة . فغرس الساج فتكامل في أربعين سنة ، ثم قطعه فصنعها
وأعانه أولاده ، وفجر الله له عين القار تنقل غليانا حتى طلاها .

وجعل لها ثلاث بطون ، فجعل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والموام ، وفي
الأوسط الدواب والأنعام ، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة وثلاثين
ذراعا . وفي رواية عنه قال : كان طولها ألفا ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراعا ^(٣)

ثم ابتداء الماء بمجنبات الأرض فدار حولها كالإم قليل ، فجعلت الوحوش تطلب
وسط الأرض هرباً من الماء ، حتى اجتمعت عند السفينة ، فجعل فيها من كل
زوجين اثنين .

وقيل له إذا غار التنور فاركب .

وفي المراد بالتنور أربعة أقوال : أحدها : أنه اسم لوجه الأرض . قال ابن عباس
قيل له إذا رأيت الماء قد علا على وجه الأرض فاركب .

والثاني تنور الصبح . قاله علي عليه السلام .

(١) سورة هود ٤١ . (٢) ١ : ابن لامك .

(٣) راجع الروايات التي ذكرها الطبري في حجم سفينة نوح في تاريخه ٩١/١ . ط المصرية .

والثالث : طلوع الشمس . روى عن علي أيضا .

والرابع : تنور أهل انبجس منه الماء . قاله مجاهد .

وفي المكان الذي فار منه التنور ثلاثة أقوال : أحدها مسجد الكوفة . روى عن علي . وقال زِيْرَ بن حَبِيْش : فار التنور من زاوية مسجد الكوفة الأيمن . والثاني : بالمند . قاله ابن عباس . والثالث بالشام من عين وردة^(١) . وهي منزل نوح قاله . مقاتل .

وفي الذين حلهم في السفينة ثمانية أقوال :

أحدها : كانوا ثمانين^(٢) رجلاً معهم أهلهم . والثاني : كانوا ثمانين^(٣) وبنيه الثلاثة وثلاثة نسوة لبنيه وامرأة نوح . والثالث : كلهم كانوا ثمانين . قال مقاتل : كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة . والرابع : ثلاثين رجلاً . والأقوال الأربعة عن ابن عباس . والخامس : كانوا ثمانية : نوح ، وامراته ، وثلاثة بنين له ونسوانهم . وهذا قول الحَكَم بن عَتِيْبَة والقُرطبي وابن جُرَيْج^(٤) . والسادس : كانوا سبعة : نوح وبنيه وثلاث كنانن له قاله الأعشى . والسابع : كانوا ثلاثة عشر : نوح وبنوه ونساؤهم وستة ممن آمن به . قاله ابن إسحاق . والثامن : كانوا عشرة سوى نساؤهم . روى عن إسحاق أيضا .

فركبوا لمشرٍ مضين من رجب ، وخرجوا يوم عاشوراء .

قوله تعالى : « يَسْمُ اللهَ تَجْرِيبًا وَمُرْسَاها » .

قال الزجاج : أمرهم أن يسموا في وقت جزيها ووقت استقرارها .

(١) قال ياقوت : عين الوردة - وهو رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة ، كانت فيها وقعة للعرب ويوم من أيامهم . معجم البلدان ١٨٠/٤ ط بيروت . (٢) الأصل : ثمانون . عرفة . (٣) الأصل : خديج . عرفة .

قوله تعالى : « في مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » قيل : إن الماء ارتفع على أطول جبل في الأرض أربعين ذراعاً .

« ونَادَى نُوحٌ ابْنَهُ » واسمه كنعان ويقال يام ، « وكان في مَعْرِلٍ » أى فى مكان مُنْقَطِع ، وقيل فى مَعْرِلٍ من دِينِ أبيه ، وكان ينافقه بإظهار الإيمان ، فدعاه إلى الركوب فلما أنه مؤمن فقال : « سَأَوِى إِلَى جَبَلٍ يَنْصِفِ » أى يَمْنَحِى من الماء . « قَالَ لَا عَصِمَ » أى لا معصوم كقوله : « من ماء دَافِقٍ » أى مَذْفُوق « إِلَّا مَنْ رَحِمَ » الله فإنه معصوم .

« وحَالَ بينهما اللُّوجُ » فيه قولان : أحدهما : بَيْنَ كَنْعَانَ والجبل الذى زَعَمَ أنه يَمصمه . قاله ابن عباس .

والثانى : بَيْنَ نُوحٍ وابنه . قاله مُقاتِل .

قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكِ » قال ابن عباس : ابتلغت ما ظهر منها وبقي ماء السماء بحاراً وأنهاراً .

« وَيَا سَمَاءُ أَقْلِي » أى أَسْكِي عن إنزال الماء . « وَغِيضَ الْمَاءِ » قَصَ « وَقُضِيَ الْأَمْرُ » بفرق القوم « وَاسْتَوَتْ » بمعنى السفينة « عَلَى الْجُودِيِّ » ، وهو جبل بالمزمل . وإنما قال نوح : « رَبِّ إِنِّي ابْنُ مِنْ أَهْلِ » لأن الله تعالى وعدّه نجاته أهله . فقيل له : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » أى من أهل دينك . وإنما قال تعالى فى وعده : « وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ » .

قوله تعالى : « إِنَّهُ حَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » يعنى السؤال فيه . وقرأ الكِسَائِيُّ : « عَمِلٌ » بكسر الليم ، يشير إلى أنه مُشْرِك .

أخبرنا المحمّد بن ابن ناصر وابن عبد الباقي ، قالَا أَنبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ ، حَدَّثَنَا أَبُو نَسِيمٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ مَالِكٍ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ ، حَدَّثَنِي أَبِي ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، حَدَّثَنَا وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ ، قَالَ : لَمَّا عَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى نُوحًا فِي

ابنه وأنزل عليه : « إني أعظك أن تكون من الجاهلين » بكى ثمانمائة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء^(١) !

قال علماء السير : لما خرجوا من السفينة بنوا قرية سموها « ثمانين » بمددم ، ثم ماتوا ولم يبق لهم نسل .

وإنما الناس كلهم من أولاد نوح ، وكانوا ثلاثة : سام وحام وياث .

فن أولاد سام : فارس وطسم وعليق ، وهو أبو المماليق كلهم ، وإرم وأرنغشد ومن أولاد أرنغشد : الأنبياء والرسل والعرب كلها ، والقراةنة بعصر .

ومن أولاد إرم عابر وعوص ، ومن ولد عابر : ثمود وجديس وكانوا عرباً ، وولد عوص عاداً ، وكانت طسم وعليق وجاسم يتكلمون بالمرية ، وكانت العرب تقول لم العرب الدارية ، لأنه كان لسانهم الذي جبلوا عليه وتقول لبني إسماعيل : العرب القمرية . لأنهم تكلموا بلسان الأم الذين سكنوا بين أظهرهم .

وولد لعابر قانع ومعناه بالمرية قاسم ، لأنه قسم الأرض بين بني نوح . وولد لقانع أرغو ، ولأرغو ساروغ ، وساروغ ناحور ، ولناحور تارخ أبو إبراهيم الخليل عليه السلام .

وولد لعابر أيضاً قحطان ، وقحطان أول من ملك اليمن ، وأول من سلم عليه بأبيت اللعن . ومن أولاد حام كوش وولد لكوش عمرو الجبار . ومن أولاد عمرو هذا عمرو الذي ابتلى به الخليل .

ومن أولاد حام السودان والبربر والقبط ومن أولاد يافث الترك وبأجوج ومأجوج والصقالية .

ولما كثر أولاد نوح اقتسموا الأرض ، فنزل بنو سام سرّة الأرض ، فجيل

(١) هذه مبالغة لا يمكن قولها ، إذ لا تنطق مع قوانين الحياة وقد كانوا يتساعون في رواية هذه الأخبار تزييناً للقبول ولكونها بعيدة عن منهج الحقيقة .

فيهم النبوة والكتاب والجَمال - ونزل بنو حام بحرى الجنوب والديبور . ونزل بنو يافث بحرى الشمال والعصبا ، فاشتدَّ برّدهم .

ولما قُصّت قصة نوح على نبينا صلى الله عليه وسلم قيل له : « فاصبر إن العاقبة للمتقين » والنفى : اصبر كما صبر نوح فإن الظفر والتمكين لمن اتقى . والراد : ليحصل لك كما حصل لنوح عليه السلام وللاؤمنين .

السلام على البصيرة

محباً لميكي كيف يطرّقا الكرى
ألهو وأعلم أنه قد فوّت
وإذا هممتُ بتوبةٍ وإبانةٍ
كم قد سمعتُ وقد رأيتُ مواظلاً
أين الذين طفقوا وجاروا واعتدوا
أو ليس أعطتهم مقاليدُ الملا
وتعمكوا بحبالها لكتها
ما أخلدتهم بعد سالفِ رفعةٍ
وإلى البلى قد نقلوا^(١) وتشوّت
لو أخبروك بحالهم ومآلهم
أفئامهم من ليس يقفَى مُلكه
فاصرف عن الدنيا طامعك إنما
وصل الشرى عنها فما ينجيك من

(١) الأصل : أم حيو كرى . محرقة ، ولعل ما أنجته صواب ، والمجن الملاك . وكرى : أسرع . قال في اللسان : وكرى الرجل : عدا عدواً شديداً . قال ابن دريد : وليس بالغة العالية . وتكون « أم » هنا لامرأية بمعنى بل . (٢) الأصل : قتلهم .

يا حاملًا من الدنيا أتمنًا قِتالًا ، يا مطمئنًا لا بدَّ أن تنتقل انتقالًا ، يا مُرْسِلًا عَنَّا لَهْوَه
في ميدان زَهْوَه إرسالًا ؛ كأنك بجفنيك حين عُرِضَ الكتابُ عليك قد سالًا .

أين المَعْرِيفَ بما جَنَاهُ ، أين المَعْتَذِرَ إلى مَولاهُ ، أين التائبَ من خَطاياهِ ، أين الألبَ
من سَفَرِ هَواهِ ، نيران الاعتراف تَأْكُلُ خَطايا الاعتراف ، تَجَانِيقُ الزَّقَرَاتِ تَهْدِمُ
حصونَ السِّناتِ ، مياه الحَسراتِ تَضمِلُ أنجاسَ الخَطِيئاتِ .

يا طالبَ النجاةِ دُمُ على قَرعِ البابِ ، وزاحمُ أهلِ الفَقَى أُولى الألبابِ ، ولا تَبْرَحْ
وإن لم يُفْتَحْ فَرَبِ نَجاحِ بَعدِ اليأسِ ، ورُبَّ غَفَى بَعدِ الإفلاسِ .

صَبْرًا فَا يَظْفَرُ إِلَّا مِنْ صَبْرٍ إِنَّ اللَّياليَ وَاعِداتُهَا بِالظَّفَرِ
وَرَبِّمَا يَنْهَضُ جَدُّ مَنْ عَثَرَ وَرُبَّ عَظَمٍ هَيْضَ حِينًا وَانْجَبَرَ
إِذَا تَبَتَ مِنْ ذُنُوبِكَ فَانْدَمَ عَلَى عِيوبِكَ ، وَامْحُ بِدُمُوعِكَ قَبِيحَ مَكْتُوبِكَ ، وَالْبَسِ
جِلْبَابَ القَرَقِ ، وَتَضَرَّعْ عَلَى بابِ القَلْقِ ، وَقُلْ بِلِسَانِ الحَرَقِ :

قَدْ فَلَسْتُ التَّبِيحَ وَهُوَ شَيْبِي خَطَأً فَافْعَلِ الْجِيلَ بِمَفْوُكٍ
وَقَدَدْتُ رَغِيظِي إِلَيْكَ وَمَا زِلْتُ تَحْمِي بِاللُّجُوحِ أَوْجَهَ وَفِدَاكَ
قِفْ وَقُوفَ النُّكْسَرِينَ ، وَتَبَتْلُ تَبَتْلُ المَعْتَذِرِينَ ، وَاسْتَشْمِرِ الخُضُوعَ ، وَاسْتَجْلِبِ
الدُّمُوعَ ، وَاحْتَلْ واحذر سَهْمِ الفُضْبِ أَنْ يَصِيبَ المَقْتَلَ .

يَاسِيدِي مَا هَفَوْتِي بِغَرِيبَةٍ مَنِي^(١) وَلَا غَفَرَانَهَا بِطَرِيفِ
فَإِنْ تَقْبَلِ المَبْدَةَ الضَّعِيفَ تَطَوُّلًا فَإِنْ رَجَاؤِي فِيكَ غَيْرُ ضَعِيفِ^(٢)
كَمْ أَتَيْتُ ذُنُوبًا نَسَرْتُ ، وَكَمْ جَنَيْتُ جَنَايَةً فَظَنَنْتُ ، فَبِالْحِلْمِ وَالْكَرَمِ إِنْ لَا غَفَرْتَ .
فَقَدْ طَالَمَا أَفْهَذْتَنِي يَدَاكَ وَقَدْ قَلَقْتَنِي جِبَالُ الرَّدَى
فَوَاللَّهِ لَا شِئْتُ غَيْثًا سِوَاكَ فِيمَا نَدَاكَ وَإِنَّمَا الصَّدَى

(١) الأصل : إليك وهو تحريف . ولعل ما أُنْجِته هو الصواب . (٢) يظهر اختلاف الوزن بين
البيتين ، فالأول من بحر الكامل والثاني من بحر الطويل ، ولعل الصواب : إن تقبل - إني رجائي الخ
فيمد الوزن .

إخواني : إنما مرضتُ القلوب من الذنوب ، وأصل العافية أن تتوب ، دوام التعاطي
يوقع في صِغَابِ الْعِلَالِ ، أَسَمَتِ يَاصْرِيفُ الشَّرَّهَ ، كَمْ رَأَيْتَ صَرِيحاً لِلْهَوَى ! أَفَرَعَ بَابَ
الطَّبِيبِ يَصِفُ لِمَرْضِكَ نَسْخَةً ، قَبْلَ أَنْ تَسْرَى سَكَنَةُ التَّضَرُّبِ إِلَى مَوْتِ الْهَلَاكِ .
تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ تَعْمَلُ فِي أَمْرَاضِ الْفُؤَادِ مَا يَمْلِكُهُ الْعَمَلُ فِي عِلَلِ الْأَجْسَادِ ، مَوَاعِظُ الْقُرْآنِ
لَأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ شَافِيَةٌ ، وَأَدِلَّةُ الْقُرْآنِ لَطَلَبُ الْهُدَى كَافِيَةٌ ، أَبْنِ السَّالِكُونَ طَرِيقَ
السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ ، مَا لِي أَرَى الْكِبَالَ مِنَ الْقَوْمِ عَافِيَةً .

إِنَّ السَّعِيدَ لَمَذْكُورُكَ دَرَكًا وَأَخُو الشَّقَاوَةِ فَهُوَ فِي الدَّرَكِ
وَالِىَ الْخَمُولِ مَا لِي ذِي كَمْبٍ وَإِلَى الشُّكُونِ مَعِيرُ ذِي حَرَكِ
طَارَ الْجَلَامُ وَغَاصَ مُقْتَدِرًا فَأَمَاتَ حَقَى الطَّيْرِ وَالْمَكِ
إِنَّ الزَّمَانَ إِذَا غَدَا وَعَدَا قَتَلَ الْمَلُوكَ بِكُلِّ مُعْتَرِكِ
وَالْعَيْنُ تُبْهِرُ أَبْنَ حَبْنَهَا لَكِنَّا نَقْمَى عَنِ الشَّرِكِ
أَنْكَرْتُ هَذَا الْمَوْتَ مَا رَبَّكَتِ نَفْسِي هُنَاكَ أَشَدَّ مُرْتَبِكِ
مَاضِرٌ ذَا كَرَمٍ وَنَاطِرُهُ أَنْ لَا يَنَامَ عَلَى سِوَى الْحَسَنِكَ

سمع على قوله تعالى

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾^(١)

يَا مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمٌ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرَا ، يَقَعُ فِيهِ الْفِرَاقُ وَتَنْفَعُمُ الْعُرَى ، تَدَبَّرْ
أَمْرَكَ قَبْلَ أَنْ تَخْضُرَ فَتْرَى ، وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ نَظَرَ مَنْ قَدْ فَهِمَ مَاجِرَى ، قَبْلَ أَنْ يَفْضُبَ
الْحَاكِمُ وَالْحَاكِمُ رَبُّ الْوَرَى ، « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » .
يَوْمٌ تُشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ ، يَوْمٌ تُسِيرُ فِيهِ الْجِبَالُ ، يَوْمٌ يَظْهَرُ فِيهِ الْوَالِ ، يَوْمٌ تَنْطَلِقُ
فِيهِ الْأَعْضَاءُ بِالْخِصَالِ ، يَوْمٌ لَا تُقَالُ فِيهِ الْأَعْثَارُ ، وَكَمْ مِنْ أَعْذَارٍ تُقَالُ فَتْرَى مِنْ قَدْ
افْتَرَى ، يَتَقَدَّمُ قَدَمًا وَيُؤَخَّرُ أُخْرَى « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعِلَتْ مِنْ
خَيْرٍ مُحْضَرًا » .

فِيُنْصَبَ الصُّرَاطُ فَنَاجِ وَوَاتِق ، وَيُوضَعُ لِلزَّانِ فَتَكْثُرُ الْقُفَاظُ ، وَتُنْشَرُ الْكُتُبُ وَتَسِيلُ الْمَدَامُ ، وَتَظْهَرُ الْقُبَاخُ بَيْنَ تِلْكَ الْجَمَاعِ ، وَيُؤْلَمُ الْعِقَابُ وَتَمْلُ الْمَسَامُ ، وَتُخْصَرُ الْعَاصِي وَيَرْجَحُ الطَّائِعُ ، فَكَمْ غَيِّ قَدْ عَادَ مِنْ الْخَيْرِ مُفْتَقِرًا « يَوْمَ تَجْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » .

أَخْبَرَنَا هَبَةُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، أَنبَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدٍ ، حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَيَّانٍ ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ ، عَنْ نَافِعٍ ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْعِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ .

قَالَ أَحْمَدُ : وَحَدَّثَنَا وَكِيعٌ ، قَالَ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ ، عَنْ خُثَيْمَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَاتِمٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيِّكَلُهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجَانٌ ، فَيَنْظُرُ عَنْ أَيْمَنِ مِنْهُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ^(١) وَيَنْظُرُ عَنْ أَشْأَمِهِ مِنْهُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ، وَيَنْظُرُ أَمَامَهُ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ ثَمَرَةٍ فَلْيَفْعَلْ » .

هَذَانِ الْحَدِيثَانِ فِي الصَّحِيحَيْنِ .

رَوَى عُبَيْدُ بْنُ عُبَيْدٍ ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا يُجْرُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمٍ وَلِدَ إِلَى يَوْمٍ مَيُوتَ هَرَمًا فِي مَرْضَاةٍ اللَّهُ لَحَقَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

يَالَهُ مِنْ يَوْمٍ يَقْتَضِي لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ ، وَتَحْيِيطُ بِالظَّالِمِ الْمَظْلُومَ ، وَتَصْعَدُ الْقُلُوبُ إِلَى النَّفَاسِ ^(٢) ، وَلَيْسَ لِمَنْ لَا يَرْجَحُ إِلَهُ عَاصِمٌ .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَتَوَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُبَادَ لِلشَّاةِ الْجَمَاءُ مِنَ الشَّاةِ الْقَرَنَاءِ ^(٣) .

(١) الْأَسْلُ : إِلَّا شَيْءًا قَدِمَهُ . عُرْفَةٌ . وَالتَّصَوُّبُ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ « كِتَابُ الرِّفَاقِ بَابُ مَنْ تَوَقَّعَ الْحَسَابَ مَذْهَبٌ » . (٢) النَّفَاسُ : جَمْعُ غَلَصَةٍ وَهِيَ الْوَعْدُ بَيْنَ الرَّأْسِ وَالْمَنْقِ . (٣) الْجَمَاءُ : الَّتِي لَا قَرْنَ لَهَا .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يُحْبَسُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، مِثْلُ مَا كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَتُقَوُّ أُذُنُ لَمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ » .

كَمْ مِنْ وَعِيدٍ يَخْرُقُ الْآذَانَا كَأَنَّمَا يُعْنَى بِهِ سِوَانَا
أَصَمْنَا الْإِهْمَالُ بَلْ أَعْمَانَا .

يا كثير السيئاتِ غداً ترى عَمَلَك ، يا هَارِكَ الْحَرَمَات ، إِلَى مَتَى تَدِيمُ ذَلِكَ .
تَيْقُظُ فَإِنَّكَ فِي غَفْلَةٍ يَمِيدُ بِكَ الشُّكْرُ فِيمَنْ يَمِيدُ
وَأَمَى مَنِيْعٌ يَفُوتُ الْبَلَى إِذَا كَانَ يَبْلَى الصَّمَا وَالْحَدِيدُ
إِذَا الْمَوْتُ دَبَّتْ لَهُ حِيلَةٌ فَتَلَكَ الَّتِي كُنْتَ مِنْهَا تَعِيدُ
أَرَأَيْكَ تُؤْمَلُ وَالشَّيْبُ قَدْ أَتَاكَ بِتَعْيِكَ مِنْهُ بَرِيدُ
وَتَنْقُصُ فِي كُلِّ تَنْفِيْسَةٍ وَعِنْدَكَ أَنْكَ^(١) فِيهَا تَزِيدُ
أَمَا نَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ يَسَى فِي تَبْدِيدِ كَمَلِك ، أَمَا تَخَافُ أَنْ تُؤْخِذَ عَلَى قَبِيحٍ فِعْلِكَ ،
وَالْهَبَّاءُ لَكَ مِنْ رَاحِلٍ تَرَكْتَ الزَّادَ فِي غَيْرِ رَحْلِكَ ، أَيْنَ يُطْلُتُكَ وَيَقْطَعُكَ وَتَدِيرُ
عَقْلَكَ ، أَمَا بَارَزْتَ بِالْقَبِيحِ فَأَيْنَ الْحَزَنُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْحَقَّ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَنُ ،
سَتَعْرِفُ خَبْرَكَ يَوْمَ تَرْحَلُ عَنِ الْوَطَنِ ، وَسَتَنْقَبِيهِ مِنْ رِقَادِكَ وَيَزُولُ هَذَا الْوَسْنُ .

إِلَى اللَّهِ تَبَّ قَبْلَ انْقِضَاءِ مِنَ الْعُمُرِ أَخِي وَلَا تَأْمَنُ مُسَاوَرَةَ الدَّهْرِ
فَقَدْ حَدَّثَتْكَ الْحَاذِئَاتُ نَزْوِلَهَا وَنَادَتْكَ إِلَّا أَنْ سَمِعَكَ ذَوْقُ
تَنُوحٍ وَتَبْكِي لِلْأَحْبَةِ إِنْ مَضَوْا وَنَفْسُكَ لَا تَبْكِي وَأَنْتَ عَلَى الْإِثْرِ

(١) الْأَصْلُ : أَتْمَا . عَرَقَةٌ .

السلام على قومه تعالى

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾

يا مبارزاً بالذنوب خذ حذرَكَ ، وتوقَّ عِقَابَهُ بالثَّقَى فقد أُنذِرَكَ ، وخلَّ الهوى فإنه كما ترى صيرَكَ ، قبل أن ينضب الإلهُ ويضيقَ حَبْسُهُ ، « ويحذركم الله نفسه » .
اجتهد في تقوية يقينِكَ قبل خُسْر موازينِكَ ، وقُمْ بتضرعِكَ وخيفتِكَ قبل نُشْر دواوينِكَ ، وابذُل قَوْلَكَ في ضعفِكَ ولينِكَ ، قبل أن يدنو العذابُ فتجدَ مَسَّهُ ، « ويحذركم الله نفسه » .

لَمَّا سَمِعَ المتيقظونَ هذا التحذيرَ فتعوا أبوابَ القلوبِ لنزولِ الخوفِ ، فأحزنَ الأبدانَ وقلَّلَ الأرواحَ فماشت اليقظةُ بموتِ الهوى ، وارتفعت النفلةُ بحلولِ الكهيبَةِ ، وانهزمَ الكسلُ بمحشِ الحذرِ ، تهذَّبَتِ الجوارحُ من الزَّلَلِ والمزَامِ من الخللِ ، فلا سكنَ للخائفِ ولا قرارَ للعارفِ ، كلما ذكرَ العارفُ تقصيره ندِمَ على مُصَابِهِ ، وإذا تصوَّرَ مصيره حذرَ مما في كتابه ، وإذا خطرَ العتابُ بفنائه ظلمت من عتابه ، فهو رَهِينُ القَلْبِ بمجموعِ أسبابِهِ .

كان داود عليه السلام إذا خرج يومَ نياحته على ذَنْبِهِ أَلْقَعَ مَجْلِسُهُ عن ألوفٍ قد ماتوا من الخوفِ عندَ ذِكْرِ رَبِهِ .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يمرُّ بِالآيَةِ في ورده فيسكى حتى يسقط ويبقى في البيتِ مريضاً يُعَاد .

وقرأ الحسن ليلةً عندَ إفطارهِ « إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ^(١) » فبقي ثلاثة أيام لا يَظْلَمُ .

حقيق بمن عِلِمَ ما بين يديه ، وتيقَّنَ أن العملَ يُحْصَى عليه ، وأنه لا بد من الرحيل

عما لديه ، إلى موقف صعب يساق إليه ، يتجافى عن مُضْطَجَع البطالة بمحبته .
 قال حاتم الأصم : من خلا قلبه من ذكر أخطار أربعة فهو مُنْقَرٌ ، فلا يأمن الشقاء .
 الأول : خطر يوم اللشق ، حين قال الله تعالى : هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء
 في النار ولا أبالي ؛ ولا يعلم في أى الفريقين كان ؟
 والثاني : حين خلق في ظلمات ثلاث ، فنودى الملك بالشقاء والسعادة ، ولا يدري
 أمن الأشقياء هو أم من السعداء ؟
 والثالث : ذكر هول المطلع ، ولا يدري أبشّر برضا الله تعالى أو بسخطه ؟
 والرابع : يوم يصدر الناس أشتاتا ولا يدري أى الطريقين يُلَک به ؟
 فحقوق لصاحب هذه الأخطار أن لا يفارق الحزن قلبه !
 بكى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ليلة فاطال ، فسل عن مكانه ، فقال :
 ذكرت مصير القوم بين يدي الله عز وجل « فريق في الجنة وفريق في السعير »
 ثم صرخ وغشى عليه .

كم ذا أغالط أمرى كأننى لست أدري
 أغفلت ذا^(١) الذى كان فى مُقَدَّم عُمري
 ولم أزل أتمادى حتى تصرم دهرى
 من لى إذا صرمت رهنا بالذنب فى رُسِّي قُبُري
 بأى عنبر ألقى ربي ليُقبل عندي
 فليت شعري متى أذكرك التى لبت شعري
 يا من قد وهى شبابه ، وامتلا بالزلل كتابه ، أما بلفك أن الجلود إذا استشهدت
 نطقن ، أما علمت أن النار للعصاة خلقت ، إنها لتعرق كل ما يُلْقى فيها ، فيصعب
 على خزنها كثرة تلاقيها ، التوبة تمنحج عنها ، والذممة تُطفئها ، قال صلى الله عليه وسلم :

(١) الأصل : ذى . معرفة .

« لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأُسرَّت على أهل الدنيا معيشتهم » فكيف
 بمن هو طعامه لا طعام له غيره !

أسفاً لأهل النار لقد حلّكوا وشقّوا ، لا يقدّر الواصف أن يصف ما قد لقوا ،
 كلما عطشوا جىء بالحميم فسقوا ، وهذا جزاؤهم إذ خرجوا عن الطاعة وفسقوا ، قُطِّموا
 والله بالمذاب ومزّقوا ، وأفرِد كل منهم عن رفيقه وفرّقوا ، فلم رأيتهم قد كُلبوا
 في السلاسل وأوثقوا واشتد زفيرهم وتضرّع أسيرهم وقلّقوا ، وتمنّوا أن لم يكونوا
 وتأسّفوا كيف خلّقوا ، وندموا إذ أعرضوا عن النصّح وقد صدّقوا ، فلا احتذارهم
 يسمع ، ولا بكاؤهم ينفّع ولا أعتقوا .

لو أبصرْتَ عيناكَ أهلَ الشقاءِ	في النارِ قد غلّوا وقد طوّقوا
تقول أولّام لأخْرامٍ	في لججِ المنهلِ وقد أغرقوا
قد كنتمْ حُدْرَتُم حَرّها	لكنّ من اللّيرانِ لم تفرّقوا
وجيء بالليرانِ مَزْمومة	شرارها من حَوْلها مُحْدِق
وقيل لليرانِ أنْ أحرق	وقيل للخزّان أنْ أطبقوا
وأولّاه الله في جَنّة	قد توجّوا فيها وقد مُنطقوا
تدبّروا كم بينهم إخوتي	ثم أجيّلوا فِكْرَكم وانتَقوا

المجلس الخامس

في قصة عاد

الحمد لله الذي أنزل في الأشياء في الأسماء والأوصاف ، المقدس عن الجوارح والآلات والأطراف ، خضعت لمزته الأكوأ وأقرت عن اعتراف ، وانقادت له القلوب وهي في اعتقادها تخاف ، أنزل القطر فيه الدر تمويه الأصداف ، ومنه قوت البنور يرى الضعاف .

كشفت للعتيق اليقين فشهدوا ، وأقامهم في الليل فسهروا وشهدوا^(١) ، وأرام عيب الدنيا فرفضوا وزهدوا ، وقالوا نحن أضياف .

وقضى على المخالفين باليماد فأقامهم التوفيق والإسماد ، فكلمهم هام في الضلال وما عاد « واذكروا عا عا إذ أنذر قومه بالأحقاف^(٢) » .

أحمد على ستر الخطايا والافتراق ، وأصل على رسوله محمد الذي أنزل عليه قاف ، وعلى صاحبه أبي بكر الذي أمن ببيعته الخلاف ، وعلى عمر صاحب العدل والإنصاف ، وعلى عثمان الصابر على الشهادة صبر النظار^(٣) ، وعلى علي بن أبي طالب محبوب أهل السنة الطراف ، وعلى عمر العباس مقدم أهل البيت والأشراف .

[جد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بلغه الله ما يرجو وأمنه بما يخاف] ^(٤) .

قال الله : « واذكروا عا عا إذ أنذر قومه بالأحقاف » .

الأخ في القرآن على أربعة أوجه : أحدها الأخ من الأب والأم أو من أحدهما . ومنه : « قَطَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ^(٥) » والثاني : الأخ من القبيلة ومنه . « واذكروا عا عا » .

(١) كذا بالأصل ، ولعلها : وتهجدوا . (٢) سورة الأحقاف ٢١ (٣) الأصل : الطاف بالطاء المهمة ، ولا معنى لها . والنظار جمع نظيف ، ككرام جمع كريم . (٤) ليست في . (٥) سورة المائدة : ٣٠

والثالث : الإخاء في التَّابَةِ . ومنه : « كانوا إخوانَ الشَّيَاطِينِ »^(١) .
 والرابع : الصاحب ومنه قوله تعالى : « إِنَّ هَذَا أَخِي »^(٢) .
 والإنذار : الإعلامُ مع التخويف . والأحقاف : الرَّمالُ العِظَامُ . واحداً حِفْ .
 وفي مكان هذه الأحقاف ثلاثة أقوال : أحدها : بالشام . قاله ابن عباس . والثاني :
 بَيْنَ عُثْمَانَ ومِهْرَةَ . قاله عطية . والثالث : أرض يقال لها الشَّعْرُ نحو البحر . قاله قَتَادَةُ .
 وقال ابن إسحاق : كانت منازلهم فيما بين عُثْمَانَ إلى حضرموت باليمن كله ، وكانوا
 قد فسَدُوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم ، وكانوا أصحاب أوثان فأتبهم ناسٌ يسير ،
 وكتبوا لإيمانهم . قال مُقَاتِل : كان طول كل رجل منهم اثني عشر ذراعاً . وقال مجاهد :
 وكان الرجل منهم لا يحتمل حتى يبلغ مائتي سنة !
 « وقد خَلَّتِ الثُّدُرُ » أى مضت من قبل هودٍ ومن بعده . وقوله : « لِيَتَأَفَّكُنَا »
 عن آلمَتِنَا « أى لتصرفنا عن آلمَتِنَا بالإفك .
 « قال إنما العِلْمُ عند الله » أى هو يعلم متى يأتيكم المذاب « فلما رأوه » يعنى
 ما يوعدون « عارِضاً » أى سحاباً يعرض في ناحية السماء .



وقوم عاد هؤلاء أولاد عوص بن إرم ابن سام بن نوح ، وهى عاد الأولى بعث الله
 تعالى إليهم هودَ بن عبد الله بن رباح ابن اخلود بن عاد بن شالخ بن أرفخشذ بن سام .
 كانوا يعبدون الأوثان فدعاهم إلى التوحيد ، فكلما أنذروهم زاد طغيانهم . فحبس الله
 تعالى عنهم القطر ثلاث سنين ، حتى جَهِدُوا فبعثوا إلى مكة وفدًا يَسْتَسْقِي لهم ،
 لم ، وكانوا سبعين رجلاً ، منهم قَيْل ونعيم وجُلهمة ولقمان بن عاد ومَرْثَد بن سعد ،
 وكان مرثد مؤمناً بكتهم لإيمانه وكان الناس مؤمنهم وكافروهم إذا جحدوا سألوا الله تعالى
 عند الكعبة ، فزولوا على بكر بن معاوية ، وكان خارجاً من الحرم فأكرمهم ، وكانوا
 أصهاره وأخواله ، وكان سكانُ مكة المماليقَ ، أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ،

فَجَلَّ بَكْرٌ يَسْتَبِهُمُ الْحَرَّ وَتَنْتَبِهُمُ الْجَرَادَاتَانِ شَهْرًا ، فَلَمَّا رَأَى بَكْرٌ طَوْلَ مُقَامِهِمْ عِنْدَهُ قَالَ : هَلَكَ أَهْوَالِي وَأَصْهَارِي ، هَؤُلَاءِ ضَيْفِي ، فَمَا أَدْرَى مَا أَصْنَعُ ، وَأَسْتَحْيِ أَنْ أَمْرَهُمْ بِالْخُرُوجِ . فَشَكَ ذَلِكَ إِلَى قَيْنَتَيْهِ الْجَرَادَتَيْنِ ، فَقَالَتَا : قُلْ شِعْرًا نَنْتَبِهُمُ بِهِ لَا يَدْرُونَ مِنْ قَالِهِ . فَقَالَ : -

أَلَا يَا قَيْلُ وَنَحْسُكَ قُمْ فَهَنِّمِ	لَمَلَّ اللَّهُ يَمْنَعُنَا غَمًّا
فَقَسْقِ أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَادًا	قَدْ أَمْسَوْا لَا يُبَيِّنُونَ الْكَلَامَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو	بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْغَلَامَا
وَقَدْ كَانَتْ نَسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ	وَقَدْ أَمْسَتْ نَسَاؤُهُمْ عِيَايَ ^(١)
وَأَنَّ الْوَحْشَ تَأْتِيهِمْ نَهَارًا	وَلَا تَخْشَى لِمَادِي سِهَامَا
وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اسْتَهْتُمْ	نَهَارَكُمْ وَلَيْكُمُ النَّهَامَا
تَقْبَحُ وَتَذْكُمُ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ	وَلَا أَقْوَا التَّعْبَةَ وَالسَّلَامَا

فَلَمَّا سَمِعُوا هَذَا قَالُوا : وَبِحُكْمٍ ادْخُلُوا الْحَرَّمَ فَاسْتَقُوا الْقَوْمَ كُمْ . فَقَالَ مَرْيَدٌ : إِنَّمَا كُمْ وَاللَّهِ لَا تَسْقُونَ بِدَعَائِكُمْ وَلَكِنْ إِنْ أَعْطَمَ نَبِيِّكُمْ سَقَيْتُمْ . فَقَالَ جُلْهَمَةُ : احْبِسُوا عَنَّا هَذَا وَلَا يَقْدَمَنَّ مَعَنَا مَكَّةَ ، فَإِنَّهُ قَدْ اتَّبَعَ دِينَ هُودَ . ثُمَّ خَرَجُوا يَسْتَسْقُونَ ، فَتَنَشَّاتُ ثَلَاثُ سَعَائِبَ : بِيضَاءُ وَحَمْرَاءُ وَسُودَاءُ . ثُمَّ نَوْدَى مِنْهَا : يَا قَيْلُ احْتَزُّ . فَقَالَ : اخْتَارِ السُّودَاءَ لِأَنَّهُمَا أَكْثَرُ مَاءً . وَقِيلَ لِلْوَفْدِ : اخْتَارُوا . فَقَالَ مَرْيَدٌ : يَا رَبِّ أَعْطِنِي صِدْقًا وَبِرًّا . فَأُعْطِيَ . وَقَالَ لِقَانُ بْنُ عَادَ : أَعْطِنِي عُثْرًا . فَأَخْتَارَ عُثْرَ سَبْعَةِ أَنْسَرٍ ، فَكَانَ يَأْخُذُ الْفَرْخَ حِينَ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضَةِ وَيَأْخُذُ الذَّكَرَ لِقَوْتِهِ ، حَتَّى إِذَا مَاتَ أَخَذَ غَيْرَهُ إِلَى أَنْ مَاتَتِ السَّبْعَةُ . فَهَاتَ .

وَأَمَّا السَّعَابَةُ فَسَاقَهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عَادَ ، حَتَّى خَرَجَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ وَادٍ لَمْ يُقَالَ لَهُ مُنْفِثٌ ، فَلَمَّا رَأَوْهَا اسْتَبْشَرُوا بِهَا وَقَالُوا : « هَذَا عَارِضٌ مُعْطِرُنَا » . فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ

(١) عِيَايَ : جَمْعُ عِيَايَ وَهِيَ الْعَطَشُ .

رأى ما فيها امرأة منها فصاحت وصعقت ، فقيل لها : ما رأيت ؟ فقالت : ربما فيها كشبه النار ، أمامها رجال يقودونها .
فسخرها الله عليهم « سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً » أى متتابعة ابتدأت غدوة الأربعاء آخر أرباء في الشهر وسكنت في اليوم الثامن .
واعزل هود ومن معه من المؤمنين في حفرة ما يصيبهم منها إلا ما يلين الجلود وتلتذ عليه النفوس .

فكانت الريح تقلع الشجر وتهدم البيوت وترفع الرجال والنساء بين السماء والأرض فتدق رقابهم فيبين الرأس عن الجسد . فذلك معنى قوله : « كأنهم أعجاز نخل خاوية ^(١) » ثم تدمغهم بالحجارة . قال عمر بن ميمون : كانت الريح تحمل الظمينة ^(٢) فترفها حتى ترى كأنها جراد ^(٣) .

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك ، أنبأنا عاصم بن الحسن ، أنبأنا علي بن محمد بن بشران ، حدثنا الحسن بن صفوان ، حدثنا أبو بكر القرشي ، حدثنا ابن عبد الوهاب ، حدثنا محمد بن يزيد ، عن جويبر ، حدثني أبو داود ، أنه سمع ابن عباس يقول : أول ما عرفوا أنه عذاب : رأوا ما كانت خارجاً من رجالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثل الريش ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم وهالت عليهم بالرمل ، فكانوا تحت الرمل سبع ليالٍ وثمانية أيام لم أنين ، ثم قبضت أرواحهم وطرحتهم الريح وألقوا في البحر ، « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ^(٤) » .

وقال مقاتل : بمت الله طيراً أسود فالتقطهم حتى ألقاهم في البحر .

(١) سورة الحاقة : ٧ (٢) الظمينة في الأصل : الرأفة في المودج ثم قيل للرأفة وهي في بيتها ظمينة انظر شرح القصائد السبع الطول لابن الأباري ص ٣٤٥ ، ٤٢١ . (٣) هذا الخبر مروي عن ابن إسحاق ، وقد أورده ابن كثير باختلاف يسير ، انظر قسم قصص الأنبياء من البداية والنهاية جعقينا ١/ ١٣٤ - ١٣٧ . (٤) سورة الأحقاف : ٢٥

فانظروا رحمكم الله كيف أهلك الخلق العظيم بالريح التي هي ألفت الأشياء ،
ليبين أثر القدرة ، جل جلاله ، وكذلك يميت الخلق عند نفخة وبحيهم عند نفخة ،
فسبحان من بأت سيطرته للمعاندين قهرت ، وظهرت آثار قدرته للمتقين فيهرت ،
كم هذب مريض بريح في حشاه يختلف إلى أن تلف .

الكلام على البسم

سلطانه في خلقه قاهر وأمره في ملكه باهر
سيطوته باطشة بالورى في ذرة مُعجزها ظاهر
إذا تجلّى في جلال الملا ذلّ له الأول والآخِر
كن حاذراً من بطشه إنه في أمره وقهره قادر
ولطفه في عطاؤه راحم وسيفه في خلقه باهر

أيها النائم وهو منتبه ، للتحيّر في أمر لا يشقه ، يا من قد صاح به الموت في سلب
صاحبه ، يا إخوان الغفلة تيقظوا ، يا أقران البطالة تحفّظوا ، يا أهل الخائفة أقبوا ،
يا معرضين عنا أقبوا ، يا مبارزين بالذنوب لا تفعلوا .



أين^(١) من كان قبلنا أين أيننا من أناس كانوا حجاجاً^(٢) وزيناً
إن دهرنا أتى عليهم فأتى عدداً منهم^(٣) سيأتي علينا
خدعتنا الآمال حتى جعنا وطلبنا لقبرنا وسعينا
وابتغينا من الماش فضولاً لو قمتنا بدونها لاكتفينا
ولعمري لنضين ولا نمضى بشيء منها إذا ما مضينا

(١) الأبيات لأبي التماهية انظر ديوانه ص ٢٥٦ . (٢) كذا بالأصل . وديوان أبي التماهية :
كانوا جمالا . والحجاء : وضع يمين بالنياب والنور للمروس . ولعل ما في الديوان أصح .
(٣) الديوان : فأتى * منهم الجمع ..

كم رأينا^(١) من ميت كان حياً ووشيكاً يرى بنا ما رأينا
مالنا نأمن^(٢) للنايا كأننا لا نراهن يهتدين إلينا
محباً لاسرى تيقن أن السموت حق فقر بالعيش عينا

أسفا لمن ضيع الأوقات وقد عرفها ، وسلك بنفسه طريق الهوى فأتلفها ، أنس
بالدنيا فكأنه خلق لها ، وأمله لا ينهي وأجله قد انتهى ، سلت إليه بضائع العمر
فلعب بها ، لقد ركن إلى ركني ما لبث أن وهى ، محباً لعين أمست بالليل هاجمة ،
ونبت أهوال يوم الواقعة ، ولأذن تفرغها المواعظ فتضحى لها سامعة ، ثم تعود الزواجر
عندها ضائعة ، ولنفس أضحت في كرم الكريم طامعة ، وليست له في حال من الأحوال
طائفة ، ولأقدام ست بالهوى في طرق شائعة ، بعد أن وضعت لها سبل فيحة واسعة ،
ولهم أسرع في شوارع اللهو شارعة ، لم تكن مواعظ العقول لها نافعة ، ولقلوب
تضمّر التوبة عند الزواجر الرائعة ، ثم يختل العزم بفعل مالا يحل مراراً متتابعة ،
ثالثة بعد ثالثة وخامسة بعد رابعة .

كم يوم غابت شمسه وقلبك غائب ، وكم ظلام أسبل ستره وأنت في محاب ، وكم
أسبغت عليك نعمة وأنت للمعاصي توائب ، وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتب ،
وكم يُنذرك سلب رفيقك وأنت لاعب ، يا من يأمن بالإقامة قد زمت الركائب ، أفق
من سكرتك قبل حسرتك على المعائب ، وتدكر نزول حُفرتك وهجران الأقطاب ،
وانهض عن باط الرقاد وقل : أنا نائب ، وبادر تحصيل الفضائل قبل فوت الطالب ،
فالسائق حثيث والحادي مجتهد وللموت طالب .

لأبكين^(٣) على نفسي وحق ليه يا عين لا تبخل عني بمهرتية
لأبكين فقد بان الشباب وقد جدّ الرحيل عن الدنيا برحلتية^(٤)

(١) الأصل : كم رأيت . والتصويب من الديوان ص ٢٥٦ . (٢) الديوان : تأمل .

(٣) الأبيات لأبي النعمانية ، انظر ديوانه ص ٣٠٣ . (٤) الديوان :

لأبكين لفقدان الشباب وقد نادى للشيب عن الدنيا برحلتية

يَا نَائِي مُنْتَجِمِي يَا هَوَّلَ مُطْلَى يَا ضَيْقَ مُضْطَجَمِي يَا بُدَّ شُقَّتِيَّةِ
 الْمَالُ مَا كَانَ قُدَّامِي لِآخِرَتِي مَالًا أَقْدَمُ^(١) مِنْ مَالِي فَلَيْسَ لِيَّةِ
 أَسْفًا لِنَافِلٍ لَا يَنْبِقُ بِالْتَعْرِيفِ حَتَّى يَرَى التَّصْرِيحَ ، وَلَا تَبِينَ لَهُ جَلِيَّةُ الْحَالِ
 إِلَّا فِي الْمَرْجِ ، كَأَنَّهُ وَقَدْ ذَكَرَهُ لِلْوَتِ فَأَفَاقَ ، فَانْتَبَهَ لِنَفْسِهِ وَهُوَ فِي السَّبَاقِ ، وَاشْتَدَّ بِهِ
 الْكَرْبُ وَالتَّفَتُّ السَّاقُ بِالسَّاقِ ، وَتَغَيَّرَ فِي أَسْرِهِ وَضَاقَ الْخِلْفَاقُ ، وَصَارَ أَكْبَرُ شَهْوَاتِهِ
 تَوْبَةً مِنْ شِقَاقِ ، هَيْهَاتَ مَقْصِي بِأَوْزَارِهِ الثَّقِيلَةِ ، وَخَلَا بِأَعْمَالِهِ وَاسْتَوْدَعَ مَقِيلَهُ ، وَغَيَّبَ
 فِي الثَّرَى وَقِيلَ لَا حِيلَةَ ، وَبَاتَ النَّدَمُ يَلْزِمُهُ وَبَشِ الْإِلَاحِي^(٢) لَهُ .

فَتَفَكَّرُوا إِخْوَانِي فِي ذَلِكَ الْغَرِيبِ ، وَتَصَوَّرُوا أَسْفَ الدَّامِ وَقَلَقَ لِلرَّيْبِ ، فَلَمَّلُوا
 حَالَهُ فَلَاحِظُوا الْغَيْبَ ، وَهَذَا أَمْرٌ تُبْعِدُهُ الْآمَالُ وَهُوَ وَاقِعٌ قَرِيبٌ .

أَبْصَرْتُهُ مُلْقًى بِمَحْوَدٍ بِنَفْسِهِ قَدْ كَلَّلَ الرُّشْعُ الْفَزِيرَ جَبِينَهُ
 لَا يَسْتَطِيعُ إِجَابَتِي مِنْ ضَعْفِهِ طَوْرًا بِكَفِّ شِمَالِهِ وَيَمِينِهِ
 وَطَبِيبُهُ قَدْ حَارَ فِيهِ وَقَدْ رَأَى أَنْفَاسَهُ تَعْلُو مِمَّا وَأَيْنَتَهُ
 قَدْ عَافَ مَشْرُوبَاتِهِ وَطَعَامَهُ وَقَلَى ذَاكَ صَدِيقَهُ وَخَدِيعَتَهُ
 إِخْوَانِي : سَلُّوا الْقُبُورَ عَنْ سُكَّانِهَا ، وَاسْتَحْبِرُوا الْحُودَ عَنْ قَطَّانِهَا ، نَحْبِرْكُمْ
 بِمُخْشَوْنَةِ الْمَضَاجِ ، وَتَمْلِكُمْ أَنْ الْحَسْرَةَ قَدْ مَلَأَتْ وَأَضِيعَ ، فَإِنَّ السَّافِرَ يُوَدُّ لَوْ أَنَّهُ رَاجِعٌ ،
 فَلْيَتَمِظِ النَّافِلُ وَلْيَرَاجِعْ .

يَا وَاقِفًا بِنَازِلِ الْقُبُورِ أَفْنَى فَأَهْلُهَا الْيَوْمَ عَنْكَ قَدْ شَفِلُوا
 قَدْ هَالَتْهُمْ مُتَكَرِّرٌ وَصَاحِبِهِ وَخَوْفٌ مَا قَدَّمُوا وَمَا عَمِلُوا
 زَهَّانٌ لَلْزَيِّ عَلَى مَدَرٍ^(٣) يُسْمَعُ لِلدُّودِ بَيْنَهُمْ زَجَلٌ^(٤)

(١) الدِّوَانُ : مَا أَوْدَعَهُ ... (٢) الْإِلَاحِي : الْعَابِدُ . (٣) لِلدُّو : الطَّيْنُ الْيَاسِ ، وَالْمَجَارَةُ .

(٤) الزَّجَلُ : الْجَلْبَةُ وَرُفْعُ الصَّوْتِ وَالتَّطَرُّبُ .

سَرَى الْبَلَى فِي جُوسِهِمْ فَبَرَتْ دَمًا وَفِيهَا وَسَّاتِ الْقُلُ
سَكْرَى وَلَمْ يَشْرَبُوا الْفَقَارَ وَمِنْ كَثُوسِ اللَّوْنِ مَا نَهَلُوا
يَنْتَظِرُونَ النُّشُورَ إِذْ يَفْ ۖ أَمْلَاكَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ
يَوْمًا تَرَى الصُّحُفَ فِيهِ طَائِرَةٌ وَكُلُّ قَلْبٍ مِنْ أَجَلِهِ وَجِلٌ
قَدْ دَنَتْ الشَّمْسُ مِنْ رُءُوسِهِمْ وَالنَّارُ قَدْ أُبْرِزَتْ لَهَا شُعْلٌ
وَأُزْلِفَتْ جَنَّةُ النَّعِيمِ فِيهَا طَوْبَى لِقَوْمٍ بَرَبْنَهَا نَزَلُوا
أَكْوَابُهُمْ عَسَجَدٌ بِطَافٍ بِهَا وَالْحَرُّ وَالسَّلِيلُ وَالْمَلُ
وَالْحُورُ تَلْقَاهُمْ وَقَدْ هُمُتْكَ عَنْ وَجْهِهَا الْأَسْتَارُ وَالْكِلَالُ^(١)

السهوم على قوله تعالى

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَمْلِكُ الظَّالِمُونَ ﴾^(٢)

قال ابن عباس رضى الله عنهما : هذا وعيدٌ للظالم وتعزية للظالم .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن علي ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا
عبد الرحمن بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا موسى بن داود ، حدثنا عبد العزيز بن سلمة ،
عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« الظلم ظلماتٌ يومَ القيامة » .

أخبرنا يحيى ابن علي اللدير ، أنبأنا عبد الصمد بن اللأمون ، حدثنا الدار قُطَيْ ،
أخبرنا يحيى بن صاعد ، حدثنا محمد بن هشام المروزي ، حدثنا أبو معاوية ، عن يزيد ،
عن أبي بُرْدة عن أبي موسى ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يُمَلِّئُ لِلظَّالِمِ
فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ
إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »^(٣) .

الحديثان في الصحيحين .

(١) السكل : جمع كلمة وهي السراقين . (٢) سورة إبراهيم : ٤٢ (٣) سورة : ١٠٢

أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد ، أخبرنا ابن النُّفُور ، أنبأنا الخُص ، أنبأنا البَقَوِي ، حدثنا أبو رُوَح البلدي ، حدثنا ابن شهاب الخياط ، عن ابن عَوْن ، عن إبراهيم ، عن ابن شَرِيح ، قال : سَيَلَمَ الظالمونَ حَطًّا من نقصوا ! إنَّ الظالم ينتظر العقابَ والظالم ينتظر النَّصْر !

أخبرنا محمد بن ناصر ، أنبأنا علي بن أيوب ، أنبأنا أبو علي بن شاذَّان ، أخبرنا الطوماري ، حدثنا ابن البراء ، حدثنا عبد اللّٰم ، عن أبيه ، عن وَهْب ، قال : بَقِيَ جبارٌ قصرًا وشيْدهُ فجاءت عجوزٌ مُسَلَّمةٌ فبِتْ إلى ظهر قصره كوخًا تعبد الله فيه ، فركب الجبارُ يومًا فطاف بفناء القصر ، فرأى الكوخ فقال : ما هذا ؟ فقيل له : امرأة هاهنا ثاوية ، فأمر به فهدم ولم تكن المرأة حاضرة ، فجاءت فرأته قد هُدم ، فقالت : من فعل هذا ؟ فقيل لها : إنَّ لك ركبًا فأمر بهدمه فرفقت طرفها إلى السماء وقالت : يا رب أنا لم أكن ، فانت أين كنت ! قال : فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه ^(١) !

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدرًا فالظلمُ آخره يأتيك بالندم
تسام عينك والظالمُ منتصب يدعو عليك وهينُ الله لم تتم

الجميع على قورده تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْخَرُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾

المعنى : تشخصُ أبصار الخلائق لظهور الأحوال فلا تمش .

الويلُ لأهل الظلم من رَقَل الأوزار ، ذِكْرهم بالقبايح قد ملأ الأقطار ، يكفهم أنهم قد وُسِّعوا بالأشْرار ، ذهبت لَذَاتهم بما ظَلَمُوا وبقى العار ، وداروا إلى دار العقاب وملكَ الغيْرُ الدار ، وخلوا بالذباب في بطون تلك الأحجار ، فلا تُثْمِث ولا أنيس ولا رفيق ولا جار ، ولا راحة لهم ولا سكون ولا مزار ، سالت جموعُ أسْتفهم على

(١) هذه الرواية من وهب بن منبه ، وهي تدور على نمط ما يرويه من اللبابة والتعجب ، ولم يكن لإثبات نصر الله للظالم حاجة إلى هذا التهويل .

مَسْلَقَهُمْ كَالْأَنْهَارِ ، شَبَّهُوا بَنِيَّانَ الْأَمَلِ فَإِذَا بِهِ قَدْ أَنْهَارَ ، أَمَّا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ جَارُ الْمَظْلُومِ
مِنْ جَارٍ ، فَإِذَا قَامُوا فِي الْقِيَامَةِ زَادَ الْيَلَاءَ عَلَى الْقَبْدَارِ « سَرَّاهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَفَشَى
وُجُوهَهُمُ النَّارُ » ، لَا يَفْرَتُكَ صَفَاهُ عَيْشُهُمْ كُلُّ الْأَخِيرِ أَكْدَارِ « إِنَّمَا يُؤْخَرُمْ لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » .

قوله تعالى : ﴿ مُهْطِمْينَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :
أحدها : أن الإهطاع النظر من غير أن يَطُرف الناظر . قاله ابن عباس .
والثاني أنه الإسراع . قاله الحسن وابن جبير .
قال ابن قتيبة : أَهْطَعَ البعيرُ في سَبَرِهِ إِذَا أَسْرَعَ .
وفيا أسرعوا إليه قولان : أحدهما الداعي . قاله قتادة . والثاني النار
قاله مقاتل .

والثالث : أن المهطع الذي لا يرفع رأسه . قاله ابن زيد .
قوله تعالى : ﴿ مُقْنِي رِهْوسَهُمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : رافى رهوسهم : قاله ابن
عباس وابن جبير وقال ابن قتيبة : الْقَنْعُ : الذي رَفَعَ رَأْسَهُ وَأَقْبَلَ بِطَرْفِهِ إِلَى
مَا تَيْنَ يَدَيْهِ .

وقال الزَّجَّاجُ : رافى رهوسهم ملتصقةً بأعناقهم .
والثاني : ناكسى رهوسهم . قاله اللُّؤْجُجُ ^(١) .
قوله تعالى : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرَفُهُمْ ﴾ والمعنى : أن نظرم إلى شيء واحد . قال
الحسن : وجوهُ الناس يومَ القيامةِ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد .

قوله تعالى : ﴿ وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاهُ ﴾ في معنى الكلام قولان : أحدهما : أن القلوب
خرجت من مواضعها ، فصارت في الحفاجير . رواه عطاء عن ابن عباس . وقال قتادة :

(١) الأصل : اللُّؤْجُجُ . محرفة . ولهه اللُّؤْجُجُجُ الدوسى ، أبو زيد عالم بالبرية والأنساب ، من أصحاب
العليل بن أحمد توفي سنة ١٩٥ هـ . وفيات الأعيان ٢/١٣٠ .

خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم « وأفسدتهم هوا » . أى ليس فيها شيء .

والثاني : أن أفسدتهم متجوقة لا تنفى شيئا من الخوف . قاله الزجاج .

وقال أبو عبيدة : أفسدتهم جوف لا عقول لها . وقال ابن قتيبة : متجوقة من الخوف .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ أى خوئهم « يومَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ » يعنى يوم القيامة « فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب » أى أهلكنا مدة يسيرة .

قال مقاتل : سألوا الرجوع إلى الدنيا « نُجِبَ دَعْوَتُكَ » بمنون التوحيد .

فقال لهم : « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ » . أى حلفت بالدينا أنكم لا تبعثون .

﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى نزلتم في أماكنهم وقراهم ، كالخجر ومدين وغيرها من القرى التى عرفت . ومعنى ظلموا أنفسهم : ضرروها بالكفر واللعينة « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » أى حرَبناهم ^(١) . [وكان ينبغى لكم أن تنزجروا عن الخلاف « وضرَبنا لكم الأمثال » أى بينا لكم الأشباه .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ فى المشار إليه أربعة أقوال : أحدها : أنه تمزود . قال ^(٢)

علي بن أبى طالب رضى الله عنه : قال غرود : لا أنهى حتى أنظر إلى السماء . فأمر بأربعة من النور فربيت واستجعت ، ثم أمر بتابوت ففُتحت ، ثم جُعل فى وسطه خشبة ، وجعل [على] ^(٣) رأس الخشبة لحا شديدة الحجر ، ثم جوعا وربط أرجلها بأوتار إلى قوائم التابوت ، ودخل هو وصاحب له فى التابوت ، وأغلق بابها ثم أرسلها ، فجعلت تريد اللع ، فصعدت فى السماء ماشاء الله تعالى ، ثم قال لصاحبه : افتح فانظر ماذا ترى ^(٤) . ففتح فقال : أرى الأرض كأنها الدخان . فقال : أغلق . فصعد ماشاء الله

(١) إلى هنا نهاية السقط فى ا . (٢) ب : فله . (٣) سقطت من ب . (٤) ا : ما ترى .

تعالى ، ثم قال : افتح فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منها إلا بُعْداً . فقال : صَوَّبْ خَشْبَتَكَ . فصَوَّبَهَا فَأَنْقَضَتِ النُّورَ تَرِيدُ اللَّحْمَ ، فسمعت الجبالُ هَذْبًا فَكَادَتْ تَزُولُ عَنْ مَوَاضِعِهَا .

والثاني : أَنَّهُ بِمُخْتَصَرٍّ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ لَهُ جَرَتْ ، وَأَنَّ النُّورَ لَمَّا ارْتَفَعَتْ نُودِي : يَا أَيُّهَا الطَّاغِيُّ أَيْنَ تَرِيدُ ؟ فَفَرَّقَ قَنْزُلٌ . فَلَمَّا رَأَتْ الْجِبَالُ ذَلِكَ ظَنَّتْ أَنَّهُ قِيَامُ السَّاعَةِ ، فَكَادَتْ تَزُولُ . وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ .

والثالث : أَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى الْأُمِّ لِلتَّقْدِيمِ وَمَكْرُومٌ شَرُّ كَرِيمٍ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ .
والرابع : [أَنَّهُمْ ^(١)] الَّذِينَ مَكَّرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ هَمُّوا بِقَتْلِهِ وَأَخْرَجُوهُ ^(٢) . ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ .

قوله تعالى : « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ » أَيْ جَزَاؤُهُ ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ مِنْ كَسَرِ اللَّامِ الْأَوَّلَى فَإِنَّ الْمَعْنَى ^(٣) : وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . أَيْ هُوَ أَضْعَفُ وَأَوْفَرُ ^(٤) وَمِنْ فَتْحِ [تَكَ] ^(٥) اللَّامِ أَرَادَ : قَدْ كَادَتْ الْجِبَالُ تَزُولُ مِنْ مَكْرِهِمْ .

وَفِي الْمُرَادِ بِالْجِبَالِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : الْجِبَالُ لِلْمَعْرُوفَةِ . قَالَ الْجُمْهُورُ .

والثاني : أَنَّهُا ضَرَبَتْ مِثْلًا لِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَثَبُوتُ دِينِهِ كَثَبُوتُ الْجِبَالِ الرَّاسِيَةِ . وَالْمَعْنَى : لَوْ بَلَغَ كَيْدُهُمْ إِلَى إِزَالَةِ الْجِبَالِ لَمَّا زَالَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ . قَالَ الزَّجَّاجُ .

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ خَائِفًا فِيهِ رُسُلَهُ » وَلِلْمَعْنَى أَنَّهُ قَدْ وَعَدَكَ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ » مِنَ الْكَافِرِينَ .
« يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » وَفِي مَعْنَى تَبْدِيلِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : [أَنَّهُ ^(٦)] تَبْدِيلُ بَأَرْضٍ بِيَضَاءِ كَأَنَّهَا فَضَةٌ .

(١) مِنْ أ . (٢) ب : وَإِخْرَاجِهِ . (٣) ١ : مِنْ مَكَّرَ الْأُمِّ الْأَوَّلَى قَالَ الْمَعْنَى . وَهُوَ تَحْرِيفٌ .
(٤) ١ : وَأَوْفَرُ . (٥) مِنْ أ . (٦) لَيْسَتْ فِي أ .

أخبرنا أبو القاسم الحريري ، أنبأنا أبو طالب العساري ، أخبرنا أبو بكر محمد بن شاذان ، أخبرنا محمد بن يعقوب الأعمى ، حدثنا العباس الدوري حدثنا أبو العتاب الدلال . حدثنا جرير بن أيوب البجلي ، حدثنا أبو إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، قال : سمعت ابن مسعود يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ » قال : « أَرْضٌ بِيضَاءُ كَأَنَّهَا فُضَّةٌ لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ حَرَامٌ ، وَلَمْ يُسَلَّ عَلَيْهَا ^(١) خَطِيئَةٌ » وهذا قول ابن عباس .

والثاني : أنها تبدل بأرض من فضة . قاله أنس بن مالك .

والثالث : أنها تبدل بحبرة بيضاء فيأكل المؤمن من تحت قدمه ^(٢) . قاله أبو هريرة وابن جبير والقرطبي ^(٣) .

والرابع : أنها تبدل ناراً . قاله أبي بن كعب .

والقول الثاني أن تبدلها : تزيير أحوالها ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يَبْسُطُهَا وَيَعْدُّهَا مَدَّةَ الْأَدِيمِ » وقال ابن عباس : يزداد فيها ويُنقص منها ، وتذهب آكائها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمتد .

وفي تبدل السماوات سبعة أقوال : أحدها أنها تحبل من ذهب قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه . والثاني : تصير جناتاً . قاله أبي بن كعب . والثالث : أن تبدلها تكوير شمسها وتناثر نجومها . قاله ابن عباس . والرابع : أنها تبدل بسماوات كأنها الفضة . قاله مجاهد . والخامس : [أن تبدلها تزيير أحوالها ، فرة تكون كاللؤلؤ ، ومرة كاللذهان . قاله ابن الأنباري . والسادس ^(٤) :] أن تبدلها أن تطوى كطوى السجل للكتاب . والسابع : أن تنشق فلا تطيل . ذكرها الماوردي .

قالت عائشة : قلت : يا رسول الله ، يوم تبدل الأرض غير الأرض ، فإين الناس يومئذ ؟ قال : « على الجسر » فمنهم ^(٥) من يمشى مكباً على وجهه ومنهم من يمشى سويّاً .

(١) : فيها . (٢) : لدمية . (٣) : ب : والقرطبي . محرفة . (٤) : سقط من ب .

(٥) : منهم .

قوله تعالى : « وترى الجرمين » يعنى الكفار « يومئذ مقرنين » فيه^(١) ثلاثة أقوال : أحدها يقرنون مع الشياطين . قاله ابن عباس . والثانى : تقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم . قاله ابن زيد . والثالث : يقرن بعضهم إلى بعض . قاله ابن قتيبة .

والأصفاد : الأغلال .

قوله تعالى : « سראيلهم من قطران » وهى القمص ، واحدها سريال ، والقطران : معروف ، وهو شئ يتحلب من شجر^(٢) ينبت به الإبل . قال الزجاج : إنما جمل القطران لأنه يبالغ فى اشتعال النار فى الجلود ، فحذرهم ما يعرفون .

وقرأ ابن عباس والحسن « من قطر » بكسر القاف وسكون الطاء والتنوين « وآن » بقطع الهزلة وفتحها ومدّها . والقطر : الصغر والنحاس وآن [قد]^(٣) انتهى حرّه .

« ونفثى وجوههم النار » أى عملوها .

« ليحجزى الله » اللام متعلقة بقوله تعالى : « وبرزوا » وفى سرعة حسابه قولان : أحدها : بحالة حضوره وحجبه . والثانى : سرعة فراغه . قال ابن عباس : يفرغ الله عز وجل من حساب أخلق فى قدر نصف يوم من أيام الدنيا .

أين من آمب ولما ، أين من غفل وسها ، دهاه أظلم مادّته ، وحطّر ركنه فوقه ، ذهبت لذة ذنوبه وحسب بها ، نظر فى عاجله ونسى للنتهى .

نادى^(٤) القصور التى أقوت تماثيلها أين الجسوم التى طابت معاصمها
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ألهاه ناضرو دنياه وناغمها .

(١) ب : وفيه . (٢) ب : من شجرة . (٣) ليست فى ا . (٤) ب : ياذا القصور .

أَيْنَ الْأَسْوَدُ الَّتِي كَانَتْ تَحَاذِرُهَا أَسَدُ الْعَرِينِ وَمِنْ^(١) خَوْفِ تَسَالِمِهَا
أَيْنَ الْجَبِوشُ الَّتِي كَانَتْ لَوِ اعْتَرَضَتْ لَهَا الْعُقَابُ لَخَانَتْهَا قَوَادِمُهَا^(٢)
أَيْنَ الْحِجَابِ وَمِنْ كَانَ الْحِجَابُ لَهُ^(٣) وَأَيْنَ رُنْبَتِهِ الْكِبَرَى وَخَادِمُهَا
أَيْنَ الَّذِينَ لَهُمْ هَآءُ لَهُ خُلِقُوا كَمَا لَهَتْ فِي مَرَاعِيهَا سَوَائِمُهَا
أَيْنَ الْبَيُوتِ الَّتِي مِنْ عَسَجِدٍ نُسَجَتْ^(٤) هَلِ الدَّنَانِيرُ أَغْنَتْ أُمَّ^(٥) دِرَاهِمِهَا
أَيْنَ الْأَيْرِ^(٦) تَعْلُوهَا ضَرَاغِمِهَا هَلِ الْأَيْرِ^(٧) أَغْنَتْ أُمَّ ضَرَاغِمِهَا^(٨)
هَذِي الْمَاعِلُ كَانَتْ قَبْلُ عَاصِمَةً وَلَا يَرَى عِصَمَ الْغُرُورِ عَاصِمُهَا
أَيْنَ الْعِيُونِ الَّتِي نَامَتْ فَانْتَبَهَتْ وَاهَا لَهَا نَوْمَةٌ مَاهَبٌ نَائِمُهَا

سمِعْ عَلَى قَوْلِ تَعَالَى

« هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ^(٩) »

يَعْنِي الْقُرْآنَ

يَا مَشْغُولًا بِذُنُوبِهِ ، مَغْمُورًا بِمُيُوبِهِ ، غَافِلًا عَنْ مَطْلُوبِهِ ، أَمَّا نِهَاجُ الْقُرْآنِ عَنْ حُوبِهِ
هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .

أَنْبِيََاءَ الْعَاصِي قَبِيحَ مَكْتُوبِهِ ، لَا بُدَّ عَنْ سُؤَالِهِ^(١٠) عَنْ مَطْعُمِهِ وَمَشْرُوبِهِ ،
وَحَرَكَاتِهِ وَخَطَوَاتِهِ^(١١) فِي مَرْغُوبِهِ ، أَلَا يَذْكُرُ فِي زَمَانِ رَاحَتِهِ أحيانَ كُرُوبِهِ ،
أَلَا يَحْذَرُ مِنَ الْأَسَدِ قَبْلَ وَقْتِ وَثُوبِهِ ، أَلَا يَتَخَذُ تَقِيَّةً مِنْ شَرِّ هُوبِهِ ، أَلَا يَذْكُرُ مِنْ
خِصْبِهِ لِأَيَّامِ^(١٢) جُدُوبِهِ ، أَلَا يَتَفَكَّرُ^(١٣) فِي فِرَاقِهِ لِحُبُوبِهِ ، أَلَا يَذْكُرُ النَّعْشَ قَبْلَ

(١) : وعن خوف . (٢) : بنقادها . (٣) : ب : لهم . (٤) : ب : سجت .
(٥) : ب : أو . (٦) : أين الأئمة . (٧) : أم عزائمها . (٨) : سورة إبراهيم .
(٩) : عن مسألة . (١٠) : وخطراته . (١١) : لإتيان جنوبه .
(١٢) : أ : ألا يذكُر .

ركوبه ، كيف يغفل من هوى صفّ حروبه ، ربّ إشراق لم يُدرِكْ زمنُ غُروبه ،
إلى متى في سِرْصه على القاني ودؤوبه ، متى يردُّ يوسفُ قلبه على يعقوبه ، لقد وعظه
الزمان بمنون ضروبه ، وحذّره استلابه بأنواع خطوبه ، ولقد زجره القرآن بتخويفه
مع لَذّة أسلوبيه ، هذا بلاغٌ للناس وليُنذروا به .

أيقظنا الله وإياكم من رُقدة الغفلة ، ووقّنا الله وإياكم للنزود قبل النقلة ، وأهمنّا
اغتنامَ الزمان ووقت^(١) للهالة . إنه سميع قريب .

(١) : في وقت الهالة .

المجلس السادس في قصة نوح

الحمد لله الذي مهّد لطالبيه سبيلاً واضحاً ، وكلّ ابتعث نبياً مرشداً^(١) ناعماً ، فأرسل آدم غادياً على بنيّه بالتعليم ورائعاً ، غفله^(٢) شيث ثم إدريس ، وجاء نوح ناعماً ، وأمر هوداً بهداية عاد فلم يزكّ مكادحاً^(٣) « وإلى نوح أخاه صالحاً » .

أحمد ما بدأ برزق لانعما ، وأصلّى على رسوله محمد ما دام الفلك ساعياً ، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق ، وقُلّ في الصديق مادحاً ، وعلى عمر الفاروق الذي لم يزكّ بنور الحق لايحاً ، وعلى عثمان وإعجب بمنل دمه طامحاً ، وعلى عليّ وأعلن^(٤) بفضائله صانعاً ، وعلى همه العباس وما زال عرّف طيبيه ناعماً^(٥) .

قال الله تعالى : « وإلى نوح أخاه صالحاً »^(٦) .

نوح : هو ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح . أرسل إلى أولاده وهو : صالح بن عبيد بن أنيف [بن ماشع بن عبيد بن جادر ابن نوح^(٧)] .

والشمّد : الماء القليل الذي لا مادة له ، وإنما قال « أخاه » لأنه من قبيلتهم .

« قال يا قوم اعبدوا الله » أي « وحدوه » فلم يزدكم دعاؤه إلا طغياناً ، فقالوا : ائتنا بأية فاقترحوا عليه ناقةً ، فأخرجهم إلى صخرة ملساء فتمخضت تمخض الحاميل ، ثم انفلتت عن ناقة على الصفة التي طلبوها ، ثم انفصل عنها فصيل فقال « ذروها تأكل في أرض الله » أي ليس عليكم مؤنتها ولا علفها . وتأكل مجزومة على جواب الشرط المقدّر ، والمعنى إن تذروها تأكل .

« ولا تمسوها بسوء » .

(١) : مرسل وناصح . (٢) : غفله . (٣) : ب : فأعلن . (٤) : ب : وما زال طيب عرته ناعماً . (٥) : سورة الأعراف : ٧٣ من ١ ، وفي ب موضعها من أولاد نوح أيضاً .

والسوء في القرآن على عشرة أوجه : أحدها الشدة : « يَسْؤُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ »^(١) والثاني : الزنا : « مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ »^(٢) . والثالث : البرص : « تَخْرُجُ بَيَاضٌ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ »^(٣) والرابع : العذاب : « لَا يَمْتَنِعُهُمُ السُّوءُ »^(٤) والخامس : الشرك : « مَا كُنَّا نَقْصِلُ مِنْ سُوءٍ »^(٥) والسادس : السب : « وَأَلَسْتَهُمْ بِالسُّوءِ »^(٦) والسابع : الضرر : « وَيَكْشِفُ السُّوءَ »^(٧) والثامن : الذنب : « يَمْلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ »^(٨) والتاسع : القتل : « وَلَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ »^(٩) والعاشر : المقر : « وَلَا تَحْشَوْهَا بَسُوءٌ »^(١٠) .

فكانت تشرب ماء الوادي كله [في يوم]^(١١) . وتسقيهم الدر^(١٢) مكانه .
قوله تعالى « وَيَوَسَّوْا فِي الْأَرْضِ » أي أنزلكم « تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا » السهل : ضد الحزن . والقصر : ما شيد وعلا من المنازل .
قال ابن عباس رضى الله عنهما : اتخذوا القصور في^(١٣) سهول الأرض للصيف وبقوا في الجبال للشتاء .

قال وهب بن منبه : كان الرجل منهم يبنى البنيان فيمر عليه مائة سنة ، فيخرب ، ثم يعمده فيمر عليه مائة سنة فيخرب ، فأضجرهم ذلك ، فاتخذوا من الجبال بيوتاً .
قال علماء السير : لم يلتفتوا إلى قول صالح واحتالوا على قتله ، فذلك قوله تعالى « لَنُبَيِّنَنَّ وَأُخْبِرَنَّ » وقصدوا في أصل جبل ينتظرونه ، فوقع الجبل عليهم فهلكوا ، ثم أقبل قوم منهم يريدون قتل الناقة فقال لم صالح : « ناقة الله وسقياها » أي احذروا^(١٤) ناقة الله وشربها من الماء . فكمن لها قاتلها وهو قدار بن سالف في [أصل]^(١٥) شجرة فرماها بسهم فانتظم به عضلة^(١٦) ساقها ، ثم شد عليها بالسيف فكشف عروقها^(١٧) ، ثم نحرها^(١٨) .

(١) سورة البقرة : ٤٩ (٢) سورة يوسف : ٥١ (٣) سورة النمل : ١٧ :
(٤) سورة الزمر : ٦١ (٥) سورة النحل : ٢٨ (٦) سورة الشعنة : ٢ (٧) سورة النمل : ٦٢ :
(٨) سورة النساء : ١٧ (٩) سورة آل عمران : ١٧٤ (١٠) سورة الأعراف : ٧٣ :
(١١) : ١ وكانت . (١٢) سقطت من أ . (١٣) : ١ : اللين . (١٤) ب : من .
(١٥) : ١ : من ب . (١٦) : ١ : في عضلة . (١٧) ب : فكسر عروقها . (١٨) : ١ : ثم نحرها .

وقالوا : يا صالح ائتنا بما تَدِينَا من العذاب . فقال لهم صالح : تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . قال [الْمُسْرُونَ ^(١)] : لَمَّا عَقَرُوهَا صَعِدَ قَصِيلُهَا إِلَى الْجَبَلِ فَرَّغَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فقال صالح : لِكُلِّ رَغْوَةٍ أَجَلُ يَوْمٍ ، إِلَّا أَنْ الْيَوْمَ الْأَوَّلَ تَصْبِحُ وَجُوهُكُمْ مُصْفَرَّةٌ ، وَالْيَوْمَ الثَّانِي مُحَرَّرَةٌ ، وَالْيَوْمَ الثَّلَاثَ مَسْوَدَّةٌ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ إِذَا وَجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةٌ ، فَصَاحُوا وَبَكَوْا ^(٢) . وَعَرَفُوا أَنَّهُ الْعَذَابُ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي إِذَا ^(٣) وَجُوهُهُمْ مُحَرَّرَةٌ ، فَضَجُّوا وَبَكَوْا ^(٤) . فَلَمَّا أَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ إِذَا وَجُوهُهُمْ مَسْوَدَّةٌ ، كَأَنَّمَا طَلَبَتْ بِالْقَسَارِ ، فَصَاحُوا بِأَجْمَعِهِمْ : أَلَا قَدْ حَضَرَكُمُ اللَّوْثُ ^(٥) . فَتَكَفَّنُوا وَالْقَوَا أَنْفُسَهُمْ ^(٦) بِالْأَرْضِ لَا يَذَرُونَ مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ آتَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا صَوْتُ كُلِّ صَاعِقَةٍ ، فَتَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ .

وقال مقاتل : حَفَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ قُبُورًا : فَلَمَّا ^(٧) ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ [وَلَمْ يَأْتِهِمُ الْعَذَابُ ^(٨)] ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ رَحِمَهُمْ ، فَفَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا . فَقَامَ ^(٩) جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوْقَ لِلدِّينَةِ فَدَخَّ الشَّمْسَ ، فَجَرَعُوا ^(١٠) إِلَى قُبُورِهِمْ ، فَصَاحَ [بِهِمْ ^(١١)] صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ : مَوْتُوا عَلَيْكُمْ الْعَذَابُ . فَاتُوا وَزُلْزِلَتْ بَيُوتُهُمْ فَوْقَهُمْ عَلَيْهِمْ ^(١٢) « فَمَدَّمْ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ » أَيْ أَطْبَقَ ^(١٣) عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ . وَلَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى دِيَارِهِمْ قَالَ : « لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَذْمُومِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِأَكِينٍ ^(١٤) » .

اعتبروا إِيْحَاوِي هَؤُلَاءِ الْمَالِكِينَ ، وَانظُرُوا سُوءَ ^(١٥) تَدْبِيرِ الْخَاسِرِينَ ، لَا بِالْإِلَاقَةِ اعْتَبِرُوا ، وَلَا لَتَمُوزِهِمُ اللَّيْنُ شَكَّرُوا ، وَعَتَرُوا عَنِ النَّفَمِ ^(١٦) وَبَطَرُوا ، وَغَوَّوْا عَنِ السَّكْرَمِ فَانظُرُوا ، وَأَوْعِدُوا بِالْعَذَابِ فَاحْذَرُوا ، كَلَّمَا رَأَوْا آيَةً مِنَ الْآيَاتِ كَفَرُوا .

(١) سقطت من ب . (٢) : فصاحوا ولبك . (٣) ب : فإذا . (٤) : ا : ولبك . (٥) : ا : العذاب . (٦) : ا : أنفسهم . (٧) ب : لا . (٨) سقطت من ب . (٩) ب : ثم جرعوا . (١٠) : ا : فدخلوا . (١١) من ا . (١٢) : ا : على قبورهم . (١٣) ب : طبق . (١٤) أخرجه الشيخان وأحد . (١٥) ب : لى تدبير الخاسرين . (١٦) ب : عن النبي .

الطبع الخبيث لا يتغير ، ولقدّر ضلّاله لا يزال يتغير ، خرجت إليهم ناقةً من أحسن النعم ، ودرّ لبنها لم فتوّارت ^(١) التّم فسكفروا وما شكروا ، فأقبلت النّعم .
أعاذنا الله وإياكم من الكفران ، وحفظنا من مّوجبات ^(٢) الخسران ،
إنه إذا لطف صان .

الكلام على البصنة

أيها الكرانُ بالآ مال قد حان الرحيلُ
ومشيب الرأسِ والقوْ دَيْنُ الموتِ دليلُ ^(٣)
فانتبه من رقدة الغفّة لِقَ فالمر قليلُ
وأطرحْ سوف وحتى فهما داءٌ دَخِيلُ
يا من صُبحَ شيبه بمدّ ليلِ شبابه قد تبليج ، ونذيره قد حاتم حولَ رحاه وعرج ،
كانك بالموتِ قد أتى سريعاً وأزعج ، وثقلَ عن دارِ أينفَ مَكْرَها وأخرج ، وحلك
على خشونة النمش بمدّ لين الكودج ، وأفصح بهلاكك وقد طال ما مَجْمَج ^(٤) ، وأفترك
إلى قليل من الزاد وأحوج ، يا لاهيّا في دار البلاء ما أقبح فمك وما أتمجج ، ولا عالماً
نظرَ الناقد وبضاعته كلّها بهرج ، ولا غافلاً عن رحيله سلبُ الأقران أنموذج .

سَيَقْطَعُ رَبِّبُ ^(٥) الدهرَ بَيْنَ القريبَيْنِ لكل اجتماعٍ فرقةٌ من يدِ البَيْنِ
وكلُّ يَمْقَى ساعةً بمدّ ساعةٍ تخالته عن نفسه ساعةُ التحننِ
وما البش إلا يومٌ موتٌ له غدٌ ^(٦) وما الموتُ إلا رَقْدَةٌ بين يومينِ
وما الحشرُ إلا كالصباح إذا انحلى يقومُ له اليَقْظانُ من رَقْدَةِ اللَّيْنِ
فيا عجبا ^(٧) متى وما طولَ غَفْلتي أوْمَلُ أن أبقي وأني ومن أين

(١) ب : فتوّارت . (٢) من حوالت الخسران . (٣) ١ : ومشيب الرأس * الموت دليل .

(٤) مجمع : في خبره . لم يفته ولى : تجميم . (٥) ١ : رين الدهر . ولها عرفة .

(٦) كذا في ١ . ولى ب : إلا موت يوم له غد . (٧) ١ : أيا عجبا . .

يا من يبارز مَوْلَاهُ بما يَكْرَهُ ، ويخالِفُه في أمرِهِ آمَنَّا مَكْرَهُه ، ويُنِمْ عليه
وهو ينسى سُكْرَهُ ، والرحيل قد دنا وماله فيه فِكْرُهُ ، يا من قبائعه تُرْفَعُ عَشِيًّا وبُكْرُهُ ،
يا قليلَ الزاد ما أطولُ ^(١) الثَّغْرَةُ ، والثَّغْلَةُ ^(٢) قد دَنَتْ والصَّيرُ الحَفْرَةُ ، متى تصل
في قلبك للمواعظ ، متى تراقب العواقب وتلاحظ ، أَمَا تَحْذَرُ من أُوْعِدَ وهُدِدَ ، أَمَا تَخَافُ
من أُنْذِرَ وشُدِّدَ ، متى تَضْطَرُّ نارُ الخوفِ في قلبك وتتوقد ، إلى متى بين التَّصَوُّرِ
والتَّوَانِي تتردد ، متى تَحْذَرُ يوماً فيه الجلودُ تَشْهَدُ ، متى تترك ما يَفْقَى رَغْبَةً فيما لا يَنْفَدُ ،
متى تَهْبُ بك رَجْمُ الخوفِ كأنك غصن ^(٣) يتأوَدُ ، اليَدَارُ اليَدَارُ إلى الفضائل ، والحدار
الحدار من الرذائل ، فإنما هي أيامٌ فَلَائِلُ :

اغتنم في الفراغَ فَضْلَ ركوعٍ فمسي أن يكون موتك بنته
كم صحبح رأيت من غير سقمٍ ذهبت ^(٤) نفسه السليمة قلته
حججٌ مسروق فانا مِ الإساجدا ، وكان مجير ^(٥) بن الربيع يصلح حتى ما يأتي فرائد إلا حبوا .
اغتنم ركعتين زُلْني إلى الله إذا كنت فارغاً مستريحاً
ولإذا ما هممت ^(٦) أن تفعل الباطل فاجعل مكانه نسيحاً

يا سكران الهوى وإلى الآن ماصحاً ، يا مُغْنِيَا زمانَه الشريفَ لهواً ومرحاً ، يا مُعْرِضَا
عن لومٍ من لَامَ وعَتَبَ من لَحَا ، متى يعود هذا القاسدُ مُصْلِحَا ، متى يرجع هذا الهالكُ مُقْلِحَا .
لقد أُنْبِتَ النصحاءَ الفصحاءَ ، أما وعِظْتَ بما يكفِي ، أما رأيتَ من العبرة ما يشي ،
فانظر لنفسك قبل أن يعمى الناظر ، وتفكر في أمرك بالقلب الحاضر ، ولا تسكن الفتورَ
فإنك إلى [مسكن ^(٧)] القبور صائر ، فالحق للسمات ، والجمع للشتات [والأمر ^(٨)] ظاهر .
عاصي ^(٩) الهوى إن الهوى مَرَكَبٌ يصعبُ بعدَ اللين منه الذَّكُولُ ^(١٠)

(١) ب : وما أطول . (٢) ب : والثغرة . محرفة . (٣) ب : متى تهب بالصبر الرجاء كفضن يتأوَد .

(٤) ب : ذهبت . محرفة . (٥) ا : عين . محرفة . (٦) ا : فإنما هممت . (٧) سقطت من ا .

(٨) من ا . (٩) الأبيات لصالح بن عبد القدوس . انظر ذم الهوى لابن الجوزي ٣٤ .

(١٠) ا : القليل وهى رواية ذم الهوى ، وما أُنْبِتَ من ب .

إِنْ يَجْلِبِ الْيَوْمَ الْمَوَى لَذَّةً فَفِي غَدْرٍ مِنْهُ الْبُكَاءُ وَالْمَوِيلُ
مَا بَيْنَ مَا يَتَخَسَّدُ فِيهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الدَّمُّ إِلَّا الْقَتِيلُ

الكلام على قوله تعالى

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ ينادي للنادي^(١)﴾

والمعنى : استمع حديث ذلك اليوم . والنادي : إسرائيلي ، يقف على صخرة بيت المقدس فينادي : يا أيها الناس هذؤا إلى الحساب . إن الله تعالى يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء .

وهذه الصيغة هي الأخيرة .

قوله تعالى : « من مكان قريب » للكان القريب هو الصخرة . قال كمب ومقاتل : هي أقرب الأرض إلى السماء بمائة عشر ميلاً . وقال ابن السيب^(٢) : باثني عشر ميلاً . قال الزجاج : ويقال : إن تلك الصخرة في وسط الأرض .

سبح

يا من يدعى إلى نجاته فلا يجيب ، يا من قد رضي أن يخسر ويخيب ، إن أمرك طريف وحالك عجيب ، اذكر في زمان راحتك ساعة الوجيب « واستمع يوم ينادي للنادي من مكان قريب » .

وتحك إن الحق حاضر ما يفيب ، تحصى عليك أعمال الطلوع وأعمال اللغيب ، ضاعت الرياضة في غير تجيب [سمالك تدل وما يخفى للريب^(٣)] اسمع لا بد لغيران^(٤) الفراق من نيب ، أنسا كن الغفلة ولنغيرنا نيب ، يا من سلّمه^(٥) كلها ميب ، اذكر يوم الفزع والتأنيب « واستمع يوم ينادي للنادي من مكان قريب » .

لا بد والله من فراق النيش الرطيب ، والتعاف إلى مكان الطيب ، واجمعا للذات بمد

(١) سورة ق ٤١ . (٢) ١ : ابن السائب . (٣) سقطت من ١ . (٤) ١ : لفراب . (٥) ١ : يامن أشغاله .

هذا كيف تطيب ، وبحك أحضر قلبك لوعظ الخطيب « واستمع يوم ينادى للنادى من مكان قريب » .

تذكر من قد^(١) أصيب كيف نزل بهم يوم عصيب ، وانته لأحظ الخطأ والنصيب [واحتذر^(٢)] فعليك شهيد ورقب ، إذا حلّ للوث حلّ التركيب ، وتقلب مقلّ القلوب في قلب التقلب ، فتزعج الروح ازعاج الصرمة^(٣) [إذا^(٤)] أحست بذرب ، فالتفت يا محب الهوى عن هذا الحبيب « واستمع يوم ينادى للنادى من مكان قريب » .

ستخرج والله من هذا الوادي الرحيب ، ولا ينطق البكاء والنحيب ، لا بد من يوم يتغير فيه الشبان والشيب ، ويذهل فيه الطفل للهول ويشيب ، يا من عمله كله ردىء فليته قد شيب « واستمع يوم ينادى للنادى من مكان قريب » .

كيف بك إذا أضرت في حال كئيب ، وعليك ذنوب أكثر من رمل كئيب ، ولله من الطالب والعظيم الحسب ، فحينئذ يبعد عنك الأهل والنسب ، التوح أولى بك يا مغرور من الشيب ، أتؤمن أم عندك تكذيب ، أم [ترأك^(٥)] تصبر على التعذيب كأنك بدمع العين ومائها قد أذيب ، اقبل نصحي وأقبل على التهذيب « واستمع يوم ينادى للنادى من مكان قريب » .

يا مطالباً بأعماله ، يا مستولاً عن أفعاله ، يا مكتوباً [عليه^(٦)] جميع أقواله ، يماقشاً على كل أحواله ، نسيانك لهذا أمر عجب ، أنسكن إلى العافية ونساكن البيئة العافية وتظن أيمان الغرور^(٧) وافية ، لا بد من سهم مصيب « واستمع يوم ينادى للنادى من مكان قريب » .

لو أحسنت الخلاص أحسنت ، لو آمنت بالعرض لتجملت وتزينت ، يا من قد انجمت

(١) ١ : من قد نزل به يوم عصيب . (٢) ١ : لأخذ الخط . (٣) ليست في ١ .

(٤) والصرمة النطمة من الإبل أو النعم من المصريين إلى الثلاثين والأربعين . (٥) من ١ .

(٦) ١ : وتظن أن أعمال الغرور .

عليه الأمور لو سألتَ لَتَبَيَّنْتَ ، ويحك أحضر قلبك إنما أنت في الدنيا غريب « واستمع يومَ ينادى المُنَادِي من مكانٍ قريب » .

إلى متى أنت مع أعراضك ، متى ينتقض زمانُ أعراضك ، يازمن البلى متى زمن إنهاضك ، تالله لقد كُفَّ من ^(١) أمراضك الطبيب .

قوله تعالى « يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ » وهي النفخة الثانية « بالحق » أى بالبعث الذى لا شك فيه « ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ » من القبور ، تنشق السماء ذات البروج انشقاق الثوب النسوج ، بأنهب فُطُور وأُظُرَفُ فُرُوج ، وَيُنْثَرُ حَبُّ السَّمَاءِ ويسقط الدُمُوجُ ^(٢) وَتُقْبَلُ لِلْإِنْسَانَةِ إِبْقَالُ الْقُبُوجِ ^(٣) وَتَمِيدُ الْأَرْضُ فَتُفْلِقُ وَتَمُوجُ ، وتمود جرّاء بعد الرضا والروج ، وتَدِلُّ الْعَتَاةُ وتتكسر العُلُوجُ ، وتستوى أقدامُ العرب والعجم والزُوج ، فأخسُ اخلائق يومئذ يأجوج ومأجوج ، وأخفر الناس على طوله عُوجُ ^(٤) ، ويقرب الحساب ويرُوج ، وَيُنْقَسِبُ الصَّرَاطُ والريح خَجُوجُ ^(٥) ، أين حرارة القلوب أَضْرَبَتْ بِالْثُلُوجِ « يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » .

قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ » أى نميت في الدنيا ونحْيِي بالبعث « وإِلَيْنَا الْمَصِيرُ » بعد البعث « يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا » للنفى : فيخرجون منها سِرَاعًا .

إله من يوم لا تستطيع له دفاعا ، صاح بهم من لم يزل أمره مُطَاعًا ، فسازلتهم الحشرات فأسرّهم فزاعا ، واستسلموا للهلاك وما تدّ بعدُ باعًا ، سماها لما يجرى يومئذ سماها « يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا » .

مزقّهم القُعود تمزيقًا مُشَاكَا ، وصيّرت تلك الأبدان رفاتا شِيكَا ، ونفخ في

(١) : فى أمراضك . وكفى . ضف . (٢) الدُمُوج : الحجر الأملس . (٣) القُبُوج : الجماعات من الناس . (٤) يريد عوج بن منق ، وهو شخصية أسطورية وردت فى بعض الآثار . (٥) الخجوج : الريح العنيدية للريح أو للحرارة فى جوبها .

الصور ققاموا عطاشًا جيعا ، وعلوا أن الهوى كان لم خدّعا ، فتداعى بالويل من كان بالسرور تداعى « يوم تشقّ الأرض عنهم سراعا » .

حضروا من صحراء القيامة قاعا ، فوجدوه أصمبّ البقاع بقاعا ، وتناولوا بالآيمان والشائل رقاعا ، حُفِظَت أعمالم فما وجدوا شيئا مضاعا ، وكيّلَ الجزاء بكفّ الوكيل كما كالأصاعا بصاعا^(١) ، ذلك يوم لا يراعى فيه إلا من كان راعى « يوم تشقّ الأرض عنهم سراعا » .

قوله تعالى : « ذلك حشرٌ علينا يَسِيرٌ » أى هَيِّنْ « نحنُ أعلمُ بما يقولون » أى فى تكذيبك . وهذه تسليةٌ له « وما أنتَ عليهم بجبار » أى بمسلطٍ فتصهرم على الإسلام ، وهذا منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : « قَدْ كُرِّهَ الْقُرْآنُ » أى فَمِطَ بِهِ . قال بعض السلف : من لم يعطه القرآن ولا الشيب فلو تناطحت بين يديه الجبال ما انمط !

إذا النفسُ الالهية ، تقرأ القرآن وهى ساهية ، أمالك ناهيةً فى الآية الناهية ، كم خوفك القرآن من داهية ، أما أخبرك أن أركان الحياة واهية ، أما أعلمك أن أيام العمر متناهية ، أما عرفك أسباب الفروركاهيه ؟

قد يرعى^(٢) المرء يوما بعد هفوته
وعنكم الجاهل الأيام والعبر
والعلم يُخِجِلِي المعى عن قلب صاحبه
كما يحلّ سواد الظلمة القمر
والذكرُ فيه حياة للقلوب كما
يحى البلاد إذا ماتت المطرُ

(١) كذا بالأصل ، وهى ضرورة لمراعاة السجع . (٢) هذه القصيدة بكلمات لسايق البربرى وهو سابق بن عبادة البربرى أبو سعيد ، شاعر من الزهاد ، له كلام فى الحكمة والرفائق ، وهو من موالى بنى أمية ، والبربرى لقب له ، ولم يكن من البربر ، سكن الرقة وكان يمد على عمر بن عبدالعزيز فيستعصمه عمر فينصه من مواعظه . ترجمه فى تهذيب ابن عساكر ٣٨/٦ وخزانة البغدادى ١٦٤/٤ واللباب لابن الأثير ١٠٧/١ .

لا يَنْفَعُ الذِّكْرَ قَلْبًا قَلْبًا أَبَدًا
وَاللَّوْثُ جِسْرٌ لِمَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِهِ
فَهُمْ يَجُوزُونَ^(١) أَفَوَاجًا وَتَجْمَعُهُمْ
لَا يَلْبِثُ الشَّيْءُ أَنْ يَبْلَى إِذَا اخْتَلَفَتْ
وَكُلُّ يَتَرٍ خَرَابٌ بَعْدَ جِدَّتِهِ
بَيْنَمَا يَرَى النَّصْنُ لَدُنَّا فِي أَرْوَمَتِهِ^(٢)
كَمْ مِنْ جَمِيعٍ أَشْتَدَّ الدَّمَرُ قَتَلْتَهُمْ
أَبَدًا أَدَمَ تَرْجُونَ الْبِقَاءَ وَهَلْ
لَكُمْ^(٣) بَيُوتٌ بُمُتَّتِ السُّيُوفُ وَهَلْ
إِلَى الْقَنَاءِ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُمْ
وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ فِي الدُّنْيَا لَهُ أَمَلٌ
لَهَا حُلَاوَةٌ عِيشٍ غَيْرُ دَائِمَةٍ
إِذَا قَضَتْ زُمرًا أَجَاهُهَا نَزَلَتْ
وَلَيْسَ يَزْجُرُكُمْ مَا تَوْعَطُونَ بِهِ
مَالِي أَرَى النَّاسَ وَالْدُّنْيَا مُؤَلِّيَةً
لَا يَشْعُرُونَ بِمَا فِي دِينِهِمْ نَقَصُوا

وَهَلْ^(٤) يَلِينُ لَقَوْلِ الْوَاعِظِ الْحَجَرُ
إِلَى الْأُمُورِ الَّتِي تَخْشَى وَتَنْتَظِرُ
دَارًا إِلَيْهَا يَصِيرُ الْبَدْوُ وَالْحَضَرُ
يَوْمًا عَلَى نَقْصِ الرِّوْحَاتِ وَالْبَكْرُ
وَمِنْ وَرَاءِ الشُّبَابِ لِلْمَوْتِ وَالْكِبَرُ
رَبَّانٌ صَارَ حَطَامًا جَوْفُهُ نَجْرُ
وَكُلُّ شَمْلٍ جَمِيعٌ سَوْفَ يَنْتَشِرُ
تَبْقَى فُرُوعٌ لِأَصْلٍ حِينَ يَنْقُصُ
يَبْقَى عَلَى اللَّاءِ^(٥) بَيْتٌ أَشْهَ مَدْرُ
مَصِيرُ كُلِّ بَنِي أُمِّهِ وَإِنْ كَثُرُوا
إِذَا انْقَضَى سَتَرُهَا أَتَى سَفَرُ
وَقِ الْعَوَاقِبُ مِنْهَا الْمَرْءُ وَالصَّبِيرُ
عَلَى مَنَازِلِهَا مِنْ بَعْدِهَا زَمْرُ
وَالْبَهْمُ يَزْجُرُهَا الرَّاعِي فَتَنْزَجُرُ
وَكُلُّ جَبَلٍ عَلَيْهَا سَوْفَ يَنْتَبِرُ^(٦)
جَهْلًا وَإِنْ نَقَصَتْ دُنْيَاكُمْ شَعْرُوا

يَاسْتَعِزُّ فِي طَرِيقِهِ قَدْ بَانَ الْبَيَّانُ ، يَابِلِيدُ الْعَتَابِ وَقَدْ أُنْذِرُهُ الْأَقْرَانُ ، يَأْمَنُ تَقَرُّعَ
قَلْبِهِ الْمَوَاعِظُ وَهُوَ قَاسٍ مَالَانُ ، لَوْ حَضَرَتْ بِالذَّهْنِ كِفَاكَ زَجَرُ الْقُرْآنِ .

(١) ب : قَبْل . (٢) ب : فَمِنْ يَمْرُونَ . (٣) ١ : لِي رَوَاتِهِ . وَالْأَرْوَمَةُ : الْأَمَلُ .
(٤) ب : وَكَمْ . وَلِلنَّصْنِ : مَوْضِعُ الْجَرِيِّ . قَالَ جَرِيرٌ :

ظَلَلْنَا بِمَسْنَى الْخُرُورِ كَأَنَّا
لَدَى فَرَسٍ مُسْتَقْبِلِ الرِّيحِ صَائِمٍ

الْبَاقِي ٩٠/١٧ .

(٥) ب : عَلَى السَّيْلِ . وَالْمَرْءُ : الْحَبَابَةُ . (٦) ١ : سَوْفَ يَنْتَبِرُ .

كتب زُر بن حَبِيش إلى عبد الملك بن مَرْوان : لا يُطعنك^(١) في طول الحياة
ماترى من حمة بدئك^(٢) واذا كر قول الأول :

إذا الرجالُ ولدَتْ أولادُها وبليتُ من كِبَر أجسادُها
وجملتُ أسقامُها تَمَتُّادُها تلك زُرُوعٌ قد دنا حَصَادُها
فلما قرأ الكتابَ بكى حتى بُلَّ طرفُ ثوبه .

كان الربيع بن خُثَيْم يقول : أما بعدُ ، فأعدَّ زادك وجدَّ في جهازك^(٣) ، وكن
ومىً نفسك .

وكان إذا جنَّ عليه الليلُ لا ينام ، فتناديه أمه : ألا تنام ؟ فيقول : يا أماه من جنَّ
عليه الليل وهو يخاف الليالي حَتَّى له أن لا ينام !
فلما بلغ ورأت ما يَلْتَمِى من البكاء والسهَر قالت : يا بنى لك قتلٌ قتيلاً !
فقال : نعم يا أماه . فقالت : ومن هذا القتل ، فلو علم أهله ماتلقى من البكاء والسهَر
لرَجَّحوك . فقال : هي نفسى !

وقالت له ابنته : يا أبت ألا تنام ؟ فقال : يا بنية إن جهنم لا تدعنى أنام !



أيها الغافل زاحمُ أهل العزم وبادر ، فسكأنْ قد نزل بك ماتخاف ومخاخر ،
فيختم الكتاب على الرذائل ، ويفوت تحصيل النضائل [قال الدنيا منزل قامة كأنها
يوم أو جمعة]^(٤) .

كلُّ حَيٍّ إلى فناء وما الهـا رِبدارٍ ولا للقام مُقامُ
يستوى ساعةً للتيه في الرُّة بة وَجْدُ الفنى والإعدامُ
والذى زال وانقضى من نعيم أو شقاء كأنه أحلامُ

(١) لا يطعنك . محرفة . (٢) ماترى في بدئك . (٣) ١ : فأعد في زادك وخذ

في جهازك . (٤) سقطت من ١ .

الجمع على فرد تعالى :

« فذكر بالقرآن مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ »^(١)

لقد وعظ القرآنُ المجيد ، يُبْذَى التذكُّرَ عليكم وبُعِيد ، غير أن الفهم منك بعيد ، ومع هذا فقد سبق العذابُ التهديد ، « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .
إن في القرآن ما يُبَلِّغُ الجَلَامِيد ، لو فهمه الصخر كأن الصخر يَتَمِيد ، كم أخبرك بإهلاك الملوك الصَّيْد ، وأعلمك أن الملوك بالباب والوصيد^(٢) « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .
إن مواعظ القرآن تُذِيب الحديد ، وللفهم كل لحظة زَجْرٌ جديد ، وللقلوب النيرة كل يوم به عيد ، غير أن الغافل يتلوهُ ولا يستفيد « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

أما الملوك للخلائق مُبِيد ، أما تراه قد مرَّ قهْمٌ في البِيد ، أما داسهم بالهلاك دُوسُ الحصيد ، لا باليسيط يتمون ولا بالتشديد^(٣) ، أين من كان لا يَنْظُرُ بين يديه ، أين من أبصر المير ولم ينفع بعينه ، أين من بارز بالذنوب المَطْلَعُ عليه « ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد » .
أين من كان يتعرك في أغراضه ويميد ، ويُفْرَسُ الجَنَانُ لها طَلْعُ نصيد ، ويمجبه نفات^(٤) الوُزْقُ على الورق بتفريد ، كان قريباً متافوا اليوم بعيد « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

أحضروا قلوبكم فإلى كم تقليد ، يامعشر الشيوخ في عقل الوليد ، أما فيكم من يذكر أنه في قبره وحيد ، أما فيكم من يتصور تمزيقه والتبديد^(٥) ، غداً يباع أثاث البيت فن يزيد ، غداً يتصرف الوارث كابر يد ، غداً يستوى في بطون الأعداء الفقير والسعيد ، يا قوم سَتَقُومُونَ^(٦) للبديء للعيد ، يا قوم ستحاسبون على القريب والبعيد ، يا قوم المقصود كله وبيت القصيد : « ففهم شقي وسعيد » .

أهلنا الله وإياكم ما ألهم الصالحين ، وأيقظنا من رقاد الغافلين ، إنه أكرم منكم وأعز معين .

(١) سورة في ٤٠ . (٢) الوصيد : الفناء والعبة . (٣) ١ : ولا بالتبديد .
(٤) ١ : حاتم الورد . (٥) ١ : والتفريد . (٦) ١ : ستقومون .

المجلس الخامس

في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

الحمد لله الذي التقوى التين ، القاهر الظاهر المبين ، لا يَمَزُبُ عن سمعه أَلْفُ الأنين ، ولا يَمْنَعُ على بصره حركاتُ الجنين ، ذَلَّ لكبريائه جبابرة السلاطين ، وقلَّ عند دفاعه كيدُ الشياطين ، قَصَى قضاءه كما شاء على الغاملين ، وسبق اختياره لمسا اختار الماء والعطين ، فهؤلاء أهل الشمال وهؤلاء أهل اليمين ، جرى القدر بذلك قبل عمل الماملين « ولقد آتينا إبراهيم رُشدَه من قبلُ » وكُنَّا به عاين .

أحمد حمد الشاكرين ، وأسأله معونة الصابرين ، وأصلى على رسوله المقدَّم على النبيين ، وعلى صاحبه الصديق أول تابع له على ^(١) الدين ، وعلى الفاروق عمر القوى الأمين ، وعلى عثمان زوج ابنته ونعم القرين ، وعلى عليٍّ بحر العلوم والأنزع البطين ^(٢) ، وعلى عمه العباس ذى الفخر القويم والتسب العقيم ^(٣) .

قال الله تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رُشدَه من قبلُ » وكُنَّا به عاين ^(١) .
إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ ^(٢) بن أرغو ^(٣) بن فالغ [ابن عابر] ^(٤)
ابن شالخ ^(٥) بن أرغشد بن سام بن نوح [بن لامل بن متوشاخ بن أهنيخ بن برد بن مهلايل بن قابن بن أنوش . وأمه نونا بنت كرينا بن كونا] ^(٦) [من بني] ^(٧) أرغشد .
وكرينا هو الذي كرى ^(٨) - مهر كوثي .

وكان بين الطوفان ومولد إبراهيم ألف سنة وتسع وسبعون . وقيل ألف ومائتا سنة وثلاث وستون ، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة .

(١) ١ : في الدين . (٢) الأنزع : اللثاء . والعطين : البعيد الصيق . (٣) ١ : الرميم .
(٤) سورة الأنبياء ٥١ . (٥) ١ : أسرع وب : ساغوغ . وهو تحريف . (٦) كذا بالأصل .
وفي مروج الذهب : رعو . (٧) سقطت من أ . (٨) ليست في أ . (٩) سقطت من ب .
(١٠) ليست في أ . (١١) كرى التهر : استحدث حفره .

ولما أراد الله عز وجل إحياء إبراهيم عليه السلام قال للنجمون لنمرود : إنا نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك هذه يقال له إبراهيم ، يفارق دينكم ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا . فلما دخلت السنة المذكورة بعث نمرود إلى كل امرأة حامل بقرينة غيبها عنده ، ولم يعلم بحبل أم إبراهيم ، فجعل لا يولد غلام في ذلك الشهر إلا ذبحه ، فلما أخذ أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى منارة فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه ، ثم سدت عليه باب المنارة ثم رجعت إلى بيتها ، وذلك بمدينة ^(١) كوثى ، وكانت تتردد إليه فتراه يمص إبهامه قد جعل الله رزقه في ذلك ، وكان آزر قد سألها عن تحملها فقالت : ولدت غلاماً فات . فسكت عنها . وقيل : بل أخبرته فأناه فخر له سرّاً وسدّ عليه بصخرة ، وكانت أمه تختلف إلى رضاعه . فلما تكلم قال لأمه : من ربّي ؟ قالت : أنا . قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك . قال : فمن رب أبي ؟ قالت له : اسكت . فسكت فرجعت إلى زوجها فقالت له : إن الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغيّر دين ^(٢) أهل الأرض هو ابنك . فأناه فقال له مثل ذلك .

فدنا [إبراهيم عليه السلام ^(٣)] بالليل من باب السرب فرأى كوكباً ، قال ابن عباس : هو الزهرة . قال : وكان له حينئذ سبع سنين . وقال مجاهد : هو المشتري . فقال : هذا ربّي [أى على زعمكم ^(٤)] فلما خرج كان أبوه يصنع الأصنام ويقول له : إمها . فيأخذ الصنم ويخرج فيقول : من يشتري ما بضره ولا ينفعه ! فشاع بين الناس استهزاؤه بالأصنام .

وجعل يقول لقومه : « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ^(٥) » أى مقيمون على عبادتها « قالوا وجدنا آبائنا لها عاكفين » أى إنا نتقدي بهم ونقلدهم .
فخرجوا يوماً ^(٦) إلى عيد لم تفرج معهم ، ثم ألقى نفسه في الطريق وقال : « إني سقيم »

(١) : بقرية . (٢) : أنه يغيّر دين أهل الأرض ابنك . (٣) : سقطت من ب . (٤) : ليست في ١ .
(٥) : سورة الأنبياء ٥٢ . (٦) : ١ : يوم عيد لهم .

فلما مضوا قال: «تالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ» والكَيْدُ: احتيال الكائد في ضر المكيد^(١) وأراد لأَكْسَرَنَهَا . فسمع الكلمة رجل منهم فأفشاها عليه .

فدخل بيت الأصنام ، وكانت اثنتين وسبعين صنما من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب ، فكسرها وجعلهم جُذَازًا أي قُتَاتًا .

ثم وَضَعَ الفأسَ في عنق الصنم الكبير « لعلهم إليه يَرْجِعُونَ » . في هاء الكناية قولان : أحدهما : أنها ترجع إلى الصنم فيظنون أنه فعل . والثاني : إلى إبراهيم ، والمراد الرجوع إلى دينه .

فلما رجعوا « قالوا : من فعل هذا بآلهتنا » فَمَّ عليه الذي سمع منه : « لَا كِيدَنَّ » فقالوا : « سَمِعْنَا فَقَيِّدْهُمْ » يُقَالُ لَهُ إِبراهيم « أي يَجْعَلُهُمْ .

« قالوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ » أي بَمَرَأَى مِنْهُمْ « لعلهم يَشْهَدُونَ » فيه ثلاثة أقوال : أحدها يشهدون أنه قال لأهلنا ما قال . قاله ابن عباس .

والثاني : أنه فعل ذلك . قاله السدي .

والثالث : يشهدون عقابه . قاله ابن إسحاق .

« قالوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : « بل فعله كَبِيرُهُمْ » وللعنى أنه غضب أن تُعْبَدَ معه الصُّغَارُ فكسرها .

وكان الكِسَافُ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ : « بل فعله » ويقول معناه فعله من فعله ، ثم يَتَدَبَّرُ « كَبِيرُهُمْ هَذَا » وقال ابن قُتَيْبَةَ : هذا من المَآرِضِ ، فتقديره : « إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ فَقَدْ قَمَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » .

« فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فقالوا : إِنْكُمْ الظَّالِمُونَ » حين عبدتم من لا يتكلم « ثُمَّ نَسَكُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أي أَدْرَكْتُهُمْ حَيْرَةً .

فلما أَرْمَهُمُ^(٢) الْحِجَّةَ حَلَوْهُ إِلَى نَمْرُودَ فَقَالَ لَهُ : مَا إِلَهُكَ الَّذِي تُعْبَدُ ؟ قَالَ رَبِّي الَّذِي

(١) ب : الكينة . (٢) ا : فلما أَرْمَهُمُ .

يُحْيِي وَيَمِيت . قال : أنا أحيي وأميت ، آخذ رَجُلَيْنِ قد استَوْجَبَا القَتْلَ ، فأقتل أحدهما فأكون قد أَمَتُهُ ، وأعفو عن الآخر ، فأكون قد أَحْيَيْتُهُ . قال : « فَإِنَّ اللَّهَ بِأَنْتِ بِالسُّمَسِ مِنَ الشَّرْقِ قَاتِلٌ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ »^(١) .

فَبَيَّتَ نَمْرُودَ وَحَبَسَهُ سَبْعَ سَنِينَ وَجُوعَ لَهُ أَسْدِينَ ، وَأَرْسَلَهَا عَلَيْهِ فَكَانَا يَلْحَسَانَهُ وَيَسْجِدَانِ لَهُ ثُمَّ أَوْقَدَ لَهُ نَارًا وَرَمَاهُ فِيهَا فَسَلِمَ . فَكَفَّ نَمْرُودُ عَنْهُ .

فَخَرَجَ مُهَاجِرًا إِلَى الشَّامِ فَتَزَوَّجَ سَارَةَ وَهِيَ بِنْتُ مَلِكِ حَرَّانَ ، وَكَانَتْ قَدْ خَالَفتَ دِينَ قَوْمَهَا . وَبَعْضُ قُرْبَلَى أَرْضِ فَلَسْطِينَ فَاتَّخَذَ مَسْجِدًا ، وَبُسِطَ لَهُ الرِّزْقُ ، وَكَانَ يُضَيِّفُ كُلَّ مَنْ نَزَلَ بِهِ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ صُحُفًا .

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي ، أَنبَأَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ الْمُهَنْدِي ، أَنبَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْهَمَاقِي ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الشُّشَّاطِيُّ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفَرَّائِيُّ ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامٍ بْنِ يَحْيَى الْفَسَّاسِيُّ ، حَدَّثَنَا أَبِي ، عَنْ جَدِّي عَنْ إِدْرِيسَ أَيْتُولُونِيٍّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَشْرَ صُحُفٍ » . قُلْتُ : مَا كَانَتْ بِجَهْدِ إِبْرَاهِيمَ ؟ قَالَ : « كَانَتْ أَمْثَالَ كُلِّهَا : أَيُّهَا الْمَلِكُ لِلسُّلْطَانِ الْغُرُورِ ، إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَلَكِنْ بِمَشْكَلٍ لَتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةُ الظُّلُومِ ، فَإِنِّي لَا أَرُدُّهَا وَإِنْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ . وَكَانَ فِيهَا : « وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ : سَاعَةٌ يَنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ ، وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صَنْعِ اللَّهِ ، وَسَاعَةٌ يَحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا بِمَاجِئِهِ مِنَ الْخَلَالِ . وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ ظَالِمًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ : تَزَوُّدًا لِمَادٍّ ، وَسَرْمَةً لِمَاشٍ وَلَذَّةً فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بِصِيرًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ ، حَافِظًا لِسَانِهِ . وَمَنْ حَسِبَ كَلَامَهُ مِنْ^(٢) عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فَيَا بَعِيثِهِ » .

■ ■ ■

ثم إن الله تعالى اتخذهُ خَلِيلًا ، وَفِي سَبَبِ ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .

أحدها : لإطعامه الطعام ، وكان لا يأكل إلا مع ضيف . روى عبد الله بن عمرو ابن الماص ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا جبريل لم آخذ الله إبراهيم خليلاً ؟ قال : لإطعامه الطعام .

والثاني : أن الناس أصابهم سنة^(١) فأتوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام ، وكانت له ميرة^(٢) من صديق له بمصر في كل سنة ، فبعث غلامه بالإبل إلى صديقه فلم يعطه شيئاً ، فقالوا : لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أننا قد جئنا بميرة . فلأوا الفرائز رملاً ، ثم أتوا إلى إبراهيم فأعلموه ، فاهتم لأجل الخلق .

فنام ، وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان ، ففتحت الفرائز فإذا دقيق حواري^(٣) فأسرت الغبازين فخبزوا وأطعموا الناس ، فاستيقظ^(٤) إبراهيم فقال : من أين هذا الطعام ؟ فقالت : من عند خليلك المصري . فقال : لا بل من عند خليلي الله ! فحينئذ آخذ الله خليلاً !

رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : آخذ الله خليلاً لكثره الأصنام وجداله قومه .

قوله مقاتل .

أخبرنا محمد بن أبي طاهر^(٥) البزار ، أنبأنا أبو محمد الحريري ، أنبأنا أبو حمز ابن حيوة ، أنبأنا أحمد بن معروف ، حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، حدثنا محمد بن سعد ، حدثنا هشام بن محمد ، عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما آخذ الله إبراهيم خليلاً ونبأه وله يومئذ ثلاثمائة عبيد أعتقهم لله وأسلموا ، فكانوا يقاتلون معه بالمعصية .

وابتلاه الله عز وجل بالكلمات فأتمهن .

روى طاووس عن ابن عباس قال : ابتلاه الله بالطهارة ، فحسن في الرأس : قص

(١) السنة : القصة والجذب . (٢) الليرة : جلب الطعام . (٣) الحواري : التابعين الأيسر وهو لياب الديقي . (٤) (١) : فأتته . (٥) (١) : ابن أبي الظاهر .

الشارب ، والضمضة ، والاستنشاق ، والسَّوَّك ، وقرق^(١) الرأس . وخمس في الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة والخصائر ونصف الإبط ، وغسل أثر الفائط والبول وبلاء .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اختن إبراهيم^(٢) بالقدوم . والقدوم موضع ، وكان له يوم اختن ثمانون سنة . وقيل مائة وعشرون سنة ، وهو خن نفسه .

وسأل ربّه عز وجل أن يريه كيف يحيى الموتى . وفي سبب ذلك أربعة أقوال : أحدها : أنه رأى ميتة تمزقها السباع والموأ ، فسأل ذلك . قاله ابن عباس . والثاني : أنه لما بشر بأخذه خليلاً سأل ليعلم بإجابته صحة البشارة . قاله السدي عن أشياخه .

والثالث : أنه أحب أن يزيل عوارض الوسواس . قاله عطاء بن أبي رباح . والرابع : أنه لما قال لنورود : ربّي الذي يحيى ويميت . أحب أن يرى ما أخبر به . قاله ابن إسحاق^(٣) .

وأما نعروود فإنه بقي بعد إلقاء الخليل في النار أربعاً مائة عام لا يزداد إلا عقوباً ، ثم حلف ليطلبن إله إبراهيم . قال السدي عن أشياخه : أخذ أربعة أفرانج من أفرانج النور ، فرباهن باللحم والتمر ، حتى إذا كثرن واستفطن قرنهن بتابوت ، وقعد في ذلك التابوت ، ثم رفع لمن اللحم^(٤) فطرن به ، حتى إذا ذهب^(٥) في السماء أشرف ينظر إلى الأرض ، فرأها كأنها فلّك^(٦) في ماء ، ثم صعد فوق في ظلة فلم ير ما فوقه ولا ما تحته ، ففزع فنكس اللحم فاتبعه منقصات ، فلما نزل أخذ^(٧) يبنى الصرح فسقط الصرح .

(١) ا : وحلق . (٢) ب : قاله ابن عباس . (٣) ا : لما . (٤) ا : فحين .

(٥) الأصل : فلكة . (٦) ا : أمريناء الصر .

قال زيد بن أسلم : بعث الله تعالى إلى عمرو ملكاً فقال له : آمين بي وأتركك على ملكك . فقال : وهل ربٌ غيري . فأتاه ثانياً وثالثاً ، فأبى . ففتح عليه باباً من البموض فأكلت لحوم قومه وشربت دماءهم . وبعث الله عز وجل عليه بموضة فدخلت في منخره ^(١) فمكث أربعين عاماً يضرب رأسه بالمطارق ، وأرهم الناس به من يجمع ^(٢) يديه ثم يضرب بهما رأسه ، فعدب بذلك إلى أن مات . وقال مقاتل : عدب بالبعوضة أربعين يوماً ثم مات .

السلام على البسم

إخواني : السعيد من اعتبر ، وتفكر في المواقب ونظر ، أضر ^(٣) الخليل ما عليه جرى وهذه مدائحكم كما ترى ، من صابر الهوى ربح واستفاد ، ومن غفل فاته اللراد .

يا فؤادي غلبتني عيانياً فأطعن قد عصيت زماناً
يا فؤادي أما تحن إلى طو . بي إذا الريح حرّكت أغصاناً ^(١)
مثل الأولياء في جنة الخلد إذا ما تقابلوا إخواناً
قد تمأزوا على أسيرة دُرّ لابسين الحرير والأرجوانا
وعليهم تيجانهم والأكاليل تباهي بحُسنها التيجاناً
ثم آووا فاستقبلتهم ^(٢) حياناً من بنات النعم فُفن الحياناً
بوجوه مثل المصاييح نوراً ما عرفن الظلال والأكفاناً ^(٣)

(١) ب : في أغصان . (٢) ب : من جمع . (٣) ا : اعتبروا بالظليل .
(٤) ب : إذا الريح جرحت أغصاناً . محرفة . وما أثبتته من ا . (٥) ب : ثم أتوا واستفادهم .
(٦) ورد البيت محرفاً في الأصول ، ففي ا :

بوجوه مثل المصاييح نوراً يعرفن الأطلال والأكفاناً

وفي ب :

ما عرفن الضلال والأكفاناً

ولعل ما أثبتته هو الصواب . والظلال : جمع ظل ، أو جمع ظلة وهي ما يستظل به . والأكفان : البيوت .

فهمُ الدهرِ في سرورٍ عجيبٍ ويزوروث ربهم أحياناً

يا غافلين عما نالوا ، ملتم عن التقوى وما مالوا ، ما أطيب ليلهم في النجاة ،
وما أفرحهم من طريق النجاة .

كان يشر الخافي طويل السهر يقول : أخاف أن يأتي أمرُ الله وأنا نائم .

كم منع نفسه من شهوةٍ فأنالها ، حتى سمع : كلُّ يامن لم يأكل لما أتى لها ،
كم حمل عليها جملًا ومارثى لها ، كم همت بتل غرض بدا لها لما خافت عقي مرضي
ينالها ، أصبح زاهداً وأمسى غفياً ، ما أخذ من الدنيا إلا طغيها ، وما خرج عنها إلا
نظيها ، هذا وكم وجد من الدنيا سعةً وريقاً^(١) ، تقلب في ثياب الصبر نحيفاً ، وتوغل في
طريق التقوى لطيفاً ، تالله لقد كان رأيه صيفاً ، وما قدر حتى أعانه الرحمنُ « وخلق
الإنسانُ ضعيفاً^(٢) » .

بكت عينه رحمةً للبدن ففنى البكاه مكان الوسن
وألبه الشوق ثوب الشقام كأن الشقام عليه حسن
وأثس مدامعه بالدموع لم يدع السر حق علن
فيا طول عصيانهِ للفسرام^(٣) ولا حسن طاعته للحزن

إخواني : من عرف قدر نفسه عليه هانت الدنيا كلها لديه ، إن القلاء نظروا
إلى مشارع الدنيا فرأوها متوشحة^(٤) بأقدار القراط فاقتمعوا بتغيب القدران^(٥) .

لله ساعر بلغته قدمه حيث تمدت عاليات همه
أوقاعيد مع المغاف قائم ببلغة الزاد حشاه وقته
لم ينتقص طلاوة من وجهه وريقه ذل سؤال يصمه

(١) الريف : السعة في المأكل والشرب . (٢) سورة النساء . (٣) ١ : الغزى .

(٤) ١ : متوشحة . (٥) القراط : الماء الذي يكون لمن سبق إليه من الأحياء . الإنسان ٢٤٧/٩
وثوب القدران : ما بقي فيها من الماء .

تَلَوْتِ خَلَاتِقُ الدَّهْرِ بِهِ غَنَكْتَهُ مِنْهُ وَدَعْتَهُ (١)
وَاخْتَبَرْتُ النَّاسَ فَلَوْ سَاوَيْتَهُ قُرْبَ أَخِيهِ عَلَيْهِ غَنَشْتُهُ (٢)
وَاللَّهِ مَا غَفْتُكَ بِإِدْنِيَا بَلَى وَإِنْ فِيكَ لِمَتَاعًا أَعْلَى
لَكِنْ أَبْنَاءُكَ مَنْ لَا صَبِيحَتِي صَبِيحَتُهُ وَلَا وَقَائِي شَيْعَتُهُ
أَخْرَجَ مِنْ حِكْمَةِ الصَّدْرِ وَمَا فِيهِمْ بِحَيْرَى (٣) مِنْ نَصِيحِ سَفَتِهِ
كَمْ بِاسْمِي لِي مِنْ وَدَاءِ سِرِّهِ وَاللَّيْثُ لَا يُخْسِرُنِي تَبَسُّعُهُ
وَحَاطِبِي عَلَى انْخَاذِي صَحْبَتِي وَالْبَدْرُ مَوْلُودٌ بِسِرِّهِ تَوَاضَعُهُ

سبحان من كَشَفَ لأَحِبَّاهُ مَا غَطَّى عَنِ الْغَيْبِ ، وَأَعْطَاكَ مِنْ جُودِهِ كُلَّ خَيْرٍ وَمُبَرِّ ،
فَقَطَعُوا مَقَاوِزَ الدُّنْيَا بِالصَّبْرِ وَلَا ضَعْفٍ ، وَكَابَدُوا الْجَمَاعَةَ حَتَّى اسْتَعْيَا رَاهِبُ الدَّبْرِ ،
أَفَى أحوَالِ هَذِهِ الدُّنْيَا تَمَّارَى ، أَمَا تَرَى زِينَتَهَا مُسْتَعَارًا ، وَسَلْبَ الْقَرِينِ يَكْفَى وَغَطًّا
واعتبارًا . أَمَّا اللَّدَائِقُ قَدْ فَنِيَتْ (٤) ، وَأَبْقَتْ عَارًا ، وَأَمَا الْمُرُ فَنَتَبَّ جِهَارًا . إِيَّاكَ وَإِيَّا
الدُّنْيَا فَرَارًا فَرَارًا ، لَقَدْ قَرِئْتُ عَيْنُونَ الزَّاهِدِينَ وَمَاتُوا أَحْرَارًا ، قَتَلَتْ أَقْرَانَهُمْ فَاتَّبَعُوا (٥)
يَأْخُذُونَ ثَارًا ، وَيَبَاعُوهَا بِمَا يَبْقَى لَا كُرْهًا بَلْ اخْتِيَارًا ، قَطَعُوا بِالْقِيَامِ لَيْلًا وَبِالصَّيَامِ نَهَارًا ،
وَاتَّخَذُوا الْجَدَّ لِحَافًا وَالصَّبْرَ شِمَارًا ، وَرَكِبُوا مِنَ الْعَزْمِ أَمْعًى مِنَ الْعُرْبَانِ لِلْمَهَارَى (٦) ،
وَاهْتَدَوْا إِلَى نَجَاتِهِمْ وَالنَّاسَ فِي الْجَهْلِ حَيَارَى .

رَبِّحَ الْقَوْمَ وَخَسِرْتَ ، وَسَارُوا إِلَى الْحُبُوبِ وَمَا سِيرْتَ ، وَأَجْبِرُوا مِنَ اللُّومِ
وَمَا أُجِرْتَ ، وَاسْتَزِيدُوا إِلَى الْقُرْبِ وَمَا اسْتَزِدْتَ ، ذُنُوبُكَ طَرَدَتْكَ عَنْهُمْ ، وَخَطَايَاكَ
أَبْعَدَتْكَ مِنْهُمْ ، قُمْ فِي اللَّيْلِ تَرَى تِلْكَ الرَّفْقَةَ ، وَاسْلُكْ طَرِيقَهُمْ وَإِنْ بَعْدَتْ الشُّقَّةُ ،
وَابْكِ عَلَى تَأَخُّرِكَ وَاحْذَرِ الْفُرْقَةَ .

(١) حَكَمْتُهُ : أَحْكَمْتُ تَجَارِيهِ . وَالصَّبْرُ : الْحُجْرُ . وَالذَّمُّ : السُّوءُ . (٢) السَّجَرُ بِالْأَسْلِ عَرَفَ وَغَيْرِ
مَنْقُوطٍ وَلِئْلَ مَا نَبَيْتُهُ هُوَ الصَّوَابُ . (٣) السَّحَرُ : كُلُّ مَا لَطَفَ مَا خَفَهُ وَرَقَ ، وَبَرِيدُهُ هُنَا الْمَهَارَةُ فِي الطَّبِ .
(٤) ١ : قَدْ فَنِيَتْ . وَب : فَأَنْتِ . (٥) ١ : فَتَبَعُوا . (٦) الْمَهَارَى : الْإِبِلُ لِلنَّسَبِ إِلَى
مِهْرَةَ بْنِ حِيدَانَ ، حَى مِنْ الْعَرَبِ . وَالْعُرْبَانُ : كُفَا بِالْأَسْلِ ، وَلَطَلَا : الْعَرَابُ وَهِيَ الْخَالِصَةُ السَّابِ
مِنْ الْجَهْلِ وَالْإِبِلِ .

ثُمَّ عَسَى أَنْ يَنْفَعَ التَّسْوِيرُ وَانْظُرْ بِصُكْرِكَ مَا إِلَيْهِ تَصِيرُ
طَوَّلْتَ أَمَالًا تَكْنَفُهَا الْمَوْتُ وَنَسِيتَ أَنَّ الْعُمَرَ مِنْكَ قَصِيرُ
قَدْ أَفْصَحْتَ دُنْيَاكَ عَنْ غَدَرَاتِهَا وَأَتَى تَسْيِيبِكَ وَالشَّيْبَ نَذِيرُ
دَارُ لَهْوَتٍ بَزَّهَوَاهَا ^(١) مَتَمَتَا تَرْجُو الْقَامَ بِهَا وَأَنْتَ تَسِيرُ
وَاعْلَمْ ^(٢) بِأَنَّكَ رَاحِلٌ عَنْهَا وَلَوْ عَمَرْتَ فِيهَا مَا أَقَامَ تَبِيرُ
لَيْسَ النَّفَى فِي الْعَبَسِ إِلَّا بُلْفَةٌ وَيَسِيرُ مَا يَكْفِيكَ مِنْهُ كَثِيرُ
لَا يَسْخَرُكَ عَاجِلٌ ^(٣) عَنْ آجِلٍ أَبَدًا فَمَلَّتْ عَيْنُ الْحَقِيرِ حَقِيرُ
وَقَدْ تَسَاوَى بَيْنَ أَطْبَاقِ النَّتْرِ فِي الْأَرْضِ مَأْمُورٌ بِهَا وَأَمِيرُ

السلام على قوله تعالى

« قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ » ^(٤)

لَمَّا كَسَرَ الْخَلِيلُ الْأَصْنَامَ حَمَلَهُ إِلَى غَمْرودَ، فَبَزِمَ عَلَى إِهْلَاكِه ^(٥)، فَقَالَ رَجُلٌ:
حَرِّقُوهُ. قَالَ شُعَيْبُ الْجُبَايَتِيُّ: خَسِيفَتِ الْأَرْضُ بِالَّذِي قَالَ حَرِّقُوهُ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَأُلْقِيَ الْخَلِيلُ فِي النَّارِ وَهُوَ ابْنُ سِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً. قَالَ عُلَمَاءُ التَّسْوِيرِ: حَبَسَهُ ^(٦) غَمْرودَ،
ثُمَّ بَنَوْا لَهُ حِوَالِي سَفْحِ جَبَلٍ مُتَشَفِّفٍ طُولَ جِدَارِهِ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَنَادَى مُنَادِي غَمْرودَ:
أَيُّهَا النَّاسُ احْطَبُوا لِإِبْرَاهِيمَ، وَلَا يَتَخَفَنَّ عَنْ ذَلِكَ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ، فَمَنْ تَخَلَّفَ أُلْقِيَ
فِي تِلْكَ النَّارِ.

فَعَمَلُوا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً حَتَّى إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ لَتَقُولُ: إِنْ خَلَقْتَ بِكَذَا لَأَحْطَبَنَّ لِنَارِ
إِبْرَاهِيمَ. حَتَّى إِذَا كَانَ الْحَطَبُ يَسَاوِي رَأْسَ الْجِدَارِ ^(٧) قَدَفُوا فِيهِ النَّارَ فَارْتَفَعَ لَهْيُهَا، حَتَّى
كَانَ الظَّائِرُ يَمُرُّ بِهَا فَيَحْتَرِقُ. ثُمَّ بَنَوْا بَنِيَانًا شَاخًا وَبَنَوْا فَوْقَهُ مِنْجَنِيقًا.

(١) : بلهوها. (٢) : اعلم. (٣) : ب : من آجل. (٤) : سورة الأنبياء ٦٩.
(٥) : إهلاكه. (٦) : ب : خفه. معرفة. (٧) : ب : الجبل.

ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان ، ورفع إبراهيم رأسه إلى السماء فقال : اللهم أنت الواحد في السماء [وأنا الواحد في الأرض] ^(١) ليس في الأرض أحدٌ يُعبدك غيري ، حسبى الله ونعم الوكيل .

ثم رُمي به فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ فقال له أتنا إليك فلا . فقال جبريل : سل ربك . فقال حسبى من سؤالي علمه بحالي !

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، حدثنا جعفر بن أحمد ، أنبأنا الحسن بن علي التميمي ، أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن جعفر ، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا شيبان ، حدثنا أبو هلال : قال حدثنا بكر ، قال لما ألتى إبراهيم في النار جازت عامة الخليفة ^(٢) إلى ربها عز وجل فقالوا : يارب خليك يلتقى في النار ، فأذن لنا أن نلقى عنه . فقال : هو خلي ، وليس لي في الأرض خليل غيره ، وأنا ربّه ليس له ربّ غيري ، فإن استغاث بك فأغيثوه ، وإلا فدّعوه !

قال : فجاء ملك القنطر فقال : يارب خليك يلتقى في النار ، فأذن لي ألقى عنه بالقنطر . فقال : هو خلي ليس لي في الأرض خليل غيره وأنا ربّه ليس له ربّ غيري ، فإن استغاث بك فأغيثه وإلا فدّعه !

فلما ألتى في النار دعا ربه فقال الله تعالى : « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » فبردت يومئذ على أهل المشرق والمغرب فلم ينضج بها كراع .

قال ابن عباس : لم يبق في الأرض يومئذ نار إلا حلفت ، خلّت أنهارها التي تسمى ، ولو لم ينفع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها .

أخبرنا أبو بكر ابن حبيب ، أنبأنا علي بن صادق ، أنبأنا أبو عبد الله الشيرازي ، حدثنا أبو العباس محمد بن الحسن الخشاب ، حدثنا أبو القاسم بن موسى ، حدثنا يعقوب ابن إسحاق ، قال سمعت أحمد بن حنبل رضى الله عنه وقد سئل عن التوكّل قال : هو

قَطَعَ الاسْتِشْرَافَ بِالْيَأْسِ مِنْ اِتِّلَاقٍ . قِيلَ لَهُ : فَمَا الْحَاجَةُ فِيهِ ؟ قَالَ : قِصَّةُ الْخَلِيلِ ، لَمَّا وَضِعَ فِي الْمِصْبَاحِ مَعَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، لَمَّا قَالَ ^(١) : اَنَا إِلَيْكَ فَلَا . فَقَالَ لَهُ : فَكُلْ مِنْ لَدُنْكَ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ . قَالَ : أَحِبُّ الْأُمُورَ إِلَى أَحَبِّهِمَا إِلَيْهِ .

قَالَ عِلْمَاءُ السُّنَنِ : لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ أَخَذَتْ لِلنَّاسِكَةِ بِصَبْعَيْهِ وَأَجْلَسُوهُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَإِذَا عَيْنٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ وَوَرْدٍ أَحْمَرٍ وَلَمْ تَحْرَقِ النَّارُ إِلَّا وَثَاقَهُ . وَنَزَلَ جَبْرِيلُ بِقَمِيصٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَطَنَفَسَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ فَأَلْبَسَهُ الْقَمِيصَ وَأَجْلَسَهُ عَلَى الطَّنْفَسَةِ وَقَعَدَ مَعَهُ بِعِدَّتِهِ ، فَأَقَامَ هُنَاكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا . فَجَاءَ آزَرُ إِلَى نَمْرُودَ فَقَالَ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَخْرِجَ عِظَامَ إِبْرَاهِيمَ وَأَدْفِنَهَا فَخَرَجَ نَمْرُودُ مَعَهُ النَّاسَ ، فَأَمَرَ بِالْحَافِظِ فَتَقَبَّ ، فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ فِي رَوْضَةٍ تَهْتَزُّ وَنَبَاتُهَا ^(٢) يَنْدَى وَعَلَيْهِ الْقَمِيصُ وَتَحْتَهُ الطَّنْفَسَةُ ، وَلِلَّذِي إِلَى جَنْبِهِ [وَلِلْمَاءِ يَجْرِي فِي جَيْبِيهِ] ^(٣) فَنَادَاهُ نَمْرُودُ : يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّ إِلَهَكَ الَّذِي بَلَّغْتَ قُدْرَتَهُ هَذَا ^(٤) لَكَبِيرٌ : هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْرُجَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ يَمْشِي حَتَّى خَرَجَ . فَقَالَ : مِنْ هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ مَعَكَ ؟ قَالَ مَلَكٌ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِيُؤْنِسَنِي . فَقَالَ نَمْرُودُ : إِنِّي مُقَرَّبٌ إِلَى إِلَهِكَ قُرْبَانًا لِمَا رَأَيْتُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَقَالَ : إِنْ لَا يُقْبَلُ مِنْكَ مَا كُنْتَ عَلَى دِينِكَ . فَقَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَتْرَكَ مُلْكِي وَلَكِنْ سَوْفَ أَذْهِجُ لَهُ . فَذَبَحَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ بَقَرَةً وَكَفَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ .

سَمِعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ^(٥) ﴾

سَبَّحَانَ مَنْ أَخْرَجَ هَذَا السَّيِّدَ مِنْ آزَرٍ ، ثُمَّ أَعَانَهُ بِالتَّوْفِيقِ قَقْصِدَ آزَرَ ، ثُمَّ بَثَّ إِلَيْهِ الْبَيَانَ ^(٦) فَأَعَانَ وَوَاظَرَ ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ قَدْ رَحَلَ عَنْ الْمَصْبُوحِ وَسَافَرَ وَلَمْ يَتَزَوَّدْ إِلَّا لِلتَّسْلِيمِ ، ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۚ ۞ ﴾ .

عَبْدٌ بِذَلِكَ نَفْسَهُ لَنَا فَبَلَّغْنَاهُ مَعَا لَلَّيْ ، وَعَرَفْنَاهُ الْمَنَاسِكَ عِنْدَ الْبَيْتِ وَمِنَى ، وَلَمَّا رُئِيَ

(١) : قَالَ لَهُ . (٢) : وَيَأْبَاهُ تَنْدَى . (٣) : سَقَطَتْ مِنْ أ . (٤) : ب : لِي هَذَا . (٥) : سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ ٦٩ . (٦) : الْبَيَات .

في النار لأجلنا قلنا له بلسان التفتيح : « كوني برّداً وسلاماً على إبراهيم » .
قدّم ماله إلى الضيفان^(١) ، وسلم ولده إلى القرّبان ، واستسلم للرّعي^(٢) في النيران ، فلما رأينا محبّتنا في بيّداء الوجد بهم « قلنا يا نار كوني برّداً وسلاماً على إبراهيم » .
ابتليناه بكلمات فأنعمن ، وأريناه قُدرتنا يوم « فصرّهنّ »^(٣) وكسر الأصنام
غيرةً لنا منهن ، فلما أجبّت النيران ذهبت بلفظنا^(٤) حرارتهن ، وغرسنا شجر الجنة
في سواء الجحيم « قلنا يا نار كوني برّداً وسلاماً على إبراهيم » .

بنوّا له بنيانا^(٥) إلى سفح جبل ، واحتطب من أجله من شرب وأكل ، وألقوه
فيها وقالوا قد اشتعل ، نخرج نمرود ينظر ماذا فعل ، وقد خرج توقيح القِدَم من^(٦) القديم :
« يا نار كوني برّداً وسلاماً على إبراهيم » .

اعترضه وتمرّض لحوائجه لللك ، حين قطع بيّداء الهوى وسلك ، فقال له بلسان
الحال : متى من سلك ، إياك والتعريض بما ليس لك ، فلما لم يتعلق بخلق دُوني إذ أضيم
« قلنا يا نار كوني برّداً وسلاماً على إبراهيم » .

تمرّضت له الأملاك فكفّتها كفّاً ، فلما رأيناه لا يمدّ إلى غيرنا كفّاً ، مدحناه ويكفي
في مدحناه [له^(٧) :] « الذي وثّق » واجتمع الخلائق صفّاً ينظرون من صفا ، فلما أتاانا
في وقت القلب بقلب سليم^(٨) : « قلنا يا نار كوني برّداً وسلاماً على إبراهيم » .

تدحّ يا جبريل فإذا موضع زحمة ، وخلق وخليق فإليه الرحمة ، وهل بذلت له إلاّ حمة
تنبّأ أو شخصة ، فلما وطن نفسه على أن يصير حمة ، وحوش من ذاك الكريم « قلنا يا نار
كوني برّداً وسلاماً على إبراهيم » .

كانت الملائكة تدعى القناب بالطاعة^(٩) ، نخرج حاروت وماروت فغيرت البضاعة ،

(١) : الضيفان . (٢) : إلى الرعي . (٣) : يشير إلى قوله تعالى : « غدا رية من الطير لصرمه
إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعوهن يأتينك سبياً واعلم أن الله عزيز حكيم » سورة البقرة
(٤) : ب : يلقه . (٥) : ١ : بيتا . (٦) : ب : عن القديم . (٧) : من ١ . (٨) : ١ : فلما أتاانا
ورأينا القلب قلب سليم . (٩) : ١ : تدعى الطاعة .

وشاهدوا يومَ الخليل ما ليس لهم به استطاعة ، رأى ما رأى وما أزعجه ولا راعه ، فلما رأيناه ساكناً والأَملاك في مُقعد مُقيم « قلنا يا نارِ كوني بَرْدًا وسلاماً على إبراهيم » .
[قابل القومُ رسولنا بأقبح تكذيب ، وقعدوا خليلنا بأشدَّ تعذيب ، ونسوا يومَ الفزعِ والتأنيب ، والخليلُ سرَّه صافٍ والحالُ مستقيم « قلنا يا نارِ كوني بَرْدًا وسلاماً على إبراهيم ^(١) »] .
اللهم إنا نتوسل إليك بالخليل في منزلته ، والحبيب في رُتبته ، وكلُّ مخلص في طاعته ،
أن تفرّجَ لكلِّ منا رُزقَه يا كريم برحمتك يا أرحم الراحمين .

المجلس الثامن

في قصة بناء الكعبة

الحمد لله الملك الجليل ، المنزه عن التظير والمديح بقبول القليل ، التكرم بإعطاء الجزيل ، تقدس عما يقول أهل التعميل ، وتعالى عما يستقد أهل التمثيل ، نسب للعقل على وجوده أوضح دليل ، وهدى إلى وجوده أبين سبيل ، وجعل للحسن حظاً إلى مثله يميل ، فأمر ببناء بيت وجب عن الشكفى الجليل « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ^(١) » .

ثم حماء لما قصد أصحاب القيل ، فأرسل عليهم جعارة من سجّيل .

أحمد كلما نطق بحمده وقيل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنزه عن ما عنه قيل ، وأصل على نبيه محمد النبي النبيل ، وعلى أبي بكر الصديق الذي لا يُبغضه إلا تقيل ، وعلى عمر وفضل همر فضل طويل ، وعلى عثمان وكم لعنان من فعل بهمل ، وعلى علي وجحد قدر على تفهيم ، وعلى عه العباس المستقى بشيئته فإذا السحب تليل .

قال الله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » .
اختلف العلماء في المبتدئ ببناء البيت على ثلاثة أقوال : أحدها : أن الله تعالى وضعه لا ببناء أحد . ثم في زمن وضعه إياه قولان : أحدهما : قبل خلق الدنيا . قال أبو هريرة : كانت الكعبة حشفة على الماء ، عليها ملكان يستبجان الليل والنهار قبل خلق الأرض بالنبي عام . الحشفة : الأكمة الجراء ^(٢) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لما كان العرش على الماء قبل خلق السموات بعث الله تعالى رجلاً فصفت الماء فأبرزت عن حشفة في موضع البيت كأنها قبة ، فدحا الأرض من تحتها .

(١) سورة البقرة . (٢) في القاموس : الحشفة : سخرة تبنى في البحر .

وقال مجاهد : لقد خلق الله تعالى موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض
بألني سنة ، وإن قواعد لفي الأرض السابعة السلى .
وقال كعب : كانت الكعبة غُثاء على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض .
بأربعين سنة .

وقد روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان البيت قبل هبوط
آدم ياقوتة من يواقيت الجنة ، وفيه قناديل من الجنة فلما أهبط الله تعالى آدم أنزل عليه
الحجر الأسود فأخذه فضمه إليه استئناساً به ، وحج آدم فقالت له اللاتكة بَرَّ حَبْلُكَ ،
لقد حجبتنا هذا البيت قبلك بألني عام . فقال : يارب اجعل له عُماراً من ذريتي . فأوحى
الله تعالى : إني مُعَمِّرُهُ بأبناء نبي من ذريتك اسمه إبراهيم ^(١) .

القول الثاني : أن اللاتكة بنته . قال أبو جعفر الباقر : لما قالت اللاتكة : « أَتَجْمَلُ
فيها مَنْ يُقَدِّدُ فيها » غضب عليهم ، فاضوا بالمرش يطوفون حوله يسترضون ربهم ،
فرضي عنهم وقال : ابنوا في الأرض بيتاً يمودُّ به كل من سخطت عليه ويطوفون حوله ،
كما فعلتم بعرضي . فبنوا هذا البيت .

والثالث : أن آدم لما أهبط أوحى الله إليه : ابن لي بيتاً واصنع حوله كما رأيتَ
للالبتكة تصنع حول عرشي . رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما . وروى عنه
عطاء أنه بناء آدم من خمسة أجيال : لبنان وطور سيناء وطور زيتا والجودي وحراء .
قال وهب : فلما مات آدم بناء بنوه بالطين والحجارة ، فسفسه الفرق . قال مجاهد :
وكان موضعه بمسد الفرق أكمة حراء لا تملوها السيول وكانت يأتيها المظالم
ويدعو عندها للكروب .



قال علماء السَّيَر : لما سَلِمَ الخليل من النار خرج بمن معه من المؤمنين مهاجرين ،
فتزوج سارة بَحْرَّانَ ، وقدم مصر وبها فرعون من القراعنة ، فوصف له حُسْنُهَا فبعث

(١) هذه الروايات التي سألها ابن الجوزي في أولية البيت الحرم ليس لها سند صحيح .

فأخذما ، فلما دخلت قام إليها فقامت تصلّ وتقول : اللهم إني آمنت بك وبرسولك وأحصنتُ فرجى إلا على زوجى ، فلا تسلط على الكافر . فقطأ حتى ركض الأرض برجله فقالت : اللهم إن يمتّ يقال هي التي قتلته . فأُرْسِل . ثم قام إليها فدعت فقطأ حتى ركض الأرض برجله ، ثم أرسل فقال : ردّوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر .

فوهبتها لإبراهيم وقالت : لسله بأنتيك منها ولد ، وكانت سارة قد مُنعت الولد ، فولدت له إسماعيل فهو بكر أبيه ، ولد له وهو ابن تسعين سنة . فلما ولدت غارت سارة وأخرجتها ، وحلفت لتقطعن منها بضعة . لحفظتها ثم قالت : لا تُساكني في بلدى .

فأوحى الله تعالى إليه أن يأتى مكة ، فذهب بها وبابنها ، والبيت يومئذ ربوة حراء فقال : يا جبريل أهدأ أمرت أن أضربهما؟ قال نعم . فأنزلهما موضع الحجر وأمر هاجر أن تصفد فيه عريشا .

أخبرنا عبد الأول ، قال أنبأنا أبو الحسن الداودي ، قال أنبأنا ابن أعين السرخسى ، حدثنا أبو عبد الله المزني ، حدثنا البخاري ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن أيوب السخيتي ، وكثير بن كثير عن المطلب بن أبي وداعة ، يزيد أحدهما على الآخر ، عن سعيد بن جبير ، قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقا لتنفى أثرها على سارة . ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعها هناك ، ووضع عند هجرانها فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطقا ، فخبته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادى القى ليس فيه أئيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك سرا را وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت إذا لا يضيعنا الله !

ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ربَّ « إني أسكنتُ من ذريتي بوادي غير ذي زرع عند بيتك المحرم ^(١) » حتى بلغ : يشكرون .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى من العطش ، أو قال يتلبط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا . فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي فلم تر أحدا ، فقامت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على الروة سمعت صوتا فقالت : صه . تريد نفسها ثم تسمعت أيضا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غوث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم . فبحث بقبه أو قال بمنحاه حتى ظهر الماء . فجعلت تحوضه ^(٢) وتقول بيدها وجعلت تفرق من الماء في سقاها ، وهو يقفور بمدما تصرف . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال : لو لم تعرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً .

قال : فشربت وأرضعت ولذا قال لها الملك : لا تخافي الضيعة ، فإن هذا بيت الله ينيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرفوعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله . فكانت كذلك حتى مرّت بهم رقيقة من جرّهم مقبلين من طريق كدى ^(٣) فنزلوا في أسفل مكة فأروا طائراً عاتقاً فقالوا إن هذا الطائر ليؤدّر على ماء لئلهنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً ^(٤) أو جريتين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروه بالماء فأقبلوا .

(١) سورة إبراهيم ٣٧ . (٢) تحوضه : يجعل له حوضاً ، أو تدور حوله . (٣) كدى ، كقرى ، جبل سفل مكة على طريق اليمن . وكدى كسى ، جبل بقرب مرفة . (٤) الجري : الأجير والرسول .

قال وأم إسماعيل عند الماء قالوا : أتأذنين لنا أن نزل عندك؟ قالت : نعم، ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فأتاني ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فزفوا . وأرسلوا إلى أهلهم فزفوا معهم . حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم^(١) وأعجبهم حين شب . فلما أهرق زوجه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل .

جاء إبراهيم بملها تزوج إسماعيل بطالع تركته، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت : خرج بيتي لنا . ثم سألتها عن عيشتهم وهيأتهم فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة وشكت إليه . قال : إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يثرب عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول : غير عتبة بابه . قال : ذلك أبي وقد أمرني أن أقرأك . الحق بأهلك . فطلقتها وتزوج منهم أخرى . فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجدوه ، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج بيتي لنا . فسألها عن عيشتهم وهيأتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأمنت على الله عز وجل . فقال : ما طعمكم؟ قالت : اللحم . قال : فما شربكم؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دعا لم فيه . قال : فيها^(٢) لا يخلو عليهما أحد بنير مكة إلا لم يوافقاه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثرب عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل ، قال : هل جاءكم من أحد؟ قالت : نعم جاءنا شيخ حسن الوجه ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا بخير . قال :

(١) أعصبهم : أعجبهم .. (٢) يريد اللحم والماء .

فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذلك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أسكك.

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيلُ يَبْرئ نَبْلًا له تحت دَوْحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنما كما يفعل الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله قد أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله تعالى قد أمرني أن أبنى هاهنا بيتاً. وأشار إلى أكمة^(١) مرتفعة على ما حولها. فعند ذلك رفع القواعد من البيت.

فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة وإبراهيمُ يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيلُ يناوله الحجارة، وهما يقولان: «ربنا تقبل مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». انفرد بإخراجه البخاري^(٢).



قال علماء السير: لما أمر الخليل عليه السلام ببناء البيت قال: يا رب بين لي صفته فأرسل الله تعالى سحابةً على قَدَرِ الكعبة، فسارت معه حتى قدم مكة، حتى وقت في موضع البيت ونودي: ابنِ على ظِلِّها لا تَزِدْ ولا تنقص. وكان جبريلُ حينَ الفرق قد استودع أبا قُبَيْسَ الحجرَ الأسودَ، فلما بنى إبراهيمُ البيتَ أخرجه إليه فوضعه.

أخبرنا الكُرُوخي، أنبأنا النُورَجِي، أنبأنا الجُرَاحِي، حدثنا المحبوبي، حدثنا الترمذي، حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن سميد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشدُّ بياضاً من اللبنِ فسودته خطايا بني آدم.



(١) الأكمة: التل. (٢) صحيح البخاري ١٠٨/٢ «كتاب بده الخلق».

قالوا : وولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً واتخذ الله نبياً ، وبثه إلى العماليق وجُرّم وقبائل اليمن ، فنهام عن عبادة الأوثان وتوفيت هاجر وهي بنت تسعين سنة وإسماعيل عشرون سنة ، فدفنها في الحجر وعاش مائة وسبعا وثلاثين سنة ، وكان قد شكّا إلى ربه حرم مكة ، فأوحى الله تعالى إليه أنى أفتح لك باباً من الجنة في الحجر يجرى عليك منه الروح إلى يوم القيامة . وفي الحجر قبره .

ولما توفى دبر أهل الحرم بعمه ابنته نابت ، ويقال نبتت ، ثم غلبت جرهم على البيت وانهدم ، فبنته العمالة ، ثم بنته جرهم .

وقصده أصحاب التيل .

وكان السببان أبرهة بنى كنيسة وأراد أن يصرف إليها الحج ، فسمع بذلك رجل من العرب فأحدث فيها ، فغضب أبرهة وقصد الكعبة ، فلما دنا من مكة أغار أصحابه على نَم الناس فأصابوا إبلاً لعبد المطلب ، ثم قال لبعض أصحابه : سل عن شريف مكة . فأتى ببعد المطلب ، فقال له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن ترد عليّ إلى . قال : أولاً نسألك عن بيت هو دينك ودين آبائك ؟ فقال : أنا رب هذه الإبل ، ولهذا البيت رب يمينه !

فأمر قريشاً أن يهزقوا في الشَّباب وأخذ بحلقة باب الكعبة وقال :

يا رب لا أرجو لم يواكا يا رب فامنع منهم حكاكا
إن عدو البيت من عاداكا امنهم أن يجزوا قراكا

ثم قال :

لا تم إن المرء يمنع رحله وحلاله فامنع رحالك^(١)
لا يفلن صليهم ومخالم غدوا محالك^(٢)
جزوا جموع بلادهم والليل كي بسوا عيالك

(١) في نسخة ابن مقام : .. يمنع رحله فامنع رحالك . (٢) غدوا : غدا ، استعمل تاماً في هذا الوضو .

عَمَدُوا حَاكَ بِكَيْدِهِمْ جَهْلًا وَمَارَقَبُوا جَلَالَكَ
إِنْ كُنْتَ تَارَكْهُمْ وَكَمَبْنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَأَ لَكَ

نُبعت الله تعالى عليهم طيوراً رموسها كرموس السباع ، وقيل كأمثال الخطاطيف
مع كل طير ثلاثة أحجار : حجران في رجليه وحجر في منقاره ، وكانت كأمثال الرطص ،
وقيل كرمس الجبل ، فكانت تقع على الرجل فتخرج من دبره .
والأباييل : جماعات متفرقة ، والسَّجِيل : الشدبد الصلب ، والمَصْف : تَبَنٌ^(١)
الزرع وورقه .

ثم بنته قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ شاب ، ثم بناه ابن الزبير ،
ثم نقضه الحجاج وبناه .

سبعان من اخص من عباده الأخيار ، فجعل منهم الأنبياء والأبرار ، وأبعد
المساء والنجمار « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ »^(٢) .

الكلام على البسملة

تُرَيْنَ أَمْآلَا خَوَاتِيمُهَا فَانْكَ وَزَيْنَ حَمَلًا بِالْغِيَامِ
أَفْضَلُ مَا زُوِّدْتَ زَادُ التَّقَى وَشَرُّ مَا تَحْمِلُ زَادُ الْأَثَامِ
وَالْجِسْمُ يُنْسِيهِ الْبَيْلَى فِي الثَّرَى مَا كَانَ طَائِيٍّ مِنْ خَطُوبِ جِيَامِ
أَخَامِيهِ الْقَلْبَ لِإِعْرَاضِهِ عَنْ الْمَدَى وَهُوَ أَلَدُ الْغَضَامِ
وَيَنْحِلِمُ السَّنُّ أَخَا كَثْرَةِ وَحْمِهِ مُتَّصِلٌ بِالْخَطَامِ
كَأَنَّ غَمْرِي مَرَكَبَ سَارِي حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْحَيْنَ قَامَ
سَهْدُ هَذَا الْخَلْقِ فِي شَأْنِهِمْ تَمَّتْ لِأَقْوَامِ أَنْامُوا الْأَنَامِ

ليأتينك من اللوت ما لا يقبل رشوة ومالاً ، إذا مال على القوم والقويم مالاً ،

(١) ل القاموس : وكصف ما كولد : أي كزرع أكل حبه وفي نهته ، أو كورق أخذ ما كان فيه وفي
مواضع فيه ، أو كورق أكلته البهائم . (٢) - سورة القصص ٦٨ .

يا مختار الموى جهلاً وضلالاً ، لقد حَمَلْتَ أوزارك أوزارا ثقلاً ، إليك واللى فكم وعد
اللى مُحَالاً ، كم قال الطالب نعم نعم سأعطى نوالاً ثم نوالاً ، كم سَقَا من الحشرات
كؤوساً ، وفرغ ربّما بعد أن كان مأنوساً ، وطمس بهوّه بدورا وشموساً ، وأغض
عبونا ونكس رموساً ، وأبدل التراب عن الثياب ملبوساً :

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلاً فسيان فيه أدرك الخطأ أو أخطأ
وليس يفي يوماً سرورٍ وغيطةٍ بحزنٍ إذا للمعطي استردّ الذى أعطى

لقد وعظ الزمنُ بالآفات والحن ، لقد حدّث من لم يظن بالظن ، وخوف الللق
بالمرتهن ، تالله لو صنتَ الفطنُ لأبصرتُ ما بطن ، إخوانى : أمر الموت قد علن ، كم
طَحَطَحَ الردى وكم طعن ، يا بائعاً لليتين مشترياً للظن ، يا مؤثراً الرذائل فى اختيار
الفتن ، إن السرور والشورور فى قرن .



أجل هباتِ الدهرِ تركَ المراهبِ تمّدُّ لنا أعطاك راحة ناهبِ
وأفضلُ من عيشِ النني عيشُ فاقة ومن زى ملكٍ رائقِ زى راهبِ
ولى مذهبٍ فى هجرى الإنسانِ نافعٌ إذا القومُ خاضوا فى اختيارِ المذاهبِ
أرانا على الساعاتِ فرسانَ غارةٍ وهنّ بنا يجرن جرنى السّلاهبِ
وبما يزيد العيشَ إخلاقَ ملبسٍ تأسفَ نفسٍ لم تعلق ردةً ذاهبِ

لقد تكاثفت ذنوبك يركب بعضها بعضاً ، وتماثلت عيوبك فلأت الأرض
طولاً وعرضاً ، وهذا الموت يركض نحو روحك ركعاً ، وعندك من الدنيا فوق
ما يكفى وما ترضى ، أأمنت على مبسوط الأمل بسطاً وقبضاً ، كم حمر الردى إذا أتى
غصنا غصناً ، كم بلبل بالاً وما بالى هدماً ونقضا ، اسمع منى قولاً ونصيحاً تحضاً ،
كم قد جنبت طويلاً فككن من اليوم ذليلاً أرضاً .

قال ذو النون للممرى رحمه الله عليه : لقيتُ جارية سوداء قد استلبها الوله من

حُبِّ الرحمن شائخةً يبصرها نحو السماء فقلت : عَظِيفِي شَيْئاً مَا عَلَيْكَ اللَّهُ . قالت : يَا أَبَا الْقَيْصِ ، ضَعْ عَلَى جَوَارِحِكَ نِيرَانَ الْقِسْطِ حَقَّ يَنْوِبِ كُلِّ مَا كَانَ لغيرِ اللَّهِ ، فَيَبْقَى الْقَلْبُ مُصْنَعِي لَيْسَ فِيهِ غَيْرُ رَبِّ عَزَّ وَجَلَّ ، فَمَعْدُ ذَلِكَ يَقِيمُكَ عَلَى الْبَابِ وَيُؤَلِّيكَ وَلَايَةً جَدِيدَةً وَيَأْمُرُ الْخُزَّانَ لَكَ بِالطَّاعَةِ . فقلت : زَيْدِي رَحِمَكَ اللَّهُ ! فقالت : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ وَأَطْلِعْ اللَّهَ إِذَا خَلَوْتَ بِحَبْلِكَ إِذَا دَعَوْتَ .
ثُمَّ وَلَّتْ عَنِّي وَتَرَكَتْنِي .

إِخْوَانِي : مِنَ النَّفُوسِ نَفُوسٌ خُلِقَتْ طَاهِرَةً ، وَنَفُوسٌ خُلِقَتْ كَدِرَةً . وَإِنَّمَا تَصْلَحُ الرِّيَاضَةُ فِي نَجْمِجٍ . الْجُلُودُ الطَّاهِرَةُ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْهَا التَّعَاسُفُ يَطْهَرُهَا الدَّبَاجُ لِأَنَّ الْأَصْلَ طَاهِرٌ ، بِخِلَافِ جِلْدِ الْخُزَيْرِ !

لِلنَّفُوسِ الْخُلُقِيَّةِ عِلَامَاتٌ : الْجِدُّ فِي النَّالِبِ ، وَالْحَذَرُ عَنِ الزَّلَلِ ، وَالِاحْتِقَارُ لِلْعَمَلِ ، وَالْقَلَقُ مِنْ خَوْفِ السَّابِقَةِ ، وَالْجَزَعُ مِنْ حَذَرِ الْخَلِيعَةِ ، فَقَرَى أَحَدُهُمْ يَسْتَفِيتُ اسْتِفَاةَ الْفَرِيقِ ، وَيَلْبَسُ لَبَأَ الْأَسِيرِ ، الْفُلْكَ لِبَاسَهُ وَسَهَرَ اللَّيْلِ فَرَاشَهُ ، وَذَكَرَ الْمَوْتَ حَدِيثَهُ ، وَالْبَيْكَاةَ دَائِمَهُ .

بَاتَ عُتْبَةُ الْفُلَاحِمِ لَيْلَةً عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَجَمَلَ يَقُولُ : إِنَّ نَذِيرِي قَدْ بَلَغَ لَكَ مُحِبَّ ، وَإِنْ تَرَحُّمِي قَدْ بَلَغَ لَكَ مَحَبَّ . فَلَمْ يَزَلْ يَرُدُّهَا وَيَبْكِي إِلَى الصَّبَاحِ .

وَكَانَ عَابِدٌ يَقُولُ : يَا إِخْوَانَهُ ابْكُوا عَلَى خَوْفِ فَوَاتِ الْآخِرَةِ حَيْثُ لَا رَجْعَةَ وَلَا حِيلَةَ . لَمَّا أَسْرَ النَّوْمُ سَارَ النَّوْمُ ، فَقَطَّعَ نَفْسَكَ بِالْقَوْمِ الْيَوْمَ :

يَا مَقَّةً رَاقِدَةً	لَمْ تَذَرِ بِالسَّاهِدَةِ
كَأَنَّهَا سَهَوَتْ	نَجْمُومَهَا الرَّاكِدَةَ
بَدَا سُهَيْلٌ لَهَا	فَانْمَحَرَفَتْ عَائِدَةً
كَأَنَّهَا دَرَاهِمٌ	وَمَتَّ بِهَا النَّاقِدَةَ

يا نفسُ لا تجزى قد تجمدُ الفاقدة
أى الورى خالدةً أنصهم واحدة
ولوتُ حوضُ لما وهى له واردة
حائدة جُهدَها إن سلت حائدة
فى كل قبحٍ لها منية راصدة
تفرُّ من حنظلها وهى له فاصدة
لا تُخذعن بالحق قد تكذب الرايدة
هان على ميت مات بعد الواجدة

الكلام على قوله تعالى

﴿ فى بيوتِ الذين أنزلنا من قبلك من قبلك ﴾

البيوت هاهنا : الساجد و « أذن » بمعنى أمر . و « تُرْفَع » بمعنى تُنمَط و « اسمه »
توجيهه وكتابه .

وفى أفراد مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال « أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها وأبغض البلاد إلى الله تعالى أسواقها » .
وفى الصحيحين من حديث عثمان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : « من بنى لله عز وجل مسلداً بنى الله له مثله فى الجنة » . وفيهما من حديث
أبى هريرة قال : « من غدا إلى المسجد وراح أعد الله له فى الجنة نزلاً ﴿ كلما غدا أو راح » .
أخبرنا يحيى بن حلى ، أنبأنا أبو جعفر بن السلية ، وأنبأنا سعيد بن أحمد ، حدثنا على
ابن أحمد بن السدي ، قال أخبرنا الخليل ، حدثنا الهنوي ، حدثنا عبد الجبار بن عاصم ،
حدثنى عبيد الله بن عمرو ، عن زيد بن أنيسة ، عن عدي بن ثابت ، عن أبى حازم
الاشجعي ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تطهر فى بيته

(١) سورة النور ٣٦ . (٢) صحيح البخارى ٩٥/١ : « أعد الله له نزل فى الجنة » .

ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليَقْضَى فريضة من فرائض الله كانت خُطواته إحداهما
تُحْطُ خطيئة والأخرى تَرْفَعُ درجة .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن علي ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله
ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا هاشم ، حدثنا ليث ، حدثني سعيد ، يعني القُفَيْرِي ، عن
أبي عبيدة ، عن سعيد بن يسار ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال : رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « لا يتوضأ أحدٌ فيحسن وضوءه ويُشَبِّهه ثم يأتي للسجدة لا يريد إلا الله فيه إلا
تَبَشَّشَ ^(١) الله به كما تبشش أهلُ النَّارِ بطلته » .

قوله تعالى : « يَسْبُحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » : قال الزَّجَّاج لا خِلَافَ ^(٢) بين أهل
اللغة أن التسبيح هو التعزیه لله عز وجل عن كل سُوء . والغُدُوُّ جمع غُدُوَّة . والآصال
جمع أصل ، وأصل جمع أصيل ، فالآصال تَجْمَعُ الجمع . والآصال : المشيات .

وللفسرين في الراد بهذا التسبيح قولان : أحدهما أنه الصلاة . ثم في صلاة الغُدُوِّ
قولان : أحدهما أنها الفجر ؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني : صلاة الضحى
وروى ابن أبي مَلَيْكَةَ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن صلاة الضحى كفى
كتاب الله وما يَفُوصُ عليهما غَوَاصٌ ثم قرأ : « يَسْبُحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » .

وفي صلاة الآصال قولان : أحدهما : أنها الظهر والمصر والمغرب والمشاء . قاله
ابن السائب . والثاني : صلاة المصر . قاله أبو سليمان الهَمْدَقِي .

قوله تعالى : « رجالٌ لا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكْرِ الله » أى لا تَشْغَلُهُمْ .

قال ابن السائب : التجار الجَلَّابُونَ والباعة للقيمون .

وفي الراد بذكر الله ثلاثة أقوال : أحدها : الصلاة المكتوبة . قاله ابن عباس .
وروى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا

(١) تبشش به : آله وواصله . وهومن الله تعالى : الرضا والإكرام . (٢) ب : الاختلاف عرفة .

للسجد فقال ابن عمر : فيهم . نزلت : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » .
والثاني : أنه القيام بحق الله تعالى . قاله قتادة . والثالث : ذكر الله تعالى باللسان . قاله
أبو سليمان العمشقي .

قوله تعالى : « وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » أي أداؤها لوقتها وإتمامها .
قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه : ما أذن للؤذين منذ ثلاثين سنة إلا وأنا
في السجد . وقال سفيان بن عيينة : لا تسكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يدعى ، أيت
الصلاة قبل النداء .

أخبرنا المبارك بن أحمد الأنصاري ، أخبرنا الحسين بن عبد الجبار ، أخبرنا محمد
ابن علي بن الفتح ، أنبأنا علي بن الحسين بن سكينه ، أنبأنا محمد بن القاسم ، حدثنا أبو بكر
ابن عبيد ، أنبأنا أبو الحسين ابن أبي قيس ، أنبأنا سويد بن سعيد ، أنبأنا علي بن مسير ،
عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة . جاء مناو
ينادي بصوت يُسمع الخلائق : سيعلم الخلائق اليوم من أوفى بالكرم . ثم يرجع فينادي :
فلقيم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فيقومون وهم قليل . ثم ينادي :
ليقيم الذين كانوا يمدحون الله عز وجل في السر والعلانية . فيقومون وهم قليل . ثم يرجع
فينادي : أين الذين كانت تهجأ جنوبيهم عن المضاجع [فيقومون ^(١)] وهم قليلون .
ثم يحاسب الناس .

قال بعض الزهاد : رأيت رجلاً قد أقبل من بعض جبال الشام فسألت عليه فرد
ووقف ينظر كالخيلان ، فقلت له : من أين أقبلت ؟ فقال : من عند قوم لا تلهيهم تجارة
ولا بيع عن ذكر الله . فقلت : وأين تريد ؟ قال : إلى قوم تهجأ جنوبيهم عن المضاجع .
ثم قال : وأسفا قلت : على ماذا ؟ قال : على ما فيه إذ كانوا بأعالمهم على طريق نجاتهم .

(١) سقطت من ب .

الناس سكون يُخَذِرُونَ وما بسيفٍ آثَمُوا
كانوا إذا رامُوا كلا ما مُطْلَقًا خَطَمُوا وَزَمُوا
إِنْ قِيلَتِ النِّعْشَاءُ أَوْ ظَهَرَتْ عَمُوا عَنْهَا وَصَمُوا
فَضُوا وَجَاءَ مَعًا شِرٌّ بِالْمَكْرَاتِ طَمُوا وَطَمُوا^(١)
فَتَمَّ لَطَمٍ فَأَغْرَسَ وَيَدٌ عَلَى مَالٍ تَقَمَّ
عَدَلُوا عَنِ الْحَسَنِ الْجَمِيِّ وَلَفَعْنَا حَمَدُوا وَأَثَمُوا
وَإِذَا مُمْ أَعْيَنَهُمْ شَنَعَامُ^(٢) كَذَبُوا وَغَثُوا
فَالصَّدْرُ يَنْفِلُ بِالْمَوَا جَسَ مِثْلَ مَا يَنْفِلُ اللَّحْمُ^(٣)

قوله تعالى : « يخافون يوماً تتقلب في القلوب والأبصار » تصعد القلوب إلى الحناجر وتقلب الأبصار إلى الزرق عن السكحل ، والصي بعد النظر .

أخبرنا ابن الحصين ، قال أنبأنا ابن الذهب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، أخبرنا عبد الله ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا سليمان بن حيان ، أخبرنا ابن عون ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقوم أحدهم في رشفه إلى أنصاف أذنيه » .
أخبرنا عبد الأول ، حدثنا الداودي ، حدثنا ابن أعين ، حدثنا القزويني^(١) حدثنا البخاري ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثني سليمان ، عن ثور بن زيد ، عن أبي النيث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « يمرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويُلبِجهم حتى يبلغ آذانهم » .

الحديثان في الصحيحين . وفي لفظ : « سبعين باعاً » قال . مغيب بن سمي : تركز

(١) طموا امتلأوا . يقال : طمى الماء يطمى طمياً : غلا . والنبت طال ، والبحر امتلأ . وطموا : طموا ، يقال : طم الماء : غمر . (٢) شناعم : شناعوم . والشناع : الصفة الشلية النقية .
(٣) اللحم : الساخن . (٤) القزويني : أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح القزويني ، راوية صحيح البخاري عنه ، ينسب إلى قزوين ، وهي بلدة على طرف جيحون مما يلي بخارى ، ولد سنة ٢٣١ ومات سنة ٣٢٠ هـ الباب ٢/٢٠٢ .

الشمس فوق رؤوسهم على سبعة أذرع وتُفتح أبواب جهنم فيهب عليهم من رياحها وتقومها ويخرج عليهم من ثقابها^(١) حتى تجري الأنهار من عرقهم . والصائمون في ظل العرش .

يا من لا يتردعه ما يسمعه ، يا من لا يُقنعه ما يجمعه ، أما القبرُ عن قريب موضع ، أما اللحدُ عن قريب مصنَّج ، أما يرجع عنه من بشيقه ويأخذ ما جمعه أجمعه ، كم يفرق خرقاً بالخطأ ثم لا يترقه ، كم يحطه القبح والنصح يرفقه ، كم يفسد غرور الهوى وهو يتقيمه :

لا تعدلنه فإنّ العذل يؤلمه . قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه^(٢)

أشرف راهب من الرهبان من صومته فإذا رجل جالس فقال : يا هذا ما جلوسك هاهنا ؟ فقال له : اسكت يا فارغ القلب ودع التشاغل بغيره فإنه منك قريب ! فصرخ الراهب وخرّ منشفياً عليه ، فلما أفاق قال : سيدي لك المتقى لا أعود فيها يقطعني عنك . فصمت عن الكلام حتى مات .

كم غرّ الغرور غرّاً ، أمداً له أطناب الطمع على أوتاد الهوى ، وسامره في غنّمة المني يعمى عليه أمالي الآمال ، وما أجال فيما جال سهو ذكر الآجال ، ثم وجه إلى جهة الجهل والنفقة ، فلما إليه منشور التسويف ، فلما ضرب بوق الرحلة وقربت نوق النقلة سلّ ما سلّا إليه ، فألقى كاللقى على باب الندم !

إلام أمتى النفس مالا تناله وأذكر عيشاً لم يُمدّ مذكراً
وقد قالت السّتون للهو والصبا دعائي أسيرى واذهباً حيث شتتا
أخبرنا محمد بن عبد الملك ، أنبأنا أحمد بن الحسين الشاهد ، حدثني عبد العزيز بن علي ،

(١) ثقابها : ريحها وحرما (٢) كذا بالأصل . والبيت لأبي نواس ونحوه :
لا تصدليه فإنّ العذل يؤلمه . قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الحافظ، أخبرنا إبراهيم بن نصر، حدثني إبراهيم بن بشار، قال سمعت إبراهيم بن آدم يقول لرجل رآه يضحك : لا تطعمن في بقاءك وأنت تعلم أن مصيرك إلى اللوت ، فلم يضحك من يموت ولا يدرى أين مصيره : إلى الجنة . أم إلى النار ، ولا يدرى أي وقت يكون اللوت : صباحاً أو مساء ، بليل أو نهار . ثم قال : أوه وسقط منشفياً عليه .

سجع على قوله تعالى

﴿ يخافون يوماً تتقلب في القلوب والأبصار ﴾

لورأيت أرباب القلوب والأسرار ، وقد أخذوا أهبة التعمد في الأسحار ، وقاموا في مقام الخوف على قدم الاعتذار « يخافون يوماً تتقلب في القلوب والأبصار » .
عقدوا عزم الصيام وما جاء النهار ، وسجنوا الألسنة فليس فيهم مَهْذَار ، وغَضُّوا أبصارهم ولازِمَ غَضُّ الأبصار ، فانظر مدحهم إلى أين انتهى وصار ، أحزانهم أحزان تُكَلِّى ما لها اصطبار ، ودموعهم لولا التحري لقلت كالأنهار ، ووجوههم من الخوف قد علاها الصفار ، والقلق قد أحاط بهم ودار ، « يخافون يوماً تتقلب في القلوب والأبصار » .
جَدُّوا في انطلاقتهم إلى خَلَاقِهِمْ ، وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم ، فإذا بهم قد أذابهم كَرْبُ اشتياقهم ، أندرى ما الذى حبسك عن لحاقهم : حبُّ الدرهم والدينار .
أيقظنا الله وإياكم من هذه السَّنة ، ورزقنا اتباع النفوس المحسنة ، وآتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ووقانا عذاب النار .

المجلس التاسع

في ذكر إسحاق وقصة الذبح

الحمد لله الذي أنشأ وِثْرًا ، وخلق المساء والنَّزَى ، وأبدع كل شيء ذرا ، لا يُغيب عن بصره ديبُ النمل في الليل إذا سَرَى ، ولا يُغزب عن عِلِّه ما عنَّ وما طرأ ، اصطفى آدم ثم عفا عما جرى ، وابتعث نوحًا فبنى الفلْكَ وسَرَى ، ونجَّى الخليل من النار فعصار حرَّها تَرَى ، ثم ابتلاه بذبح الولد فأدهشَ بصره الورى « يَا بُنَى إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى » .

أحمد ما قُطِعَ نهارٌ بَسِيرٌ وليلٌ بَسُرَى ، وأصلى على رسوله محمد المبعوث في أم القرَى ، وعلى أبي بكر صاحبه في الدار والنار بلا مِرَا ، وعلى عمر المحدث عن سيرة فهو بنور الله يَرَى ، وعلى عثمان زوج ابنته ما كان حديثًا يُفْتَرَى ، وعلى عليٍّ بحر المعلوم وأسَدُ الشَّرَى ، وعلى عمه العباس الرفيع القَدْرُ الشامخ الذَّرَى .

قال الله : « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَى إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ^(١) » .

المراد بالسعي : مشيه معه ونصرته ، وكان حينئذ ابن ثلاث عشرة سنة ، وهذا الزمان أحبُّ ما يكون الولد إلى والده ، لأنه وقتٌ يستغنى فيه عن مشقة الحضنة والتربية ، ولم يبلغ به وقت الأذى والمقوق ، فكانت البلوى أشد .

وللعلماء في الذبيح قولان : أحدهما : أنه إسماعيل . قاله ابن عمر وعبد الله بن سلام ، والحسن البصري وسعيد بن المسيب والشَّعْبِيُّ ومجاهد ويوسف بن مهران والقرظي ، في آخرين . والثاني : أنه إسحاق .

أخبرنا علي بن عبيد الله ، وأحمد بن الحسين وعبد الرحمن بن محمد . قالوا أنبأنا

عبد الصمد للمؤمن ، أنبأنا علي بن عمر الخربزي ، حدثنا أحمد بن كعب ، حدثنا عبد الله ابن عبد المؤمن ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، عن المبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الذبيح إسحاق

وهذا قول عمرو بن العباس وابن مسعود وأبي موسى وأبي هريرة وأنس وكعب وهب ومسروق ، في خلق كثير . وهو الصحيح ^(١) .

أخبرنا الحسين ، أنبأنا أبو طالب بن غثيان ، أنبأنا أبو بكر الشافعي ، حدثنا الميثم ابن خلف ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، عن الحسن بن دينار ، عن علي ابن زيد بن جُدعان ، عن الحسن ^(٢) ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سأل داود عليه السلام ربه فقال : إلهي أسمع الناس يقولون : إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب . فاجعلني رابعاً . فقال ^(٣) : لست هناك ، إن إبراهيم لم يبدل بي شيئاً إلا اختارني عليه ، وإن إسحاق جادى بنفسه ، وإن يعقوب في تلؤل ما كان لم يئأس من يوسف » .

وأما سبب أمره بذبحه : فروى الشَّاذلي عن أشياخه ، أن جبريل لما بشر سارة بإسحاق قالت : ما آية ذلك ؟ قال : فأخذ عوداً يابساً في يده فلوّاه بين أصابعه فاهتز خضراً ^(٤) ، فقال إبراهيم : هو ^(٥) الله إذا ذبيح . فلما كبر إسحاق أتى إبراهيم في النوم

(١) هذا الذي ذهب إليه ابن الجوزي من أن الصحيح أن الذبيح هو إسحق : غير صحيح . قال ابن كثير : « الظاهر من القرآن أن الذبيح هو إسماعيل ، بل كأنه ليس عليه ، لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : « ويعمرنا بإسحاق نبيا من الصالحين » ومن جملته حالا فقد تكلف . ومستند أنه إسحق إنما هو إسرائيليات . وكتابتهم فيه تحريف ولا سببا هنا قلما لا يحيد عنه ، فإت عندم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً ولا يسبقه من العرب : بكراهة إسحق . فلفظة إسحق هاهنا مقعنة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل . وإنما حلهم على هذا حسد العرب ، فإت إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإسحق والد يعقوب . وهو إسرائيل — الذي ينسبون إليه ، فأرادوا أن يمجروا هذا المرفع إليهم ، لحرفوا كلام الله وزادوا فيه ، وهم قوم بيت ، ولم يقرأ بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وانظر قصص الأنبياء لابن كثير ، تحقيق ٢١٤/١ — ٢١٧ . وتفسير ابن كثير أيضا . ١ : ابن الحصين . ١ (٣) : قال . ١ (٤) : أخضر . ١ (٥) : فهو .

قَبِيلَ لِه : أَوْفٍ بَذَرَك . فقال لإسحاق : انطلق تقرب قربانا إلى الله . وأخذ سكيناً وحبلًا ، ثم انطلق معه حتى إذا ذهب بين الجبال فقال له الغلام : يا أبت أين قُرْبَانَا ؟ قال : « يا بني إني أرى في المنام أنَّي أَذْبَحُكَ » فقال إسحاق : أَشَدَّ رباطي كي لا اضْطَرَّ (١) ، واكففت ثيابك لا ينتضح عليهما من دمي فتراه سارة فَتَحْزَنُ ، وأسرع مرًّا السكين على حَلْقِي ليسكون أهونَ للموت على (٢) ، وإذا أنبت سارة فاقرا عليها السلام مني .

فَأَقْبَلَ عليه إبراهيمُ يَقْبَلُهُ وَيَبْكِي ، وربطه وجرَّ السكين على حلقه فلم تَذْبَحْ (٣) السكين . وقال غيره : انْقَلَبْتُ . فنودي : « يا إبراهيمُ قَدْ صَدَقَتْ الرُّؤْيَا » فلما بكبش فأخذه وخَلَّى عن ابنه وأكَبَّ عليه يَقْبَلُهُ (٤) ويقول : يا بني اليوم وَهَيْبْتُ لِي . ورجع إلى سارة فأخبرها الخبر فقالت : أردت أن تَذْبَحَ ابني ولا تُصْلِفِي ؟ !

قال شُعَيْبُ الْجَلْبَانِي : لما علمتُ بذلك ماتت في اليوم الثالث .

وإنما قال : « فأنظرُ ماذا تَرَى » أي ما عندك من الرأي ، ولم يقل ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله سبحانه « قال يا أبتِ افعل ما تُؤْمَرُ » أي ما أمرت .

« فَلَمَّا أَسْلَمَا » أي استسلما لأمر الله سبحانه ورضيا (٥) وفي جواب هذا قولان : أحدهما أن جوابه « ناديتاه » والواو زائدة . قاله الفرَّاء . والثاني : أنه محذوف تقديره سَعِدَ (٥) وأُثْمِبَ .

قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » قال ابن قتيبة : مرَّعه على جبينه فصار أحد جَبَيْنَيْهِ (٦) على الأرض وهما جبintان والجهة بينهما . « وَنَادَيْتَاهُ » قال المفسرون : نودي من الجبل : « يا إبراهيمُ قَدْ صَدَقَتْ الرُّؤْيَا » وفيه قولان : أحدهما قد حَلِمْتُ بما أمرت به . وذلك أنه قصد الذبح بما أمكنه ، فطاوعه الابن بالتسكين (٧) من الذبح ، إلا أن الله صرف ذلك كما شاء ، فصار كأنه ذبح ، وإن لم يقص الذبح . والثاني : أنه رأى في المنام معالجة الذبح

(١) ١ : كي لا اضْطَرَّ : محرفة . (٢) ١ : فلم تحك . (٣) ١ : يقبله . محرفة .
(٤) ١ : وورضيتا . محرفة . (٥) ب : أسعد . (٦) ١ : أحد جنبيه . (٧) ب : وطاوعه .
الابن من التسكين .

ولم ير إراقة الدم ، فلما فعل في الیقظة ما رأى في المنام قيل له : « قد صدقت الرؤيا »
وقرأ أبو التوكل وأبو الجوزاء وأبو عمران والجحدري : « قد صدقت الرؤيا »
بضعيف الدال .

« إنا كذلك » أى كما ذكرنا من العقو عن ذبح ولده ، كذلك « نجزي الحسنين » .
« إن هذا لهم البلاء المبين » وفيه قولان : أحدهما : النعمة البينة وهو العقو عن الذبح .
والثاني : الاختبار العظيم ، وهو امتحانه بالذبح « وفديناه بالذبح » وهو بكسر الهمزة
اسم ما ذبح وبفتحها مصدر ذبح . وللعنى : خلصناه من الذبح بأن جعلنا الذبح فداء
له . وفى هذا الذبح ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كان كبشاً أقرن قدرعى فى الجنة قبل ذلك
أربعين عاماً . قاله ابن عباس فى رواية مجاهد . و [قال] ^(١) فى رواية سعيد بن جبیر :
هو الكبش الذى قرب به ابن آدم فتقبل منه ، كانت فى الجنة حتى فدى به . والثانى :
أن إبراهيم فدى ابنة بكشين أبيضين أعينين أقرنين . رواه الطفيل عن ابن عباس .
والثالث : أنه كان ذكراً من الأروى ^(٢) أهبط عليه من تبيير ^(٣) قاله الحسن .

وفى قوله « عظيم » قولان : أحدهما : لأنه قدرعى فى الجنة . قاله ابن عباس .
والثانى : أنه مقبل . قاله مجاهد . قال وهب بن منبه : كان ذلك بإيلياء من
أرض الشام .

سبعان الفات بين الخلق ! يقال للخليل : اذبح ولدك . فياخذ الدية ويضعه
للذبح ، ويقال لقوم موسى : « اذبحوا بقرة » فذبحوها وما كادوا يفعلون !
ويخرج أبو بكر من جميع ماله ، ويبخل ثلثية بالزكاة ! ويمجد حاتم بقوته ، ويبخل
بفضوه ناره الحجاب ^(٤) .

(١) ليست فى ١ . (٢) الأروى : الدولة . (٣) تبيير : جبل بظاهر مكة .

(٤) ١ : وبخل الحجاب بضم ناره . محرفة . وفى القاموس : كان أبو حجاب من محارب ، وكان لا يوفد
ناره إلا بالحطب الصفحت ثلاث ترى .

وكذلك هَوَّت بين الفُهوم فَسَحَبَانُ انطلق متكلِّم ، وباِقل أقبَح مِن أخرس .
وهَوَّت بين الأماكن فَرَزُود^(١) تشكو العُش والبَطَاح^(٢) نصيح : الفرق .

قال علماء السير : لم يمت إبراهيمُ حتى نَبِيَّ إِسْحَاقَ وَبُعثَ إلى أرض الشام . وكان إبراهيم قد زوج إِسْحَاقَ أروقة بنت بتاويل^(٣) ، فولدت له العيص ويعقوب ، وهو ابن ستين سنة . فأما العيص فتزوج بنت عمه إسماعيل ، فولدت له الروم ، فكل بنى الأصغر من ولده وكثر أولاده حتى غلبوا الكنعانيين بالشام وصاروا إلى البحر والسواحل وصار^(٤) للوك من ولده وهم اليونانية .

وأما يعقوب فتزوج ليا فولدت أكثر أولاده ، ثم تزوج راحيل فولدت له يوسف وبنيامين . وعاش إِسْحَاقَ مائة وستين سنة ، وتوفي بفلسطين ودفن عند أبيه إبراهيم .

إِخْوَاني : تأملوا عواقبَ الصَّبْرِ ، وتغالبوا في البلاء نور^(٥) الأجر ، فن تصوِّر زوالَ اللَّحْنِ وبقاء النناء هان الاجتلاء عليه ، ومن تفكَّر في زوال اللذات وبقاء العار هان ترزُّكها عنده ، وما يلاحظ العواقبَ إلا بصَرٌّ نَاقِب .

المكلام على البسملة

فَرَاكَ^(٦) من الأيام نابَّ وَغَلَبَ وخانَكَ لَوْنُ الرَّاسِ والرأس أشيبُ
لِحْطَامٍ لا تَنفُكُ جامعٌ هَمٌّ^(٧) بعيدَ مَرَامِي^(٨) النفس واللوت أقربُ
نُسْرٌ بِمِشِ أَنْتَ فِيهِ مُنْفَعٌ وتستعذبُ الدنيا وَأَنْتَ مُعَذَّبُ
تَفْذِيكَ والأوقاتُ جِسْمَكَ تَفْتَدِي^(٩) وتَسْخِيقُ والساعاتُ رُوحَكَ^(١٠) تَشْرِبُ

(١) زورود : موضع (٢) والبَطَاح : سبيل الماء مفردا بطيحة . (٣) : بنت بتاويل .
(٤) : فصار . (٥) في ١ ، ب : وتغالبوا في البلاء وفوز الأجر . وما أُنْبِتته من تذكرة الأبطال
وهو مختصر البصرة . ورقة ٣٧ ب . ورمز له بالحرف : ت . (٦) في ت : فراك .
(٧) ب : جامع هم . (٨) بعيد مرام . (٩) : والآفات تهوك تفتدي . (١٠) : جسمك .

وَتَعَجُّبُ مِنْ آفَاتِهَا مُتَلَفَاتًا إِلَيْهَا، لَعَمْرُكَ^(١) اللَّهُ فَمَلَكُ أَعْجَبُ
وَتَحْسِبُهَا بِالْإِشْرَافِ تُبْطِنُ^(٢) خُلَّةً فَيُظْهِرُ مِنْهَا غَيْرَ مَا تَحْسَبُ
إِذَا رَضِيتَ أَعْمَتَكَ عَنْ طُرُقِ الْهُدَى فَا ظُنُّ ذِي لَيْبٍ بِهَا حِينَ تَنْصَبُ
وَفِي سَلْبِهَا ثَوْبَ الشَّيْبِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهَا تُعْطِي خِدَاعًا وَتَلْبُ
أَتَرْضَى بِأَنْ يَنْهَكَ شَيْبُكَ وَالْحِجَابَ وَأَنْتَ مَعَ الْأَيَّامِ تَلْهَوُ وَتَلْمُبُ
أَجْدُكَ^(٣) لَا تَسْمَعُ لَدُنْيَاكَ مَوْعِدًا وَلَا تَنْزِجُ الرَّئْيَ وَالْعَرْقُ خُلْبُ^(٤)
وَدُونِكَ دِرْيَاقُ الرَّجَى مِنَ الْوَرَى فَكُلُّهُ عَلَى التَّجَرُّبِ صِلٌ وَعَقْرُبُ^(٥)

إِخْوَانِي : الْأَيَّامُ لَكُمْ مَطَالِيًا^(٦) ، فَإِنَّ الْعُدَّةَ قَبْلَ النَّيَا ، أَيْنَ الْأَتْفَةِ مِنْ دَارِ الْأَذْيَا ،
أَيْنَ^(٧) الزَّائِمِ ؟ أَرْضَوْنَ الدُّنْيَا ، إِنَّ يَلِيَّةَ الْهَوَى لَا تُشْبِهُ الْبَلَا ، وَإِنْ خَطِيئَةُ
الْإِصْرَارِ لَا كَالْخَطَا ، وَسَرِيَّةُ الْمَوْتِ لَا تُشْبِهُ السَّرَا ، وَقَضِيَّةُ الْأَيَّامِ^(٨) لَا كَالْقَضَا ،
رَأَيْتُ السَّلَامَةَ يَقْتُلُ^(٩) الرِّعَايَا [رَأَيْتُ التَّلَفَ يُضَيِّقُ الرَّمَايَا]^(١٠) ، مَلَكُ الْمَوْتِ لَا يَقْبَلُ
الْهُدَا ، يَا مُسْتَوْدِعِينَ سَتُظْهِرُ الْخَلِيَا^(١١) .

اسْتَغْفِرُوا [اللَّهُ]^(١٢) خَجَلًا مِنَ الْعَثَرَاتِ ، ثُمَّ اسْكَبُوا حَزَنًا لَهَا الْعَبْرَاتِ ، هَجَبًا لِلْمَوَائِرِ
الْقَانِيَةِ عَلَى الْبَاقِيَةِ ، وَلِيَاثِمَ الْبَحْرِ الْخَفِيمَ^(١٣) بِسَاقِيَةِ ، وَلِخُتَارِ دَارِ السَّكْدَرِ عَلَى الصَّافِيَةِ ،
وَلِمَقْدَمِ حَبِّ الْأَصْرَاضِ عَلَى الْعَاقِيَةِ ، أَيُّهَا السُّتُوطينُ بَيْتَ غُرُورِهِ تَأْهَبُ لِلْإِزْعَاجِ ،
أَيُّهَا الْمُسْرُورُ بِقُصُورِهِ تَهَيَّأْ لِلْإِخْرَاجِ ، خُذْ عُدَّتَكَ وَقُمْ فِي قَضَاءِ حَاجَتِكَ^(١٤) قَبْلَ
فِرَاقِ أَوْلَادِكَ وَأَزْوَاجِكَ ، مَا الدُّنْيَا دَارُ مَقَامِكَ ، بَلْ حَلِيَّةٌ لِلْإِذْجَاجِ^(١٥) :

أَيُّهَا النَّاكِبُ عَنْ نَهْجِ الْهُدَى وَهُوَ يَدٍ وَاضِحٍ لِّلْسَالِكِينَ

(١) ا : فسر الله . ولى ت : لم والله . (٢) ا : تنظر .

(٣) ب : أحدثك . (٤) الخلب : الذى لا ماء فيه . (٥) الصل : الحية . (٦) ا : كالخطايا .

(٧) ا : أهل الزائِم لا يرضون الدنيا . (٨) ب : وقضية الموت . ولى ت : وقضية الزمان .

(٩) ا ب : يقتل . وهو خطأ سواه من ت . (١٠) سقطت من ب . (١١) ب : الخطايا .

(١٢) من : ا (١٣) ا : حاجتك . (١٤) ا : بل حيلة لإذراجك .

إِلَهَ عَنْ ذِكْرِ التَّصَابِي إِنَّهُ سَرَفٌ بَدَّ بُلُوغِ الْأَرْبَعِينَ
وَأَجْعَلِ التَّقْوَى مَعَادًا تَحْتَى بِحِمَاهُ إِنَّهُ حِصْنُ حَصِينٍ
وَاسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى عَفْوَهِ وَاسْتَعِذْهُ إِنَّهُ خَيْرٌ مُعِينٌ

أَتَأْمَنُ بَطْشَ ذِي الْبَطْشِ ، وَتُبَارِزُهُ عَالِمًا بِرُؤْيَتِهِ وَلَمْ تَحْشَ ، يَا مَنْ إِذَا وَزَنَ طَلْفٌ
وَإِذَا بَاعَ غَشٌّ ، أُنْسِيَتْ الزُّوْلُ فِي يَدَيْهِ الدَّيْبِ وَالْوَحْشِ ، أُنْسِيَتْ الْخُلُوفُ فِي تَلْدِ خَشَنِ
الْقَرْشِ ، يَا مَعْقِرًا بِزُخْرِفِ الْمَوَى قَدْ أَلْهَاهُ النِّقْشُ ، إِذَا جَنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ فَعَلَى مَنْ
الْأَرْضُ^(١) ، يَا مَنْ إِذَا جَاءَ الْقَرْضُ التَّوَى وَإِذَا حَانَ اللَّهْوُ هَشٌّ ، يَا مَنْ لَا يَصْبِرُ
لِلْقَضَاءِ وَلَوْ عَلَى خَدَشٍ ، كَنْ مَسْتَقِيمًا فَإِنَّكَ بَيْنَ ذِي الْعَرْشِ : -

تَلَلُ بِالْأَمَالِ وَلِلْوَتِ أَسْرَعُ وَتَفْتَرُ بِالْأَلَامِ وَالْوَعْظُ أَنْفَعُ
وَمَا لِلرَّءِ إِمَّا^(٢) لَمْ يَمُتْ فَهُوَ ذَاتِي فِرَاقِ الْأَخْلَاءِ الَّذِي هُوَ أَوْجِعُ
فِرْدُخَ خَلِيلِ النَّفْسِ قَبْلَ فِرَاقِهِ فَا النَّاسُ إِلَّا ظُلَمٌ أَوْ مَوْدِعُ
يَا حَزِينًا عَلَى فِرَاقِ مَوْتَاهُ ، كَثِيرًا لَطْلُوبِ مَا وَاتَاهُ ، كَأَنَّهُ بِالْمَوْتِ قَدْ آتَاهُ ، فَالْحَقُّ
حَا أَبَاهُ^(٣) أَبَاهُ ، وَوَأَفَاهُ مَا أَطْبَقَ [فَاهُ]^(٤) فَا فَاهُ : -

يَا كَثِيرَ الْحَرَمِ مَشْنُو لَأَ بَدُنِيَا لَيْسَ يَبْقَى
مَا رَأَيْنَا الْحَرَمِ أَذْنَى مِنْ حَرَمِ قَطْ رِزْقًا
لَا وَلَكِنْ فِي قَضَاءِ اللَّهِ أَنْ نَقْنَى وَنَشَقَى
قَدْ رَأَيْنَا لِلْوَتِ أَفْنَى قَبْلُنَا خَلْقًا خَلْقًا
دَرَجُوا قَرْنًا قَرْنًا وَبَقِيَ مِنْ لَيْسَ يَبْقَى
قَدِمَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعِ بْنِ عَمٍّ لَهُ قَالَهُ لَهُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ طَلَبِ
الدُّنْيَا . فَقَالَ : هَلْ أَدْرَكْتَهَا ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : وَاجْبِإِ أَنْتَ تَطْلُبُ شَيْئًا لَمْ تَدْرِكْهُ ،
فَكَيْفَ تَدْرِكُ شَيْئًا لَمْ تَطْلُبْهُ !

(١) الْأَرْضُ : الدُّنْيَا . (٢) إِمَّا : أَوْ . (٣) ت : إِذَا لَمْ يَمُتْ .

(٤) فَا فَاهُ : فَا فَاهُ . وَت : فَا فَاهُ . (٥) مِنْ : ت :

يا هذا عليك بالجد والاجتهاد ، وخَلْ [هذا] ^(١) الكسلَ والرقاد ، فطريقك لا بد لها من زاد .

انهضْ إِلَى الْمَالِ	واقبل ^(٢) ولا تُبَالِ
وَحَذِّمْ الزَّمَانَ	حفظاً فأنت فاني
الهِمِّ الْعَلِينَةِ	والهَمِّجُ الأنيّة
تَقَرَّبُ النِّيَّةِ	منك أو الامنية
الْجِدُّ بِالْخَاطِرَةِ	والنصرُ بالمصابرة
كَم راحَةٍ فِي الْعَزَلَةِ	وعملٍ فِي الْمَطَلَةِ
لَيْسَ يَدُومُ حَالُ	شعْمُ النَّفَى هُزَالُ
مَا لِلرَّيِّ فِي غَفَلَةِ	قَدْ خُدِعُوا بِالْمَهَلَةِ
أَلَّا لَيْبَ بِمَقْلُ	أَلَّا جَهَنَّمُ يَسْأَلُ
أَنْتُمْ فِي رِيَّةِ	مَا أَعْظَمَ الْمَصِيبَةِ
دُنْيَاكُمْ حَبِيبَةِ	لِجَنَّتِهَا ^(٣) وَالطَّيِّبَةِ
لَكِنَّا غَدَارَةِ	خَدَاعَةِ غَرَارَةِ
لَيْسَ لَهَا حَبِيبُ	زَوَالِهَا قَرِيبُ
كَلِمَةِ الْبَغْيِ	تَلْبَسُ كُلُّ زَيِّ
خَلُوبَةٍ ^(٤) خَوَانَةِ	لَيْسَ لَهَا أَمَانَةُ
عَزِيزُهَا ذَلِيلُ	كَثِيرُهَا قَلِيلُ
تَفَرَّقَ الْأَحْبَابُ	تَشَقَّتْ الْأُمْرَايَا ^(٥)
حَرْبٌ لِمَنْ سَأَلَهَا	تَمَلُّ مِنْ لَازِمِهَا
لِقَاؤُهَا فِرَاقُ	وَعُرْسُهَا طَلَاقُ

(١) سقطت من : ب (٢) ا : والطلب . (٣) ا : بجنتها . (٤) ا : ملوثة . (٥) ا : الأصحاب .

وَصَالِحًا صَدُودٌ وَوَعْدُهَا وَجِيدٌ
وَصَالِحًا عَنَّا صُدُودُهَا بَلَاءٌ
عَقُودُهَا مَنْقُوضَةٌ عَهْدُهَا مَرْفُوضَةٌ
شَرَابُهَا سَرَابٌ نَعِيمُهَا عَذَابٌ
إِنْ أَقْبَلْتُ فَقَتْلَةٌ أَوْ أَدْبَرْتُ فَحَنْقَةٌ
أَخْلَاقُهَا مَذْمُومَةٌ لَذَائِظُهَا مَسْمُومَةٌ
يَحْطَى بِهَا الْجَهْلَالُ وَيَنْعَمُ الْأَنْذَالُ
يَشْقَى بِهَا اللَّيْبُ وَيَتَمَبُّ الْأَرِيبُ
نَحْلٌ عَنْهَا يَا فَتَى إِلَى مَتَى إِلَى مَتَى

السلام على فرد تعالى :

{ ليس بَأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَفْعَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ (١) }

في سبب نزولها ثلاثة أقوال :

أحدها : أن أهل الأديان اختصموا . فقال أهلُ التوراة : كتابنا خير الكتب ،
ونبينا خير الأنبياء . وقال أهلُ الإنجيل : مثل ذلك . وقال المسلمون : كتابنا نسخ
كل كتاب . ونبينا خاتم الأنبياء . فنزلت هذه الآية . رواه العوفي عن ابن عباس
رضي الله عنهما .

والثاني : أن العرب قالت لا تُبَيْت ولا تُحَسَّب ولا تُنْذَب . فنزلت قاله مجاهد .
والثالث : أن اليهود والنصارى قالوا : لا يدخل الجنة غيرنا . وقالت قريش :
لا بُيْء . فنزلت هذه الآية قاله عكرمة .

وقال الزجاج : اسم ليس مضر . والمفعلى ليس ثوابُ الله بَأَمَانِيكُمْ . وقد جاء
ما يدل على الثواب وهو قوله تعالى : « سُدْخَلْهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »
وانسوا المعاصي والجزاء واقع بالمعاصي .

أخبرنا ابن الحصين ، قال أنبأنا ابن المذهب ، أنبأنا أبو بكر بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا وكيع ، حدثنا ابن أبي خالد ، عن أبي بكر بن زهير الثقفي ، قال لما نزلت : « ليس بآمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَى به » قال أبو بكر : يا رسول الله إنا لنجأزي بكل سوء نعمله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرحمك الله ألسنت تنصب ألسنت تحزن ، أليس تصيبك اللاؤاء ^(١) ؟ فهذا ما تجزون به .

وأخرج مسلم في أفراد من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت : « من يعمل سوءاً يُجْزَى به » بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاربوا وسددوا ، ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة ، حتى النكبة يُنكبها والشركة يُشكها » .

واعلم أن المؤمن إذا جُوزى بذنب مجل له جزاؤه فى الدنيا .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن نصر ، أنبأنا طراد ، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم الهاشمى ، أخبرنا محمد بن عمر ، أخبرنا أحمد بن مُلّعب ، حدثنا عفان ، عن حماد بن سلمة ، حدثنا يونس ، عن الحسن ، عن عبد الله بن مفضل ، أن رجلاً أتى امرأة كانت فى الجاهلية بغيًا فجعل يلاعنها حتى بسط يده إليها ، فقالت المرأة : مه إن الله تعالى ذهب بالشرك وجاء بالإسلام . فولّى الرجل فأصاب وجهه جدار فأدماه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : « أنت عبدٌ أراد الله بك خيراً ، إن الله إذا أراد بعبده خيراً مَجَّلَ له عقوبةً ذنبه ، وإذا أراد بعبده شراً أَمْسَكَ عنه حتى يوافي به يوم القيامة كأنه بَعِير » .

واعلم أن من تفكّر فى ذنبه وجد الزمان الذى عصى فيه قد خلا عن طاعة وامتلأ بخطيئة ، ثم يحتاج إلى زمان يتشاغل فيه بالتوبة ، ثم يتأسف على ما سبق . ويكفى هذا . وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(١) : الأواء . والآواء : الندة والبأس .

« قال ربكم عز وجل : لو أن عبادى أطاعونى لأستغيثهم لعلهم بالليل وأطلعت الشمس بالنهار ، ولما أسمعهم صوت الرد . »

أنيابنا أحمد بن على المحلى ، أنيابنا أبو بكر الخطيب ، أنيابنا الحسين بن بشران ، أنيابنا أبو على البردعى ، حدثنا أبو بكر القرشى ، حدثنا الزبير بن أبى بكر ، حدثنى أبو ضمرة ، عن نافع بن عبد الله ، عن فروة بن قيس ، عن عطاء عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما ظهرت القاحشة فى قومٍ حتى أعلنوها إلا ابتلوا بالطوامين والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا ، ولا نقصوا المكبال والميزان إلا ابتلوا بالسَّيِّئِينَ وشدة للزينة وجور السلطان ، وما منع قومٌ زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهايم لم يُطْعَمُوا ، ولا خفر قومٌ المهد إلا ساط الله عليهم عدوهم من غيرهم فأخذ بعض ما فى أيديهم . »

قال القرشى : وحدثنى إبراهيم بن سعيد ، قال حدثنا إبراهيم بن مهدى ، قال حدثنا أبو حفص الأبار ، عن أشعث بن سوار ، عن كردوس التفلجى ، قال : حدثنى رجل من أهل المسجد مسجد الكوفة ، وكان أبوه ممن شهد بدرًا قال : مررت على قرية تنزل فوفقتُ قريبًا أنظر ، فخرج على رجل قتل : ما وراك ؟ فقال : تركها تنزل وإن الحارِطان^(١) ليسطكا^(٢) كان ويُرْمى بعضها ببعض^(٣) ، فقلت : وما كانوا يعملون ؟ قال : كانوا يأكلون الربا .

وقال رجل للحسن : أعيانى قيام الليل ؟ قال : قِيدَتِكَ خطاياك !

أنيابنا محمد بن أبى منصور ، عن عبد القادر بن محمد الجوهري ، أنيابنا أبو الفضل الزهرى ، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن الذهبي ، حدثنا أحمد بن منصور الرمادى ، حدثنا أحمد بن المنى ، حدثنا عبد القدوس الحوارى ، عن هشام قال : اغتمَّ ابن سبرين مرة قليل له : يا أبا بكر ما هذا النعم ؟ قال : هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة .

(١) : وإن الحيطان . (٢) : ١ : بعضا على بعض .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب ، قال حدثنا أبو سعيد بن أبي صادق ، قال أنبأنا أبو عبد الله الشيرازي ، قال سمعت محمد بن فارس يقول : أنبأنا علي بن قرين قال : سمعت الجنيدي يقول : من همّ بذنب لم يمهله عوقب بذنب لم ^(١) يعرفه .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، أنبأنا أبو الفنائم الدجاني ، أنبأنا علي بن معروف ، حدثنا محمد بن الميثم ، حدثنا إبراهيم بن سعد الجوهري ، حدثنا هاشم بن القاسم ، عن صالح المري ، عن أبي عمران الجوني قال : مكتوب في الإنجيل : تملون الخطايا وتُسكرون العقوبة !



يا من معاصيه جنة مشهورة ونفسه بما يجنى عليها مسرورة ، أفي العين كمة أم عشى ، أإليك الأمر كما نشاء ، أعلى القلب حجاب أم غشا ، يا كثير الماصي قمد أو وصى ، عظمت ذنوبك فتى تقضى ، يامقيا وهو في الملقى يمضى ، أفنيت الزمان في الخطايا ضياعا ، وساكنت غرورا من الأمل وأطاعا ، وصيرت في تحصيل الدنيا مخترقا صنعا ، تصبح جامعا ونمسي متناعا ، فقتش على قلبك ولتلك قد ضاعا ، تفكر في عرك مضى نهبا مشاعا ، لافي الشباب أصلحت ولا في الكهولة أفلحت ، كم حملت أوزرك وزرا ثقيلا ، واجترحت لأبعد صلاح ما جرحت ، ياسمى السريرة كم عليك جريرة ، وبحك أنتسى الحفيرة ، أم هي عندك حقيرة ، أيام عرك قصيرة وتضييها على بصيرة ، لقد قطع الأجل سيره ، ولكن على أقبح سيرة ، ذنوبك جنة كثيرة ، وعينك بها قرية ، ما نظم بها مقدار شميرة .

قال محمد بن كسب القرظي : إنما الدنيا سوق فخرج الناس منها بما يضرهم وبما ينفعهم ، وكما اغترّ ناس فخرجوا ملومين واقتسم ما جمعوا من لم يخدمهم ، وصاروا إلى من لا يذرهم ، فيحق لنا أن ننظر إلى ما ننبطهم به من الأعمال فتعملها وإلى ما نتخوف فتجنبها .

وقال يحيى بن معاذ : للنبون من عمل آيات البطالات وسلطجورا ح على الملكات ،
ومات قبل إفاقة من الجنائيات :

بَدَتْ دَهِيَاءُ تُنذِرُ بِالْخُطُوبِ تَلَا حَظَهَا بِأَبْصَارِ الْقُلُوبِ
وَقَدْ دَلَّ الْحَيُّ عَلَى ذَهَابِ كَا دَلَّ الطَّلُوعُ عَلَى الْغُرُوبِ
وَلَكِنْ الْقُلُوبُ مَحَبَّاتٌ وَسُوءُ حِجَابِهَا^(١) كُتُبُ الذُّنُوبِ

يا هذا الطالب حيث فباخر ، والنضائل معرضة فتاير ، أترك الهوى محمودا ، قبل
أن يتركك مذموما ، إن فانتك قصبات السبق في الولاية ، فلا تفوتك ساعات القدم
في الإجابة ، آه للسان نطق يأم كيف غفل عن قوله تعالى : « اليوم نختم على أفواههم »
آه ليد امتدت للحرمان كيف نبت : « وتكلفنا أيديهم » آه لقدم سم في الآثام
كيف لم تتدبر : « وتشهد أرجلهم » آه لجسد ربا على الربا ، أما سمع منادى التعذيب
على ربي : « فلا يربو عند الله » آه لذي فم ففره لتفريغ كأس الحر ، أما بآتسه
زجر : « فاجتنبوه » .

قَدْ كَانَ عُرْكَ مَيْلًا فَأَصْبَحَ^(٢) لِلَّيْلِ شَيْرًا
وَأَصْبَحَ الشَّرُّ عَقْدًا فَأَخْرَجَ لِنَفْسِكَ قَهْرًا

يا من راح في اللامعى وغدا ، ويقول : سأتوب اليوم أو غدا ، كيف يجمع قلبا قد
صار في الهوى مبددا ، كيف تُلينه وقد أمتى بالجهل جُلدا ، كيف تحته وقد راح
بالشعوات مقبدا ، لقد ضاع قلبك فاطلب له ناشدا ، تفكر بأى وجه تلقى الردى ،
تدكر ليلة تبنت في القبر منفردا :-

أَيُّهَا الشَّغُوفُ بِالْإِذَى يَا صَبُوءًا وَغَرَامًا
أَبْدًا هِيَ أَيْدِي تَبِي عَيْنُ فِي الشَّهْدِ سَمَامًا^(٣)
تُخَضِّعُ الرَّاضِعَ^(٤) بِالْأَذَى رِ وَتُنْسِيهِ الْفِطَامَا

(١) : ١ : وشرحها بعمل الذنوب . (٢) : ١ : قد أصبح لليل شيرا (٣) : كذا في ب . وفي ١ :
هرام تبطن في العهد سما والسمام : جمع سم . (٤) : ب : تخضع الراضع بالذر . وهو تحريف صوابه من ١ .

فَإِذَا هُزَّ بوعَظٍ صَمٌّ عَنْهُ وَتَعَامَى
فَهُوَ كَالشَّائِكِيِّ الَّذِي رَزَّ دَادَ بِالطَّبِّ سَقَامًا
وَكَيْلَ الْغُفْلِ فِي الْهَدَى إِذَا حُرِّكَ نَامًا

سَمِعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿ مِنْ يَمَلُ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ ﴾

بِمَعْرِضٍ عَنْ الْهَدَى لَا يَسَى فِي طَلَبِهِ ، يَمُشُّوْهُ لَا يَلْهُوهُ مَفْتُوْرًا بِلَعْبِهِ ، يَأْمَنُ قَدْ صَاحَبَ
بِهِ لِلْوُتِّ عِنْدَ أَخْذِ صَاحِبِهِ « مِنْ يَمَلُ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ » .

جُزَّ عَلَى قَبْرِ الصَّادِقِ ، وَتَلَحَّ أَنْارُ الرَّفِيقِ ، يَجْهَرُكَ عَنْ حَسَنَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، أَنَّهُ اسْتُلِبَ
بِكَيْفِ التَّمْزِيْقِ ، هَذَا لِحَدِّهِ وَأَنْتَ غَدًا بِهِ ^(١) « مِنْ يَمَلُ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ » .

كَمْ نَهَى عَنِ الْخَطَايَا وَمَا أَتَى ، وَكَمْ زَجَرَتْهُ الدُّنْيَا وَهُوَ يَسَى لَهَا ، هَذَا رَكْنَةُ الْقَوْمِ
قَدْ وَهَى ، وَهِيَ أَنْتَ فِي حَلْبِهِ « مِنْ يَمَلُ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ » .

أَبْنُ مِنْ عَتَا وَظَلَمَ ، وَلَقِيَ النَّاسَ مِنْهُ الْأَلَمَ ، اقْتَطَعَهُ الرَّدَى اقْتِطَاعَ الْجِلْمِ ^(٢) ، فَمَا نَفَعَهُ
مَاجِعُهُ ، لَا وَاقَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ عِزَّ مَنْصَبِهِ « مِنْ يَمَلُ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ » .

بَاتَ فِي لَحْدِهِ أُسِيرًا ، لَا يَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيَا قَتِيرًا ، بَلْ عَادَ بِوُزْرِ ذَنْبِهِ عَقِيرًا ^(٣) ، وَأَصْبَحَ
مِنْ مَالِهِ فَقِيرًا عَلَى عِزِّ نَسَبِهِ وَكَثْرَةِ نَشَبِهِ « مِنْ يَمَلُ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ » .

الذَّاتُ تَقَى عَنِ قَلِيلٍ وَتَمُزُّ ، وَآخِرُ الْمَوِيِّ ^(٤) الْحَلَوِيُّ مَرٌّ ، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ
يَسِرُّ إِلَّا بِغَرٍّ وَيُضَرُّ ، ثُمَّ يَخْلُوْهُ الزَّلَالُ بِمَكْتَسَبِهِ « مِنْ يَمَلُ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ » .

الْكِتَابُ يَحْوِي حَقَّ النَّظَرَةِ ، وَالْحِسَابُ يَأْتِي عَلَى الْقَدَرَةِ ، وَخَاتَمَةُ كَأْسِ اللِّذَاتِ

(١) : ١ : وَغَدَا تَبَيَّتَ بِهِ . (٢) : الْجِلْمُ : الْقِرَاسُ الَّذِي يُجْزَى بِهِ . - قَالَ سَالِمُ بْنُ وَائِصَةَ :

دَاوَيْتُ صُدْرًا طَوِيلًا غَيْرَهُ حَقْدًا مَعَهُ وَقَلَمْتُ أَغْفَارًا بِلَا جَلَمٍ .

الْبَاسَانُ مَادَةٌ « جِلْمٌ » .

(٣) : ١ : بَلْ عَادَ بِأَلْمِيَّةٍ عَقِيرًا . (٤) : ١ : وَآخِرُ الدُّنْيَا .

مرة ، والأمر جلي للفهم ما يشتبه « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » .
 تقوم في حشرِكَ ذليلاً ، وتبكي على الذنوب طويلاً ، وتحمل على ظهرك ^(١) وِزْراً
 ثقيلاً ، والويل للعاصي من قبيح مُنْقَلَبِهِ « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » .
 يُجمع الناس كلهم في سعيد ، وينقسمون إلى شقي وسعيد ، قومٌ قد حلَّ بهم
 الوعيد ، وقومٌ قِيامتهم نزهة وعِيد ، وكل عامل يفتخر من مَشْرَبِهِ ^(٢) . « من يعمل
 سوءاً يُجْزَ به » .
 إنما يقع الجزاء على أعمالك ، وإنما تلقى غداً غِيبَ أعمالك وقد قصدنا إصلاح حالك ،
 فإن كنت متيقظاً فاعمل لذلك وإن كنت نائماً فانتبه « من يعمل سوءاً يُجْزَ به » .

(١) ب : على أزرِك . (٢) ب : من شره .

المجلس العاشر

في قصة لوط عليه السلام

الحمد لله الذي أحكم الأشياء كلها صنما ، ونصرف كما شاء إعطاء ومنعاً ، أنشأ آدمي من قطرة فإذا هو يسي ، وخلق له عينين ليبصر المسمي ، ووالى لديه النعم وتراً وشقعا ، وضّم إليه زوجة تدبر أمر البيت وترعى ، وأبلحه محلّ الحُرث وقد فهم مقصود المرعى ، فتعدّى قومٌ إلى الفاحشة الشنعاء ، وعدّوا سبّاً سبها ، فرُجموا بالحجارة فلو رأيتهم مصرعى « ولَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيراً بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ^(١) » .

أحمد ما أرسل سحابة وأبنت زرعاً ، وأصلى على رسوله محمد أفضل نبي علم أمته شرعاً ، وعلى أبي بكر الذي كانت نفقته للإسلام نفعا ، وعلى عمر ضيف الإسلام بدعوة الرسول للمستدعى ، وعلى عثمان الذي ارتكب منه الفجار بدعاً ، وعلى عليّ الذي يحبه أهل السنة طبعاً ، وعلى العباس أبي الخلفاء أئمة المسلمين قطعاً .

قال الله عز وجل : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيراً بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » . هو ^(٢) لوط بن هاراث بن تارخ ، فهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد آمن به وهاجر معه إلى الشام بعد نجاته من النار ، واختنق لوط مع إبراهيم وهو ابن ثلاث وخسين سنة ، فنزل إبراهيم فلسطين ونزل لوط الأردن .

فأرسل الله تعالى لوطاً إلى أهل سدّوم ، وكانوا مع كفرهم بالله عز وجل يرتكبون الفاحشة ، فدعاهم إلى عبادة الله ونهاهم عن الفاحشة ، فلم يزدكم ذلك إلا عتوا . فدعا الله أن ينصره عليهم ، فبعث الله عز وجل جبريل وميكائيل وإسرافيل فأقبلوا مشاة في صورة رجال شباب ، فنزلوا على إبراهيم فقام يخدمهم ، وقدم إليهم الطعام فلم يأكلوا ، فقالوا : لا نأكل طعاماً إلا بشئ . قال : فإن له ثمننا . قالوا : ما هو ؟ قال : تذكرون اسم الله تعالى

(١) سورة هود ٧٧ . (٢) ١ : كان لوط .

على أوله وتعمدونه على آخره . فظفر جبريل إلى ميكائيل وقال : حق لهذا أن يتخذ الله خليلا !

فلما رأى امتناعهم خاف أن يَكُونُوا لَصُوصًا، فقالوا: « لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لَوُطٌ » فضحك سارةُ تَعْجِبًا وقالت: نخدمهم بأغسنا ولا يأكلون طعامنا! فقال جبريل: أيتها الضاحكة أبشري بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وكانت بنت تسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة.

فلما سكن رُوحُ إبراهيم وعلم أنهم ملائكة أخذ يُناظرهم ، فقال : أهلكون قريةً فيها أربعة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : ثلاثمائة ؟ قالوا : لا . قال : مائة ؟ قالوا : لا . قال : أربعون ؟ قالوا : لا . قال : أربعة عشر ؟ قالوا : لا . وكان يعدّم أربعة عشر مع امرأة لوط . فقال : إن فيها لوطا . قالوا : نحن أعلمُ بمن فيها . فسكت وامأنت نفسه . ثم خرجوا من عنده فجاءوا إلى لوط وهو في أرضٍ له يعمل ، فقالوا : إنا متضيّفون الليلة بك^(١) . فانطلق بهم والتفت إليهم في بعض الطريق فقال : أما تعملون ما يعمل أهلُ هذه القرية ؟ والله ما أعلمُ على ظهر^(٢) الأرض أخبثَ منهم ! فلما دخلوا منزله انطلقت امرأته فأخبرت قومها .



قوله تعالى : « يٰٓيٰٓسَٰدِىُّمَ » أى ساءه بحجىه الرسل ، لأنه لم يعرفهم وخاف عليهم من قومه « وِضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا » قال الزُّجَاجُ : يقال ضاق بفلان أسرُهُ ذُرْعًا إذا لم يجد من للكروه مَخْلَصًا . وقال ابن الأنبارى : ضاق بهم وَشَمُهُ ^(٢١) ، فتاب الذُّرْعُ عن الوسع ^(٢٢) . « وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ » يقال هنا يومٌ عَصِيبٌ [وَعَصَبَصَبٌ] ^(٢٣) إذا كان شديدًا . « وَجَاءَهُمْ يَوْمَئِذٍ عُرُونَ إِلَيْهِ » قال الكشاف والقراء : لا يكون الإهراع إلا إسرعا مع رَعْدَةٍ . قال ابن الأنبارى : الإهراع فصل واقع بالقوم ، وهو لم ^(٢٤) فى اللقى ،

(١) انا مضيئوك الله . (٢) ب : على وجه الأرض . (٣) كذاق ب . ولى ا : وسعة .

(٤) به : فتاب القدرع والتدراع عن الوسم . ولعل فيها إحصاءا . (٥) سقطت من به .

(٦) ا : وهو أم . حرفة .

كما قالت العرب : قد أوسع الرجل بالأمر فجعله مفعولا وهو صاحب الفعل ، ومثله : « أُرْعِدْ زَيْدٌ » و « سَهَى هَرُو » من السهو . كل واحد من هذه الأفاعيل خرج الاسم معه مقدرا متقدرا للمفعول ، وهو صاحب الفعل لا يُعرف له فاعل غيره .

قوله تعالى « وَمِنْ قَبْلُ » أى عِجَى^(١) الأضياف « كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » فقال لوط : « هَؤُلَاءِ بَنَاتِي » يعنى النساء ولكونهن من أمته صار كالأب لمن « أَطَهَرُ لَكُمْ » أى أحلُّ « فَاتَّقُوا اللَّهَ » أى احذروا عقوبته « وَلَا تَحْزُنُوا فِي ضَيْفِي » أى لا تفعلوا بهم فعلا يوجب حياتي « أَلَيْسَ بِكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر « قَالُوا : لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقِّ » أى من حاجة « وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا نُرِيدُ » أى إنما نريد الرجال لا النساء . قال : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ » أى جماعة أقوى بهم عليكم « أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى إلى عشيرة متينة . وإنما قال هذا لأنه كان قد أغلق بابَه وهم يعالجون الباب ويرومون تسوّر الجدار ، فلما رأت اللائكة ما يلقى من الكرب « قَالُوا : يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ » فافتح الباب ودعنا وإياهم . ففتح الباب ودخلوا . واستأذن جبريل ربه عز وجل في عفوبتهم فأذن [لهم]^(٢) فضرب بجناحه وجوههم فأصعدهم فانصرفوا يقولون النجاء النجاء إن في دار لوط أسحرة قوم في الأرض . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى تصبح . [يوعدونه]^(٣) . فقال لهم لوط : متى موعدُ هلاككم ؟ قالوا : الصبح . قال لو أهلكتهم الآن ؟ فقالوا : أليس الصبح ب قريب !

ثم قالت له اللائكة : « فَأَمْسِرْ بِأَهْلِكَ » . فخرج بإسرأته وابنتيه وأهله وبقره وغنمه « يَقْطَعُ مِنَ النَّارِ » أى يبقية تبقى من آخره .

وأوحى الله تعالى إلى جبريل : تولى هلاكهم . فلما طلع الفجر^(٤) غدا عليهم جبريل عليه السلام فاحتمل بلادهم على جناحه ، وكانت خمس قرى أعظمها سدوم ، في^(٥) كل قرية مائة ألف ، فلم ينكسر في وقت رَفْعِهِمْ^(٦) إناء ، ثم صعد بهم^(٧)

(١) : أى من عِجَى . (٢) ليست في أ . ولعلها : فأذن له . (٣) سقطت من ب .
(٤) : فلما طلع الصبح عدا عليهم . (٥) ب : وق . (٦) ب : رفعمهم . (٧) ب : بها .

حتى خرج الطير في الهواء لا يلوى أين يذهب وسمعت لللائكة نباح كلابهم ، ثم كفأها عليهم وسموا وجبة شديدة ، فالتفت امرأة لوط فرماها جبريل بحجر فقتلها ، ثم صد حتى أشرف على الأرض ثم جعل يبيع مُسَافِرهم ورُعَاةَهم ومن تحوّل عن القرية ، فرماهم بالحجارة حتى قتلهم . وكانت الحجارة من سِجِّيل . قال أبو عبيدة : هو الشديد الصُّلب من الحجارة «مُسَوَّمَةٌ» . أى مُعلَّمة قال ابن عباس : كان الحجر أسود وفيه نقطة بيضاء . وقال الربيع : كان على كل حجر منها اسم صاحبه . وحكى عن من ^(١) رآها قال : كانت مثل رموس الإبل ومثل قبضة ^(٢) الرجل .

« وما هي من الظالمين ببيعتهم » تخويف للمضالعين .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن المذهب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا محمد بن سَعة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملوك من حمل حمل قوم لوط » .

وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من مات من أمتي يعمل حمل قوم لوط قله الله إليهم حتى يحشره معهم » .

فلتُحْذَرِ مَقْبَةَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ فَإِنَّهَا بِصَاحِبِهَا إِلَى الْغَضَبِ تَوُوبٌ ، الحذر الحذر من علام التوب .

الكلام على البصرة

يا عاصياً غلوا ب الدهر مجتهداً تالله ما غلوا ب الدهر عُمرانُ
وكلُّ وُجْدَانٍ حَظٌّ لَا ثَبَاتَ لَهُ فإن معناه في التعتيق فَقْدَانُ
صَنِ الْقَزَازِدِ عَنِ الدُّنْيَا وَزَخْرِفِهَا فصنوها كدّر والوصلُ هِرَانُ ^(٣)

يا هذا ، الأيامُ ثلاثة : أمس قد مضى بما فيه ، وغداً لمالك لا تدركه ، وإنما هو

(١) ب : وحكى من رآها . (٢) ١ : ومثل بيضة الرجل . (٣) الأبيات من قصيد لأبي الفتح البستي
انظر حياة الحيوان المسمى ١/٢١٨

يومك هذا فاجتهد فيه . فهُ دَر من تَنبَه لنفسه وتزود لرسمه ، واستدرك ما مضى من أمسه قبل طول حيسه .

فيا جامع الدنيا لغير بلاغة سَتَرَ كها^(١) ، فانظر لمن أنت جامع
لو أن ذوى الأبصار يؤعون كل ما يرون لما جَفَّتْ لعين مَدَامُ
ومن كانت الدنيا مُنَاهُ وهَمُّه سبَّاه المَنَى واستبعدته الطامع
يا نائمًا في لموه وما نام الحافظ ، لاحظ نور الهدى فلاحظ إلا للملاحظ ، وحافظ
على التقي فقد فاز الحافظ ، وخذ حذرك فقد أُنذرك العاتبان الغلائط^(٢) ، ولا تفتقر بيزد
الميش فزمان الحساب قاطن ، وتذكر وقت الرحلة تحمل الثقل الباهظ ، ولا تلتفت إلى
للادح فكم قد صر مدح فارط ، وتيقظ للخلاص فابنحو إلا متياقظ ، يامدبر
أمر دنياه ونسي^(٣) أخره تخفف النداء الالفاظ^(٤) ، مجانب الدهر تفنى عن وعظ
كل واعظ :-

ألهتم في الدنيا نجدة وتعمُر وأنت غداً فيها تموت وتُقبَر
تلقح آمالاً وترجو نتائجها وعمرك مما قد ترجيه أقصر
وهذا صباح اليوم يملك ضوءه وليته تمناك إن كنت تشمُر
تحموم على إدراك ما قد كفيته وتقبل بالآمال^(٥) فيه وتُدبر
ورزقك^(٦) لا يمدوك إمام مجل على حاله يوماً وإمام مؤخر
فلا تأمن الدنيا إذا هي أقبلت عليك فما زالت تمحون وتندُر^(٧)
فانتم فيها الصفو يوماً لأهله ولا الرفق^(٨) إلا ربما يتغير
تذكر وفكر في الذي أنت صائر إليه غداً إن كنت ممن يفكر
فلا بد يوماً أن تصير لحفرة بأنثائها^(٩) تطوى إلى يوم تحمُر

(١) : ستركها . (٢) : كذا في ب . وفي أ : فقد أدرك العاتبان النايظ .
(٣) : أ : سى : أخره . (٤) : باللائط . (٥) : بالأيام . (٦) : ب : ووزرك .
حرقة والصوب من أ . (٧) : فما زالت تحمى وتندبر . (٨) : أ : ت : ولا الرزق .
وما أثبتته من ب . (٩) : أ : يأنثائها . وت : بأنثائها . وما أثبتته من ب . والأجان .

إخواني : تدبروا الأمور تدبر ناظر ، وأصفوا إلى ناصحكم والقلب حاضر ، واحذروا غضب الحليم وهتك السائر ، وتأهبوا للحِجَام فسيوفه بواتر ، وهاجروا إلى دار الإنابة بهجران الجرائر ، وصايروا عدوكم مصابرة صابر ، وتهبوا للرحيل إلى عسكر المقابر ، قبل أن يُبَلَّ وابلُ الدموع ترى الحاجر ، ويندم العاصي ويخسر الفاجر ، ويتكاثف العرق وتقوى المواهر ، وتصد القلوب إلى أعلى الحناجر ، ويمر الأمن ويعرض الناصر ، ويفرح الكامل ويحزن القاصر ، وبفوت اكتساب الفضائل وتحصيل المتأخر ، فتأملوا عواقب مصيركم فالليب يرى الآخر .

وقائله لو كنت تلتسئ النقي رشدت ، وما أوصت بما كان راشداً
أبى الناس إلا حب دنيا ذميمة تقضى وبأبى اللوث إلا الزودا
قلت سئل عن ذى الثراء مخبري وذى اللثك بعد اللثك ماذا توسدا
يرزون أرسالاً ونضحي كأننا لينا نالم بالأمس لم نك شهداً^(١)
فهل ينفعنا ما نرى أو يرؤنا وهل نذكرن اليوم منزلنا غداً

أخبرنا يحيى بن حلى ، حدثنا القاضي أبو الحسين السمناني ، حدثنا أبو الحسن ابن الصامت ، حدثنا القاضي أبو عبد الله الحاملي ، حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا الجنيد بن أبي العلاء ، عن محمد بن سعيد ، عن إسماعيل بن عبيد الله ، عن أم الدرداء ، عن علي الدقاق ، عن أبي الدرداء ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تفزعوا من الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أنشئ الله ضيمته وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أموره وجعل غناها في قلبه ، وما قبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا جعل الله قلوب المؤمنين تقبل إليه بالود والرحمة ، وكان الله عز وجل إليه بكل خير أسرع . »

أخبرنا إسماعيل بن أحمد ، أنبأنا رزق الله ، أنبأنا ابن شاذان ، أنبأنا أبو جعفر

(١) الأصل : تمهيداً . محرفة .

ابن يزيد ، أنبأنا أبو بكر القرشي ، أنبأنا يعقوب بن عبيد الله ، حدثنا يزيد بن هرون ، حدثنا سفيان الثوري ، عن زيد الشامي ، عن مهاجر العامري ، قال قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان : اتباع الهوى وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فيصده عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مُقبلَةً ألا وإن الدنيا قد ولت مُدبرة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

يا سحاح الأجساد كيف بطلتم
لا تُذَر عن صالح الأعمال
لو علمتم أن البطالة تُجدي
حسرة في معادكم والمآل
لتبادرتم إلى ما بقيكم
من جحيم في بعثكم وتكال
إنما هذه الحياة غرور
أبدأ تُطعم الوري في المال
كيف يهنيكم القراز وأنتم
بمد تميدكم على الارتحال
المهدي واضح فلا تعملوا عند
ولا تسلكوا سبيل الضلال
وأنبؤوا قبل المات وتوبوا
تسلوا في غد من الأهوال

السلام على قوله تعالى

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَنْفُصُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ^(١) ﴾

اعلموا أن إطلاق البصر سبب لأعظم الفتن ، وهذا القرآن يأمركم باستعمال الحمية عن ما هو سبب الضرر ، فإذا تعرضت بالتخليط فوقت ^(٢) إذا في أدنى ، فلم تَصِحْ من ألم ^(٣) .

أخبرنا إسماعيل ابن أحمد القرقي ، وعبيد الله بن محمد القاضي ، ورمحي ابن علي المدبر ، قالوا أنبأنا أبو الحسين بن النقور ، أنبأنا ابن حنبل ، حدثنا البغوي ، حدثنا هذبة ،

(١) سورة النور ٣٠ - (٢) كذا في اوق ذم الهوى لابن الجوزي - و ب ، ت : وقت .

(٣) العبارة لابن الجوزي في ذم الهوى ص ٨٢ .

جددنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التيمي ، عن سلمة ابن أبي الطفيل ، عن علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا علي إن لك في الجنة كنزاً وإنك ذو قرنيها ، فلا تنزع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة ^(١) » .

في هذا الحديث إشكال من أربعة وجوه : أحدها : من حيث إسناده ، فربما خيل إلى السامع أنه قد سقط منه رجل ، لأنه إذا سمع سلمة بن أبي الطفيل ^(٢) عن علي ، وقد عرف أن أبا الطفيل ^(٣) يروي عن علي يظن ^(٤) ذلك بل هو صحيح . وسلمة يروي عن علي أيضا .

والثاني : السكناية في قوله : « وإنك ذو قرنيها » وفيه وجهان : أحدهما : أنها كناية عن هذه الأمة ، كنى عنها من غير ذكر تقدم لها قال الله عز وجل : « حتى توارث بالحياب » ^(٥) بمعنى الشمس ، ولم يتقدم لها ذكر . والثاني : عن الجنة .

والثالث : يعني تسميته بذى القرنين وفيه وجهان : أحدهما : إن قلنا إن الكناية عن الأمة فإن علياً عليه السلام ضرب على رأسه في الله عز وجل ضربتين الأولى ضربة عمرو بن ود ^(٦) والثانية ابن ملجم ، كما ضرب ذو القرنين على رأسه ضربة بعد ضربة . وإن قلنا : السكناية عن الجنة فقرأها : جانبها . ذكره ابن الأنباري .

والرابع قوله : « فلا تنزع النظرة النظرة » ربما تخاليل أحد جوائز التصدير للأولى ، وليس كذلك وإنما الأولى التي لم تقصد .

وفي أفراد مسلم من حديث جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال : « اصرف بصرك » .

(١) : الأخرى . (٢) : سلمة بن الطفيل . (٣) : أن الطفيل . (٤) : علي .
(٥) : لقورنيها . (٦) : سورة ص ٣٧ . (٧) : ابن عبود .

وهذا لأنَّ النظرة الأولى لم يحضرها القلب فلا يتأمل بها^(١) الحاسن ولا يقع الالتئاذ ، فتي استدماها بمقدار حضور الذهن كانت كالثانية في الإثم .

وفي حديث الثعالب بن سعد ، عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا علي اتق النظرة بعد النظرة ، فإنها سهمٌ مسمومٌ تورث شهوةً في القلب » . وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نظرُ الرجل إلى عَاصِنِ المرأة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس ، من تركه ابتغاه وجه الله أعطاه الله عز وجل عبادةً يمدّ طعمَ لذتها » .

وكانت عيسى عليه السلام يقول : النظرة تُزرع في القلب الشهوة وكفى بها خطيئة^(٢) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مَطْعَما ، والإثم حَرَّازُ^(٣) القلوب . وقال : من أطلق بصره كان كثيراً أسفه .

وقد كان السلف رضي الله تعالى عنهم يبالنون في الاحتراز من النظر . وكان في دار مجاهد عليّة قد بُنيت ، فبقى ثلاثين سنة ولم يشعر بها^(٤) .

وخرج حسان بن أبي سنان يومَ عيد ، فلما عاد قالت له امرأته : كم من امرأة حسناء قد رأيت ؟ فقال : والله ما نظرتُ إلا في إبهامى منذ خرجت من عندك إلى أن رجعت إليك^(٥) !

ولمّا بالغ^(٦) السلف في النضّ حذرا من فتنة النظر وخوفاً من عقوبته . فأما فتنته فكَم من عابد خرج عن صومعته بسبب نظرة ، وكَم استغاث من وقع في تلك الفتنة .

(١) : ١ : لها . (٢) : ذم المسوى ص ٩١ . (٣) : كذا في ١ . وفي ب : حزار .
(٤) : ذم المسوى ص ٨٧ . والعلية : الحجرة . (٥) : المصدر السابق ص ٨٨ . (٦) : ب : ولما يلزم . محرقة . والتصويب من ١ . وفي ت : ولما بدر السلف في التحصن .

قال إبراهيم بن سول^(١) :

مِنْ كَانَ يُؤْتَى مِنْ عَدُوِّ وَحَاسِدٍ
هَاجِرًا زَانِيًا نَظَرًا بِمَدِّ نَظَرِهِ^(٢)
وقال آخر :

وَأَنَا الَّذِي اجْتَلَبَ الْمَنِيَّةَ طَرَفَهُ
وقال آخر :

عَاتَبْتُ قَلْبِي لَمَّا رَأَيْتُ جَسِيَّ نَحِيلاً
أَجَابَ قَلْبِي طَرَفِي وَقَالَ كَفَتْ الرُّسُولَا
فَأَزِمِ الْقَلْبُ طَرَفِي بَلْ كُنْتَ أَنْتَ الدَّلِيلَا^(٣)
فَقُلْتُ كُنَّا جَمِيعًا تَرَكَتَانِي قَتِيلَا
وقال آخر :

يَا مَنْ يَرَى شَقِيَّ يَرِي
لَا تَمَجِّنْ فَهَكَذَا
وقال آخر :

تَوَاحُشْنَا تَجَنَّبِي وَلَا عَمَّ عِنْدَهَا
وَلَمْ أَرَ أَغْيًى مِنْ نَفْسٍ عَفَافٍ
وَمَنْ كَانَتْ الْأَجْفَانُ حُجَابَ قَلْبِهِ
وقال آخر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَعْ الْبُرُوقَ الْوَوَاعِيَا وَرَمَيْتَ جَرَى مِنْ تَحْتِكَ لِلَّاهِ سَامِعَا^(٤)

(١) ابن صوف . وب : بن صور . وكلاما تحريف . وهو إبراهيم بن العباس بن سول السكاك .
(٢) ذم الهوى ص ٩٥ : نظرة بعد فكرة . (٣) البيت للعتبي . انظر شرح ديوانه لمكبري ٢٥٠/٤ .
(٤) ذم الهوى ص ٩٨ :

فَقَالَ طَرَفِي لِقَلْبِي بَلْ أَنْتَ كَفْتَ الْوَكِيلَا

(٥) القم ص ٩٩ . وقد نسبها فيه لأبي عبد الله بن المجاج . (٦) ذم الهوى ص ٩٩ . ونسبها فيه
لأبي منصور بن الفضل ؛ (٧) القم : السيل سألما .

غُرِثَ المَوَى بِاللَّحْظِ حَتَّى احْفَرَتْهُ
وَلَمْ تَدْرِ حَتَّى أَبْنَيْتُ شَجَرَاتَهُ
وَأَسَيْتُ تَسْتَدْعِي^(١) مِنَ الصَّبْرِ عَازِبًا
وَقَالَ آخِرُ :-

وَالرَّاءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ بَقَلْبُهَا
بِسْرِ مُقْلَتِهِ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ
فِي أَغْنِ الْعَيْنِ^(٢) مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ
لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ جَاءَ بِالضَّرَرِ^(٣)
وَقَالَ آخِرُ :-

لَا عَذْبَنَ الْعَيْنِ غَيْرَ مَفْكَرٍ
وَلَأَهْرَجَنَ مِنَ الرِّقَادِ لِلْبَيْدَةِ
فِيهَا جَرَتْ بِالْذَمْعِ أَوْفَاضَتُ دَمًا
حَتَّى يَصِيرَ عَلَى الْجَفُونِ مَحْرَمًا
مَفْكَتُ دِمِي فَلَا سَفْكَنَ دُمُوعَهَا
وَهِيَ الَّتِي بَدَأَتْ فَكَانَتْ أَظْلَمًا
هِيَ أَوْفَعْتَنِي فِي حِبَائِلِ فِتْنَةٍ
لَوْلَمْ تَكُنْ تَنْظُرْتُ لَكُنْتُ مَلَمًا^(٤)
وَقَالَ آخِرُ :

وَسَهَامُ اللَّحْظِ يُتَحَشَّلِينَ فِي وَقْتِ الْوُقُوعِ
ثُمَّ يُصَوِّفُونَ فَلَا يُقْلِينَ إِلَّا عَنْ صَرِيحٍ^(٥)
وَقَالَ آخِرُ :

إِنْ كَانَ^(٦) طَرَفِي أَصْلَ شُقَى فِي الْمَوَى
لَوْ تَحَرَّيْتُ فِي تَوَابِي لَحَظَهُ
لَا أَذَاقَ اللَّهِ عَيْنِي^(٧) الْوَسْأَ
يَوْمَ سَلَعِ مَا عَنَانِي مَا عَنَانًا^(٨)
غَيْرِهِ :

يَا عَيْنُ أَنْتِ قَتَلْتَنِي وَجَعَلْتِ ذَنْبِكَ مِنْ ذُنُوبِي

(١) الأصل : تستدعي . وما أميحه من ذم الموى س ١٠٠ (٢) القدم : بارحاً . وقد نسب فيه
الأميات لعبد المحسن بن غالب الموصلي . (٣) ت : النيه . (٤) القدم س ١٠١ وهي لبند
المحسن بن غالب أيضا . (٥) القدم س ١٠٠ وهي لوزير أبي شعاع . (٦) القدم س ١٠٢ . ولسبها
لعبيخه أبي عبد الله البارح . (٧) كذا بالأصول . وفي ذم الموى : كان طرفي . (٨) القدم : طرفي .
(٩) القدم س ١٠٧ .

وَأَرَاكَ تَهَوِّنُ الدُّمُوعَ كَأَنَّهَا رِيْقُ الْحَبِيبِ
 تَاللهِ أَحْلَفُ صَادِقًا وَالصَّدْقُ مِنْ شَيْمِ الْأَرِيبِ
 لَوْ شِئْتُ نَوَيْتُ الزَّمَانَ مِنَ الْبَعِيدِ إِلَى الْقَرِيبِ
 مَا كُنْتُ إِلَّا دُونَ مَا جَنَّتِ الْعَيْنُ عَلَى الْقُلُوبِ^(١)

وأما عقوبة النظر فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكّل^(٢) دماً، فقال له مالك؟ فقال: مررت في امرأة فنظرتُ إليها فلم أزل أُنَبِّها بصري فاستقبلني جدار فصرخني فصنع بي ما ترى. فقال: «إِنَّ الله عز وجل إذا أراد بعبدٍ^(٣) خيراً عَجَّلَ له عقوبته في الدنيا».

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، أنبأنا أبو سعيد الحِمْيَرِيُّ، أنبأنا ابن بكويه، أنبأنا أبو عبد الله الرازي، عن أبي يعقوب النهرجوري، قال: رأيت في الطواف رجلاً بفرد عين وهو يقول في طوافه: أعوذ بك منك. فقلت له: ما هذا الدعاء؟ فقال: إني كنت مجاوراً منذ خمسين سنة فنظرتُ إلى شخص يوماً فاستحسنته، فإذا بطلعة وقت على عيني فسالته على خدي، فقلت: آه. فوقعت أخرى، وقايل يقول: لو زدت لزدناك^(٤).

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزّاز، أنبأنا أحمد بن علي الحافظ، قال كتب لي أبو حاتم أحمد بن الحسين الرازي، يذكر أنه سمع محمد بن أحمد بن عبد الوهاب الحافظ يقول: قال أبو سعيد أحمد بن محمد الصوفي: حدثنا عبد الرحمن بن أحمد بن عيسى، عن أبي الأديان^(٥) قال كنت مع أستاذي أبي بكر الدقاق فرأيت فتنظرتُ إليه، فرأيت أستاذي وأنا أنظر إليه فقال: يا بني لتحدنَّ عيني ولو بعد حين. فبقيتُ عشرين سنة وأنا أراعي النسب، فمست ليلة وأنا متفكر فيه فأصبحت وقد نسيتُ القرآن كله^(٦).

أخبرنا أبو بكر الصوفي، أنبأنا أبو سعد بن أبي صادق، حدثنا أبو عبد الله الشيرازي،

(١) ذم الهوى ص ١٠٢ . (٢) يشكّل: يخط متتاباً . (٣) ب: بيده . والحديث ذم الهوى ١٢٦ . قال الترمذي: وهو حديث حسن . (٤) ذم الهوى ص ١٢٨ . (٥) كذا بالأصول وذم الهوى . (٦) ذم الهوى ص ١٢٧ ، ٢٨٨ .

أنبأنا محمد بن أحمد التجار ، أخبرني أبو بكر الكتاني ، قال : رأيت بعض أصحابي في المنام فقلت له ما فعل الله بك ؟ قال : عرض عليَّ شيئاً وقال : فقلت كذا وكذا ؟ فقلت : نعم . قال : وفعلت كذا ؟ فقلت : نعم . قال : وفعلت كذا وكذا فاستحييتُ أن أقِرَّ ، فقلت له : ما كان ذلك الذنب ؟ فقال : مرَّ بي غلامٌ حسن الوجه فنظرتُ إليه ^(١) .

وقد روى عن أبي عبد الله الزرَّاد أنه رُئي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي كلَّ ذنب أقررتُ به إلا واحداً استحييتُ أن أقِرَّ به ، فأوقفني في العرق حتى سقط لُحْمٌ وجهي . قيل : ما كان الذنب ؟ قال : نظرتُ إلى شخص جميل ^(٢) .
وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كلُّ عينٍ باكية يوم القيامة إلا عين ^(٣) غَضَّتْ عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله ، وعين يخرج منها مثلُ رأس الذباب - يعني الدموع من خشية الله ^(٤) .

إخواني : تذكروا مصير الشَّور ، وتفكروا في نزول بيت الدَّر ، وتلَّعوا بعين الفكر في حال الصفا والكدر ، واعلموا أنكم في دار البلاء فاحذَرُ الحذر .
أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي ، حدثنا أبو بكر الخطيب ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد النيسابوري ، أنبأنا محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ قال : سمعتُ أبا عبد الله القُرشي يقول : كان لي جار شاب وكان أديباً ، وكان يهوى غلاماً أديباً ، فنظر يوماً إلى طلائع شَمَرٍ بيض في عارضته فوقَ له شيء من الفكر ^(٥) فهجر الغلام ، فكتب إليه الغلام :

مالي خبيثٌ وصكت لا أجبني ودلائلُ الهجران لا تخفى
وأراك تَمْزِجُ مَنى وتُشربني ولقد عهدتكَ شاربِي صرْفاً

(١) ذم الهوى ص ١٢٩ . (٢) ذم الهوى ص ١٢٩ . (٣) كذا في الأصول ، و ذم الهوى لابن الجوزي والرواية في « إلابان » . (٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية . وهو في ذم الهوى ص ١٤٩ ، (٥) ذم الهوى : شيء من الحق .

فقلب الرقعة وكتب في ظهرها : -

التَّصَايِي مع الشَّطِّ نُمَتَّى خَطَّةً شَعَلَتْ
لَا تُلْقَى عَلَى جَفَايَ خَفِي النِّدَى ^(١) فَرَطُ
أَنَا رَهْنٌ بِمَا جَنَيْتُ فَذَرْنِي مِنَ الْفَلَطِ
قَدْ رَأَيْتُهَا أَمَا الْخَلَا تُقِ فِي زَلَّةٍ هَبَطُ ^(٢)

إخواني : الدنيا مُمَوَّمَةٌ قاتلة ، والنفوس عن مكائدها غافلة ، كم من نظرة مخلو
في العاجلة ، مرارتها لا تُطَاق في الآجلة ، ابن آدم قلبك قلبٌ ضعيف ، ورأيك في إطلاق
الطُّرْفِ رأىٌ سخي ، يا طفل الهوى متى يُؤَنِّسُ ملكٌ رُشد ، عينك مُطلقة في الحرام ،
ولسانك مُهمَل في الآثام ، وجسدك يتعب في كسب ^(٣) الخُطَام ، كم نظرة محترقة ^(٤)
زلَّت بها الأقدام .

فَقَبَضْتُ وَلَا تَسْتَمِ كُلَّ بَرَقِي رُبَّ بَرَقِي فِيهِ صَوَاعِقُ حَبْنِ
وَاعْضُضِ الطُّرْفَ تَمْتَرِحَ مِنْ غَرَامِ نَكَبْتَنِي فِيهِ ثَوْبٌ ذَلٌّ وَشَيْنِ
فَبَلَاءِ الْهَوَى ^(٥) مُوَاقِفَةُ النَّفْسِ وَبَذْهُ الْهَوَى طُلُوحُ الْقَيْنِ ^(٦)

سَمِّعْ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَنْفُسُومِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾

يا محبا للشغولين بأوطارهم عن ذكر أخطارهم ، لو تفكروا في حال صفائهم
في أكدارهم ، لآسلكوا طريق اغترارهم ، أما يكفي في وعظهم وازدجارهم : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ
يَنْفُسُومِنْ أَبْصَارِهِمْ » .

الدنيا دار الآفات والفتن ، كم غَرَّتْ غِرًّا وما فطن ، أرته ظاهرها والظاهر حسن ،

(١) الذم : خفي بما فرط . (٢) ذم الهوى ص ٢٦٩ . (٣) ١ : يكسب . (٤) ب : عترقة .
عرة . والتصويب من أ . (٥) ١ : فبلاء التي اتباع هوى النفس . ورواية ذم الهوى :

* فَبَلَاءِ الْفَتَى مُوَاقِفَةُ النَّفْسِ .. *

(٦) الأبيات نسبها ابن الجوزي في ذم الهوى ص ١٠٣ لابن الحريري .

فلما فتح عين الفكر من الوَسَن قال ربِّ ارجعون ولن ، وَفُتِحَ الْمُتَقُولِينَ بِسَيْفِ اغْتِرَارِهِمْ ،
وَالشَّرْعَ بِنَهَامِهِ عَنْ أَوْزَارِهِمْ « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » .

أَيْنَ أَرْبَابِ الْمَوْتِ وَالشَّهَوَاتِ ، ذَهَبَتْ وَاللَّهُ الْذَاتُ دُونَ ^(١) التَّبَنُّاتِ ، وَنَدِمُوا
إِذْ قَدَرُوا عَلَى مَا فَاتَ ، وَتَعَنُّوا بَعْدَ يُبْسِ الْعُودِ الْعَوْدَ وَهَيْهَاتَ ، فَتَلَمَّحَ فِي الْآثَارِ سُوءَ
أَذْكَارِهِمْ « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » .

نَازِلُ الْمَوْتِ عَلَى الذُّنُوبِ ، فَأَسْرَوْا فِي قِيُودِ الْجَهْلِ وَالْعُيُوبِ ، فَرَحَلَتْ لَذَاتُ خَلَّتْ
عَنِ الْأَنْوَاءِ وَالْقُلُوبِ ، وَحَزَنُوا عَلَى الْفَارِثِ وَلَا حُزْنَ يَعْقُوبُ ، حِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
فِي ثِيَابِ إِدَارِهِمْ [وَعِصَى التَّوْبِخِ فِي أَدَارِهِمْ] ^(٢) « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » .

قُلْ لِلنَّاطِلِينَ إِلَى الْمَشْتَمَى فِي دِيَارِهِمْ ، هَذَا أُنْمُودُجَ مِنْ دَارِ قَرَارِهِمْ ، فَإِنْ اسْتَعْبَلِ
أَطْفَالُ الْمَوْتِ فِدَارِهِمْ ، وَعِذُّهُمْ قُرْبَ الرَّحِيلِ إِلَى دَارِهِمْ « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا
مِنْ أَبْصَارِهِمْ » .

احْذَرُوا نَفْزَةَ تَفْسِدِ الْقُلُوبِ ، وَمَعْنَى عَلَيْكُمْ الدَّمُ ^(٣) وَالْعُيُوبِ ، تُسْخِطُ مَوْلَاكُمْ
عَالِمَ النُّيُوبِ ، لَقَدْ وَصَفَ الطَّيِّبَ حَيَّةً لِلطُّيُوبِ ، فَلَوْ اسْتَعْمَلُوا الْحَيَّةَ لَمْ تَتَعَرَّضْ الْحَيَّةُ
بِأَبْصَارِهِمْ « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » .

وَقَتْنَا اللَّهَ وَإِلَاكُمُ الْهَدَى ، وَعَصَمْنَا مِنْ أَسْبَابِ الْجَهْلِ وَالرَّدَى ، وَسَلَّمْنَا مِنْ شَرِّ النُّفُوسِ
فَإِنَّهَا شَرُّ الْمَدَى ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمُتَنَفِّعِينَ بَعْظَ أَخْيَارِهِمْ « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » .
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ .

(١) : أَوْ بَقِيَّتِ التَّبَنُّاتِ . وَمَا لَيْتُهُ مِنْ ب ، ت . (٢) : سَطَّطَ مِنْ ب . (٣) : ب : الذَّنْبُ .

المجلس الحادى عشر

فى قصة ذى القرنين

الحمد لله الذى أمرى لطفه ففك الأمرى ، وأجرى بإنعامه للعالمين أجرا ، وأصيل بكرمه على العاصين سيرا ، وقسم بنى آدم عبداً وخراً ، ودبر أحوالهم غنى وفقراً [كما رتب البسيطة عامراً وفقراً ^(١)] وقوى بمض عبادته [على السجدة] ^(٢) قطعها شبرا شبرا » وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتُلَوِّعُ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا .

أحمد . حمداً يكون لى عنده ذخراً ، وأصل على رسوله مقدّم الأنبياء فى الدنيا والأخرى ، وعلى أبى بكر الذى أنفق المال على الإسلام حق مال الكف صبراً ، وعلى عمر الذى كسرت هيئته كسرى ، وعلى عثمان المقتول من غير جرم صبراً ، وعلى على الذى كان الرسول يمهز بالعلم عزاً ^(٣) ، وعلى عه العباس أعلام فى النسب قدراً .

قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ » ^(٤) .

الذين سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم هم اليهود . وفى اسم ذى القرنين أربعة أقوال : أحدها : عبد الله . قاله على عليه السلام . والثانى : الإسكندر . قاله وهب . والثالث : عباس . قاله محمد بن على بن الحسين . والرابع : الصّعب بن جابر . ذكره ابن أبى خيثمة .

وفى تسميته بذى القرنين عشرة أقوال : أحدها : أنه دعا قومه إلى الله عز وجل فضر به على قرنه فهلك فغير ^(٥) زماناً ثم بعثه الله تعالى ، فدعاهم إلى الله فضر به على قرنه الآخر فهلك ، فذا لك قرناه . قاله على عليه السلام . والثانى : أنه سقى بذى القرنين لأنه سار من مغرب الشمس إلى مطلعها . رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : لأن صفعتى رأسه كانتا من نحاس . والرابع : لأنه رأى فى النوم كأنه امتد من السماء إلى

(١) سقطت من ب . (٢) من ا . (٣) غرا . (٤) سورة الكهف . (٥) خبر : بى . ولى ا : زمان .

الأرض فأخذ بقرّنى الشمس ، فقصّ ذلك على قومه فسعى بذى القرنين . والخامس :
لأنه ملك الروم وفارس . والسادس : لأنه كان فى رأسه شبه القرنين . رويت هذه الأقوال
الأربعة عن وهب بن منبه رضى الله عنه . والسابع : لأنه كانت له غديرتان من شعر . قاله
الحسن . قال ابن الأنبارى : والعرب تسمّى الضفّيرتين من الشعر غديرتين وقرنين ^(١) .

[قال : ومن قال سعى بذلك لأنه ملك فارس والروم قال لأنهما عاليتان على جانبي
من الأرض يقال لهما قرنان ^(٢)] والثامن : لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذى
شرف . والتاسع : لأنه انقرض فى زمانه قرنان من الناس وهو حى . والعاشر : لأنه
ملك الظلمة والنور . ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق النّسلى .

واختفوا : هل كان نبياً أم لا على قولين : أحدهما : أنه كان نبياً . قاله عبد الله
ابن عمرو والضحاك . والثانى : أنه كان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً ولا ملكاً ، قاله على عليه
السلام . وقال وهب : كان ملكاً ولم يوحّ إليه .

وفى زمان كونه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كان من القرون الأولى من ولد يافث بن نوح .
قاله على عليه السلام . والثانى : أنه كان بعد نوح . قاله الحسن . والثالث : كان فى الفترة
بين عيسى ومحمد عليهما السلام . قاله وهب وفيه بُمد .

قوله تعالى : « سَأْتِلُوْهُ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا » أى خبراً يتضمن ذِكْرَهُ « إِنَّا مَكْنَانُهُ
له فى الأرض » أى سَهَّلْنَا عَلَيْهِ السَّيْرَ فِيهَا . قال على عليه السلام : إنه أطاع الله فسخر له
السحاب ، غمّاه عليه ومدّ له فى الأسباب وبسط له النور ، فسكان الليل والنهار عليه
سواء . قال مجاهد : ملك الأرض مؤمنان وكافران . فالؤمنان : سليمان بن داود
وذو القرنين . والكافران : نمرود وبختنصر .

قوله تعالى : « وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا » قال ابن عباس : علّم ما ينسب به إلى

(١) البارة عرقلة لى اب . وما أجهته من ت . (٢) سقطت من ا .

ما يريد . وقيل : هو العلم بالطرق والمساالك « فَأَتَّبِعْ سَبِيلًا » أى قف الأثر . وقرأ عامر وابن عامر وحزرة والكسائي : « فَأَتَّبِعْ » فى المواضع الثلاثة . قال أبو على : التقدير فَأَتَّبِعْ سَبِيلًا سَبِيلًا . والسبب : الطريق .

قوله تعالى « فِى عَيْنِ حِجَّةٍ » أى ذات حجة . وقرأ ابن عامر وحزرة : « حامية » أى حارة . قال الحسن : وجدها تنفرب فى ماء يفل كغليان القدر ويفيض من الماء تلك العين الحارة حتى يفيض حولها مسيرة ثلاثة أيام فلا يأتى على شئ . إلا احترق ووجد عندها قومًا لباسهم جلود السباع وليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الدواب إذا غربت نحوها وما لقطت العين من الحيتان .

« قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ » من قال هو نبى قال : هذا وحى ، ومن قال ليس بنبى قال : إلهام « إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ » أى تقتلهم إن أتوا ما تدعوم إليه ، وإما أن تأمرهم فبصيرهم الرشد . « قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ » أى أشرك « فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ » بالقتل إذا لم يرجع عن الشرك « ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ » فيعذب به بالنار .

قوله تعالى : « فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ » قال الفراء : الحسنى الجنة وأضيف الجزاء إليها . وهى الجزاء كقوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ^(١) » « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ^(٢) » قال أبو على الفاريسى : المعنى فله جزاء الخلال الحسنى . وقرأ حمزة والكسائي : « فَلَهُ جَزَاءُ » بالنصب والتثنية . قال الزجاج : وهو مصدر منصوب على الحال . والمعنى : فله الحسنى مجزيًا بها جزاء . « وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » أى قولًا جميلًا .

« ثُمَّ أَتَّبِعْ سَبِيلًا » أى طريقًا آخر توصله إلى المشرق . قال قتادة : مضى يفتح اللدائن ويجمع الكنوز ويقتل من لم يؤمن حتى أتى مطلع الشمس ، فوجد أقواما عراة فى أسراب لم ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس إذا طلعت ، فإذا توسطت السماء خرجوا من أسرابهم فى طلب معاشهم مما أحرقته ، وبلغنا أنهم كانوا فى مكان لا يثبت عليه بنيان .

قال الحسن : إنهم كانوا إذا غربت الشمس خرجوا يرعون كما يرى الوحش .
قوله تعالى : « كذلك » أى كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها « وَقَدْ أَحْنَأْنَا بِمَا
لَدَيْهِ » أى بما عنده ومعه من الجيوش « خُبْرًا . ثم أَتْبَعَ سَبِيًّا » أى طريقا ثالثا بين
المشرق والمغرب « حتى إذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ » قال وهب بن منبه : هما جبلان مُتَبَعَانِ
فى السماء من ورائهما البحر . وقرأ نافع بضم السين . قال ثعلب : هما لفتان . وقال أبو عبيدة :
ما هو من قِبل الله تعالى فهو مضموم . وما هو من فعل الآدميين ففتوح .
قوله تعالى « لَا يَسْكَدُونَ يُقْعَبُونَ قَوْلًا » أى لا يفهمونه إلا بمد إبطاء .

وأما يأجوج ومأجوج فهما رجلان من أولاد يافث بن نوح قال على عليه
السلام : منهم من طوله شبر ومنهم من هو شُرْطُ^(١) فى الطول ، ولهم شعر يواربهم من
الحر والبرد ، وكان فسادهم قتل الناس « فَمَنْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا » وقرأ حمزة : خَرَجًا .
قال الليث : هالفتان . وقال أبو عمرو بن العلاء : اَخْرَجُ ما تبرعت به ، واخترج :
ما زملك أداؤه . « قال ما سَكَنَى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ » مما تبذلون « فَأَعْيُنُونِى بِقُوَّةِ » قال
مجاهد : بالرجال وقال ابن السائب : بالآلة . والرَّؤْمُ : الحاجز^(٢) . والزَّيْبَرُ : القطع
والصَّدْقَانِ : جانباً الجبل .

قال علماء السير : لما وصل إلى مدن . سئلة قد بقى فيها بقايا سألوه أن يسد ما بينهم
وبين يأجوج ومأجوج ، فأمر الصنّاع فضربوا اللّين من الحديد ، طول كل آبنة ذراع
ونصف وضمكها شبر .

وروى سَلَامُ الترمجان قال : بمعنى الواقع إلى السد وضم إلى تحسين رجلا ،
وأعطانا مالا ، فازلنا نتنقل البلاد وتبعث الملوكة معنا الأدلاء إلى أن صرنا إلى أرض
سوداء منقطة الريح ، فصرنا فيها عشرة أيام ، ثم صرنا إلى مدن خراب فصرنا فيها خمسة
وعشرين يوما ، وهى التى كانت يأجوج ومأجوج يُطْرَقُونَهَا ، ثم صرنا إلى حصون بالقرب

(١) : ومنهم من طوله شُرْط . (٢) ب : والحاجز .

من السد وفيها قومٌ يشكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرأون القرآن ، فسألونا : من أين أتيتم ؟ قلنا : نحن رسل أمير المؤمنين . قالوا : ما سمعنا بهذا قط . ثم صرنا إلى جبل أمّس وفيه السد ، وهناك باب حديد له مصرعان مُغلّقان ^(١) ، عرض كل مصرع خمسون ذراعا في ارتفاع خمسين في ثخن خمسة أذرع ، وقامتاهما في دَوّارة ، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع ، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعا ، وفوق القفل بقدر خمسة أذرع غلّق ^(٢) طوله أكثر من طول القفل وقفّز ^(٣) ، وعلى القلق مفتاح معلق في سلسلة طوله ثمان أذرع في استدارة أربعة أشبار ، وعتبة الباب عشرة أذرع ، ورئيس تلك الحصون يركب في كل جمعة في عشرة فوارس ، مع كل فارس مِرْزَبَة حديد ، فيضرب القفل بتلك للرزبات صرات ليمسوا الصوت فيعلموا أن هناك حفلة .

وقد روينا أن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم . أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن اللذّهب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبيد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا زَوْح ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، حدثنا أبو رافع ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ لِيَحْفَرُونَ السَّدَ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرُونَ شِعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارجعوا فستحفرونه غداً . فيمودون إليه فيرونها كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبيّضهم على الناس ؛ [حفروا ^(٤)] حتى إذا كادوا يرون شِعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله . فيمودون إليه وهو على هيئته التي تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشقون المياه ويتحصّن الناسُ منهم في حصونهم ، فيَرمون بسهام إلى السماء ، فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون . قهرنا أهل الأرض وعَلَوْنَا أهل السماء ، فبيعت الله عليهم نفقا ^(٥) في أقفارهم فيقتلهم بها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

(١) : مغلّقان . (٢) : القلق : ما يعلق به الباب . (٣) : القفّز : مائة وأربع وأربعون ذراعا .

(٤) : سقطت من ب . (٥) : النفق : كنفا بالأصل . والنفق : دود في أنوف الإبل والنم .

إِنْ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنَّ [وَتَشْكُرُ ^(١)] مِنْ لَحْمِهِمْ وَدَعَائِهِمْ .

ثم إن ذا القرنين لما عاد بلخ بابل ، فزل به اللوت فكتب إلى أمه يعزّيها عن نفسه ، وكان في كتابه : اصنعي طعاماً واجمعي من قدرت عليه من أبناء المملكة ، ولا يأكل من طعامك من أصيب بمصيبة . ففعلت فلم يأكل أحد ، ففعلت ما أراد .

فلما وصل تابوته إليها قالت : ياذا الذي بلغت السماء حكته وجاز أقطار الأرض ملكه ، تمالك اليوم نائم لا تستيقظ ، وسأكت لا تتكلم ، من يُبلغك عني أنك وعظمتي فامسكت وعزيتي فتمزيت ، فملك السلام حياً وميتاً !

السلام على البصرة

أُنْشِرَ أَمْرَ اللُّوتِ أَمْ أَنْتَ عَارِفٌ بِمَنْزِلَةِ تَفَنَّى فِيهَا الثَّقَائِفِ
كَأَنَّكَ قَدْ غَيَّبْتَ فِي اللَّحْدِ وَالتَّرَى سَكَا لِقَى اللُّوتِ الْقُرُونُ السَّوَالِفِ
أَرَى اللُّوتَ قَدْ أَتَى الْقُرُونُ الَّتِي مَضَتْ فَلَمْ يَبْقَ مَأْلُوفٌ وَلَمْ يَبْقَ الْكُفُ
كَأَنَّ النَّفْيَ لَمْ يَصْغِبِ النَّاسَ لَيْلَةً إِذَا عَصِبَتْ يَوْمًا عَلَيْهِ الثَّقَائِفُ
وَقَامَتْ عَلَيْهِ عُصْبَةٌ يَذْفُونَهُ فَسَنَذَكِرُ بِبِكِي حَزِينًا وَهَاتِفٌ ^(٢)
وغيَّب في لحد كبريه فناؤه وَنُضِدَ مِنْ لَيْلٍ عَلَيْهِ السَّقَائِفُ
وما صاحب البحر القطيع مكانه إِذَا هَاجَ آذَى ^(٣) مِنْ عَلَيْهِ وَقَاصِفُ
أحق بطول الحزن من ضيف غربة تَصَدَّعَ عَنْهُ أَهْلُهُ وَالْمَعَارِفُ
أين من ربح في متاجر الدنيا واكتسب ، أين من أعطى وأولى ثم والى ووهب ،
أما رحل عن قهصر الذهب فذهب ، أما حلّ به في الحرب الضطيم الحرب ، أما نازله
الثلث وأسرّه العطب ، أما نابتة نائبة لانتشبه الثوب ، أنفعه بكاه من بكى أو نذب من
نذب ، أما نديم على كل ما جرى وارتركب ، أما توقنون أن طالبه لكم الطلّب ، تدبروا
قولنا همكم صدق أو كذب .

(١) أ : وتشكر . معرفة . وتشكر : تسين . والكلمة ساقطة من ت . (٢) : مستدرك بكى عليه وهاتف . وفي ت : وتالف . (٣) كذا في ب ، ت . وفي أ : أغرق من عليه .

قال ميمون بن مهران : خرجتُ مع عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى المقبرة ،
فما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال : يا أبا أيوب : هذه قبور آبائهم لم يشاركوها
أهل الدنيا في النعيم^(١) وعيشهم ، أما ترام صرعى قد حلت بهم الثلاث واستحكم فيهم
البلاء ، وأصاب الهوام في أبدانهم مقيلا ! ثم بكى حتى غشى عليه ثم أفاق فقال : انطلق
بنا فوالله ما أعلم أحدا أنتم ممن صار إلى هذه القبور وقد آمن من عذاب الله عز وجل .

سُورَ طواها الموتُ طيًّا كانت محبةً إليًّا
تبلى وبأكلها الترا بٌ وذكرها غصُّ إليَّا
صرعى بأنواع الحنو في كأنهم شربوا الحميم^(٢)
كففى على تلك الوجوه وعل برؤ اللهب شيًّا
أبكى عليهم ثم أزعج بدم أبكى عليًّا
أنا ميتٌ بدم الحيا ة وميتٌ للحزن حيًّا
تبقى الثرى ولو أنى نلت السماء أو الثرى
ولو اعتبرت لمادى^(٣) غيلان وهو بدم ميا^(٤)
من السماء بأن تنو م وأنها تدمى سميا
هيهات لا ترجو البقا ء وابكى نفسك يا أخيا^(٥)

كأنك بالموت وقد فعم الرضى التى بها قد تمكنت ، ونفك إلى قبر ترى فيه
ما أسأت وما أحسنت ، ثم تقوم للجزاء على ما أسررت وما أعلنت ، فتزى بالقوى
فلو لك إن تزيت ، وأعمل اليوم ما ينفعك غدا وإلا فن أنت .

كم طوى الموت من نعيم وعزٍ وديارٍ من أهلها أخلاها

(١) : فى نعيمهم . (٢) الحيا : الحز . (٣) كذا فى ب . وفى : لافل .

(٤) غيلان : هو ذو الرمة غيلان بن عقبة . وفى : هى بحوجه مية بنت حاتم القرى . يريد أن ذا الرمة
فم ميا بعد أن كان يحيا . (٥) : ا :

.. لا يرحى البقا . وابكى لنفسك

وجنود أحلامها^(١) وجُود وجود أحالة منها حِلَاها
أين من كان ناعما في قصور بلا الكرمات شيدت عِلَها^(٢)
قد جفأها من كان يرتاح حيناً^(٣) نحوها بسد إلفه وقلاها

يا من في حُلِّ جبهه يرقل ويميس ، يا مؤثرا الرذائل على أنف نفيس ، يا طويل
لأمل ماذا صنع المجلس ، يا كثير الخطايا أشتت إبليس ، من لك إذا فاجأك مُذِل
الرئيس ، واحتوشتك أعوان ملك الموت وسجى الوطيس ، وُنقلت إلى حديد مالك فيسه
إلا العمل أنيس ، أين أمسك يا من أمسك عُرَى أمه ، أما ذهب عن كل عبد ببعض
أجله ، أين لذات شهواتك فيما مضى من عرك ، أما تصرمت والوزر على ظهرك ، أما الدنيا
تخذع سردها ، أما العير تجاذب^(٤) مستفيدها ، أما زيادات الأيام تنقص الأجل ،
أما كمال الأمن قرين الوجيل .

[ومن ليكسرى لو فدى نفسه بكل ما أحرده من يدر
أنصبت العمار ساجدهم ثم تخلى عامر من عمر
فانهم بذكر الله لا غيره فإن ذكر الله خير السر
وشمر الدليل إلى عنوه فكل مسجود إليه انشمر^(٥)]

كان الحسن يقول : الثَّوَالِهَةُ هاهنا قليل ، وأنتم آخر أمتكم ، وأمتكم آخر الأمم ،
وقد أسرع بخياركم^(٦) ، فإذا تنظرون إلا المعاينة ، فكأنها والله قد كانت ، ما بعد
نبيكم نبي ولا بعد كتابكم كتاب ، ولا بعد أمتكم أمة ، تسوقون الناس والساعة
تسوقكم ، وما ينتظر أولكم إلا أن يلحق آخركم ، فيا لها موعظة لو واقت
من القلوب حياة .

(١) : أحلامها . (٢) : ب عرفة : بلا الكرمات شديد علاما . والنصب من ا ، ت .

(٣) : ت ، حيا . (٤) : ب ، تحدث . (٥) : سقطت من ا .

(٦) : ب : وقد أسرع عييا بكم . و ا : بخياركم . وما أئنه من ت .

رَضِيَ الْفَتَى بَعَثَانَهُ وَشَقَانَهُ لَوْ أَنَّ ظِلَّ بَقَائِهِ مِمْدُودٌ
وَيَحْجُّ لَهُ مَا لَمْ يَمْدَ لِنَفْسِهِ وَيُبِيدُهُ نَفْسٌ لَهُ مِمْدُودٌ
يُنْذَى بِأَسْقِيَةٍ لَهُ وَالْذَّةُ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ فِي الْحَيَاةِ لِدُودٍ^(١)
مَلِكٌ يَشِيدُ مَا بَنَى وَيَشِيدُ أَرْكَانَ الْبِنَاءِ وَرُكْنُهُ مِمْدُودٌ
وَيَرَى طَرِيقَ الْحَقِّ كُلُّ أَخِي حَبِيبًا وَكَأَنَّهُ عَنْ فَعْلِهِ^(٢) مَصْدُودٌ
جَسَدٌ يَكِيدُ لِأَنَّهُ يَفُوزُ بِقُوَّتِهِ فَلِذَا اسْتَرَحَّ قَلْبُهُ لِلْمَكْدُودِ

الكلام على قوله تعالى

« فَمَنْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً »

« فَمَنْ يَنْظُرُونَ » بمعنى يفتظرون . والساعة : القيامة . سميت ساعة لأنها تكون في ساعة . والبَغْتَةُ : السَّجَاةُ . والأَشْرَاطُ : العلامات .

أخبرنا أبو نصر الطوسي وأبو القاسم السمرقندي وأبو عبد الله بن البلاء ، وأبو الفضل بن السائلة وأبو الحسن الخياط ، قالوا أنبأنا أبو الحسين بن الثَّقُوفِ ، أنبأنا ابن حَبَّابة ، حدثنا البَغَوِيُّ ، حدثنا طلوت بن عباد ، حدثنا فضال بن جُبَيْر ، عن أبي أمامة قال : سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنْ أَوَّلَ الْآيَاتِ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا » . أخبرنا أبو القاسم الكاتب ، حدثنا الحسن بن علي ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا أبي ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن مالك بن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي مَكَانَكَ » .

أخبرناه في الصحيحين .

(١) : ١

يُنْذَى بِأَسْقِيَةٍ لَهُ وَأَكْدَةُ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ فِي الْحَيَاةِ كَدُودِ

(٢) : ١ من فعله .

وفي لفظ : وما به إلا البلاء .

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل وتُشرب الخمر ويظهر الزنا ، ويقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون فيم خمسين امرأة رجل واحد .

وفي أفراد البخارى من حديث أنس أن عبدا لله بن سلام^(١) أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما أولُ أشراط الساعة ؟ قال : أولُ أشراط الساعة نارٌ تخرج من المشرق فتحتشر الناس إلى المغرب .

وفي صحيح البخارى من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم وتكثر الزلازل وتظهر الفتن ويتطاول الناس في البنين ولتقوم^(٢) الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما^(٣) فلا يقبایمانه ولا يطوایانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقخته^(٤) فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وقد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يطعمها .

وفي حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة^(٥) سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده » .

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم الكروخي ، حدثنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الفوري ، قالوا أنبأنا الجراحي ، حدثنا المحبوبي ، حدثنا الترمذي ، حدثنا صالح بن عبيد الله ، حدثنا الفرج بن فضالة ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن عمر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا فقلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء . قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : إذا كان للنم ذولا ، والأمانة متفنا ، والزكاة مفزما ، وأطاع الرجل زوجته وعن أمه ، وبرَّ صديقه وجفا أباه ، وارتفعت

(١) : من حديث أنس وعبد الله بن سلام أن رجلا أتى . (٢) ب : ولتقوم .

(٣) : ثوبهما . (٤) : اللقحة : اللقوح ، وهي الناقة الملوب . (٥) : العذبة : الطرف .

الأصوات في الساجد ، وكان زعيم القوم أَرْدَلُم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمر ، ولبس الحرير ، وأخذت القيان واللحاف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك رجماً حراً أو خسفاً أو مسخاً .

اعلم أنك إن لم تدرك أشرط القيامة بقيامتك الماجلة موتك ، فإذا حانت ساعة الوفاة فات زمن الاستدراك وخرج ربيع البدار ، فسُدَّ باب الإجابة عن دعاء الإنابة ، كما قال عز وجل في القيامة : « فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » أى فمن أين لهم إذا جاءتهم الساعة أن يتذكروا ويتوبوا إذا جاءت ، فكذلك عند سرعة الموت لا عثرة تُقال ولا توبة تُنال .

روى مروان بن سالم عن البرُجعي رحمه ، قال : احضروا موتاكم ولقنوم لا إله إلا الله وبشروهم بالجنة ، فإن الخليم العليم يتحير عند ذلك المصرع ، وإن إبليس أقرب ما يكون من العبد في ذلك للموطن عند فراق الدنيا وترك الأعبة .

خُذْ لَا أَبَاكَ الْعَنِيقَ عُدَّةً واحتمل لنفسك إن أردت صلاحها
لا تُفتر فكأننى بعقاب ربي ب الدهر قد نشرت عليك جناحها
ويحك^(١) ! أمن الأخرى عوض ؟ أنتم في الدنيا عرض ، يا من كلما بقى نقض ،
يا من كلما رفع انقض ، يا مجيب الهاء والمرض ، كم شاهدت مسلوباً ، كم عاينت مغلوباً ،
كم مخفوض بعد الرفع ، كم مضروب بعد النفع ، كم مدفوع عن أغراضه أقبح الدفع ، بينما
هو في ثياب أوجاعه ومنى السلامة تخطر في أطاعه ، أسرع الموت ونادى بإسراعه ،
فجبر عن مقاومته أو عن دفاعه ، غارت بين حاله قلوب أتباعه ، واشتغل بضيايع أمره
عن ضيايعه ، وأقبلت قبائله على تقبيله ووداعه ، وبكى لميله إلى الهوى عند نزعه^(٢)
ونزاعه ، وهذا مصيرك فانتبه له وراعيه .

تردُّ بالثبك وأصله يا من إذا حان منك الرد^(٣)

(١) : ١ ويحك . (٢) : ١ : مبه . (٣) : ب : الرد .

وَرَدَّتْ دُنْيَاكَ عَلَى غَيْرَةٍ فَوَيْحَ مَغْرُورٍ عَلَيْهَا وَرَدَّ
إِنْ مَرَّ ذَا الْفَاتِكِ^(١) فِي جِهَلِهِ فليخس يوماً ماله مِنْ مَرَدٍّ

[إخواني^(٢)] [ما بالُ النفوس تعرف حقائق المصير، ولا تعرف عواقب التقصير، وكيف رضيت بالزاد اليسير، وقد علمت طولَ السير، أم كيف أقبلت على التنبذير وقد حذرت غاية التحذير، أما تخاف زلل التمثير إذا حوسبت على القليل والكثير. كان خُلَيْدُ البصرى يقول: كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فعلام نمرّجون وماذا عسى تنتظرون، فهذا الموت أول وارِدٍ عليكم من الله بخير أو بشر. فيا إخوتاه سبروا إلى ربكم سيراً جليلاً.

سَيَكْفِي^(٣) بَعْضُ مَا فَاتَكَ فَلَا تَأْسَ لِمَا فَاتَكَ
وَلَا تَرْكُنْ إِلَى الدُّنْيَا أَمَا تَذْكُرُ أَمْوَالَكَ

دخل بعض المباد على بعض الأمراء فقال له الأمير: ما أزهك وأصبرك. فقال: إن صبري جزع من النار وبزهدى رغبة في الجنة. يا غافلاً في بطلته، يا من لا يفيق من سكرته، أين ندمك على ذنوبك، أين حسرتك على عيوبك، إلى متى تؤذى بالذنب نفسك وتضيع يومك تضييعك أمسك، لأمع الصادقين لك قدّم، ولا مع التائبين لك ندم، هلاً بسطت في الدجى يداً سائلة، وأجريت في المحرّ^(٤) دموعاً سائلة.

خَدَعْتَنَا زَخَافُ الْأُمَالِ فَلَهَوْنَا بِهَا عَنِ الْأَجَالِ
عَجَبِي مِنْ مَوْءَلٍ أَمِنَ السَّرَّ بَهِلَاهِي خُطَّةَ الْأَوْجَالِ
نَحْنُ سَفَرٌ وَإِنَّمَا أَهْلُنَا رَيْثًا نَسْتَعِذُّ لِلتَّرْحَالِ

أُسفاً لمن إذا ربح العاملون خسر، وإذا أطلق المقيّدون أسر، من له إذا خوسم فلم ينتصر، ونُسي يومَ الرحمة فما ذكّر، فالجدُّ الجدُّ أيها النافل فأياهم المعركتها فلائِل.

(١) : ١ : إن مرد القاتل . (٢) : من : ت . (٣) : ت : ستق . (٤) : ١ : في السجود .

سَجَّعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾

[لو رَأَيْتَ المصاةَ والكَرْبَ يشام ، والندم قد أحاط بهم وكفاهم ، والأسف على ما فاتهم قد أضناه ، يتمنون العافية وهبات مناه ، « فَأَنَّى لَمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ »^(١)].
نزل بهم المرض فألقاهم كالجرّس ، فانفكّ أَلْمُهُم وانقبض ، وانعكس عليهم الفرض ، ورحمهم في مَرَعَتِهِمْ مِنْ عَادَاهُمْ « فَأَنَّى لَمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » .

يتمنون عند الموت راحة ، ويشتهون من الكرب استراحة ، ويناقشون على الخطايا ولا سماحة ، فهم كطائرٍ قعتر الصائد جناحه ، في حبس النزع والكرب يشام « فَأَنَّى لَمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » .

يتأسفون وأسفهم أشدّ ما في العلة ، ويتحسرون وتحسرم على ما مضى من زلة ، وجبل ندمهم قد شقّ كأنه ظلّة ، فلو رأيتهم بمد الكبر قد صاروا أذلة ، وتملك أموالهم بمدّم سيّوام « فَأَنَّى لَمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » .

ما نفهم ما تمبوا لتحصيله وجالوا ، ولا ردّ عنهم ما جموا واحتلوا ، جاء للرض فأذلم بعد أن صالوا ، فإذا قال العائد لأهليهم : كيف باتوا ؟ قالوا : إن السقم قد وهّاهم وهّاهم « فَأَنَّى لَمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » .

نزلوا بطون الفلا فلا يُقبل عندهم ، ولا ذوود ينفعهم ، قد أضناه بلاء الليل ، فلو رأيتهم في بلام وهم في يلام « فَأَنَّى لَمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » .

فالبدر البدر قبل التوات ، والحفار الحفار من يوم النفلات ، قبل أن يقول المذنب رب ارجسون فيقال فات ، ويح النافلين عن عقابهم ما أحاهم « فَأَنَّى لَمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » .

نبهنا الله وإياكم من هذه الرقدة وذكرنا وإياكم الموت وما بعده إنه قريب محيٍب .

المجلس الثاني عشر

في قصة يوسف عليه السلام

الحمد لله أحسن الخالقين وأكرم الرازقين ، مكرم الموقنين ومعظم الصادقين ،
ومجمل التفتين ، ومزيل اللثاقين ، حفظ يوسف لملءه بعلم اليقين ، فألبسه عند الهمة دروعاً^(١)
يقين ، وملّكه إذ ملك عنان الهوى ميدان السابقين ، فذلّ له إخوته يوم : « وما كنّا
سارقين » . قالوا لله لقد آتاك الله علينا وإن كنّا لخاطئين .

أحمد حمد الشاكرين وأصل على رسوله محمد أشرف الذاكرين ، وعلى أبي بكر
سابق المبكرين ، وعلى عمر سيد الأمرين بالمعروف والنكيرين ، وعلى عثمان الشهيد
بأبدي الماكرين ، وعلى عليّ إمام العباد المتفكرين ، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الراشدين .

قال الله عز وجل : « نأفك الله آتاك الله علينا » .

كان يعقوب قد ولد في زمن إبراهيم ونبيّ في زمانه أيضاً . وكان هو والعيس
توأمين^(٢) فاختصا بفرج هاربا إلى خاله لابان فزوجه ابنته ليا ، فولدت له روبيل ثم
شمعون ولاوى ويشجب^(٣) ويهوذا وزبالون . ثم توفيت فزوجه راحيل فولدت له
يوسف وبنيامين ، ومعناه ابن الوجد لأنها ماتت في نفاسه ، وولد له من غيرها أربعة
فكان أولاده اثني عشر ، وهم الأسباط .

وكان أحب الخلق إليه يوسف ، فغسده إخوته فاحتالوا عليه ، فقالوا يا يوسف
أما تشتاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيد ؟ فقال : بلى . قالوا : فلأباك أن يرسلك معنا ،
فاستأذنه فأذن له ، فلما أصبحوا أظهرها له ما في أنفسهم من المداوة ، فجعل كلا التجأ
إلى شخص منهم آذاه وضربه ، فلما فطن لما عزموا عليه قال : يا أبناء يا يعقوب لو رأيته
يوسف وما نزل به من إخوته لأحرزتك ذلك وأباكك ، يا أبناء ما أسرع ما نسوا عهدك
وضيعوا وصيتك . فأخذ روبيل فضرب به الأرض وجثم على صدره ليقتله وقال :

(١) : ا : درما . (٢) : سورة يوسف . (٣) : ب : توأما . (٤) : كذا بالأصل وفي تاريخ
ابن كثير : لاساخر .

يأين راحيل قل لرؤياك تخلصك ، وكان قد رأى وهو ابن سبع سنين الشمس والقمر والنجوم ساجدين له . فصاح : يا يهوذا حُلْ بيني وبين من يريد قتلى . فقال يهوذا : ألقوه في غيابة الحب . فزعروا قيصة لإلقائه ، فقال ردّوه علىّ أستر به عورتى ويكون كففاً لى فى مماتى .

فلما ألقوه أخرج الله له حجرا مرتفعا من الماء فاستقرت عليه قدماء ، وكان يعقوب عليه السلام قد أخرج قبيص إبراهيم عليه السلام الذى كُيّه يوم ألقى فى النار فى قصبه وجعلها فى عنق يوسف ، فبعث الله عز وجل ملكا فاستخرج القبيص فألبسه إياه وأضاء له الحبّ وعذّب ماؤه وجاءه جبريل يؤنسه ، فلما أسمى نهض جبريل ليذهب ، فقال له يوسف : إنك إذا خرجت عني استوحشتُ فقال إذا رَهَبْتَ شيئا فقل : يا صريح للتصريحين ويا غياث^(١) للمستغيثين ، ويا مفرّج كرب للكرويين ، قد ترى مكافئ وتعلم حالى ولا يخفى عليك شيء من أسرى . فلما ظلموا حَفَّتْ به اللانكسة فاستأنس بهم .

ودبح إخوته جدّيا فملطخوا به القبيص ، وقالوا أكله الذئب ، ومكث فى الحبّ ثلاثة أيام وإخوته يرفعون حوله ، ويهوذا يأتيه بالقوت .

فلما جاءت السيارة تسقى من الحب تملّقى بالحبّل فأخرجوه ، فجاء إخوة يوسف فقالوا : هذا عبدّ أبىّ منا . فباعوه منهم بشرين درهما وحلّة ونملين .

فحملوه إلى مصر فوقفوه للبيع ، فتزايد الناس فى ثمنه ، حتى بلغ وزنه مِسْكا ووزنه دِرْقا ووزنه حريرا ، واشتراه بذلك قطيع ، وكان أمين مَلِكهم وخازنه ، وقال لامراته زَيْنُخا : أكرمى مثواه . فراودته ففهم منها ، فنجنته إذ لم يوافقها ، فبقى مسجوناً إلى حين منام الملك ، فلما أخرجته من السجن فوّض إليه أمر مصر ، فجمع الأقوات فى زمن الرخاء وباع فى زمن القحط ، فروى أنه باع مَسْكوك^(٢) بَرٍّ بمسكوك دُرٍّ ، وباع أهل مصر بأموالهم وحليهم ومواسيهم وعقارهم وعبيدهم ، ثم بأولادهم ثم برفاقهم ، ثم قال : إني قد اعتقهم ورددت عليهم أموالهم .

(١) : وياغوث . (٢) : المسكوك : مكيال يسع صانا ونصفا

وكان يوسف عليه السلام لا يشيع في تلك الأيام ويقول : أخاف أن أنسى الجائع ! وبلغ التحط إلى كنعان فأرسل يعقوب ولده لليرة ، وقال : يا بني قد بلغنى أن بمصر ملكا صالحا فانطلقوا إليه فأقرئوه منى السلام . فمضوا فدخلوا عليه فمرفهم وأنكروه ، فقال من أين أنتم ؟ فقالوا : من أرض كنعان ، ولنا شيخ يقال له يعقوب ، وهو يتركك السلام . فبكى وعصر عينيه وقال : لعلكم جواسيس . فقالوا : لا والله . قال : فكم أنتم ؟ قالوا : أحد عشر ، وكنا اثني عشر ، فأكل أحدنا الذئب . فقال ائتوني بأخيكم الذى من أيسكم . ثم درج بضاعتهم في رحالم . فمادوا إلى أبيهم ، فقالوا : إنا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل . فقال يعقوب : هل آمنكم عليه إلا كما آمنتمكم على أخيه من قبل ؟ ثم حمه احتياجه إلى الطعام إلى أن أرسله معهم .

فلما دخلوا على يوسف اجلس كل اثنين على مائدة ، فبقى بنيامين وحيدا يبكى ، وقال : لو كان أخى حيا لأجلسى معه فاضمه يوسف إليه وقال : أحب أن أكون أخاك ؟ فقال : أيها الملك ومن يجد أخا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل . فبكى يوسف وقام إليه فاعتنقه وقال أنا أخوك . ثم احتال عليه فوضع الصاع في رحله ، فلما لم يتقدروا على خلاصه أقام يهوذا ورجعوا إلى يعقوب يقولون إن ابنك سرق . فلتقام بصير جميل وانفرد بمحزنه .

قال الحسن : ما فارقة الحزن ثمانين سنة ، وما جفت عيناه ، وما أحد أكرم على الله منه .

ثم إن ملك الموت لقي يعقوب فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ قال : لا . فأصبح يقول لبنيه : « اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » فلما عادوا إليه ببضاعة مزجاة وهى القليلة ، وقفوا موقف الذل ، وقالوا : تصدق علينا . فقال : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » وكشف الحجاب عن نفسه ، فمرفوه فقالوا : « أئنك لأنت يوسف » فحينئذ قالوا : « تالله لقد آتاك الله علينا » . قال الزجاج : تالله بمعنى : والله . إلا أن التاء لا يقرء بها إلا فى الله عز وجل . ولا يجوز : تالرحمن ولا تربي . والتاء تبدل

من الواو كما قالوا في وُرَاث : تراث . وقالوا : يَتَزَن . وأصله يَوَزن ، من الوزن . ومعنى « أَتَرَكَ الله » اختارك وفضلك ، وكان قد فضل عليهم بالحنن والعقل والجلم والصبر وغير ذلك « وإن كُنتما لخاطئين » أى لئذنين آثمين فى أمرك .

« قال : لا تُنْزِبَ عليكم اليوم » أى لا أعيركم بما صنعتم . ثم سألم عن أبيه فقالوا : ذهبت عيناه . فأعطاهم قيصه وقال : « اذهبوا بقيصى هذا فألقوه على وجهِ أبى يأتِ بصيراً » وهو قيص الخليل الذى كان فى عنق يوسف ، وكان من الجنة ، فلما خرجوا من مصر حمل القميصَ يهوذا وقال : أنا حملتُ قيص الدم وما أنا أحل قيص البشارة . فخرج حافياً حاسراً يمدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها ، فقال يعقوب : لمن حضر من أهله وولده ولده : « إئتى لأجدُ ريحَ يوسف لولا أن تُفَنِّدُونِ » أى تسكرون على لأخبرتكم أنه حي .

« فلما أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً » . ثم خرج فى نحو من سبعين من أهله ، وخرج يوسف لتلقيه ، فلما التقيا قال يعقوب : السلام عليك يا مُذْهَب الأحران . فقال يوسف : بكيت يا أبى حتى ذهب بصرُك ، أما علمت أن القيامة تجمعنى وإياك ! فقال : يا بنى خشيتُ أن يُسَلِّبَ دينك فلا يجتمع !

وكان يوسف عليه السلام يركب فى كل شهر ركبة فى ثمانمائة ألف ، ومعه ألف لواء وألف سيف ، فيدور فى عمله فينصف المظلوم من الظالم .

وكانت زليخا تلبس جبة صوف وتشدّ وسطها بحبل من ليف وتقف على قارعة الطريق فتناديه فلا يسمع ، فنادته يوماً : أيتها العزيز سبحان من جعل العبيد بالطاعة ملوكاً وجعل للولك بالمعصية عبيدا ! فسمعها فبكى وقال لفناه : انطلق بهذه المعجوز إلى الدار واقتض لها كل حاجة . فقال لها الغلام : ما حاجتك يا عجوز ؟ فقالت : حاجتى محرمة أن يقضيا غير يوسف . فلما جاء يوسف قال : من أنت يا عجوز ؟ فقالت : أنا زليخا . قال : ما فعل حُسنك وجمالك ؟ قالت ذهب به الذى أذهب ذلكَ ومَسَكْتِكَ . فقال : يا زليخا عندى قضاء ثلاث حوائج فسلى ، فوحي شعبة إبراهيم لأقضيها . فقالت : حاجتى الأولى

أن تدعو الله لي أن يرده عليّ بصرى وشبابي . فدعا لها ، فردّ الله عليها بصرها وشبابها . ثم قالت : ادع الله أن يرده عليّ حُسنى كما كان . فدعا لها ، فردّ عليها حسنها وزيد فيه . فصارت كأنها بنت ثمانية عشرة سنة وكان لها من العمر مائة وعشرون سنة . فقالت وحاجتى الثانية أن تسأل الله تعالى أن يفرّج لي ما كان مني . وحاجتى الثالثة أن تزوج بى . فزوج بها فأصابها بكر أو أولدها اثني عشر ولدا . ذكر هذا أبو الحسين بن المداى وغيره عن وهب ^(١) .

وأقام يعقوب عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أهناً عيش ، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمله إلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحاق ، ففعل . ثم إن يوسف عليه السلام رأى أن أمره قد تم فقال : « توفني مسلماً » وأوصى إلى يهوذا .

فتلّحوا علوّ قدر يعقوب ببلاده وعزّ يوسف في صبره ، وليكن حظكم من هذه القصة : « إنه من يتقى ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وليتفكر العاصي في لذات فنيته وتبعات بقيته ، وليتدبر الصابر لذة تدبيره ثبتّت ومرارة مصابرة خلّت ^(٢) ، والأمر بآخره والمواقب يعمل للتيقظ .

رزقنا الله وإياكم صبراً يربّنا ، وعصمة من هوّى بشيننا ، إنه إن فعلت سدت دنيانا وديننا ، إنه قريب مجيب .

الكلام على البسمة

إلى أى حين أنت في صَبْوَةٍ لاهي أمالك من شيء وعظمت به ناهي

(١) كان وهب بن منبه يتزهد في أخباره ولا يتحرى الدقة فيما يرويه ، وكان عنده أن حكاية الرقائق والجانب يتسامح فيها ، ما دامت لا تحوى أحكاماً أو شرائع . لكن منهج الإسلام يضيق بالأساطير ويغفر من حكاية الأخبار غير اللوثة .

(٢) كذا في ت . وفي ب : لغة مرعبة ثبتت ومرارة مصابرة خلّت .

وَيَا مُذْنِبًا يَرْجُو مِنْ اللَّهِ عَفْوَهُ أَتَرْضَىٰ بِسَبْقِ التَّائِبِينَ إِلَى اللَّهِ
يَا مَارِزًا بِالْمِظَاطِمِ كَيْفَ أَمِنْتَ فَنَمْتَ ، يَا مَصْرًا عَلَى الْجَوَارِمِ مِجَالًا إِنْ سَلَمْتَ ،
يَا مَبْذُرًا مُنْذِرًا كَأَنَّهُ مَا يَسْمَعُ ، إِنْ فَاجَأَكَ ^(١) الْعَذَابُ فَمَاذَا تَصْنَعُ ، تَذَرُ عَقْبِي أَبِي الْآبَاءِ إِلَى
مَا آتَبَ ^(٢) ، وَتَفْكَرُ فِي حَالِ الْمَذْنِبِينَ فَيَنْسُ الْمَآبَ ، يَبْقَامُ فِي أَمْنٍ قَدْ فُرِّقَ بَيْنَهُمْ وَتَعَقَّ
بَيْنَهُمُ اللَّيْنُ غُرَابٌ ، فَرَأَيْتَ رُكَامَ الْمَوَامِ عَلَيْهِمْ فِي الْهَوَاءِ وَالْعُتَابِ ، وَمَرَّ مَرِيرَ الرَّبِّ
فَشَى فِي الْمَشَارِعِ الْعِذَابِ ، وَامْتَدَّ سَاعِدُ الْبَلَاءِ إِلَى إِغْلَاقِ بَابِ الْعِتَابِ ، وَسَلَّوْا عَنْ
جُورِهِمْ فَقَوَى قَلْقُ الْجَوَى فِي الْجَوَابِ ، وَذَاقُوا بَعْدَ حِلَاوَةِ الْخِلَافِ مِنْ أَخْلَافِ الْأَوْصَابِ
الصَّابِ ، وَانْتَقَى الْإِنْتِقَامَ نَقَى لَذَاتِهِمْ نَفَلَتْ مِمَّا لَذَّ أَوْ طَلَبَ ، وَنَشَبَتْ فِي شَيْبِهِمْ وَشَبَابِهِمْ
شَبَابُ سَيْفِ الدِّمِ وَعَتَا الْعِتَابِ ، وَدَخَلُوا إِلَى نَارِ شَهَابٍ أَوْصَافُهَا قَبْلُ أَنْ يُنْتَهَى إِلَى
الْإِتِهَابِ ، فَلَمَّا سَالَتِ الْعِيُونَ دَمْعًا قَرَعُوا بِالْأَنَامِلِ نَدْمًا لِمَا نَابَ النَّابَ وَحَطَّ مِنْ رَبِّهَا مِنْهُمْ
عَلَى الرَّبِّ فَاسْتَبَدَلَ صَوْتَ الْأُنْسَى عَنِ الرَّبِّ بَابَ ، فَاحْذَرُوا أَنْ يَصِيبَكُمْ مِنْ نَصِيبِكُمْ مِثْلُ
حَصَصِهِمْ ، فَلَقَدْ كَانَ فِي قِصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ .

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِرًا جَمَعَتْ بِهِمْ تِلْكَ الطَّبِيعَةُ نَحْوَ كُلِّ تَبَاكِ
نَهَوَى نَفْسَهُمْ هَوَى أَجْسَامِهِمْ ^(٣) شُفْلًا بِكُلِّ دَنَاءَةٍ وَصَفَارٍ
تَبِعُوا الْهَوَى فَهَوَى بِهِمْ وَكَذَا الْهَوَى مِنْهُ الْمَوَانُ بِأَهْلِهِ لِحْذَارٍ
فَانْظُرْ بِعَيْنِ الْحَقِّ لَا عَيْنَ الْهَوَى فَالْحَقُّ لِلْعَيْنِ الْجَلِيلَةِ عَارٍ
قَادَ الْهَوَى النَّجَّارَ فَانْقَادُوا لَهُ وَأَبَتْ عَلَيْهِ مَقَادَةُ الْأَبْرَارِ

إِخْرَافِي : مَنْ فَعَلَ مَا يَحِبُّ لِقَى مَا يَكْرَهُ ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى مَا يَكْرَهُ مَا لَا يَحِبُّ ، لَا تَقْطَعُ
مِشَاوَرَةَ الْعَقْلِ قَبْلَ مِشَاوَرَةِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْمُسْقِدَ بِرَأْيِهِ وَقَفَّ عَلَى مَدَاحِضِ الزَّلَلِ ، لَمْ تَزَلْ
أَكْفُ الْعَقْلَ ضَابِطَةً أَعْنَتِ النَّفْسُ غَيْرَ أَنَّ الْقَرْمَ يَنْقَلِبُ ، رُكُوبُ الْأَخْطَارِ يَسُوقُ
الْإِقْدَارَ ، مَنْ قَرَأَ وَالنَّاسُ نِيَامُ تَسَكُّمٌ وَالنَّاسُ سَكَوَتْ .

وَهَبَ بَعْضُ الْمُلُوكِ جَارِيَةً يَحِبُّهَا . فَقَالَ لِلْوُهَّابِ لَهُ : لَا أَفَرِّقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَنْ

(١) قى ب : تاجاه ، محرفة . (٢) كذا فى ت . ولى ب : أنا الآن . محرفة .

(٣) الأصل : جسومهم محرفة .

هواه . فقال : خذها وإن كنت أحبها ليعلم هوائى أنى غير طائع له ^(١) .
وقيل للرمث : إن فلانا يمشى على الماء . فقال : إن من مكنته الله عز وجل من مخالفة
هواه أعظم من المشى على الماء ^(٢) !

فإن المرء حين يسر حلو وإن الحلو حين يضمر مرء
تفد مرء تصادف منه نفعا ^(٣) ولا تمدل إلى حلو يضمر
صابرٌ ليل البلاء فقد دنا الفجر ، واثبت لعمل نهارٍ العمر تشوف الأجر ، واحبس
نفسك عن هواها فينبغك الحجر ، وارجز لها فإن لم تسر بالرجز فبالزجر ، مانال من
نال مانال إلا بالصبر ، وبه علاذ كبر كل عابد وحبر ، وهو وإن سررت مذاقته بانت
حلاوته في القبر ، أيها النائم وهو منتبه ، للتحير في أمرٍ لا يشقه ، يامن قد صاح به
الموت في سلب صاحبه وهو منورٍ بجهله مفتون بلمبه ، ياواقعا مع الهوى والطبع ،
أأمنت شين القلب بالغتم والطبع .

[باعتظم الشقاق بأقليلِ الوفاق ياترير اللذاق ، ياقبيح الأخلاق ، يا كثير التواني
قد سار الرفاق ، يا شديد التماهى قد صعب اللعاق ، إخلاصك معدوم وما للنفاق نفاق ،
ومعاصيك فى ازدياد والعمر فى انمحاق ، وساعى أجلك يحذ كأنه فى سباق ، لا الوعظ
ينذكرك ولا الموت يزجرك ، ما نطاق] ^(٤) .

اترك الشر ولا تأنس بشر
هذه الأجسام تروى هامد
جدد من أربع تلحظها
فمجبب فرح النفس إذا
مستأثر خائن فى نصحه
فانسل الخير وأمل غببه
وتواضع إنما أنت بشر
فن الجمل افتخار وأشر
سبعة من فوقها فى اثنى عشر
شاع فى الأرض ثناها وانتشر
وأمين ناصح لم يستشر
فهو الذخر إذا الله حشر

(١) ذم الهوى ص ٢٦ . (٢) ذم الهوى ص ٣٠ . (٣) ب : حلوا .

(٤) ما بين التوسين مكرر ، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى ص ...

أضمر الخليفة وأظهر ندماً قلّ ما حرّز الطرفُ للذي حين ضمّر
وهي الدنيا إذاها أبدا زُمراً واردةً بعد^(١) زُمّر
في حياة كخيال طارِقٍ شغل الفكر وخلاك ومَرّ

الكلوم على قور تعالى

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾

أصل القضاء الختم . وهو في القرآن على ثلاثة عشر وجهاً : أحدها الفراغ : « فإذا قضيت الصلاة^(٢) » والثاني الفعل : « فاقض ما أنت قاض^(٣) » والثالث : الإعلام : « وقصينا إلى بني إسرائيل^(٤) » والرابع : الموت : « ليقض علينا ربك^(٥) » والخامس وجوب المذاب : « وقضى الأمر^(٦) » والسادس التمام : « من قبلي أن يقضى إليك وحيه^(٧) » والسابع الفصل : « وقضى بينهم بالحق^(٨) » والثامن الخلق : « فقضاهن سبع سموات^(٩) » والتاسع الختم : « وكان أمراً مقضياً^(١٠) » والعاشر : ذبح الموت « إذ قضى الأمر^(١١) » والحادي عشر : إغلاق أبواب جهنم « وقال الشيطان لما قضي الأمر^(١٢) » والثاني عشر الحكم : « حرّجاً بما قضيت^(١٣) » والثالث عشر : الأمر : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه^(١٤) » .

قوله تعالى : « وبالوالدين إحساناً » وهو البرّ والإكرام « إنا يبلّغنا » قال القراء : جعلت يبلّغنا فعلاً لأحدهما ، وكرر عليه « كلاهما » وقرأ حمزة والكسائي : « يبلّغان » على التثنية ، لأنهما قد ذكرّا قبل ذلك . ثم قال : « أحدهما أو كلاهما » على الاستئناف كقوله « فمّموا ومّموا » ثم استأنف فقال : « كثير منهم » .
« فلا تقلّ لما أفت » أي لا تقلّ لها كلاماً تنبهم فيه بهما إذا كبرا ؛ قال أبو منصور

(١) لائر زمر . (٢) سورة الجمعة . (٣) سورة طه ٧٢ . (٤) سورة الإسراء ٤ .
(٥) سورة الزخرف ٧٧ . (٦) سورة هود ٤٤ . (٧) سورة طه ١١٤ . (٨) سورة الزمر ٧٥ .
(٩) سورة فصلت ١٢ . (١٠) سورة مريم ٢١ . (١١) سورة الزمر ٦٩ .
(١٢) سورة إبراهيم ٢٢ . (١٣) سورة النساء ٦٥ . (١٤) سورة الإسراء ٢٣ .

اللعوى : أصل أف نفخك الشيء يسقط عليك من تراب أو نحوه ، وللسكان تريد إمالة الأذى عنه ، فقلت لكل مُسْتَقَلَّ .

قوله تعالى . « ولا تنهرا » أى لا تكلمهما صَخِيراً صائِماً في وجوههما . قال عطاء بن أبي رباح : لا تنفض يدك عليهما . قال العلماء : إنما نهى عن الأذى لهما في حالة الكِبَرِ وإن كان منجياً عنه في كل حال ، لأن حال الكبر يظهر فيها منهما ما يضر ويؤذى ، وتكثر خدمتهما .

« وَقُلْ لهما قَوْلًا كَرِيمًا » أى لينا لطيفاً أحسن ما نجد . وقال سعيد بن السيب : قول العبد التذلل للسيد فقط .

« واخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ » أى اَلِنْ لهما جانبك متذللاً لهما من رحمتك إياهما . وخفض الجناح عبارة عن السكون وترك التصب والإيذاء « وقُلْ رَبِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً » أى مثل رحمتها إياي في صغري حين ربياني .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن علي ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، أنبأنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا وكيع ، حدثنا مسعر وسفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن أبي المباسم المكي ، عن عبد الله بن عمر ، قال : جاء رجل يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَحْيِ وَالْهَكَ ؟ » قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد .

أخرجاه في الصحيحين .

وبالإسناد حدثنا وكيع ، قال حدثنا سفيان ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يجزى ولدٌ والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه » .

أخبرنا علي بن عبد الله بن أحمد بن الحسن ، وعبد الرحمن بن محمد ، قالوا حدثنا عبد الصمد بن المأمون ، أنبأنا علي بن عمر السكري ، حدثنا محمد بن علي بن حرب ،

حدثنا سليمان بن عمر ، حدثنا عيسى بن يونس . ح . وأنبأنا علي بن عبد الله ، ومحمد ابن عبد الباقي ، أنبأنا أبو محمد الصريفي ، أنبأنا أبو حفص الكِنَافِي ، أنبأنا أبو عبد الله ابن مخلد ، حدثنا يونس بن يعقوب ، حدثنا علي بن عاصم . ح . وأنبأنا محمد بن عبد الباقي ، أنبأنا أبو إسحاق البرمكي ، حدثنا أبو محمد بن مامى ، أنبأنا أبو مسلم الكجى ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، عن يَزِيد بن حكيم بن معوية بن حيدة التشيرى ، عن أبيه عن جده ، قال قلت : يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك . قلت : ثم من ؟ قال : أمك . قلت : ثم من ؟ قال : أمك . ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب .

أخبرنا عمر بن ظفر ، أنبأنا أبو غالب الباقلاوى ، أخبرنا القاضى أبو الصلاء الواسطى ، أنبأنا أبو نصر النيازكى ، أنبأنا أبو الخليل الكرماني ، حدثنا البخارى ، حدثنا سعيد بن أبى مریم ، أنبأنا محمد بن أبى جعفر بن أبى كثير ، أخبرنى زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أتاه رجل فقال : إني خطبت امرأة فأبَتْ أن تنكحني ، وخطبتها غيرة فأحبَّت أن تنكحه ففرت عليها فقتلتها ، فهل من توبة ؟ قال : أمك حية ؟ قال : لا . قال : تب إلى الله عز وجل وتقرَّب إليه ما استطعت . فالتُ ابن عباس : لم سألتك عن حياة أمه ؟ قال : إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من يرُّ الوالدة .

وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمه فقال : السلام عليك يا أماه ورحمة الله وبركاته . فتقول : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فيقول : رحمك الله كما ربيتني صغيراً . فتقول : رحمك الله كما بررتني كبيراً . وإذا أراد أن يدخل صنع مثل ذلك .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رجالان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبرَّ من كان في هذه الأمة بأمرهما : عثمان بن عفان وحارثة بن النعمان رضى الله عنهما . أتانا عثمان فإنه قال : ما قدرت أنأمل وجه أمى منذ أسلتُ . وأما حارثة فكان يطعمها

بيده ولم يستفهما كلاما قط تأمره به حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج : ماذا قالت أمي ؟
وكان حُجْر بن عدى ^(١) بن الأذْبَر يلتمس فراش أمه بيده فيتهم غَلَط يده ،
فينقلب عليه على ظهره ، فإذا أمين أن يكون عليه شيء أضجَمها .

وكان ظَبْيَان بن علي من أبرّ الناس بأمه ، فبانت ليلةً وفي صدرها عليه شيء فقام
على رجله قائماً يكره أن يوقظها ويكره أن يقعد ، حتى إذا ضعف جاء غلامان من
غلمانِه فإزالا محمداً عليهما حتى استيقظت من قبَل نفسها .
وكان محمد بن سيرين لا يكلم أمه بلسانه كلمة مخشاً لها .

وكان محمد بن المنكدر يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه : ضعي قدمك عليه !
وقال ابن المنكدر : بت أغرز رجل أمي وبات أخى عمر يصلى ، وما يسترني أن
يلقى بليته !

وروينا عن ابن عون أن أمه نادته فأجابها ، فدلا صوته على صوتها ،
فأعتق رقبتي .

وقال بشر الحافي : الولد يقرب من أمه بحيث يُسمع أمه أفضل من الذي يضرب
بسيفه في سبيل الله ، والنظر إليها أفضل من كل شيء !

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر في الكبائر
عقوق الوالدين . وفيهما من حديث جبير بن مطعم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« لا يدخل الجنة قاطع » قال سفيان : قاطع رحم .

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يدخل
الجنة عاق .

وقال محمد بن محبوب : من مشى بين يدي أبيه فقد عَقَّه إلا أن يمشى فيميط الأذى
عن طريقه ، ومن دعا أباه باسمه أو بكنته فقد عَقَّه إلا أن يقول يا أبت .

(١) ب : ابن عتي .

وفي حديث أبي أسيد أن رجلا قال : يا رسول الله هل بقي من برِّ أبوي شيء بعد موتهما ؟ قال : « نعم خصال أربع : الدعاء والاستغفار لهما وإيفاء عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما » .

وروى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أبرُّ البرِّ صلة للزَّاهلِ وأبرُّ أهله وذَّاهله بعد أن توفي .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن اللّذهب ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، أنبأنا عبد الله ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين ، عن زياد ، عن سهل ابن معاذ بن أنس الجهفي ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى عبدا لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولا ينظر إليهم . قيل له : من أولئك يا رسول الله ؟ قال متبرئ من والديه راغب عنهما ، ومتبرئ من ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم » .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه . قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » .

سمع على قوله تعالى

﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَارِئِيَانِي صَغِيرَا ﴾

الويل كل الويل لماق والديه ، وانلزي كل انلزي لمن ماتا غَضَاباً^(١) عليه ، أفَّ له هل جزاء الحسن^(٢) إلا الإحسان إليه ، أتُبع^(٣) الآن تَفَرُّطُكَ في حقهما أنيتا وزَفِيرَا ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَارِئِيَانِي صَغِيرَا ﴾ .

(١) ت : غضابين . (٢) ب : الإحسان . (٣) ب : ابع الآن . عرفة .

كَمْ أَتْرَاكَ بِالشَّهَوَاتِ عَلَى النَّفْسِ ، وَلَوْ غَبَتَ سَاعَةً صَارَا فِي حَبْسٍ ، حَيَاتُهُمَا عِنْدَكَ
بَقَايَا شَمْسٍ ، لَقَدْ رَاعَيْكَ طَوِيلًا فَارْعَمَهُمَا قَصِيرًا ، « وَقُلْ رَبُّ أَرْحَمُهُمَا كَارِبِّيَانِي صَغِيرَا » .
كَمْ لَيْلَةٍ سَهَرَا مَعَكَ إِلَى الْفَجْرِ ، يَدَارِيَانِكَ مَدَارَةَ الْعَاشِقِ فِي الْهَجْرِ ، فَإِنْ مَرَضْتَ
أَجْرِيَا دَمْعًا لَمْ يَبْخُرْ ، تَالَلَّهِ لَمْ يَرْضِيَا لَتَرِيَّتِكَ غَيْرَ الْكَفِّ وَالْحَجَرِ سَرِيرَا « وَقُلْ رَبُّ أَرْحَمُهُمَا
كَارِبِّيَانِي صَغِيرَا » .

يَمَاجِلَانِ ^(١) أَنْجَاسِكَ وَيَمْحَانِ ^(٢) بَقَاكَ ، وَلَوْ لَقِيتَ مِنْهُمَا أَذَى شَكُوتِ شَقَاكَ ،
مَا تَشْتَاكُ لَهَا إِذَا غَلَا وَيَشْتَقَاكُنْ لِقَاكَ ، كَمْ جَرَّعَكَ حُلُوهَا وَجَرَّعَتْهُمَا مَرِيرَا « وَقُلْ رَبُّ
أَرْحَمُهُمَا كَارِبِّيَانِي صَغِيرَا » .

أَتَحْسُنُ الْإِسَاءَةَ فِي مَقَابِلَةِ الْإِحْسَانِ ، أَوْ مَا تَأْنِفُ ^(٣) الْإِنْسَانِيَّةُ لِلْإِنْسَانِ ، كَيْفَ
تَعَارِضُ حُسْنَ فَضْلِهِمَا بِقُبْحِ الْمَعْصِيَانِ ، ثُمَّ تَرْفَعُ عَلَيْهِمَا صَوْتًا جَهِيرًا « وَقُلْ رَبُّ أَرْحَمُهُمَا
كَارِبِّيَانِي صَغِيرَا » .

تَحِبُّ أَوْلَادَكَ طَبْعًا ، فَأَحْبِبِّ وَالِدَيْكَ شَرْعًا ، وَارْعَ أَصْلًا أَتَمَرَكَ فِرْعَا ، وَاذْكُرْ
لَطْفَهُمَا بِكَ وَطِيبِ الرَّعْيَ أَوَّلًا وَأَخِيرًا « وَقُلْ رَبُّ أَرْحَمُهُمَا كَارِبِّيَانِي صَغِيرَا » .

تَصَدِّقُ عَنْهُمَا إِنْ كَانَا مَيِّتِينَ ، وَصَلُّ لَهَا وَاقِضْ عَنْهُمَا الدِّينَ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهَا وَاسْتَدِمِ
هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ ، وَمَا تُكَلِّفُ إِلَّا أَمْرًا يَسِيرًا « وَقُلْ رَبُّ أَرْحَمُهُمَا كَارِبِّيَانِي صَغِيرَا » .

(١) ب : يماجلون . (٢) ت : ويمحاران . (٣) ب : أو تأنف .

المجلس الثالث عشر

في قصة أيوب عليه السلام

الحمد لله الذي ابتعث بلطفه السحاب ، فروى الأودية والمضارب ، وأنبت الحدائق وأخرج الأعناب ، وألبس الأرض نباتاً أحسن من ثياب^(١) الثَّأَب ، يبتلى لِيُدْعَى وإذا دُعِيَ أجاب ، قضى على آدم بالذنب ثم قضى أن تاب ، ورفع إدريسَ بلطفه إلى أكرم جناب ، وأرسل الطوفان وكانت السفينة من المُجَاب ، ونجى الخليلَ من نار شديدة الالتها ب ، وكانت سلامة يوسف عيرةً لأولى الألباب ، وشدد البلاء على أيوب فقارقه الأهل والأصحاب ، وعرضه البلاء إلى أن كَلَّ الظُّفر والنا ب ، فنادى مستغيثاً بالمولى فجاء الجواب « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » .

أحمد حمد من أخلص وأتاب ، وأصل على رسوله أفضل نبي نزل عليه أفضل كتاب ، وعلى صاحبه أبي بكر مقدم الأصحاب ، وعلى الفاروق عمر بن الخطاب ، وعلى عثمان شهيد الدار وقيل الخراب ، وعلى عليٍّ للهيب وما سلَّ سيقاً بعد من قربان ، وعلى عه العباسي المقدم نسبة على الأنساب .

قال الله عز وجل : « واذكُرْ عَبْدَنَا أَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُحْسٍ وَعَذَابٍ »^(٢) أيوب اسم أعجمي ، وهو أيوب بن أموص بن رزاح^(٣) بن اليسع ابن إسحاق بن إبراهيم . وأبوه عن آمن بالليل يوم أحرق ، وأمه بنت لوط النبي عليه السلام . وكان أيوب في زمن يعقوب عليه السلام ، فتزوج ابنة يعقوب وكان غزير المال كثير الضيافة ، وكان إبليس لا يُحِبُّ يومئذ من السموات ، فسمع تجاوب للأنكة بالصلاة على أيوب فغسه فقال : يارب لو صدمت أيوب بالبلاء لكفر ، فسلطني عليه . فقالت : قد سلطتك على ماله وولده . فجمع إبليس جنوده فأرسل بعضهم إلى دوابه وبعضهم إلى زرعهم وبعضهم إلى أولاده ، وكان له ثلاثة عشر ولداً . وقال إبليس لأصحابه

(١) ب : من نبات الثياب . ولعلها عرلة . (٢) سورة الأنبياء . (٣) ت : ابن رزاح .

تأبوه للمصائب^(١) بعضها إثر بعض . فجاء صاحب الزرع فقال : يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى زرعك ناراً فأحرقته . وقال . راعى الإبل ألم تر إلى ربك أرسل غَدَاً^(٢) فذهبت بالإبل . وقال كذلك صاحب البقر والغنم . فقال : الحمد لله الذي رزقني وقيله متى . وتفرد إبليس لبنيه فجمع أركان البيت فهدمه عليهم وجاء فقال : يا أيوب إن البيت وقع على بنيك ، فلو رأيت كيف اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم . فقال : لو كان فيك خير لقبضك معهم فانصرف خائباً . فقال : يارب سلطني على جسده فسلط فنفخ تحت قدميه نفخة فقرح بدنه . قال مجاهد : أول من أصابه الجدري أيوب . وقال وهب : كان يخرج عليه مثل ثديا النساء ثم يتفقأ . قال العلماء : لم يبق منه إلا اللسان لذكروا القلب للمعرفة ، وكان يرى معاً وعروقه وعظامه ، ووقعت به حكة لا يملكها ، فحك بأظفاره فسقطت ، ثم بالسوح ثم بالحجارة وأنتن جسده وتقطع ، وأخرجه أهل القرية فجعلوا له عريشا على كتاسة ، ورفضه الخلق سوى زوجته رحمة بنت أفراهيم بن يوسف ابن يعقوب ، فكانت تختلف إليه بما يصلحه .

وفي مدة لبثه في البلاء أربعة أقوال : أحدها : ثمان عشرة سنة . رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني : سبع سنين . قاله ابن عباس وكعب . والثالث : سبع سنين وأشهر قاله الحسن . والرابع : ثلاث سنين . قاله وهب .

وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال : أحدها أنه اشتبه أذماً فلم تصبه امرأته حتى باعت قرناً من شعرها ، فلما علم ذلك قال : مسني الضر . رواه الضحاك عن ابن عباس . والثاني : أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره لله تعالى ، فلما انتهى زمان البلاء ألهمه الله تعالى الدعاء . رواه القوفي عن ابن عباس . والثالث : أن نفرا من بني إسرائيل مروا به فقال بعضهم : ما أصابه هذا إلا بذنوب عظيم . فمئذها دعا . قاله توفى البكالي . وقال عبد الله بن عبيد بن عمر : كان له أخوان فأتياه يوماً فوجدا رجماً فقالا : لو كان الله علم منه خيراً ما بلغ به هذا . فما سمع شيئاً أشد عليه من ذلك ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أني

(١) ت : أبوه بالمصائب بعضها على إثر بعض . (٢) ت : عدوا فذهب ، والتدد : طاعون الإبل .

لم أبت ليلة شعبان وأنا أعلم مكان جائع فصدّقتى . فصُدّق وهما يسمعان . ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أنى لم ألبس قميصا وأنا أعلم مكان عار فصدّقتى . فصُدّق ، وهما يسمعان . نفر ساجدا ثم قال : اللهم لا أرفع رأسى حتى تكشف ما بى . فكشف ما به . والرابع : أن إبليس جاء إلى زوجته بسَخْلِه^(١) فقال : ليذبح أیوب هذه لى وقد برأ . فجاءت فأخبرته فقال : إن شفانى الله لأجلدك مائة جلدة ، أمرتنى أن أذبح لنفر الله . ثم طردها عنه فذهبت فلما رأى أنه لا طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجدا وقال : تَسْتِ الضر . قاله الحسن . والخامس أن الله أوحى إليه فى عنقوان شبابه : إنى مبتليک . فقال : يارب وأین يكون قلبى . قال : عندى فصب عليه من البلاء حتى إذا بلغ البلاء منتهاه أوحى الله : إنى معافیک قال : يارب وأین يكون قلبى . قال : عندك . قال : تَسْتِ الضر . قاله إبراهيم ابن شيبان . والسادس : أن الوحى انقطع عنه أربعين يوما ، تخاف هجران ربه فقال : مسنى الضر ذكره اللوردي .

ومعنى : « نادى ربه » دعا وإما أضاف الأمر إلى الشيطان لأن الشيطان سَلَطَ عليه . قوله تعالى : « بَنُصِب » قرأ الحسن : « بَنَصَب » بفتح النون والصاد . قال الثراء : هما كالأرشد والرشد . وقال أبو عبيدة : النُصْب بضم النون والصاد : الشر . ويحريكها الإعياء . والمراد : بالمذابب الآلیم .

قوله تعالى : « اركض برجلک » . قال المفسرون : جاءه جبريل فأخذه بيده فقال : قم . فقام فقال : اركض برجلک . فركض فنبعت عين ، فقال : اغتسل . فغتسل . ثم نماه قال اركض برجلک فركض . فنبعت عين فقال اثرب فثرب . قال « هذا مُفْتَل » قال ابن قتيبة : المفتل : الماء ، وهو المفضول أيضا . ثم ألبسه جبريل حلة من الجنة . وجاءت امرأته فقالت : يا عبد الله أين المبتلى الذى كان هاهنا لعل الذئب ذهب به . فقال : ويحك أنا أیوب . فقالت : اتق الله ولا تسخر بى . قال ابن مسعود رَدَّ الله عليه أهله بأعيانهم وآتاه مثلهم معهم فى الدنيا . قال ابن عباس : كانت قد ولدت له سبع بنين وسبع بنات . فَنَشَرُوا له وولدت

(١) السخلة : ولد الشاة .

له تسعة بنين وسبع بنات . وقال مجاهد : آتاه الله أجور أهل في الآخرة وآتاه مثلهم في الدنيا .

قوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا » كان قد حلف ليحلبن زوجته مائة جلدة .

وفي سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال : أحدها : حديث السخلة الذي سبق . والثاني : أن إبليس جلس في طريق زوجته كأنه طيب ، فقالت له : عبد الله هاننا رجل مبتلى ، فهل لك أن ندأويه ؟ قال : نعم إنى شافيه على أن يقول لي إذا برأ أنت شفيقتي . فجاءت فأخبرته فقال : ذاك الشيطان ، لله على أن شفاني الله أن أجلك مائة . قاله ابن عباس . والثالث : أن إبليس لقيها فقال : أنا الذي فلتت بزوجك وأنا إله الأرض ، وما أخذته منه فهو بيدي فانطلقني فأريك . فشئ غير بعيد ثم سحر بصرها فأراها واديا عميقا فيه أهلها ومالها وولدها ، فأتت أيوب عليه السلام فأخبرته فقال : ذاك الشيطان ، ويحك كيف وعى سمك قوله ، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة . قاله وهب .

وأما الضنث فقال ابن قتيبة هو الحزمة من الللال والعيدان . قال المفسرون : جرى الله زوجته بحسن صبرها أن أفتاه في ضربها ، فسهل الأمر ، فجمع لها مائة عود وقيل مائة سنبله ، وقيل كانت أسلا ، وقيل كانت شماريح ، فضربها ضربة واحدة .

وهل ذلك خاص له أم عام ؟ فيه مذهبان : أحدهما أنه عام . قاله ابن عباس وعطاء والثاني : خاص له . قاله مجاهد . وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة ، فقال مالك والليث بن سعد : لا يبر . وهو قول أصحابنا . وقال أبو حنيفة والشافعي إذا أصابه في الضربة الواحدة كل واحد منها فقد بر ، واحتجوا بصوم قصة أيوب .

قوله تعالى : « إنا وجدناه صابرا » قال مجاهد يحيا بالريض يوم القيامة فيقال : ما منعك أن تعبدني ؟ فيقول : يارب ابتليتني . فيجاء بأيوب في ضربه فيقول : أنت كنت أشد ضرا أم هذا ؟ فيقول بل هذا . فيقول : هذا لم يمنعه ذلك أن عبدني أ ما ضرت أيوب ماجرى ، كأنه سنة كرى ، ثم شاعت مداخمه بين الوري ، وإنما يصبر من فهم العواقب ودرى .

السلام على البسمة

منافسة الهوى فيما يزول على قصان همة دليل
ومختار القليل أقل منه وكل فوائد الدنيا قليل

يا قليل الصبر عن اللهو والعبث ، يامن كلما عاهد غدر ونسكث ، يامفترا بساخر الهوى
كلما نفث ، تالله لقد بولغ في توييحه وما اكثرت ، وبمث إليه النذير ولا يدري من
العبث من بمث ، سيندم من للقبيح حرث ، سيبيكي زمان الهوى حين الظما عند اللهث ،
سيمرف خبره اليامى إذا حل الحدث ، سيرى سيره إذا ناقش المسائل وبمحث ، سيقزع
من الندم إذا نادى ولم يث ، عجباً لجاهل باع تعذيب النفوس براحات الجثث .
كان الشبلى يقول : لا تنفتر بدار لا بد من الرحيل عنها ، ولا تخرب داراً لا بد
من الخلود [فيها] ^(١) .

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي ، أنبأنا أبو بكر الخطيب ، أنبأنا الحسن بن أحمد الدورقي ،
حدثنا جعفر بن محمد بن أحمد المذؤب ، حدثنا محمد بن يونس ، حدثنا شداد بن علي الهرازي ،
حدثنا عبد الواحد بن زيد ، قال . مررت براهب فناديته : يراهب من ^(٢) تعبد ؟ قال :
الذي خلقتني وخلقتك . قلت عظيم هو ؟ قال : قد جاوزت عظمتك كل شيء . قلت فمقي
يفوق العبد حلوة الأنس بالله ؟ قال : إذا صفا الود وخلصت المعاملة . قلت فمقي يصفو
الود ؟ قال : إذا اجتمع الهم في الطاعة . قلت فمقي تخلص المعاملة ؟ قال : إذا كان الهم
هما واحدا . قلت فكيف تخلت بالوحدة ؟ قال : لو دقت حلوة الوحدة لا ستوحشت
إليها من نفسك . قلت : فما أكثر ما يجد العبد من الوحدة . قال : الراحة من مداوكة
الناس والسلامة من شرم . قلت : بماذا يستعان على قسلة الطعام ؟ قال : بالصبر في
الكسب . قلت : زدني خيالا . قال كل حلالة وارقد حيث شئت . قلت : فأين طريق
الراحة ؟ قال : خلاف الهوى . قلت : لم تعلقت في هذه الصومعة ؟ قال : من مشى على

(١) سقطت من ب . (٢) به : لمن تعبد .

الأرض عثر ، فتعصنت بمن في السماء من فتنة أهل الأرض لأنهم سُراق العقول ، وذلك أن القلب إذا صفا ضاقت عليه الأرض فأحبَّ قرب السماء . قلت : يا راهب من أين تأكل ؟ قال : من زرع لم أبلهه . قلت : من يأتيك به ؟ قال : الذي نصب الرحا يأتيها بالطحين . قلت : كيف ترى حالك ؟ قال : كيف يكون حال من أراد سفرًا بلا أهبة ، ويسكن قبرًا بلا مؤنس ، ويقف بين يدي حكم عدل . ثم أرسل عينه وبكى . قلت : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت أياما مضت من أجلى لم أحقق فيها على ، وفكرت في قلة الزاد وفي عقبة هبوط إلى الجنة أو إلى النار . قلت يا راهب : بم يُستجلب الحزن ؟ قال : بطول الغربة ، وليس الغريب من مشى من بلد إلى بلد ، ولكن الغريب صالح بين فساق .

ثم قال : إن سرعة الاستغفار توبة الكذابين ، لو علم اللسان مما يستغفر لجف في الحنك ، إن الدنيا منذ ساكنها الموت ما قرَّت بها عينٌ ، كلما تزوجت الدنيا زوجا طلقته الموت ، فتلها كمثل الحية تين مشها^(١) والشم في جوفها .

ثم قال : عند تصحيح الضائر يفر الله الكيثر ، وإذا عزم المبدؤ على ترك الآثام أتنه من السماء الفتوح ، والدعاء المستجاب الذي تحرَّكه الأحران .

قلت : فأكون مملوكًا يا راهب ؟ قال : ما أصنع بك ومعى معطى الأرزاق وقابض الأرواح ، يسوق إلى الرزق في كل وقت ، لم يكلفني جمعه ولم يقدر على ذلك أحدٌ غيره .



اسمع يا خائن النعم ما مُضِيع الحُرَم ، يا من على التوبة عزم زعم ، غير أنه كلما بنى أن يُلَوِّذ بنا هدم ، يسى إلى الهدى فإذا رأى جيفة الهوى جَمَّ ، ويحك إطلاق البصر في سور الحذر فلم ، عجبا لامنك وأنت بين فسكى جَمَّ ، كأنك بك تتنقى العدم ، وتبكي

(١) ب : لسهل لين . وما أجيته من ب .

على تفريطك بدم ، إلى كم هذا التواني كم كم وك ، إياك والدنيا فانتفى من قَرَم^(١) ،
لن تحدث لقد نخفنا من غير ضرم .

كم أسير لشهوة وقتيل أفتَ لَشَتَر^(٢) خلافتَ الجليل
شبهاتِ الإنسان تُورثه اللؤلؤ وتُلقيه في البلاء الطويل^(٣)

يا حائراً لم يؤثر إلا خلافا ، يا واعداً بالتوبة ولم تر إلا إخلافاً ، متى ستعمل
عدلاً وتورث إنصافاً ، أنصافِ الهوى من اليوم إن صافى ، أما ترى الناس بهذه الدار
أضيافاً ، أتوقن بالحساب وترى الفعل جزافاً ، أنسى الموت وكم قد أقام سيافاً ، أما بقى
القليل ثم تلحق أسلافاً ، متى تعاملنا باليسير فنضاعفه أضعافاً .

إذا كثرت منك الذنوب فداوها برفع يد في الليل والليل مظلم
ولا تقنطن من رحمة الله إنما فتوتك منها من خطابك أعظم
فرحمته للحسنين كرامة ورحمته للسرفين تكريم

قال بنان : دخلت على ابن المرّجى وهو في بيت مملوء كتباً ، قلت له : اختصر
لى من هذه الكتب كلتين أنتفع بهما . قال : ليسكن هُلك مجموعاً فيما يُرضى الله
عز وجل فإن اعترض عليك شيء فتب من وقتك .

الكلام على قوله تعالى

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ^(١) ﴾

كان كفار قريش كأبى جهل وعتبة والوليد قد اتخذوا فقراء الصحابة كعمار
وبلال وحباب وصهيب سخرياً يستهزئون بهم ويضحكون منهم ، فإذا كان يوم القيامة
قيل لهم : « إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا » على أذاكم واستهزائكم .

(١) القرم : شدة شهوة اللحم . (٢) كذا بالأصل . وفي ذم الهوى : أف للشهوى .

(٣) ذم الهوى من ٣٣ عن الحسن بن سلمان الأبل . (٤) سورة المؤمنون ١١١ .

أما علم الصالحون أن الدنيا دار رحلة دافعوا زمان البلاء وأدجلوا في ليل الصبر علماً منهم بقرب غفر الأجر ، فإكانت إلا رقدة حتى صبحوا بمنزل السلامة^(١) ، نفذت أبصارُ بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد ، فتملقت يد الآمال بما عاينت بواطن^(٢) القلوب ، وأخصوا عن الحرام البطون ، وغصوا عن الآثام الجفون ، وسكبوا في غلام الليل الدموع ، وتململوا تملل اللسوع ، استقاد قلوبهم زمان التطف ، ثم جنبها سائق التمسف ، فكلما ألاح لهم الرجاء نور الوصال طبقت غلام الخوف سماء الأعمال ، فهم في بقاء التعبر يسرحون ، ومن باب التضرع لا يترحون ، وحزنهم أولى^(٣) مما يفرحون ، فإذا همم التمسف بالذكى يترحون ، رفضوا الدنيا فلهوا وطلبوا الأخرى فاندموا ، يا بشرام إذا قدموا وغنموا .

أخبرنا أبو بكر الصوفي ، أنبأنا أبو سعد الجبيري ، أنبأنا أبو عبد الله الشيرازي ، حدثنا أبو زرعة الطبري ، حدثني يحيى بن عبد الله بن الحارث ، حدثنا محمد بن يزيد بن عبد الصمد ، حدثنا سعيد بن نصر ، حدثني محمد بن يحيى بن عبد الكريم ، عن الوليد ابن مسلم ، عن الأوزاعي ، قال حدثني حكيم من الحكماء قال مررت بعريش مصر وأنا أريد الرباط ، فإذا أنا برجل في مظلة قد ذهبت عيناه وبداه ورجلاه وبه أنواع البلاء وهو يقول : الحمد لله هذا يوافي شكرك بما أنعمت عليّ وفعلتني على كثير من خلقك تفضيلاً . فقلت : لأنظرن أشيء علمه أو ألهمه إلهاما . فقلت : على أي نعمة تحمده ، فوالله ما أرى شيئا من البلاء إلا وهو بك ! فقال : ألا ترى ما قد صنع بي ؟ فوالله لو أرسل السماء عليّ نارا فأحرقتنى وأمر الجبال فدكنتنى وأمر البحار ففترقننى ما ازددت له إلا حمدا وشكرا ، ولكن لي إليك حاجة ، بنية لي كانت تحمدي وتتمهدينى عند إفطارى فانظر هل تحس بها ؟ فقلت : والله إنى لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قرينة إلى الله عز وجل . فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ! من أين آتى هذا العبد الصالح فأخبره بموت ابنته ، فأنيته

(١) ت : حتى أسبحوا بمنزل السلامة . (٢) ت : نواظر . (٣) ت : أولى .

قلت : أنت أعظم عند الله منزلة أم أيوب ؟ ابتلاه الله تعالى في ماله وأهله وولده وبدنه حتى صار غرضاً للناس ؟ فقال : لا بل أيوب . قلت : إن ابتلك التي أسرته أن أطلبها أصبتها فإذا السبع قد أكلمها . فقال : الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا وفي قلبي شيء . ثم شق شبهة فات . فصليت عليه أنا وجماعة معي ثم دفنته . ثم بت ليلى حتى إذا مضى من الليل قدر ثلثه وإذا به في روضة خضراء وإذا عليه حلستان خضراوان وهو قائم يتلو القرآن ، قلت : ألسن صاحبي بالأمس ؟ فقال : بلى . قلت : ما صيرك إلى ما أرى ؟ فلقد زدت على العابدين درجة لم ينالوها . قال : بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء .

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، أنبأنا أبو طالب اليوسفي ، أنبأنا يوسف بن محمد المهراني ، أنبأنا أحمد بن محمد بن حسنون ، حدثنا جعفر الخواص ، حدثنا ابن مسروق ، حدثنا محمد بن الحسين ، حدثني يحيى بن بسطام الأصغر ، حدثني حريث بن طرفة قال كان حسان بن أبي سنان يصوم الدهر ويفطر على قرص ويقسح بأخر ، فنحل وسقم جسمه حتى صار كهينة الخيال ، فلما مات وأدخل مفصله ليفسل كشف الثوب عنه فإذا هو كالخطيب^(١) الأسود قال : وأصحابه يبيكون حوله . قال حريث : لحدثني يحيى البكاء إبراهيم بن محمد العريفي^(٢) قال : لما نظرنا إلى حسان على مفصله وما قد أبلاه الدهوب استدمع أهل البيت وعلت أصواتهم ، فسمعنا قائلاً يقول من ناحية البيت :

تَجَمَّعَ لِلْإِلَهِ لَكِي يَرَاهُ نَحْمِلَ الْجَسْمَ مِنْ طَوْلِ الصَّيَامِ

فوالله ما رأينا في البيت إلا باكياً ونظرنا فلم نر أحداً . قال حريث : فكانوا يرون أن بعض الجن قد بكاه .

قال بعض أصحاب بشر بن الحارث : جثت إلى بابه فإذا هو في الدهليز وبين يديه بطيخة وهو يقول لنفسه : أكلتها فكان ماذا^(٣) ؟ فطرت عليه الباب ودخلت وقلت أي شيء هذه تعاتب نفسك فيها . فقال :

(١) ت : كهينة الخطيب . (٢) ت : العريفي . (٣) ت : فكان ليش .

صيرتُ على الآيامِ حتى تَوَلَّتْ وألِزْتُ نفسى صبرها فاستمرَّتْ
وما النفسُ إلا حيثَ يَجْعَلُها الفتى فَإِنْ أَطْمَعْتَ تَأَقَّتْ وإلا تَسَلَّتْ^(١)
ثم رمى بالبطيخة إلى وأناشأ يقول :

وإنْ كَدَى لَشَبَّعَ بطنى يبيع دِينى بلا تحمالِ
من نال دُنْيا بغير دينِ نالَ وبالاً على وبالِ

أخبرنا يحيى بن على ، أنبأنا أبو بكر الخياط ، أنبأنا الحسن بن الحسين بن حكان ،
حدثنا أبو بكر النقاش ، عن محمد بن إسحاق السراج ، قال سمعت أحمد بن الفتح يقول :
رأيت بشر بن الحارث فى منامى وهو قاعد فى بستان وبين يديه مائدة وهو يأكل منها
فقلت له : يا أبا نصر ما فعل الله بك ؟ قال رحنى وغفرتى وأباحنى الجنة بأشرها وقال لى :
كل من جميع ثمارها واشرب من أنهارها وتمتع بجميع ما فيها ، كما كنت تحرّم على
نفسك الشهوات فى دار الدنيا .

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، أنبأنا الحسين بن على
الطنججيري^(٢) أنبأنا عبيد الله بن عثمان ، أخبرنا على بن محمد المنبرى ، أخبرنا عبد الرحمن
ابن معاوية القرشى ، حدثنا محمد بن الفرج الصدقى ، حدثنا جعفر بن هرون ، عن مسئلة
ابن جعفر ، عن الحسن قال : إن الله تعالى عبداً كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخجلين
وكن رأى أهل النار فى النار معذبين ، قلوبهم محزونة وشروهم مأمونة وأنفسهم
عفيفة ، وحواسهم خفيفة ، صبروا أياماً قصاراً ثمقب راحة طويلة ، أما الليل فصاغة
أقدامهم تسيل دموعهم على خدودهم ، يبحّرون إلى ربهم عز وجل ربّنا ربنا . وأما النهار
فعداء خلاء بررة أفتياء ينظر إلىهم الناظر فيحسبهم مرضى أو قد خولطوا ، وما بهم
مرض ولكن خالط القوم أمرٌ عظيم .

(١) البيتان فى ذم الهوى ٣٥٣ . (٢) أبو الفرج الحسين بن على بن عباد بن أحمد بن ثابت الطنججيري
البنفادى ، نسبة إلى الطنجير ، وهو جمع طنجير ولسل يشأ أجداده كان يعملها . كان ثقة صدوق .
الكتاب ٢/ ٩٩ .

أخبرنا أبو بكر الصوفي ، أنبأنا أبو سعد الحيرى ، حدثنا أبو عبد الله الشيرازى ، حدثنا محمد بن الحسين الزنجاني ، حدثنا عيسى بن هرون ، حدثنا إبراهيم بن الجنيد ، حدثني محمد بن صالح بن يحيى ، عن شعيب بن حرب ، قال : كان قوم من الخواريين على شاطئ البحر يتحدثون في ملكوت السماء وفي خدعة الدنيا لمن فيها ، فسمعوا هاتفا من البحر يقول : إن الله عبادا أخلصهم الخشية وأذابهم الحزن ، فلم تجف دمعهم ولم يشغلهم عن ربهم شاغل ، ففرغوا له ونصبوه بين أعينهم ، أولئك على كرامى من نور عند قائمة العرش يضحك الله إليهم ويضحكون إليه فصيقوا وسقط بعضهم^(١) في البحر ومات باقيهم .

أخبرنا ابن ناصر ، أنبأنا محمد بن هلى القرشى ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن على الحسينى ، حدثنا أبو حازم محمد بن على الوشاء ، حدثنا زيد بن محمد بن جعفر ، حدثنا داود بن يحيى الدهقان ، حدثنا محمد بن حماد بن عمرو ، حدثنا حسين بن حسين بن محمد ابن بكر ، عن أبي الجارود ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه يبلّغ من كرامة العبد على الله عز وجل يوم القيامة أنه ليكون له في الجنة ألف باب ، ما منها باب إلا عليه خدم من خدمه ، فتقبل الملائكة حتى يتنوها إلى تلك الأبواب فيقولون هل على سيدكم من إذن ؟ فيقولون : ماندى . فيأتونه فيقولون إن ملائكة من ملائكة الله على الأبواب يقولون : هل على سيدكم من إذن ؟ فيقولون^(٢) : نعم . فيدخلون عليه بالتحية » .

يا قليل الصبر إنما هي مراحل ، فصبر لجة البلاء فالمت ساحل ، تأمل تحت سجن ليل الصبر صبح الأجر ، واحبس لسانك عن الشكوى في سجن الصبر ، واقطع نهار الأتواء بحديث السكر ، وأوقد في دياجي الآلام مصباح السكر ، وقلب قلبك بين

(١) ب : ومعلوا في البحر . وما أثبتته من ت . (٢) كذا . ولعلها : فيقول .

ذكر النواب وتمحيص الوزر ، وتعلم أن البلاء يمزق رُكَّام الذنوب تمزيق الشباك^(١) ، ويرفع درجات الفضائل إلى كاهل السمك ، ومن تفكر في سر : « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » أنس بجليسه ، ومن تذكّر « إِنَّمَا يُوتَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فرح بامتلاء كيسه .
إذا أنت لم ترَ حلَّ بَرَادٍ من التَّعْيِ ولا قَيْتَ بعدَ اللَّوْتِ من قد تَزَوَّدَا
ندمتَ على أن لا تكونَ كَيْفَهِ وَأَنْتَ لم تُرصد كما كان أُرصدَا^(٢)

سَمِعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾

لله أَقْوَامٌ امْتَلَأُوا مَا أُسْرُوا ، وَزُجِرُوا عَنِ الزَّلَلِ فَانْجَرُوا ، فَإِذَا لَاحَتِ الدُّنْيَا غَابُوا
وَإِذَا بَانَتِ الْأُخْرَى حَضَرُوا ، فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ فِي الْقِيَامَةِ إِذَا حُشِرُوا « إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ
بِمَا صَبَرُوا » .

جَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَسَمَرُوا ، وَطَالَمُوا صَحْفَ الذَّنُوبِ فَانْكَسَرُوا ، وَطَرَقُوا بَابَ الْحُبُوبِ
وَاعْتَصَرُوا ، وَبَالَتُوا فِي الْمَطْلُوبِ ثُمَّ حَذَرُوا ، فَانْظُرْ بِمَاذَا وَعِدُوا فِي الذِّكْرِ وَذُكِّرُوا
« إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا » .

رَبِحُوا وَاللَّهُ وَمَا خَسَرُوا ، وَعَاهَدُوا عَلَى الزَّهْدِ فَاغْدَرُوا ، وَاحْتَالُوا عَلَى نَفْسِهِمْ
فَلَكُوا وَأَسْرُوا ، وَتَفَقَّدُوا أَنَّهُ لَوْلَى فَاعْتَرَفُوا وَشَكَرُوا « إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ
بِمَا صَبَرُوا » .

بَيَّوْنَهُمْ فِي خُلُوعِهِمْ كَالصَّوَامِعِ ، وَعَيَّوْنَهُمْ تَنْظُرُ بِالتَّقَى مِنْ طَرَفٍ [خَاشِعٌ]^(٣)
وَالْأَجْفَانِ^(٤) قَدْ سَحَّتْ مَحَبُ الْمَدَامِ تَسْقِي بَذَرَ الْفِكْرِ الَّذِي يَبْدُوا « إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ
بِمَا صَبَرُوا » .

اسْتَوْحَشُوا مِنْ كُلِّ جَلِيسٍ ، شُغِلُوا بِالْعَنَى النَّفِيسِ ، وَزَمُّوا مَطَايَا الْجِدَّةِ فَسَارَتِ الْعَيْسُ ،
وَبَادَرُوا الْفُرْصَةَ فَفَاتُوا إِبْلِيسَ ، لَا وَقَفُوا وَلَا قَفُوا « إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا » .

(١) ت : تمزيق الشباك والجنوب . (٢) من قصيدة الأعشى في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم
انظر سيرة ابن هشام ٢٧/٢ . باختلاف . (٣) سقطت من ت . (٤) ت : والأخزان .

قلوبٌ في الخدمة حضرت، أسرارٌ بالصدق عمرت، كم شهوة في صدورهم انكسرت،
أخبارهم تحيى القلوب إذا نشرت، ويقال عن القوم إذا نُشروا « إني جزيتهم اليوم
بما صبروا » .

جدُّوا فليس فيهم من يلمب، ورفَضُوا الدنيا فتركوها تخرب^(١)، وأَذابوا قلوبهم
بِقِلَّةِ المَلم والمُشرب، ففنداً يقال: كُلُّنَا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب، أذكركم
في الحياة وإن كانوا قُبروا « إني جزيتهم اليوم بما صبروا » .

علموا أن الدنيا لعب ولهو وزينة، وأن من وافق مرادها فارق دينه، فخذروا
من غُرُورِ مُجْدَى غَيْبِيَّة، فركبوا من التقى في سفينة أشحنوها^(٢) بالزاد وعبروا « إني
جزيتهم اليوم بما صبروا » .

طوى لهم والأمل كملتقاهم، كشف الحجاب عن عيونهم فأراهم، هذا أقصى آمالم
وقد ظفروا « إني جزيتهم اليوم بما صبروا » .

بلننا الله ذلك المبلغ، وأسمعنا رَجْرَ الناصح فقد أبلغ، وسَترنا من العقاب فإنه إن عفا
أسبغ، ولولا عونه ما قدروا « إني جزيتهم اليوم بما صبروا » .

(١) هذا مذهب الزاهدين، ولكنه ليس منهج الإسلام الذي يأمر بمباراة الدنيا . وللملم كانوا يريدون
ترك التكاليف عليها والتنافس فيها . (٢) كذا في ت . وفي ب : أعينوها . عرقة .

المجلس الرابع عشر

في ذكر قصة شعيب عليه السلام

الحمد لله القديم فلا يقال متى كان ، العظيم فلا يحويه مكان ، أنشأ آدم وأخرج ذريته بدمعان ، ورفع إدريس إلى أعالي الجنات ، ونجى نوحاً وأهلك كنعان ، وسلم الخليل بلطفه يوم النيران ، وورث من الفاحشة حين البرهان ، وبث شعيباً إلى مدين ينهى عن البخس والمدوان ، ويناديهم في ناديتهم ولكن سميت الأذان « قد جاءكم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَاللِّيزَانَ » .

أحمد حذاً يلاً لليزان ، وأصلى على رسوله محمد الذي فاق دينه الأديان ، وعلى صاحبه أبي بكر أول من جمع القرآن ، وعلى عمر الفاروق الذي كان يفرق منه الشيطان ، وعلى زوج الابنتين عثمان بن عفان ، وعلى علي بحر الموم وسيد الشععان ، وعلى عمه المستقى بشيته فأقبل السح الكتان .

قال الله عز وجل : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا ^(١) » .

قال قتادة : مَدْيَنُ ماء كاث عليه قوم شعيب . وقال مقاتل : مَدْيَنُ هذا هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه . وقال أبو سليمان الدمشقي : هو مدين بن مديان بن إبراهيم .

واللغى : أرسلنا إلى ولد مدين . فلي هذا هو اسم قبيلة .

وشُعَيْبُ هو ابن عيسى بن نُوَيْبِ بن مدين بن إبراهيم ، أرسل إلى مدين وهو ابن عشرين ^(٢) سنة ، وكانوا مع كفرهم يبخسون للكاييل والوازين ، فدعاهم إلى التوحيد ونهاهم عن التطفيف ، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومَه .

قوله تعالى : « قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » ولم يذكر معجزته . « وَلَا تَبْخَسُوا

(١) سورة هود ٨٤ . (٢) كذا بالأصول . وهو لا يتفق مع ما عرف في تاريخ النبوات من أنه لم يمت نبى إلا في سن الأربعين . وانظر الخلاف في نسب شعيب في قصص الأنبياء لابن كثير ٢٧٥/١ .

الْكَيْلَ وَالْيَزَانَ « أَى لَا تَنْقُصُوا » وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ « أَى لَا تَعْمَلُوا فِيهَا الْمَعَاصِيَ
بِمَدَّ أَنْ أَصْلَحَهَا بِالْأَمْرِ بِالْعَدْلِ « وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ مَرَاطٍ أَى بِكُلِّ طَرِيقٍ « تُوعِدُونَ »
وَلِنَا لَمْ يَقُلْ بِكَذَا لِأَنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَخَلَّتِ الْفِعْلَ مِنَ الْمَعْمُولِ لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى شَرٍّ ، يَقُولُونَ :
أَوْعَدْتُ فَلَانًا . وَكَذَلِكَ إِذَا أَفْرَدُوا « وَعَدْتُ » مِنْ مَعْمُولٍ فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى خَيْرٍ .
قَالَ الْفَرَّاءُ : يَقُولُونَ : وَعَدْتُهُ خَيْرًا وَوَعَدْتُهُ شَرًّا ، فَإِذَا اسْقَطُوا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ قَالُوا :
وَعَدْتُهُ فِي الْخَيْرِ . وَأَوْعَدْتُهُ فِي الشَّرِّ .

وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي الْمُرَادِ بِهَذَا الْإِبْرَادِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْعِدُونَ مِنْ
أَمْنٍ شَعِيبٍ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ كَانُوا عَشَّارِينَ ^(١) قَالَ الشُّدِّي . وَالثَّلَاثُ :
أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ . قَالَ ابْنُ زَيْدٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَتَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أَى تَصْرِفُونَ عَنْ دِينِهِ « مِنْ آمَنَ بِهِ
وَتَبِعُوا عِوَجًا » أَى تَطْلُبُونَ لِلْسَّبِيلِ عِوَجًا أَى زِيْفًا « وَادَّكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا
فَكَثُرْتُمْ » يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا : كُنْتُمْ قَرَاءَ فَاغْنَاكُمْ ، وَقَلِيلًا عَدَدُكُمْ فَكَثُرْتُمْ ،
وغير ذِي مَقْدَرَةٍ فَاقْدَرْتُمْ . وَكَانُوا مَعَ كَثَرَةِ أَمْوَالِهِمْ قَدْ أَغْرُوا بِالتَّطْطِيفِ .

وَكَانَ ^(٢) مِنْ جُمْلَةِ مَا رَدُّوا عَلَيْهِ : « أَصْلَانُكَ تَأْمُرُكَ » أَى دِينُكَ وَقِرَاءَتُكَ .
« أَنْ تَنُفِّرَكَ مَا يُعْبِدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا » الْمَعْنَى : [أَوْ] أَنْ تَتْرَكَ أَنْ تَفْعَلَ .
وَقَرَأَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ الْفِهْرِيُّ : « مَا تَشَاءُ » فَاسْتَفَى عَنِ الْإِضْمَارِ . وَقَالَ سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ :
أَتَرَهُمْ بِالزَّكَاةِ فَاسْتَمْتَعُوا . وَقَالُوا : « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » اسْتَبْرَاهُ بِهِ .

نَفَوْنَهُمْ أَخَذَاتِ الْأُمِّ وَقَالَ : « لَا يَجْزِيَنَّكُمْ شِقَاقِي » أَى لَا تَعْمَلَنَّكُمْ عِدَاوَتُكُمْ
إِلَايَّ أَنْ تَمْدُبُوا . وَكَانَ أَقْرَبَ الْإِحْلَاكَاتِ إِلَيْهِمْ قَوْمُ لُوطٍ فَقَالَ ^(٣) : « وَمَا قَوْمُ
لُوطٍ مِنْكُمْ بِمَعِيدٍ » .

فَقَالُوا : « مَا نَفَقَ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ » أَى مَا نَعْرِفُ صِحَّةَ ذَلِكَ « وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا »

(١) عَشَّارِينَ : يَأْخُذُونَ الْمُشُورَ مِنْ يَمِينِهِمْ . (٢) كَفَا فِي ت . وَب : فَكَانُوا .

(٣) مَنْ ت . (٤) ت : فَلِهَذَا قَالَ .

وكان قد ذهب بصره . كذا يقول سعيد بن جبير . وقال ^(١) ابن المنادي : وهذا إن ثبت كان في آخر عمره لأنه لا يبعث نبي أعمى . قال أبو رزق : لم يبعث الله نبياً أعمى ولا من به زمانة . قال ابن المنادي : وهذا القول أليط ^(٢) بالقلوب من قول سعيد بن جبير . « وَلَوْلَا رَهْطُكَ » يعني عشيرتك « لَرَجَعْنَاكَ » أي لفتلناك بالرجم . فقال لهم : « أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ » أي تراعون رهطي في ولا تراعون الله في « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ كُلِّ ظَهْرٍ يَا » أي رميت أمر الله وراء ظهوركم .

ثم كان آخر أمره أن قال : « فَارْتَقِبُوا لِمَ آتَى مَعَكُمْ رَقِيبٌ » قال ابن عباس رضي الله عنهما : ارتقبوا العذاب فإنني أرتقب الثواب . قال محمد بن كعب عذّب أهل مدين بثلاثة أصناف : أخذتهم رجفة في ديارهم حتى خافوا أن تسقط عليهم ، فخرجوا منها فأصابهم حر شديد ، فبعث الله تعالى الظلة فنادوا : هلموا إلى الظل . فدخلوا فيه فصيح بهم صبيحة واحدة فاتوا كلهم .

وهذا القول على أن أهل مدين أصحاب الظلة ، وإليه ذهب جماعة من العلماء فعلى هذا إنما حذف ذكر الأخ من سورة الشعراء تخفيفاً .

وذهب مقاتل إلى أن أهل مدين لما هلكوا بُعث شعيب إلى أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة .

قال أبو الحسين بن المنادي : وكان أبو جاد وهواز وحطى وكلثون وسعفص وقريشات بن الأعص بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم ملوكا ، وكان أبو جاد ملك مكة وما والاها من تهامة ، وكان وهواز وحطى ملكي وِج وهو الطائف ، وكان سعفص وقريشات ملكي مدين ، ثم خلقهم كلون فكان عذاب يوم الظلة في مُلكه . فقالت حائلة بنت كلون ترثيه :

كلون هذ ركي هلكه وسط الحله
سيد القوم أتاه الحتف نار وسط ظله

(١) ت : قال . (٢) أليط : أقرب وألصق .

كونت نارا فاضحت دارم كالضحية^(١)

قال ابن النادى : ثم إن شعيبا مكث في أصحاب الأيكة باقى عمره يدعوهم إلى الله تعالى فا ازدادوا إلا عتوا فسلط عليهم الحر . فجأز أن تكون الأمتان اتفقتا في التعذيب .

وقد قال قتادة : أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة والرجفة ، وأما أصحاب الأيكة فسلط عليهم الحر سبعة أيام ، ثم إن الله تعالى أرسل عليهم نارا فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلة .

ثم إن شعيبا زوج موسى ابنته ، ثم خرج إلى مكة فات بها وكان عمره مائة وأربعين سنة ، ودفن في المسجد الحرام حيال الحجر الأسود .

واعلم أن الله تعالى عظم ذكر البخس في قصتهم وشدد فيه وأطنب في ذكره وأشار إلى التوحيد ، لينبهنا على ما نرتكبه ، فإذ^(٢) قد عرفنا قبح الشرك لم نحتاج إلى الإطناب في ذكره ، وكذلك عاب قوم لوط بالفاحشة وبالغ في ذكرها ، وكل ذلك لنخوفنا .

قال ابن عباس : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى : « وَيَلِّ لِّلْمُطَفِّفِينَ » .

واعلم أنه خوف للمطففين بذكر الويل لهم ثم قال : « أَلَا يَفْلَنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ » وللعنى : لو خلنوا البعث ما بَخَسُوا « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالِينَ » أى لأمر الجزاء .

وفى الصحيحين من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقوم أحدهم في رَشَحِهِ إلى أنصاف أذنيه » وقال كعب : يقفون ثلاثمائة عام .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن المذَّهب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا سفيان ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبي هريرة ، رضى الله عنه

(١) هذه أسطورة لا تصدق ولا يثبت ما فيها من الشر ، ومى من وضع القصاصين .

(٢) ت : فإننا قد عرفنا قبح الشرك لم نحتاج .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ برجل يبيع طعاماً فسأله : كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأوحى الله تعالى إليه : أدخل يدك فيه . فأدخل يده فإذا هو مهلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من عَشَّ » .

وقد روينا عن محمد بن واسع أنه رأى يعرض حمارة له على البيع فقال له رجل : أترضاه لي ؟ فقال : لو رضيت لم أبعه .

وفي أفراد البخارى من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يأتين على الناس زمانٌ لا يبالي المرء بما أخذ المال من حلال أم حرام » .

وفي الصحيحين من حديث حذيفة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجلُ النومةَ فتُقبضُ الأمانة من قلبه » .

الكلام على البسمة

يا أئحى سَكُنْ على حَذَرٍ قَبْلَ أَنْ تَحْدُثَ الْفِتْرَ
لا تَكُنْ جاعلاً كأنك لا تعرف الخيرَ
نَشَرَ العِيشُ صَفْوَهُ فطوى الموتُ ما نَشَرَ
فإذا ما صفاك الدمُ فاعمل على الحدَرِ
أين من طال غمرُهُ أين من كان ذا قِصَرِ
لا الرُّقَى أخرتهم من طيب ولا البُشْرِ
رحم الله من تفكَّر في الموت واعتبرَ
قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ النَفْسُ مِنْ وَلا تَمُكِّنِ الْفِكْرَ
فكأننا يَوْمُنَا قد آتانا به التَّدَرِ
واستوى عنده اللوا صل فيه ومن هَجَرَ
وعَدِينَا النهارَ واللي لَ والحر والمطرُ
وافضى المدُّ بالنجو م وبالشمس والقمرُ

ما انتظاري وكل حَيٍّ له الموتُ يُنتظرُ
رقَّ جِلْدِي ودَقَّ عظامي وقلبي فَن حَجَرٍ
كَلَّا تُبْتُ من ذُنُوبِي تَقَعَّتْ في أُخْرَى

يا غريقاً في بَلَجِ جَسَاجِه ، يا راحلاً عن قَليْلِ عن أَهله وماله وأزواجه ، يا مسئولاً
مَالَه جوابٌ في احتجاجة ، متى يَأْتِي الهَدَى من طُرُقِه وفجَاجِه ، متى تنير القلوبُ بإيقاد
سراجِه ، متى يُكَلِّمَ هذا الجرحُ بأنفساجِه ، متى يفتح بابٌ يا طُول ارتياجِه ، متى يُستدركُ
عمرٌ قد مرَّ بالندماجِه ، متى يرجع سَفَرُ النَّدَمِ بقضاء حاجِه ، إلى متى يقال فلا تغبل ،
أما الموتُ نحوكَ قد أَقْبَلَ ، أما العمرُ أيامُ تَنْهَبُ ، أما الساعاتُ أحلامٌ تذهب ، أما المعامِي
نصر الكاسب ، أما الخَطايا شُرُ الكاسب ، أبعِد احتجاج الشيب ما ترعوى ، أبعِد
اعوجاج الصُّلب ما تستوى .

إلى كم يكون النَّعْبُ في كُلِّ لحظةٍ وَلِمَ لا تَمْلُؤُنَّ القَلْبِيَّةَ وَالْمَجْرَى
رُؤْيُكَ إِنَّ الدَّهْرَ فِيهِ كَفَايَةٌ لتفريقِ ذَاتِ البَيْنِ فَانْتَظِرِ الدَّهْرَ
لَهُ در أقوامِ انظروا إلى الأشياءِ بعيها ، فكشفت لِمَ المواقِبُ عن غيبها ،
وأخبرتَهم الدنيا بكلِّ عيبها ، فشمروا لِجِدَّةِ عَنْ سُوقِ المِزَانِ وَأَنْتِ في الفِئْلَةِ نَامِ .

أخبرنا يحيى بن علي ، أنبأنا أبو الحسين بن المهدي ، حدثنا محمد بن يوسف العلّاف ،
حدثنا عبد الله بن محمد البغوي ، حدثنا عبد الله بن عون ، حدثنا يوسف بن عطية ،
عن ثابت البناني ^(١) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم
عليه وسلم يمشي استقبله رجل من الأنصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً بالله حقاً . قال : انظر ما تقول ،
فإن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : يا رسول الله عرثت نفسي الدنيا
فأنسهرت ^(٢) ليلي وأظلماتُ نهاري ، وكأني بعرش ربّي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل

(١) أبو محمد ثابت بن أسلم البناني من تابعي البصرة ، صحب أنس بن مالك أربعين سنة ، توفي سنة ١٢٧
الباب ١/١٤٥ . (٢) ب : فأفسهر .

الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها . قال : أبصرتَ فالزم .
عبدُ نورِ الله الإيمانَ في قلبه فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ادعُ الله لي
بالشهادة ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودى يوماً في الخليل ، فكان أولُ
فارس ركب وأول فارس استشهد قال : فبلغ ذلك أمه فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقلت : إن يكن في الجنة لم أهلك عليه ، ولكن أحرز ، وإن يكن في النار بكيتُ عليه
ما عشتُ في دار الدنيا . فقال : « يا أم حارثة إنها ليست بجنة ولكن جنات ، والحارث ^(١) »
في الفردوس الأعلى . فرجعتُ وهي تضحك وتقول : يحبُّ لك يا حارثة !

يا هذا سبقك أهلُ العزائم وأنت في النفلة نائم ، لقد يمتُ المعلى بالكسل ،
وآثرت البطالة على العمل ، أزعج ذكرُ القيامة قلوبَ الخائفين ، وقَلقلَ خوفُ العتاب
أندةَ العارفين ، فاشغلوا عن طعام الطعام ^(٢) ، ومال بهم حذرُ لباس عن تنوُّق ^(٣) اللباس .
كان أويس القرني ^(٤) يلتقط الرِّطَّاع من المزابل ويفسها في القرات ويضع
بعضها على بعض :

أطواره رثَّةٌ فقد ضاعَ لاضاعَ ، وضاعَ الثمينُ في بَلَدِهِ
ليس له ناقدٌ فيعرفه وآفةُ الثَّبرِ ضَعْفُ مُنْتَفِدِهِ

يا مفروطاً في ساعاته بالليل والنهار ، لو علمت ما فاتت شابهتُ دموعك الأنهار ،
يا طويل اليوم عدمت خيرات الأسفار ، لو رأى طرفك ما نال الأبرار حار ، يا تحذوما
بالهوى ساكناً في دار ، قد حام حول ساكنها طارقُ الفناء دار ، سار الصالحون فاجتهد
في اتباع الآثار ، واذكر بظلام الليل ظلامَ القبر وخلو الديار ، وحارب عدواً قد قتلتك
بالهوى واحلب الثار ، فقد أريتكَ طريقاً إن سلكتها أمنت العثار ، فإن فزت بالمراد
فالصيد لمن أثار .

(١) كذا . ورواية البخاري في الصحيح : « وإنه في جنة الفردوس » .

(٢) الطعام : أوعاد الناس . (٣) التنوُّق : المبالغة والتجويد في اللبس . (٤) هو أويس بن

طاهر ، ويقال ابن عمرو ، القرني ، نسبة إلى قرن بفتح القاف والراء ، بطن من مراد . كان من جلة
التابعين يزم المسجد مع جماعة من أصحابه ، يقال إنه مات مع علي بن أبي طالب مقاتلاً بين يديه في صفين .

الباب ٢٥٦/٢ ، وميزنت الاعتمال ١٢٩/١ .

من نفسي أبت * ناصحاً إذ صبت
وأطاعت من هوى * فهوت إذ هفت
وذلك^(١) يأنس ألا * حذر من غفلة
إن بنت ما شيدت * هدمت ما بنت
أو صفت عند فتي * كدرت ما أصفت
كم صريع نقلت * إذ قلت في قلعة^(٢)
كم غبي غافل * أسمع إذ نعت
لم يكن ينفعه * كل عين بكت
آه يوماً حيرة * لأموير جبرت

الكلام على قوله تعالى

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَ الْتَرَاقِي ﴾

كَلَّا رَزَعٌ وَزَجْرٌ . والمعنى : ارتدعوا عن ما يؤدي إلى المذاب « إِذَا بَلَغَ » يعنى النفس . وهذه كناية عن غير مذكور . والتراقي : العظام المكتنفة لشفرة النحر عن يمين وشمال ، وواحد التراقي رَقْوَةٌ . ويكنى يلوغ النفس إلى التراقي عن الإشفاء على الموت . « وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ » فيه قولان : أحدهما أنه قول الملائكة بعضهم لبعض : من يرقى روحه ؟ ملائكة الرحمة أو ملائكة المذاب . والثاني : أنه من قول أهله : من يرقى بالرقى . والقولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : « وَظَنَّ » أى أيقن الذى بلغت روحه إلى التراقي « أَنَّهُ الْفِرَاقُ » للدنيا . « وَالتَفَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ » فيه خمسة أقوال : أحدها : أمر الدنيا بأمر الآخرة . قاله ابن عباس . والثاني : اجتمع فيه الحياة والموت . قاله الحسن . والثالث : التفت ساقه عند الموت . قاله الشعبي . والرابع : التفت ساقه في الكفن . قاله سعيد بن المسيب . والخامس : التفت الشدة بالشدّة . قاله قتادة . قال الزجاج : آخرُ شدة الدنيا بأول شدة الآخرة .

(١) ورد هذا المظهر في ب عرفاً : * كم من صبي جديد أبلت * وما أئنه من ت .
(٢) ب : علت . (٣) ب : وبك . (٤) ب : أوهب . محرفة . وما أئنه من ت .
(٥) ب : مقلته . قلت : جفت وكرهت . والقلعة - بكسر القاف - ضد الكتفة . وبضمها : أعلى الجبل . ولعلها من قلعة . (٦) ت : غادرته جنة لرب عت . ولله عرف في الأصل .

بالها من ساعة لا تشبهها ساعة ، يندم فيها أهلُ التقي فكيف أهلُ الإضاعة ، يجمع فيها شدة الموت إلى حسرة التّوّت .

لما احتضر أبو بكر الصديق رضى الله عنه قالت عائشة :

لعمرك ما يُبغى الثراء عن النسي إذا حُشِرَتْ يوماً وضاق بها الصدرُ
فقال : ليس كذلك ولكن قولى : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » ولذلك كان يقولها أبو بكر .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند الموت : ويلى ويلى أى إن لم يرحمنى ربى !
ولما دخلوا على عثمان رضى الله عنه جعل يتمثل :

أرى الموت لا يُبقي حزيناً ولا يدعُ لعادٍ مَلَاكاً فى البلادِ ومُرَّتقى
بيت أهل الحصن والحصن مُفلق ويأتى الجبال من تَحازيها التلى
ولما جرح على بن أبى طالب رضى الله عنه جعل يقول :

شدّ حيازيمك الموت فإِنَّ الموت لا فيك
ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بواديك

ولما احتضر معاوية جعل يقول :

إِنْ تَنَاقَشْ بَيْنَ نَفَاشِكْ يَارَبِّ بِ عَذَابِ لَا طَوْقَ لِي بِالْعَذَابِ
أَوْ تَجَاوَزْ فَأَنْتَ رَبُّ عَقُوبٍ عَنْ مُسَى ذَنْبِهِ (١) كالتعريب

ولما احتضر معاذ جعل يقول : أعوذ بالله من ليلة صباحها النار ، مرجحاً بالموت مرجحاً
زائرٌ مُنِيبٌ حبيب جاء على فاقة ، اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم
إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكروى (٢) الأنهار ولا لفرس الأشجار ،
ولكن لظلم المواجه ومكابدة الساعات ومزاحمة الطلاء بالركب عند حلق الذِّكر .

ولما احتضر أبو الدرداء جعل يقول : ألا رجل يعمل مثل مضرعى هذا ؟ ألا رجل

(١) ب : ذنبه . (٢) كرى الأنهار : شقها .

يعمل لئلا ساعق هذه ، ألا رجل يعمل لئلا يوبى هذا ! وبكى . فقالت له امرأته : تبكى وقد صاحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : وما لي لا أبكى ولا أدري علام أهم من ذنوبى .

ولما احتضر أبو هريرة بكى ، فقيل له : وما يبكيك ؟ فقال : بُعِدَ المفازة وقلة الزاد وعقبة كثود ، للمهبط منها إلى الجنة أو إلى النار .

وقيل لحذيفة في مرضه : ما تشتهى ؟ قال الجنة . قيل : فما تشكى ؟ قال : الذنوب . ولما احتضر عمرو بن العاص قيل له : كيف تجدك ؟ فقال : والله لكان جنبي في نَحْت^(١) ، وكأني أتنفس من سَمِّ الخياط ، وكأن غصن شوك يُجَرَّبُ به من قدمي إلى هامتي . ثم قال :

لِئِنِّي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ لِي فِي قِلَالِ الْجِبَالِ أُرْعَى الْوَعُولَ^(٢)
لِئِنِّي كُنْتُ تَحْمَضُ^(٣) عِرْكَتِي الْإِمَاءَ بِذَرِيرِ الْإِذْخَرِ . ونظر إلى صناديق فيها مال فقال لبنيه : من يأخذها بما فيها ؟ ياليتها كان بَرًّا !

وكان عبد الملك بن مروان يقول في مرضه : ودِدْتُ أَنِي عَبْدٌ لِرَجُلٍ مِنْ تِهَامَةِ أَرْضِ عُثَيَّاتٍ فِي جِبَالِهَا وَأَنِّي لَمْ أَلِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ شَيْئًا .

ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال : إلهي أمرتني فلم أنتمر وزجرتني فلم أرجو . غير أني أقول : لا إله إلا الله .

ولما احتضر الرشيد أمر بحفر قبره ثم حل إليه فأطلع فيه فبكى حتى رُجِمَ ثم قال : يا من لا يزول مُلْكُكَ أَرْسَمَ مِنْ قَدْ زَالَ مُلْكُكَ .

وكان للمتصم يقول عند موته : ذهبت الرحيل فلا حيلة .
وبكى عامر بن عبد قيس لما احتضر وقال : إنما أبكى على ظُلْمِ المَواجِرِ وقيام ليل الشقاء .

(١) التفت : وعاء تصان فيه الثياب . (٢) البيت لأمية بن أبي الصلت . ديوانه ص ٤٥ .
(٣) الحمض : ما ملح وأمر من النبات ، وهي كفاكة للابل . وفي الأصل : حبضا ، ولعلها محرفة .

وبكى أبو السَّناء عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : لم أشف من قيام الليل .
وبكى يزيد الرقائبي عند موته فقيل : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى على ما فوتني من قيام
الليل وصيام النهار . ثم جعل يقول : يا يزيد من يصلي لك ومن يصوم عنك ، ومن
يقرب إلى الله عز وجل بالأعمال بمدك ، وبحكم : يا إخواني ، لا تفتروا بشبابكم ، فكان
قد حلَّ بكم مثل ما قد حلَّ بي .

وقال للزَّني^(١) : دخلت على الشافعي في علته التي مات فيها فقلت له : أبا عبد الله
كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً وإخواني مفارقاً وبكأس النية شارباً ،
وعلى الله تعالى وارداً ، ولا أدرى نفسى تصير إلى الجنة فأهبطها أم إلى النار فأعزها .
ثم بكى وقال :

ولما قسا قاي وضاعت مذاهبي جعلتُ رجائي نحو عفوك لَمَّا
تَغَطَّني ذنبي فلما قرنته بدفوك ربي كان عفوك أعظماً
ومازلت ذا عفون الذنب سیدی تجودُ وتنفو مِنَّةً ونكرهماً
ولولاك لم يَفُوتِ^(٢) إبليس عابدٌ فكيف وقد أغوى صَفِيَّكَ آدمَا

وقال إبراهيم بن آدم : مرض بعض العباد فدخلنا نموده ، فجعل يقنفس ويتأسف
فقلت له : على ماذا تتأسف ؟ قال : على ليلة نمتها ويوم أفطرته وساعة غفلت فيها عن
ذكر الله عز وجل .

وبكى بعض العباد عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أن يصوم الصائمون
ولست فيهم ، ويذكر الذاكرون ولست فيهم ، ويصلي المصلون ولست فيهم .

وقال أبو محمد المِجَلِّي : دخلت على رجل وهو في الموت فقال لي : سَخِرْتُ في الدنيا
حتى ذهبت أياي .

ولما احتضر عَصْدُ الدولة تمثل :

(١) ت : وقال للزَّني . (٢) كذا ، لضرورة الشعر .

قَلْتُ صَفَايِدَ الرِّجَالِ فَلَمْ أَدْعُ
وَأَخْلَيْتُ دَوْرَ الْمَلِكِ مِنْ كُلِّ نَازِلٍ
فَلَمَّا بَلَغْتُ الْجَدَّ عَزًّا وَرَفْعًا
رَمَانِي الرَّدَى سَهْمًا فَأُخِذَ جُرْنِي
عَدُوًّا وَلَمْ أَتَّهَلْ عَلَى نَيْلَةِ خَلْقًا
فَشَرَّدَتْهُمْ غَرْبًا وَبَدَنَهُمْ شَرْقًا
وَصَارَتْ رِقَابُ الْخَلْقِ أَجْمَعِ لِي رِقَا
فَهَا أَنَا فِي جَفْوَتِي عَاطِلًا مَلَقًا^(١)
فَنَ ذَا الَّذِي مَنَى بِمَعْرَعِهِ أَشَقَى

ثم جعل يقول : « مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ . » فَرَدَّهَا إِلَى أَنْ مَاتَ .

رَكِيبُ الْأَمَانُ مِنَ الزَّمَانِ مَطِيَّةٌ
وَالرَّمْلُ مِثْلُ الْخُوفِ بَيْنَ سُهَادِهِ
لَيْسَتْ كَمَا اعْتَادَ الرَّاكِبُ تَهْرُكُ
وَكِرَاهٍ يَسْكُنُ تَارَةً وَتُحْرَكُ

يَاسْتَعْمِلُوا قَلْبَهُ بَلْبَقَى وَسُمْدَى ، يَاسْتَلِذُّ الرِّقَادَ وَهَذَى الرَّاكِبِ تَحْدَى ، يَاعْظِمِ
لِلْعَاصِي يَاسْخَطُنَا جَدًّا ، يَاطْلُلَا طَال مَا عَتَا وَتَمَدَّى ، كَمْ جَاوَزَ حَدًّا وَكَمْ أَتَى ذَنْبًا عَمَدًا ،
يَاسِيرُ الْهَوَى قَدْ أَصْبَحَ لَهُ عُبْدًا ، يَنَاطِلُ خَزَائِنَ الْأُمْلِ فِي سِلْكِ الْمَنَى عَقْدًا ، يَاصْرِضَا حِمَا
قَدْ حَلَّ كَمْ حَلَّ عَقْدًا ، كَمْ عَاهَدَ مَرَّةً وَكَمْ قَدْ نَقَضَ عَهْدًا ، مِنْ لَكَ إِذَا سَقَيْتَ كَأْسًا لَا تَجِدُ
مِنْ شُرْبِهَا بُدًّا مُزِجَتْ أَوْ صَابَا وَصَابَا صَارَ لِلصَّابِ عِنْدَهَا شَهْدًا ، مِنْ لَكَ إِذَا لَحَقْتَ
أَبَا وَأُمَا وَأَخَا وَهَمَا وَجَدًّا ، وَتَوَسَّدْتَ بَدَا لَيْنِ حَبْرَا صَلَبًا صَدًّا ، وَسَافَرْتَ سَفَرًا يَالَهُ
مِنْ سَفَرٍ بُعْدًا ، وَاحْتَوَشَكَ عَمَلُكَ هَزْلًا كَانَ أَوْ جِدًّا ، وَلَقِيتَ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا فَهَلْ
لَقِيتَ أَسَدًا ، فَبَادِرْ قَبْلَ الْمَوْتِ فَتَسْتَطِيعَ لِلْفَوْتِ رَدًّا .

نَهَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ وَالتَّصَابِي
إِذَا مَا مَاتَ بِمَضْكٍ قَابَكَ بِمَضَا
نُحَوِّلُ الْجِسْمَ وَالرَّأْسَ الْخَضِيبُ
فَبِمَعْضِ الشَّيْءِ مِنْ بَعْضِ قَرِيبُ

أَخْبَرَ نَاحِدُ بْنُ أَبِي مَنْصُورٍ ، أَنِيَانَا عَلَى بْنِ الْحُسَيْنِ ، أَنِيَانَا أَبُو عَلِيٍّ بْنِ شَاذَانَ ، سَمِعَتْ

(١) كَذَا فِي ب ، وَاللَّقْ كَكَتَف : الضَّعِيف . وَسَكَتَ اللَّامُ لِلْوِزْنِ . وَالرَّوَايَةُ فِي ت :

* فَهَا أَنَا دَانِي حُبْرَتِي عَاجِلًا مُلَقَى *

أبا صالح كاتب الليث يذكر عن الفضل بن زياد ، عن الأوزاعي ، أنه وعظ فقال في موعظته :
أيها الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحت فيها على الحرب من النار الموقدة التي تطلع
على الأفئدة ، فإنكم في دار الثراء فيها قليل ، وأنتم فيها مؤجلون وخلاف من بعد القرون ،
الذين استقبلوا من الدنيا زخرفها ^(١) وزهرتها ، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد
أجساماً وأعظم آثاراً ^(٢) تفقدوا ^(٣) الجبال وجابوا الصخور ، ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش
شديد وأجسام كالعماد ، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدتهم ، وعفت آثارهم ،
وأخوت منازلهم ، وأنست ذكركم ، فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً . كانوا
يلهو الأمل آمين كليات قوم غافلين أو كصباح قوم نادمين ، ثم إنكم قد علمتم الذي
قد نزل بساحتهم بيئاتاً فأصبح كثير منهم في ديارهم جائعين ، وأصبح الباقون ينظرون في آثار
نقمة وزوال أئمة ومساكن خاوية ، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى ،
وأصبحت من بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة ، في زمان قد ولّى عقوه وذهب رجاؤه ،
فلم يبق منه إلا جثة ^(٤) شتر وصباية كدر وأهاويل غير [وعقوبات غير ^(٥)] وأرسال فتن
ورذالة خلف بهم ظهير ^(٦) الفساد في البر والبحر ، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل
وغره طول الأجل ، نال الله عز وجل أن يجعلنا من وعى نذره وعقل سراه فهد نفسه .

تزوج دنياه ^(٧) النسي بجهله فقد نشت من بعد ما قبض المهر
تظهر بغير من أذاها وكيدها فتلك بيني لا يصح لها طهر
ونحن كركب اللوج ما بين بعضهم وبين الردي إلا الذراع أو الشبر

السلام على قوله تعالى

﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ .

يا كثير الخلف يا عظيم الشقاق ، يا سيء الآداب ، يا قبيح الأخلاق ، يا قليل الصبر

(١) ت : أئمة . (٢) خدوا : شقوا . (٣) أجنة : المجتمع من الشيء . والصباية : البقية .
(٤) من ت . والنبر : الشديدة . (٥) في ب : ورذالة خلوجهم وظهير النساد . معرفة والتصويب
من ت . (٦) الأصل : دنياك .

يا عديم الِرفاق ، يا من سبيكي كثيرا إذا انتبه وفاق ، والتفت الساق بالساق . أين من أنس بالدنيا . ونسى الزوال ، أين من عمر القصور وجمع المال ، تقلبت بالقوم أحوال الأهوال ، كم أراك عبرة وقد قال « سترهم آياتنا في الآفاق » .

أين صدقتك المؤانس ، أين رفيقك المجلس ، أين للمائي فقيرا وأين الفارس ، امتدت إلى الكل كف الخاليس ، فنزلوا تحت الأظفار .
وكان قد رحلت كما رحلوا ، ونزلت وشيكا حيث نزلوا ، وحلت إلى القبر كما حلوا ، إلى ربك يومئذ المساق .

من لك إذا ألم الألم ، وسكت الصوت وتمسكن الندم ، ووقع بك القوت ، وأقبل لأخذ الروح ملك الموت ، وجاءت جنوده وقيل من راق .
ونزلت منزلاً ليس بمسكون ، وتفوضت بعد الحركات السكون ، فيا أغناً لك كيف تكون ، وأهوال القبر لا تطاق ، وفرق مالك وشكنت الدار ، ودار البلاء فادار إذ دار ، وشكل الوزر عن هجر وزار ، ولم ينفعك ندم الرفاق .

أما أكثر عمرك قد مضى ، أما أعظم زمانك قد انقضى ، أفى أفعالك ما يصلح للرضا ، إذا التقينا يوم التلاق . ياساعياً في هواه تصوّر رمسك ، يا موسعاً إلى خطاه تذكر حبسك ، يا مأسوراً في سجن الشهوات خلّص نفسك قبل أن تمرّ السلامة وتفتاق الأعناق ، وينصب الصراط ويوضع اللباز ، وينشر الكتاب يحوى ما قد كان ، ويشهد الجلد والملك والمكان ، والنار الحبس والحاكم اتّحلاق ، فحينئذ يشيب المولد ، وتخرس الألسن وتنطق الجلود ، وتظهر الوجوه بين بيض وسود ، يوم يكشف عن ساق . فبادر قبل أن لا يمكن ، وحاذر قبل أن يفوت للمكن ، وأحين قبل أن لا نحسن ، فالיום البرهان وغدا السباق .

فاتهبُ عمراً يفتنى بالساء والصباح ، وعامل مولى يجزل العطايا والأرباح ، ولا نبخل قد حث على السماح « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

المجلس الخامس عشر

في قصة سيدنا موسى عليه السلام

الحمد لله الذي لا يند له فيبازي ، ولا ضد له فيجاري ، ولا شريك له فيداري ، ولا معترض له فيمازي ، بسط الأرض قرارا وأجرى فيها أنهارا ، وأخرج زرعاً وثمارا ، وأنشأ ليلاً ونهارا ، خلق آدم وأسكنه الجنة دارا ، ففعل عن النعمي وما دارى ، أمر أن يأخذ ميمنا فأخذ يسارا ، وأهبط فقيرا قد عديم يسارا غير أنه جبر منه بقبول توبته انكساراه وأقامه خليفةً ويكفيه افتخارا ، ثم ابتمت الأنبياء من ذريته ونصب لهم من أدله منارا ، وجعل لإدريس ونوحا والخليل رهوسا « وهل أذاك حديث موسى إذ رأى نارا » .

أحمد سيرا وجهارا ، وأصل على رسوله محمد الذي أصبح وادى النبوة برسالته ميظارا ، وعلى صاحبه أبي بكر للنفق سرا وجهارا ، وعلى عمر الفاروق الذي لاث عن وجهه الإسلام خمارا ، وعلى عثمان الذي صرف عن جيش العسرة بإفناقه إحصارا ، وعلى علي أخيه وابن عمه الذي لا يتمازى ، وعلى عمه العباس أبي الخلفاء ويكفيهم افتخارا .

قال الله عز وجل : « وهل أذاك حديث موسى ^(١) » هل بمعنى قد . كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم هل بلغت .

وموسى : هو ابن عمران بن فاهث ابن لاوى بن يعقوب ، واسم أمه يوحاذا ^(٢) . وبين موسى وإبراهيم ألف سنة ، وكانت الكهنة قد قالوا لفرعون : يولد مولود من بنى إسرائيل يكون هلاكك على يده فأمر بذبج أبنائهم ثم شكت القبط إلى فرعون فقالوا إن دُمّت على الذبج لم يبق لنا من بنى إسرائيل من يخدمنا . فصار بذبج سنة ويترك سنة . فذبج سبعين ألف مولود . وولد هرون في السنة التي لا يُذبج فيها ، وولد موسى في السنة

(١) سورة طه ٩ . (٢) كذا في الأصل والطبرى ، وقد قال السهيلي : واسم أم موسى : « أبارخا » ، وقيل : أيا ذخت . قصص الأنبياء لابن كثير ١٧/٢ .

التي يذبح فيها. فولدته أمه وكتمت أمره فدخل الطَّلبُ إلى بيتها فرمته في التَّنُورَ ، فسلم ،
نخفت عليه فصنعت له تابوتا وألقت في اليم ، غمله للماء إلى أن ألقاه إلى فرعون ، فلما فتح
التابوت نظر إليه فقال : عِبراني من الأعداء كيف أخطأ الذَّبْحُ ؟ فقالت آسية : دعه
يكون قُرّة عين لي ولك ، وكان لا يولد لفرعون إلا البنات . فتركه .

ولما رمته أمه أدركها الجزع فقالت لأخته مريم : قصّيه . فدخلت دار فرعون ،
وقد عرّضت عليه المرضعات فلم يقبل ثدياً ، فقالت : « هل أدلكم على أهل بيتٍ
يَكْفُلونه لكم » فجاءوا بأمه فشرب منها ، فلما تم رضاعه رده إلى فرعون فأخذه يوماً
في حجره فد يده للحية فقال : على بالذَّبّاح فقالت آسية : إنما هو صبي لا يملأ . وأخرجت
له ياقوتا وجها فأخذ جرة فطرحتها فيه فأجرت لسانه فذلك قوله : « واحلل
عُقْدَةً من لسانى » .

فلما كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس ملابس فرعون ، فلما جرى القدر
بقتل القبطي وعلموا أنه هو القاتل خرج عنهم فهداه الله إلى مدين ، فسق لبني شعيب
واسمها صفورا وليا ، فاستدعاه شعيب وزوجه صفورا ، ثم خرج بزوجه بقصد أرض
مصر فولدت له في الطريق فقال لأهله : « امكثوا » أي أقيموا « إني آتستُ نارا » أي
أبصرتُ . وإنما رأى نورا ، ولكن وقع الإخبار بما كان في ظنه . والقيس : ما أخذته
من النار في رأس عود أو فتيلة « أو أجدُ على النار هُدًى » وكان قد ضلَّ الطريق فعلم
أن النار لا تخلو من واعد .

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، أنبأنا جعفر بن أحمد ، أنبأنا أبو علي التميمي ، أنبأنا
أبو بكر أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا إسماعيل بن
عبد الكريم ، حدثنا عبد الصمد بن منفل ، عن وهب بن منبه ، قال : لما رأى موسى
النار انطلق يسير حتى وقف منها قريباً فإذا هو بنار عظيمة تغور من فروع شجرة خضراء
شديدة الخضرة لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرب ما ، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق
إلا خضرة وحسناً ، فوقف ينظر لا يدري ما يصنع أمرها ، إلا أنه قد ظن أنها شجرة

تُحرق أو قد إليها موقد فتالما فاحترقت ، وأنه إنما يمنع النار شدة خضرتها وكثرة ما بها ، فوقف وهو يطعم أن يسقط منها شيء فيقتبسه ، فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضعف في يده ليقتبس فالت نحوه كأنها تريد ، فاستأخر ثم عاد ، فلم يزل كذلك فما كان بأوشك من خوردها فتمجب وقال إن لهذه النار لثأنا ، فوقف متحيرا فإذا بخضرتها قد صارت نورا عمودا ما بين السماء والأرض ، فاشتد خوفه وكاد يخالط في عقله من شدة الخوف ، فنودي من الشجرة : « يا موسى » فأجاب سريرا وما يلرى من دعاه فقال : لبيك من أنت ، أسمع صوتك ولا أرى مكانك ، فأين أنت ؟ قال : أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك. فلما سمع هذا موسى علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تعالى فأمن به فقال : كذلك أنت يا إلهي ، فكلامك أسمع أم كلام رسولك فقال : بل أنا الذي أتكلم فأذن متى . فجمع موسى يديه في العصا ثم تحامل حتى استقل قائما فارتعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه ولم يبق منه عظم يحمل الآخر ، وهو بمنزلة لليت إلا أن روح الحياة تجري فيه ، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب حتى وقف قريبا من الشجرة فقال له الرب تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال : هي عصاى » قال : وما تصنع بها ؟ قال : « أتوكأ عليها وأهش بها على غنصى ولى فيها مآرب أخرى » وكانت لها شُعبتان ونَحْجَن^(١) تحت الشُعبتين « قال ألقها يا موسى » فظن أنه يقول له ارفضها فألقاها على وجه الرفض ، ثم جانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظر يدب يلتصق كأنه يبتغى شيئا يريد أخذه ، يمر بالصخرة مثل الخليفة^(٢) من الإبل فيقتلها ، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجذبها^(٣) ، وعيناه توقدان ناراً وقد عاد للنَحْجَن عُرْفًا فيه شعر مثل الثيآرك ، وعادت الشُعبتان هما مثل القليب الواسع فيه أضراس وأنياب لها^(٤) صريف ، فلما عين موسى ذلك ولَّى مُدْبِرًا ، فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أمجز الحية ، ثم ذكر ربه عز وجل فوقف استحياء منه .

(١) النَحْجَن : الصا اللعوجة . (٢) الخليفة : الحامل من النوق . (٣) ت : فيجتها .

(٤) ب : لهم . محرفة .

ثم نودى : يا موسى إلى فارجمع حيث كنت . فرجع وهو شديد الخوف فقال : « خذها ولا تخف سنيدها سيرتها الأولى » وعلى موسى حينئذ مِدْرَعَةٌ من صوف قد خلطها بخِلال من عيِّدان ، فلما أمره بأخذها ثنى طرفَ المِدرَعَةِ على يده فقال له ملك : أرايت يا موسى لو أذن الله عز وجل ليا تخاذر أكانت المِدرَعَةُ تُفنى عنك شيئا ؟ قال : لا ولكنني ضئيف^(١) ومن ضَمَفٍ خلقت . فكشف عن يده ثم وضعها في في الحية حتى سمع حسَّ الأخراس والأنياب ، ثم قبض فلذا هي عصاه التي عهدتها وإذا يدها في الموضع الذي كان يضعها فيه إذا توكأ بين الشعبين ، فقال الله عز وجل : اذنْ فلم يزل يديه حتى أسند ظهره بمذع الشجرة ، فاستقر وذهبت عنه الرُعْدَةُ ، ثم جمع يديه في العصا وخشع برأسه وعنته ثم قال له : إني قد أفتك اليومَ مُقاما لا ينبي لبشر بملك أن يقوم مقامك ، أذيتك وقربتك حتى سمعت كلامي . وكنت بأقرب الأمكنة مني ، فأنطلق برسالتى ، فإنك يئسى وتسمى وإن ملك يدى وبصرى ، فانت جندٌ عظيم من جندى بمنتك إلى خلقي ضعيف من خلقي ، بطر نعمتى وأمين مكبرى وغرته الدنيا عني حتى جحد حتى وأنكر روبيوتى وعييد دونى وزعم أنه لا يعرفنى ، وإني أقسم بقرنى لولا الشذر والحجة اللذان وضعتُ بينى وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار ، فإن أمرت السماء حصبتة وإن أمرت الأرض ابتلعتة ، وإن أمرت الجبال دمرتة وإن أمرت البحار غرقتة ، ولكن هان على وسقط من عيني ووسيعه حلى واستفتيت بما عندى ، وحق لى ، إني أنا الله الذى لا غنى عيرى ، فبئس رسالاتى وادعه إلى عبادتى وتوحيدى والإخلاص بامى ، وذكره بأبامى وحذره نعمتى وبأبى ، وأخبره أنى أنا الغفور والنفرة أسرع منى إلى الغضب والمقوبة ، ولا يرُحك ما أليسه^(٢) من لباس الدنيا فإن ناصيته يسدى ، ليس يظرف ولا ينطق ولا يتكلم ولا يتنفس إلا بإذنى ، قل له : أجب ربك عز وجل فإنه واسع للنفرة ، وإنه قد أمهلك أربعائة سنة وفى كلها أنت مبارز بمعاربته^(٣) تشبه وتمثل به ، وتصد عباداه عن سبيله ،

(١) ت : ولكن أنا ضئيف . (٢) ت : ما ليسته . (٣) ت : أنت بارز له بخارجيه .

وهو يُنظر عليك السماء وينبت لك الأرض ، لم تَسَلَمْ ولم تَهْرَم ولم تنفقر ولم تُنْقَب ، ولو شاء أن يعجل ذلك لك أو يسلبك^(١) فقل ، ولكنه ذو آناه وحلم . وجاهد نفسك وأخيك وأنا محققان^(٢) بجهاده ، فإنى لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لعلت ، ولكن ليعل هذا المبد الضعيف الذى قد أجبته نفسه وجُوعه أن الفتنة القليلة ولا قليل منى ، تغلب الفتنة الكثيرة بإذى ، ولا تمنجبا زينته وما مَنَع به ولا تمدآن إلى ذلك أعينكما ، فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة للترفين ، فإنى لو شئت أن أزينكما^(٣) من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدوره تعجز عن مثل ما آتيتكما فملت ، ولكن أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما وكذلك أقبل بأوليائى ، وقديما ما خِرْتُ لهم فى ذلك فإنى أؤدوم عن نعيمها ورخائها كما ينود الراعى الشقيق إبله عن مراتع^(٤) الملكة ، وإنى لأجنتهم سكوتها وعيشها كما يحب الراعى الشقيق إبله عن مبارك الثرة^(٥) ، وما ذلك لموانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى موقرا لم تستكلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى ، واعلم أنه لم يترن العباد بزينة أبلغ من الزهد فى الدنيا ، وإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع ، سيّام فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقا^(٦) ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك ، واعلم أن من أهان لى وليا أو أخافه فقد بارزنى بالحاربة وبأدائى وعرض نفسه ودعائى إليها ، وأنا أسرع شىء إلى نصرته أوليائى ، أفيظن^(٧) الذى يحاربنى أن يقوم بى ؟ أو يظن الذى يبادىنى أن يُجزئى ؟ أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى ؟ فكيف وأنا التائر لهم فى الدنيا والآخرة لا أكمل نصرتهم إلى غيرى .

قال : فأقبل موسى إلى فرعون فى مدينة قد جعل حولها الأسد فى غيضة^(٨) قد غرسها والأسد فيها مع ساستها إذا أسدتها^(٩) على أحد أكريل ، وللمدينة أربعة أبواب

(١) ت : أو يسلبه . (٢) ب : فأنا محسان . والتصويب من ت . (٣) ت : أن آتيكما .

(٤) ب : عن مواعظ . (٥) المرة : الجرب . (٦) ب : أولياء حقا حقا . (٧) ب : أفيظن .

(٨) الغيضة : الأجمة ، ومجتمع الشجر فى مفيض ماء . (٩) كذا فى ت . وفى ب : إذا أسدتها إلى أحد .

في النَّيْضَةِ ، فَأَقْبَلَ مُوسَى مِنَ الطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ الَّذِي يَرَاهُ فِرْعَوْنُ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْأَسَدُ صَاحَتْ صِيَاحَ الثَّعَالِبِ ، فَأَنَسَكَرَ ذَلِكَ السَّاسَةُ وَفَرَّقُوا مِنْ فِرْعَوْنُ ، فَأَقْبَلَ مُوسَى حَتَّى اتَّعَى إِلَى الْبَابِ فَقَرَعَهُ بِمِصْبَاهٍ وَعَلَيْهِ جَبَّةٌ صُوفٌ وَسِرَاوِيلٌ ، فَلَمَّا رَأَى الْبُوابُ عَجَبٌ مِنْ جَرَأَتِهِ ، فَتَرَكَهُ وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ وَقَالَ : هَلْ تَدْرِي بَابٌ مِنْ أَنْتَ تَضْرِبُ ! إِنَّمَا تَضْرِبُ بَابَ سَيِّدِكَ ! فَقَالَ : أَنَا وَأَنْتَ وَفِرْعَوْنُ عِبِيدُ اللَّهِ ^(١) عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَا نَاصِرُهُ . فَأَخْبَرَ الْبُوابُ الَّذِي يَلِيهِ حَتَّى بَلَغَ ذَلِكَ أَدْنَاهُمْ ، وَدُونَهُمْ سَبْعُونَ حَاجِبًا كُلُّ حَاجِبٍ مِنْهُمْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الْجُنُودِ مَا شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَأَعْظَمِ أَمِيرِ الْيَوْمِ إِيمَارَةً ، حَتَّى خَلَّصَ الْخَلِيبَ إِلَى فِرْعَوْنٍ فَقَالَ أَدْخُلُوهُ عَلَيَّ ، فَأَدْخَلَ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : أَعْرِفُكَ . قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَلَمْ تَرْبُكُنَا فِينَا وَرَيْدًا . فَرَدَّدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ ، فَقَالَ خُذُوهُ .

فَبَادَرَهُمْ مُوسَى فَأَتَى عِصَاهُ فَلِذَا هِيَ ثِمْبَانٌ مَبِينٌ ، فَخَلَّتْ عَلَى النَّاسِ فَانْهَزُوا فَاتَتْ مِنْهُمْ خَمْسَةٌ وَعَشْرُونَ أَلْفًا ، فَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَقَامَ فِرْعَوْنُ مِنْهَزًا حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ وَقَالَ لِمُوسَى : اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَجَلًا نَنْظُرُ فِيهِ . فَقَالَ مُوسَى : لَمْ أُمِرْ بِذَلِكَ وَإِنَّمَا أُمِرْتُ بِتَجَاوُزِكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَخْرُجْ إِلَيَّ دَخَلْتُ عَلَيْكَ .

فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى : أَنْ اجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَجَلًا ، وَقُلْ لَهُ يَفْعَلُهُ هُوَ . فَقَالَ فِرْعَوْنُ : اجْعَلْهُ إِلَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا . ففَعَلَ . وَكَانَ فِرْعَوْنُ لَا يَأْتِي الْخَلَاءَ إِلَّا فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا مَرَّةً ، فَاخْتَلَفَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَرْبَعِينَ مَرَّةً . قَالَ : وَخَرَجَ مُوسَى فَلَمَّا مَرَّ بِالْأَسَدِ مَضَتْ بِأَذْنَابِهَا وَسَارَتْ مَعَ مُوسَى تَشِيْمَةً وَلَا تَهِيْجَةً ^(٢) .

قَالَ عِلْمَاءُ الشَّيْرِ : قَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ « إِنْ كُنْتَ حِثَّتْ بَابَةً فَأَتِ بِهَا » فَأَتَى الْعِصَا ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ وَهِيَ بَيضاءُ لَهَا نُورٌ كَالشَّمْسِ ، فَبَعَثَ فِرْعَوْنُ لِيَجْمَعَ السَّحَرَةَ وَكَانُوا سَبْعِينَ أَلْفًا ، وَكَانَ رُءُوسُهُمْ سَابُورٌ وَعَازُورٌ وَحُطْحُطٌ وَمِصْفَى ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا ، فَجَمَعُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَتَوَاعَدُوا يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَكَانَ عِيدًا لَهُمْ فَأَلْقَوْا يَوْمَئِذٍ مَا مَعَهُمْ ، فَلِذَا حَيَاتٌ كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ قَدْ مَلَأَتْ الْوَادِيَّ فَأَتَى مُوسَى عِصَاهُ فَتَلَقَّتْ مَا صَنَعُوا ، فَسَجَدَتِ السَّحَرَةُ فَتَلَقَّتْهُمْ فِرْعَوْنُ .

(١) ت : عبيد لربى عز وجل . (٢) ب : ولا تهيج .

ثم جاء الطوفان وهو مطر أغرق كل شيء لم ، ثم الجراد فأكل زرعهم ، والقمل وهو الدباب^(١) ، والضفادع فلات البيوت والأواني ، والدّم فسكان الإسرائيل يستق ماء ويستقى القبطى من ذلك للوضع دماً ، فكث موسى يريهم هذه الآيات عشرين سنة . ثم أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل ، فخرج ومعه ستمائة ألف وعشرون ألفاً ، ودعا عليهم حين خرج فقال : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ » فجعلت دراهمهم ودينارهم حجارة حتى الحمص والعدس ، وألقى الموت عليهم ليلة خروج موسى ، فشغلوا بدفن موتاهم ، ثم تبعهم فرعون على مقدمته هامان فى ألف ألف وسبعمائة ألف حصان « فلما تراءى الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » هذا البحر بين أيدينا وهذا فرعون من خلفنا « قَالَ » موسى « كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ » فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بمصاك البحر فاضربه فانفلق اثني عشر طريقاً ، على عدد الأباط . فسار موسى وأصحابه على طريق بَيْسَ والماء قائم بين كل فرقتين ، فلما دخل^(٢) بنو إسرائيل ولم يبق منهم أحد أقبل فرعون على حصان له حتى وقف على شفير^(٣) البحر ، فهاب الحصان أن يتقدم فعرض له جبريل عليه السلام على فرس أنتى فتقدم [فدخل]^(٤) فرعون وقومه وجبريل أمامهم وميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ، فلما أراد أولهم أن يصعد وتكامل نزول آخرهم انطبق البحر عليهم ، فنادى فرعون : آمَنْتُ . قال جبريل : يا محمد لو رأيته وأنا آخذ من حمأة البحر فأدسه فى فرعون مخافة أن تدركه الرحة !

ثم إن بنى إسرائيل طلبوا من موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ، فوعده الله ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فعيدوا العجل فى غيبته ، فلما جاءهم بالتوراة وما فيها من التثقيل أبوها ففتق^(٥) عليهم الجبل ، فلما سكنوا خرج يعتذر عن من عبيد العجل فأمرؤا بقتل أنفسهم ، فبعت عليهم ظلمة فاقتتلوا فيها فانكشفت عن سبعمائة ألف قتيل ، فجعل القتلى للفقول شهادة وللحي توبة ، ولم يزل يلقى من أصحابه الشدائد إلى أن توفى بأرض التيه وهو ابن مائة وعشرين سنة .

(١) ت : وهو الدباب . والدب : أصغر الجراد . (٢) ت : فلما دخلوا . (٣) الشفير : الناهى . (٤) من ت . (٥) تنق : رفع وزعزع .

الكلام على السجدة

يا نفسُ أُنَى تَوَفِّكِينَا حَقِّ مَقِي لَا تَرْغَوِينَا
 حَقِّ مَقِي لَا تَغْلِيصِينَ وَتَسْمَعِينَ وَتُبْصِرِينَا
 يا نفسُ إِنْ لَمْ تَنْصُلِي قَلْبِي بِالصَّالِحِينَ
 وَتَفْكَرِي فِيهِ أَتَوَلَّى لِي لَعَلَّ رُشْدَكَ أَنْ يَحِينَا
 فَلْيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ مَا أَقْبَى الْقُرُونِ الْأُولَى
 أَيْنَ الْأُولَى جَمَعُوا وَكَانُوا لِلْعَوَادِثِ آمِنِينَ
 أُنْصَحُكَ الْمَوْتَ الطَّيْلَ عَلَى الْخِلَافِ أَجْمَعِينَ
 فَإِذَا مَسَّكَهُمْ وَمَا جَمَعُوا لِقَوْمٍ آخَرِينَ

يا من يُؤْمَرُ بما يصلحه فلا يَقْبَلُ ، أَمَا الشَّيْبُ نَذِيرُ بِالْمَوْتِ قَدْ أَقْبَلَ ، أَمَا أَنْتَ الَّذِي
 عَنْ أَعْمَالِهِ تُسْأَلُ ، أَمَا أَنْتَ تَخْلُو فِي الْعَهْدِ بِمَا تَعْمَلُ ، سَتَعْلَمُ يَوْمَ الْحِسَابِ عِنْدَ الْعِقَابِ مِنْ
 يَجْعَلُ ، يَا مَبَادِرَا بِالْخَطَا تَوَقَّفْ لَا تَجْعَلْ ، يَا مَفْسِدَا مَا يَنْتَنِي وَيَبْنِي لَا تَعْمَلْ .

[تَرَى الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَنْصَبُو وَمَا يَخْلُو مِنَ الشَّهَوَاتِ قَلْبُ^(١)]
 فَضُولُ الْعَيْشِ أَكْثَرُهَا هُمُومٌ وَأَكْثَرُ مَا يَضُرُّكَ مَا تَحِبُّ
 فَلَا يَفْرُكَ زَخْرَفُ مَا تَرَاهُ وَعَيْشُ لَبِّنِ الْأَطْرَافِ رَطْبُ
 إِذَا مَا بُلْفَةٌ جَاءَتْكَ عَفْوَاً نَفْذُهَا فَالْتَقِ مَرْغَى وَشَرْبُ
 إِذَا اتَّفَقَ الْقَلِيلُ وَفِيهِ سِلْمٌ فَلَا تَرِدِ الْكَثِيرَ وَفِيهِ حَرْبُ

إِخْوَانِي : إِيَّاكُمْ قَلَائِلُ ، وَأَنَاكُمْ غَوَائِلُ ، وَمَوَاطِنُكُمْ قَوَائِلُ ، وَأَهْوَاؤُكُمْ قَوَائِلُ ،
 ظَلِمْتُمْ الْأَوَاخِرَ بِالْأَوَائِلِ . يَا مَنْ يَوْفَى أَنَّهُ لَا شَكَّ رَاحِلُ ، وَمَالُهُ زَادٌ وَلَا رَوَاحِلُ ، يَا مَنْ
 لَيْجٌ فِي تَلْجَةِ الْهَوَى سَقَى بِرَتْقٍ إِلَى السَّاحِلِ ، هَلْ لَا تَنْهَبُ مِنْ رِقَادِ شَامِلٍ ، وَحَضَرْتَ لِلْمَوَاطِنِ
 بِقَلْبٍ قَابِلٍ ، وَقَتٌ فِي الدَّجَى قِيَامٌ عَاقِلٌ ، وَكُتِبَتْ بِالْدموعِ سَطُورُ الرِّسَالِ ، تَحْتَفُّ بِهَا

زفرائُ الندم كالوسايل ، وبمشتها في سفينة دمع سائل ، لملها ترتمى بساحل « هل من سائل »^(١) ، وأسفا لمرور غفول جاهل قد أثقل بمد الكهولة بالذنب الكاهل ، وضيق في البضاعة وبذر الحاصل ، وركن إلى ركن لو رآه مائل ، بيني الحصون ويشيد الماقل ، وهو عن شهيد قبره متماقل ، ثم يدعى بمد هذا أنه عاقل ، تالله لقد سبقه الأبطال إلى أعلى المنازل ، وهو يؤمل في بطلانته فوز العامل ، هيهات ما علق بطل بطلان .

إذا بكمتُ ما مضى من زمين فصقّ لي أبكى ومن لي بالكنا
من أبصر الدنيا بعين عقله أدرك أن الدمار ليست للبقاء
مطية واردة إلى الردى وإن تراخى العمر وامتد المدى
إن هي أعطت كان ههنا حاضرا أو منعت كان عذابا وأدى
وللسرورهن أمل ما ينتهي حق يوافي أجلا قد انتهى
كان بشر الحافي إذا ذكر عنده الموت يقول : ينبغي لمن يعلم أنه يموت أن يكون
بمنزلة من جمع زاده فوضعه على رحله لم يدع شيئا مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه .

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي ، أنبأنا أبو بكر الخطيب ، أنبأنا محمد بن الحسن
الأهوازي ، سمعت أبا بكر الدّيف الصّوفي يحدث عن جامع بن أحمد قال : سمعت يحيى
ابن معاذ يقول : ليكن بيتك تخلوة وطعامك الجوع وحديثك المفاجأة ، فإما أن تموت
بدائك أو تصل إلى دوائك .

أخبرنا عمر بن ظفر ، أنبأنا جعفر بن أحمد ، حدثنا عبد العزيز بن علي ، أنبأنا
ابن جهمّ ، حدثنا محمد جعفر الوراق ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن عبد الله
اللسكي ، قال قال رجل للفضيل بن عياض : رأيت البارحة في النوم كذا وكذا . فقال له
الفضيل : ألسنت حامل القرآن ؟ قال : بلى . قال فتنم بالليل وأنت حامل القرآن !
أما تخاف أن يأخذك وأنت نائم .

(١) يشير إلى ما جاء في الحديث من أنه إذا كان آخر الليل نادى مناد عن الله عز وجل : هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له .

بإغافلا طول دهره عن ممر يومه وشهره ، يا موعوظا في سره وجهزه بجفاف النبات
وزهره ، يا منبها في أمره بأشهره على حبسه وأشهره ، يا مذكورا في عسره ويسره ، سل
حادثات الزمان عن يسره ، يا عصفورا لا بد من ذبحه وتخريب وكركه ، ثم لا يتجول ذلك
على فكره ، متى يفيق سكران الهوى من سُكره فيسبذ العُرف بُسُكره ، ألا يقنبه
هذا المهنر ليدره ، ألا يتيقظ الجاني لإقامة عذره ، والله لو سكن قلبه خوف حشره نلرج
في أعمال الجلد من قشره ، بل لو تفكر حق التفكير في نشره لم يبع نوبا ولم^(١) يشره ، مضى
الزمان في مدّة الهوى وجزّره ، وما حظي للفرط بنير وزره ، تالله لقد اغتبط الحسنُ
في قبره ونديم المسىء على قلة صبره ، يا حُسن ما أطاع بقرنيل القرآن أبو عمرو^(٢) ويا خسر
ما اضاع أبو نؤاس في شُهره .

حياة وموت وانتظار قِيامةٍ	ثلاث أَلَدَتْنَا أَلُوفَ مَعَايٍ
فَلَا تَهْمُرْ الدُّنْيَا الدُّنْيَا لِمَا	تَفَارَقَ أَهْلُهَا فَرَاقَ لِبَاسٍ
وَلَا تَطْلُبُوهَا مِنْ سَنَانٍ وَصَارِمٍ	يَوْمَ ضَرَابٍ أَوْ يَوْمَ طَمَانٍ
فَإِنْ شِئْنَا أَنْ تَخْلُصَا مِنْ أَذَاتِهَا	فَضْطًا بِهَا الْأَتَقَالُ وَاتِّبَاعِي
عَجِبْتُ مِنَ الصَّبِيحِ لِلَّيْلِ وَضْدُهُ	عَلَى أَهْلِ هَذَا الضَّدِّ يَطْلُمَانِ
وَقَدْ أَخْرَجَانِي بِالْكَرَاهَةِ مِنْهُمَا	كَأَنَّهُمَا لِلضَّيْفِ مَا وَسَعَانِي
دَعَايِي إِلَى هَذَا الْفَرْدِ إِنِّي	خَيْرٌ جِدًّا فِي الشَّرِّ وَدَعَايِي

سَمِعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ أَنِّي نَعِيمٌ ﴾

ما أشرف من أكرمه للسوى العظيم ، وما أعلى من مدحه في الكلام القديم ،
وما أسعد من خصه بالتشريف والتنظيم ، وما أقرب من أهله للفوز والتقديم ، وما أجمل
من أثنى عليه العزيز الرحيم « إِنَّ الْأَبْرَارَ أَنِّي نَعِيمٌ » .

(١) الأصل : ولا . عردة . (٢) أبو عمرو أحد الفراء السبعة .

نعموا في الدنيا بالإخلاص في الطاعة ، وقاؤوا يوم القيامة بالرجح في البضاعة ، وتزهدوا عن التفسير والفلة والإساعة ، ولبسوا ثياب التقى وارتدوا بالقناعة ، وداموا في الدنيا على السهر والجماعة ، فياخروهم إذا قامت الساعة ، وقد قربت إليهم مطايا التكريم « إن الأبرار لفي نعيم » .

نعموا في الدنيا بالوحدة والخلوة ، واعتزلوا في الأسفار من زلة وهفوة ، وحذروا من موجبات الإتماد والجفوة ، فأولئك هم المختارون الصفة ، الصديق قرينهم والصبر نديم « إن الأبرار لفي نعيم » .

حرسهم مولاهم من موجبات الشتي ، وحفظهم من جبل وعيب ومئين ، وأرام حجة الهدى رأى العين ، وأزال في وصالم قاطع الجفاء وعارض البين ، وكل لم جميع للآثر كمال الزين ، وكشف عن قلوبهم أغطية الهوى وحجب الفتن ، فقاموا بالأوامر على غاية الوفا في قضاء ^(١) الدين ، واعتزلوا بمد الأذى وقيل التريم « إن الأبرار لفي نعيم » .

طال ما نعت أجسامهم من الجوع والسهر ، وكفت جوارحهم عن اللهو والأثر ، وجبوا أعراضهم عن الكلام والنظر ، واتهوا عما نهام وامتنوا ما أمر ، وتقبلوا مفروضاته بالسمع والبصر ، وتفتوا بكلامه والقلب قد حضر ، واستعدوا من الزاد ما يصلح للسفر ، فاطوف يلققهم فيمنعهم قضاء الوطر ، والسيرة تجري والقلب قد اعتبر ، فياحسنهم في جوف الليل ووقت السحر ، السرفاض والحال مستقيم « إن الأبرار لفي نعيم » .

جن الظلام فرمت مطالبهم ، وجاء السحر فتوفرت عطايهم ، وكثر الاستغفار فخطت عطايهم ، وكلما طلبوا من فضل سيدهم أعطاهم ، فسبحان من اختارهم من الكل واصطفاهم ، وخلصهم بالإخلاص من شوائب الكدر وصقام ، فليس المقصود من الخلق بالهبة سيوأم ، أزجتهيم عواصف الخفاة فتداركهم من الرجاء نسيم « إن الأبرار لفي نعيم » .

فصورهم في الجنان عالية ، وعيشتهم في القصور صافية ، وهم في عفو ممزوج بوافية ، وقطوف الأشجار من القوم دانية ، وأقدامهم على أرض من السك ساعية ، وأبدانهم من السندس والإستبرق كاسية ، والعيش لذيق ولذات عظيم « إن الأبرار لى نعيم » .
رضى عنهم جبارهم ، وأشرق برضاه دارم ، وصفت ببلوغ المنى أسرارهم ،
فارتفعت من كل وجه أكرامهم ، ووردت في الجنان أشجارهم ، واطردت تحت القصور
أنهارهم ، وترنعت على الورق أطيارهم ، ولللائكة تحفهم ونغمهم بالتسليم ، والعيون
تجرى من رحيق وتسليم ، وللك قد وصفهم في الكلام القديم « إن الأبرار لى نعيم » .
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : أنا ربكم الذى صدقكم وعدى
وأتممت عليكم نعمتى فهذا محل كرامتى ، فاسألونى ما شئتم . فيقولون : نسألك رضوانك .
فيقول : رضوانى أحلكم دارى وأذناكم من جوارى » .

ورويانا أن الله تعالى يقول لأوليائه فى القيامة : « أوليائى طال ما لحكم فى الدنيا
وقد غارت أعينكم وقلصت شفاهكم عن الأثرية وخفقت بطونكم ، فتعاطوا الكأس
فيا بينكم وكلوا واشربوا هيناً بما أسلفتم فى الأيام الخالية » .

وقوله تعالى : « على الأرائك ينظرون » الأرائك : السرر فى الجبال^(١) . قال
نعلب : لانكون الأريكة إلا سريراً فى قبة عليه شواره ومتاعه . والشوار متاع البيت .
وفى قوله « ينظرون » قولان : أحدهما : ينظرون إلى ما أعطاهم الله عز وجل من
الكرامة . والثانى : إلى أعدائهم حين يمدبون .

سبح

كانوا فى الدنيا على المجاهدة يصرون ، وفى دياجى الليل يسهرون ، ويصومون وهم
على الطعام يقدرن ، ويسارعون إلى ما يرضى مولاهم ويبادرون ، فشكر من راح منهم
وغداً فهم غداً على الأرائك ينظرون .

(١) الجبال : جمع جبل ، كالتبة أو موضع يزين بالثياب والستور للعروس .

كانوا يحملون أعباء الجهد والعناء ، ويفرحون بالليل إذا أقبل ودنا ، ويرفضون الدنيا لهمم أنها تصير إلى القنا ، ويخلصون الأعمال من شوائب الآفات لنا ، ويحاربون الشيطان بسلاح من التقى أقطع من السيف وأصلب من القنا ، فندأ يتكثرون على الأرائك ونطوفهم دانية المجتنى ، وأعظم من هذا التميم أن أجعل لم أنا ، كفى نفرا أنهم عندى غدا يحضرون « على الأرائك ينظرون » .

كانت جنوهم تتجافى عن مضاجعها ، ولا تسكن لأجلى إلى مواضعها ، وتطلب منى نفوسهم جزيل منافعها ، وتستعيرى من موانعها وتستعيدُ بمجالاتى من قواطعها ، ونصول يميزنى على تخادعها^(١) ، فقد أبدلتهم تصب تلك المجاهدة لذة السكون ، فهم « على الأرائك ينظرون » .

يا حسنهم والولدان بهم يحفون ، ولللائكة لم يرقون ، والخدام بين أيديهم يقفون ، وقد أنشأ ما كانوا يخافون ، وبالحور العين الحسان في خيام الأؤلؤ يتنعمون ، وعلى أسرة الذهب والفضة يزارون ، وبالجوهرة يتقابلون ، ويقولون بفضل عليهم ونمقى لشيء كن فيكون « على الأرائك ينظرون » .

سجع على قومه تعالى

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾

قال الفرءاء : يرى النعيم .

وجوه طال ما غلبها دموع الأحران ، وجوه طال ما غيرتها حركات الأشجان ، وجوه تخبر عن القلوب إخبار السفوان ، حرسوا الوقت باليقظة وحفظوا الزمان ، وشغلوا العميون بالبكاء والألسن بالقرآن ، فإذا رأيتهم يوم الجزاء رأيت الفوز العظيم « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » .

وجوه ما توجهت لغيرى ولا استدارت ، وأقدام إلى غير ما يرضينى ما سارت ،

(١) كلفا في ت . وى ب : وتوى يعوى على تخادعها .

وعزوم لغير مرضاتي ما ثارت ، وقلوب بنيى قط ما استجارت ، وأفئدة بنيى ذكرى
ما استنارت ، ولورات عيونُ الغافلين ما أعددتْ لم لحارتْ من فضل عظيمٍ ومُلْكٍ جسيمٍ
« تعرف في وجوههم نُفْرةُ النعيمِ » .

أشرقت وجوههم في الدنيا بحسن المجاهدة ، وتشرق وجوههم يوم القيامة بالقرب
والمشاهدة ، أشرقت وجوههم في الليل بنور السهر ، وتشرق غداً بمشاهدة الحق
إذا ظهر ، أشرقت وجوههم في الدنيا بحرَّيَّانِ الدموع على الخلدود ، وتُشرق غداً في جنَّانِ
الخلود ، فإذا رأيتهم في سرورٍ ما فيه ما يَضُمُّ « تعرف في وجوههم نُفْرةُ النعيمِ » .

قوله تعالى : « يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتومٍ » في الرحيق ثلاثة أقوال ، أحدها : أنه
الجر . قاله ابن عباس . وفي صفة الطر المسماة بالرحيق أربعة أقوال : أحدها : أنها أجود
الجر . قاله الخليل بن أحمد . والثاني : الخالصة من الفس . قاله الأخفش . والثالث : الجر
البيضاء . قاله مقاتل . والرابع : الجر المتينة . قاله ابن قتيبة .

والقول الثاني : أنه عَيْنٌ في الجنة مشوبة بالسك . قاله الحسن . والثالث : الشراب
الذى لا غش فيه . قاله ابن قتيبة والزجاج .

وفي قوله « مَخْتومٍ » ثلاثة أقوال ، أحدها : بمزج . قاله ابن مسعود . والثاني : مختوم
على إنائه وهو مُذْهَب . قاله مجاهد . والثالث : له ختام أى عاقبته رِبح .

سمع على قوله تعالى

(يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتومٍ)

ياله من كأسٍ مَصُونٍ تَقَرُّ به العيون ، يقول له الملك كن فيكون ، يوجده بين
الكاف والنون ، إذا شربه لا يَمُزُّون ، إذا استوعبوه لا يَشْكُرُونَ ، نعيمهم لا كَدَّر
فيه ولا هوم « يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتومٍ » .

شراب قد حلَّ وطاب ، كأسٌ يصلح للأحباب ، نعيم من فضل الوهاب ، لذَّةٌ لذةٌ

الدار ودارَ الشراب ، كُمل الصفا وزال العتاب ، طاب الوقت ورفع الحجاب ، صفت الحال وفتحت الأبواب ، زار الحب وسمع الخطاب ، ثم فرح القوم بقرب القيوم « يُسْقَوْنَ من رحيق مختوم » .

زال المنا عنهم وأقبل الروح والفرح ، وارتفعت الموم عن الصدور فانفسح الصدر وانشرح ، ورضى الرب فأعطى للتي وأولى ومدح ، وطاق عليهم الولدان بالأكراب فيالته الشراب ويا حسن القدح ، واستراح من التعب من كان يسهر ويصوم « يُسْقَوْنَ من رحيق مختوم » .



قوله تعالى : « خِتَامُهُ مِسْكٌ » فيه قولان : أحدهما : خَلَطَهُ مِسْكٌ . قاله ابن مسعود ومجاهد . والثاني : أن الذي يُخْتَمُ به طعم الإناء مسك . قاله ابن عباس .
قوله تعالى : « وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » أى فليجذّوا فى طلبه وليحرصوا عليه بطاعة الله تعالى ، والتنافس كاللشاح على الشيء والتنازع فيه .

سجع

أيها النافل ربح القوم وخيرت ، وساروا إلى الحبيب وما سيرت ، وقاموا بالأوامر وضمت ما به أشرت ، وسلوا من ريق الهوى واغتررت فأثيرت ، فالدينا تخدّمهم والسعادة تقدّمهم حين يحشرون « وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » .
لقد شوّقتهم إلى الفضائل فما اشتقم ، وزجرتهم عن الرذائل وأنتم فى سُكر الهوى ما أنقتم ، فلو حاسبتهم أنفكم وحققتم ، علمت أنكم بغير وثيق توقّتم ، فاطلبوا الخلاص من أسر الهوى فقد جدّ الطالبون « وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » .
أيقظنا الله وإياكم لمصلحتنا ، وعصمتنا من ذنوبنا وقبائحنا ، واستعمل فى طاعته جمع جوارحنا ، ولا جملتنا بمن يرضى بدّون ، « وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » .

المجلس السادس عشر

في قصة موسى والخضر عليهما السلام

الحمد لله جعل العلم للعلماء نصيباً، وأغنام به وإن عَدِمُوا مالا ونشأ، ولأجله سجدت
الملائكة إلا إبليس أبى، وبجيلة العلم اتَّكأ إدريس في الجنة واحتجى، ولطلبه قام السكيم
ويروش وانتصبا، فبادرا إلى أن لَقِيَا من سفرهما نصبا : « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح
حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا » .

أحمد همدأ بدوم ما هبت جنوب وصبا ، وأصلى على رسوله محمد أشرف المخلوق
محمدا وعربا ، وعلى أبي بكر الذي أنفق للسال وما قَلَّ حتى تَحَلَّل بالعبا^(١) ، وعلى عمر
الذي من هيته ولَّ الشيطان وهربا ، وعلى عُمان الذي حَيَّته الشهادة فقال مرحبا ،
وعلى علي بن أبي طالب الذي ما قُلَّ سيفُ شجاعته قط [ولا]^(٢) نبا ، وعلى عمه العباس
العالى نسبُه على جبال الترف والرَّبَا .

قال الله تعالى : « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين
أو أمضي حقبا^(٣) » .

معنى الكلام : اذكر يا محمد « إذ قال موسى » وهو موسى بن عمران ، « لفتاه »
وهو يروش بن نون، وإنما سُمِّيَ فتاه لأنه كان يلازمه ويأخذ عنه العلم ويخذه : « لا أبرح »
أى لا أزال ، أى لا أفك . وليس المراد به لا أزول لأنه إذا لم يزُل لم يقطع أرضا .
قال الشاعر :

إذا أنت لم تَبْرَحْ تؤدَّى أمانة وتعمل أخرى أفرحتك الودائع^(٤)
أى أفتلتك . ومعنى الآية لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين أى ملتقاهما ،

(١) قال في القاموس : وفو الخلال : أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، لأنه تصدق بجميع ماله
وخل كساءه بخلاله والبياء : كساء ، كالبياءة . (٢) سقطت من الأصل . (٣) سورة الكهف . ٦٠ .

(٤) من شعر ليس النورى ، وقد استشهد به ابن هشام في سيرته ١٤٨/٢ .

وهو الذي وعده الله تعالى ببقاء الخضر فيه . قال قتادة : بحر فارس وبحر الروم
فبحر الروم نحو المغرب وبحر فارس نحو المشرق .
وفي اسم البلد الذي يجمع البحرين قولان : أحدهما : إفريقية . قاله أبي بن كعب .
والثاني : طنجة . قاله محمد بن كعب القرظي .

قوله تعالى : « أَوْ أَمْسَى حُفَا » وقرأ الحسن وقاتدة « حُفَا » بإسكان القاف وهما
لشئان . قال ابن قتيبة : الحُفب : الدهر . يقال حُفِبَ وحُفِبَ ، كما يقال قُفِلَ وقُفِلَ ،
وأُكِلَ وأُكِلَ ، وعُمرَ وعُمرَ . ومعنى الآية : لا أزال أسير ولو احتجبت أن أسير حُفَا .
« فَلَمَّا بَلَغَا » يعني موسى وقناه « جَمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءً حُوتَهُمَا » وكأننا قد تزودا
حوتا ملحا في سكتل ، فكانا يصيبان منه عند الغداء والعشاء ، فلما بلغا هناك وضع
يوشعُ للسكتل فأصاب الحوتَ بللُ البحر فماش واستقر في البحر ، وقد كان قيل لموسى
تزوّد حوتا ملحا فإذا قدّته وجدت الرجل .

وكان موسى حين ذهب الحوت قد مضى لحاجة ، فزعم يوشعُ أن يغيره بما جرى
قسي ، وإنما قيل « نِسَاءً » توسعا في الكلام ، لأنهما جميعا تزوداه . ومثله : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا
الزُّوْلُ وَالزُّرْجَانُ »^(١) وإنما يخرج من المالح لا من المذّب .

« فَأَتَخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا » أي مَسَلَا . قال ابن عباس : جعل الحوتُ
لا يمس شيئا من البحر إلا يمس حتى يكونَ صخرة . وفي حديث أبي بن كعب أن الماء
صار مثل الطاق^(٢) على الحوت .

« فَلَمَّا جَاوَزَا » ذلك المكان أدركما التصبُ فدعا موسى بالطعام فقال يوشعُ :
« أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْبَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ » فيه قولان : أحدهما : نسيت
أن أخبرك خبر الحوت . والثاني : نسيت حمل الحوت .
« وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ » في هاء السكتاية قولان : أحدهما أنها ترجع إلى الحوت . والثاني :

(١) سورة الرحمن ٢٢ . (٢) الطاق : ما عطف من الأبنية .

إلى موسى، اتخذ ميل الحوت في البحر، أى دخل في مدخله فرأى الخضر. فصل الأول:
الخضر يوشع وعلى الثاني الخضر الله عز وجل.

قال موسى: «ذلك ما كنا نُبَغِّ» أى الذى كنا نطلب من العلامة الدالة على
مطلوبنا، لأنه كان قد قيل له: حيث تُفقد الحوت تجد الرجل.

«فارتدّا» أى رجعا في الطريق التى سلكاها يَقْضَانِ الأثر. «فوجدَا عَبْدًا مِنْ
عِبَادِنَا» وهو الخضر. قال وهب: اسمه اليسع. وقال ابن الننادى: أرميا.

وفي تسميته بالخضر قولان: أحدهما: أنه جلس على فروة بيضاء فاهتز ما تحته خضرا.
رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. والقروة: الأرض اليابسة. والثاني:
أنه كان إذا جلس اخضر ما حوله. قاله عكرمة. وقال مجاهد: كان إذا صلى
اخضر ما حوله.

وهل كان نبيا؟ فيه قولان.

قوله تعالى: «آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا» أى نعمة «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا» أى من
عندنا «عِلْمًا» قال ابن عباس: أعطى من علم الغيب.

«قال له موسى: هل أتبعك» وهذا تحريض على طلب العلم وحث على الأدب
والتواضع للمصحوب، وإنما قال الخضر: «إنك لن تستطيع معي صبرا» لأنه كان يعمل
بعلم الغيب. والخضر: العلم بالشيء. والمعنى: أنت تنسکر ظاهر ما ترى ولا تعلم باطنه.
فلما ركب السفينة قلع الخضر منها لوحا فحشاها موسى بثوبه وأنكر عليه بقوله:
«أخرقتها» والإمر: العجب.

ثم اعترض بقوله: «لا تؤاخذني بما نسيت» وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه نسي
حقيقة. والثاني: أنه من مَماريض الكلام، تقديره: لا تؤاخذني بنسياني الذى نسيت
في محمري، فأوهمه بنسيان هذا الأمر. والثالث: أنه بمعنى التترك. والمعنى: لا تؤاخذني
بتركي ما عاهدتك عليه. وترهقني بمعنى تفعلني. والمعنى: عاملني باليسر.

فلما لقيا الفلام قتلته^(١) الخضر ، وهل كان بالثأم لا ؟ فيه قولان . وفي صفة قتله إياه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه اقتلع رأسه ، وهو في حديث أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني : كسر عنقه . قاله ابن عباس . والثالث : أنه أضجعه وذبحه بكين . قاله سعيد بن جبير .

« قال أقتلت نفسك زاكية » وقرأ ابن عامر : زَكِيَّة . قال السكسائي : فيها وجهان كالقاسية والقسيية . وقال أبو عمرو بن الملاء : الزاكية التي لم تُذنب . والزكِيَّة التي أذنبت ثم تابت . وقال أبو عبيدة : الزاكية في البدن والزكية في الدين . قوله تعالى : « بغيرِ نفسٍ » أي بغير قتل نفس . والنكر : للنكر .

« قال ألم أقل لك » إن قيل : لم ذكر لفظة « لك » ها هنا ولم يذكرها في الأولى ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أنه ذكرها للتوكيد وتركها لوضوح المعنى ، والعرب تقول : قد قلت لك اتق الله . وقد قلت لك يا فلان اتق الله . يا هذا أطفئ وانطلق .

والثاني : أن للمواجهة بكاف الخطاب نوع حط من قدر التعظيم ، فلما كانت الأولى منه نسياناً فتم خطاباً بترك كاف الخطاب [ولما كانت الثانية عمداً جازاه]^(٢) بالمواجهة بكاف الخطاب .

قوله تعالى : « فلا تُصاحِبني » وقرأ أبو التوكل : فلا تصاحِبني بتشديد النون . وقرأ ابن عيلة : « تُصَحِّبني » بفتح التاء من غير ألف ، وقرأ ابن مسعود كذلك ؛ إلا أنه شدد النون . وقرأ النخعي والجدري « تُصَحِّبني » بضم التاء وكسر الحاء وسكون الصاد والياء . قال الزجاج : وفيها وجهان : أحدهما لا تتابعني في شيء ألتسه منك ، يقال أصحِب النهر إذا اتقاه^(٣) . والثاني : لا تُصَحِّبني علماً من عليك « قد بلغت من لدني » قرأ نافع : « مِن لَدُنِي » بضم اللام مع تخفيف النون .

فلما انطلقا إلى القرية وفيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنها أنطاكية . قاله ابن عباس .

(١) ب : قتلته . وما أثبتته من ت . (٢) زيادة عوضاً عما سقط في الأصل . (٣) في القاموس : والمصحب كحس : القابل للتقاد بعد صومعة .

والثاني: الأُبَلَّةُ. قاله ابن سيرين. والثالث: باجِرَوَانٌ^(١). قاله مقاتل. «اشْتَقَعْتُمَا أَهْلَهَا» أى سألوهما الضيافة «فَأَبَوَا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا» وكانوا بخلاء «فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً» أى حائطاً «يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ» وقرأ أبى بن كعب: «يَنْقَاضُ» بألف عدودة وضاد معجمة. وقال ابن مسعود مثله بالصاد غير معجمة. قال الزجاج: يَنْقَضُ: يسقط بسرعة، وينقاص غير معجمة: ينشق طويلاً، يقال انقاصت سِنَّهُ إذا انشقت. ونِسْبَةُ الإرادة إلى الحائط تَجْوِزُ. وأنشد:

صَحِيحُوا وَالْأَهْلُ عَنْهُمْ سَاكِتٌ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَقَ
وَفِي قَوْلِهِ «فَأَقَامَهُ» قولان: أحدهما: أنه دفعه بيده ققام. والثاني: هدمه ثم قعد بينيه. والقولان عن ابن عباس.

فلما أنكر عليه «قال: هذا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنِكَ» أى إنكارك هو الفراق بيننا. ثم بين له أن خَرَقَهُ السفينة لتَسَلَّمَ من الملك الناصب، وقَتَلَ الغلامَ لِيَسَلَّمَ دِينَ أبويه قال نبينا صلى الله عليه وسلم: إن الغلام الذى قتله الخضر طُبعَ كافراً، ولو عاش لأَرْهَقَ أبويه طُفْيَانًا وكفراً. والزكاة: الدُّيْنُ. وقيل العمل. قاله ابن عباس. قوله تعالى: «خَيْرًا مِنْهُ» وأوصل للرحم.

وإقامته للجدار لأنه كان لقيمين في المدينة. وفي الكنز الذى كان تحته ثلاثة أقوال: أحدها: أنه كان ذهباً وفضة. رواه أبو المرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم. والثاني: أنه كان لَوْحًا من ذهب فيه مكتوب: عَجَبًا لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ، عَجَبًا لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْتَصِبُ، عَجَبًا لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ ثُمَّ يَضْحَكُ، عَجَبًا لِمَنْ أَيْقَنَ بِالرِّزْقِ كَيْفَ يَتَمَسَّبُ، عَجَبًا لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحَسَابِ كَيْفَ يَنْفُلُ، عَجَبًا لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتَغَلَّبَهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا. أنا الله لا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي. وفي الشق الثاني: أنا الله لا إله إلا أنا

(١) في مجمع البلدان ٣/٢٧٣ ط أوربا: وياجروان أيضا: مدينة من نواحي باب الأبواب قرب شروان عندما عين الحياة التي وجدها الخضر. وقيل هي القرية التي استسلم موسى والخضر عليها السلام أهلها.

وَحَدَى لِأَشْرِيكَ لِي ، خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، فَطَوَّقَ لِي خَلْقُهُ لِلْخَيْرِ وَأَجْرِيته عَلَى يَدَيْهِ ،
وَالْوَيْلَ لِمَنْ خَلَقْتَهُ لِلشَّرِّ وَأَجْرِيته عَلَى يَدَيْهِ .
رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أنه كُنْزٌ عِلْمٌ . رواه العوفي عن ابن عباس ، وقال مجاهد : صحف فيها علم .
ثم أخبره أنى مأمور فيها فعلت . والسبب في أمر الله عز وجل موسى بهذا الصغر
أنه قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فغضب الله عليه إذ لم
يرد العلم إليه ، فأوحى الله تعالى إليه : إن لى عبداً يجمع البحرين هو أعلم منك ، قال :
فكيف لى به ؟ قال : تأخذ مملك حوتاً مالحاً فتجعله فى مِكْتَلٍ نحيماً فقدت الحوت
فهو ثم . فانطلق حتى لقيه .

السلام على البسمة

مَنْ عَلَى هَذِهِ الدَّارِ قَامَا أَوْصَافًا تَلَبَّسَ عَلَيْهِ فِدَامَا
عُجْجٌ بَنَّا نَنْدُبُ الَّذِينَ تَوَلَّوْا . بِاِقْتِيَادِ اللَّيُوفِ عَامَا فَعَامَا
فَارَقُوا كَهْلًا وَشَيْخَاوَهُمَا ^(١) وَوَلِيدَا مُؤَمَّلَا وَغُلَامَا
وَشَعِيحَا جَنَدِ الْيَدِينِ بَخِيلَا وَجَوَاوَا غُحْوَلَا مِطْطَامَا
سَكَنُوا كُلَّ ذُرْوَةٍ مِنْ أَشْثَمَ بِخَسِرِ الطَّرْفِ ثُمَّ حَلَّوْا الرِّغَامَا ^(٢)
يَا لَحَا اللَّهُ مَهْمَلَا حَسِبَ الدَّهْرَ نَوْوَمَ الْجَفُونِ عَنْهُ فَنَامَا
عَلِقَا ^(٣) فِى يَدِ اللَّيْلِ كَلِمَا نَالِ هَوًى يَنْتَفِيهِ رَامَ مِنْهُ مَرَامَا ^(٤)
هَلْ لَنَا ، بِالْفَيْنِ كُلِّ مُرَادٍ غَيْرَ مَا يَمْلَأُ الضُّلُوعَ طَعَامَا
فَإِذَا أَعْوَزَ الْحَلَالُ قُتِلَ اللَّهُ كَفَا جَرَتْ إِلَيْهَا الْحَرَامَا
وَمَا لِي سَابِ الْبَطُونِ أَخْطَى لِي الْجَسَدِ مِنَ الْقَوْمِ يَا كُلُّونَ الْخَطَامَا

(١) الهم : الشيخ الثاني . (٢) الرغام : الثراب . (٣) علقا : متصفا . ولئى الأصل : علقا . محرقة .

(٤) الأصل : رام من رامما . محرقة .

دَعَّ عَلَى أَرْبَعِ الرِّجَالِ رَجَالًا سَكَنُوا فِي رُبَى الرِّجَاءِ خِيَامًا
كَلِمًا أَنْعَطُوا اسْتَأْزَمُوا مِنَ الْعَا رِ وَإِنَّمَا صَدَّوْا تَرَوُّوْا أَنَّمَا
وَقَمِ اللَّيْلِ نَاجِيًا خِدَعِ الدَّهْرَ وَإِن لَّمْ تَجِدْ رِجَالًا فَيَا مَنَا
وَإِخْشَ مَا قَبِلَ فِيهِ قَدَمٌ فَالْجُلْدُ الَّذِي لَا يَخَافُ إِلَّا التَّمَامَا
أَيْهَا لَوْتُ كَمْ حَطَّطْتَ عَلَيَّ سَامِيَّ الطَّرْفِ أَوْ جَذَذْتَ سَنَامَا
وَإِذَا مَا حُدِرْتَ خَلْفًا وَظَلُّوْا نَجَاةً مِنْ يَدَيْكَ كُنْتَ أَمَامَا

إِخْوَانِي : كَانَ الْقُلُوبُ لَيْسَتْ مِنَّا ، وَكَانَ الْحَدِيثُ يُنْفَى بِهِ غَيْرُنَا .
كَمْ مِنْ وَعِيدٍ يَخْرُقُ الْأَذَانَا كَأَنَّمَا يُنْفَى بِهِ سِيَوَانَا
أَحْمِنَا الْإِمَالُ بِلِ أَعْمَانَا

إِخْوَانِي : غَابَ الْمُدْهَدُ عَنْ سَلْبَانِ فَوَعَدَهُ بِلَفْظِ « لَا عَذَابَنَّهُ » فَيَا مَنْ يَنْهَبُ طُولَ
عُمُرِهِ عَنْ طَاعَتِنَا ، أَمَا تَخَافُ مِنْ غَضَبِنَا ؟ إِذَا خَالَفَ مُوسَى الْخَضِرَ فِي طَرِيقِ الصَّعْبَةِ ثَلَاثَ
سَرَاتٍ خَلَّ عَقْدَةَ الْوِصَالِ بَكَتْ : « هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » أَمَا تَخَافُ يَا مَنْ لَمْ يَقْبِرْ
لِمَوْلَاهُ أَبَدًا أَنْ يَقُولَ فِي بَعْضِ خَطَايَاكَ : هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .
كَانَ الْحَسَنُ شَدِيدَ الْخُوفِ وَالْبَكَاءِ فَمَوْتَبَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : وَمَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ
أَطْلَعُ عَلَى فِي بَعْضِ زَلَّاتِي فَقَالَ : اذْهَبْ فَلَا غَفْرَتُ^(١) لَكَ !

لَمَّا لَكَ غَضَبَانٌ وَقَلْبِي غَافِلٌ سَلَامٌ عَلَى الدَّارَيْنِ إِنْ كُنْتَ رَاضِيًا
أَخْبَرْنَا ابْنَ حَبِيبٍ ، أَنَبَانَا أَبُو سَعِيدٍ بْنُ أَبِي صَادِقٍ ، أَنَبَانَا ابْنُ بَاكُوِيَه ، حَدَّثَنَا
أَبُو الْفَرَجِ الشَّرِجِي ، سَمِعْتُ عَلَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِي ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى ، حَدَّثَنَا ابْنُ مُوسَى
الزَّاهِدُ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ ، قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي الْجَبَانِ إِذْ سَمِعْتُ حَزِينًا
يُنَاجِي مَوْلَاهُ وَيَشْكُو إِلَيْهِ مَا يُلْقَاهُ يَقُولُ :

(١) ت : لَا غَفْرَتُ .

سيدى ! فصَدِّكْ عِبدُ رُوحه لَدَيْكَ ، وَفِيادَه بِيَدَيْكَ ، وَاشْتِياقه إِلَيْكَ ، وَحَسْرَاته عَلَيْكَ ، لَيْلَه أَرْقُ ، وَهَمارَه قَلِّقْ ، وَأَحْشاؤُه تَحْتَرِقْ ، وَدَموعُه تَسْتَقْبِقْ شَوْقا إِلَى رُؤْيَيْكَ ، وَحِينِيا إِلَى لِقائِكَ ، لَيْسَ لَهُ رَاحَة دُونَكَ ، وَلَا أَمَلٌ غَيْرُكَ .

ثُمَّ بَكَى وَرَفَعَ طَرَفَه إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : سَيِّدِى ؟ عَظُمَ الْبَلَاءُ وَقَلَّ الْوَرَاءُ ، فَإِنْ أَكُ صادِقًا فَأَمِيتْنِى . وَشَبَقَ شَهْقَةً غَرَّكَتُهُ فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ ، فَبَيَّنَّا أَنَا أُرَاعِيهِ وَإِذَا بِجَماعَةٍ قَدْ قَصَدُوهُ فَتَسَلَّوْهُ وَحَنَطُوهُ وَكَفَنُوهُ وَصَلَّوْا عَلَيْهِ وَدَفَنُوهُ وَارْتَفَعُوا بِحَمْوِ السَّمَاءِ فَأَخَذْنِى فِى كَفْرِى وَغَشِيَتْنِى غَشِيَةً فَلَمْ أَفْقَ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ .



يَا سَالِكًا طَرِيقَ الْجَاهِلِينَ ، راضِيًا بِلَعِبِ الْغافِلِينَ ، مَتَى نَرَى هَذَا الْقَلْبَ الْقاسِيَّ يَلِينُ ، مَتَى تَبِيعَ الدُّنْيَا وَتَشْتَرِى الدِّينَ ، وَهَجَبًا لِمَنْ آثَرَ الْغايَ عَلَى ما يَدُومُ ، وَتَعَجَّلَ الْمَسْوى وَاخْتَارَ الْمَذْمُومَ ، وَدَنَتْ ^(١) هِمَّتُهُ فَهُوَ حَوْلَ الْوَسْخِ بِحُومٍ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْقَبِيحِ ناسِيًا يَوْمَ الْقُدُومِ ، فَأَصْبَحَ شَرًّا خاسِرًا وَأَبَدًا مَلُومًا .

أَتَعْرِفُنِى أَمالِيَه	بَعْدَ الْقُرُونِ الْخالِيَه
أَهْلُ الرِّائِبِ وَالنَّاسِ	بِ الْقُصُورِ الْعالِيَه
عَادَتْ لَمْ دَنِيائِهِمْ	بَعْدَ الْمَوَدَةِ قَالِيَه
نَادَتْ مَنازِلَهُمْ قَفُوا	وَتَأَمَّلُوا أَطْلالِيَه
فَمَمُوسٌ بِاطْنِ حَالِهِمْ	يُبْدِيهِ ظاهِرُ حَالِيَه
كَانُوا عَقُودًا عَطَلَتْ	مِنْهَا التُّحُورُ الْخالِيَه
إِنِّى لَأَذْكَرُ مَفْشَرًا	مِالِ النَّفْسِ عَنْهُمْ سَالِيَه
فَأَقُولُ وَاللَّهِ عَلَى	تِلْكَ الْوُجُوهِ الْبالِيَه

أَفْقَ مِنْ سَكْرَتِكَ أَيُّهَا الْغافلُ ، وَتَحَقَّقْ أَنَّكَ عَنْ قَرِيبٍ راحِلٌ ، فَإِنَّمَا هِىَ أَيَّامٌ قَلالَةٌ ، نَفْذُ نَصيبِكَ مِنْ ظِلِّ زائِلٍ ، وَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ وَافْعَلْ ما أَنْتَ فاعِلٌ .

(١) ب : ودانت . ويا أَنبِيَه مِنْ ت .

أَنِيتَ يَا مَفْرُورُ أَنْتَ مَيِّتٌ أَقْبَنُ بِأَنْتَ . فِي الْمَقَابِرِ نَازِلُ
تَفَنَّى وَتَبَلَّى وَانْغَلَاثُ لِلْبَلَى أَيْتَلُ هَذَا الْمَيْشِي يَفْرَحُ عَاقِلُ

يَا لَاحِقًا بِأَبَاهُ وَأُمّهَانِ ، لِأَبْدَانٍ يَصِيرُ الطَّلَا إِلَى مَهَانِهِ ^(١) ، يَا مَنْ جُلَّ هِمَّتُهُ جَلُّ
خِيَابِهِ وَطُهْرَانِهِ ^(٢) ، يَقْلِبُهُ الْحَوَى وَهُوَ غَالِبُ دَهَانِهِ ، إِنْ كَانَ لَكَ فِي تَفْرِيطِكَ عَذْرُ فَهَاتِهِ ،
يَا مَتَبًّا بِالدُّنْيَا فِي ثِيَابِ حَسَبٍ ، يَا مَنْ أَتَى لِلْعَاصِي وَنَسِيَ الرَّبَّ يَا مُدْنِفًا بِالْخَطَا يَا مَاسِطًا
يَا أَسِيرَ فُضْحِ الْأُمَامِي وَمَا نَالَ الْحَسَبُ .

إِخْوَانُ : ذَهَبَتِ الشَّيْبِيَّةُ الْحَبِيبَةُ ، وَزَيْنَالُ اللَّصْبَةِ بِهَا مَصِيبَةُ ، كَانَتْ أَوْفَاتُ الشَّبَابِ
كَفَعَلِ الرَّيِّعِ ، وَسَاعَاتُهُ كَأَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، وَالْمَيْشِي فِيهَا كَنُورُ الرِّيَاضِ ، فُذِقِلَ الشَّيْبُ بِإِيدِ
بِالْفَنَاءِ وَيُوعَدُ بِصُغُرِ الْإِنَاءِ ، تَخْلُ الرِّمَّةُ وَأَحْلُ الرِّمَّةِ .

لِأُمُوَاهِ ^(٣) الشَّيْبِيَّةُ كَيْفَ غُضِنَتْهُ وَرَوَّضَاتُ الصَّبَا فِي الْيُبُسِ أَضْنَتْهُ ^(٤)
وَأَمَالُ النِّفَوسِ مُمَلَّاتٌ وَلَكِنْ الْحَوَادِثُ يَنْفَرُضْنَهُ
فَلَا الْأَيَّامُ تَرْضَى مِنْ أَذَاةٍ وَلَا الْمُتَجَاعَتُ مِنْ عَيْشٍ عَرَضَتْهُ ^(٥)
هِيَ الْأَشْبَاحُ كَالْأَسْمَاءِ يَجْرَى الْقَضَاءُ فَيَرْفَعُنَ وَتُخَفِّضُنَهُ

السلام على قومه تعالى

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾

الْوِلْدَانُ : الْفُلَانُ . وَفِي الْمَرَادِ بِقَوْلِهِ « مُخَلَّدُونَ » قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مِنَ الْمُخَلَّدِ ،
وَالْأُخَرُ : أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ لِلْبَقَاءِ لَا يَتَخَيَّرُونَ ، وَهُمْ عَلَى سِنٍّ وَاحِدَةٍ . وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ الْمُتَرَطِّفُونَ
وَيُقَالُ الْمَسُورُونَ .

(١) الطَّلَا : وَلَدُ الْفُلَانِ سَاعَةً يُولَدُ . وَالصَّغِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَالْمَهَاءُ : الْبَقَرَةُ الرَّحْبِيَّةُ .
(٢) كَذَا . وَالْخِيَابُ : مَا خُيِّطَ بِهِ الثَّوْبُ ، وَالْإِبْرَةُ . (٣) يَظْهَرُ أَنَّ اللَّامَ مُتَّصِلَةٌ بِصُغُوفٍ تَقْدِيرُهُ
أَعْجَبَ . أَوْ عَجَا . (٤) غَضِنَ الْمَاءُ : جَفَ . وَأَخَسَ : رَجَعَ . وَالْمَهَاءُ : مَزِيدَةٌ فِي الْفَاقِيَةِ كُلِّهَا .
(٥) عَرَضَتْهُ : كَذَا ، وَلَعَلَّ ضَمِيرَ الرَّفْعِ رَاجِعٌ لِلْأَيَّامِ .

سج

هذه صفات أقوام كانوا في مراضينا يجهدون ، ولأعدائنا بصدق ولائنا يجاهدون ، وفي جادة الجدد والاجتهاد يجهدون ، وبين الخوف منا والطمع فينا يترددون ، فهم عند شفاء العصابة بالخلاف يسمدون ، وفي جنائن الخلود على حياض السعود يردون « يطوف عليهم ولدان مخلدون » .

ويضعت لهم حبيجة النجاة فصاروا ، ولاحت لهم أنوار الهدى فاستناروا ، وعرفوا دار الكريم فطافوا حولها وداروا ، وصانوا مطالبهم عن الأغيار وغاروا ، ولم يرضوا في حال من الأحوال باللهون « يطوف عليهم ولدان مخلدون » .

أعدناهم التصور والأرائك ، وأخذناهم الولدان والملائك وأجتمهم الجنائن والممالك ، وسلم عليهم في قصورهم المالك ، وإنا وهبناهم جميع ذلك لأنهم كانوا في خدمتنا يجهدون « يطوف عليهم ولدان مخلدون » .

استنارت بالتحقيق طريقهم ، وتم إسماعهم وتوفيقهم ، ونحقق بالجد والاجتهاد تحقيقهم ، وساروا صادقين فوضعت طريقهم ، وشرف بهم مصاحبهم ورفيقهم ، لأنهم أخلصوا في طلب ما يقصدون « يطوف عليهم ولدان مخلدون » .

يا من سبقوه إلى الخيرات وتخلّف ، وأذهب عمره في البطالة وتسوّف ، وعرف المصير فما عرف النجاة ولا تعرف ، وكلف بالدينيا فإذا طلب الأخرى تكلف ، يا من مرضه قد تمسكن من مجلته وتمسك ، اطلب الشفاء يا من على شفا هلكة قد أشرف ، وابك على ضلالك في الموى فالقوم مهتدون « يطوف عليهم ولدان مخلدون » .

قوله تعالى : « يا كواكب وأباريق » الكواكب إنا لا عروة له ولا خرطوم .
والأباريق : آنية لها عرى^(١) وخراطيم .

(١) ب : عروة . والتصويب من ت .

سمع

تركوا لأجلنا لذية الطعام ، وساروا يطلبون جزيل الإنعام ، وقاموا في الجهادة على الأقدام ، وندبوا ملابس الأتقياء الكرام ، نُشرت لهم بصدقهم الأعلام ، وحُلوا حلية الرضا وأحلوا محل التوفيق « يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق » . طال ما عطشوا في دنياهم وجاعوا ، وذُثوا ليدم صادقين وأطاعوا ، وخافوا من عظمتهم وارتاعوا ، وبأخراهم ما يفتى من دنياهم باعوا ، وحرسوا بضائع التقي فافرطوا ولا أضاعوا ، وجانبوا ما يشين وصاحبوا ما يليق ، فطاف الولدان على شفاه يبست بالصيام وأتى الربيع ^(١) « يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق » .

تحملوا أقالم التكليف ، ورفضوا التماذي والتسويق ، وقطعوا طريق الفوز للتشريف ، وجانبوا موجب العتاب والتصنيف ، فتولّاهم مولايم وحام في الطريق ، وأقاموا الولدان تسقيهم من الرحيق « بأكواب وأباريق » .

قوله تعالى : « وكأسي من ميعين » الكأس : الإناء بما فيه والمين : الماء الطاهر الجاري . قال الزجاج : المين هاهنا : الخمر يجري كما يجري الماء على وجه الأرض من الميون .

سمع

طال ما غلبت لأجلنا هواجرهم ، طال ما يبست بالصيام لنا حناجرهم ، طال ما غرقت بالدموع محاجرهم ، طال ما أزعجتهم مواعظهم وزواجرهم ، طال ما صدقت معاملتهم ومتاجرهم ، فقدنا يطوف عليهم الولدان والخور المين « بأكواب وأباريق وكأس من ميعين » .

نظر إليهم مولايم فارتضاهم ، وأنتم عليهم فاخترهم واصطفاهم وأعظام من فضله وإحسانه فأنهم ، ومنحهم مالا يحصى من الخير وحباهم ، فإذا قدّموا عليه أطعمهم وسقاهم وأجلسهم على موايد القوائد من زوائد التمكن « بأكواب وأباريق وكأس من ميعين » .

(١) ت : وأتى الربيع بأكواب وأباريق . و ب : وأبى الربيع .

لقد لَذَّ نعيمهم وطاب ، وصين حريمهم يوم^(١) الثواب ، ودام تكرمهم وزال العِقَاب ، وتوفَّر تعظيمهم بين الأَحباب ، ونجا غريمهم من ورطات^(٢) الحساب ، فأشرفت ديارُهم وفتحت الأبواب ، وطاق عليهم الرِّلدان في المقام الأمين « بأَكواب وأباريق وكأسٍ من مَعِين » .

قوله تعالى : « لَا يَصْدَعُونَ عنها » أى لا يلحقهم الصداع الذى يلحق شاربي خمر الدنيا . وعنها : كناية عن الكأس المذكورة ، وللراد بها الخمر « وَلَا يُنْزَفُونَ » قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بفتح الزاي . وقرأ حمزة والكسائي بكسرها . قال الفراء : فمن فُتِح فالمنى : لا تذهب عقولهم بشرها : يقال للسكران تَزيف ومنزوف . ومن كسر فقيه وجهان : أحدهما : لا يُنفدون شراهم أى هو دائم أبدا . والثاني : لا يسكرون . قال الشاعر :

أَمَرَى لئن أَزِفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ لبئس الندائى كنتم آل أُمَيرَا

فإن قال قائل : المقصود من الخمر السكر . فالجواب : أن السكر إنما يراد لينزيل الخمر ، وليس في الجنة خمر ، فلا فائدة في إزالة العقل ، ألا ترى أن النوم لما أريد الراحة ولم يكن في الجنة نصب لم يكن نوم .

سج

دار ليس فيها ما يَسِينها ، دار لا يبقى منها ما يَرِينها ، دار لا يزول عِزُّها وتعْكِينها ، دار لا تَهْرَمُ فيها عِينها ، لَذَّة خرم تفوق ما كانوا يعرفون « لَا يَصْدَعُونَ عنها وَلَا يُنْزَفُونَ » . دار أشرفت حِلَّالها ، دار عزت عُلَّالها ، دار جَلَّ مَنْ بَنَّاها ، دار طاب للأبرار سُكَّانها ، دار تبلغ النفوس فيها مَنَّاها ، أين خاطبوها فقد وصَّفتها ، سُكَّانها قد أمِنوا ما كانوا يخافون « لَا يَصْدَعُونَ عنها وَلَا يُنْزَفُونَ » .

(١) البشارة معرفة في ب ، والتصويب من تـ . (٢) ب : وطران : عرفة والتصويب من تـ .

ما أتمّ نصيبهم ، ما أعزّ^(١) تَكَرُّبِهِمْ ، ما أظرف^(٢) حُذْبِهِمْ وَقَدَيْتِهِمْ ، ما أَسْوَنَ حَرَمِهِمْ ، ما أكرم كَرِيمِهِمْ ، قد مُنَحُوا اِخْلُودَ^(٣) فَا يَرْحُونَ « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ »

قوله تعالى : « وَفَاكِهَةً يُبَخِّرُونَ » أى يَخْتَارُونَ تقول : تَخَيَّرْتُ الشئ إِذَا أَخَذْتَ خَيْرَهُ .

قوله تعالى : « وَلِحْمِ طَيْرٍ عَمَّا يَشْتَبُونَ » قال ابن عباس : يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ أَحَدِهِم الطَّيْرُ فَيَصِيرُ مِمَّنْ لَا يَدْرِي عَلَى مَا اشْتَبَى . وقال مغِيث ابن سَيِّ : يَقَعُ عَلَى أَغْصَانِ شَجَرَةٍ طَوْبَى طَيْرٍ كَأَمثال الْبَيْتِ فَإِذَا اشْتَبَى الرَّجُلُ طَيْراً دَعَاهُ فَيَجِيءُ فَيَقَعُ عَلَى خِوَانِهِ فَيَأْكُلُ مِنْ أَحَدِ جَانِبَيْهِ قَدِيداً وَمِنْ الْآخَرِ^(٤) شِوَاءً ، ثُمَّ يَمُودُ طَيْراً فَيَطِيرُ ، فَيَذْهَبُ .

سَمِعَ

تَحَارَمَ فِي أَشْجَارِهِمْ وَافَرَةً ، وَفَوَاكِهَهُمْ مِنَ الْمَرْغُوبِ طَامِرَةً ، وَوُجُوهَهُمْ بِأَنْوَارِ الْقَبُولِ نَاضِرَةً ، وَعَيْنِيهِمْ إِلَى مَوْلَاهُمْ نَاطِرَةً ، وَقَدْ حَازُوا شَرَفَ الدُّنْيَا وَفَوْزَ الْآخِرَةِ^(٥) ، وَأَجَلَ النَّصِيبِ أَنَّهُمْ لَا يَنْتَبِرُونَ « وَفَاكِهَةً يُبَخِّرُونَ » .

كَانُوا فِي أَوْقَاتِ الْأَسْعَارِ يَنْتَبِهُونَ ، وَبِالْأَسَارَى فِي الْإِعْتِدَارِ يَنْشَبُونَ ، وَقَدْ تَرَكَوا النِّفَاقَ فَامْتَوَّهُونَ^(٦) ، وَالتَّزَمُوا الصِّدْقَ فَيَا بِهِ يَتَّقَوْنَ ، وَإِذَا أُمُّوا فَضِيلَةً فَامْتَنَهَوْنَ^(٧) عَنْهَا حَتَّى يَنْتَهَوْنَ^(٨) ، وَقَدْ قَازَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا كَانُوا يَطْلُبُونَ « وَفَاكِهَةً عَمَّا كَانُوا يُبَخِّرُونَ » .

قوله تعالى : « وَحُورٍ عَيْنٍ » قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَاصِمٌ : « وَحُورٌ عَيْنٌ » بِالرَّفْعِ فِيهِمَا . وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَاءُ بِالْخَفْضِ فِيهِمَا . وَقَرَأَ أَبُو بَنٍ كَسْبٌ وَعَاشِيَةٌ : « وَحُورًا عَيْنًا » بِالنَّجَسِ فِيهِمَا . قَالَ الزَّجَاجُ : الَّذِينَ رَفَعُوا كَرَهُهُ الْخَفْضَ

(١) ب : ما أَمَر . (٢) ب : ما أَظْرَف . (٣) ب : بِالْخُلُودِ . وَمَا أَتَيْتُهُ مِنْ ت .
(٤) ب : وَالْآخِرَ وَمَا أَتَيْتُهُ مِنْ ت . (٥) ت : شَرَفَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . (٦) ب : فَا
يَتَّقُونَ . (٧) ت : فَامْتَنَهَوْنَ . (٨) كَسْبٌ وَلَهَا ضَرُورَةُ السَّجِّ .

لأنه معطوف على قوله : « يطوف عليهم » قالوا : والخور ليس مما يطاف به . ولكنه محفوظ على غير ما ذهب إليه هؤلاء ، لأن المعنى : يطوف عليهم ولدان بأكراب ينعمون بها ، وكذلك ينعمون بخور عين والرفع أحسن . والمعنى : ولم خور عين ومن نصَّب حمَّله على المعنى ، لأن المعنى يُنْطَوْنَ هذه الأشياء ويُطَوْنَ حُورًا عينا . ويقال : عَيْن حُوراء إذا اشتد بياضها وخلص واشتد سوادها ، ولا يقال : امرأة حُوراء إلا أن تكون مع حُور عينا بياضا . والعين : كبار الميرون حسانها . قال : ومعنى كأمثال اللؤلؤ : أى صفاؤه وتلاؤه كصفاء اللؤلؤ وتلاؤه . والممكنون : الذى يخرج من صدقه فلم ينفقه الزمان واختلاف أحوال الاستعمال^(١) .

« جَزَاء » منصوب مفعول له ، والمعنى : يفعل بهم ذلك جزاء بأعمالهم . قال : ويجوز أن يكون منصوبا على أنه مصدر ، لأن المعنى : يطوف عليهم ولدان يُجَازَوْنَ جزاء بأعمالهم مخلدون .

سبع

على قوله تعالى : « جزاء بما كانوا يعملون »

منعهم من الخير ما ليس بمتنون ، وأمتهم فى الجنة حوادث المتنون ، وجعلهم على حفظ سره يؤتمنون ، إذ كانوا بأسمائهم وصفاته يؤمنون ، فلهم [من] فضله فوق ما يشاءون « وخور عين ، كأمثال اللؤلؤ الممكنون » .

خلفهم نلدمته وأرادهم ، وأرجمهم فى معاملته وأقدم ، وجعل الرضا بقضائه زادهم ، وأعطاهم من جزيل رِفْدِهِ وزادهم ؛ وأناهم ما لم يخطر على الظنون « جزاء بما كانوا يعملون » . كانوا يَصْدُقُونَ فى الأقوال ويُخْلَصُونَ فى الأعمال ، ولا يَرْضُونَ بالبدىء من الحال ، ولا يَأْسُونَ بما ينتهى إلى زوال ، فجزاهم على أفعالهم ذو الجلال ، إذ أسكنهم فى جنته فى غلال على الأرائك متكئون « جزاء بما كانوا يعملون » .



قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً » اللغو [ما] ^(١) لا يفيد . والمعنى : أن خير الجنة لا تذهب بقولهم فيلنوا ويأثموا كما يكون في خير الدنيا .
فإن قال : التأثيم لا يُسمع فكيف ذكر مع السموع ؟ فالجواب : أن العرب تُنفع آخر الكلام أوله وإن لم يحسن في أحدهما ما يحسن في الآخر ، فيقولون أكلتُ خبزاً ولبناً . قال الشاعر : -

إذا ما الفانياتُ برزْنَ يوماً وزَجَّجْنَ الحوارجَ والعيونَ
والعين لا تُزَجِّجُ ، فردّها على الحارجِ . وقال آخر :
ولقد لَقِيتُكَ في الوغَى متقلداً سيفاً ورُحماً
وقال آخر :

* عَقَلْتُهَا نَبْلاً وماءً بارداً *

سَمِعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

« لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا وَلَا تَأْثِيماً »

أعرضوا في الدنيا عن اللغو ، وتركوا رائق الشهوات واللغو ، وآثروا الذلَّ على الفخ والزهو ، وتيقظوا للأوامر معرّضين عن السهو ، فأسكنهم في جنته يوم زيارته حرماً « لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا وَلَا تَأْثِيماً » .

أَجَزْنَا لَمْ التَّوَابَ ، وَسَمِينًا بِالْأَحْيَاءِ ، وَأَمْنًا مِنَ الْمَذَابِ ، وَاصْطَفَيْنَا لِلْمَخَاطِبَةِ وَالْجَوَابِ ، وَالْمَلَأْسَكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، يَبْشَارَاتُ تَوْجِبُ تَقْدِيمًا « لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا وَلَا تَأْثِيماً » .

تَدْرُومُ بِالسَّلَامِ ، وَتَخْصِمُ بِالتَّعَايَا وَالْإِعْظَامِ ، وَتَأْتِيهِمْ بِأَنْوَاعِ التَّعَفُّفِ وَالْإِكْرَامِ ، وَتَبْشُرُهُمْ بِالْغُلُوفِ دَارِ السَّلَامِ ، وَقَدْ آمَنُوا أَنْ يَسْمَعُوا مِنَ اللُّغُو كَلَامًا إِلَّا قَلِيلًا سَلَامًا سَلَامًا .

قوله تعالى : « وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين » في أصحاب اليمين سبعة أقوال : أحدها : أنهم الذين كانوا على يمين آدم حين خرجت ذريته من صُلبه . قاله ابن عباس . والثاني : أنهم الذين يُعطون كُتُبهم بأيامهم . قاله الضحاك والقُرطبي . والثالث : أنهم كانوا مِيَّامِينَ على أنفسهم مباركين . قاله الحسن والربيع . والرابع : أنهم الذين أخذوا من شِقِّ آدم اليمين . قاله زيد بن أسلم . والخامس : أنهم الذين منزلتهم عن اليمين . قاله ميمون ابن مهران . والسادس : أنهم أهل الجنة . قاله السُّدِّي . والسابع : أنهم أصحاب للنزلة الرفيعة . قاله الزجاج .

وقوله : « ما أصحابُ اليمين » تعظيم لشأنهم . تقول : زيد ما زيد .

سمع على قوله تعالى

﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾

أصحاب فهم وبقين ، أصحاب جد^(١) وتمكين ، أصحاب عزٍّ مكين^(٢) ، أصحاب خوف ودين ، يتزهون عن من يمين ، « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » .
أصحاب مُلك لا يزول ، أصحاب نَفَر لا يَحُول ، أصحاب تقديم ووصول ، أصحاب شرف بالقبول ، أصحاب تمكن في مقام أمين « ما أصحاب اليمين » .

أصحاب قرب وحضور ، أصحاب عز ونور ، أصحاب حِثَّان وقصور ، فيها حِسَان من الحور ، أصحاب مُكَنَّة ايس فيها قصور ، أصحاب مُشَمَّن ثمين « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » .

قوله تعالى « في يَدْرِ تَخْضُوجِ السَّكَّرِ شَجَرُ النَّبَقِ » . والحضور : الذي لا شك فيه . والطلُّح : اللوز . قاله ابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد .

(١) ب : عزز . وما أئبته من ت . (٢) ب : ومكين . مرة .

فإن قيل : غير الطَّائِع أحسن منه ؟ فالجواب : أن الصَّعَابَةَ رضى الله عنهم مروا
يُوجِّع وهو واد بالطائف فأعجبهم سيِّدُهم فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا . فنزلت هذه الآية
ووعدهم ما يرفون ويميلون إليه .
والمنضود : قال ابن قتيبة : هو الذي قد نُضِدَ بالحِمل أو بالورق والحِمل من أوله إلى آخره ،
فليس له ساق بارزة .

سمع

عباد طاعوا المعبود ، وأوصلوا الركوع والسجود ، وسألوا من يتفضل ويعود ، فوفَّر
نصيبهم من الرِّفْد المرفود « في سيِّد مخضود » .

ورَدَّوا إليه أكرم ورود ، وأمنوا في وصالم عائق الصدود ، وأنعموا الأعضاء
في خدمته والجلود ، فنعيم طيب الميث في جنات الخلود « في سيِّد مخضود » .

تصافروا فاصطَفَوْا في خدمته كالجلود ، واستلوا سيوف الجهاد من النُّمود ، وقموا
بالصدق المدوِّ الكُنود ، وأرغوا بسبِّهم أنفَ الحسود ، فخصَّهم مولاهم بالفضل والشُّعود
« في سيِّد مخضود » .

طلبوا بالصدق الصادق الدُّود ، وسعوا إليه يسألون إنجاز الوعود ، وطعموا
في كرمه أن يتفضل ويعود ، وأسَبَلوا دموعهم من خشيته على الخلود ، فبا لنعيمهم
وأطيبُ منه الخلود « في سيِّد مخضود » .

شكروا مَنْ أخرجهم من الصدم إلى الوجود ، وتفضَّل عليهم بكل خير وجُود ،
وعفوا أن الإخلاص هو المقصود ، فاستعدوا وأوعدوا لليوم للشهود « في سيِّد مخضود » .

تمسكوا بالكتاب القديم ، وطلبوا من اللزم الكريم أن يممهم بالفضل والتكريم ،
فنَّ عليهم بالخير الميم ، فهم في الجنان في أحلى نعيم ، عند ملك كبير عظيم ، ليس بوالد
ولا مولود « في سيِّد مخضود وطلَّح منضود » .

أَعَدَّ لَهُمُ أَوْفَى الدَّخَائِرِ ، وَهَذَّبَ مِنْهُمْ الْبَوَاطِنَ وَالظُّوَاهِرَ ^(١) ، وَجَمَلَهُمْ بَيْنَ عِبَادِهِ
كَالْجُيُوشِ الزَّوَاهِرِ ، وَبَنَى لَهُمُ التُّرُفَ بِالْأُتُولُؤِ وَالْجَوَاهِرِ ، فَهَمَّ فِي تَجْدِيدِ كَرِيمٍ وَسَعَدَ غَيْرُ مَحْدُودٍ
« فِي سِدْرِ مَخْضُودٍ وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ » .

اسْتَزَارَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ ، وَخَصَّصَهُمْ بِكَرَامَتِهِ ، وَأَنَمَّ عَلَيْهِمْ بِرُؤْيَيْهِ وَجَمَلَهُمْ فِي حَصَنِ
حَصِينٍ مِنْ رَعَايَتِهِ ، فِي ظِلِّ نَعِيمٍ دَائِمٍ مَمْدُودٍ « فِي سِدْرِ مَخْضُودٍ وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ » .

طَالَمَا حَلَّوْا تَكْلِيفَهُ وَاسْتَغْلَوْا ، وَسَمِعُوا إِلَى مَرَاضِيهِ فَمَا ضَلُّوا ، وَتَفَتَّيْنَاوْا غِلَالَ
التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَاسْتَظَلَّوْا ، وَرَضُوا بِقَضَائِهِ صَابِرِينَ فَمَا مَلَّوْا ، وَاتَّسَمَّوْا عَلَى الْإِيمَانِ فَمَا خَانُوا
وَلَا غَلَّوْا ، وَكَفَّوْا أَكْفَهُمْ عَنْ غَيْرِهِ ثَقَّةً بِهِ وَغَلَّوْا ، فَعَزَّوْا بِخِدْمَتِهِ إِذْ خَلَّدَتْهُ ذَلَّوْا ،
فَأَنَابَهُمْ نَعِيًا لَيْسَ بِمَجْدُودٍ وَلَا مَحْدُودٍ « فِي سِدْرِ مَخْضُودٍ وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ » .

مَالُوا إِلَيْهِ وَتَرَكَوْا الْمَالَ ، وَعَلَّقُوا بِالطَّمَعِ فِي فَضْلِهِ الْأَمَالَ ، وَأَهْرَضُوا عَنِ الدُّنْيَا شَفَلَ
بِالْمَالِ ، وَأَلْفَوْا خِدْمَتَهُ وَهَجَرُوا الْمَلَالَ ، وَرَاضُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْفَقْرِ وَرَضُوا بِالْإِقْلَالِ ، وَأَنَسُوا
بِمَنَاجَاتِهِ وَنَسُوا الْأَلَّ ، فَإِذَا تَلَقَّاهُمْ مَوْلَاهُمْ قَالَ مَرْحَبًا بِالرُّفُودِ « فِي سِدْرِ مَخْضُودٍ وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ » .

اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَّقِينَ الْأَبْرَارِ ، وَأَسْكِنْنَا مَعَهُمْ فِي دَارِ الْقَرَارِ ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْخَائِلِينَ
الْفُجَّارِ ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، يَا مَنْ لَمْ يَزَلْ يُنْعَمُ
وَيُجُودُ . بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ .

المجلس السابع عشر

في قصة قارون

الحمد لله الذي يمحو الزلزال ويصفح ، وينفر الخطأ ويمسح ، كلُّ من لاذَّ به أنجح ، وكل من عامله بريح ، تشبيهه بخلقه قبيح وجعده أقبح ، رفع السماء بنير عهد فتأمل واللع ، وأنزل القطر فإذا الزرع في الماء يسبح ، والمواشي بعد الجذب ^(١) في الخشب تسرح ، وأقام الورق على الورق تشكر وتمدح ، ويدب. هديلها ولا تذب ابن اللوح ، أغنى وأقفر والفقر في الأغلب أصلح ، كم من غنى طرّحه البطر والأثر أقبح مطرح ، هذا قارون ملك الكثير والقليل لم يسمح ، يتعشاً شيعاً وينسى الطلّغ ^(٢) ، بُيّه فلم يزُل نوّمه ولم ينجح فلم ينفع لوّمه « إذ قال له قومّه لا تفرح » .

أحده ما أمسى للساء وما أصبح ، وأصلّى على رسوله محمد الذي أنزل عليه : « ألم نشرح » ، وعلى أبي بكر صاحبه في الدار والغار لم يبرح ، وعلى عمر الذي لم يزل في إعزاز الدين يسكنح ، وعلى عثمان ولا أذكر ما جرى ولا أشرح ، وعلى علي الذي كان يفضل قدميه في الوضوء ولا يمسح ، وعلى عمه العباس أقرب الكل نسباً وأزجح .

قال الله تعالى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى » ^(٣) قارون بن بصير بن قاهث . وفي نسبه إلى موسى ثلاثة أقوال : أحدها أنه كان ابن عمه . رواه سعيد بن جبّير عن ابن عباس ، وبه قال النخعي وابن جرير . والثاني : ابن خالته . رواه عطاء عن ابن عباس والثالث : كان عم موسى . قاله ابن إسحاق .

قوله تعالى : « فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ » وفيه خمسة أقوال : أحدها : أنه جعل لبغية جعلاً على أن تغدّف موسى بنفسها ، فعملت فاستحلّفتها موسى على ما قالت فأخبرته بعتبتها . فهذا بقيه . قاله ابن عباس . والثاني : أنه بنى بالكفر . قاله الضحاك . والثالث : بالكبر .

(١) الأصل : الجدوب وهي المكان المجدب . (٢) الطلّغ : الجائع ، واللي التصب . (٣) سورة النجم ٧٦

قاله قتادة . والرابع : أنه زاد في طول ثيابه شيئا . قاله عطاء الخراساني وشهر بن حوشب .
والخامس : أنه كان يخدم فرعون ويعتدي على بني إسرائيل ويظلمهم . حكاه الماوردي .
وفي المراد . بمفاحه قولان : أحدهما : أنها مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب .
قاله مجاهد وقتادة . قال خزيمة : كانت المفاتيح التي تفتح بها الأبواب وقر^(١)ستين بنلا ،
وكانت من جلود ، كل مفتاح مثل الإصبع . والثاني : أن المراد بالمفاتيح الخزائن ، قاله
السدي وأبو صالح والضحاك . قال الزجاج : وهذا الأشبه وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة .
قال أبو صالح : كانت خزائنه تحمل على أربعين بنلا .

قوله تعالى : « لَتَنفُوَ بِالْمُصْبَةِ » أي تُنْقَلِبُهم وتُحْمِلُهم . والمُصْبَةُ : الجماعة . وفي المراد بها
ها هنا ستة أقوال : أحدها : أربعون رجلا . رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : مابين
الثلاثة إلى العشرة . رواه الضحاك عن ابن عباس . والثالث : خمسة عشر . قاله مجاهد .
والرابع : فوق العشرة إلى الأربعين . قاله قتادة . والخامس : سبعون رجلا . قاله أبو
صالح . والسادس : مابين خمسة عشر إلى الأربعين . حكاه الزجاج .

قوله تعالى : « إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ » يعني للؤمنين « لَا تَفْرَحْ » أي لَا تَبْتَغِ « وَابْتَغِ
فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الْبَارَ الْآخِرَةَ » يعني الجنة بإضافته في طاعته . « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ
الدُّنْيَا » وهو أن تعمل فيها للآخرة « وَأَحْسِنْ » يعطاه فضل مالك « كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ
لِإِيَّاكَ » بأن زادك على قدر حاجتك « وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ » بأن تعمل بالمعاصي .

« قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي » فيه خمسة أقوال : أحدها : على علم عندي
بصفة الذهب . رواه أبو صالح عن ابن عباس . قال الزجاج : وهذا لا أصل له ، لأن
الكيمياء باطل لا حقيقة له . والثاني : رضا الله عني . قاله ابن زيد . والثالث : على خير
علمه الله مني . قاله مقاتل . والرابع : إنما أعطيت به بفضل علي . قاله القراء . والخامس :
على علم عندي بوجوه المكاسب . ذكره الماوردي .

(١) الرمز : الحقل التليل ، أو أم .

قوله تعالى : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » قال قتادة : يدخلون النار بنير حساب .

« تَفْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ » في ثياب خمر وصُفُر . قال عكرمة : في ثياب مُعَصْفَرَةٍ . قال وهب بن منبه : خرج على بقة شبيهة عليها سرج أحمر من أرجوان ، ومعه أربعة آلاف مقاتل وثلاثمائة وصيفة عليهن الخلل والزينة ، على بغال بيض . قال الزجاج : الأرجوان : صبيغ أحمر .

قوله تعالى : « وَلَا يُلْقَاهَا » يعنى الكلمة التى قالها المؤمنون وهى : « ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ » . قال ابن عباس : لما نزلت الزكاة أتى موسى وهرون فارون فصالحه على كل ألف دينار ديناراً ، وعلى كل ألف درهم درهماً وعلى كل ألف شاة شاة . فوجد ذلك مالا كثيراً فجمع بنى إسرائيل وقال : إن موسى يريد أنموالكم . قالوا : فإذا تأمرنا ؟ قال : نجعل لفلانة البنية جعلاً فتقذره بنفسها . ففعلوا . ثم أتاه فارون فقال : إن قومك قد اجتمعوا لتأمرهم وتتهمهم . فخرج فقال : يا بنى إسرائيل من سرق قطعنا يده ، ومن افترى جلدناه ثمانين ، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة فإن كانت له امرأة جلدناه حتى يموت . فقال له فارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا . قال : فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فخرت بفلانة . قال : ادعوها فلما جاءت قال موسى : يا فلانة أنا فعلت ما يقول هؤلاء ؟ قالت : لا كذبوا ، وإنما جعلوا لى جعلاً على أن أقذفك . فسجد فأوحى الله عز وجل إليه : مَرِ الْأَرْضَ بِمَا شِئْتَ . فقال : يا أرض خذيه . فأخذته حتى غيبت سريره فلما رأى ذلك ناشده بالرحم فقال : خذيه فأخذته حتى غيبت قدميه ، فما زال يقول : خذيه . حتى غيبتة فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ما أظفك اوعزنى وجلالى لو استفثت لى لأعنته ! قال سمرة بن جندب : يُخْصَفُ به كل يوم قامة ، فيبلغ به إلى الأرض السفلى يوم القيامة .

فلما هلك قال بنو إسرائيل : إنما أهلكه موسى ليأخذ ماله وداره . فغضب الله بداره وبماله بعد ثلاثة أيام .

« فإكان له مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصَرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى: يَنْصَرُونَهُ مِنْ اللَّهِ .
فأصبح التَّمَنُّونُ مكانه قد نذرهم على تمنهم ، فجعلوا يقولون : « لولا أنْ مِنْ اللَّهِ علينا لَنُحْصِفَ بنا وَيَكُنَّا لَهُ » قال ابن الأنبارى : إن شئتَ قلت : « ويك » حرف « وأنه » حرف . والمعنى : ألم تر أنه قال الشاعر (١) :

نَسَأَلَانِي (٢) الطَّلَاقَ أَنْ تَزَيَّانِي قُلَّ مَالِي قَدْ جِئْنَا بِهِ بِجَرٍ
ويك أنْ مِنْ يَكُنْ لَهُ نَسَبٌ (٣)

وإن شئتَ جملت « وَى » حرفاً ويكون معنى « وَى » التعجب كما تقول : وى !
لَمْ فَعَلْتَ كَذَا ؟ ويكون معنى « كَأَنَّهُ » أظنه وأعلمه ، كما تقول : كأنك بالفرج قد أقبل .
والمعنى أظنه مقبلاً . وإنما وصَلُوا الياء بالكاف لأن الكلام بهما كثر .
وذكر الزجَّاج عن الخليل أنه : قال « وَى » مفصولة من « كَأَن » وذلك أن القوم
ندموا فقالوا : وى . متقدمين على ما سلف منهم .

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ » بمعنى الجنة « تَجْمَلُهَا الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ »
وهو البنى « ولا فساداً » وهو العمل بالمعاصى « والعاقبة » المحمودة « لِلْمُتَّقِينَ » .

الكلام على البسملة

أَبَا وَالِي الْمَعْرِ لَا تَقْلُنْ فَمَكْ جَاءَ مَثَلُكَ نَمِ انصَرَفَ
وقد أَبَرَ النَحْلُ مَلَأَكَ فَنَقَصَ عِزَّهُمُ واحترف
فَلَا تُزِيلَنَّ حِبَالِ الْمَنَى وَأَمْسَكَ بِكَفِّكَ مِنْهَا طَرَفَ
تعارف مستكثرات الذنوب وَتَفَلُّ عَنْ ذَنْبِكَ الْمُقْتَرَفَ

أين من جمع الأموال وتمولها، وطاف البلاد وجولها ، وشق أنهار الأرض وجدولها ،
رأت والله كلَّ عاملة علمها ، ونزأت بعد سفرها منزلاً ، عنت الوجوه على جسور الناي

(١) ورد البيت الثاني في اللسان ونسبه لزيد بن عمرو بن ثعلب ، وقال لثيب بن الحجاج . اللسان ٣٠١/٢٠ .
(٢) الأصل : سألتى . محرفة . (٣) الرواية في الأصل : ويك أت من لم يكن له نسب .
والصواب من اللسان .

الحواسب ، وأذلَّ قَبْرُ الموتِ الشوامس ، وصيَّرَ الفصحاء في مقامِ الحواميس ، يالْيَسَالِي
الرض إنَّها لِيَالِ دِوامس ، يا لَسَاعَةَ اللَّعْد حينَ تحبُّو الروامس ، كم لقيت وجوه نِوام
من أ كَفَ طَوامس ، كم تَرَحَّلْت من دارِ السَّلامَةِ إلى عَسْكَر^(١) البليِّ فِوارس .
سَتَقْتَرِ الأمصارُ من أهلِها بِمَجادِناتٍ تَمُتُّ السَّيِّب^(٢)
يُؤْثِّبُ الحافظُ أَقْبالَه وَتَفْضَحُ الأفاثُ ما أَشْبا^(٣)

لقد هلكت في الزمانِ جَدِيدِيسَهُ وطُسُّهُ ، ولقد ذهب من كان وكان اسمه ، فلا عينه ترى
ولا رُثمَهُ ، ولا جِوهره يُحَسُّ ولا جسمه ، تَبَدَّدَ والله بالِماتِ نَظْمُهُ ، ولحق بالرافاتِ نَظْمُهُ .
كم طَلُوفُوا بالبلادِ وَجِوُّوا ، كم أوعِدُوا أَعْدائَهُم وهَوُّوا ، كم جَمَعُوا وَكَم تَخَوُّوا ،
كم أَقْتَنُوا وَكَم تَمَوُّوا ، كم طالُوا وما تَطَوُّوا ، والحقَّ أَنَّهُم على الأملِ عَوُّوا ، فساكن
إلا التليلِ وتَفَوُّوا ، وَجَلَّةُ الأمرِ أَنَّهُم تَمَوُّوا ، واستطالت على الورى عَصَبُ ما تَطَوُّوا ،
ظهِروا في البلادِ عَمراً وطافُوا وَجِوُّوا ، بَخَوُّوا نَمَةً قَلِمَ بِشَكْرُوا ما تَخَوُّوا ، فانظر الآن
فيهم أَى غولٍ تَمَوُّوا ، وأقاموا فما قيل^(٤) فَازُوا ولكن تَمَوُّوا .

كم مَلَأُوا - حِلًّا وَجِلًّا شاءَ وإِلاَّ ، فلما سَلَسَكُوا إلى اللوتِ سُبُلًا ، وعابنوه يومَ الرحيلِ
قُبُلًا ، وتَهَيَّأُوا لِلزَّوْلِ في دارِ البليِّ علِمُوا أن ما كانوا^(٥) فيه عينَ البَلَا .

أطاعوا إذا الخِداعِ^(٦) وَصَدَّقُوهُ وَكَمْ نَصَحَ النَصيحُ فَكَدَّرُوهُ
وَلَمْ يَرْضُوا بِما سَكَنُوا سَتِيدِ إلى أَنْ فَضَّضُوهُ وَذَهَبُوهُ
أَظَلُّوا^(٧) بِالتَّبِيحِ فَتَابَمُوهُ وَلَوْ أَمَرُوا بِهِ لَتَجَنَّبُوهُ
نَهَامَ عَنِ طِلَّابِ اللَّالِ زُهِدْ فَنَادَى الحِرْصُ وَلِكَمْ اظْلَبُوهُ
فَأَقَاعَها إلى أَسْماعِ غُثَرِ^(٨) إِذَا عَرَفُوا الطَّرِيقَ تَمَكَّبُوهُ
وَحَبِلَ اليَسِيسُ مَتَنَكَّتْ ضَمِيرُ وَرَثَمَ الرَّأْيَ أَنْ لا يَحْذَبُوهُ

(١) ت : إلى دار البلي . (٢) السَّيْب : اللقطة . (٣) تَأَخَّبَ الشجر : التفت . وأُشْبِهَ
تَأَشَّيَا . واللى : يلقى ويبلغ . (٤) الأَصْلُ قَبِيل . محرفة . (٥) الأَصْلُ : ماتوا . محرفة .
(٦) الأَصْلُ : للخِداع . محرفة . (٧) كَفَّأ . (٨) التثر : سفلة الناس .

حَسْبُكُمْ يَا بَنِي حَوَاشِيَاءَ نَجَاؤُكُمْ الَّذِي لَمْ تَحْبِسُوهُ
أُدِينُ^(١) الشَّرُّ مِنْكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَمَاتَ اتَّقِيرُ فِيكُمْ فَانْدَبُوهُ
كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ : أَسْمِعْ أَصَوَاتَا^(٢) وَلَا أَرَى أُنْيَا ، إِمَّا دِينَ أَحَدَهُمْ لِقَعَةً عَلَى لِسَانِهِ ،
وَلَوْ سَأَلْتُهُ : أَتَعْرِفُ يَوْمَ الْحِسَابِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . وَكَذَّبَ وَمَا لَكَ يَوْمَ الدِّينِ .
يَا مَنْ كَتَابَهُ يَمْحُو حَقِّي حَبَّةَ خُرْدَةٍ ، وَعَلَيْهِ شَاهِدَانِ كَلَامُهُمَا مُعَدَّلٌ ، وَسَيَلْتَحِفُ
الْغَرَابُ وَيَتَوَسَّدُ الْجَنْدَلُ ، وَهُوَ يَمْشِي مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ مَشْيَةَ الشَّمْرِ دَلِ^(٣) .

تَمَرُّكَ^(٤) مَا الدُّنْيَا بِدَارِ إِقَامَةٍ وَلَا الْحَيُّ فِي دَارِ السَّلَامَةِ آمِينَ
تَحَارَبْنَا أَلَمْنَا وَلَمْنَا رَضَى بِذَلِكَ لَوْ أَنَّ النَّبَا تَهَادَنُ
أَرَى الْحَيْرَةَ الْبَيْضَاءَ عَادَتْ^(٥) نَعُورُهَا خَلَاءٌ وَلَمْ تَنْهَتْ لِكُسْرَى الدَّائِنُ
رَكِبْنَا مِنَ الْأَمَالِ فِي الدَّهْرِ تِلْجَةً فَمَا صَبِرَتْ لِلْوَجْرِ تِلْكَ السَّفَاةُ
نَجَّى الرِّزَايَا بِالنَّاسِ كَأَمَّا نَفْسُ الْبَرَايَا لِلْحِمَامِ رَهَائِنُ

السَّلاَمُ عَلَى قَوْمِهِ الْعَالِي

﴿ ذَرُّهُمْ يَا كُلُوا وَيَسْتَعْمُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ﴾

إِخْوَانِي : اعْتَبَرُوا بِمَنْ مَضَى مِنَ الْأَقْرَانِ ، وَتَفَكَّرُوا فِي مَنْ بَقِيَ كَيْفَ بَانَ ،
تَقَلَّبَتْ وَاقَهُ بِهِمُ الْأَحْوَالُ وَلَمَسَتْ بِهِمْ أَيْدِي الْبَلْبَالِ ، وَنَسِيَهُمْ أَحِبَّائُهُمْ بَعْدَ لَيْلٍ ، وَعَانَقُوا
الْغَرَابَ وَفَارَقُوا الْمَالَ ، فَلَوْ أُذِنَ لِمَا سَتَمَهُمْ لَقَالَ :

مَنْ رَأَانَا فَلْيَحْدِثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مُؤَفٍّ عَلَى قُرْبٍ^(٦) زَوَالٍ
وَصُرُوفٍ الدَّهْرِ لَا يَبْقَى لَهَا وَلِيًّا تَأْتِي بِهِ صُمُّ الْجَبَالِ
رُبَّ رَكِيبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوَانَا يَشْرَبُونَ الْحَمْرَ بِالْبَاءِ الزُّهْلَانِ
وَالْأَبَارِيقِ عَلَيْهَا قَدِمَ وَعِثَاقُ الْخَلِيلِ تَرْدِي فِي الْجِلَالِ^(٧)

(١) الأصل : أدبك . عمرة . (٢) ت : صوتا . (٣) الشمر دل : الطويل (٤) ت : وعيبك .

(٥) ت : جارت . (٦) ت : على قرن . (٧) ب : عليهم وتردى : تسرع . والجلال :
جمع جل وهو ما تلبسه الغاية لتصان به .

عمروا دهرًا ببشي حسنٍ آمينُ دهرهم غدير عجال
ثم أضخوا قلب الدهر بهم وكذلك الدهر حالٌ بعد حالٍ^(١)

يا مشغولًا بالأمل واللى ، تأهب لمصرعٍ قد قارب ودنا ، وتزود القبر من الصبر
كفنا ، ونهباً لحرب الهوى فإذا عزمت فألق القنا ، فاللحودُ اللقيل وبیت الموتى لا يبقی ،
وحاكم العدل يحاكي كلاً بما جنى .

لا بدّ للإنسان من ضجّةٍ لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبهِ بما أذاق الموت من كَرْبه
نحن بنو الموتى فما بالنا نعاثُ ما لا بُدَّ من شرِّه
يموت راعي الضأن في جملهِ موتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سربه
وغاية المفراط في سلبه كغاية المفراط في حربهِ^(٢)

كأنك بك وقد مدّ كفّه إليك المجالس ، وافترسك أجلٌ كم^(٣) قد قرى في
الفراس ، وحللت بقاع البلى غلت منك المجالس ، ونفر وبُعد عنك الصديق الصدوق
والودود المجالس ، وترك زيارتك من كان لك في الوحدة يؤانس ، وحُبست في ضنك
ضيق من المجالس ، وأصبح ربك بعد بُعدك وهو خالٍ دارس ، ونزلت لحذك وحدك في ظلم
الحنادس ، وبكى الأهل ساعةً والرموس للتوى نواكس ، ثم عادوا إلى الحلة وكل في حله
آيس^(٤) ، وانطلقوا فأطلقوا أموالك الحبائس ، وأنت تحنى التود كلاً والتود يابس ،
ولقيت قِرْناً من الردى فياشدة للتشاويس ، وتوصّضت الرغام على الرغم والتزى بالثرى
بعد اللابس ، فياؤس هذا اللبوس وبازل هذا اللابس ، فلو أطلس عليك بعد يوم خامس

(١) ب : حالا بعد حال . (٢) الأبيات للشنفي ديوانه ص ٧٧ . تحقيق هزام . .

(٣) كذا بالأصل وآيس : لان وذل . (٤) الأمل : أحد . محرفة .

أو سادس لرئي أثر بعد عين قد غيرته الطوامس ، وجاءك منكرو ونكبر نخبير عن حرب
البوس وداحس ، وبقيت يحدثنا يجرى على سر المدي في المدارس ، فاعتنم حياتك قبل
المات فأنفاس النفوس نفاس ، إذا الأمل الطويل كم آذى حديث الوسوس ، يا مُنْأَجِي
المنى ودع هذه المواجس ، أين أرباب القصور ، هذه طولها تمنطق ^(١) بانخراب سورها
فنطق تحيلها ، سحبت على جيوبها من جنوبها ذيلها ، قل لها أين عاصرها أم أين نزيلها ،
يا كثير الأسئلة لها كم تطيلها ، كانت فيها جيرة ثم أتى رحيلها ، فاليوم تندب أطلالم
والفرقان رصيلها ، ماردت شواجر الرماح ولادفع صقيلها ، ولا منعت تلك الطلأ كالرعد
صليلها ، أمر لا مرد له ^(٢) مرت به مُردّها وكهولها ، وتتابع به آسادها في بحر الهلاك
وشبولها ، وعقرت في جواد النوى سيف الثواء خيولها ، وتساوى في جرير الآفات
صعبها وذلولها ، أما يكنى القلوب النافلة وعظاً دليلها ، بالنفوس أمرضها الهوى ما يشفى
عليها ، أما هذه طريقها أما هذه سبيلها ، يالها من موعظة كم تسمعها وكم تقولها .

خلج والله البين من القوم من خلج ، وأمّ الموت آملهم فلا تسأل كيف انزعج ،
واستنزل عليهم من أعالي الدّرج فدرج ، وساروا في عسكر البلى فأتلفهم الوهج ،
وزفرت ^(٣) أبدانهم بعد طيب الأرج ، ونسج لهم البلى ثوبا فيا بئس ما نسج ، وعاموا
في بحر الأسى فلجج بهم في اللّجج ، ولقيهم من البلاء ما ضوعف وازدوج ، واستفأوا
ولكن في غير أوان الفرج ، وطلبوا راحة ولكنه زمان الحرج ، وسئلوا فقدموا
تصحيح الجواب وتحقيق اللّجج ، فيا أسفا لمستولم لا فاز ولا فلقج :

إنّ قوى صدّ عنهم توبة شقق البرد ^(٤) البمانى يبط
قل لأحداث رمى الدهر بهم فهم في رقع الدهر نقط
ذاقهم مُنْطلياً أرواحهم ورأى المضع طويلا فاشترط

(١) تمنطق : ليس المنطقه . وفي الأصل : تمنطق . عرفة . (٢) الأصل : لا مردّها . محرقة .

(٣) زفرت : تنير ريجها . (٤) ب : البرق . عرفة . والشقق : جم شقة ، وهي ما شق من
الثوب مستطيلا . ويبط : يشق .

وَتَوَاقِي غَيْرِ بَاقِينَ وَمَكَّ
وَإِذَا كَشَفْتُ مَا يُرْمَضُ^(٢) مِنْ مَضِيضِ الدَّاءِ قَالَ الْحِلْمُ غَطَّ

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ ، أَنبَأَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي صَادِقٍ ، أَنبَأَنَا
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَاكُورٍ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ بَكْرِ الرُّوْيَانِيُّ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ
اللَّارِسْتَانِيُّ ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الرَّبِيعِيِّ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْقَهْرِيِّ ، عَنْ
أَبِيهِ أَنْ فَتًى كَانَ عَلَى عَهْدِ الْحَسَنِ ، وَكَانَ مَرْطَاقًا حَقَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِينَا هُوَ كَذَلِكَ
فِي تَفْرِيطِهِ أَخَذَهُ اللَّهُ بِالْمَرَضِ أَخَذَهُ شَدِيدَةً ، فَلَا آلَهُ الْوَجْعُ نَادَى بِصَوْتٍ مَكْسَرٍ مَحْزُونٍ :
إِلَهِي وَسَيِّدِي أَعْلَى عَثَرْتِي وَأَقْنِي مِنْ صَرَعَتِي ، فَإِنِّي لَا أَعُودُ . فَأَقَامَهُ اللَّهُ مِنْ صَرَعَتِهِ فَرَجَعَ
إِلَى أَشَدِّ مَآكَانَ فِيهِ ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ أَخَذَةً ثَالِثَةً فَقَالَ إِلَهِي أَعْلَى عَثَرْتِي وَأَقْنِي مِنْ صَرَعَتِي
فَإِنِّي لَا أَعُودُ أَبَدًا ، فَأَقَامَهُ اللَّهُ مِنْ صَرَعَتِهِ فَرَجَعَ إِلَى أَشَدِّ مَآكَانَ ، فِينَا هُوَ مَارٍ فِي بَعْضِ
أَيَّامِهِ إِذْ نَظَرَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ بِضَرْبٍ بَارِدَانِهِ وَيَنْظُرُ فِي أُعْطَافِهِ فَقَالَ : يَا فَتَى خَفِيَ اللَّهُ كَأَنَّكَ
تَرَاهُ فَلَيْنَ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ . فَقَالَ : إِلَيْكَ عَنِّي يَا أَبَا سَعِيدٍ فَإِنَّا أَحْدَثْنَا نَزِيدَ أَنْ
نَذُوقَ^(٣) الدُّنْيَا . فَقَالَ الْحَسَنُ : كَأَنَّكُمْ بِالْمَوْتِ قَدْ تَزَلَّ بِسَاحَةِ هَذَا الشَّابِّ فَرَضَهُ رِضَا .
فِينَا الْحَسَنُ فِي مَجْلِسِهِ إِذْ أَقْبَلَ أَخُو الْفَتَى إِلَيْهِ فَقَالَ : يَا أَبَا سَعِيدٍ إِنِ الْفَتَى الَّذِي كُنْتَ
تَعِظُهُ هُوَ أَخِي ، وَقَدْ وَقَعَ فِي سَكْرَاتِ اللَّوْتِ وَغُصَّصَهُ . فَقَالَ الْحَسَنُ لِأَصْحَابِهِ : قُومُوا نَنْظُرْ
مَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِ . فَلَمَّا أَقْبَلَ الْحَسَنُ قَرَعَ الْبَابَ فَقَالَتْ أُمُّهُ مِنَ الْبَابِ ؟ فَقَالَ : الْحَسَنُ . فَقَالَتْ :
يَا أَبَا سَعِيدٍ مِثْلُكَ يَأْتِي إِلَى مِثْلِ وَلَدِي ! أَيْ شَيْءٍ تَعْمَلُ عَلَى بَابِ وَلَدِي وَوَلَدِي لَمْ يَتْرِكْ ذَنْبًا
إِلَّا رَاكَ بِهِ وَلَا مَحْرَمًا إِلَّا أَتَاهُ . فَقَالَ : اسْتَأْذِنِي لَنَا عَلَيْهِ فَلَيْنَ رَبَّنَا سَبْعَانَهُ يُقِيلُ
الْمِثْرَاتِ . فَقَالَتْ : يَا بَنِي هَذَا الْحَسَنِ بِالْبَابِ فَقَالَ : يَا أُمَامَةُ أَتُرَى جَاءَنِي الْحَسَنُ عَائِدًا
أَوْ مُوْتِمًا ؟ فَفَتَحَتْ لَهُ الْبَابَ . فَفَتَحَتْ لَهُ فَدَخَلَ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ يَمَاجُ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ قَالَ لَهُ :
يَا فَتَى اسْتَقِلَّ اللَّهُ يُقَلِّكَ . فَقَالَ : يَا أَبَا سَعِيدٍ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ . قَالَ : أَوْ تَصِفُ اللَّهُ بِالْبُخْلِ

(١) القِرط : السابق . (٢) في الأصل : يَرْضَى . محرفة . (٣) به : نفق . محرفة .

وهو الجواد الكريم ! فقال : يا أبا سعيد إني عصيته فاستغفرت فآفأني ، فعصيته فأمرضني ، فاستغفرت فآفأني ، وهذه الخفاصة ، فلما استقلت نادى من زاوية البيت ، أسمع الصوت ولا أرى الشخص : لا ليبيك ولا سعديك قد جربناك مرارا فوجدناك غداراً . فقال الحسن لأصحابه : قوموا بنا . فلما أن خرج الحسن قال لأمه : هذا الحسن قد آتسنى من سيدي وسيدي يقبل التوبة عن عباده ويضو عن السيئات ، يا أمه إذا رأيته وقد تحول السواد بياضا ورشح الفوت جبينه وغارت المينان واصفر البنان وانقطع اللسان ، تغذى للدرة من تحت رأسى وضى خدي على الثرى واستوهينى من سيدي ، فإن سيدي يقبل التوبة . فلما نظرت إليه يمالج سكرات اللوت أخذت للدرة من تحت رأسه ووضعت خده على التراب وشدت وسطها بجمل من ليف ونشرت شعرها ورفعت رأسها نحو السماء ثم نادى : إلهى وسيدي أسألك بالرحمة التى رحمت بها يعقوب فجمعت بينه وبين ولده ، وأسألك بالرحمة التى رحمت بها أيوب فكشفت عنه البلاء إلا مراحمتى ولدى ووهبت لى ذنبه . وسمع الحسن هاتفا يقول : إن الله تعالى قد رحم الفقى وهو من أهل الجنة . فحضر الحسن وجميع أصحابه جنازته .

يا أهل الذنوب لا يفرنكم الإمهال فلإنما هى أيام وليال ، رب مشغول ببلداته عن ذكر تخريب ذاته ، يلهو بأمله عن تجويد عمله ، يتقلب فى أغراضه ناسياً قُرب إمرأته ، بفته القاجع ببابه فأخذه عن أهله وجَلَّاسه .

سمع على قومه تعالى

﴿ ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ﴾

كم مأخوذ على الزلل ختم له بسوء العمل ، نزل به الموت ، فياهمون ما نزل ، فأسكتهم القبر فكان لم ينزل ، وهذا مصير الغافل لو غفل ﴿ ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ﴾ .

كم نأثم على فراش التقصير ، مفتقر بعمير قصير ، صاح به فلم يبال النذير ، فاستلبه الخطأ والتبذير ، فلما أحسّ الباس ثارت من نيران الندم شعل « دَرَّهْمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ » .

كم مستحل شراب الهوى شرب من كأسه حتى ارتوى ، بيناهو على جادة إعراضه هوى ، فما نفعه عند اللوت ما حوى ، ولا ما شرب ولا ما أكل « دَرَّهْمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ » .

لا تفتقر بنعيم القوم ، فإن غداً بعد اليوم ، دَعَمَ فما يؤثر فيهم اللوم ، وهل ينفع التحريك ميتاً وهل « دَرَّهْمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ » .

يحمون الخطام بكسب الحرام ، ويتفكرون في نصّب شرك الآثام والناس نيام ، يرقدون في الليل وفكرهم في الويل طويل لا ينام ، والأقدام فيما لا يحل إقدام تسمى في هواها سعى الرّمل « دَرَّهْمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ » .

ما عندهم خبر من الساعة ، والعمر يمضي ساعة فساعة ، خسروا في أشرف تجارة وأغل بضاعة ، يتناقلون تناقل عطار د في الطاعة ، فإذا لاح الذنب فزحل « دَرَّهْمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ » .

كيف بكف يعيا ويميت ، كيف نَحَذَرُها شر الخطايا وكلّ فعلها خيبت .
كيف نخوفها قليل الذنب ولسان الحلال يستغيث ، أنا القريق فما خوف من البَلّ
« دَرَّهْمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ » .
وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس الثامن عشر

في قصة بلعام

الحمد لله الذي إذا لطف أعان ، وإذا عطف صان ، أكرم من شاء كما شاء وأهان ،
أخرج الخليل من آزر ومن نوح كنعان ، يميت ويحيي ويغني ويشتي كل يوم هوى
شان ، يزين بموهبة العلم فإذا لم يعمل به شان ، خلع خلة العلم على بلعام فلم يصنها ومال
بهواه إلى ما عنده ينهى « وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتِمَّةُ
الشيطان » .

أحمد في السر والإعلان ، وأصلى على رسوله محمد الذي انشق ليلة ولادته الإيوان ،
وعلى أبي بكر أول من جمع القرآن ، وعلى الفاروق الموصوف بالمعدل وكذلك كان ،
وعلى التقي الحجة عثمان ، وعلى علي سيد العلماء والشجعان ، وعلى عمه العباس المستقي
به فسال التهنان .

قال الله تعالى : « وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا » (١) .
في المشار إليه ستة أقوال : أخذها : أنه أُمِّيَّة بن أبي الصَّلْت . قاله عبد الله بن عمرو
ابن العاص ، وسعيد بن السيب ، وزيد بن أسلم ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أنه سيأتي
رسولٌ ، ورجا أن يكون هو ، فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وكفر .
والثاني : أبو عامر الرأهب . قال ابن عباس : الأنصار تقول : إنه أبو عامر .
والثالث : أنه كان رجلٌ من بني إسرائيل ، أُعطي ثلاث دعوات مستجابات ،
وكانت له امرأة دَمِيعة ، فقالت له : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة فدعا لها فرغبت عن
زوجها ، فدعا عليها أن يجعلها كلبية نَبَاحَة ، فجاء بنوها وقالوا : لا صبر لنا على تغيير
الناس لنا بأمناء ، فدعا أن تكون كما كانت ، فذهبت الثلاث دعوات . رواه عكرمة
عن ابن عباس .

والرابع : أنه كل مَنْ انسلخ من الحق بعد أن أعطيه من اليهود والنصارى والحنفاء .
قاله عكرمة .

والخامس : أنه المنافق . قاله الحسن .

والسادس : أنه بلعام ، قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي
وهو للشهور والأثبت .

وفي الآيات التي أوتيتها أربعة أقوال : أحدها اسم الله الأعظم . رواه ابن أبي طلحة
عن ابن عباس ، وبه قال ابن جرير . والثاني : أنها كتاب من كتب الله . روى
عن ابن عباس . والثالث : أنها حُجَبِج التوحيد وفهم أدلته . والرابع : أنها العلم بكتب
الله تعالى .

وكان من خبر بلعام : أن موسى عليه السلام غزا البلدة الذي هو فيه وكانوا كفاراً ،
وكان هو مجاب الدعوة ، فأتاه قومه فقالوا : هذا موسى قد جاء يُخْرِجُنَا مِنْ بِلَادِنَا وَيَقْتُلُنَا
وَيُعْلِقُنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، ونحن قومك فادع الله عليهم . فقال : ويلكم نبي الله ومعه
الملائكة والمؤمنون ، فكيف أدعو عليهم ؟ فقالوا : ما لنا من مترك . فلم يزالوا يرفعونه
ويتضرعون إليه حتى افتتن ، فركب حماره متوجهاً إلى عسكر موسى ، فاسار إلا
القليل حتى ربيض دابته به فنزل عنها فترهبها ، فقالت : ويحك يا بلعام أين تذهب ا
ألا ترى للملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ، أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو
عليهم ؟ فلم ينزع عنها وضربها ، فانطلقت به حتى إذا أشرف على عسكر موسى جمل
لا يدعو عليهم بشيء إلا عرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل ، فقال له قومه : إنما
تدعو علينا . فقال : هذا شيء لا أملكه . إلا أنه دعا ألا يدخل موسى المدينة فوقعوا
في التيه ، فقال موسى : اللهم كما سمعت دعاءه على فاسمع دعائي عليه ، فدعا الله أن ينزع
منه الاسم الأعظم ، فنزع منه واندلج لسانه فوقع على صدره . فقال لقومه : قد ذهبت مني
الآن الدنيا والآخرة ، فلم يبق إلا السكر والحيلة ، جملوا النساء وأعطوهن السلع

وأرسلوهن في العسكر يبعنها ، ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من أرادها ، فإنه إن زنى رجلٌ منهم كفيتهموم ! ففعلوا ذلك فوقع رجل منهم على امرأة فأرسل الله تعالى الطاعون على بني إسرائيل حينئذ ، فهلك منهم سبعون ألفاً في ساعة واحدة !

وروى السدي عن أشياخه أن بلاءهم قال لقومه : لا ترهبوا بني إسرائيل فإنكم إذا خرجتم لقتالهم دعوتُ عليهم . وكان رغبه فيا عندهم من الدنيا . وقال غيره : خوفه منكهم فنعت له خشبة ليصلي عليها ، فدعا عليهم .

وقوله : « فانسح منها » أي خرج من العلم بها « فأتبعه الشيطان » أي أدركه « فكان من الفارين » يعني الضالين .

قوله تعالى : « ولو شئنا لرفعناه بها » في هاء الكتابة قولان : أحدهما أنها تعود إلى الإنسان المذكور . قاله الجمهور . والثاني : إلى الكفر بالآيات ، فيكون المعنى : ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا . روى عن مجاهد . « ولكنه أخذ إلى الأرض » أي ركن إلى الدنيا وسكن « وأتبع هواه » أي انقاد إلى ما دعه إلى الهوى .

وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء إذا مالوا عن العلم إلى الهوى .
« فقله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » المعنى : أن الكافر إن زجرته لم يزجر ، وإن تركته لم يهتد ، كالكلب إن طرد كان لاهتاً وإن ترك كان لاهتاً . قال ابن قتيبة : كل لاهث إنما يكون من إعياء أو عطش إلا الكلب ، فإنه يلهث في حال راحته وحال كلاله ؛ وفي حال الري وحال العطش .

قال المفسرون : زجر في منامه عن الدعاء على بني إسرائيل فلم يزجر ، وخطبه أأناه فلم ينته .

❦

وهذا رجل لم ينفعه علمه بل ضربه . قال سفيان بن عيينة : العلم يضرك إذا لم ينفعك . وقال منصور بن زاذان : نبئت أن بعض من يلقى في النار يتأذى أهل النار برحمه فيقال له : ويحك ما كنت تعمل ؟ أما يكفيك ما نحن فيه من الشر حتى ابتلينا بك وبنين ريمك ! فيقول : كنت عالماً ولم أتنفع بعلمي .

وكتب حكيم إلى حكيم : يا أخى قد أوتيت علماً فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب
فبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور عليهم !
وكان عيسى بن مريم يقول : يا معاشر العلماء مثلكم مثل الذئب^(١) يجب ورده
من نظر إليه ويقتل طعمه من أكله ، كلامكم دواء يبرى الداء وأعمالكم داء لا يقبل
الدواء ، والحكمة تخرج من أفواهكم وليس بينها وبين آذانكم إلا أربع أصابع ثم لا تمسها
قلوبكم ! معشر العلماء كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به ولا يطلبه
ليعمل به ، العلم فوق رموسكم والعمل تحت أقدامكم ، فلا أحرار كرام ولا عبيد أتقياء .

الكلام على البصرة

جِدُّوا فَإِنَّ الْأَمْرَ جِدٌّ وَلَهُ أُعِدُّوا وَاسْتَعِدُّوا
لَا يَسْتَقَالُ الْيَوْمُ إِنْ وُلِّيَ وَلَا لِلْأَمْرِ رَدُّ
لَا تَفْتَلَنَ فَإِنَّمَا آجَالُكُمْ نَفْسُ يُمَّةٍ
وَحَوَادِثُ الدُّنْيَا تَرَوْحَ عَلَيْكُمْ طَوْرًا وَتَقْدُو
أَيُّنَ الْأَوَّلَى كُنَّا نَرَى مَا تَوَا وَنَحْنُ نَمُوتُ بَعْدُ
مَا لِي كَأَنَّ مَنَآئِي يُبْدِي هَلْ لِي وَأَمَالِي كُفْمُ
مَا غَفَلْتُ عَنْ يَوْمِ يَجْمَعُ شِرْتِي كَفَنٌ وَلَحْدُ
ضَمِيَّتْ مَا لَا بَلَى مِنْهُ بِنَالِي مِنْهُ بُدُ
مَا نَحْنُ فِيهِ مَتَاعٌ أَيْ أَمَ يُسَارُ وَيُسْتَرْدُ
إِنْ كَانَ لَا بِمَنِيكَ مَا يَكْفِي فَا بِمَنِيكَ جَدُّ
هُونَ عَلَيْكَ فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ يُعْلَى مَا يَوَدُّ
وَتَوَقَّ نَفْسَكَ فِي هَوَاكَ فَإِنَّهَا لَكَ فِيهِ ضِدَّةٌ
مَنْ كَانَ مَتَّبِعًا هَوَاهُ فَإِنَّهُ لَهَوَاهُ عَبْدُ

❦❦❦

(١) الذئب : نبت مر قتال زهره كالورد الأحمر .

إخواني : متى أصبح الهوى أميرا أمسى العقل أسيرا ، التفوى دِرْع والدِرْع مجموع حَلَق ، ففَضُّ البصر حَلَقَة ، وحَبَسَ اللسان حَلَقَة ، وعلى هذا سائر ما يُتَوَقَّى ، فإِياكَ أن تترك خَبَلًا في دِرْعِكَ فإن الراى يَقْصِدُ الخَلَلَ ، متى فَسَحَتْ لِنَفْسِكَ في تَقْرِيط وإن قَلَّ انْحَرَفَ حِرْزُ احْتِرازِكَ !

كان بعض المتعبدین يمشى في وسط الوحل ويَتَّقِيهِ ويشتر عن ساقيه ، إلى أن زلقت رِجْلُهُ ، فجعل يمشى في وسط الوحل ويبيكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : هذا مثل العبد لا يزال يتوق الذنوب حتى يقع في ذنب وذنوبين فمِنْهُما يخوض الذنوب خوضا .
قيل لَتَبَيِّدَةُ بنت أبي كلاب : ما تشتهين ؟ فقالت : الموت . فقيل : ولم ؟ قالت : لأني والله في كل يوم أصبح أخشى أن أجنى على نفسي جناية يكون فيها عَظَمِي أيام الآخرة .
يا سَتُورًا على الذنب انظر في سِتْرٍ من أنت ، لو عرفتني أعرضت عن غيري ، لو أحبيتني أبغضت ما سِوَايَ ، لو لاحظت لَطَقْتُ لتوكلت ضرورة على ، خاصمتُ عنك قبل وجودك « لَأَنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »^(١) واستكثرت قليل عَمَلِكَ : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات »^(٢) واعتذرتُ لك في ذَلِكَ : « فذلَّاهما بَرُورٍ »^(٣) وغطيت قبيح فعلك « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله »^(٤) ولقنتك عَذْرَكَ عند ذلك : « ما عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ »^(٥) وأربحتك معاملتك : « فله عَشْرُ أمثالها »^(٦) ، من خاسم عنك وأنت مَفْقُود لا يُسَلِّك وأنت موجود ، فأعرف عليك حق ولا تسكن من شرار خلقى ، فكَمْ أَرَى زَلَّةً فَاحْتَمَ وَأَبْقَى .

يا قائما في مقام الجهالة قد رَسَخَ ، يا متكبيرا على إخوانه قد علاَ وشَمَخَ ، يا خارجا عن الحد شغلا باللهو والمطبخ ، يا من في بصره كَمَهِ وفي سممه صَمِخ ، يا طامعا في السلامة مع ترك الاحتقاة ، أَلَيْتَ البذر في السبخ ، متى ينقى قلبك من هذا الدَرَن والوسخ ، متى تتصور نفخة لإسرافيل في الصور إذا نفخ .

(١) سورة البقرة ٣٠ . (٢) سورة الأحزاب ٣٥ . (٣) سورة الأعراف ٢٢ .
(٤) سورة النور ٨ . (٥) سورة الاخطار ٦ . (٦) سورة الأنعام ١٦٠ .

إذا الأمل الطويل العريض، أما أنذرتك الشّعرات البيض، أما الموتُ يَرْتَقُ والشَّيبُ
وميض، محبا لتأمل السّكير المبيض، لقد فأت الفوز قدح لآلئض، يا دأيم الخطأ وكَم
علمٌ وريض، يا معجبا بالسلامة وهو في الحقيقة مريض، لا اللسان محفوظ ولا الجفن
غَضِيض، لا بالفر ترجع إلينا ولا بالقرىض، لقد نزلت بك المعاصي إلى أسفل حضيض.
ليت شِئْرِي بعد الموت إلى أين تذهب، لقد نَمَى والله عليك^(١) الذهب،
لا بد مرةً من كأس الحِمَام تشرب، ولهذه الأجساد المبنية أن تخرب، ولولا فراخ الحياة
ما كانت فيخاخ الموت تُنصَب.

ما لي بما بعد الردى مُحِيره قد أذمت الأنف هذه البره^(٢)
الليل والإصباح واليقظ والإبراد والنزل والقفرة
عشنا وجسر الموت قدأمننا فشمروا الآن لكي نعبه
عيس تبارى بالقلل خذنها^(٣) نجدها يارب بالقفرة
أفقر بالمطم ركايتها والقوم بالدويه القفرة
كم جاوزوا من حنّس مظلم ليبلغوا رحمته النيرة

الكلام على قومه تعالى

{ فاعتبروا يا أولى الأبصار }

الاعتبار : النظر في الأمور ليُعرف بها شيء آخر من غير^(١) جنسها . والأبصار :
العقول . والمعنى : تدبروا .

إخواني : الدنيا دار عبثة ، ما وقعت فيها حَبْره إلا ورَد قَتْها عبثة ، أين من عاشرها
كثيرا وإلّنا ، أين من ملنا إليه [بالوداد]^(٢) وانطلقنا ، أين من ذكرناه بالخامن
ووصفنا ، ما نمرهم لو عنهم كُشفنا ، ما ينطقون لو سألناهم وألّفنا ، وستصير كما صاروا
فلينا أنصفنا ، كم أغضنا من أحببنا على كُرمهم جفنا ، كم ذكرتنا^(٣) مصارع من

(١) ت : علينا . (٢) البرة : حلقة تعمل في أنف البعير . (٣) الخيس : الإبل البيض
يخالط بإخها عقرة . والحدل : الضمام المتلثة . (٤) ت : من جنسها . (٥) من ت .
(٦) ت : أذكرتنا .

فَقِي مِنْ يَفِي ، كَمْ عَزِيْزٍ أَحْبَبْنَا دَفْنَاهُ وَانْصَرَفْنَا ، كَمْ مَوَاسٍ أَضْجَعْنَاهُ فِي الْحَدِّ وَمَا وَقَفْنَاهُ ،
كَمْ كَرِيْمٍ عَلَيْنَا إِذَا جُزْنَا عَلَيْهِ انْخَرَفْنَا ، مَا لَنَا نَتَّعِقُ الْحَقَّ إِذَا أَبَقْنَا صَدْقُنَا ، أَمَا خَرَّ أَهْلُهُ
التَّسْوِيفَ وَهَانَحْنُ قَدْ سَوَقْنَا ، أَمَا التَّرَابُ مَصِيرُنَا فَلَمَّا ذَا مَنَ أَنْفُنَا ، إِلَّامَ تَفَرَّتْنَا السَّلَامَةَ
وَكُنَّا قَدْ تَلَفْنَا .

أَيْنَ حَبِيْبِنَا الَّذِي كَانَ وَانْتَقَلَ ، أَمَا غَمَسَهُ التَّلَفُ فِي بَحْرِهِ وَمَقَلَ ^(١) ، أَيْنَ الْكَثِيْرُ
لِلَّالِ الطَّوِيلِ الْأَمَلِ ، أَمَا خَلَا فِي حُلْدِهِ وَحَدَّه بِالْمَصَلِ ، أَيْنَ مِنْ جِرْذِيْلٍ اغْتِيلَا غَافِلًا
وَرَقْلَ ، أَمَا سَافِرَعْنَا وَإِلَى الْآنَ مَا قَفَلَ ، أَيْنَ مِنْ تَنَمُّ فِي قَصْرِهِ وَفِي قَبْرِهِ قَدْ نَزَلَ ، فَكُنْهُ
فِي الدَّارِ مَا كَانَ وَفِي الْاَلْحَدِّ لَمْ يَزَلْ ، أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ الْأَكَاْسِرَةُ الْتَاةُ الْاَوَّلُ ، مَلَكْتَ أَمْوَالَهُمْ
سِوَاهُمْ وَالدُّنْيَا دَوَّلُ .

خَلَا وَاللهُ مِنْهُمْ النَّادِي الرَّحِيْبُ ، وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ طَوْلُ الْبَكَاءِ وَالتَّعْيِيْبِ ، وَعَابَنُوا مِنْ
مَوَلِّ الْمَطْلَعِ كُلِّ حَبِيْبٍ ، وَشَلَّ عَاصِيَهُمْ فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَجِيْبُ .

مَضَى وَاللهُ السَّكْلُ عَلَى مَنَاجٍ ، وَسَارُوا بَيْنَ غَوَارِبٍ وَأَحْدَاجٍ ^(٢) ، وَرَحَلُوا إِلَى
الْبَيْلِ أَفْوَاجًا بَعْدَ أَفْوَاجٍ . وَلَقُوا النَّبَّ الطَّرِيْقَ عَلَى تَعْبِ الْإِدْلَاجِ ، وَتَوَسَّطُوا بَحْرَ الْجَزَاءِ
لِلذَّهْمِ الْمَجَّاجِ ، وَظَنُّوا سَلَامَتَهُمْ فَهَاجَتْ أَمْوَاجٌ بَعْدَ أَمْوَاجٍ ، وَنُشِرَتْ مَحَاقِفُهُمْ فَلَمَّا بَهَا
كَالْبَلِّ الدَّاجِ ، وَبَاشَرُوا خَشِيْنَ التَّرَابِ بَعْدَ لَيْلِ الدِّيَابِجِ ، وَتَوَعَّضُوا لِحَدِّ غَاصِرَا عَنْ عَاصِرِ
الْأَبْرَاجِ ، وَحَلُّوا إِذْ خَلُّوا فِيهِ حَلِيَّةَ اللَّدْرِ بَعْدَ التَّاجِ ، فَحَاقَ مُحَاسِنُهُمْ بَعْدَ بَهَائِ الْإِبْهَاجِ ^(٣) ،
وَسَلُّوا عَامَّتُمْ فَتَسَمَّ السَّانَ اللَّجْلَاجِ ، وَعَادَتْ نَاسُؤُهُمْ أَيْتَى بَعْدَ الْأَزْوَاجِ :

إِنِّي سَأَلْتُ التَّرَابَ مَا فَعَلْتُ بَعْدُ وَجِوْهُ فَيْكَ مَتَعَفَرُو
فَأَجَابَنِي صَوْرَتُ رَيْحِهِمْ يُوْذِيْكَ بَعْدَ رَوَاجِهِ عَطَرُو
وَأَكَلْتُ أَجْسَادًا مَنَعْتَهُ كَانَ النِّعَمُ يَهْزُهَا نَضْرَهُ

(١) مَقَلَ : أَلْقَى . مَقَلَ التَّلَاةُ : أَلْقَاهَا فِي الْإِنَاءِ وَصَبَّهَا عَلَيْهَا مَا يَفْعُرُهَا مِنْ الْمَاءِ .

(٢) الْغَوَارِبُ : جَمْعُ غَرِيْبٍ وَهُوَ مَا يَنْتَابُ إِلَى الْكَاهِلِ . وَالْأَحْدَاجُ : مَرَاكِبُ الْنِسَاءِ مَفْرَعُهَا حُدَجٌ وَكَالْخَفَةِ .

(٣) الْأَصْلُ : إِبْهَاجُ إِبْهَاجٍ . مَعْرُفَةٌ .

لم يبق غيرُ جاجيمٍ عريتْ بيضٍ تلوح وأعظمُ تحزه
تذكرُ يا من جنى ركوب الجنّازة ، ونصوّرُ يا من ماوى (١) طولُ النّازة ، ودّع
الدنيا مودّعاً للعلاوة والرزازة ، وارثُ من قلبك ذكرُ اللوت على جزازة (٢) ، وخلص
نفسك من غلّ النيل وحزّ الحزازة ، وذكرها يوم تُحسى في التراب منعازه .

سَلْ بِفُتْدَانِ أَيْنَ سَاكِنُهُ سَيْفٌ وَقَلُّ لُتْمَانِ أَيْنَ السَّيْرِ (٣)
أَيُّهَا الظَّاعِنُونَ لَا زَالَ لَيْدِي سِرَّ رَوَاحٍ عَلَيْكُمْ وَيُكْوَرُ
قَدْ رَأَيْنَا دِيَارَكُمْ وَعَلَيْهَا أَثَرٌ مِنْ عَفَائِكُمْ مَهْجُورُ
وَسَأَلْنَا أَطْلَالَهَا فَأَجَابَتْ وَمِنَ الصَّبْرِ وَاعْظُ وَنَذِيرُ
بِأَنَّ ذَلِكَ الْأَسَى عَلَيْهَا فَلَا فَيْثٌ بِكَاءٍ وَلِلنَّسِيمِ زَفِيرُ
ذَكَرْنَا عَهْدَكُمْ بِسَدِّهَا طَا لَتْ لِيَالٍ مِنْ بَدْرِهَا وَشَبُورُ
مَجْهَبًا كَيْفَ لَمْ نَمُتْ فِي مَعَا: يَهَا أَسَى مَا الْقَلُوبُ إِلَّا صُخُورُ
يَا دِيَارَ الْأَحْبَابِ غَيْرِكَ اللَّهُ رُ وَكَانَتْ بِسَدِّ الْأُمُورِ أُمُورُ

أخبرنا سعيد بن أحمد بن البناء ، أنبأنا عاصم بن الحسن ، أنبأنا علي بن محمد اللؤلؤ ،
أنبأنا أبو علي البرذعي ، حدثنا أبو بكر القرشي ، حدثني محمد بن الحسين ، قال حدثني
الصلب بن حكيم ، قال حدثني محبوب العابد ، قال : مررت بدار من دور الكوفة فسمعت
جاريةً تغني من داخل الدار :

أَلَا يَا دَارَ لَا يَدْخُلُكَ حُزْنٌ وَلَا يَفِدُرُ بِصَاحِبِكَ الزَّمَانُ
قال : ثم صرّت بالدار فإذا الباب مسدود وقد علته وحشة ، فقلت ما شأنهم ؟ قالوا :
مات سيدهم ، مات رب الدار ، فقلت إني سمعت من هاهنا صوت جارية تقول :
أَلَا يَا دَارَ لَا يَدْخُلُكَ حُزْنٌ . فقالت امرأة من الدار وبكت : يا عبد الله إن الله يتغير

(١) ت : يا من سار (٢) الجزازة : القفظة . (٣) غمدان : قبة سيف بن ذي يزن ، وقيل
قصر معروف باليمن . والمدبر قصر التهان بن النضر .

ولا يتغير ، واللوت غاية كل مخلوق . فرجعت من عندهم^(١) يا كيا [حزيناً]^(٢) .

قال القرشي : وحدثنا أبو سعيد المدائني قال : حدثنا أحمد بن محمد المهدي ، قال حدثني رجل من عبد قيس ، قال : دخلت ابنة النعمان بن النضر على معاوية فقتل لها : أخبريني عن حالكم كيف كان ؟ قالت : أطيل أم أقصر . قال : لا بل أقصرى . قالت : أمسينا مساءً وليس في العرب أحد إلا وهو يرغب إلينا ويرهب منا ، فأصبحنا صباحاً وليس في العرب أحد إلا ونحن نرغب إليه ونرهب منه . ثم قالت :

بَيْنَا نَسُوسَ النَّاسِ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَجْن فِيهِمْ^(٣) سَوْقَةٌ لَيْسَ نُنْصَفُ
فَأَفِيءَ لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقْلَبُ تَارَاتٍ بَنَانًا وَتَصْرَفُ

قال القرشي : وحدثني محمد بن الحسين ، قال حدثني دواد بن الحبر ، قال حدثنا كبير ابن سعيد السلي ، عن أبيه قال : أغرس رجل من الحلى على ابنة عمه فأخذوا ذلك لهوا ، وكانت منازلهم إلى جانب المقابر ، فبينما هم في لهوهم ذلك ليلاً إذ سمعوا صوتاً أفرعهم فأصغوا إليه فإذا بهاتف يهتف من بين القبور :

يَا أَهْلَ لَذَّةِ دُنْيَا لَا تَدُومُ لَهْمُ إِنِّ الْمُنَايَا تُبِيدُ اللَّهُمَّ وَاللَّعْنَا
كَمْ تَمَنَّى رَأَيْنَاهُ مَسْرُورًا بِلَذَّتِهِ أَمْسَى فَرِيدًا مِنَ الْأَهْلِينَ مُفْتَرِيًا

قال : فوالله ما لبثنا بعد ذلك إلا أياماً حتى مات الفقي التزوج .

قال القرشي : وقال علي بن محمد القرشي ، عن المنهال بن عبد الملك ، قال : حبس هشام بن عبد الملك عياض بن مسلم ، وكان كاتباً للوليد بن يزيد وضربه وألبسه السوح ، فلما ثقل هشام أرسل عياض إلى الخزان : احفظوا ما في أيديكم . فمات هشام وخرج عياض ، نغم الأبواب والخزائن ومنع أن يكفن هشام من الخزانين واستماروا له قعماً فأسختوا فيه الماء ، فقال الناس : إن في هذا لعبرة لمن اعتبر !

قال القرشي : وقال الحسن بن عثمان : سمعت الوليد يقول عن عبد الرحمن بن يزيد

(١) ت : من عندهما . (٢) من ت . (٣) ت : فيها .

ابن جابر ، قال : كان عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية خيلاً لعبد الملك بن مروان ، فلما مات عبد الملك وتصدّع الناس عن قبره وقف عليه فقال له : أنت عبدُ الملك الذي كنت يُبدني فأرجوك ، وتوعدني فأخافك ، وليس معك من مُنكك غير ثوبيك ، وليس لك منه غير أربع أذرع في عرض ذراعين !

ثم انكفأ إلى أهله واجتهد في العبادة حتى صار كأنه شمس^(١) ، فدخل عليه بعض أهله فعاتبه في نفسه وإصراره بها ، فقال للقاتل : أسألك عن شيء تصدقني عنه ؟ قال : نعم . قال : أخبرني عن حالك التي أنت عليها أترضاها للموت ؟ قال : اللهم لا . قال : فهل عزمت على انتقال منها إلى غيرها ؟ قال : ما أنصحت رأيي في ذلك . قال : أفأمن أن يأتيك الموت على حالك التي أنت عليها ؟ قال : اللهم لا . قال : حال ما أقام عليها عاقل . ثم انكفأ إلى مُصلّاه .

وَرَدَ الْمَلِكَ قَبْلَنَا أُمٌّ فَلَتَنَتْنِ مَعَاشِرًا وَرَدُوا
حَتَمْتُهُمْ جُرْدٌ مُقَرَّبَةٌ^(٢) ثُمَّ انطَوُوا بِالْمَوْتِ وَانْجَرَدُوا

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، أنبأنا المبارك بن عبد الجبار ، أنبأنا أبو الحسين محمد بن عبد الواحد ، أنبأنا محمد بن عبد الرحيم الساذني ، حدثني أبو القاسم الكوكبي ، حدثنا أبو بكر الضريع ، حدثني غسان بن عمر ، عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمي ، قال : دخلت على أمي في يوم أضحى وعندها امرأة برزة في أبواب رثة . فقالت لي : أتعرف هذه ؟ قلت : لا . قالت : هذه عبادة أم جعفر بن يحيى بن خالد . فلست عليها ورحبت بها ، وقلت : يا خالة ، حدثيني ببعض أسركم . قالت : أذكر جملة فيها اعتبار وموعظة لمن فكّر ، هجم على مثل هذا العيد وعلى رأسي أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أن ابني جعفر عاق لي وقد دفع إلي خمسمائة دينار ، وقال أفنقى هذه في عيدكم ، وأنا الآن قد أتيتكم والذي يُقنعني جلد شاتين أجمل أجدما شعاراً والآخَر دثاراً .



(١) الشين ؛ القرية البالية . (٢) الجرد : الخيل السريعة .

أَيَّ مَطْمَئِنٍّ لَمْ يُزَجِّجْ ، أَيَّ قَاطِنٍ لَمْ يُخْرِجْ ، إِخْوَانِي قَدْ عُرِفَ التَّهْمِجُ ، زَالَ الشُّكُّ
وَالْحَقُّ أَتَلَجَّ ، إِخْوَانِي فَرَسُ الرَّحِيلِ مُسْرَجٌ ، وَإِلَى بَوَادِي الْقُبُورِ الْخُرْجُ ، وَالتَّنْعَشُ
الْمَرْكُوبُ بَعْدَ الْمَوْجِ ، وَالْمَرْقَى يَكُونُ صِرْفًا لَا يُبْمَزَجُ ، مَا هَتَفَ الْمَوْتُ بِمَقِيمٍ إِلَّا أَذْلَجَ ،
وَلَا اسْتَدْعَى نُطْقَ فَصِيحٍ إِلَّا لَجَلَجَ . إِخْوَانِي : مَا جَرَى عَلَى الْإِخْوَانِ ^(١) أَعْمُودُجَ .

رَكِنُوا إِلَى الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَتَبَوَّأُوا الرُّتَبَ السَّيِّئَةَ
عَقَى إِذَا اغْتَرَبُوا بِهَا صَرَعَتْهُمْ أَيْدِي الدَّنِيَّةِ

سَلَا عَنْ الْجِيرَانِ الْمَنَازِلَ ، وَقُولُوا لَهَا أَيْنَ النَّازِلُ ، لَا وَاللَّهِ مَا تَحْجِيبُ السَّائِلَ ، بَلَى
إِنَّ الْبَلَى يَنْطِقُ بِالْبَلَابِلِ . إِخْوَانِي : الدُّنْيَا ظِلٌّ زَائِلٌ وَحَالٌ حَاطِلٌ ، وَرَكْنٌ مَائِلٌ وَرَفِيقٌ
خَازِلٌ ، وَمُسْتَوَلٌ بَاطِلٌ ، وَغُولٌ غَائِلٌ ، وَسَمٌّ قَاتِلٌ ، كَمْ تَمِدَّ الدُّنْيَا وَتَمَاطَلُ ، كُلُّ وَعْدِهَا
غُرُورٌ بَاطِلٌ . وَاللَّهِ مَا فَرَحَ بِهَا عَاقِلٌ ، سَكَّرَهَا لَا يَمُرُّ عَلَى لِقَانِ بَلٍ عَلَى بَاقِلٍ ^(٢) .

خَلِيلِي كَمْ مَيِّتٌ قَدْ حَضَرَتْهُ وَلَكِنِّي لَمْ أَتَفَنَّ بِمَحْضُورِي
وَكَمْ مِنْ خَطْلُوبٍ قَدْ طَوْنَتِي كَثِيرَةً وَكَمْ مِنْ أُمُورٍ قَدْ جَرَتْ وَأُمُورُ
وَمَنْ لَمْ يَزِدْهُ الدَّهْرُ مَا عَاشَ عِبْرَةً فَذَلِكَ الَّذِي لَا يَسْتَعِيرُ بَنُورِي

سَمِعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾

كَمْ مِنْ ظَالِمٍ تَدْعَى وَجَارَ ، فَارَاعَى الْأَهْلَ وَلَا الْجَارَ ، بَيْنَمَا هُوَ بِعَقْدِ الْإِمْرَارِ
حَلَّ بِهِ الْمَوْتُ خَلَّ مِنْ حُكْمِهِ الْأُزَارُ « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ » .
مَا حَبَّه سَوَى السَّكْفَنِ إِلَى بَيْتِ الْبَلَى وَالْعَفَنِ ، لَوْ رَأَيْتَهُ وَقَدْ حَلَّتْ بِهِ الْمِحْنُ ، وَشِئِنْ
ذَلِكَ الْوَجْهَ الْحَسَنَ ، فَلَا تَسْأَلُ كَيْفَ صَارَ « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ » .

(١) ت : عَلَى الْأَقْرَانِ . (٢) بَرِيدٌ أَنَّ مَكْرَ الدُّنْيَا لَا يَخْدَعُ حَكِيمًا مِثْلَ لِقَانِ ، وَإِنَّمَا يَخْدَعُ أَهْلَ
مِثْلَ بَاقِلٍ ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْبَلَى وَالْمَوْتِ وَالْإِنْسَانِ .

سال في اللحد صديده ، وَاَيْلِي فِي الْقَبْرِ جَدِيدِهِ ، وَهَجَرَهُ نَسِيْبِهِ وَوَدِيدِهِ ، وَتَفَرَّقَ
حَشَنَّهُ وَعَبِيدُهُ وَالْأَنْصَارُ « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ » .

أَيْنَ مَجَالِسُهُ الْمَالِيَّةُ ، أَيْنَ عَيْشَتُهُ الصَّافِيَّةُ ، أَيْنَ لَذَّاتُهُ الْحَالِيَّةُ ، كَمْ كَمْ تَسْتَقِي عَلَى قَبْرِهِ
صَافِيَّةً ، ذَهَبَتِ الْمَعِينُ وَأَخْفِيَتِ الْآثَارُ « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ » .

تَقَطَّعَتْ بِهِ جَمِيعُ الْأَسْبَابِ ، وَهَجَرَهُ الْقُرْنَاءُ وَالْأَتْرَابُ ، وَصَارَ فِرَاشُهُ الْجَنْدَلُ وَالْقُرَابُ ،
وَرُبَّمَا فَتَحَ لَهُ فِي اللَّحْدِ بَابَ النَّارِ « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ » .

خَلَا وَاقَهُ بِمَا كَانَ صَنَعَ ، وَاحْتَوَشَهُ النَّدَمُ وَمَانَعُ ، وَتَمَتَّى الْخُلَاصُ وَهِيَاةُ قَدْوَعُ ،
وَوَحَلَهُ الْخَطِيلُ الْمَصَافِي وَانْقَطَعَ ، وَاشْتَغَلَ الْأَهْلُ بِمَا كَانَ جَمَعَ ، وَتَمَلَّكَ الضِّدُّ لِلْمَالِ وَالْهَادِرُ
« فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ » .

نَادَمُ بِلَا شَكٍّ وَلَا خَفَاً ، بَالِكِ عَلَى مَا زَلَّ وَهَفَاً ، يَوْمَ أَنْ صَافَى الْهَذَاتِ مَاصِفَاً ، وَعَلِمَ
أَنَّهُ كَانَ يَبْنِي عَلَى شَفَا جُرُوفِ هَارٍ « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ » .

قَارَنَهُ حَمْلُهُ مِنْ سَاعَةِ الْخَلْقِ ، فَهُوَ يَتَمَنَّى الْفِرَارَ وَهِيَاةُ أَيْنَ ، وَيَقُولُ يَالَيْتَ بَيْنِي
وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ، فَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الْوَحْدَةِ وَحْدَهُ وَالْعَمَلُ ثَانِي اثْنَيْنِ ، وَلَكِنَّ لَافِي
النَّارِ « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ » .

وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ حَالَةً مِنْ غَدَاً ، فَلِكُلِّ مِنْكُمْ مِثْلُهَا غَدَاً ، فَانْتَبِهُوا مِنْ رَفَادِكُمْ قَبْلَ
الرَّدَى « أَيْتَحَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » إِنَّمَا هِيَ جَنَّةٌ أَوْ نَارٌ « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ »
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

المجلس التاسع عشر

في قصة داود عليه السلام

الحمد لله رب الأرباب ومسبب الأسباب ومُنزل الكتاب ، حفظ الأرض بالجيال من الاضطراب^(١) ، وقهر الجبارين وأذلّ الصعاب ، وسمع خفيّ الثُّقَيِّ ومهموس الغطاب ، وأبصر فلم يستر نظره حجاب ، أنزل القرآن يحث فيه على اكتساب الثواب ، وزجر عن أسباب العقاب « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبرُوا آياته وليتذكر أولوا الألباب » ابتلى المصطفين بالذنوب ليعلم أنه تَوَّاب ، أما سمعت برّة آدم وما جرى من عتاب « وهل أتاك نُبأ الخضم إذا تسوّروا الحراب » .

أحمد على رفع الشك والارتباب ، وأشكره على ستر الخطايا والمصائب ، وأقرّه بالنوحيد إقرارا نافعا يوم الحساب ، وأعترف لنبيه محمد أنه لباب الباب ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر خير الأصحاب ، وعلى عمر الذي إذا ذكر في مجلس طاب ، وعلى عثمان المقتول ظلما وما تعدى الصواب ، وعلى عليّ البدر يوم بَدَر والصدر يوم الأحزاب ، وعلى عه العباس الذي نَسبه أشرف الأنساب .

اللهم بامن ذلّت له جميع الرقاب وجرت بأمره عزالي السحاب ، احفظنا في الحال والمآب ، وألمعنا التزود قبل حلول التراب ، وارزقنا الاعتبار بساني الأتراب ، وأرشدنا عند السؤال إلى صحيح الجواب ، وهبْ لشيبينا معامى الشباب ، وارزقني والحاضرين عارة القلوب الخراب ، برحمتك يا كريم يا وهاب .

قال الله عز وجل : « وهل أتاك نُبأ الخضم إذا تسوّروا الحراب » المعنى : قد أتاك فاستمع له نقصه عليك .

والخضم يصلح الواحد والاثنتين والجماعة والدّكر والأنثى و « تسوّروا » يدل

(١) ب : من الاضطراب .

على عزّ والمحراب هاهنا كالفرقة^(١) . قال الشاعر .

رَبَّةٌ مَحْرَابٌ إِذَا جَتَّهَا لَمْ أَلْقِهَا أَوْ ارْتَقَى سُلْسَا^(٢)

« إذ دخلوا على داود » وهو داود بن إيشان بن عويد من نسل يهوذا بن يعقوب . وكان مبدأ أمره أن الله تعالى لما بعث طالوت مسلكا خرج من بني إسرائيل معه ثمانون ألفا لقتال جالوت ، فقالوا لا طاقه لنا اليوم بجالوت وجنوده ، فلم يثبت معه غير ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وكانت فيهم أبو داود وثلاثة عشر ابنا له ، وداود أصغرهم ، وإنه مرّ بثلاثة أحجار فكلمته وقلن : يا داود خذنا معك تقتل بنا جالوت . فأخذهن ومشي إلى جالوت فوضعهن في قدّافته فصارت حجرا واحدا ثم أرسله فصكّ به بين عيني جالوت فقتله ، ثم هلك طالوت فلك داود وجعله الله نبيا ، وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الحديد والآلة له ، وأسر الجبال والطير أن يسبحن معه ، وكان إذا قرأ الزبور خضع له الوحش حتى تؤخذ بأعناقها .

وكان كثير التعمد ، فتذاكر بنو إسرائيل يوما عنده : هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا ؟ فأخبر أنه يطيق ذلك ، فابتلى يوم عبادته بالنظر ، وذلك أنه رأى طائرا في محرابه فديده إليه فتتبعه فأتبعه بصره فإذا بامرأة تخطبها ، مع علمه أن أوريا قد خطبها ، فتزوجها ، فانغمّ أوريا ، فعوتب إذ لم يتركها تخطبها الأول .

هذا أجود ما قيل في فتنته ويدل عليه قوله تعالى : وعزّني في الخطاب .

فأما ما ينقل أن زوجها رُبث^(٣) في الفزوات حتى قُتل ، فلا يجوز أن يكون صحيحا .

فجاءه للسكران فسورا عليه من سُورداره فنزع مهم لأنهما أتياه على غير صفة جيء المصوم وفي غير وقت الحكومة ونسوروا من غير إذن و « حصان » مرفوع بإضمار نحن .

(١) ت : فرقة . (٢) ورد البيت في اللسان (مادة حرب) . ونسب لى وضاح ابن .

(٣) ت : أنه بعث زوجها .

وهذا مثل ضرباه له والتقدير : ما تقول إن جاءك خصمان ؟ وقال ابن الأنباري : نحن كخصمين ومثل خصمين فسقطت الكاف وقام الخلفان مقامهما ، تقول العرب : عبد الله القمرُ حسناً . أى مثل القمر ، قالت هند بنت عتبة :

من حسن لي الأخوين كما
فصنين أو من راها
أسدين في غيل يمي
د القوم عن عرواها (٢)
صقرين لا يذلا
ن ولا يباح حها
رمنحين خطيين في
كبد السماء تراها

أرادت مثل أسدين ومثل صقرين ، ثم صرف الله النون والألف في « بعضنا » إلى نحن المضمر ، كما تقول العرب : نحن قوم شرف أبونا ، ونحن قوم شرف أبوم والمعنى واحد .

قوله تعالى : « ولا تُشطط » ، أى لا تجزّز يقال شطّ وأشطّ إذا جاز . واهدنا إلى سواء الصراط » أى إلى قصد الطريق . والمعنى : احملنا إلى الحق .

فقال داود : نكلما . فقال أحدهما : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نجبة ولى نجبة واحدة » قال الزجاج : كفى عن المرأة بالنجبة . قال القيسرون : إنما ذكر هذا العدد لأنه عدد نساء داود « فقال : أكفّلتها » أى أنزل أنت عنها واجعلنى أنا أكفلها « وعزّنى في الخطاب » أى غلبنى في القول . وقرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن أبى عتبة : « وعزّنى » أى غالبنى قال ابن عباس : إن دعا ودعوت كان أكثر منى وإن بطش وبطشت كان أشد منى .

« قال لقد ظلمك بسؤال تمنجتك إلى نجا » فإن قيل : كيف حكم ولم يسمع كلام الآخر ؟ فالجواب : أن الآخر اعترف لحكم عليه باعترافه ، وحذف ذكر ذلك اكتفاءً بفهم السامع ، والعرب تقول : أمرتك بالتجارة فكسبت الأموال . أى فتجرت فكسبت .

والخلفاء الشركاء وظنّ أى أيقن وعلم « أتما فتناه » أى ابتليناه بما جرى^(١) له فى حق المرأة .

وفى سبب تشبه لذلك ثلاثة أقوال : أحدها : أن للسكين أنصحا له بذلك . قال السدى : قال داود للخصم الآخر : ما تقول ؟ قال : نم أريد أن آخذها منه وأكمل بها نجاجى وهو كاره . قال : إذا لا ندعك ، وإن رُمّت هذا ضرب بنا منك هذا وهذا . يشير إلى أنفه وجبته . فقال له : أنت يا داود أحق أن يضرب هذا منك ، حيث لك سمع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا واحدة . فنظر داود فلم ير أحدا فعرف ما وقع .

والثانى : أنهما عرجا وهما يقولان : قفى الرجل على نفسه ، فلم أنه عفى بذلك^(٢) قاله وهب .

والثالث : أنه لما حكم بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه وهو يضعك ثم صعد إلى السماء وهو ينظر ، فلم أن الله ابتلاه بذلك . قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ . قال ابن عباس : أى ساجدا فخر بالركوع عن السجود ، لأنه بمعنى الانحناء . قال القسرون : بقى فى سجوده أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لا بد منها ، ولا يأكل ولا يشرب ، فأكلت الأرض من جبته ونبت الشب من دموعه^(٣) ، وهو يقول فى سجوده : رَبِّ زَلْ داود زلة أبعد ما بين المشرق والغرب .

أخبرنا صلى بن عبيد الله ، أنبأنا ابن النُّفُور ، أنبأنا عمر بن إبراهيم الكنتانى ، حدثنا البغوى ، حدثنا داود بن رشيد . حدثنا أبو حفص الأبار ، عن ليث عن مجاهد ، قال كانت خطيبته فى كفه مكتوبة ، قال فسجد حتى نبت من البقل ماوارى أذنيه أو قال رأسه ، ثم نادى : أى ربّ قرّح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع إليه من ذنبه شىء . قال فنودى : أجاتم فتعلم أم عار فتكسى ، أم مظلوم فينتصر لك ؟ فلما رأى أنه

(١) ب : أى ابتلينا ما جرى له . (٢) فى ب زيادة : إليه . ولا معنى لها .

(٣) هذه مبالغة تبرى على مذهب الزهاد والأخباريين .

لم يرجع إليه في ذنبه شيء نحب نحبته فهاج ما تم.

أخبرنا عبد الوهاب ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، أنبأنا أبو بكر الخطيب ، أنبأنا أبو عبد الله أحمد بن يوسف العلاف ، حدثنا أبو علي بن صفوان ، حدثنا أبو بكر القرشي ، حدثني محمد بن الحسين ، حدثنا عمرو بن جرير ، حدثنا عامر بن يساف ، عن يحيى بن أبي كثير ، قال : بلغنا أنه كان داود مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له منبرا إلى البزبة وأمر سليمان مندبا يستقرئ البلاد وما حولها من الفياض والآكام والجبال والبراري والديارات والصوامع والبيسعين فينها : ألا من أحب أن يسمع نوح داود فليأت . فتأتى الوحوش من البراري والآكام وتأتى السباع من الفياض وتأتى الهوام من الجبال ، وتأتى الطير من الأوكار ، وتأتى الرهبان من الصوامع والديارات ، وتأتى العذارى من خدورها ، ويجمع الناس لذلك اليوم ، ويأتى داود عليه السلام حتى يرقى على المنبر ويحيط به بنو إسرائيل كل صف على حدته . قال : وسليمان قائم على رأسه . قال : فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فيموت طائفة من الناس وطائفة من السباع والهوام والوحوش وطائفة من الرهبان والعذارى للتعبدات ، ثم يأخذ في ذكر الموت وأحوال القيامة ثم يأخذ في النياحة فيموت من كل صنف طائفة ، فإذا رأى سليمان ما قد كثر من الموت ناداه : يا ابتاه قد مررت المستمعين كل ممزق ومات طوائف من بني إسرائيل ومن الرهبان ومن الوحوش . فيقطع النياحة ويأخذ في الدعاء ويمشي عليه ، فيحمل على سريره فإذا أفاق قال : سليمان ما فعل فلان وفلان ؟ فيقول : ماتوا . فيقوم فيدخل بيت عبادته ويفلق عليه بابه وينسدى : أغضبنا أنت على داود إله داود ؟ أم كيف قصرت به أن يموت خوفا منك !

قال علماء السير : كان داود عليه السلام قد اتخذ سبع حشائبا من شعر وحشاهن بالرماد ، ثم بكى حتى أنفذها دموعا ، ولم يشرب شرابا إلا ممزوجا بدموع عينيه ، وكان

له جارتان قد أعدما فكان إذا أتاه الخوف سقط واضطرب فقدمتا على صدره ورجليه
عفاة أن تنفرد أعضاؤه، وكان قد نقش خطيته في كفه لئلا ينساها ، وكان إذا رآها
اضطربت يده .

ويقال : لو وزنت دموعه عدلت دموع الخلائق ، ولم يرفع رأسه إلى السماء حتى
مات حياء .

إخوان : تأملوا عواقب الذنوب ، تنفئ اللة وتبقى الميوب ، احذروا المامى
فبئس المطلوب ، ما أقبح آثارها فى الوجوه والقلوب .

الكلام على البسمة

إليك من جرمك خوفاً^(١) خفيق بك تبكى
كم ركبت الذنب مفرو رأ وكم أسرع فى الفتك
وتبرجت بمصيانك قد غررك إهمالى وتركى^(٢)
من إذا ألبستك اللإ براعيك وبشكى
من ترى يسترک اليو م إذا عك^(٣) هتكى
كم تجردت لمصيا رنى^(٤) وكم خالفت نكى
أترى تجهل عزمى أم ترى تصغير ملكى

يا بن آدم : فرح الخطيئة اليوم قليل وحرزها فى غد طويل ، مادام اللؤمن فى نور
التقوى فهو يبصر طريق الهدى ، فإذا طبّق ظلام الهوى عدم النور .

كان داود يسجد ويقول فى سجوده : سبحان خالق النور اإلى : خلّيت ينى
وبين عدوى [إبليس]^(٥) فلم أقم لفتنته إذ نزلت بى ، سبحان خالق النور ، إلى :

(١) ت : حزنا . (٢) ت : قد عرك تركى . (٣) ت : غمك (٤) ت : لإغضابى .
(٥) من ت .

يُنْسَلِ الثوب فيذهب دَرَنَهُ ووسخه ، والخطيئة لازمة لي لا تذهب عني ، سبحان خالق النور ! إلهي : تبكي التَّكَلِّيَ على ولدها إذا قَدَّرْتَهُ وداود يبكي على خطيئته ! سبحان خالق النور ! إلهي : الويل لداود إذا كشف عنه النطاء قيل هذا داود الخاطئ ! سبحان خالق النور ! إلهي : بأى عين أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طَرَفٍ خَفِيٍّ ، سبحان خالق النور ! إلهي : بأى قَدَمٍ أقوم ببابك يوم تَزِيلُ أقدام الخاطئين ، سبحان خالق النور ! إلهي من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيده ، سبحان خالق النور ! إلهي : أنا الذى لا أطيع صوت الرعد فكيف أطيع صوت جهنم ! سبحان خالق النور ! إلهي : كيف يستقر الخاطئون بخطاياهم دونك وأنت شاهدهم حيث كانوا ، سبحان خالق النور ! إلهي قَرَحَ الجبين وَجَدَتِ العينان من مخافة الحريق على جسدى ، سبحان خالق النور ! إلهي ! أنت المنيث وأنا المستغيث ، فمن يدعو المستغيثَ إلا المنيث ؟ سبحان خالق النور ! إلهي : قَرَّرْتُ إليك بذنوبى فاعترفتُ بخطيئتى فلا تجمانى من القاطنين ولا تُخْزِنِى يوم الدين ، سبحان خالق النور ! إلهي إذا ذَكَرْتُ ذُنُوبِي أبست من كل خير ، وإذا ذَكَرْتُ رَحْمَتَكَ زَجَوْتُهَا ، سبحان خالق النور ! إلهي أُمَدِدْ عَيْنِي بالدموع وقلبي بالخشية وضعف بالقوة حتى أبلغ رضاك عني ، سبحان خالق النور !



ياسكران الهوى متى تصحو ، يا كثير الذنوب متى تنحو إلى كم تهفو وتنفو ، وتتكدر ونمنا تصفو ، ابك لما بك ، وانذب في شيبتك على شبابك ، وتأهب لليف النون فقد علق الشاب بك .

انتبه الحسن ليلة فبكى ، فضجَّ أهلُ الدار بالبكاء ، فسألوه عن حاله فقال : ذَكَرْتُ ذَنْبًا لِي فبكيت !

يامريض الذنوب مالك دواء كالبكاء .

روى ابن عباس عن النبي صلى عليه وسلم قال : « عينا لا تمشهما النار : عينٌ

بكيت في جوف الليل من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله .
وروى عنه أبو أمامة أنه قال : « ليس شيء أحب إلى الله عز وجل من قطرة دم مع من خشية
الله تعالى وقطرة دم تُهراق في سبيل الله » .

لا تخمسن ماء الجفون فإنه لك بالدينغ هوامٌ دزيان^(١)
شئوا الإغارة في القلوب بأسهم لا يُرمي لاسيرها إطلاق^(٢)
واستعذبوا ماء الجفون فعذبوا ألسرأ حتى دزيت الأمان^(٣)

قال محمد بن علي الحسين : ما اغرورقت عينٌ بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على
النار ، فإن سالت على اتلذذ بن لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة يوم القيامة .

يا من أفعاله حتى اخلطى خطا ، يا حاملا على الأزر الوزر أنعت اللطا ، يا من إذا
قدر ظلم وإذا خاص شطا ، يا مسرعا في الشر فإذا لاح الخير جال البطا .

جُرَّتْ السلاطين خطا فاعذر^(٤) مشيكا وخطا
وابك زمانا لم تزل لله فيه مستخطا
واندب على آثاره متدركا ذا القلطا .
واعدد صواب العيش ما فارقه التقوى خطا

يا كثير الذنوب متى تُنفى ، يا مقيا وهو في اللنى يمضى ، أفنيت الزمان في الهوى
ضياعا ، وما كنت غرورا من الأمل وأطما ، وصرت في طلب الدنيا خبيرا ضاعا ،
تصبح جامعا وتمسى متنا ، فنش على قلبك ولبك فقد ضاعا ، تفكر في مُحرك فقد
ذهب نهبا متنا ، اترك الهوى محمودا قبل أن يتركك مذموما ، إن فانتك قصبات السبق
في الزهد فلا تفوتك ساعات الندم في التوبة .

الكلام على قوله تعالى

﴿ أَيْحِبُّ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾

عباد الله : من استعصر قلبه أخبره أنه مشغول عن فعله ، وأمره بالتزود ليوم

(١) الدويق : الدواء . (٢) الأسرى الأصل : ويصين مد الأسرى للوزن . والامان : جمع مون
وهو طرف العين . (٣) ت : فاعدد .

رحيله ، ومن وافق الهوى هوى إلى محل الإضاعة وأصبح من الخاسرين .

قال بعض المتعبين : لما خلوتُ بالعقل في بيت الفكر علمتُ أنى مخلوق للتكليف معاقب على التحريف ، لست بمُهْمَل فأسهو ، ولا بمُتْرُوك فأنهو ، يُحْمَى على قليل العمل وكثيره ، ويكره على الزمانُ فيبين لي تأثيره . ورأيت الليل والنهار يقوداني إلى قُبْرِ يُفْتِنَانِي في سيرهما عَمْرَى ، وَيُرِيَانِي مِنَ الْعَبَرِ مَا يَصْلِحُ بِهِ طَرِيقَ الْهُدَى ، فَيُبَيِّنُ سَلْبَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ ، وَالرَّفِيقِ وَالْقَرِينِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمَلَكَ آخِرَ السَّلَامَةِ ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ ، وَأَنَّ وَحْنَ الْبَدَنِ أَبَيِّنُ دَلِيلٍ عَلَى اللُّوْثِ وَأَقْوَى عِلَامَةٍ ، وَعَرَفْتُ بِدَلِيلِ السَّمْعِ الْجِزَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فلما تيقنتُ أنى مُكَلَّفٌ مُحَاسَبٌ وَمَحْفُوظٌ عَلَى عَمَلِي مَر_اقِبٌ ، مَثَابٌ عَلَى الْفِعْلِ وَمَع_اقِبٌ ، مَأْخُذٌ بِالتَّفْرِيطِ وَمَطَالِبٌ ، هَمَّتُ أَنْ أَنْهَضَ نَهْضَةً عَازِمٌ صَادِقٌ إِلَى آدَاءِ التَّكْلِيفِ وَقَضَاءِ الْحَقِّ ، فَفَعِدْتُ نَفْسِي بِقِيُودِ الْمَسْوِيِّ وَأَفْسَدْتُ مِنْ حَالِي مَا اسْتَقَامَ وَاسْتَوَى .

فبقيتُ أَتَفَكَّرُ فِيمَا جَرَى وَأَمْسَحُ عَيْنِي مِنْ سَيِّئَةِ الْكُرَى وَأَقُولُ : مَاذَا مَنَعَنِي مِنْ مَقْصُودِي ، وَأَيُّ شُغْلٍ شَغَلَنِي عَنْ مَعْبُودِي ؟ وَمَالِي أَقْصَرُ فِي سَيِّئِي وَكَيْفَ سَبَقَنِي إِلَى الْفَضَائِلِ غَيْرِي ؟ فَتَمَجَّجْتُ عَمَّا نَابَنِي وَحَزَنْتُ لِمَا أَصَابَنِي ، وَلَمْ أَزَلْ أَنْظُرْ فِي الْمَوَاقِعِ حَتَّى فَهِمْتُهَا وَأَتَدَبَّرُ طَرِيقَ الْهُدَى حَتَّى عَلِمْتُهَا .

وذلك : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَبَلَ النَّفْسَ عَلَى حُبِّ الشَّهْوَةِ ، وَجَعَلَهَا فِي حَبْسِ الْغَفْلَةِ ، وَخَلَقَ لَهَا مِنْ رَائِقٍ مَقْصُودَهَا مَا يَشْتَقِلُهَا وَجُودَهُ عَنْ وَجُودِهَا ، فَغَى تَمِيلَ إِلَى مَشْتَهَائِهَا وَإِنْ أَدَّى إِلَى الْمَلَائِكَةِ ، لِئَا وَضَعَ فِي طَبْعِهَا مِنْ حُبِّ ذَلِكَ ، وَتَهَمَّكَ عَلَى تَحْصِيلِ غَرَضِهَا وَإِنْ أَعْيَبَهَا طَوْلَ مَرَضِهَا ، فَيَنْسِيهَا عَاجِلٌ مَاسِرٌ آجِلٌ مَا يَضُرُّ .

فلما وَضَعَهَا الْحَقُّ عَلَى هَذَا وَأَلْقَاهَا ، خَاطَبَهَا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا وَكَلَّمَهَا ، وَبَيَّنَ لَهَا طَرِيقَ الْهُدَى وَعَرَفَتَهَا ، وَلَطَّفَ بِهَا فِي أَحْوَالِهَا وَتَأَلَّفَهَا ، وَذَكَّرَهَا مِنَ النِّعَمِ مَا سَلَفَهَا ، وَأَقَامَهَا عَلَى

تجعة التعليم ووقفها ، وحذرهما من الزلل وخوفها ، وضمن لها أنها إن جاهدت أسعفها ، وإن تركت أغراضها أخلفها ، وما وعدّها وعداً قطّ فأخلفها ، وأوضح لها عيوب العاجلة وكشفها ، ورغبها في لذة جنة وصقها ، فذكر لها منازلها وغرفها وأنهارها وطرفها ، وحذرهما جهنم وأسفها ، وغنّظها على العصاة ولهنّها ، وأعلمها أنّ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ولقد أنصفها .

فعدّلتها وقرّعتها وأوعدها وأسمعتها ، فلم ترتدع عن هواها ولم تنزع عما آذاها ، ورأت مصارع القراء وبأ كفاها ، ولم تأنف من ذنوبها وذلّ العاصي قد علاها ، وكان الخطاب الذي أتى من سواها إلى سواها .

فعلمت حينئذ أنها محتاج إلى من يحاسبها وتفتقر إلى من يطلبها ، ولا تستغنى عن موعظ يعاتبها ، ولا بد من راضٍ إن وُتّ يعاقبها .
فالمعجب من عرف نفسه كيف أهملها ، والله لقد ضرّها وقتلها .



أخبرنا محمد بن الملك ، أنبأنا أحمد بن الحسين ابن خيرون ، أنبأنا أحمد بن عبد الله الحماني ، أنبأنا أبو بكر ابن عبدوية ، حدثنا الحسين بن داود البجلي ، حدثنا شقيق ابن إبراهيم ، حدثني أبو هاشم الأيلي ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بن آدم لا تزول قدمك يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى تسأل عن أربع : همرك فيما أفقيته ، وجسدك فيما أبليته ، ومالك من أين اكتسبته وأين أنفقته » .

أخبرنا ابن أبي منصور ، أنبأنا علي بن محمد العلاف ، أنبأنا أبو الحسين الحماني ، أنبأنا جعفر بن محمد الخواف ، حدثني إبراهيم بن نصر ، قال حدثني إبراهيم بن يسار ، قال حدثني يوسف بن أسباط ، قال كتب إلى محمد بن سمرة السامح : يا أخى ^(١) إياك وتأمير

(١) ت : أى أخى

التسوية على نفسك وإمكانه من قلبك ، فإنه محل الكلال وموئل الخلف وبه تقطع الآمال ، وفيه تنقطع الآجال ، فإنك إن فعلت ذلك أدلتك من عزك فاجتمع وهواك عليك فقلبا واسترجعا من بدنك من السلامة ما قد ولي عليك ^(١) ، فعند مراجعته إليك لا تنتفع نفسك من بدنك بتافهة ، وبادر يا أخى فإنه مبادر بك ، وأسرع فإنه مُسرّع بك وجد فإن الأمر جِدْ ، وتيقظ من رقذتك ، وانتبه من غفلتك ، وتذكر ما أسلفت وفصرت وفرطت وجنيت ، فإنه مُنبِت مُحْصِي ، وكأنك بالأمر قد بنتك فاعتبطت بما قدمت وندمت على ما فرطت ، فعليك بالحياء والمراقبة والمزلة فإن السلامة في ذلك موجودة . وقفنا الله وإليك لأرشد الأمور ، ولا قوة بنا وبك إلا بالله .

إن مُهر الفتاة مرازة دهر	راشفاها القدو والأصا
فتذكر كم قد صحبت عزيزا	ثم أمسى وأرضه صلصال
غفل الناس والقريبُ بعيد	من ردى الموت واليقينُ محال
كم لبيب يهدى سيواه لرشد	وهو في عيش نفسه ليس يالو ^(٢)
يطلب المرء أن ينال رضاء	ورضاء في غاية لا تنال
كلما زاده الزمانُ ثراء	أحرمته لذة الآمال

إخواني : الأيام سفر ومراحل ، وما يحسن سيرها الراحل حتى يبلغ البلد أو الساحل ، فليبادر المستدرك ، وما أظنه يدرك ، ماهذه القفلة والفتور أما المسالك إلى اللعود والقبور ، أما علمتم منتهى السرور ، أما الأحداث للنازل إلى النشور ، أيها الشاب ضيقت الشباب في جهلك ، أيها الكهل بعض فلك يهلك ، أيها الشيخ آن الرحيل عن أهلك ، أيها المقترب بالأمم قد نقصت كفى الأجل مجدول حبلك ، أيها النافل أما أندرك من كان من قبلك .

مات الأب الأعلى وتابعه أبنائه ففنا ونحن ^(٣) نسق
في التراب من أبنائنا ريم كانوا لنا سلفا ونحن ملحق ^(٤)

(١) ت : ما ولي عليك . (٢) يالو : يالو : فغففت الحمزة للوزن . ومناها يقصر (٣) ب : فناء .
(٤) ب : فناء نسق ولها عرفة . والنسق من كل شيء : ما كان على طريقة نظام واحد .

لقد نطقت العبر فأن سامعها ، واستنارت طريق الهدى فأن ناصبها ، ونجحت الحقائق
فأن مطلقها ، أما النية قد دنت واقتربت فبال نفوس قد غفلت ولعبت ، أمن القنوط
أن يؤخذ بكظمه ويحاذى من تفرطه على أعظمه ، ويأتيه الموت فيذهله بظلمه ، ويواجهه
بنفثة بثبات منتظمه ، يامن على ما يضره قد استمر ، يا من أعلن للعاصي وأسر ، يا مؤثرا
ما شان وما ضر ، يا محبا ما قد قتل غيره وغر ، يا من إذا دعي إلى نعمة تولى وفر ، أما تتهير
بمن رحل من القراء ومز ، أما تعلم أن من حالف الذنوب استضر ، أما تعلم أن الموت إذا
أتى حل وكز ، كأني بك إذا برق البصر تطلب القنوط ، إلى متى تؤثر الفساد على السداد ،
وتسرع في جواد الهوى أسرع من الجواد ، متى يثبسط القلب ويصحو القنوط ، كيف
بك إذا حشرت نفسك يوم الماد .

يسرك أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بنير زاد

أسمع قولاً بلا عمل ، وأرى خيلاً خالماً الخلل ، إذا دعيت إلى الخير جاء الكسل
وقلت لو شاء أن يوفقني فعل ، وإذا لاح للعاصي كز البطل ، ويقول : خلق الإنسان
من جبل . ويحك هذا الشئب قد نزل يهزك بقرب الأجل ، خلت الدار وناح العطل ،
أحتاج إليهم إلى اعتدل ، يا قبيح الخصال إلى كم زلل ، ما لكبير في العذل لاناقة ولا جل .

عليك بما يفيدك في الماد وما تنجو به يوم القناد
فمالك ليس ينفع فيك وعظ ولا زجر كأنك من جاد
ستندم إن رحلت بنير زاد ونشقى إذ يناديك للنادي
فلا تفرح بمالي تتغنيه فإنك فيه معكوس للراد
وتب ما جئت وأنت حي وكن متنبهاً من ذا الراد

سبح

أيها الضال عن طريق الهدى ، أما تسمع صوت الحادى وقد حدا ، من لك إذا ظهر
الجزء وبدا ، وربما كان فيه أن تشقى أبدا « أبسب الإنسان أن يُفرك سدى » .

يا من تكتب لحظاته ، ونجم لفظاته ، وتعلم عزماته ، وتُحسب عليه حركاته إن واح أو غدا « يحب الإنسان أن يُترك سُدى » .

ويحك إن الرقيب حاضر ، يرعى عليك اللسان والناظر ، وهو إلى جميع أفعالك ناظر ، إنما الدنيا مراحل إلى القابر ، وسينقضى هذا المدى « يحب الإنسان أن يُترك سُدى » .

مالي أراك في الذنوب تمجل ، وإذا زجرت عنها لا تقبل ، ويحك انتبه لقيح ما تفعل ، لأن الأيام في الآجال تعمل مثل عمل المدى « يحب الإنسان أن يُترك سُدى » .

سترجل عن دينك فقيرا ، لا تملك مما جمعت فقيرا ، بلى قد صرت بالذنوب عقيرا بعد أن ردّك التلف رداء الردى « يحب الإنسان أن يُترك سُدى » .

كأنك بالموت قد قطع وبّت ، وبدد الشمل المجتمع وأشتت ، وأثر فيك الندم حينئذ وقت ، انتبه لنفسك فقد أتممت والله العدا « يحب الإنسان أن يُترك سُدى » .

كأنك ببساط العمر قد انطوى ، وبمؤد الصعة قد دوى ، وبسلك الإمهال قد قُطِع فهو ، اسمع يا من قله الهوى وما ودّى « يحب الإنسان أن يُترك سُدى » .

تالله ما تُقال وما تُنذر ، فإن كنت عاقلا فانتبه واحذر ، كم وعظك أخذ غيرك وك أعذر ، ومن أنذر قبل مجيئه فما اعتدى « يحب الإنسان أن يُترك سُدى » .

فبادر نفسك واحذر قبل القوت ، وأصخ للزواج قد رفعت الصوت ، وتنبه فطال ما قد سهوت ، واعلم قطعا وبقينا أن الموت لا يقبل العدا « يحب الإنسان أن يُترك سُدى » .

انهض إلى التقوى بقرعة ، وابك الذنوب بين قرعة ، وأزعج لأجدة أعضائك المستريحة ، تالله لن لم تقبل هذه النصيحة لتندمن غدا « يحب الإنسان أن يُترك سُدى » .

المجلس العشرون

في قصة سليمان عليه السلام

الحمد لله المتعالى عن الأنداد ، المقدس عن الأضداد ، المنزه عن الأولاد ، الباقي على الآباد ، رافع السبع الشداد عالية بنير عماد ، مزينة بكل كوكب منير وقاد ، وواضع الأرض للمهاد مثبتة بالراسيات الأطواد ، خالق المسامح والجداد ، وابتدع المطلوب المراد ، الطلع على سر القلب وضمير الفؤاد ، مقدر ما كان وما يكون من الضلال والرشاد ، والصالح والفساد ، والنقى والإرشاد^(١) ، والوفاق والعناد ، والفيض والوداد ، فى بحار أطلقه تجرى مراكب العباد ، وعلى عتبة بابه مناخ المباد ، وفى ميدان حبه تجول خيل الزهاد ، وعنده مبتغى الطالبين وآمال القصاد ، وبعينه ما يتحملون من نقل الاجتهاد ، رأى حتى ديب الخمل السود فى السواد ، وسمع صوت للذئف المجهود غاية الإجهاد ، وعلم ما فى سويداء السر وباطن الاعتقاد ، وجاد على الآملين فزادهم من الزاد ، وأعطى فلم يخف من العوز والنفاد ، وألف الأجساد وليس بشبه الأجساد ، وخلق من كل شىء زوجين وتوحد بالانفراد ، وعاد بالإنلاف على الموجودات ثم أعاد ، يباهى بهاجر الوساد إذا نام فى السجود أو ماد ، ابتلى بالغلظة أهل اليقظة والاجتهاد لينكسروا بالزلل وانكسار العبد هو المراد ، بسط سليمان بساط التئيل فوق المئيل إلى الخليل عن بعض الأوراد « إذ عرض عليه بالمشى الصافات الجياد » .

أحمده حمداً يفوت الأعداد ، وأشهد أنه الواحد لا كالأحاد ، وأصلى على رسوله المبعوث إلى جميع الخلق فى كل البلاد ، وعلى صاحبه أبى بكر الذى بذل نفسه وماله وجاد ، وعلى الفاروق الذى بالغ فى نصر الإسلام وأجاد ، وعلى عثمان الشهيد فيما غره يوم يقوم الأئنهاد ، وعلى على الذى يفنى البحر وما لعلومه الزواجر نفاد ، وعلى عه العباس أبى الخلفاء الأعجاد .



قال الله تعالى : « ووهبنا لداود سليمان^(١) » .

داود : اسم أعجمي وسليمان اسم عبراني ، وكان لسليمان من الفطنة ما بأن بها الصواب في حكمه دون حكم أبيه في قصة الحرث وغيره . قال الله عز وجل : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » فلما مات داود ملك سليمان وله من العمر ثلاث عشرة سنة ، فزاده الله تعالى على ملك داود ، وسخر له الجن والإنس والطير وكان عسكره مائة فرسخ ، خمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير ، وكان له ألف بيت من قوارير فيها ثلاثمائة امرأة وسبعائة مربية ، ولا يتكلم أحد بشيء إلا جاءت به الريح إلى سمعه ، وكان إذا جلس على البساط جلس أشرف الإنس مما يليه وأشرف الجن وراءهم ، ثم يدعو الطير فتظلمهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم ، والطباخون في أعمالهم لا يتغير عليهم عمل فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر ، وكان يطعم كل يوم مائة ألف ، فإن أقلّ أطعم ستين ألفا ، وكان يذبح كل يوم مائة ألف شاة وثلاثين ألف بقرة ، ويطعم الناس النقي ويعلم أهله الخشكار^(٢) ويأكل هو الشعير .

وروى سيّار عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال : خرج نبي الله سليمان والجن والإنس عن يمينه ويساره ، فأمر الريح فحملهم حتى سمعوا زجل^(٣) الللائكة في السموات بالتفديس ، ثم أمرها بنفضتهم حتى مسّت أقدامهم البحر ، فدمعوا صوتا من السماء يقول : لو كانت في قلب صاحبكم من الكبير مثقال ذرة لخسفت به أبدا مما رفت !

قوله تعالى : « ثم العبدُ إنه أُوّاب » هذا نهاية في اللدح « أُوّاب » : أي رجّاع بالتوبة إلى الله بما يقع من سهو وغفلة .

« إذعُرْض عليه بالشيء » وهو ما بعد الزوال « الصافنات » وهي الخليل وفيها قولان : أحدهما القائمة على ثلاثة قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل . وهذا قول مجاهد وابن زيد ، واختاره الزجاج واحتج بقول الشاعر :

(١) سورة ص ٢٠ . (٢) الخشكار : الخبز غير النقي . مصرية (٣) الزجل : الصوت

ألف الصُّفُونِ فما يزال كأنه مما يقومُ على الثلاثِ كبيراً
والثاني : أنها القائمة سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث . قال القراء : على هذا رأيت
الدرب ، وأشعارهم تدل على أنها القائمة خاصة . واحتج ابن قتيبة لهذا بقول النبي
صلى الله عليه وسلم : من سره أن يقوم له الرجال صُفُوناً فليتيوَّأ مقعده من النار .
وأما الجياد فهي السُّراع في الجري . وفي سبب عرضها عليه أربعة أقوال : أحدها أنه
عرضها لأنه أراد جهادَ عدو . قاله علي بن أبي طالب .

والثاني : أنها أخرجت له من البحر . قال الحسن : خرجت من البحر وكانت
لها أجنحة .

والثالث : أنها كانت لأبيه فعرضت عليه . قاله ابن السائب . وفي عددها أربعة
أقوال : أحدها : ثلاثة عشر ألفاً . قاله وهب . والثاني : ألف فرس . قاله ابن السائب .
والثالث : عشرون ألفاً . قاله سعيد بن جبَّير ومسروق . والرابع : عشرون . قاله
إبراهيم التيمي .

قال المفسرون : لم تزل تُمرضُ عليه إلى أن غابت الشمسُ قفاته صلاة المصير ، ولم
يذْكُرْوه لأنه كان مهيباً لا يبتدئه أحدٌ بشيء ، فلما غابت ذكر فقال : « إني أحببتُ
حُبَّ الخير » يعني الخيلَ والمعنى آتَتْ ذلك حلٌّ ذِكْرِي .

قال الزجاج : عن : بمعنى حل . « حتى توارت » يعني الشمس . قال : وأهل اللغة
يقولون لم يَجِرْ للشمسِ ذِكْرٌ ، ولا أحسبهم أعطوا في هذا الفكرَ حقَّه ، لأنه في الآية
دليل على الشمن وهو قوله « بالعشي » والمعنى : عُرِضَ عليه بملء زوال الشمس ،
ولا يجوز الإضمار إلا أن يجرى ذكر أو دليل ذكر .

قوله تعالى : « رُدُّوها علي » أي أعيدوا الخيلَ « فطَفِقَ » أي أقبل « مسحاً
بالسوق » وهي جمع ساق . وفي المراد بالمسح قولان : أحدهما : أنه ضربها بالسيف . رواه
أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس . مسح أعناقها
(١٩ - النبعة)

وسوقها بالسيف . وهو اختيار الجمهور .

والثاني : أنه كَوَى سَوْقَهَا وأعناقها وجسبها في سبيل الله . حكاه الثعلبي . والعلماء على الأول .

فإن قيل كيف تختار القول الأول وهو عقوبة لمن لم يذنب على وجه التشنُّي ، وهذا بفعل الجبارين أشبه منه بفعل الأنبياء ؟

فالجواب : أنه نهي معصوم ، فلم يكن ليفعل إلا ما قد أُجيز له فعله ، وجائز أن يباح له ما يُمنع منه في شرعنا . على أنه إذا ذبحها كانت قُرْبَانًا ، وأكل لحمها جائز ، فسا وقع تفريط .

قال وهب : لما فعل ذلك شكر الله تعالى له فعله ، فسخر له الريح مكانها .

قوله تعالى : « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ » أى ابتليناه بسَبِّ مُلْكِهِ « وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ » . أى على سريره « جسدًا » ، وهو شيطان يقال له صخر ولم يكن ممن سخر له « ثم أناب » أى رجع عن ذنبيه ، وقيل إلى ملكه .

وفى سبب ابتلائه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كانت له امرأة ، وكانت بين بعض أهلها وبين قوم خصومة ، فقضى بينهم بالحق ، إلا أنه ودَّ أن لو كان الحق لأهلها . فغوب إذ لم يكن هواه فيهم واحداً . قاله ابن عباس .

والثاني : أن هذه الزوجة كانت آثر النساء عنده ، فقالت له يوماً : إن بين أخى وبين فلانة خصومة ، وإنى أحب أن تقضى له . فقال : نعم . ولم يفعل فابتلى لأجل ما قال [نعم] ^(١) . قاله السدي .

والثالث : أن هذه الزوجة كانت قد سبَّها فأسلت ، وكانت تبكى الليل والنهار وتقول : أذكرك أبى وما كنت فيه ، فلو أمرت الشياطين أن يصوروا صورته في دارى أنسلى بها . ففعل . وكان إذا خرج تسجد له هى وولاندها ، فلما علم سليمان كسر تلك

المسورة وعاقب المرأة وولأئدها واستغفر ، فسَلَطَ الشيطان عليه بذلك . هذا قول وهب .

وفي كيفية ذهاب الخاتم قولان : أحدهما : أنه كان جالسا على شاطئ البحر فوقع منه . قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والثاني : أن شيطانا أخذه .

ثم في كيفية أخذه له أربعة أقوال : أحدها : أنه وضعه تحت فراشه ودخل الخاتم فأخذه الشيطان فألقاه في البحر . قاله سعيد بن المسيب . والثاني : أن سليمان قال للشيطان ^(١) : كيف تفتنون الناس ؟ قال : أرني خاتمك أخبرك . فأعطاه إياه فبيذه في البحر . قاله مجاهد . والثالث : أنه وضعه عند أوثق نسانه في نفسه ، فتمثل لما الشيطان في صورته فأخذه منها . قاله سعيد بن جبير . والرابع : أنه سلمه إلى الشيطان فألقاه في البحر . قاله قتادة .

وأما الشيطان فإنه أتى عليه شبه سليمان فجلس على كرسيه وحكم في سلطانه ، إلا أنه كان لا يُقدر على نسانه ، وكان يحكم بما لا يجوز ، فأنكره بنو إسرائيل ، فأخذوا به ونشروا [له] ^(٢) التوراة فقرأوا فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر .

وأما سليمان فإنه لما ذهب مُلْكُه انطلق هاربا في الأرض ، فكان يستطعم فلا يُطعم فيقول : لو عرفتموني أطعمتموني . فيطردونه . حتى إذا أعطته امرأة حوتا شقه فوجد الخاتم في بطن الحوت بعد أربعين ليلة ، في قول الحسن . وقال سعيد بن جبير : بعد خمسين ليلة . فلما لبس رد الله عليه ملكه وبهائم وأظله الطير ، فأقيل لا يستقبله إنسى ولا جنى ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا سجد له ، حتى انتهى إلى منزله . ثم أرسل إلى الشيطان فجىء به فجعله في صندوق من حديد وأثقل عليه وختم عليه بخاتمه ؛ ثم أمر

(١) الأصل : قاله عروة . (٢) من بث .

به فأتى في البحر فهو فيه إلى أن تقوم الساعة^(١) .

قوله تعالى : « لا يبنى لأحد من بعدى » إنما طلب هذا الملك ليعلم أنه قد غفر له ويعرف منزلته بإجابة دعائه ، ولم يكن حينئذ في ملكه الرجح ولا الشياطين . « والرُخاء » اللينة ، مأخوذة من الرخاوة و« أصاب » . بمعنى قصد .

فإن قيل قد وصفت في سورة الأنبياء بأنها عاصفة ؟

فالجواب : أنها كانت تشتد إذا أراد وتلين إذا أراد .

وكانت الشياطين تفوس في البحر فتستخرج له الدرّ وتعمل له الصور .

والجنان : القمص الكبار ، يجمع على القصمة الواحدة ألف رجل يأكلون منها ، يأكل من كل قدر ألف رجل ، وكانت لا تنزل من مكانها .

فتأملوا إخواني هذا السلطان العظيم كيف تزلزل بالزلل ، واختلت أموره إذ دخل عليه الخلل ، فخطوؤه أوجب خروجه من الملكة ، ولقمة آدم كادت توقعه في الهلكة^(٢) ، فليكنم بالتقوى فلها سبيل السلامة ، فن أخطأها أخطأته الكرامة .

الكلام على البصرة

عمر بن قيس وذنب يزيد ورفيق يحمي على شهيد
واقتراب من الحام وتأمل لطلول البقاء عندى^(٣) جديد
أنا لاه وللنسية حتم حيث يمت منهل مورود
كل يوم يميت متى جزأ وحياى تنفس مسودود

(١) هذه الروايات لا ترجع إلى أصول صحيحة ، وإنه - جمها الإسرائيليات التي كان يذيعها من أسلم من أهل الكتاب ، أو ينقلها بعض التابعين وقد أمرنا أن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم ، وحسبنا ما في كتاب ربنا وسنة رسولنا . (٢) ب : في الهلكة .

(٣) ب : عندى . وما أنبته من ت .

كَمْ أَخِرَ قَدْرُ زَوْجَتِهِ فَبُهِوْا وَإِنْ أَضْ
خَلَّتْهُ النَّوْنُ مَتَى فَالَى خَلْفَ مَنْهُ فِي الْوَرَى مَوْجُودُ
هَلْ لِنَفْسِي بِوَاعِظَاتِ الْجَدِيدِ دَرِينُ عَنْ مَنْزِلِ سَيِّدُ

الْأَمْتِ قِطْ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَلَا مَتَأَهَّبُ لِلْقَادِمِ عَلَيْهِ ، أَلَا عَامِرُ لِلْقَبْرِ قَبْلَ الْوَصُولِ إِلَيْهِ ،
يَا وَاقِفًا مَعَ هَوَاهُ وَأَعْرَاضِهِ ، يَا مَعْرِضًا عَنْ ذِكْرِ عَوَارِضِهِ إِلَى أَعْرَاضِهِ ، يَا غَافِلًا عَنْ حَكْمِ
الْوَلَوْتِ وَقَدْ بُتَّ بِمَقْرَاضِهِ ، سَيَعْرِفُ خَبْرَهُ إِذَا اشْتَدَّ أَشَدُّ أَعْرَاضِهِ ، وَأُورِدَهُ حَوْضًا
مَرِيرًا مِنْ أَصْعَابِ حَيَاضِهِ ، وَنَزَلَ بِهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ اغْتِمَاضِهِ ، وَاسْتَقْبَلَ بِأَنْبِسَاطٍ كَفَّهُ كَفَّهُ عَنْ
اِشْتِبَاضِهِ ، وَأَخَذَتْ يَدُ الْتَلَفِ بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي اتِّقَاضِهِ ، وَأَخْرَجَ عَنْ خَضِرِ الرَّبِّ وَرُوضِهِ
وَرِغِياضِهِ ، وَأَلْقَى فِي نَحْدِ وَعَرٍ يَحُلُو بِرَضْرَاضِهِ ^(١) ، وَعَلِمَ أَنَّهُ بَاعَ عَمْرَهُ بِأَرْزَاقِ أَعْوَاضِهِ .

يَا مَنْ الْمَوَى كَلَامُهُ وَحْدَيْتُهُ ، يَا مَنْ فِي الْعَاصِي قَدِيمُهُ وَحْدَيْتُهُ ، يَا مَنْ عَمْرُهُ فِي الْعَاصِي
خَفِيفُهُ وَأَمِينُهُ ^(٢) ، مَنْ لَهُ إِذَا لَمْ يَحْدِ فِي كَرْبِهِ مِنْ يَنْبِيشِهِ ، آهٌ مِنْ قَهْرِ لَا يَرْفُقُ بِطَاشَتِهِ ،
وَمِنْ حَرِيقٍ لَا يُرْجِمُ عِطَاشَتِهِ ، وَمَنْ نَزُولَ لِحْدِهِ لَا يُرْفِعُ خَشَاشَتَهُ ^(٣) ، عَمَلُ الْقَبُولِ فِيهِ
يَلْجَأُهُ وَفَرَاشُهُ ، آهٌ مِنْ سَحَابِ عِقَابٍ رَدَّ أَذَاهُ بِرُدِّ وَرِشَاشَتِهِ ^(٤) ، مَنْ يَخْلُصُهُ الْيَوْمَ مِنْ
هَوَى قَدْ أَثْرَبَهُ مُشَاشَتُهُ ^(٥) .

كَأَنَّكُمْ بِالسَّمَاءِ قَدْ انْشَقَّتْ وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ، وَبِاتِّقَادِ الصَّالِحِينَ قَدْ تَرَقَّتْ ،
وَبِأَيِّمَانِهِمْ لِلصَّحَافِ قَدْ تَلَقَّتْ ، صَبَرَ الْقَوْمُ عَلَى حَصْرِ الْخَبْسِ فَنَجَّوْا إِلَى
رَبِّهِمْ السَّعَةِ .

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ [أَبِي] الْخَوَارِزْمِيِّ : قُلْتُ لِرُوحِي رَابِعَةً : أَصَابَتُكَ أَنْتِ الْيَوْمَ ؟ فَقَالَتْ :
وَمِثْلِي مَنْ يَقَطُرُ فِي الدُّنْيَا !

وَكَانَتْ إِذَا طَبَخَتْ قِدْرًا قَالَتْ : كُلُّهَا يَا سَيِّدِي فَمَا نَضَجَتْ إِلَّا بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ !

(١) الرضراض : الحما ، أو صغارها (٢) الأئمة : الكبير العظيم .
(٣) الخشاش : حشرات الأرض . (٤) الرذاذ : الطر الضيف ، أو الساكن الدائم ، والرشاش :
جمع رش وهو التقليل من الطر (٥) اللشاش : رموس النظم .

وكانت تقول : مامعت الأذنان إلا ذكرت مفادى القيامة ، ولا رأيت التلج
إلا تذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت جرأداً إلا ذكرت الحشر ، وربما رأيت الجن
يذهبون ويحيئون ، وربما رأيت الحور يستقرن منى بأكامهن .

قال : ودعوتها مرة فلم تجبني ، فلما كان بعد ساعة أجابني وقالت : إن قلبي كان
قد امتلأ فرحاً بالله فلم أقدر أن أجيبك .

قال : وكانت لها أحوال شتى ، مرة يغلب عليها الحب فتقول :

حبيبٌ ليس يبدله حبيب ولا يسواه في قلبي نصيبُ
حبيبٌ غاب عن بصرى وشمى ولكن عن فؤادى ما ينيبُ
ونارة يغلب عليها الأُنس فتقول :

ولقد جعلتُكَ في الفؤاد محدثي وأبعتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسى
ونارة يغلب عليها الخوف فتقول :

وزادى قليلاً ما أراه مُبَلَّغى ألزاد أبكى أم لطول مسافتي
أحمرقتى بالنار يا غاية اللنى فأين رجائى فيك ابن محبتي

ويح قلبك ! ماهذه القسوة ، أنفلك وأنت رجل نساء !

كانت أم هارون من العابدات تقول : إني لأغتم بالهار حتى يمسي الليل ، فإذا جاء
الليل قمت ، فإذا جاء السحر دخل الروح قلبي .

وخرجت إلى بيت المقدس فعارضها سبع فقالت : تعال إن كان لك رزق فكل .
فألقى السبع ثم عاد .

وكانت ثوبية بنت بهلول تقول : قرة عيني ! ما طابت الدنيا والآخرة إلا بك ،
فلا تجمع على فقدك والمذاب !

قال خُشَيْش الموصلي : جاءني كتاب من سحادة العابدة فإذا فيه : أبلغ كل محزون بالشام عني السلام .

أخبرنا حمز بن ظفر ، أنبأنا جعفر بن أحمد ، أنبأنا عبد العزيز بن علي ، أنبأنا علي ، ابن عبد الله بن جَهْم ، حدثنا محمد بن داود الدينوري ، عن أبي زكريا الشيرازي ، قال : تبت في البادية بالعراق أياما كثيرة لم أجد شيئا أرتفق به ، فلما كان بعد أيام رأيت في الغلاة خيباء شعر مضروبا ، فقصدته فإذا فيه بيت وعليه سقر مُسْبَل ، فملت فردت عليَّ عجوز من داخل الخيباء وقالت : يا إنسان من أين أتيت ؟ قلت : من مكة . قالت : وأين تريد ؟ قلت : الشام . قالت : أرى شبعك شبع إنسان بطال ، خلّأ زمت زاوية تجلس فيها إلى أن يأتيك اليقين ، ثم تنظر هذه الكسرة من أين تأكلها ؟

ثم قالت : تقرأ شيئا من القرآن ؟ قلت : نعم . فقالت : اقرأ عليَّ آخر سورة الفرقان . فقرأتها فشبعت وأغنى عليها . فلما أفاقت قرأت هي الآيات ، فأخذت مني قراءتها أخذاً شديداً ، ثم قالت : يا إنسان اقرأها ثانية . فقرأتها ، فلحقها مثل ما لحقها في الأول فصبرت أكثر من ذلك فلم تنق ، فقلت كيف أستكشف حالها هل ماتت أم لا ؟ ففكرت البيت على حاله ومثيت أقل من نصف ميل ، فأشرفت على وادٍ فيه أعراب ، فأقبل إلى غلامان معهما جارية ، فقال أحد الغلامين : يا إنسان أتيت البيت في الغلاة ؟ قلت : نعم . قال : وتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . قال : قتلت العجوز ورب الكعبة !

فشيت مع الغلامين والجارية حتى أتينا البيت ، فدخلت الجارية فكشفت عن وجهها فإذا هي ميتة ، فأعجبني خاطر الغلام ، فقلت للجارية : من هذان الغلامان ؟ فقالت : هذه أختهم ، منذ ثلاثين سنة لم نأنس بكلام الناس ، وإذا نزلنا بواد توارى بيتها بالغلاة لتلا سمع كلام أحد ، وكانت تأكل في كل ثلاثة أيام أكلة وتشرب شربة .
نُورُهَا^(١) الحادي على قوط الرّجاء تأمل مع صوّ الصّباح الفرجاء

(١) النور : الهيجان والروب والسطوع .

تَقْلَعُ فِي الْيَدِ سَيْلًا حَرَجًا بِاسْطَةِ عَقَالِهَا جُنَحَ الدُّجَا^(١)
غيره :

حَثَّ عَلَيْهَا فِي الْمَرَى حَادِيهَا فَلَا تَقْلُ فَتَوَقُّهَا بِكَفِّهَا
غيره :

يَاسْتَقِيهَا عَلَى وَحَاها^(٢) مَهْلًا ارْتَدَّ لِمَسِيرِهَا طَرِيقًا سَهْلًا
وَأَشْدَقَلِي إِنْ جُرَّتْ بَابُ الْمَلَى^(٣) مَا بَيْنَ قُبُورِ الْمَاشِقِينَ الْقَتْلَى
غيره :

يَاسَاكِي بَطْنَ وَجْرَةٍ^(٤) مِنْ نَجْدٍ هَلْ عِنْدَ كَمْ لِسَائِلٍ مَا يُجْدِي
مَقْتُولٌ هَوًى بِرَيْسِيسٍ^(٥) الْوَجْدِ مَاحَالٌ عَنِ الْمَهْدِ لَطُولُ الْمَهْدِ

السلام على قومه تعالى

﴿ القارعة ﴾ ما القارعة

القارعة القيامة ، سميت قارعة لأنها تَقْرَعُ بالأهوال .

وقوله : « ما القارعة ؟ » استفهام معناه التفتيح لشأنها ، كما تقول : زيد ما زيد .
« وما أحوالك ما القارعة » أي لأنك لم تأبئها ولم ترمها فيها لشدة الأهوال « يوم
يكون الناس كالقراش للثبوت » قال القراء القراش : غَوَّاه الجراد ، وهو صيغته .
وقال ابن قتيبة : ماتت في النار من البعوض . شبه الناس بذلك لأنهم إذا بُعِثُوا
ماجَّ بمضهم في بعض . وللثبوت : للنتشر المتفرق .
« وتكون الجبال كالمنهن » أي كالصوف ، شبهها في ضعفها ولينها بالصوف .

(١) المطال : داء في رجل القاية ، إذا مضى ظلم ساعة ثم انبسط .

(٢) الوحى : السجلة والإسراع . (٣) باب الملئ : موضع يبتدأ .

(٤) ت : بطن مكة .

وقيل شبهها في خِفَتها وسَهْوِها . وقال ابن قتيبة : المهن : الصوف المصبوغ .
والنفوش : للندوف . فإذا رأيت الجبل قلت هذا جبل . فإذا مسسته لم تر شيئا ، وذلك
من عدة الهول .



يامن عمله بالنفاق مفشوش ، تزين للناس كما يزين النقوش ، إنما يُنظر إلى
الباطن لا إلى النقوش ، إذا هممت بالمعاصي فأذكر يوم النموش ، وكيف تُحمل إلى
قبر بالجندل مفروش ، من لك إذا جُمع الإنس والجن والوحوش ، وقام المعاصي من
من قبره حيران مدهوش ، وجيء بالجبار العظيم وهو مفلول مخشوش^(١) ، حينئذ
يتضائل المتكبر وتذل الرؤوس ، ويومئذ يبصر الأكمل ويسمع الأطروش ، ويُصب
الصراط فكم واقع وكم مخدوش ، ليس بجاذبٍ يقطعها فصلٌ ولا مرعوش^(٢) ، ولا
تقبل في ذلك اليوم فدية ولا تؤخذ الأروش ، والتموس حينئذ ليس بمنموش ،
وينقلب أهل النار في الأقدار والريح كالخشوش^(٣) ، خافهم بخر وكذلك القروش ،
» وتكون الجبال كالهمن النفوش « .



قوله تعالى : « فأما من ثقلت موازينه » أي رجعت بالسننات . قال القراء :
والمراد بموازينه وزنه . والعرب تقول : هل لك في درهم بميزان درهمك ووزن درهمك .
وأراد بالموازين : الوزنات « فهو في عيشة راضية » أي مَرْضِيَّة .

» وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ » فيه قولان . أحدهما : أنه يهوى في النار
على أم رأسه هாவية . والمعنى أنه هار في النار على رأسه . قاله عكرمة . والثاني معناه :
فسكنه النار ، فالتار له كالأم لأنه يأوى إليها . قاله ابن زيد والقراء وابن قتيبة .
أنبأنا محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أنبأنا إسماعيل بن مسعدة ، قال أنبأنا

(١) الخشوش : المتقاد القليل . (٢) المباداة . مظم الطريق . والتصل : الفصل الضعيف والأحق
لاخير فيه (٣) الخشوش : جمع خش وهو مكان قضاء الحاجة .

عمرو بن يوسف ، قال أنبأنا أبو أحمد بن عدي ، حدثنا أحمد بن حمير بن يوسف ، حدثنا إسماعيل بن إسرائيل ، قال حدثنا أسد بن موسى ، قال حدثنا سلام النخعي ، عن نور ابن زيد ، عن خالد بن معدان ، عن أبي رُحْم ، عن أبي أيوب الأنصاري ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا مات تلقته البشري من الملائكة ومن عباد الله كما يتلقى البشري في دار الدنيا ، فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعض : رَوْحُوه ساعة فقد خرج من كرب عظيم . ثم يقبلون عليه فيسألونه فيقولون : ما فعل فلان ؟ ما فعل فلان ؟ هل تزوجت فلانة . فإن سأله عن إنسان قد مات قال : هبأت مات ذاك قبلي . فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، سُلِكَ به إلى أمه الهاوية فبُست الأم وبُست المريئة .

قال . وتعرض على الموتى أعمالكم ، فإن رأوا خيرا استبشروا وقالوا : اللهم إن هذه نعمتك فأنمتها على عبدك ، وإن رأوا سيئة قالوا : اللهم راجع بعبدك . فلا تُخزِنُوا^(١) موتاكم بأعمال السوء فإن أعمالكم تُعرض عليهم .
وقد روى هذا الحديث موقوفا على أبي أيوب وقد روى من كلام عُبَيْد بن عَمْرِو . والموقوف أصح .

ألك عمل إذا وضع في الميزان زان ، عملك قِشْر لالب ، واللب يُنقل الكفة لا القشر .

سبع

يا من أغصان إخلاصه ذابرة ، وصحيفته من الطاعات خاوية ، لكنها لكبار الذنوب حاوية ، يامن همته أن يعلأ الحاوية ، كم بينك وبين البطون الطاوية ، كم بين طائفة الهدى

(١) ب فلا تُخزِنُوا .

والناوية ، اعلم أن أعضائك في التراب ناوية ، لعلها تنفرد بالجد في زاوية ، قبل أن نمجز عند الموت القوة المقاتية ، وترى عنق الليزان لقلة الخيل لاية « وأما من خُفَّت موازينه فأنه هاوية » .

ذِكْر الحساب أطار عن أعين المتقين الناس ، ولتثقل الليزان فرغت أكياس السكّياس .

قالت مولاة أوى أمامة : كان أبو أمامة لا يرذ سائلا ولو بشمرة ، فأتاه سائل ذات يوم وليس عنده إلا ثلاثة دنانير فأعطاه دينارا ، ثم أتاه سائل فأعطاه دينارا ، ثم أتاه سائل فأعطاه دينارا ، قالت : فنضبت وقلت : لم تترك لنا شيئا ؟ فوضع رأسه للقائلة فلما نودي للظهر أيقظته فتوضأ ثم راح إلى المسجد . قالت : فرقت عليه وكان صائما ، فأقرضت ما جعلت له عشاء وأسرجت له سراجا ، وجئت إلى فراشه لأمهده له ، فإذا صرّة ذهب فندبتها فإذا هي ثلاثمائة دينار ، فقلت : رحلك الله ! ما صنع الذي ^(١) صنع إلا وقد وثق بما عنده . فأقبل بعد العشاء فلما رأى المائدة والسراج تبسم وقال : هذا خير من غيره . فقامت على رأسه حتى تعشى ، فقلت : رحلك الله ! خلقت هذه النفقة في سبيل الله مضيفة ولم تخبرني فأدفعها ؟ قال : وأى نفقة ؟ ما خلقت شيئا . قالت : فرقت الترائش ، فلما رآه فرح واشتد نعيجه . قالت : فقامت قطعت زُنَّارِي ^(٢) وأسلفت على يده . وكانت تعلم النساء القرآن والفرائض والسنن .

انظروا ثمرة للعاملات : هذا نقد فكيف الوعد .

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن على ، قالا أنبأنا طراد ، قالا أنبأنا أبو الحسين ابن بشران ، أنبأنا ابن صفوان ، حدثنا أبو بكر ، عن محمد بن الحسين ، قال حدثني أحمد ابن سهيل ، قال حدثني خالد بن النور ، قال كان حيوة بن شريح من البكاثين ، وكان ضيق الحال جدا ، فجلست إليه يوما وهو وحده فقلت له : لو دعوت الله يوسع عليك ؟

(١) ب : ما صنع إليك صنع . (٢) الزنار : ما يشد على أوساط التمازي والمجوس .

فالتفت يمينا وشمالا فلم ير أحدا فأخذ حصاة من الأرض فقال : اللهم اجعلها ذهابا . فإذا هم والله تربة في كفه ما رأيت أحسن منها . فرمى بها إلى قفلة : ما أصنع بها قال استغفرها . فبهتته والله أن أردّه ^(١) .

أخبرنا ابن ناصر ، أنبأنا الحسين بن أحمد ، أنبأنا هلال بن محمد ، أنبأنا جعفر الخليلي ، حدثنا ابن مسروق ، حدثنا محمد بن الحسين ، عن محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، قال سمعت دهنقا وكان من العابدين يقول : اليوم الذي لا آتي فيه عبد العزيز كنت مغبونا . فأبطأت عليه يوما أنيته فقال : ما الذي أبطأ بك ؟ قلت : خير . قال : على أي حال . قلت : شغلنا الميال ، كنت أتمس لم شيئا . قال : فوجدته ؟ قلت : لا . قال : فهل قلندع . فدعا وأمنت ودعوت وأمنت . ثم نهضنا لنقوم فإذا والله اللرام والدانير تننائر في حجورنا . فقال : دونكها . ومضى ^(٢) .

ما خسر معنا مأميل ، ولا قاطعنا موايل .

قوله تعالى : « وما أذكرك ما هيبة » يعنى الهاوية « نار حامية » أى جارة قد انتهى حرها .

كان عطاء الثلى إذا عوب في كثرة بكائه يقول : إني إذا ذكرت أهل النار مثبتي نفسي بينهم ، فكيف بنفس تبتل وتسحب أن لا تبكي ^(٣) .

رحم الله أعظما نصبت في الطاعة وانتصبت ، جن عليها الليل فلما تمسكن وثبتت ، كلما ذكرت جهنم رهبت وهربت ، وكلما تصورت ذنوبها ناحت عليها ونذبت .

كان ابن مسعود يبكي حتى أخذ بكفيه من دموعه فرمى بها . وكان عبد الله بن عمر

(١) ت : أن أرادده . (٢) لاتنقض هذه الروايات التي كان الصوفية ، وضوان الله عليهم ، ينقلونها ، القاعة المفردة في الإسلام للكسب واجفاء الرزق « وآخرون يضربون في الأرض يبتنون من فضل الله » وإنما كانوا يريدون تريق القلوب للتوسل على الله والاطمئنان إلى قدره .
(٣) ت : ولا تبكي ، فكيف لا أبكي .

يبكى حتى نشفت دموعه وقلصت عيناه . وبكى هشام المستوفى حتى فسدت عينه ، وكانت مفتوحة لا يبصر لها . وكان التفصيل قد ألف البكاء فربما بكى في نومه فيسمعه أهل الدار .

بَكَى الْبَاكُونَ لِلرَّحْمَنِ لَيْلاً وَبَاتُوا دَمْعُهُمْ لَا يَسْأَمُونَ
يَقَاعُ الْأَرْضِ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهِمْ تَحِبُّ مَتَى عَلَيْهَا يَسْجُدُونَ



إذا لانت القلوب للخوف ورقّت ، رفعت دموعها إلى العين ورقّت ، فأعنت رقاباً للخطايا ورقّت ، يا قاسى القلب ابك على قسوتك ، يا ذاهلَ القهَمِ بالمسوى تُخ على غفلتك ، يا دأثمَ للعاصي خَفْ غِبْ ممصيتك أما علمت أن النار أعدّت لعقوبتك .

وَجَلَسْنَا مَائِمَةً لِلذَّنُوبِ فَأَبْكُوا فَقَدْ حَانَ مَتَا (١) الْبُكَاءِ
وَيَوْمُ الْقِيَامَةِ مِمَّادَنَا لَكُشْفِ السُّتُورِ وَهَتَكَ النُّعْلَا

جاءت امرأة في ليلة مطيرة إلى راهب وقصّدت أن تفتنه ، فقالت : هذا الطرول ما يؤى لي فأوفى . فتفتح لها الباب فدخلت واضطجعت وجعلت تربه محاسنها ، فدعته نفسه إليها فقال لنفسه : لاحق أنظر صبرك على النار . فأثى للمصباح فوضع إصبعه فيه حتى احترقت ، ثم عاد إلى صلاته فعاودته نفسه فأثى للمصباح فوضع إصبعه فيه فأحترقت ، ثم أثى صلاته فعاودته نفسه فلم يزل كذلك حتى احترقت الأصابع الخمس . فلما رأته المرأة فمل به نفسه ذلك صمعت فانت .

وكان الأحنف بن قيس يقدم إصبعه إلى المصباح فإذا وجد حرارة النار قال لنفسه : ماحلك على ما صنعت يوم كذا .

قال بعض السلف : دخلت على عابد وقد أوقد نارا بين يديه وهو يعاتب نفسه وينظر إلى النار فلم يزل كذلك حتى خر ميتا .

(١) ت متى .

دخل ابن وَغْب إلى الحُثَام فسمع قارئاً يقرأ : « وَإِذْ يَتَحَاثُونَ فِي النَّارِ » فسقط
مفتشاً عليه فحِيل .

سجع

يا من أركان إخلاصه واهية ، أما لك من عَقْلِكَ ناهية ، إلى متى نَفْسُكَ ساهية ،
مُدْجِبةً بالدنيا زاهية ، مفاخرة للإخوان مضاهية النارُ بين يديك وتكفي داهية « وما أدراك
ماهية نارِ حامية » .

تقوم مِنْ قَبْرِكَ ضعيفَ الجأش ، وقد جأز قلبك في بدنك وجاش ، ووابِلُ السمع
يسبق الرشاكش ، أُنْدرى ما يلاقى المِطَاش الظامِية « نارُ حامية » .

أين من عقى وتَجَبَّر ، أين من علا وتكَبَّر ، أين من لِدُول الظلم دَبَّر ، ماذا أعدَّ
للحضرة السامية ، نارِ [حامية] ^(١) .

لو رأيت العاصي وقد شقى ، بصيح في الموقف وأَقْلَى ، اشتد عطشه وما سقى ،
وشرر النار إليه يرتقى ، فمن يتقى تلك الرامية « نار حامية » .

لو رأيتَه يَقامِي حرَّها ويَمانِي ضرَّها ، جَعِيعَها وَقَرَّها ^(٢) ، والله لا بدفع اليوم
شرَّها إلا عينَ هامية « نار حامية » .

يفر الولد من أبيه ، والأخ من أخيه ؛ وكلُّ قريب من ذَوِيه ^(٣) ، أَسِمَتْ يا من معاصيه
نামيه « نار حامية » .

لهذا كَانَ الْمُتَّقُونَ وَيُخَافُونَ رَبَّهُمْ وَيَشْفِقُونَ ^(٤) ، وكَمْ جَرَتْ مِنْ عِيُونِ
القوم عِيُونَ ^(٥) ، كانت جفونهم دائِمةً دامية [من خوفهم من نار حامية .

أَجَارَنَا اللَّهُ بِكُرمِهِ مِنْهَا وَوَفَّقَنَا لِمَا يَنْجِي عَنْهَا ، وجعلنا بفضلِهِ عَمَّنْ قَامَ بِمَا يُوْثِرُ
واجْتَنَبَ مَا عَنْهُ يُنْهِى ، فَسَكَمَ لَهُ مِنْ نَمِ سامية « نار حامية » ^(٦) .

(١) سقطت من ب . (٢) الفر : شدة البرد . (٣) ب : وكل قرن بين ذويه . وما أثبت من ب .

(٤) ت : وَيُخَافُونَ وَيَتَّقُونَ . (٥) ت : من عيونهم عيون . (٦) ما بين القوسين ساقط من .

المجلس الخاوي والمُسرور

في قصة بلقيس

الحمد لله الذي يخضع لقدرته من يعبد ، ولعظمته يخشع من يركع ويسجد ، ولطبيب
مناجاته يسهر العابد ولا يرقد ، ولطلب ثوابه يقوم للصلى ويقعد ، إذا دخل الدَّاخل^(١)
في العمل له يقصد ، وإذا قصدت به سوقُ الخلق يَكْسُد ، يحمل كلامه عن أن يقال
مخلوق ويبعد ، جدّد التسليم لصفاته مستقيمُ الجُدْجد^(٢) ، وكرمه سيّاح [فلا يحتاج]^(٣)
أن يقال جُدْ جُدْ ، من شبه أو عطلّ لم يرشد ، ما جاء في القرآن قِيلْنَا أَوْفِي السَّنةِ لَمْ تَزِدْ ،
فأما أن تقول في الخالق برأيك فإنك تَبْرُد ، أليس هذا اعتقادكم يا أهل الخير ، وكيف
لا اتفقّد العقائد خوفاً من الصَّير ، فإن سليمان تفقّد الطير « فقال : ما لي لا أرى المدهد » .
أحمد حمداً من يرشد بالوقوف على بابه ولا يشرد ، وأصل على رسوله محمد الذي
قيل لحاسده : « قَلِمْتُد » ، وعلى الصديق الذي في قلوب محبيه فرحات وفي صدور
مبغضيه قرحات لا تنقُد ، وعلى عمر الذي لم يزل يقوّي الإسلام ويَعُصِد ، وعلى عثمان
الذي جاءت له الشهادة فلم يَزِدْ ، وعلى عليّ الذي كان ينسف زرع الكفر بسيفه ويعصِد ،
أنحبه وتبغض أبا بكر تبرد ، وعلى عمه العباس الذي يملو نسبة الأنساب ويمجد .



قال الله عز وجل : « وتفقّد الطير فقال ما لي لا أرى المدهد »^(٤) .

كان سليمان عليه السلام إذا أراد سفرأ قعد على سريره ووضعت الكراسي يميناً
وشمالاً ، فتجلس الإنس والجن وتظلمهم الطير ، ويأمر الريح فتحملهم .

فزل في بعض أسفاره مفازة فسأل عن بُدّ الماء هناك ، فقالوا : لا نعلم . فقالت
الشياطين : إن يك من يئلم فالمدهد . فقال : عليّ بالمدهد . فلم يوجد « فقال : ما لي

(١) ب : الداخل . والداخل : الرياء . (٢) الجدد : الأرض الصلبة الثوية .

(٣) سقطت من به . (٤) سورة النمل - ٢٠ .

أرى المدهد » والمعنى : ما للمدهد لا أراه « أم كان » أى بل كانت « من الفاتنين .
لأعدَّ به عذاباً شديداً » قال ابن عباس : [كان^(١)] ينتف ريشه . وقال الضحاك :
يشد رجليه ويشمه . « أو كَيَّا تَيَّيْ بُلْطَان » أى حجة . وكان المدهد حين نزل سليمان
قد ارتفع فى السماء يتأمل الأرض فرأى بستانا بلقيس قال إلى الخضره ، فإذا هو بهدهد
لما فقال : من أين أقبلت ؟ قال : من الشام مع صاحبي سليمان . فن أين أنت ؟ قال :
من هذه البلاد وملكنها بلقيس . فانطلق معه فرأى بلقيس ومُلكها . وبلقيس لقب
واسمها بلقمة بنت ذى مسرح . وقيل بنت الشَّيْبَان ملك سبأ ، فلما احتضر استخلفها
لما عرف من رأيها وتديرها ، فلعلت وكانت ساكنة فى أرض سبأ وهى مأرب ،
وكانت تحت يدها الملوك .

فلما رآها المدهد وجاء قال له سليمان : ما الذى غيَّبك ؟ « قال أحطتُ بما لم تحِطُ به
وجئتُك من سبأ » وسبأ هى القبيلة التى هى من أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .
وهو اسم رجل .

أخبرنا ابن الحَصِين ، قال أنبأنا ابن المَذْهَب ، قال أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا
عبدالله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا أبو عبد الرحمن بن كريمة ، عن عبدالله بن هُبَيْرَة ،
عن عبد الرحمن بن وعله ، عن ابن عباس ، قال : سأل رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه
وسلم عن سبأ أرجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال : بل هو رجل ولد له عشرة أولاد فسكر
البن منهم ستة ومنهم بالشام أربعة . فأما اليمانيون فَمَذْحِج وِكَنْدَة والأزد والأشعريون
وأنمار وجحير . وأما الشامية فلخمْ وجُدَام وعاملة وعَسَّان .

« لمئى وجدتُ امرأةً تملكهم » يعنى بلقيس « وأوتيت من كل شئ » يعطاه
الملوك « ولها عرشٌ عظيم » وهو السرير . وكانت من ذهب وقوامه من جوهر
مكَلَّل بالؤلؤ .

قوله تعالى : « أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ » والمعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا لله
« الذى يُخْرِجُ الْغَلْبَ » أى المستر .

فقال سليمان : « سننظر أصدقت » وإنما شك في خبره لأنه أنكر أن يكون انبيؤه في الأرض سلطان .

ثم كتب كتابا وختمه بخاتمه ودفعه إلى المهدهد وقال : « اذهب بكتابتى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم » أى استتر « فانظر ماذا يرجعون » من الجواب لحمله في منقاره حتى وقف على رأس المرأة فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه فرففت رأسها فألقى الكتاب في حجرها ، فلما رأت الخاتم أرعدت وخضعت وقالت : « إني ألقى إلى كتاب كريم » لكونه مخطوما .

فاستشارت قومها فقالت : « يا أيها الملأ » تعنى الأشراف ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر قائدا مع كل قائد منهم عشرة آلاف ، وقيل كان معها مائة ألف « أفنؤنى في أمرى » أى يئنون لى ما أفعل وأشيروا على « ما كنت فاطمة أسرا حتى تشهدون » أى تحضرون وأقطع بمشورتكم .

« قالوا نحن أولوا قوة » والمعنى نقدر على القتال « والأمر إليك » فى القتال وتركه .
« قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية » أى عنوة « أفسدوها » أى خرّبوها وأذلوا أهلها . فصعدتها الله تعالى فقال : « وكذلك يفعلون » « وإني مرسلة إليهم بهدية » وذلك أنها أرادت أن تعلم : هل هو نبي فلا يريد الدنيا ، أو ملك فيسترضى ^(١) بالحلل . فبعثت ثلاث كينات من ذهب ، فى كل لبنة مائة رطل وياقوتة حمراء طولها شبر مثقوبة ، وثلاثين وصيفة وألبسهم لباسا واحدا فلا يعرف الذكر من الأنثى . ثم كتبت إليه : قد بعثت كذا وكذا فأدخل فى الياقوتة خيطا واختم على طرفيه بخاتمك ، وميز بين الجوارى والنملان . فأخبره أمير الشياطين بما بعثت به قبل التقدم فقال : انطلق فأفرش على طريق القوم من باب مجلى ثمانية أميال فى ثمانية أميال كينات من ذهب . فبعث الشياطين فقطعوا اللّين من الجبال وطلّوه بالذهب وفرشوه ، ونصبوا فى الطريق أساطين

(١) ت : فيرضى .

الياقوت الأحمر . فلما جاءت الرسل قال بعضهم لبعض : كيف تدخلون على هذا الرجل بثلاث لبنات وعنده ما رأيتم ؟ فقالوا : إنما نحن رسل .

فلما دخلوا عليه « قال : أُمِدُّوْنِي بِمَالٍ » ثم دعا دودة فربط فيها خيطاً وأدخلها في ثقب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر ، ثم جمع طرفي الخيط فحَمَّ عليه ، ثم ميَّز بين الفلّمان والجواري بأن أسرمهم بالوضوء ، فبدأ الفلام من مِرْفَقِهِ إلى كَفِّهِ وبدأت الجالوية من كَفِّهِ إلى مِرْفَقِهَا . هذا قول سعيد بن جبّير . وقال قتادة : بدأ الفلام بفلس ظواهر السواعد قبل بطونها ، والجواري على عكس ذلك .

ثم قال للرسول : « ارجعْ إليهم فلنأتينهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها » فلما عادت الرسل وأخبرت بلقيس بعثت إليه : إلى قادمة إليك لأنظر ما تدعو إليّ به ، ثم أمرت برسها فجعل وراء سبعة أبواب ، وكلت به حرساً يحفظونه ، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف ملك ، تحت يدي كلّ ملك ألوف . فجلس سليمان عليه السلام على سرير مُلْكِهِ ، فرأى رَجُلًا^(١) فقال : ما هذا ؟ قالوا : بلقيس قد نزلت بهذا المكان . فقال : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِرَسْمِهَا » « قال عفريت » وهو القوى الشديد : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » أي مجلسك . فقال : أريد أسرع من ذلك . « قال الذي عنده علم من الكتاب » وهو واصف بن برخيا ، وكان يعرف الاسم الأعظم ، وكان يقوم على رأس سليمان بالسيف . قال مجاهد : دعا فقال : يا ذا الجلال والإكرام . فبعث الله تعالى الملائكة لحملوا السرير تحت الأرض يخدّون به الأرض خدّاً ، حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان فقال : « نَكَّرُوا لَهَا عَرَشَهَا » فغيروه وزادوا فيه ونقصوا فلما « قيل : أهكذا عَرَشْتُكَ ؟ » « قالت : كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها » أي قالت قد أوتيت العلم بصحة نبوة سليمان بأمر المهدد والرسول الذي بعثت من قبل هذه الآية « وصدّها ما كانت تمبّد » والمعنى : أنها كانت عاقلة وإتعا كانت تتبع دين آبائها .

فأمّر سليمان الشياطين فبنوا لها صرحاً على الماء من زجاج ، وهو القصر ، وكانت

(١) الرمح : البار .

الشياطين قد وقعت فيها عنده وقالوا : رَجُلُهَا كَرَجُلِ الْحِمَارِ ، فأراد أن يرى ذلك ، فقليل لما : « ادخل الصَّرح » غسبته بِلَّةٌ وهو مُعْظَمُ لَآءٍ « وكشفت عن ساقها » لدخول لَآءٍ « فقال سليمان : « إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ » أى مجلس « من قواريير » أى من زجاج . فقلت أن مُلْكُ سليمان من الله تعالى . فقالت : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » أى بما سبق من الكفر . ثم تزوجها سليمان عليه السلام وردّها إلى مُلْكِهَا ، وكان يزورها في كل شهر مرة ، ويقم عندها ثلاثة أيام ، وبقي ملكها إلى أن توفي سليمان ، فزال ملكها بموته .

الكلوم على البسمة

وضَحَ البيانُ وأنت في غَرَرِ الهوى متشاعِلٌ ببطلانِ وتَسَاوِي
تَرَنّاحٍ في مُثُلِ الشَّيْبِ مُنْعَمًا ^(١) أَخَذْتَ مِيثَاقًا من الأوصابِ
كَمْ نَظِيرٍ قَدْ رَاقَ حُنَا نَظَرًا أَبْلَاهُ بِالْآفَاتِ شَرُّ مَصَابِ
لَمْ يُغْنِ عَنْهُ جِوَاهِلُهُ وَكَأَلَهُ وَمُقَامُ مُلْكٍ فِي أَعَزِّ نِصَابِ
وَأَنَاهُ مِنْ حَرْبِ الْفُتُونِ مُعَاجِلٌ صَبَّبَ شَدِيدُ الْوَقْفَرِ غَيْرَ مُحَابِ
فَرَأَى اكْتِسَابَ يَدَيْهِ لَيْسَ بِتَافِعٍ وَدَعَا ذَوِيهِ فَكَانَ غَيْرَ مُجَابِ
وَحَوَاهُ لِحَدِّ ضَيْقٍ مُتَهَدِّمٍ يَهْلُوهُ كَرْبُ جَنَادِلِ وَتَرَابِ
فَأَفَقَّ بِنَفْسِكَ وَالزَّمَانُ ^(٢) مُسَاعِدٌ وَأَطْعَ نَهْيَكَ سَاعِيًا لِصَوَابِ
وَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ حَقًّا تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْبِي بَرْدَ جَوَابِ

ألا متيقظ لما بين يديه ، ألا متأهب للقدوم عليه ، ألا عامر للقبر قبل الوصول إليه .
نَسْمَعُ فَإِنْ الْمَوْتَ يَنْفَرُ بِالصَّوْتِ وَبَادِرُ بِسَاعَاتِ التَّقَى سَاعَةَ الْمَوْتِ ^(٣)
وإن كنت لا تدري متى أنت ميتة فإنك تدري أن لا بُدَّ من موتِ
إخواني : إنما العمر مراحل ، وكان قد بلغت سفينة الراحل ^(٤) .

(١) ب : تما . (٢) ت : والتجاء ، مساعد . (٣) ت : بساعات البقا ساعة الموت .

(٤) ت : سفينة الساحل .

دخلوا على أعرابي يمدونه فقالوا : كم أنى عليك ؟ فقال : خمسون ومائة سنة . فقالوا : عُمِّرَ والله . فقال : لا تقولوا ذلك فوالله لو استكلمتموها لاستقلتوها .

إخواني : من أخطأته سهام اللية قيده عقال الهرم ، إن لكل سفر زاداً فتزودوا لسفركم التقوى ، وكونوا كمن عابن ما أعد له ولا يطولن عليكم الأمد فتفسد قلوبكم ، والله ما بسط أمل من لا يدرى : أبصيح إذا أمسى أو يمسي إذا أصبح .

لا تحسبن الزمان يُنسك^(١) مَرَضَ ولكنه يبدأ بيد^(٢)
يُعطيك يوماً فيفتضيك غداً مَرِيرَةً من مريرة الحسد^(٣)
يسرق الشيء من قُوك وإِنْ كان خفيّاً عن أعين الرّيد^(٤)
حالا فخالا حتى يردّيك بالكثرة بعد الشباب والغيد^(٥)

إخواني : إن العبر قد وضعت ، وإن النذر قد نصحت ، وإن اللواعظ قد أفصحت ، ولكن النفوس من سُكرها ما سحت ، أين الهمُّ الجتمع تفرق فا تنقطع ، يدعوك الهوى فتقع ، ويحدثك للى فتستمع ، كم زجرك ناصح فلم تطع ، وصل الصالحون يا منقطع ، أما الذي عاقلك هو^(٦) مُتَخَذِع ، شرّوا بما يفنى ما يبقى ولم تشر ولم تبسّ ، أين تعبهم نسيخ بالروح ولم يضع ، تلحّ المواعظ فلتلحّك^(٧) العقلُ وضيع ، كأنه ما شيع ، من جاع ولا جاع من شبع ، أين الهمُّ المجدة ، أين النفوس للمتعة ، أين للمتأهب قبل الشدة ، أين للتيقظ قبل انقضاء اللذة ، عاتب نفسك على قُبْح الشَّيم ، وحذرها من مثيرات الحزن والقدم ، وامنعها تخليطها فقد طال السقم ، وذكّرها لحاقها بمن قد سبق من الأمم ، واحضر معها باب الفكر فإنه نعم الحكم ، ونادها في الغلوات إلى كم مع الشُّبَاتِ وكم .

رُبَّ حَتَفٍ بين أثناء الأمل وحياة المرء ظلّ ينتقل
لونجاشي تحت صارية^(٧) يُهَجِّرُ السَّهْلُ وَيُجْبِلُ الْجَبَلُ

(١) ينسك : يبيك إلى أجل . (٢) للمرّة : التّعة والقوة . والحسد : يراد به هنا السبب والحرم .
(٣) الرمد : المصاب برمد في عينه . (٤) الغيد : أول الشباب . (٥) ب : هو متخذع .
(٦) ت : فلتلحها . (٧) كذا بالأصل : وانصاري : الحافظ . ويقال : أجبل القوم إذا صاروا إلى الجبل . وتجبوا : دخلوا في الجبل .

أَيْنَ مَنْ كَانَ حَقِّي شَخْصَهُ مثلَ قَدِّ السَّيْرِ إِنْ عَضَّ قَتْلُ
أَيْنَ مَنْ يَسْلُمُ مِنْ صَرْفِ الرَّدَى حَكْمُ لَوْتُ عَلَيْنَا فَعَدْلُ
وَكَأَنَّا لَا نَرَى مَا قَدْ نَرَى وَخُطُوبُ الدَّهْرِ فِينَا تَنْتَضِلُ
فَرَوَيْدًا بِظُلَامٍ صَبَحَهُ^(١) فَعَى الْأَيَّامِ وَالْدَّهْرِ دَوَّلُ

الكلام على فرد تعالى

« لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ »

قال المفسرون : لا زائدة . والمعنى : أقسم . وقال بعضهم : « لا » رَدٌّ عَلَى مَنْسِكِرِ
البعث . قال ابن قتيبة : زبدت « لا » على نية الرد على المكذبين ، كما تقول : لا والله
ما ذاك كما تقول .

« وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » فيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنها التي تلوم نفسها حين
لا ينفعها اللوم . قاله ابن عباس .

والثاني : أنها نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على تقصيره . قاله الحسن . فعلى هذا
تكون ممدوحة .

والثالث : أنها جميع النفوس . قال الفراء : ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي
تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرا قالت : هَلَا زِدْتُ . أو شرا قالت : ليتني لم أفعل .
وجواب القسم محذوف ، تقديره : لَتُبْعَمَنَّ ، يدل عليه قوله : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ
أَنْ لَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ » والمراد به الكافر .

« عَلَى قَادِرِينَ » المعنى : يل نجمهما قادرين « عَلَى أَنْتَ نُتَوَّى بَنَانَهُ » والبنان :
أطراف الأصابع . وفي المعنى قولان : أحدهما أن يجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا
كحافر الحمار وخفّ البعير فيعْدَمُ الإِرْفَاقَ بِالْأَعْمَالِ الطَّيِّفَةِ ، كالكتابة والخياطة . هذا قول
الجمهور . والثاني : تقدر على تسوية بنانه كما كانت وإن صَغُرَتْ عِظَامُهَا ، ومن قدر

(١) كذا بالأصل .

على جمع صغار العظام كان على جمع كبارها أقدر . وهذا قول ابن قتيبة والزجاج .
 قوله تعالى : « بل يربد الإنسان ليَجْرُ أمامه » فيه قولان : أحدهما : يكذب بما أمامه
 من البعث والحساب . قاله ابن ابن عباس . والثاني : يقدم الذنب ويؤخر التوبة ويقول :
 سوف أتوب . قاله سعيد بن جبير . فعلى هذا يراد بالإنسان المسلم وعلى الأول الكافر .
 قوله تعالى : « يَسْأَلُ أَبْنَاءَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيُّ مَتَى هُوَ ، تكذيباً به ، فهذا هو الكافر .
 « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ » قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحركة والكسائي : « بَرِقَ »
 بكسر الراء . وقرأ نافع بفتحها ، وهما لفتان ، تقول العرب : برق البصر يبرق وبرق
 يبرق ، إذا رأى هو لا يفزع منه .

ومتى يبرق البصر؟ فيه قولان : أحدهما يوم القيامة يشخص بصر الكافر فلا يظرف
 لما يرى من الأمور التي كان يكذب بها في دار الدنيا . قاله الأكثرون . والثاني :
 عند الموت . قاله مجاهد .

قوله تعالى « وخسف القمر » أى ذهب ضوؤه . قال أبو عبيدة : خسف
 وكسف بمعنى واحد .

قوله تعالى « وجمع الشمس والقمر » قال أبو عبيد : إنما قال جمع لتذكير القمر .
 وفي هذا الجمع قولان : أحدهما جمع بين ذاتيهما . قال ابن عباس ^(١) : جمعا كالبعيرين
 وكالفرسين ^(٢) . وقال عطاء بن يسار : يجمعان ويقذفان في البحر . وقيل في النار .
 وقيل يجمعان فيطلمان من المغرب . والثاني : جمع بينهما في ذهاب نورهما . قاله
 الثوري والزجاج .

قوله تعالى : « يقول الإنسان » يعنى المكذب بيوم القيامة : « أين المقرة » أين الفرار
 « كَلَّا لَا وَزَرَ » أى لا ملجأ « إلى ربك يومئذ المستقر » أى المنتهى والرجوع
 « يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » فيه ثلاثة أقوال : أحدها : بما قدم قبل موته
 وما سنَّ من شيء ففعل به بعد موته . قاله ابن مسعود . والثاني : بأول عمله وآخره .

(١) ت : قال ابن مسعود . (٢) ب : والفرسين . وما أنبه من ت .

قاله مجاهد . والثالث : بما قدم من الشر وأخر من الخير . قاله عكرمة وقال : بما قدم من معصيته وأخر من طاعته .

والأسف من الصحيفة إن نشرها ، واحزنا على الذنوب إن أظهرها ، واحسرتا على خطايا ما غفرها ، من ^(١) لمن حاد عن الطريق وقد أبصرها ، من لمن شاهد نجاته وكأنه لم يرها ، تالله لقد آذى المامى نفسه وعثرها ، كم سمع موعظة من مذكّر قد كررها ، ثم أعرض عنها بعد أن فهمها وتدبرها ، ويحك إلى متى تضعي زمك ، وإلى متى إشار ففنيك ، أما آن التنبه من وسنك ، أما حق أن تميل عن سنك ، يا لاهيا أنسى وقت حزنك ، يا بائسا نفسه أروضت الفاني بشنك ، أين فهمك الثاقب وجودة ^(٢) فطنك ، كم بقى بين سرّك وبين علنك ، أين زاد رحيلك وعدّة كفنك ، إلى متى مع الدنيا كم مع وثنك ، كيف السبيل إلى صلاحك وتلافيك ، وكل ما ذكره العائب وتلافيك ، أما يزجرك تخويف : « وتلك القرى أهلكتهم ^(٣) » أما ينذرك إعلام : « وكذلك أخذ ربك ^(٤) » أما يقصم عرى عزائمك : « وكم قصمنا من قرية ^(٥) » أما يقصر من قصورك : « وبئر موطلة وقصر مشيد ^(٦) » أما يكفي لك مثل : « وقد خلت من قبلهم اللّٰثلاث ^(٧) » أما رأيت شمال العقوبة كيف فرقت كملهم ، لقد مررت في جوّ التخويف تهيب بالمصاة : « فكلّا أخذنا بذنبه ^(٨) » .

يا هذا لا نوم أنقل من الغفلة ، ولا ريق أملك من الشهوة ، ولا مصيبة كوت القلب ، ولا نذير أبلغ من الشيب :

ألا تنل فقصير عن هواك فقدّر شيب رأسك كان ذاك ^(٩)
أكل الدهر أنت كما أراك تراك إلى اللات كذا تراكا

(١) الأصل : ما لمن . (٢) ب : وطفنك . (٣) سورة الكهف ٥٩ .
(٤) سورة هود ١٠٢ . (٥) سورة الأنبياء ١١ . (٦) سورة الحج ٤٥ .
(٧) سورة الرعد ٦ . (٨) سورة العنكبوت ٤٠ . (٩) ت : قدّر شيب رأسك .

أراك تزيد حذقاً بالمعاصي وتفعل عن نصيحة من دعاك^(١)

يا قوم غرقت السفينة ونحن نيام ! أبوك لم يسمع في حبة حنطة ، وداود لم يسهل في نظرة .

يا مُدْمِن الذنوب مذ كان غلاماً ، علام عولت قل لي على ما ، أتا من ما أتى من أتى حراماً ، أما ترى ما حل بهم من الذنوب إليك قد ترى ، آه لجنن عليم ما سيلقى كيف يلقي مناماً ، أين أرباب الأعمار والتداسي ، كل القوم في قبورهم نداسي ، قل لي من اتخذت في أمورك إماماً ، أما ما جرى على المعصاة يكنى إماماً ، إلى كم نضيع حديثنا طويلاً وكلاماً ، ما أرى داحك إلا داه عقاباً ، أما تؤثر نيران تخويفك ؟ صارت برداً وسلاماً .

فذكر النفس هولاً أنت راكبهُ وكربة سوف تلقى بعدها كرباً
إذا أتيت المعاصي فاخش غايبتها من يزرع الشوك لا يجني به عنباً

إلى متى أعمالك كلها قباح ، أين الجِدْ إلى كم مزاح ، كثر الفساد فأين الصلاح ، ستفارق الأجساد الأرواح ، إما في غدو وإما في رواح ، سينقضي هذا المساء والصباح ، وسيغلو الليل بالوجوه الصباح ، أفي هذا شك أم الأمر مزاح ، أين سكران الراح راح ، حلّ للبلبل والدود مباح ، لما اغتباق به ثم اصطباح ، عليه نطاق من التراب ووشاح ، عنوانه لا يزول مفهومه لا براح ، أنه منسكرو ونكبر كذا في الأحاديث الصراح ، فن لحنج مرعوب ومقاتل بلا سلاح ، مشغول عن من مدح أو ذم أو بكى أو ناح ، لو قيل له تمن كان العود الاقتراح ، وأتى وهل يطير مقصود الجناح .

إخواني : لا تقولوا من مات استراح أما هذا لنا قليل^(١) ، إنا لوطاح .

أئس الناس بالغير وتعمأوا عن الخير
قل لآلئ يومه في غدٍ تعرف الخير

(١) الأمل : قليل .

يا بني الحرس والتكا تر والبنى والبطر
ليس باق كفان فكونوا على حذر
يا ضجيج البلى على فرش الصخر واللدن
قد تزودت مأتما وإلى ربك السفر

سبح على قوله تعالى

« يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »

يا من يخطر في ثياب التنفلة يقبخر ويتعبر، وقبائمه تكتب وهو لا يحس وير^(١)،
بين يديك يوم قريب ما يتأخر « يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » يا متعرضا بالذنب
والمقاب ، يا غافلا عن يوم السؤال والجواب ، يا مبارزا بالمعاصي رب الأرباب ، من
أعظم جرأة منك على العذاب قل لي ومن أضبر ، نيت معادك وأطلت أمك ،
وأعرضت إلى الهوى عن أمر من ملك ، ولو رفعت والله عمك إلى ملك أعظم ذلك
وأكبر ، لقد أناح التقصير والتمادى ببابك ، وقل^(٢) أن يبق بريح الثواب شيء من
أثوابك ، والشيطان يجرى منك مجرى الدم من آراك ، فهو متمكن منك إذا قت
في محرابك إلى حين قولك الله أكبر .

تقوم إلى صلاتك وأنت متكاسل ، وتدخل في الصلاة بقلب غافل ، وتستعجل
في الصلاة لأجل العاجل ، وإذا نظرت بعد الصلاة إلى الحاصل : فالجسد أقبل
والقلب أذبر .

يا من ذل المعاصي يملوه ، يا مظلم القلب متى تجلوه ، هذا القرآن يتلى عليك وتتلوه
ولكن ما تتدبر .

يا معتزًا بالزخارف والتمويه ، تُجَبِّبُ بما تجممه من الدنيا وتحويه ، هلك والله ذوعجب
أو كبر أو تيه ، ونجا والله أشعث أغبر ؛ أنت في دار انزعاج فاحذر منها لا تر كن

(١) يزر : يتع - (٢) ب : وقل لي : محرمة .

إليها ولا تأمنها ، إنما أَسْكَنْتَها لتُخْرِجَ عنها ، فتَأْهَبَ لِلنَّقْلَةِ فما يُسْمَعُ من مَعْبَرٍ ، أين من
كان يَنْتَمِ في قُصُورِها قد فَسَحَ لِنَفْسِهِ في تَوَانِيهِها وقُصُورِها ، خَدَعَتْهُ وَاللَّهُ بِغُرُورِها
بعد أن سَاسَ الرِّعَايَا وَدَبَّرَ ، نَقْلَتَهُ وَاللَّهُ صَرِيحاً سَرِيحاً ، وَسَلَبَتْهُ وَاللَّهُ مَا جَمَعَهُ جَمِيعاً ،
وَبَرَزَتْهُ كِبَرًا كَبِيرًا وَعِزًّا مَنِيحاً ، أَتَرَاهُ يَفْتَخِرُ في قَبْرِهِ أَوْ يَتَكَبَّرُ ، خِلا بِعَمَلِهِ في ظِلَامِ لُحْدِهِ
لم يَنْفَعَهُ غَيْرُ اجْتِهَادِهِ وَجَدَّهُ ، لو قُضِيَ بِرُجُوعِهِ إِلَى الدُّنْيَا وَرَدَّه لَحْدَتُنَا بِهَذَا أَوْ آخِرٍ .

فَتَنِيهِ أَنْتَ مِنْ رَقَدَاتِكَ ، وَكُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ في حَيَاتِكَ ، فَلَقَدْ بَالَفْتَ الزَّوْاجِرُ
في عِظَاتِكَ ، كَمْ تَسْمَعُ مَوْعِظَةً وَكَمْ تَجْلِسُ تَحْتَ مِئْبَرٍ ، يَا لَهَا مِنْ نَصِيحَةٍ لو وَجَدْتَ نَفَادًا ،
هِيَ حُجَّةٌ عَلَيْكَ إِذَا لَمْ تَكُنْ مَلَاذًا ، وَالشَّيْءُ إِذَا لَمْ يَنْفَعِ فَرِحًا آذَى ، وَأَنْتَ يَا هَذَا بَمَدِّ
هَذَا بِنَفْسِكَ أَخْبَرِ .

المجلس الثاني والعشرون

في قصة سبأ

الحمد لله للتفرد بالجز والجلال ، التنفيل بالمعطاء والإفضال ، مسخر السحاب الثقال ،
مصرع الزرع تربية الأطفال ، جلّ عن مثل ومثال ، وتعالى عن حكم الفكر والخيال ،
قديم لم يزل ولا يزال ، يتفضل بالإنعام فإن شكير زاد وإن لم يشكر أزال « لقد كان
لسبأ في مسكنهم ^(١) آية جنتان عن يمين وشمال » .

أحمد على كل حال ، وأصلى على رسوله محمد أشرف من نطق وقال ، وعلى صاحبه
أبي بكر الصديق بأذل النفس والمال ، وعلى عمر الفاروق العادل فاجراً ولا مال ، وعلى
عثمان الثابت للشهادة ثبوت الجبال ، وعلى [عليّ] ^(٢) بحر العلوم وبطل الأبطال ، وعلى
عنه العباس المقدم في نسبته على جميع الأهل والآل .

قال الله تعالى : « وقد كان لسبأ في مسكنهم ^(١) آية جنتان عن
يمين وشمال ^(٢) » .

سبأ هي القبيلة التي هم من أولاد سبأ ، وكانت بلفيس لما ملكت قومها تراهم يقتلون
على ماء واديهم فجعلت تنههم فلا يطعمونها ، فتركت ملكها وانطلقت إلى قصرها
فنزله ، فلما كثر الشر بينهم أتوها فألوها أن ترجع إلى ملكها فأبت ، فقالوا :
لترجعن أو لنقتلك . فقالت إنكم لا تطيعونني . فقالوا : إنا نطيعك . فجاءت إلى واديهم
وكانوا إذا مهوراً أتاه السيل من مسيرة خمسة أيام ، فأمرت فسد ما بين الجبلين بمسنة ^(٣)
وحبست الماء من وراء الد : وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض . وبنت من دونه

(١) الأصل « مسكنهم » ومعنى فراءه . (٢) حطمت من الأصل . (٣) سورة سبأ ١٥ .

(٤) المسناة : الد .

بركة وجعلت فيها اثني عشر نحرًا على عدد أنهارهم ، فكان الماء يخرج منها بالسوية ، إلى أن أسلمت مع سليمان .

وقيل : إنما بنوا ذلك لئلا ينفش السيلُ أموالهم فتهلك ، فكانوا يفتحون من أبواب السد ما يريدون فيأخذون من الماء ما يحتاجون إليه ، وكانت لهم جنتان عن يمين واديهما وعن شماله ، فأخصبت أرضهم وكثرت فواكههم ، وإن كانت المرأة لتمتر بين الجنتين والمكثل على رأسها فترجع وقد امتلأت من الثمر ولا تمس بيدها شيئًا منه ، ولم يكن في بلدتهم حية ولا عقرب ولا بومضة ولا ذبابة ولا برغوث .

فيث الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبيا وقيل لم : « كَلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ » أي هذه بلدة طيبة ، ولم تكن سبعة ولا فيها ما يؤذي « وَرَبُّكَ غَفُورٌ » أي والله رب غفور .

« فأعرضوا » عن الحق وكذبوا الأنبياء « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ » وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أن العرم : الشديد . رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال ابن الأعرابي : إن العرم : السيل الذي لا يطاق .

والثاني : أنه اسم الوادي . رواه عطية عن ابن عباس . وبه قال قتادة والضحاك .

والثالث : أنه للسناة . قاله مجاهد والقراء وابن تيمية . وقال أبو عبيدة : العرم جمع عَرِمَةٍ وهي السَّكْرُ^(١) والسناة .

والرابع : أن العرم : الجرد الذي نقب عليهم الكر . حكاه الزجاج .

وفي صفة إرسال هذا السيل عليهم قولان . أحدهما : أن الله تعالى بعث عليهم على بكرهم دابة فتفتته . روى عطية العوفي عن ابن عباس أنه قال : بعث الله تعالى عليهم دابة من الأرض فتفتت فيه تقيا فسال ذلك الله إلى موضع غير اللوضع الذي كانوا ينتفعون

(١) السكر . سد التهر وكذالك السناة .

به . وقال قتادة والضحاك : بعث الله عليهم جُرْداً يسمى الخلد ، والخلد النار الأحمى ، فقتله من أسفله فأغرق الله به جناتهم وخرب الله به أرضهم .

والثاني : أنه أرسل عليهم ماءً أحر قصف السدّ وهدمه وحفر الوادي . قاله مجاهد . قوله تعالى : « وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَنَنِهِمْ » يعنى اللتين كانتا تطعم القواكه « جنتين ذوائى أكل كل سُخط » قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وحزرة والكسائى : « أكل » . بالتونين وقرأ أبو عمرو « أكل » . بالإضافة . والأكل : الثمر . وفى المراد بالتلحيط ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الأراك . قاله الحسن ومجاهد والجمهور . فعلى هذا أكله ثمره . وثمرة الأراك : البربر . والثاني : أنه كل شجرة ذات شوك . قاله أبو عبيدة . والثالث : أنه كل نبت قد أخذ طمأ من المرارة حتى لا يمكن أكله . قاله اللبرّد والزجاج . فعلى هذا القول : اتلحط : اسم للأكول .

والأثل : الطرفة . قاله ابن عباس . وقوله تعالى : « وشئ من سدر » وهو شجر التنبق . والمعنى أنه كان الخط والأثل فى جنهم أكثر من السدر .

« ذلك جزيناهم بما كفروا » أى ذلك التبديل جزيناهم بكفرهم « وهل يُجازى إلا الكفور » قال طائوس : الكافر يجازى ولا يُنقر له ، والمؤمن لا يناقش الحساب . وقال القراء : للمؤمن يُجْزَى ولا يجازى ، فيقال فى أفصح اللغة : جزى الله المؤمن ولا يقال جازاه بمعنى كافأه . والكافر يجازى بسبب مثلها مكافأة له ، والمؤمن يفضل عليه .

قوله تعالى : « وجعلنا بينهم » هذا معطوف على قوله : « لقد كان لِسَبِّ » والمعنى : من قصصهم أنّا جعلنا بينهم وبين القرى التى بارَكنا فيها وهى قرى الشام « قرى ظاهرة » أى متواصلة ينظر بعضها إلى بعض « وقدّرنا فيها السير » فيه قولان : أحدهما : أنهم كانوا ينفذون فيقيلون فى قرية ويرجعون فيبيتون فى قرية . قاله الحسن وقتادة . والثانى : أنه جعل ما بين القرية والقرية مقداراً واحداً . قاله ابن قتبية .

قوله تعالى « سِيرُوا فِيهَا » للمنى : وقلنا لهم سِيرُوا فِيهَا « لِيَأْتِيَ وَأَيَّامًا » أى ليسلا ونهارا آمنين من غلوف السفر من جوع أو عطش أو سبب أو تعب .

فَيَطِيرُوا النِّعْمَةَ وَتَلُوهَا ، كما تَلَّ بنو إسرائيل للنَّ وَالسَّوَى « قَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » قرأ ابن كثير وأبو عمرو . « بَعْدُ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وقرأ نافع وعاصم وحزة والكسائي : « بَاعِدْ » روى عطية عن ابن عباس أنه قال : بطروا عيشهم وقالوا : لو كان جَنَى جَنَاتِنَا أَبَدَ مَا هِيَ كَانَ أَجْدَرُ أَنْ نَشْتَبِيهِ .

« وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » بالكفر وتكذيب الرسل « لِحَمَلَانِمَا أَحَادِيثَ » لمن يعدم يتحدثون بما قُل بِهِمْ « وَمَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقَى » أى فرقناهم فى كل وجه من البلاد كل التفريق ، لأن الله تعالى لَمَّا أَغْرَقَ مَكَانَهُمْ وَأَذْهَبَ جَنَّتَهُمْ تَهْدَدُوا فى البلاد وصارت العرب تتمثل فى الفرقة يقوم سبأ يقولون : تفرقوا أبدا سبأ .



وقد حَدَّثَتْ هذه القصة من الخِلاَف وبينت عقاب تاركى الشكر .

الكلام على البسمة

تَلَقَّتْ بِأَمَالٍ طَوَالِ أَيْ آمَالٍ
وَأَقْبَلَتْ عَلَى الدُّنْيَا مُلِحًا أَيْ إِقْبَالٍ
فِيَاهِذَا تَجَهَّزْ لِمُفْرَاقِ الْأَهْلِ وَاللَّالِ
فَلَا بُدَّ مِنَ الْمَوْتِ عَلَى حَالٍ مِنَ الْحَالِ

مضى تفتيق من هذا المرض للمراض ، متى تستدرك هذه الأيام الطوال اليراض ،
يا غافلاً عن سهام الموت الحداد للواض ، تالله لقد أصاب السهم من قبل الإنباض (١) ،
ولقد آن لجمع الحياة الشقائق والانقضاء ، وحان لبنان السلامة الخراب والانتقاض ،
وحق للقرض أن يطالب للقرض بالإقراض ، ودنا من مبسوط الآمال الاجتماع

(١) الإنباض : تحريك القوس لينطلق السهم .

والانقباض ، أما الأعمار كل يوم في انقراض ، لقد نهت قبل شكة السهم صكة ^(١) للقرض ، أما ترى الراحلين ماضياً خلف ماض ، كم بنيان ماتم حتى تم ماتم وهذا قد استفاض ، كم حط ذو خفض على رغم في رغام وانخفاض ، انهض بجدك والمائل ناهض قبل الإنهاض ، إن اللوت إليك كما كان لأبويك في ارتكاض ، إن لم تقدر على مشارع الصالحين رد باقي الحياض ، إن لم تكن بنت لبون فلتكن بنت نخاض ^(٢) ، إلى متى وحق أتعت الرؤاض ، أمالك أنفة من هذا التوبيخ ولا امتعاض ، كلما بنى نصيحك نقصت وما يعلو بنا مع نقاض ، يا من باع نفسه بلفة ساعة ييماً عن راض ، لبس ما لبست أدرى ما تمتاض ، يا علة لا كالميل ويا صرضاً لا كالأمراض ، إنما تجزى بقدر عملك عند أعدل قاض .

قصرك ^(٣) الشيب فاقض ما أنت قاض يبدار من قبل حين البياض
إن شربخ الشباب قرض الليالي فتصرف فيه قبل التقاض



المائل من راقب العواقب ، والجاهل من مضى قدماً ولم يراقب ، أين لذة الهوى زالت وكأنها لم تكن إذ حالت ، أين الذين برزوا أقلام اللق وقطوا ، وكتبوا صكالك الآمال وخطوا ، وتعكفوا في بلوغ الأغراض واشتطوا ، وانفردوا بما جموا فخرتوا ولم يعطوا ، علوا على عال وما أسرع ما انحطوا ، وسارت بهم مطايا الرحيل مخذلي بهم وتمطو ^(٤) .

فكم من صحيح بات للوت آمناً أتته للنالا بفتة بعدما هجع
فلم يستطع إذ جاءه للوت فجأة فراراً ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه التاه مقنماً ولا يسمع الداعي وإن صوته رقع

(١) الصكة : الضربة (٢) بنت لبون : الناقة إذا كانت في العام الثاني واستكته أو إذا دخلت في الثالث . وبنت عاض : الناقة التي دخلت في السنة الثانية . (٣) قصرك : غايك .
(٤) تمطو : تجرد في السير .

وَقُرْبُ مَنْ خَلِدَ فِصَارَ مَقِيلِهِ وَهَارِقَ مَا قَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ قَدْ جَمَعَ

يا حريصا على الدنيا مضى عمرك في غير شيء ، انقشع غيمُ الزمان لآعن هلال الهدى ،
مالذت لذة الدنيا إلا لكافر لا يؤمن بالآخرة ، أو لتقليل العقل لا ينظر في عاقبة ، الدنيا
خراب وأُخرب منها قلبُ من يَمُرُّها ، إلى أيّ حين مع العبيّاء ، أما يكفي ما قد مضى ،
إلى كم هذا الكرى أين التيقظ لخلول الثرى ، كم قد قتل قبلك النّبي وإِنما يفهم أولوا النّهي ،
يأسير رُقادَه ، يامريض فسادَه ، يامعرضا عن رشادَه ، يامن حُبِّ الدنيا في سواد سواده ،
ما ينفعه النصح على كثرة ترّدادَه ، سواء عليه ناداه أم لم يناده ، تالله لقد غزّتك الحوادث
بسلب القرّناء عِزّاً ، ولزّك المتقاضى بالأجل لو فهمت لزّاً^(١) ، أما في كل يوم بمحبوب
نُزّي ، أما ترى الأسيّة نعمل طمنا ووخزاً ، أما تشاهد مهنّذات السيوف تهز هزّاً ،
أين من أوعده ووعد ، هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً .

على ذا ما مضى وعليه تمنّى طوالُ مئى وآجالُ قِصارِ
واليامُ تَمَرُّفُنَا مَدَاهَا أما أنفاسُنَا فيها سُقَارُ^(٢)
ودهرُ^(٣) يَنْتَرُ الْأَعْمَارُ نَتْرَأُ كَمَا لِلْفُضْنِ بِالْوَرْدِ انْتِثَارُ
وَدُنْيَا كَلِمَا وَضَعْتَ جَنِينَا غَدَاهُ مِنْ نَوَائِبِهَا طَوَارُ^(٤)
هِيَ الْعَشَوَاءُ مَا خَبِلَتْ^(٥) هَيْشَمُ هِيَ الْمَجَاهِدُ مَا جَرَحَتْ جُبَارُ^(٦)
فَنَ يَوْمٍ بَلَا أَمْسٍ لِيَوْمٍ بَغِيرَ غَدٍ إِلَيْهِ بَنِي بَسَارُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ﴾

قال ابن عباس : رافع السموات « ذو العرش » أى هو خالقه ومالكه .

(١) لذك : شدةك وألمعتك . (٢) السّار . بضم السين وتشديد الفاء : السافرون ، وخفت
الفاء لضرورة الوزن . (٣) ب : ودعرا . (٤) الطوار : القطار . (٥) ب : ما غطت .
عرفة والصوب من ت . (٦) المجاه : الدابة . وجبار : حذر لادبة فيه .

سبع

زين السماء بالنجوم تزيين النّفس، وجمع الثّريّا وفروق بنات نّفس، ومدّ الأرض
كتمهيد الفرش، وأنزل القطر بين الويل والعاش^(١)، وحمل الأدمى على الفرش
والنّفس، بيّنا هو يلهو جاء أمر^(٢) زاد على الحرش^(٣)، وضجّ لمرضه وما يصبر على
أخذش، ثم يقيمه للقيامة بالبعثرة والنّفس، سبّحانه من عظيم شديد البطش « رفيع
الدرجات ذو العرش » .

قوله تعالى : « يُلْقِي الرُّوحَ » وهو الوحي « من أمره » أى بأمره « على من يشاء
من عباده وهم الأنبياء » لينذر يوم التّلاق « وفيه خمسة أقوال : أحدها أنه يلتقي أهل
السماء والأرض . رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس وبه قال بلال بن سعد . والثاني
يلتقي الأولون والآخرون . روى عن ابن عباس أيضا . والثالث : يلتقي الخالق والمخلوق ..
قاله قتادة . والرابع : المظلوم : والظالم قاله ميمون بن مهران . والخامس : يلتقي للمرء بمعله .
قاله^(٤) الثّعلبي .

سبع على قوله تعالى

﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾

يوم نذّل فيه الأعناق لهيبة الخلاق ، ويحسر^(٥) أهل الشقاق بالرياء والنفاق ،
وتشهد الصحف والأوراق بالأعمال والأخلاق ، وتسيل دموع الآماق من الأحداق على
تفريط الأتاق^(٦) ، ويضيّق على العصاة للنفاق إذا عزّ الإعتاق ، وتبرز الجحيم فيها
الجحيم والفساق ممّداً للفجار والفساق ، لتفتتهم فأحالت جلالهم وما لهم من الله من واق ،
(١) الويل : للمطر الشديد . والعاش : للمطر الضعيف . (٢) ت : زاد . (٣) زاد على
الحرص : أصله التل : هذا أجل من الحرش . والحرص : سيد الضرب . ومن أساطير العرب : أن الضرب
إذا ولد حفره الحرش ، فبيّنا هو وولده في تلة سم وقع غفار على دم الجحر فقال : يا أبت الحرش
هذا ؟ فقال : يا بني هذا أجل . (٤) ت : حكاه الثّعلبي . (٥) ت : ويحسر .
(٦) الأتاق : جمع آبق . وهو المد الحارِب .

واطلعت على الأفقدة وبواطن الأعماق يحلون^(١) بها ولا يحل لهم وناق ، حرها شديد
 ويزيد بإطباق الأطباق ، وأسفاكم يهددون^(٢) وكم كم إخداف ، هذا وأهل الجنة قد نالوا
 الرضا بالوفاق ، فازوا وحازوا^(٣) مراتب السباق ، فهم في ضياء نور كامل وإشراق ،
 ونعيم لا يحاط بوصفه مدبر الرواق ، وكؤوس مملوءة فيأحسن الذهاق ، كانوا يشتاقون إلى
 الحبيب وهو إليهم بالأشواق ، حدا لم حادى المزم لجذت النياق ، وقد أعلمنا بما
 يجرى على الفريقين يوم الافتراق « على من يشاء من عياده لينذر يوم التلاق » .



« يومٌ لم يبرزون » أى ظاهرون من قبورهم « لا ينفق على الله منهم شئ » فيه
 ثلاثة أقوال : أحدها : لا ينفق عليه من أعمالم شئ . قاله ابن عباس . والمراد التهديد بالجزاء
 ولأن كان لا ينفق عليه اليوم شئ . والثاني : لا يستترون منه مجبل ولا مدر . قاله قتادة .
 والثالث : أن الملقى : أبرزهم جميعا . حكاه الماوردى .



قوله تعالى : « لئن أُلِّكُ اليوم » اتفقوا على أن هذا الكلام يقوله الله تعالى بعد
 فناء الخلق ، واختلفوا في وقت قوله على قولين : أحدهما : أنه يقوله عند فناء الخلائق إذا
 لم يبق مجيب ، فيرد هو على نفسه فيقول : لله الواحد القهار . قاله الأكثرون .
 والثاني : أنه يقوله في القيامة . وفيمن يجيبه قولان : أحدهما أنه يجيب نفسه ، وقد
 سكنت^(٤) الخلائق لقوله . قاله عطاء . والثاني : أن الخلائق يجيبونه فيقولون : لله الواحد
 القهار . قاله ابن جريج

سمع

إذا خلت الدُّيَّار ولم يبق دَبَّار وذهب الليل والنهار ، والإنس والجن والأطيار ،
 ونصبت البحار والأنهار ، وبُست الجبال فصارت كالغبار ، قال الملك العظيم الجبار
 (١) الأصل : يحملوا (٢) الأصل : كم يمدفون . (٣) ت : فازوا فجازوا فجازوا .
 (٤) ت : سكنت .

« لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ».

[قوله تعالى ^(١) : « الْيَوْمَ نُبْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »]

سجع

قامت الأقدام حتى نمت ونصبت ، وكلما سمّت تهاوت في العاري وكبت ،
وسقطت الجبال ولطالما انتصبت ، وظهرت الحجابات التي كانت قد احتجبت ، والحوض
غزير الماء وكمن نفس ماثرت ، فخي بالنيوان ^(٢) فزفرت ^(٣) وغضبت ، ونهضت
مسرعة إلى أربابها ووثبت ، فانزعجت ^(٤) القلوب ورهبت وهربت ، وكيف لا تنزعج
وهي تدرى أنها قد طليت ، وموازين الأعمال على المدل قد نصبت ، ونادى للنادى
فبكت العيون وانتصبت : « الْيَوْمَ نُبْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » .

قوله تعالى : « لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ » .

ميزان العدل تبين فيه الذرة فاحذروا ، الظلم ظلمات يوم القيامة فاذكروا ، إن الله
سريع الحساب قد بقي القليل لإتيانه .
« وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ » يعنى يوم القيامة . وميت آزفة لقربها ، يقال أذِفَ شُخْصُ
فلان أى قرب .

« إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ » وذلك أنها ترتقى إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود
« كَاغْلِبِينَ » أى مغومين بمتلئين خوفاً وحزناً « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَیْمٍ » أى قريب ينفعهم
« وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ » فيهم فتقبل شفاعته .

سجع

لو رأيت الظلمة قد ذلوا بعد الارتفاع ، وصاروا تحت الأقدام وكانوا على يَنَافِعَ ،

(١) من ت . (٢) ت : وجىء بهم . (٣) ب : غرت . (٤) فأنجبت .

ويكوا ولا ينفعهم على وفاق الطباع ، وكيل لم الجزاء عدلاً بأوفر صاع ، وعلواً أن
الأعمار سرّت بالغرور واغتداع ، وأن مُلكاً كانوا فيه بنس المتاع ، ودّوا لو أن لقاء
الدنيا كان لم الوداع ، مرضوا بالحسرات والحسرات أشدّ الأوجاع ، وندم من مدّ الباع
فاشترى ما يفتى وباع ، لا يُنظر إليهم يوم القيامة كأنهم ردّى المتاع ، ظهر ذلهم بين
الخلائق كلهم وشاع ، ورأوا من الأحوال ما أزعجهم وراع ، حشر الخلائق كلهم
يومئذ في قاع ، وطارت الصحف والرفاع في تلك البقاع ، وقرّبت الأعمال ونودى :
سماع سماع ، ونفعت الشفاعة للمؤمنين^(١) وما للفقار انتفاع « ما للظالمين من حيم
ولا شفيح يطاع » .

قوله تعالى : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ » قال ابن قتيبة : الخائنة والخيانة واحد .
وللفسرين فيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الرجل يكون في القوم فتمرّ به المرأة فيريهم
أنه يفضّ بصره فإذا رأى منهم غفلةً لحظ إليها ، فإن خاف أن يقطعوا له غضّ بصره .
قاله ابن عباس . والثاني : أنه نظر العين إلى ما نهى عن . قاله مجاهد . والثالث : الغمز
بالعين . قاله الضحاك . وقال قتادة : هو الغمز بالعين فيما لا يحبه الله تعالى ولا يرضاه .
قوله تعالى : « وما نخفي الصدور » فيه ثلاثة أقوال : أحدها : ما تضرّعه من الفعل أن
لو قدرت على ما نظرت إليه . قاله ابن عباس . والثاني : الوسوسة . قاله الشّدي . والثالث :
ما تأسره القلوب من أمانة أو خيانة . حكاه للاوردي .

سمع

ذنوبك ظاهرة لا تحتاج إلى تفتيش ، حية لسانك في اللاهي من الحيات المناهش ،
كيف تلحق الصالحين وهل يطير طائر بلا ريش ، تغتاب الرققاء وتعيب الأصدقاء مع من
تميش ، لا حملك لنا خالص ولا تُفكّ لهواك قانس ، لقد رضيت المعاييب والنقائص أما
ظلّ الحياة ظلّ قانس ، كم قبض الموت كفّ قانس . كم أشخص الردى من طرف

(١) الأصل : للمؤمن .

شاخص ، كأنك بك وقد جاءك المأفص^(١) ولقيت كل الأذى من أدنى القوارص ،
ورأيت هو لا ترُعد منه القرائص^(٢) ، وصاحوا ثم قالوا خلّوه فهو عائص^(٣) ، وبكى
لمصرعك المدو والولى الخالص .

سألتُ بنى الأيام عن ذاهل الصبا كأنك قلت الآن ما فعل الطسم^(٤)
مضى الشخص ثم الذّكر فانقرضاً ممّا ومامت كلّ الموت من عاش منه اسم
ألا ذلّوا هذى النفوس فإنها ركائب شرّ ليس يضبطها الحزم



يامن عليه منازل اللوت تدور ، وهو مستأنس بالمنازل والدور ، لا بد أن يخرج من
القصور على التوائى والقصور ، لا بد من الرحيل إلى بلاد القبور على القفلات وعلى
القنور ، أهلكك والله القنور بفنون الخلداع^(٥) والقنور ، يامظلم القلب وما للقلب نور ،
الباملن خراب والظاهر معمر ، لو ذكرت القبر الحفور كانت عين العين تنور ، ولو
تفكرت فى الكتاب المسطور دفنت الاستغفار بين السطور ، ولو تصورت النفع فى
الصور والسماء تغير وتمور ، والنجوم تنكدر وتنور ، والصرط محدود ولا بد من عبور ،
وأنت متحير فى الأمور تبكى على خلاف المأمور ، ستحاسب على الأيام والشهور ،
وترى ما فعلته من فجور فى النهار والديجور ، ستعزن بمد السرور على تلك الشرور
إذا وقّيت الأجور ، وبان الموايل من للهجور ، ونجا الخلصون دون أهل الزور ، تصلى
ولكن بلا حضور ، وتصوم والصوم بالقبية مغمور ، لو أردت الولدان والخور لسانهم
وقت السحور ، كم تطلب بك يافقور ، كم نتم عليك يا كفور ، كم بارزت بالقبيح
والكريم غفور « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

(١) المافص : المتاجىء الذى يأخذ على غرة . (٢) القرائص : القوارص . (٣) عائص : متعجب .
(٤) الطسم : قبيلة من عاد اقترضوا . (٥) ت : المنع .

الجلس الثالث والعشرون

في قصة يونس عليه السلام

الحمد لله الواحد الماجد العظيم ، الدائم العالم القائم القديم ، القدير البصير النصير الحليم ، القوي الملى الفنى الحكيم ، قضى فأسلم الصحيح وعاقى السقيم ، وقدر فأعان الضعيف وأوحى القويم ، وقسم عباده قسمين طائع وأثم ، وجعل مآلهم إلى دارين دار النعم ودار الجحيم ، فمنهم من عصمه من الخطايا كأنه ^(١) في حریم ، ومنهم من قضى له أن يبق على الذنوب ويقيم ، ومنهم من يتردد ^(٢) بين الأمرين والعمل بالخواتم ^(٣) ، خرج موسى راعياً وهو الكليم ، وذهب ذو النون مغاضباً فالتقه الحوت وهو مليم ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم يتقياً فكان الكونُ لذلك اليتيم ، وعصى آدم وإبليس فهذا مَرعوم وهذا رَجيم ، فإذا سمعت بنيل المالك أو رأيت وقوع المهلك قتل : « ذلك تقديرُ العزيز العظيم » أنعم علينا بالفضل الوافر العميم ، وهدانا بمنه إلى الصراط المستقيم ، وحدّثنا بطلقه من المذاب الأليم ، ومنّ علينا بالكتاب العزيز القديم ، فهو مستحق الحمد ومستوجب التعظيم ، أحمده وكيف لا يُحمد ، وأشهد أنه لم يلد ولم يولد ، وأن محمداً عبده الانجد ورسوله الأُوحد ، أخذ له الميثاق على أقرب الأنبياء والأبمَد ، وأقام عيسى يقول : « ومُبَشَّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد » وتوسل به آدم وقد أسجد له من أسجد من ملك كريم ، صلى الله عليه وسلم ما سلك الطريق القويم ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان والتصديق ، الحبّ الشفيق والرفيق الرقيق حين يسافر وحين يقيم ، وعلى عمر الذي عمر من الدين ما عمر ودفع الكُفر فذبر بأحسن تدبير وأكمل تقويم ، وعلى عثمان الشريف قدّره الكثيف ستره الذي احتسب عند الله صبره على ما ضيم ، وعلى عليّ مدار العلماء وقُطبهم ، ومقدّم الشجعان في حربهم والمؤمنون

(١) ت : فكانه . (٢) ت : تردد . (٣) به : الخواتم .

من كربهم في مُقْعَد مُقِيم ، وعلى العباس عه وصنو أبيه ، أقرب الخلق إليه نسباً يليه .

قال الله تعالى : « وَإِنْ يُونُسَ لِنَ الْمُرْسَلِينَ »^(١) يونس اسم أجنبي . وفيه ست لغات : ضم النون وفتحها وكسرها والتمز مع اللغات الثلاث .

وكان يونس من ولد يعقوب ، وكان عبداً من عبّاد بني إسرائيل فرأى ما هم فيه من الكفر ، تخاف أن تنزل بهم عقوبة ، فخرج هارباً بنفسه وذريته وكانوا يَبْنِيُونِي قرية من أرض الموصل ، فبعثه الله رسولا إليهم فدعاهم إلى الله تعالى وأمرهم بترك عبادة الأوثان^(٢) ، وكان رجلا فيه حدة ، فلما لم يقبلوا أخبرهم أن العذاب مُصَبِّحهم بعد ثلاث . فأقبل العذاب . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يبق بين العذاب وبينهم إلا قدر ثلثي ميل ووجدوا حرّه على أكتافهم . وقال سعيد بن جبير : غشيهم العذاب كما يغشى الثوبُ الصُّفْرَ^(٣) . وقال غيره : غامت السماء غيماً أسود يُظْهِرُ دُخَاناً شديداً فغشى مدينتهم فاستودت أسطحهم ، فلما أبغثوا بالهلاك لبسوا المسوح وحنّوا على رؤسهم الرماد ، وفرقوا بين كل ولدة ولدها من الناس والأنعام وتجهّوا إلى الله تعالى بالتوبة الصادقة وقالوا : آمنا بما جاء به يونس . فكشف عنهم العذاب فقبل ليونس : ارجع إليهم فقال : كيف أرجع إليهم فيجدون كاذبا ، وكان من يكذب فيهم يُقتل .

فركب السفينة مفاضبا .

فإن قيل : فلن غاصب ؟ فالجواب : أنه غاصب قومه قبل التوبة واشتهى أن ينزل بهم العذاب لِمَا عانى من تكذيبهم ، فموتب على كراهية العفو عنهم ، فلما ركب السفينة وقفت فقال : ما لسفينتكم ؟ قالوا : لا ندري . قال : اسكني أدرى ، فيها عبدٌ أتى من ربه وإنها والله لا تسير حتى تُلقوه . قالوا : أما أنت والله يا نبي الله لا نُلقيك . قال : فاقترعوا ففَرَعَ يونس . وهو معنى قوله تعالى : « فسأهم » فألقى نفسه في الماء « فالتقمه الحوتُ »

(١) سورة الصافات ١٣٩ . (٢) ت : عبادة الأصنام . (٣) ت : الصفر . وفي ب : الصفر .
والصفر : الشعر المجتمِع .

وهو سليم « أى مُذنب » فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ « أى من المصلّين قبل النقام الحوت . وقيل : بل فى بطن الحوت .

وفى قدر مكته فى بطن الحوت خمسة أقوال : أحدها : أربعون يوماً . قاله أنس وكعب وابن جُرَيْج . والثانى : سبعة أيام . قاله سعيد بن جُبَيْر . والثالث : ثلاثة أيام . قاله مجاهد وقتادة . والرابع : عشرون يوماً . قاله الضحاك . والخامس : بمض يوم . قال ^(١) الشَّعْبِيّ : ما مكث إلا أقلّ من يوم ، التقمه الحوت ضَغَى فلما كان بصدّ العصر وقاربت الشمسُ الغروب تناهب الحوتُ فرأى يونسُ ضوءَ الشمس فقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » .

« فنبذناه بالمرء » ^(٢) « وهى الأرض التى لا يتوارى فيها بشجر ولا غُبرة » وهو سقيم « أى سريص . قال ابن مسعود : كهيئة الفرخ المموط ^(٣) الذى ليس له ريش » وأنبثنا عليه شجرةً من يَقْطِين « وهى الدُّبَّاء ^(٤) وإنما أنبتت عليه دون غيرها لينعطيه ورقها ويمنع الذباب عنه فإنه لا يسقط على ورقه ذبابة . وقبضَ الله تعالى أُرْوِيَّةَ ^(٥) من الوحش تروح عليه بكرةً وعشية فيشرب من لبنها . وقال وهب بن منبه : أنبت الله عليه الدُّبَّاء فأظلمت ، ورأى خضرتها فأعجبته ، ثم نام فاستيقظ وقد يبست لحزن عليها فقبل له : أنت لم تخلق ولم تسق ولم تُنبت تحزن عليها ، وأنا الذى خلقت مائة ألفٍ من الناس أوزيرون ثم رحمتهم فسق عليك ^(٦) !

قوله تعالى : « وأرسلناه إلى مائة ألفٍ » المعنى : « وكنا أرسلناه إلى مائة ألف أوزيرون » المعنى : بل يزيرون . قاله ابن عباس . والثانى : أنها بمعنى الواو تقديره : ويزيدون قاله ابن قتيبة . وفى زيادتهم أربعة أقوال : أحدها : عشرون ألفاً . رواه ابنُ كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى : ثلاثون ألفاً . والثالث : بضمة

(١) الأمل : قاله . (٢) ب : فنبذه . وقوله بالمرء . (٣) المموط : الذى لا ريش له . (٤) الدُّبَّاء : الفرع . (٥) الأروية : أتى الوعل . (٦) ب : فسق عليه . وما أنبته من ت .

وثلاثون ألفا . والقولان عن ابن عباس . والرابع : سبعون ألفا . قاله سعيد بن جبيرة .
فإن قيل : كيف قبلت توبتهم ولم يقبل إيمان فرعون .

فالجواب من ثلاثة أوجه : أحدها : أن ذلك كان خاصا^(١) لهم . كافي الآية . والثاني :
أن فرعون باشره العذاب ، وهؤلاء لم يباشرهم . ذكره الزجاج . والثالث : أن الله تعالى
علم منهم صدق النيات بخلاف غيرهم . ذكره ابن الأنباري .



فانظروا [إخواني] ^(٢) إلى التوبة [التصوح] ^(٣) الصادقة كيف أثرت ، وقامت
العذاب فدفعت ونفعت ، فليجأ العاصي إلى حرم الإنابة ، وليطرق الأسرار باب
الإجابة ^(٤) ، فما صدق صادق فرد ، ولا أتى الباب تخلص فعصد ، وكيف يرد من قد
استدعى فليلهم « توبوا » إنما الشأن في صدق التوبة .

وليست التوبة تطلق اللسان إنما هي ندم القلب وعزمه أن لا يعود ، ومن شرط
صحتها : أن تكون قبل معاينة أمور الآخرة ، فمن باشره العذاب أو عاينه فقد فات موسم
القبول ، فاستدركوا قبل المفاجأة بالقوات الذي لا يؤمن نسال الله بقطعة نحر كنا إلى البدار
قبل أن يقع القوت وانفسار .

السلام على البسمة

يأتي على الناس إصباح وإمساء وكلنا لصُروف الدهر نساء
يشوى الملوك ويمصر في تغريم مصر على العهد والأخساء أحساء
خسيت يا دار دنيا فأف لمن يرزى الخسيسة أو ناس أخسائه
لقد نطقت بأصناف المعطات لنا وأنت فيما يظن الناس خرصاء
إذا تعظفت يوما كفت قاسية وإن نظرت بين فهي شؤساء^(١)

(١) ت : خالصا . (٢) من ت . (٣) ت : وليطرق بالاستجابة باب الإجابة .

(٤) الموساء : التي تنظر بمؤخر العين تكبرا وغيفا .

أين للوك وأبناء الملوك ومن كانت لهم عزة في الملك فقهاء^(١)
نالوا يسيراً من اللذات وارتحلوا برغمهم فإذا النعماء بأساء
الدنيا دار كدر ، بذلك جرى القدر ، فإن صفا عيش لحظة ندر ، ثم عاد التخليط
فبدر ، الورود فيها كالصدّر ، ودم قتيها هدر ، بلاؤها متابع متواصل وسيفها إذا
ضربت سيف فاصل ، وجرّصها على الحقيقة مُفَاصِل^(٢) ، وخيرها مظلون وشرها حاصل .

نواب إنا حلت تملت سريعة وإنا تولت في الزمان تواليت
ودنياك إن قلت أقلت وإن قلت فقل في الدين تجت وعلت^(٣)
غلت وأغلت ثم غالت وأوحشت وحشت وحاشت واستالت وتلت^(٤)
وصلت بنيران وصلت سيوفها وصلت حُساماً من أذاة وتلت^(٥)
أزالت وزلت بالقسي عن مقامه وحلت فلما أحكم المقد حلت

أين أرباب البيض والسم ، والمرائب الصفر والحر ، والقباب والقُب الضمر ،
مازالوا يفعلون أفعال العُمر^(٦) إلى أن تنقضي جميع العمر ، لو رأيت مرتفعهم بعد النصب
قد جبر إلى بيت لا يدرى فيه الحر والقر ، وعليه ثوب لا خيط ولا زر ، الخفة أنه
أنه ما انتقل بما يسر ، تالله لقد حال حُلوم إلى المر وصار ما كان ينفع يضر ، باعوا
بمخشاب^(٧) المسوى ثمين الدر ، ولا يمكن أن يقال البائع غير لأنه باع وهو يدرى
أنه حر^(٨) .

الشديدات التي رُففت أُرْبِعَ من أهلها دُرُسُ
أقام لسلام في أذني واعظ من شأنه الخرسُ

(١) التمساء : : تأنيث الأنثى ، وهو المرتفع . (٢) المفاصل : الفارق . (٣) قلت : أبغضت .
(٤) غلت : جاوزت الحد . وأغالت : أهلكته وغالت : اغتال . وحشت : أصلحت وأعطت . وحاش
الصيد : حاش من حواله ليصرفه إلى الجبالة . والمشي : أهلكته . (٥) صلت : أدفأت . وصلت السيوف :
سمع لها صوت هند الضراب . (٦) العُمر : من لم يجرب الأمور . (٧) المخشاب : الرديء .
(٨) الأصل : وهو يدرى من يدرى أنه حر .

مُهَجِّقِي صِدِّ تَحَارِبِي أَنَا مَتَى كَيْفَ أَحْتَرِسُ
إِنَّمَا دُنْيَاكَ غَانِيَةٌ لَمْ يُهَيِّئْ زَوْجُهَا الْعُرْسُ
فَالْقَهْلَاءُ بِالزَّهْدِ مُسْدَرَعَا فِي يَدَيْكَ السِّيفُ وَالْقُرْسُ
لَيْسَ يَبْقَى فَرْعٌ لَنَائِبَةٍ أَصْلُهَا فِي الْمَوْتِ مُفْتَرَسُ

إِخْوَانِي : حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ الْحِسَادِ وَأَعِدُّوا لِلسُّؤَالِ صَحِيحَ الْجَوَابِ ، وَاحْفَظُوا
بِالتَّقْوَى هَذِهِ الْأَيَّامَ ، وَاغْسَلُوا عَنْ الْأَجْرَامِ هَذِهِ الْأَجْرَامَ ، قَبْلَ نَدَمِ النُّفُوسِ فِي حِينِ
سِيَاقِهَا ، قَبْلَ طَمَسِ شَمْسِ الْحَيَاةِ بَعْدَ إِشْرَاقِهَا ^(١) قَبْلَ ذَرَقِ كَأْسِ مُرَّةٍ فِي مَذَاقِهَا ،
قَبْلَ أَنْ تَدُورَ السَّلَامَةُ فِي أَفْلَاكِ مَحَاقِهَا ، قَبْلَ أَنْ تُجْذِبَ النُّفُوسَ إِلَى الْقُبُورِ بِأَطْوَاقِهَا ،
وَتَفْتَرِشَ فِي الْاَعْوَادِ أَخْلَاقَ أَخْلَاقِهَا ، وَتَنْفَصِلَ الْمَفَاصِلُ بَعْدَ حَسَنِ اتِّسَاقِهَا ، وَتَشْتَدَّ
شِدَائِدُ الْحَسْرَةِ حَاسِرَةً عَنْ سَاقِهَا ، وَتُظْهِرَ غَبَاتُ الدَّمُوعِ بِسُرْعَةِ انْدِفَاقِهَا ، وَتَتَقَلَّبَ
الْقُلُوبُ فِي صَنْكِ ضَيْقِ خَنَاقِهَا ، وَيَطُولُ جُوعٌ مِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا فَاقَهَا ^(٢) ، وَتَبْكِي
النُّفُوسُ فِي أَمْرِهَا عَلَى زَمَانِ إِطْلَاقِهَا .

إِخْوَانِي : الْأَيَّامُ مَطَالِيَا بِيَدِهَا أَرْزَمَةُ رِكَابِهَا ، تَنْزِلُ بِهِمْ حَيْثُ شَاءَتْ ، فَيُفِينَا بِهَا عَلَى
غَوَارِبِهَا أَلْقَتَهُمْ فَوْطَنَهُمْ بِمَنَاسِمِهَا

قَالَ الْحَسَنُ : يُرْمَضُ عَلَى الْعِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَتُ حَرَمِهِ ، فَكُلُّ سَاعَةٍ لَمْ يُحْدِثْ فِيهَا
خَيْرًا تَنْقُطُ عَنْهُ عَلَيْهَا حَسَرَاتُ .

وَكَانَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ يَحْدِثُهُمْ فَفَظَرُ فِي وَجْهِهِمْ وَقَالَ : لَقَدْ ذَهَبَ
مِنْ أَجَلِي وَأَجَلُكُمْ سَاعَةٌ .

وَكُتِبَ الْأَوْزَاعِيُّ إِلَى أَخِي لَهُ : أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَحْبَبْتُ بِكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَعْلَمْتُ أَنَّهُ يَسَارُ
بِكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ^(٣) مَرَحَلَةً ، فَاحْذَرِ اللَّهَ تَعَالَى وَالْقَامَ ^(٤) بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ آخِرَ
عَهْدِكَ بِهِ وَالسَّلَامُ .

(١) ت : قَبْلَ طَمَسِ شَمْسِ الْإِشْرَاقِ بَعْدَ إِشْرَاقِهَا (٢) الْأَصْلُ : شَاقِهَا ، مَحَرَفَةٌ . وَلَهَا :
شَاقِهَا وَهُوَ يَكْثُرُ النَّاسُ سَوْأَالَهُ . (٣) ب : فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ . (٤) ب : وَالْوَقُوفُ وَالْقَامُ .

خِزْلُ الذُّنُوبِ صَغِيرٌ هَا وَكَبِيرٌ هَا فَهِيَ التَّقَى
 كَنْ مِثْلَ مَا شِ فَوْقَ أَرْضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
 لَا تَحْقُرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

قال أعرابي : لا تأمن من جعل في ثلاثة دراهم قطع خير عضو منك أن يكون عقابه
 غداً هكذا .

قال رجل لبعض الحكماء : أوصني . فقال : إياك أن تسيء إلى من تحب . قال :
 وهل يسيء أحد من يحب ؟ قال : نعم تعصى فتعذب فتكون مسيئاً إلى نفسك .
 أعطيت سيفاً لك بعض اليدا وليس في كفك غير القرباب
 فاهرب من النقي وأشياءه وحين للناسك حين الفراب
 تزجر^(١) هذي النفس عن طبعها والأشد لا تترك قصد الرواب

الكلام على قوله تعالى

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾

اعلم أن الآدمي ابن وقته ، لأن ما مضى لا لذة له ، لا تغتر بعد الملل ولا تنس قرب
 الأجل ، فالأيام مراحل وستصل الرّواحل ، تأهب لحوض سترده ، يا خاسراً رأس المال
 وما يفتقده ، يا طالبا طول البقاء وما يحده .

دهرٌ بِشَيْعٍ سَبَّهَتْ أَحَدُهُ مُتَتَابِعٌ مَا يَنْقُضِي أَمَدُهُ^(٢)
 يَوْمٌ يَبْكِينَا وَآوَنَةٌ يَوْمٌ يَبْكِينَا عَلَيْهِ غَدُهُ
 نَبْكِي عَلَى زَمَنِ وَمِنْ زَمَنِ فَبِكَوْنَا مَوْصُولَةٌ مُدَدُهُ
 وَتَرَى مَكَارِهَنَا غُلَّةً وَالْمُرَّ يَذْهَبُ فَاثْمًا عَدَدُهُ
 لَا خَيْرَ فِي عَيْشٍ نَحْنُ نُنَا أَوْقَاتُهُ وَتَقُولُنَا مُدَدُهُ^(٣)

(١) الأصل : تذكر . (٢) ب : أجهه . (٣) تقولنا : اتفاننا .

من أقرض الأيام أنلها
وفى جميع قروضها جده
حتى يُنِيب في مَطْمَطة^(١) لا أهل فيها ولا ولد

تدبروا أموكم تدبر ناظر ، أين السلطان الكبير القاهر ، كم جمع في مملكته من
عساكر ، وكم بنى من حصون ودساكر ، وكم تمتع بمجمل وأساور ، وكم علا على المنابر
ثم آخر الأمر إلى المقابر ، العاقل من ينظر فيما سياتى ، ويقهر بزمنه شر الهوى العاتى ،
وإذا قالت النفس حظى قال حظى بنجأتى .

عجبت لما تتوق النفس جهلاً
وعصيانى المذول وقد دعانى
أؤمل أن أعيش وكل يوم
وأبدي الحافرين تكلم مما
نزع إذا الجنائز قابلتنا
كروحة قلة^(٢) لظهور ذيب
فإن أملت أن تبقى فاسئل
فكم من ذى تصانع قد بناها
قليل الم ذوبال رنح
فبات وما ترزع من زوال
فباكره الطيب فريح لما
فلو أن الفرط وهو حى
لغاز ينبطة وأصاب حظاً
فيالك عندها عظة لحي
وبالك من قلوب قاسيات

(١) المطمطة : الحفرة . (٢) القلة : الجماعة من الناس .

وكل أخى ثراء سوف يُبْسِي عديماً والجِيعُ إلى شَتَاتِ
كَأَن لَمْ يَلَفْ شَيْئاً مَا تَقْضَى وليس بغائِبٍ ما سوف يَأْتِي

كَأَنَّكَ بَكَ وَقَدْ مَلَ النَّاعَتُ^(١) ، وَحَلَّ بِمَحَلِّكَ الْمُسْتَلَبِ الْبَاغِتْ ، وَرَدَّكَ مِنْ مَقَامِ
نَاطِقٍ إِلَى حَالٍ صَامِتٍ ، وَبَقِيَتْ مَتَحَيِّراً كَالْأَسِيرِ الْبَاهِتِ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسٌ تَخْرُجُ وَنَفْسٌ
هَافَةٌ^(٢) ، وَقَدْ مَضَى فَنَ يَرِدُ الْفَائِتِ ، وَصَرَتْ فِي حَالَةٍ يَرْتَضِي لَهَا الشَّامِتِ ، يَا عَجَباً
كَيْفَ يَفْرَحُ هَالِكٌ فَائِتٌ .

عباد الله : انظروا النظر إلى العواقب ، فإن الالبيب لها براقب ، أين تعب من صام
الهواجر ، وأين لذة العاصي الفاجر ، رحلت اللذة من الأنفواء إلى الصحائف ، وذهب
نصيب الصالحين يجرع الخائف ، فكأن لم يتعب من صابر اللذات وكان لم يلتذ من
نال الشهوات .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا أبو الحسين بن علي ، أنبأنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا
عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا يزيد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن
أنس قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : « يُؤْتَى بِأَنْفِمْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ
فِيصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : يَا بَنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّبَكَ نَسِيمٌ قَطُّ ؟
فِيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَارَبِّ . وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ
صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : يَا بَنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّبَكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ
يَارَبِّ مَا مَرَّبِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتَ شِدَّةً قَطُّ .
انفرد بإخراجه مسلم^(٣) .

وقيل : حبس بعض السلاطين رجلاً زماناً طويلاً ثم أخرجه فقال له : كيف وجدت

(١) كذا بالأصل . (٢) كذا بالأصل . وهفت الشيء : انخنس واتضم ودق .

(٣) صحيح مسلم ٢١٦٤ ط عبد الباقي .

تَحْبُك؟ قال: ما مَضَى من نعيمك يومٌ إلا مَضَى من بُؤْسِ يومٍ، حتى يَمُتْنا يومٍ .
ورويْنَا أن داود عليه السلام رأى رَاهِبًا في قَلْعِ جَبَلِ فِصَاحَ به : يَراهِبُ مَنْ أَنِيسُكَ .
فقال : اصعد تره . فصعد داود فإذا مَيِّتٌ مُسَجًى قال : من هذا ؟ قال : قصته مَكْتُوبَةٌ عند
رأسه . فدنا داود عليه السلام فإذا عند رأسه لوح عليه مَكْتُوبٌ فقرأه فإذا فيه : أنا فلان
ابن فلان مَلِكُ الْأُمَلَاكِ ، عَشْتُ أَلْفَ عَامٍ ، وَبَنَيْتُ أَلْفَ مَدِينَةٍ ، وَهَزَمْتُ أَلْفَ عَسْكَرٍ ،
وَأَحْصَيْتُ أَلْفَ امْرَأَةٍ ، وَانْقَضَتْ أَلْفَ عَذْرَاءٍ ، فَيَبِئْنَا أَنَا فِي مُلْكِي أَنَا فِي مَلِكِ اللُّوتِ
فَأَخْرَجَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ فَمَا أَتَذَا : التراب فراثي والدود جيرانِي . قال : غَرَّ داود مَفْشِيًّا عليه .

حَصَلُوا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ مِنْ كُلِّ مَا عَمَرُوا عَلَى الْأَجْدَاثِ
فَإِذَا الَّذِي جَمَعُوهُ طَوَلَ حَيَاتُهُمْ نَهَبُ الْمَدَى وَفَيْصَةُ الْوَرَاثِ
حَالَتْ مَنَازِلُهُمْ عَلَى طَوْلِ الْمَدَى وَوُجُوهُهُمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ ثَلَاثِ
يَا مَنْ بُسْرَ بَيْتِهِ وَأَنَا فِيهِ لَكَ فِي الثَّرَى بَيْتٌ بِغَيْرِ أَنَاثِ

أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ الْحَزْرِيُّ ، أَنبَأَنَا أَبُو بَكْرِ الْخَطَّاطُ ، حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ
رَوْسَبٍ ، حَدَّثَنَا ابْنُ صَفْوَانَ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ جَهْمٍ ، حَدَّثَنَا
الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ حَصِينٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَغَيْرِهِ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ
مَيْمُونٍ ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : افْتَتَحْنَا بِفَارِسَ مَدِينَةَ فَدَلَّيْنَا عَلَى مَغَارَةٍ ذُكِرَ لَنَا
أَنَّ فِيهَا أَمْوَالًا ، فَدَخَلْنَاهَا وَمَعَنَا مِنْ يَتْرَأُ بِالْفَارِسِيَّةِ فَأَصْبَحْنَا فِي تِلْكَ الْمَغَارَةِ مِنَ السِّلَاحِ
وَالْأَمْوَالِ شَيْئًا كَثِيرًا ، ثُمَّ صَرْنَا إِلَى بَيْتٍ يَشْبُهُ الْأَزْجَ (١) عَلَيْهِ صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ فَقَلْبْنَاهَا ،
وَإِذَا فِي الْأَزْجِ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَعَلَيْهِ حُلٌّ قَدْ تَمَزَّقَتْ وَعِنْدَ رَأْسِهِ لَوْحٌ فِيهِ
مَكْتُوبٌ فَقَرَأْنَا فَإِذَا [فِيهِ] : أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ لَا تَتَجَبَّرَ عَلَى خَالِقِكَ ، وَلَا تَمْدُدْ قُدْرَكَ
الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللُّوتَ غَايَبَتْكَ وَإِنْ طَالَ عَمْرُكَ وَأَنْ الْحَسَابُ أَمَامُكَ ، وَأَنَّكَ

(٢) الْأَزْجُ : ضَرْبٌ مِنَ الْأَبْلِيَةِ .

إلى مُدة معلومة تُترك ثم تؤخذ بفتة أحب ما كانت الدنيا إليك ، فقدّم لنفسك خيراً تجده
مُحَضَّراً ، وتزوّد لنفسك من متاع الضرور ليوم فاقَتِكَ . أيها العبد الضعيف اعتبر بي فإن
فيّ معتبرا ، أنا بهرام بن بهرام ملك فارس ، كنتُ من أعلام بطشاً وأقسام قلباً وأطولم
أملاً ، وأزغبهم في اللذة ، وأحرصهم على جمع الدنيا ، قد جِيئْتُ^(١) البلاد النائية ،
وقتل الملوك الساطية ، وهزمت الجيوش العظام وعشت خمسمائة عام ، وجمعت من الدنيا
ما لم يحمله أحد قبلي ، فلم أستطع أن أفندى نفسي من الموت إذ نزل بي .

وقال محمد بن سيرين : أخذت معاوية قرّة [أي من البرد]^(٢) فأتخذ أغشية خفافا
فكانت تنلقى عليه فلا يلبث أن ينادى : ادفموها . فإذا أخذت عنه سأل أن تردّ عليه
فقال : فيحكّ الله من دار ! مكثتُ فيك عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ،
ثم صرتُ إلى ما أرى !

وكان عبد الملك بن مروان يقول عند موته : والله وددت أني عبدٌ لرجل من نهامة
أرعى غنيمات في جبالها ، ولم أكن إلي من هذا الأمر شيئا .



كلُّ حَيٍّ لَاقِيَ الحِمَامَ فمودى ما لحى مؤملي من خلود^(٣)
لا تنهاب اللنؤ شيئا ولا تُبستى^(٤) على والدٍ ولا مولودٍ
يَقْدَحُ الدهرُ في تَمَارِيخِ رَضْوَى ويحطّ الصخور من هَبْوَدٍ^(٥)
ولقد تترك الحوادث والأما م وَهِيَا في الصغرة الصيخود^(٦)
وأرانا كالزروع يحصد الدهرُ فمن بين قائم وحصيدٍ
وكانا للموت رَكْبٌ يُخَيِّوْنَ سِرَاعاً لَسَهْلٍ مورودٍ
أيها الجاهل الذي أرين الدهر وفي الدهر عاقرات الخلود

(١) جيئت : حصلت لي جبايتها ، أي خرجها . (٢) من ت .

(٣) هذه الأبيات من قصيدة لابن منذر في رثاء عبد المجيد الثقفي ، وقد أورد المبرد في الكامل
حاشية منها ، وعنده أنها من حلو الرائي وحسن التأين . الكامل ٧٣٨ ط أوريا .

(٤) رواية الكامل للمبرد : ولا ترعى . (٥) هبود : جبل .

(٦) الصيخود : الصماء الصلبة . ورواية البيت في ب : ولقد تنزل الحوادث والأيام . وهنا .

أَيْنَ عَادَ وَتَبَعَ وَأَبُو سَاسَا ن كَسَرَى وَأَيْنَ صَحْبَ نَعُودِ
 أَيْنَ رَبِّ الْحِصْنِ الْحَصِينِ بِسُورَا ۖ بَنَاهُ وَشَادَهُ بِالشَّيْدِ^(١)
 شَدَّ أَرْكَانَهُ وَصَاغَ لَهُ الْعَقِيَا ن بَابًا وَحَفَّهُ بِالْجَنُودِ^(٢)
 كَانَ يُجْبَى إِلَيْهِ مَا بَيْنَ صَنَمَا ۖ وَمَصَرَ إِلَى قَرَى بَيْرُودِ
 وَتَرَى حَوْلَهُ^(٣) زُرَافَاتٍ خِيَلٍ حَافِلَاتٍ تَقْدُو بِمِثْلِ الْأَسُودِ
 فَرَمَى شَخْصَهُ فَأَقْصَدَهُ اللَّهُ رُ بَسْتَهُمْ مِنَ الْمَفَايَا شَدِيدِ
 ثُمَّ لَمْ يُنْجِهِ مِنَ اللَّوْتِ حِصْنٌ دُونَهُ خَنْدَقٌ وَبَابٌ^(٤) حَدِيدِ
 وَمُلُوكٌ مِنْ قَبْلِهِ عَمَرُوا الدُّنْيَا أَعْيَنُوا بِالنَّصْرِ وَالتَّنَائِيدِ
 بَيْنَمَا ذَاكَ مَرَّتِ الطَّيْرُ تَجْرَى لَمْ بِالْفَحُوسِ لَا بِالسُّعُودِ
 وَصُرُوفُ الْأَيَّامِ أَسْهَلُنَ بِالْحَيَّةِ ن إِلَهِي مِنَ الْخَطِّ الْكُتُودِ^(٥)
 مَا وَقَّاهُمْ مَا حَاوَلُوا قُوَّةَ اللَّهِ رِي مَا أَكْدُوا مِنَ التَّنَاكُودِ
 وَكَذَلِكَ الْقَعْرَانِ لَا يُلْبِثَانِ السَّعْرَ أَنْ يَأْتِيَاهُ بِالْمُوعُودِ
 وَبَعِيدٌ مَا لَيْسَ بِأَقْبَى وَمَا يُدْنِي ۖ مِنْكَ الْقَعْرَانُ غَيْرُ بَعِيدِ

سَمِعَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى

﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَقِنُونَ ﴾

أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا فِي اللَّذَاتِ يَتَقَلَّبُونَ ، وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَى الْخَلْقِ وَلَا يُنْلَبُونَ ، مُزِجَتْ
 لَهُمْ كُؤُوسُ الْمَفَايِيقَاتِ لَا يَتَجَرَّعُونَ « مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَقِنُونَ » .
 مَدَا أَيْدِيهِمْ إِلَى الْحَرَامِ ، وَأَكْثَرُوا مِنَ الزَّلَلِ وَالْآثَامِ ، وَكَمْ عَظُّوا بِمَنْشُورٍ وَمَنْظُومٍ

(١) الشيد : ما طل به الماطس من جس ونحوه . ورواية البيت في الكامل :

أَيْنَ رَبِّ الْحِصْنِ الْحَصِينِ بِسُورَا ۖ وَبِالنَّصْرِ التَّيْفَ الشَّيْدَ

(٢) رواية الكامل :

شَدَّ أَرْكَانَهُ وَبَوَّيَهُ بِأَيْ حَدِيدٍ وَحَفَّهُ بِمِنْشُورٍ

(٣) الكامل : خلفه . (٤) الكامل : وباباً حديد .

(٥) أسهلن : أسرعن - والخط : للتحرر - والكثود : الشديد .

من الكلام ، لو أنهم يسمعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتقنون » .
سُحِّلَ كل منهم في كفن ، إلى بيت البَيْتِ والعَقَنِ ، وما صحبهم غيره من الوطن ، من كل
ما كانوا يَجْتَمِعُونَ « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتقنون » .
ضَمُّهُمْ والله التراب ، وسُدَّ عليهم في تَراهم الباب ، وتقطعت بهم الأسباب ، والأحبابُ
يرجعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يمتقنون » .
أين أموالهم والذخائر ، أين أصحابهم والعشائر ، دارت على القوم الدوابر ، ففيم أنتم
تطمعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يمتقنون » .
شُفِّلُوا عن الأهل والأولاد ، وافترقوا إلى يسير من الزاد ، وباتوا من الندم على
أخس مهاد ، وإنما هذا من حصاد ما كانوا يزرعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتقنون » .
أين الجنود والخدم ، أين الحرم والحرم ، أين النعم والنعم ، بعد ما كانوا يربعون
فيما يرنمون « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتقنون » .
لو رأيتهم في حُلل الندامة ، إذا برزوا يوم القيامة ، وعليهم للعقاب علامة ، يساقون
بالذل لا بالكرامة ، إلى النار فهم يُوزَعُونَ « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتقنون » .
يا معشر العاصين قد بقي القليل ، والأيام تنادي : قد دنا الرحيل ، وقد صالح بكم
إلى الهدى الدليل إن كنتم تسمعون « ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتقنون » .

المجلس الرابع والعشرون في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

الحمد لله الذي لم يزل عطيًا عليًا ، يخذل عدوا وينصر وليًا ، أنشأ آدمي خلقًا سويًا ،
ثم قسمهم قسمين رشيدًا وغويًا ، رفع السماء سققًا مبنيًا ، وسطع للهاد بساطًا مدجيًا ،
ورزق الخلائق بحريًا وبريًا ، كم أجرى^(١) لعباده سرًّا^(٢) أخرج منه لما طريًا ، كم أعطى
ضعيفًا ما لم يعط قويا ، قبلنه على الضعف ضعف للراد ووهب له على الكبر الأولاد
« كهيمص ذكر رحمة ربك عبده زكريا » .

أحمده إذ فضل وأعطي شيئا ورِيًا ، وأصلى على رسوله محمد أفضل من امتعى
تَبْرِيًا^(٣) ، وعلى أبي بكر الذي أنفق وما قلل حتى تَحَلَّل^(٤) ويكنى زِيًا ، وعلى عمر
الذي كان مقدما في الجِدَّة جَرِيًا ، وعلى عثمان الذي لم يزل عفيفا حَيِيًا ، وعلى علي
أشجع من حمل خطيًّا^(٥) ، وعلى عه العباس المستنق بشيئته ، فانتفعت الأرض رِيًا .

قال الله تعالى : « كهيمص » للعلماء في تفسيرها قولان : أحدهما : أنه من التشابه
الذي انفرد الله تعالى بعله .

والثاني : أنها حروف من أسماء الله عز وجل ، فالكاف من الكافي ، والماء من
المادي والياء من حكيم والعين من عليم والصاد من صادق .

قوله تعالى : « ذكر رحمة ربك » اللفي : هذا الذي تتلو عليك ذكر رحمة ربك
« عبده زكريا » وفيه ثلاثة لغات^(٦) : أهل الحجاز يقولون : هذا زكريا قد جاء مقصورا .
وزكرياء ممدودا . وأهل نجد يقولون زكريى فيجرونه ويلقون الألف .

قوله تعالى « إذ نادى ربه نداء خفيا » والراد بالنداء النداء ، وإنما أخفاه لئلا يقول

(١) ب : كم أجد . (٢) السرى : التهر . (٣) كذا في ت . و في ب : سر يا . والتبرء :
الثقة الحسنه اللون . (٤) تحلل : جعل الخلا في ثوبه . (٥) الخطي : الرمح .
(٦) المذكور في التفسير في التراءات المص ٢/٤٣٩ : للذ والقصر . قط .

الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبر .

« قال رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي » أى ضَعُفَ ، وإنما خصَّ الْعَظْمَ لأنه الأصل في التركيب . وقال مجاهد وقتادة : شكا ذهابَ أضراره . « واشتعلُ الرأسُ شيبا » أى انتشر الشيبُ فيه كما ينتشر شُعاع النار في الخطب . والمراد « بدعائك » : أى بدعائى إليك « رَبِّ شَقِيًّا » أى لم أكن أنيب بالدعاء ثم أخيبُ ، لأنك قد عودتني الإجابة . « وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ » يعنى الذين يَكُونُ في النَّسَبِ ، وهم بنو العم والعصبة ، تخاف أن يتولوا ماله وإن لم يكن على جهة الميراث ، وأحب أن يتولاه ولده . وقرأ عُمَارُ وسعد بن أبى وقاص وابن جُبَيْر وابن أبى سُرَيْج ، عن الكسائى : « خَفْتُ لِلْمَوَالِي » بفتح الخاء وتشديد الفاء على معنى : قَلْتُ . فعلى هذا إنما يكون خاف على علمه ونبوته ألا بُورثا فيموت العلم .

قوله تعالى : « وكانت امرأتى عاقرا » والعافر من الرجال والنساء الذى لا يأتيه الولد ، وإنما قال عاقرا ولم يقل عاقرة لأن الأصل في هذا الوصف للمؤنث ، والمذكر كالاستعمار ، فأجرى مجرى طالق وحائض . قال ابن عباس : وكان سِنُهُ يومئذ مائة وعشرين سنة وامراته ثمان وتسعين سنة .

« فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ » من عندك « وَلِيًّا » أى ولدا صالحا يتولانى . وسبب سؤاله : أنه لما رأى الفاكهة تأتى مريم لا فى حينها طمِيع فى الولد على الكبر فسأل . قوله تعالى : « بَرُّنِي وَيَرِّثْ مِن آلِ يَعْقُوبَ » المراد البتة من الكل « واجعله رَبًّا رَضِيًّا » أى مرضيا . فصُرِفَ عن مَقْعُولِ إِلَى فَعِيلٍ كما قالوا : مقتول وقَتِيل . « يا زكريا إنا نبشرك بك » أى نسرك ونفرحك . قال ابن عباس : لم يسمَّ يحيى قبله فشرف بأن سماه الله تعالى ولم يَسْكُلْ تسميته إلى أبويه .

« قال رَبِّ إِنى يكون لى غلامٌ . وكانت امرأتى عاقرا » وإنما قال هذا ليعلم أبا تيه الولد على هذه الحال أم يَرُدُّ هو وزوجته إلى حالة الشباب .

قوله تعالى : « وقد بَلَّغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا » وهو تحول العظم ويُبْنَس .
 « قال كذلك » أى الأمرُ كما قيل لك من هِبَةِ الولد على الكِبَرِ « قال ربُّك هو
 عَلَى هَيْئٍ » أى خَلَقَ يَحْيَى عَلَى سَهْلٍ « وقد خَلَقْتُكَ » أى أوجدتك « من قَبْلُ
 ولم تَكُ شَيْئًا » .

« قال ربِّ اجعلْ لى آيَةً » أى علامة على وجود الخُفْل ، وأراد أن يستمجد السرورَ
 ويبادر بالشكر . « قال آيَتُكَ إِلَّا تَكَلَّمُ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا » والمضى يُنَمِّعُ من
 الكلام وأنت سَوِيٌّ سليم من غير خَرَس .

« فخرَجَ على قَوْمِهِ » وهذا فى صبيحة الليلة التى حَلَّتْ فيها امرأته « من المحراب »
 أى مُصَلَّاهُ « فَأَوْسَى إِلَيْهِمْ » وفيه قولان : أحدهما : كَتَبَ إِلَيْهِمْ فى كتاب . قاله ابن عباس .
 والثانى : أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ وَيَدَيْهِ . قاله مجاهد « أَنْ سَبَّحُوا » أى صَلَّوْا .

قوله تعالى : « يَا يَحْيَى » للمضى : وهبنا له يحيى وقتلنا له يا يحيى « خُذِ الْكِتَابَ »
 وهو التوراة « بِقُوَّةٍ » أى بِمُجْدٍ واجتهاد فى العمل بما فيها « وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ » وهو النهم
 « صَبِيًّا » وفى سِنِّهِ يَوْمَئِذٍ قولان : أحدهما : سبع سنين . رواه ابن عباس عن النبى صلى الله
 عليه وسلم . والثانى : ثلاث سنين قاله قتادة ومقاتل .

قوله تعالى : « وَحَنَانًا » أى وَأَتَيْنَاهُ حَنَانًا أى رَحْمَةً « مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً » أى عملاً
 صالحاً « وَكَانَ تَقِيًّا » فلم يفعل ذنباً « وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ » أى جعلناه بَرًّا بِوَالِدَيْهِ .

قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ » أى سلامة له « يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ
 حَيًّا » قال سفيان ابن عيينة : أَوْحَشُ مَا يَكُونُ ابْنُ آدَمَ فى ثلاث مواطن : يوم يولد
 فيخرج إلى دار هَمٍّ ، وليلة يموت مع اللوق فيجاور جيراناً لم ير مثلهم ، ويوم يُبْعَثُ
 فيشهد مشهداً لم ير مثله قط . فسلِّم في هذه المواطن كلها .

قال علماء السير : لما حَلَّتْ مَرِيضٌ اتهمت اليهودُ زكراً وقالوا هذا منه . فطلبوه
 ليقتلوه فهرب حتى انتهى إلى شجرة عظيمة فتجوفت له فدخل فيها فجاءوا بطوفون بالشجرة

فأرأوا هُدبة ثوبه قطعوا الشجرة حتى خَلَصُوا إليه فقتلوه . ونَبِيٌّ يَمِجِي وهو صغير في زمن أبيه ، وكان كثير البكاء فراح في الأرض يدعو الناس إلى الله تعالى ، وكان طعامة الجراد وقلوب الشجر .

أخبرنا المحدثان ابن ناصر وابن عبد الباقي ، قالوا حدثنا أحمد بن أحمد ، أخبرنا أبو نُعَيْمٍ الأصفهاني ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أحمد بن الحسين ، حدثني سعيد ابن شُرَحْبِيلٍ ، حدثنا سعيد بن عَطَّارٍ ، عن وهيب بن الورد ، قال : كان يَمِجِي بن زكريا له خَطَّانٌ في خديه من البكاء فقال له أبوه زكريا : إني إنما سألت الله عز وجل ولداً تَقَرَّبَ به عيني فقال : يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مَفَازَةً لا يقطعها إلا كَلْبٌ بَكَّاءٌ .



واختلفوا في سبب قتل يَمِجِي .

فروى سعيد بن جُبَيْرٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث عيسى يَمِجِي بن زكريا في جماعة من الحواريين يَمُقُونَ الناس ، فكان فيا نهام عنه نكاح ابنة الأخ ، وكان لبيسهم ابنة أخ تُعَجِّبه ، فأراد أن يتزوجها وكان لها في كل يوم حاجة مَقْضِيَّةٌ ، فبلغ ذلك أمها فقالت : إذا سألك الملك حاجتك فقول : حاجتي أن تدب يَمِجِي . فقالت له ، فقال : سَلِّ غير هذا . قالت : ما أسألك غيره . فدعا يَمِجِي فدبَّه ، فبدرت قطرة من دمه على الأرض فلم تزل تنقل حتى بعث الله تعالى بُحْتًا نَعَرَ فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً منهم حتى سكن .

وقال الريح بن أنس : كانت للملك بنت شابة وكانت تأتيه فيسألها حاجتها فيبضيها لها ، وإن أسهرأت يَمِجِي وكان جليلاً فأرادته على نفسها فأبى . فقالت لا يبتها : إذا أتيت أبك فقول له : حاجتي رأس يَمِجِي . فجاءت فسأله ذلك فردها فرجعت فقال : سَلِّ حاجتك . فقالت : رأس يَمِجِي . فقال : ذلك لك . فأخبرت أمها فبعثت إلى يَمِجِي : إن لم تأت حاجتي قتلتك . فأبى فدبَّه ثم ندمت وجعلت تقول : ويل لها ويل لها . حتى ماتت فهي أول من يدخل جهنم .

وفي حديث آخر [أن] اسمها ربة . وقيل : أزميل . وقد قتلت قبله سبعين نبيا ، وهي مكتوبة في التوراة مُقَتَّلَةُ الْأَنْبِيَاء ، وأنها على منبر من النار يسمع صراخها أفعى أهل النار .

السلام على البصير

أَيْنَ مِنْ كَانَ قَبْلَنَا أَيْنَ أَيْنَا مِنْ رَجَالٍ كَانُوا جَمَالًا وَزَبْنًا
إِنْ دَهْرًا آتَى عَلَيْهِمْ فَأَفْنَى عَدُوًّا مِنْهُمْ سَيَأْتِي عَلَيْهِ
خَدَعْنَا الْأَمَالَ حَتَّى جَمَعْنَا وَطَلَبْنَا لِنُفِرْنَا وَوَعَيْنَا
وَابْتَدَيْنَا وَمَا نَفَكْنَا فِي اللَّهِ سِرٌّ وَفِي صَرْفِهِ غَدَاةً ابْتَدَيْنَا
وَابْتَدَيْنَا مِنَ الْمَآشِ فُضُولًا لَوْ قَطَعْنَا بَدُونَهَا لَا كُفَيْتُنَا
وَلَعَمْرِي لَنَرَحَلَنَ وَلَا نَعَمُ فِي بَشْيٍ مِنْهَا إِذَا مَامَضِينَا
اخْتَلَفْنَا فِي الْمَقْدَرَاتِ وَسَوَّى اللَّهُ بِالْمَوْتِ بَيْنَنَا فَاسْتَوَيْنَا
كَمْ رَأَيْنَا مِنْ مَيِّتٍ كَانَ حَيًّا وَوَشِيكًا يُرَى بِنَا مَارَيْنَا
مَالَنَا نَأْمَنُ لِلنُّونِ كَأَنَّا لَا نَرَاهُنَّ يَهْتَدِينَ إِلَيْنَا
عَجَبًا لِمَرَى يَتَقَنَ أَنْ ۖ مَوْتَ حَقٍّ فَقَرَّبًا بِالْعَيْشِ هَيِّنًا^(١)



إخواني : ما الدنيا لولا الشقاء المكتوب ، كل طَلَّابَهَا قَتَلَتْ فَيْسُ الْمَطْلُوبِ ، إلى متى مع الدنيا ، أين الدين اشتروا بِلَعِ الشَّكِّ^(٢) بِلَعِ الْيَقِينِ ، يامستور الحال غداً تَبِينِ ، إذا حُشِرَجْتَ فِي الصَّدْرِ وَجَاءَ الْأَنْبِيَاءُ ، وَبَرَزَتْ كَلِمَةُ الْمَوْتِ مِنَ الْكَلِمِينَ ، وَصَرَّتْ بِعَدِ التَّجَبُّرِ أَذَلُّ مَسْكِينٍ ، وَذُحِخَتْ وَشِيكًا بِغَيْرِ سَكِينٍ ، وَنُقِلَتْ إِلَى الْحَدِيدِ

(١) الآيات لأبي الطاهية ، وقد سبق للدواف أن أوردناها في أول هذا الجزء .

(٢) ب : التكر . محرفة . وما أتته من ت .

أنت فيه رهين ، انظر لنفسك أيها المتقاعد ، تدبر عملك قبل عَرْضِه على الناقد ، وتأهب
فسكم بين يديك شذائد ، لا ينفك فيهِ ولد ولا والد .

سبيلُ اغلق كلهم الفناء	فما أحدٌ يدوم له البقاء
يقرُّ بنا الصباحُ إلى الناي	ويُذِننا إليهن المساء
فلا تركب هو الشوكن مُعداً	فليس مقدراً لك ما تشاء
أتأمل أن نميش وأئ غصن	على الأيام طالَ له الناه
تراه أخضرَ الميدان غصاً	فيصبح وهو مُسودَّ غنائ
وجئنا هذه الدنيا غروراً	متى ما نَقط ^(١) يُرتجع المطاء
فلا ترَ كن إليها مطشئاً	فليس بدائم منها الصفاء



عباد الله : على نية النقض وضع البنيان ، وعلى شرط الرحيل الأرواح في الأبدان ،
وإنما الدنيا مَمَرٌ إلى دار الحيوان ، وليس للإقامة فالعجبُ لا غترار الإنسان ، أين
العقل والنظر ، إلام الجهل والبطر ، كم من منزل دتر ، كم ساع عتر وأنت في الأثر ،
إلام هذا الأثر وقد علت مأكَل البشر ، أين العقول والفكر ، كم وارد ماصدر ،
البلايا^(٢) مثل المطر ، وإنك لملئ خطر ، كم حضرت لدى مختضر ، ودَمع المآقي قد
انهمر لقة الزاد وطول السفر ، ويحك إلى متى تختار الضرر ، لقد بمت الدر بالبحر ، إن
الماقل ليختار الأجود ، وإن الحازم لا يرضى أن يُستعبد ، يامن كلما جَمَّته تبدد ،
يامن كلما زجرناه مدَّ اليد ، يامن إذا دعونه لم يسدد^(٣) ، كيف يختار الضلال من يعرف
الطريق الأرشد ، كيف يؤثر النزول من يقال له اصمد ، إن اللبيب كبرى بعين
الفكر مافي غد ، لو سمعت الحجارة وغفلنا لا نفطر الجفد ، كم نصبت لك شركا وإلى
الآن لم نَسطد .

(١) ت : توب . (٢) ت : البلاء . (٣) كذا في ت . وفي ب : يامن إذا غرنا له فغيرنا أتجد .
ولها عرنة .

حتى متى لا تزال مُتَنَذِرًا من زَلَّةٍ منك لا تزال رَاكِبَهَا^(١)
نَقَبَهَا^(٢) مِثْلَهَا وَتَقْبِكَ الْحَذَرَةُ مِنْ مِثْلِهَا عَوَاقِبُهَا
لَتَرْكَكَ الذَّنْبَ لَا تَقَارِبَهُ أُيْسُرُ مِنْ تَوْبَةِ تَطْلَأِهَا

أيها المعرض عن شكر الإفضال والنعم ، زاحمت^(٣) على حوض الغفلة النعم ،
تمتد يد الجهل بالإلزام إلى أخذه واقتباسه ، وتنسى عقوبة ما قد جنيت في وقت باسه ،
أين الحرب بخطاك ، عجباً منك وعينى تراك ، تراك تستحي^(٤) من غيبي ومنى لا تراك ، من
الذى ستر على القبيح فيما مضى ، من الذى لطف بك في دين دينه إذا اقتضى ، يا هذا
إن وجدت من يصلح لك غيرنا فاذهب ، وإن رأيت مشرباً بِلَذَّةٍ غير حِلْمنا فاشرب ،
لو أعلمت أباك^(٥) ما تعلم منك أباك ، ولو أرأيت^(٦) أخاك ما أرأينا جنالك ، نأمننا
عليك قدسية كم نعت لك ديمة^(٧) لطف بدم ديمة ، أترك تمنى إلى ودنا ، أو
تراعى عهداً عهدنا .

يا هذا : جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، فَوَاعِجِبَا مَنْ لَمْ يَرِ مَحِينًا سِوَى
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَيْفَ لَا يَمِيلُ بِكَلِمَتِهِ إِلَيْهِ ، يَأْمَنُ عَلَيْهِ بِالْعَافِيَةِ بَسْ مَا أَنْفَقْتَ فِيهِ رَأْسَ
الْمَالِ ، كَمْ ذَنْبٍ لَكَ فَعَلَهُ غَيْرُكَ فَهَتَكَ ذَاكَ^(٨) وَسُتِرَتْ .

ويحك ! احذر نفار النعم فا كل شاردٍ بمردود ! إذا وصلت إليك أطرافها
فلا تنفر أنفصاها بقلة الشكر !

لَكَ نَفْسٌ يَسْرُهَا كُلُّ شَيْءٍ يَضُرُّهَا
هِيَ تَفْقَى عَلَى الزَّمَانِ وَيَزْدَادُ شَرُّهَا

(١) ب : من زلة منك لا تجانبها . (٢) ب : يقبك . (٣) ب : لوزاحت . عرفة .

(٤) ب : وعيني تراك تستحي . (٥) ب : لو علم . عرفة وما أثبتته من ت .

(٦) ب : ولو رأيت . عرفة . وما أثبتته من ت .

(٧) اللذعة : مطر يدوم في سكون بلا رعد ويرق . (٨) ت : ذلك .

قوله تعالى

« يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ جَمِيعًا »

البعث : لإخراج أهل القبور أحياء عند النفخة الثانية في الصور . وذلك أن الله تعالى يُنْزِلُ من السماء ماءً فَتَنْبُتُ الأجساد في القبور ، فتمود كما كانت ، ثم ينفخ إسرافيل في الصور فتنشق القبور ، فيقومون جميعاً إلى العرض والحساب « فَيَنْبُتُهُمْ بِمَا عَمِلُوا » من العاصي وتضييع الفرائض « أَحْصَاءَ اللَّهُ » أى حَفِظَهُ « وَنُوءَهُ » .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن اللذهب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن صفوان بن محرز ، عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ اللَّهَ عز وجل يُدْفِنُ الْمُؤْمِنَ ويضع عليه كَتِفَهُ وَيَسْتَرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ ويقول له : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فَإِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ » .

أخرجاه في الصحيحين .

وبالإسناد حدثنا أحمد ، قال حدثنا وكيع ، قال حدثنا الأعمش ، عن المروزي بن سُوَيْدٍ ، عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيقال : اعرضوا عليه صفار ذنوبه فتعرض عليه ويختبأ عنه كبارها . فيقال عملت كذا وكذا وهو متر لا يُشْكِرُ وهو مُسْتَفِقٌ من كبارها فيقال أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة . قال : فيقول إن لي ذنوباً ما أراها . قال أبو ذر فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه .

انفرد بإخراجه مسلم ^(١) .

(١) صحيح مسلم حديث (٣١٤) ط عبد الباقي وأوله : « إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَمَلِ الْجَنَّةِ دَخَلُوا الْجَنَّةَ ، وَآخِرَ أَمَلِ النَّارِ خَرُجُوا مِنْهَا : رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ إِلَى » .

وفي أفراد من حديث الشَّعبى ، عن أنس قال : كُفينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك وقال : هل تدرون مِمَّ أضحك ؟ قال : قلنا الله ورسوله أعلم . قال : من غاطبة العبد ربَّه عز وجل يقول : يا ربِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ قال : يقول : بلى . قال : فيقول : إني لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مَتَى فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكِرام السكاتبين شهودا . قال : فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقى . قال فتنتطق بأعماله . ثم يَخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فيقول : بُعْدًا لَكُنْ وَسُحْقًا فَنُكِّنَ كُنتَ أَنَا ضِلَّ .

إخوانى : ما من الموت بد ، باب البقاء فى الدنيا قد سُدَّ ، كم قَدَّرَ فى القبر قد خُذَ ، كم خَذَ فى الأخذ وقد خُذَ ، يا من ذنوبه لَا تُحْصَى إِنَّ شَكَّكَتْ عُذَّةٌ ، يا من أتى بابَ الإِنبابة كاذبا فُرِّدَ ، يا شِدَّةَ الوجَل عند حضور الأَجَل ، يا قَلَّةَ الحِيل إذا حل الموتُ ونَزَلَ ، يا قُوَّةَ الأَمْسَى إذا نُوقِشَ من أَسْأ ، يا خِجَلَ الماصين ، يا حَسْرَةَ الفَرَّطين ، يا أَسْفَ المَقْصُرِينَ ، يا سُوءَ مصير الظَّالِمِينَ ، كيف يَصْنَعُ مَنْ يَضَاهِمُ التَّبَاهُجَ ، كيف يَفْعَلُ مَنْ شَهِدَهُ الجوارح ، عَدِمُوا وَاللَّهِ الوَسِيلَةَ ، وَأَغْلَطَتْ فى وجوههم وجوه الحيلة ، أَصْبَحُوا جَنِيًّا عَلَى رُكْبِهِمْ ، مَأْسُورِينَ بِمَا فى كُتُبِهِمْ ، لَا يَذَرُّونَ مَا يُرَادُ بِهِمْ ، قد جُمِعُوا فى صعيد ينتظرون حلولَ الوعيد ، والأرضُ بِأَتْلَقِ كُلِّهِمْ تَمِيدُ ، والمِهْرَاتُ عَلَى العِثْرَاتِ تَزِيدُ ، إِنَّ بَعْلَ رَبِّكَ لِشَدِيدٍ . زَفَرَتْ وَاللَّهِ الحُطَّةُ فى وجوه الظَّالِمَةِ فذلُّوا بِسَدِّ العِظْمَةِ ، وخرسوا عن كلمة .



إخوانى : أيام أعماركم قصيرة ، وقد ضاعت على بصيرة ، وآخر الأمر حَبِيرة فيها أهوال كثيرة ، يا مشاهداً حاله محال الحيرة ، أَلَيْكَ عُذَّةٌ أَمْ لَكَ ذُخِيرَةٌ ، هذا اللَّيْلُ يَحْيِيهِ حَمَلٌ حَرَقًا حَرَقًا ، وَيُمِيتُنِي فِيمَلًا بِالْخَطَايَا صُحْقًا ، يا من سَجَرَاتِ حِرْصِهِ عَلَى المَوَى مَاتُطْفَى ، وقد أَشَقَّى بِهِ مَرَضًا مَا أَرَاهُ يُشْفَى ، إلامَ هذا التعليل ، كم تَقْوَمُكَ وَتَمِيلُ ، متى يَبْرَأَ هذا العليل ، يا مُقَابَلًا جَمِيلًا بَنِيَرِ الجليل ، أَنْ رَحِيلًا فَأَعِيدَ الزَّادَ ، أَنْ مَعَادًا فَادْكُرِ المَادَ ، أَلَيْهَكَ العَمَرُ وَإِنْ تَمَادَى .

أيها العرض عنا تذكر عَرْضَكَ ، أيها الراقِد في غفلته اذكر عَفْضَكَ ، أيها الذليل بالمعاصي اذكر عرضك ، كم عَتَبَ ما أَمَرْتُكَ ولا أَمَعْتُكَ .

ويحك ! استصفر أملاً بمنعمه القوت ، استقصِرْ أجلاً بقطعه الموت .
أقبل على العقل مستشيراً فكفى به نصيحاً ونذيراً ، إنه ليَحُلَّ نقاب الشبه بأنامل البيان .

أولاً يعلم العاصي أنه قد غرس لنفسه شجرة ينساقط عليه كل حين منها ثمرة ندم من غير هَرَبٍ ، فإذا قام في القيامة شاهد أغصان ما غرس قد تعاظمت حتى أخذت برّ البرّ ، فإن غفر له لم يذل حَيِّياً مما جنى ، وإن عوقب ذاق مر الجنى ، وهذا الأمل الطويل إنما جرّه جَرُّ شجرة المسوى ، ولو قنع بالطاق التي تسمع بها عينُ الباح لارتوى ، من غير أذى .

المره ^(١) في تأخير مُدَّتِهِ ^(٢) كالثوب يَخْلُقُ بعد جِدَّتِهِ
ومَصِيرِهِ من بَسَدِ مَعْرِفَةٍ للناس طُلَّةَ بيتٍ وَحِدَّتِهِ ^(٣)
من بات مالَ ذُوو مودِّته عنه وحالوا عن مودِّته
محبّاً لَمَنِّهِ بَضِيع ما يحتاج فيه ليوم رَقْدَتِهِ
أزِفَ الرحيلُ ونحن في لَعِب ما نَتَعَدُّ له بِعُدَّتِهِ

قال عُتْبَةُ الغلام : رأيت الحَسَنَ عند الموت وقد قهقه ، ومارأيت قط تبسم ، فقلت : يا أبا سعيد من أي شيء تضحك ؟ فما كُفِّنِي لِثَقُل حاله ، فلما مات رأيتُه في المنام فقلت : يا معلم الخير من أي شيء ضحكت ؟ فقال : من أمرِ مَلِكِ الموت ، إنه نودى وأنا أسمع : شدَّدَ عليه فإنه بقي عليه خطيئة ، فضحكت لذلك . فقلت : ما كانت ؟ فلم يجبني .

(١) الأبيات لأبي النعمان ديوانه ص ٥٧ . (٢) الديوان : بيت لفته .

(٣) البيت في الديوان .

ومصيره من بعد مدته بيا وفا من بعد وحدته

وما هنا أصح .

والأسفا : هذا حالُ الحسن وما عُرِفَ منه إلا الحسن فكيف يكون حالنا إذن مع مالتنا من يحسن .

يا من قد لعب الهوى بفهمه ، وسودت شهوته وجهَ عَزمه ، يا مبنياً عن عَزم
الباني على هَدمه ، يا محمولا إلى الليل لتمزيق لجه ، أما يكفيه مُنذرا وهنَ عَظمه ، كم
نقربك وأنت متباعد ، كم نهضك إلى اللآ يا قاعد ، كم نحرّضك وما تساعِدُ ساعِد ،
كم نوقظك وأنت في اللهوراقد ، يا أعمى البصيرة وما له قائد ، يا قاتل الأمل لست
بخالد ، يا مفرّق الهموم والمقصود واحد ، إن لاحت الدنيا فشيطانٌ مارد ، تقاتل عليها
فتمكر وتطارّد ، فإذا جاءت الصلاة فقلبٌ غائب وجسم شاهد ، وتقول قد صليت
أُتَبَرِّج على الناقد ، ما تعرفنا إلا في أوقات الشدائد ، أما ذنوبك كثيرة فإلى الطرف
جامد ، ملكك الهوى ونحن نضرب في حديد بارد .

وربما غُوفِص^(١) ذو غفلة أصح ما كان ولم يستقم
يا واضح الميّت في قبره خاطبك التبرُّ فلم تفهم

كم ليلة سهرتها في الذنوب ، كم خطيئة أملتيتها في المكتوب ، كم صلاة تركتها
مهملًا للوجوب ، كم أسبلت سقرا على حبة عيوب ، يا أعمى القلب بين القلوب ، ستدري
دمع من يجري ويذوب ، ستعرف خبرك عند الحساب والمحسوب ، أين القرار وفي كف
الطالب المطلوب ، تنبّه للخلاص أيها المسكين ، اعتق نفسك من الرق يارهين ، اقلع أصل
الهوى فمِرْق الهوى مسكين ، احذر غرور الدنيا فما للدنيا عين ، يا دائم المامى سيجن
الفلة سيجن ، شب على الخطايا ولا وثبة تنين ، كأنك بالموت قد برزمن كيهن ، وأن
الأمر فوقت في الأنين ، واستبقت أنك في أحوال عتبن ، كيف ترى حالك إذا عبثت

(١) غوفِص : فوجىء على غرة .

الشمال باليمين ، ثم نُقلت ولقبت بالبيت الدفين ، وأسفا لعظم حيرتك ساعة التلقين ،
يا مستورا على الذنوب غداً تنجلي وتبين ، متى هذا القلب القاسى يرعوى ويلين ، مجيباً
لقسوته وهو مخلوق من طين .

وقبل شُخصى المرء يمتنع زاده وثُمَّلاً من قبل الرءاء السكنايُنْ .
حصادك يوماً ما زرعت وإِنما يدان للمرء يوماً بما هو دَانُ

ساعات السلامة بين يديك مبذولة ، سابق سيوف الآفات فإنها مسالوة ، وبأدب
مادامت المماذير مقبولة ، واقرأ علومَ النجاة فهي منقوطة مشكولة ، وافتح عينيك فإلى
كم بالنوم مكحول ، وغير قبائحك القباح الرذولة ، يالها نصيحة غير أن النفس على
الخلائق مجبولة .

سجع

ويح العصاة لقد عَجِلُوا ، لو تأملوا المواقب ما فعلوا ، أين ما شربوا أين ما أكلوا ،
بماذا يجيئون إذا أحضروا وسُئِلُوا « فينبئهم بما عملوا » .

آه لهم في أى حَزَنٍ من الحَزَنِ نزلوا ، لقد جدَّ بهم الوعظ غير أنهم هزلوا ، ما نفهم
ما اقتنوا من الدنيا وعزلوا ، إِنما كانت ولايةُ الحياة يسيراً ثم عزلوا ، وانفردوا في زاوية
الأسى واعتزلوا ، فإذا شاهدوا ذنوبهم مكتوبة ذُهلوا « فينبئهم بما عملوا » .

ما نفعتهم لذاتهم إذ خرجت ذَوَاتُهُمْ ، لقد جُمعت زلاتهم خفوتها مكتوباتهم ، فلما
عابوا أفعالهم خجلوا « فينبئهم بما عملوا » .

ذهبت من أفواههم الحلاوة ، وبقيت آثارُ الشقاوة ، وحُطُّوا إلى الحضيض من
أعلى رباوة ، وحلوا عدلى الموت والقوتِ والحسرةِ علاوة ، فأنجزهم الله ما عملوا « فينبئهم
بما عملوا » .

سبح على قوله تعالى

﴿ أَحْصَاءُ اللَّهِ وَنُسُوءُ ﴾

اجتمعت كلمة إلى نظرة، إلى خاطر قبيح وفكرة، في كتاب يُخَصِّي حتى الذرة،
والعصاة عن المعاصي في سكرة، فجنوا من جن ما جنوا ثمار ما غرسوه « أَحْصَاءُ
اللَّهُ وَنُسُوءُ »

كم تنم بمال المظلوم الظالم، وبات لا يبالي بالظالم، وللسلوب يبكي ويُبكي الحائم،
وما كفاهم أخذُ ماله حتى حبسوه « أَحْصَاءُ اللَّهِ وَنُسُوءُ » .

أين ما كانوا جموعه، كم ليئوا وما سمعوه، كم قيل لم لو قبلوه، ذهب العرض غير
أن العرض دَنَسوه « أَحْصَاءُ اللَّهِ وَنُسُوءُ » .

كم كاسب للمال من حرامه وحلاله، كان يحاسب شريكه على عود خياله، ولا ينفق
منه شيئاً في تقويم خياله، فلما وقع صريماً بين أشباله اشتغلوا عنه بانتهاب ماله، ثم
في اللحد نكسوه « أَحْصَاءُ اللَّهِ وَنُسُوءُ » .

جعلنا الله وإياكم من الذين عرفوا الحق فاتبعوه، وزجروا المولى عنهم وزدّ عوه،
لأنه قريب مجيب .

الجلس الخامس والعشرون

في قصة مريم وعيسى عليهما السلام

الحمد لله الذي لا شأن يشغله ، ولا نسيان يُذهله ، ولا قاطع لمن يصله ، ولا ناصر لمن يخذه ، جل عن مثل بطاولة ، أو نديشاكله ، أو نظير يقابله ، أو مناظر يقاوله ، يُثيبُ بالعمل القليل ويُقبِلُه ، ويعلم عن الماضي فلا يماجله ، ويدعى الكافرُ شريكاً ويمهله ، ثم إذا بطش هلك كبرى وصواهِله ، وذهب قيصرٌ ومعاقله ، استوى على العرش وما العرش يحمله ، وبُنزل لا كالمُنقل تخلو منازلُه ، هذه جملةُ اعتقادنا وهذا حاصلُه ، من ادعى علينا التشبيه فالحمد لله بقابله ، مذهبنا مذهب أحد ومن ^(١) كان يطاوله ، وطريقنا طريق الشافعي وقد علمت فضائله ، ونرفض قول جَنِّهم وقد عرف باطله ، ونؤمِّل رؤية الحق ومتى خاب آمله ، لقد حنت حنة إلى ولد فسألت من لا يُردُّ سائلُه ، فيألفنا من مكفول مائتقى كافله ، فلما بلغت حملت بمن شرف حامله ، فنجبت من ولد لامن والديشاكله ، فقيل هُزِي إليك فهزت جنعا يابساً تراوله ، فأخرج في الحال رطباً رطباً يلتذ آكله ، فاستدلت على تكوِين ولد محمد شجاعته ، فالنصارى غلَّتْ واليهود عتَّتْ « فأتت به قومها تحمله » .

أحمدُه حمداً أديمه وأوصله ، وأصلى على رسوله محمد الذي ارتجت ليلة ولادته أعالى الإيوان وأساقله ، وعلى أبي بكر ثاني اثنين فاعرفوا مَنْ قائله ، وعلى عمر الذي صفا الإسلام بحمده وعدَّتْ مناهله ، وعلى عثمان الذي زارته الشهادة وما تبيت زواجه ، وعلى عليٍّ ببحر العلوم فما يدرك ساحله ، وعلى العباس أقرب الخلق نسباً فمن يساجله .

قال الله تعالى « واذكر في الكتاب مريم ^(٢) » .

الكتاب : القرآن ومريم اسم أعجمي ، وكان اسم أمها حنة ، فمتنت ولداً فلما حملت

جعلت حملها محرراً خادماً للكنيسة ، فلما وضعتها أنثى حملتها إليهم فكفلها زكريا .
فلما بلغت خمس عشرة سنة « انقذت » أى نجت عن أهلها « مكاناً شرقياً »
مما يلي المشرق « فأنخذت من دونهم حجاباً » أى حاجزاً يمنع من النظر . قال ابن عباس :
ضربت ستراً لتطهر من الحيض وتمشط . وقال السدى : احتجبت بالجدار .
« فأرسلنا إليها روحنا » وهو جبريل « فتمثل لها » أى تصور في صورة البشر
التام الخلق . قال ابن عباس : جاءها في صورة شاب جعد قَطَط ^(١) حين اخضر شاربه .
« قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً » المعنى : إن كنت تقى الله فستنبى
بتعويذى .

« قال إنما أنا رسول ربك » أى فلا تخافى « لأهب ^(٢) لك » أى أرسلنى ليهب
« لك غلاماً زكياً » أى طاهراً من الذنوب « قالت أنى يكون لى غلام » أى كيف
يكون « ولم يمسنى بشر » نفى الزوج « ولم أك نبياً » والنبي الفاجرة .
« قال كذلك قال ربك هو على هين » أى يسر أن أهب لك غلاماً من غير أب
« ولنجعلنه آية للناس » أى دلالة على قدرتنا « ورحمة منا » أى لمن اتبعه وآمن به
« وكان أمراً مقضياً » أى محكوماً به مفروضاً منه . قال ابن عباس : ففزع جبريل عليه
السلام في جيب درعها فاستربها حملها .

وفي مقدار حملها سبعة أفعال : أحدها : أنها حين حملت وضعت . قاله ابن عباس .
والثاني : حملته تسع ساعات . قاله الحسن . والثالث : تسعة أشهر . قاله سعيد بن جببر .
والرابع : ثلاث ساعات ، حملته في ساعة ، وصور في ساعة ووضعت في ساعة . قاله مقاتل
والخامس : ثمانية أشهر فماش . ولم يش مولود قط لثمانية أشهر . فكان هذا آية .
حكاه الزجاج . والسادس : ستة أشهر . حكاه الماوردى . والسابع : ساعة واحدة .
حكاه الثعلبي .

(١) الجعد : الشعر . والقَطَط : عَمَاء . (٢) الأصل : أى ليهب . (٢٣ - البصرة)

قال وهب : أصبحت الأصنام ليلة ولادة عيسى منكسة على رؤوسها كما ردها انقلب ، فحارت الشياطين وطاف إبليس الأرض ثم جاء فقال : رأيت مولودا فلم أستطع أن أدنو إليه .

قوله تعالى : « فانتبهت به » أى بالحلل « مكانا قصيا » أى بعيدا . قال ابن إسحاق : مشى ستة أميال فرارا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج « فأجاءها الخاض [المني : نجاء بها]^(١) والخاض وجع الولادة » إلى جذع النخلة « وهو ساق نخلة يابسة فى الصحراء ليس لها رأس ولا سقف . » قالت باليتى ميت قبل هذا « اليوم وهذا الأمر ، قالته حيائه من الناس » وكنت نسيئا منسيا « أى ليتنى لم أكن شيئا .

« فناداها من تحتها » وفيه قولان : أحدهما الملك . وكانت على نشز . والثاني : عيسى لما ولدته . والسرى : النهر الصغير . وكانت قد حزنت لجذب مكانها وخلوه عن ماء أو طعام ، فقبل لما قد أجرينا لك نهرا وأطلعنا لك رطبها ، وفى ذلك آية تدل على قدرة الله عز وجل فى إيجاد عيسى . « وهزى إليك بمذع النخلة » الباء زائدة « تساقط عليك رطباً جدياً » وهو الطرى المجقى « فكلى » من الرطب « واشربى » من النهر « وقرئ عينا » بولادة عيسى . والصوم : الصمت . وإنما أمرت بالسكوت لأنها لم يكن لها حجة عند الناس .

وفى سنها يومئذ ثلاثة أقوال : أحدها : خمس عشرة سنة . قاله ابن عباس وهب . والثاني : اثنتى عشرة سنة . قاله زيد بن أسلم . والثالث : ثلاث عشرة سنة [سنة]^(٢) . قاله مقاتل .

قال ابن عباس : فلما مضت عليه أربعمون يوما وطهرت من نفاسها جاءت إلى قومها بعيسى ، فبكوا ، وكانوا صالحين ، وقالوا : « يا مريم لقد جئت شيئا فرياً » أى عظيماً « يا أخت هرون » وفيه أربعة أقوال : أحدها : أنه أخ لها من أمها ، كان أمثلة

فَتَىٰ فِي بَنِي إِسْرَآئِيلَ . والثاني : أَنَهَا كَانَتْ مِنْ بَنِي هَارُونَ أَخِي مُوسَى . والثالث : أَنَهُ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ شَبَّهَوهَا بِهِ فِي الصَّلَاحِ . وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . والرَّابِعُ : أَنَهُ رَجُلٌ مِنْ نَسَبِ بَنِي إِسْرَآئِيلَ . قَالَهُ وَهْبٌ .

« مَا كَانَ أَبُوكَ » يَمْنُونُ عِمْرَانُ « انْزَا سَوْءُ » أَيْ زَانِيَا « وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ نَبِيًّا » أَيْ زَانِيَةً « فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ » أَيْ أَوْمَأَتْ إِلَى عِيسَى أَنْ كَلِّمُوهُ ، وَكَانَ عِيسَى قَدْ كَلَّمَهَا قَبْلَ قَوْمِهَا وَقَالَ : يَا أُمَامَ أَتُبْرِي قُلُوبَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . فَلَمَّا أَشَارَتْ أَنْ كَلِّمُوهُ تَعَجَّبُوا وَقَالُوا : « كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْهَدْيِ صَبِيًّا » وَكَانَ زَانِدَةً . فَزَعَقَهُ مِنْ ثَدْيِهَا وَجَلَسَ وَقَالَ : « إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَنَا فِي الْكِتَابِ » قَالَ عِكْرِمَةُ : قَضَى أَنْ يُؤْتِيَنِي الْكِتَابَ . وَقَالَ غَيْرُهُ : عَلِمَ التَّوْرَةَ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ .

وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ سِنِينَ وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلُ ، وَكَانَ يَرَى الْأَشْكَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَكَانَ يَجْتَمِعُ عَلَى بَابِهِ مِنَ الرُّضَى خَسَنُونَ أَلْفًا فَيَدَاوِيهِمْ بِالْعَدَاةِ ، فَاتَّبَعُوهُ وَسَأَلُوهُ أَنْ يَجِيَّ لَهُمْ سَامُ بْنُ نُوحٍ ، فَأَتَى قَبْرَهُ فَنَادَاهُ فَانْشَقَّ الْقَبْرُ وَقَامَ فَقَالَ : هَذَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ فَاتَّبِعُوهُ . ثُمَّ قَالَ : سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَرُدَّنِي كَمَا كُنْتُ : فَسَأَلَ [رَبَّهُ] ^(١) فَصَادَ . وَكَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَلْبَسُ الصُّوفَ وَيَضَعُ نَمْلَيْنِ مِنْ لَحَاءِ الشَّجَرِ شِرَاكِمَا لَيْفٍ ، وَكَانَتْ مَرْيَمُ تَلْتَقِطُ ^(٢) فَإِذَا عُلِمَ بِهَا نَثَرَهَا فَتَتَحَوَّلُ إِلَى مَكَانٍ لَا تُدْرِكُ فِيهِ .

وَكَانَ يَقُولُ : لِبَاسِي الصُّوفُ ، وَشِعَارِي الْخُوفُ ، وَيَتَّقِي السَّجْدَ ^(٣) ، وَطَيْبِي اللَّاءُ ، وَأَذَى الْمُبْرُوحُ ، وَدَابِقِي رَجُلَايَ ، وَسِرَاجِي بِاللَّيْلِ الْقَمَرُ ، وَمُضْطَلَّائِي ^(٤) فِي الشَّتَاءِ مَشَارِقُ الشَّمْسِ ، وَفَاكِهِتِي وَرِيحَانِي بِقَوْلِ الْأَرْضِ ، وَجِلْسَانِي الْمَسَاكِينُ .

وَكَانَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : أَهَيَّنُوا الدُّنْيَا تَكْرِمُكُمْ ^(٥) الْآخِرَةُ ، إِنْ سَكَمَ لَا تَدْرِكُونَ مَا تَأْمَلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ ، وَلَا تَقْبَلُونَ مَا تَرِيدُونَ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ .

(١) مِنْ ت . (٢) بِ : « تَلْقُظُ » . (٣) ت : السَّاجِدُ .

(٤) ب : وَصَلَاتِي . (٥) ه : تَكْرِمُ الْآخِرَ عَلَيْكُمْ . وَمَا أَهْنَتْهُ مِنْ ت .

أخبرنا الحسن بن أحمد ، عن محمد بن سباع الفيرى ، قال : بينا عيسى بن مريم عليه السلام يسير في بعض بلاد الشام اشتد به الحر والبرد والبرق ، فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فرفعت له خيمة من بييد فإذا فيها امرأة غدا عنها ، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا في الكهف أسد ، فرفع يده ثم قال : إلهي جعلت لكل شيء مأوى ، ولم تجعل لي مأوى !

فأجابه الجليل : مأواك عندي في مستقر رحمتي ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء^(١) حليتها [بيدي]^(٢) . ولأطمئن في عرسك أربعة آلاف عام ، كل عام منها كعمر الدنيا ، ولأمرن منادياً ينادي : أين الزاهدون في الدنيا ، زوروا عرس الزاهد عيسى ابن مريم .

وقال أبو علي الجند^(٣) : لقي عيسى بن مريم عليه السلام إبليس فقال : أسالك بالحق القيوم الذي جعل عليك اللعنة ما الذي يسلك جسمك ويقطع ظهرك ؟ فضرب نفسه الأرض ثم قام فقال : لولا أنك أقست علي بالحق القيوم ما أخبرتك ، أما الذي يلصق ظهري فصلة الرجل في بيته نافلة وفي الجماعة ، وأما الذي يسلك جسدي فصهيل الفرس في سبيل الله !

وقال ابن عباس : دخل عيسى عليه السلام خوخة فدخل وراء رجل من اليهود فألقى عليه شبه عيسى فقتلوه وصلبوه .

قال علماء النقل : رفع لثلاث ساعات من النهار وألبس النور وكسى الريش وقطعت عنه لذة الطعام والمشرب فأصبح إنسياً ملكياً .

وقال بعضهم : رفع ليلة القدر وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وأشهرها ، وماتت أمه بعد رفعه بست سنين ، وكان عمرها نيفاً وخمسين سنة .

وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام ينزل على

(١) ت : حورية . (٢) من ت . (٣) ت : وقال أبو الجند .

المنارة البيضاء بشرق دمشق ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويقاثل
الناس على الإسلام ، ويقتل الدجال ويتزوج ويولد له ، ويمكث خمسا وأربعين سنة ،
ثم يموت فيدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الكلام على البسملة

حُكِّمَ النِّيتَةُ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي
بَيْنَمَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا
طُبِعَتْ عَلَى كَعْبٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا
وَمُكَلِّفَ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا
وَلِإِذَا رَجَوْتَ السَّتْعِيلَ فِيمَا
فَالْعَيْشَ نَوْمٌ وَلِلنِّيتَةِ تَقْطُوعُ
وَالنَّفْسُ إِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتْ
فَاقْضُوا مَا رَبَّكُمْ بِحَالٍ إِنَّمَا
وَتَرَكَضُوا خَيْلَ الشَّابَابِ وَبَادِرُوا
وَالدَّهْرُ يَخْدَعُ بِالْمَنَى وَيَنْصَحُ إِنْ
قَدْ لَاحَ فِي لَيْسَ الشَّابَابِ كَوَاكِبُ

لقد خرقت للواعظ السامع ، وما أراه انتفع^(١) السامع ، ولقد بدأ نور الهدى
في الطاليع اسكنه قد صمى الطاليع ، ولقد بانت غير من غير لن عبر المصارع^(٢) ، فما لما
ما انكبت للدامع . يا من شبابه قد مضى^(٣) هل ما مضى من العمر راجع ، تيقظ ،
الحذر ثم اعتذر وراجع ، فالهول شديد والحساب دقيق والطريق شامع ، « إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ » .

(١) ت : وما أراد استمع . (٢) ت : عبر من المصارع . (٣) ت : في مضى .

أيها المعلمين إلى الدنيا وهي تطلبه بذحل^(١) ، قد مرضت عينُ بصيرته فيها فما ينفع
السكحل ، يتبخر في رياضها وما تَمَّ إلا وحل ، اقبل نصحي واشدد الرِّحْلَ عن حَلِّ
الْحِلِّ ، وتأمرْ على نفسك فَلْيَنْحَلْ فَحَلِّ .

أيا صاحِبَ نَهَى الصَّاحِي بِحِلِّ مِنْكَ مُدَارِكُ^(٢)
إلى كم مع دنيَاكَ وتلك للوَيْسِ القَارِكُ^(٣)
تخون الأولَ العهدَ فخلِّ العُرْسَ أو شارِكُ
مَنى بُلُغَتِي بِالرَّكْبِ هَذَا الْجَمَلُ الْبَارِكُ
ألا قد ذهب النَّسَامُ وَنِصْوَى رَايِمُ بَارِكُ^(٤)

آه نفسي انفصلت ساعاتها وما حصلت طاعاتها ، تبعثها تبعاتها وما نفعها دُعائها ،
شهورها وجماعاتها ومجاسمها وجماعاتها ، ومذكورها وورعاتها وقصائدها ومسجعاتها ،
والدنيا ولسماعاتها ، والمحن وجزاعاتها ، والنون ووقعاتها ، وما لانت مع هذا تمتعاتها ،
ولا خفت من رقاد الغفلة هجماتُها . يا من قد شاب أقبِلْ على شانك ، واكشف هذا الحجاب
وأسبل دمع شانك^(٥) ، خلعت خِلْمَةَ الشَّبابِ وكانت عاريةً ، ولبست ثوباً تخمله في البرية ،
فدع الهوى ودع كلَّ بَلِيَّةٍ ، فقد أثار الهدى بمصاييح جليلة .

سار الشبابُ فلم نعرف له خبراً ولا رأينا خيالاً منه مُنْتَاباً
وَحَقَّ لِلْيَمِينِ لو نالت بنا بلداً فيه الصَّبَا كَوْنُ عُودِ النَّدَى أَقْتَاباً
أَتَى إِلَيْهِ قَيْمِسُ الشَّيْبِ^(٦) رَهْنٌ بَلَى نَمِ اسْتَجَدَّ قَيْمِسُ الشَّيْبِ مَحْتَاباً
ما زال يَمُطِّلُ دُنْيَاهُ بِتَوْبَتِهِ حَتَّى أَتَتْهُ مَنَائِيهُ وَمَا تَاباً

(١) الدحل : التَّأَرُّ . (٢) مدارِكُ : متلارك . (٣) القَارِكُ : المُنْفَعُ .
(٤) النَّصْوَى : البعير الهزول . (٥) شانك : عيبك .
(٦) الْأَصْلُ : السَّرح .

كان الحسن يقول : يا ابن آدم بِعْ عاجلتك بما قبلك تريحها جميعا ، ولا تبع عاقبتك بما جلتك فتخسرهما جميعا ، الثَّوَاءُ هنا قليل ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ؟ العاقبة فكأنها والله قد كانت ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق بآخركم .

يا ابن آدم دينك دينك ، فإن سلم لك دينك سلم لك لحملك ودمك ، وإن تسكن الأخرى فإنها نار لا تُطْفِئُ ونفس لا تموت ، إنك معروض على ربك ورسنه بملكك ، نغذمما في يديك لما بين يديك عند الموت يأتيك الخير ، يا ابن آدم ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة . يا ابن آدم لا تعلق قلبك بالدنيا فتعلقه بشرٌ مُملَقٌ ، قطع حبالها وأغلق عنك بابها ، حسبك ما بلفك للحلّ .

استغفر الله متيبا خاشعا	واجر كيمس واجتنب ديارها
من زاره عانى العبا فأنما	زار من الأشد الجنوم دارها
وأفضل الأزر إزار عفة	إذا الرجال ^(١) طرحت آزارها
من أبر النخل إبار محسن	أحمد في إرطابها آثارها
والعقل خير لا يخاف غشه	إذا الرجال اتهمت أخبارها
فأجبر النفس على التقوى ولا	تقل لم أستطع إجبارها

الكلام على قوله تعالى

« يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا »

قرأ الجمهور : نصوحا بفتح النون . وقرأ أبو بكر عن عاصم بضمها . قال الزجاج : من فتح فعلى صفة التوبة ، والمعنى توبة بالغة في النصح . وقول من أسماء الفاعلين التي تستعمل للمبالغة في الوصف . يقال رجل صبور وشكور . ومن قرأ بالضم فمنهاه يُنصحون بها نصوحا يقال : نصحت له نصحا ونصاحا ونصوحا . قال عمر بن الخطاب : التوبة النصوح أن يتوب العبد من الذنب وهو يحدث نفسه أن لا يعود .

(١) الأصل : إذا القتال .

وسئل الحسن البصري عن التوبة النصوح فقال : ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإخبار أن لا يعود .

وقال ابن مسعود : التوبة النصوح تكفر كل سيئة . ثم قرأ هذه الآية .

اعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمه زاد مقته لنفسه على قُبْح زلته ، فمنهم من قَوِيَ مقته لها ورأى تعريضها [للقتل] ^(١) مباحاً في بعض الأحوال فمرّضها له ، كما فعل ماعز والغامدية .

أخبرنا ابن عبد الواحد ، أنبأنا الحسن بن علي ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا أبو نعيم ، حدثني بشر بن المهاجر ، عن عبد الله بن بُرَيْدَة ، عن أبيه قال : كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل يقال له ماعز ابن مالك فقال : يا نبي الله إني قد زنيته وأنا أريد أن تطهرني فطهرني . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أرجع . فلما كان من الغد أتاه أيضا فاعترف عنده بالزنا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أرجع . ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومه فسألهم عنه فقال : ما تعلمون من ماعز بن مالك الأسدي ؟ هل ترون به بأسا وما تنكرون ^(٢) من عقله شيئا ؟ قالوا : يا نبي الله ما نرى به بأسا ولا ننكر من عقله شيئا . ثم عاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم الثالثة فاعترف عنده بالزنا وقال : يا نبي الله طهرني . فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومه أيضا فسألهم عنه فقالوا له كما قالوا في المرة الأولى : ما نرى به بأسا وما ننكر من عقله شيئا . ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم الرابعة فاعترف عنده بالزنا ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فغفر له ^(٣) فجعل فيها إلى صدره ثم أمر الناس أن يرحموا . قال بُرَيْدَة : وكنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءته امرأة من غامد فقالت : يا نبي الله ، إني قد زنيته وإني أريد أن تطهرني . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : أرجعي . فلما كان من الغد أتته أيضا فاعترف عنده بالزنا فقال لها : أرجعي . فلما أن كان

(١) سلطت من ت . (٢) ت : أو تنكرون . (٣) ب : حرة .

من الغد أنه فاعترفت عنده بالزنا وقالت : يا نبي الله طهرني فلعنك أن تردني كما رددت
ما عز بن مالك فوالله إني لحبلى من الزنا . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : ارجعي
حتى تلدى . فلما ولدت جاءت بالصبي تحمله فقالت : يا نبي الله ، هذا قد ولدت . قال : فاذهبي
حتى تقطعيه . فلما قطعته جاءت بالصبي في يده كسرة خبز فقالت : يا نبي الله . هذا قد قطعته .
فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبي فدفن إلى رجل من المسلمين وأمر بها لحفر لها حفرة
فجعلت فيها إلى صدرها ، ثم أمر الناس أن يرجوها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى
رأسها فنضج الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال :
مهلاً يا خالد فوالذي نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس^(١) لفُير له .
ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

انفرد بإخراج الحديثين مسلم^(٢) .

وقد أخرج في بعض الطرق أن ما عزاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : طهرني .
فقال له : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه . فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله
طهرني فقال : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه فرجع ثم جاء فقال : طهرني . حتى إذا
كانت الرابعة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : مم أطهرك ؟ قال : من الزنا . فله أرحمه
قال : « لقد تاب توبة لو قُسمت بين أمة لوسَّعَتهم » .



فانظر إلى مَقْت هؤلاء أنفُسهم حتى أسلموها إلى الملاك غضبا عليها لما فعلت .
ومن الثائنين^(٣) من لم يُجزَّ له التعريض بقتلها ، فكان^(٤) يتنصَّ عيشها .
قال بعض السلف : رأيت صَيِّغاً العابد قد أخذ كوزاً من ماء بارد فصبه في الحب
واكتال غيره ، فقلت له في ذلك فقال : نظرتُ نظرة وأنا شاب فجعلت على نفسى

(١) المكس : الظلم ، ودرهم كانت تؤخذ من بالى الأسوك في الجاهلية . (٢) صحيح مسلم ١٦٩

(٣) ت : ومن الناس . (٤) ت : وكان .

ألا أذيقها الماء البارد ، أنقص عليها أيام الحياة^(١) .

يا نادماً على الذنوب أين أترُ ندمك ، أين بكائك على زلة قدمك ، أين حذرَكَ من
أليم العقاب^(٢) ، أين قلقك من خوف العقاب^(٣) ، أتمقّد أن التوبة قول باللسان ، إنما
التوبة نار تحرق الإنسان . جرّد قلبك من الأقدار ، ثم ألبسه الاعتذار ، ثم حله حلة
الانكسار ، ثم أقمه على باب الدار .

لَيْسَ بِمَعْصُومٍ الْعَبَادُ بِالْبِكَاءِ ، فَعُوتِبَ عَلَى كَثْرَتِهِ فَقَالَ :

بَكَيْتُ عَلَى الذَّنُوبِ لِعِظَمِ جُرْمِي وَحَقٌّ لِكُلِّ مَنْ يَمْعَى الْبِكَاءَ
فَلَوْ أَنَّ الْبِكَاءَ يَرُدُّ مَعِي لِأَسْمَدَتِ الدَّمُوعَ مِمَّا دُمَانِي

اعلم أن التائب الحق يشغله تنظيف ما وسخ ، والحزن على ما فرط عن تصوير^(٤)
زَلَّة ثانية .

[يا هذا]^(٥) اكتب قصة الرجوع بقلم الزرع بمداد الدموع ، واسع بها على قدم
الخنوع إلى باب الخشوع ، وأثبها بالمطش والجوع ، وسلّ رقبتها فرُبَّ سؤالٍ مسموع ،
كم هُتِكَ سِتْرٌ من فعل خطيئة قد فعلتها وسِتْرَت ، فابك على كثرة الذنب أو [على]^(٥)
قلة الشكر .

لَيْتَ جَلَّ ذَنْبِي وَارْتَكَبْتُ الْمَآثِمَا وَأَصْبَحْتُ فِي بَحْرِ الْخَطِيئَةِ عَائِمَا
أَجْرَرُ ذَيْسِلِي فِي مُتَابَعَةِ الْمَوَى لِأَقْضَى أَوْ طَارَ الْبَطَالَةُ هَائِمَا
فَهَا أَنَا ذَا يَرْبٍ أَقْرَرْتُ بِالذِّى جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِي وَأَصْبَحْتُ نَادِمَا

(١) لا يجوز الإسلام تحريم طبقات الحياة ولا يرى التطرف في زجر النفس إلى حد الحرمان من الباحت
التي جعل الله فيها عوناً على عبادته وطاعته ، ولكن منافع التربية عند الأقدمين كان يسودها بعض ما كان
يبرف عند المترهين . (٢) ب : التائب . (٣) ب : العقاب . (٤) ب : تصور .
(٥) من ت .

أَجَلْ ذُنُوبِي عِنْدَ عَفْوِكَ سَيِّدِي حَبِيرٌ وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي عَظِيمًا

تَشَبَّثْ بِذَيْلِ الْحِلْمِ ، وَصِيحْ بِصَاحِبِ الْعَفْوِ لَعَلَّ شَفِيعَ الْاعْتِرَافِ يَسْأَلُ فِي أَسِيرِ
الْاِقْتِرَافِ .

ذَنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلٌ
فَإِنْ عَفَوْتَ بِفَضْلِي وَإِنْ أَخَذْتَ فَعَدْلِي .

[يَا هَذَا] مَنَاجَاَتُكَ مَنَاجَاَتُكَ ، وَصَلَاتُكَ صِلَاتُكَ ، نَادِي فِي نَادَى الْأَسْحَارِ وَالنَّاسِ
نَائِمُونَ : يَا أَكْرَمَ مِنْ أَمَلِهِ الْأَمَلُونَ .

عَلَى دَيْرٍ ثَقِيلٍ أَنْتَ قَاضِيهِ يَا مَنْ يُحْمَلُنِي ذَنبِي رَجَائِيهِ
الْحَالُ مُرْهِقَةٌ وَالنَّفْسُ مُشْفِقَةٌ مِنْ دَائِمِهَا التَّهَادِي أَوْ تَدَاوِيهِ
إِنْ طَرَدْتَنِي فَمَلِي مِنْ أَذْهَبٍ ، وَإِنْ أَمَدْتَنِي فَإِلَيْكَ أَنْسَبُ ، عَلَتْ ذَنْبِي وَخَلَقْتَنِي ،
وَرَأَيْتَ زَلَّتِي وَرَزَقْتَنِي .

بَرَّيْ مَعْرُوفَكُمْ قَبْلَ أَيْ وَغَدَائِي بِرَّكُمْ قَبْلَ اللَّيْلِ
وَلِإِذَا أَنْتُمْ وَأَنْسَمُ أَنْتُمْ لَمْ تَوَلُّونِي وَتَوَلُّونِي فَمَنْ

يَا هَذَا : مَاءُ الْعَيْنِ فِي الْأَرْضِ حَيَاةُ الزَّرْعِ ، وَمَاءُ الْعَيْنِ عَلَى الْخَلْقِ حَيَاةُ الْقَلْبِ ،
يَا طَالِبَ الْجَنَّةِ : بِذَنْبٍ وَاحِدٍ أَخْرَجَ أَبُوكَ مِنْهَا ، أَنْطَلَعَ فِي دُخُولِهَا بِذَنْبٍ لَمْ تَنْبَ عَنْهَا ، إِنْ
أَمْرًا تَنْقُضِي بِالْجَهْلِ سَاعَاتِهِ ، وَتَذْهَبُ بِالْعَاصِي أَوْقَاتِهِ ، تَخْلُقُ أَنْ تَجْرِيَ دَائِمًا دُمُوعُهُ ،
وَحَقِيقُ أَنْ يَبْقَى فِي الدُّجَى هُجُوعُهُ .

وَأَسْفَلُ مَنْ ذَهَبَ صِرْهُ فِي الْخِلَافِ ، وَصَارَ قَلْبُهُ بِالْخَطَايَا فِي غِلَافٍ ، لَمَّا سُرَّتْ عَنْ
التَّائِبِينَ الْعَوَاقِبَ فَرَعُوا إِلَى الْبُكَاءِ وَاسْتَرَاخُوا إِلَى الْأَحْزَانِ ، كَانُوا يَتَزَاوَرُونَ فَلَا تَجْرِي
فِي خَلْوَةِ الزِّيَارَةِ إِلَّا دُمُوعُ الْحَذَرِ .

باحتَ برَّي في الهوى أدْمعي ودلت الواشي على موضعي
يا قوم إن كنتم على مذهبي في الوجد والحزن فنوحوا معي
يحق لي أبكي على زلتي فلا تلو موني على أدْمعي

آه لنفس لا تغفل أمرها ثم قد جهلت قذرها ، تضعف في المصامى عمرها ونحوض من
الذنوب غمرها ، إلى متى تعمى وكم تنسرد ، وأقبح من قبيحك أنك تتعمد ، ياردى العزم
يا سي المقصد ، يا نقي الثوب والقلب أسود ، ما هذا الأمل ولست بمخلد ، أما تخاف من
أوعدك وهدد ، يا مستورا على القبيح أنقر أم تجحد ، يا من شاب وما تاب هذا الدأب
مذ أنت أصرد ، يا مشترقا لذة نزول بالعذاب السرمد ، يا مرميا في جُب الهوى هذا
الحبل وما تصمد ، بالله عليك تأمل نصحي وتفقد ، أما الطريق طويلة فاقبل منى وتزود ،
تخلص من أسر الهوى فإلى كم مقيد ، مثير ما يبقى بما يفنى ثم اطلب الأجود ، ما أرى
قولى يؤثر فيك ولو درس مجلد ، أغرف من فلك قلّة فهمك وأنت تتبغدد ، أسفا لأيام
مضت في الذنوب وتولت ، تحكمت فيها النفس فأفسدتها إذ تولت ، وعلى ليال كست
الصحائف لونها فوكست وأذلت ، وعلى ساعات في طلاب الهوى هوت واضمحلت ،
حسرة عن حسير ذهبت وحلت ، آه لشيء كان الشباب منه أصلح ، ولذى عيب
ما قرمه ^(١) العتاب ولا أصلح ، ولمفرط يحسر كل يوم ولا يربح ، ولتخبط في غلام الظلم
والصباح قد أصبح .

قد تناهت في بلائى حيلتى وبلائى كله من قبلى
كلما قلت تجلّت عُمتى عذت في ثانية لا تنجلي
لمبت بى شهواتى وانقضت لى حياتى في غرور الأمل
وأحلت بى ذنوبى سقما كيف بالبرء منه كيف لى

قد رَمَتْني سِثاقِي والمَسْوى بِسَهمٍ فَأَصَابَتْ مَقْتَلِي
وَأَتَى شَيْبِي وَحَالِي كَالْقَدَى كُنْتُ فِيهِ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
لو رأيتِ النَّائِبَ رَأَيْتِ جُنْفًا مَقْرُوحًا ، تَبْصِرُهُ فِي الْأَسْعَارِ عَلَى بَابِ الْاِعْتِزَارِ
مَطْرُوحًا ، سَمِعَ قَوْلَ الْإِلَهِ يُوسَى فِيمَا يُوْحَى « تَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا » .
مَطْعَمُهُ يَسِيرٌ ، وَحُزْنُهُ كَثِيرٌ ، وَمُزْنُجُهُ مُتِيرٌ ، فَكَأَنَّهُ ^(١) أُسِيرَ قَدِ رَبِّي بِمَجْرُوحًا ،
أُنْجَلَ بَدَنُهُ الصِّيَامِ ، وَأَنْعَسَبَ قَدَمُهُ الْقِيَامِ ، وَحَلَفَ بِالْعَزْمِ عَلَى هَجْرِ النَّامِ ، فَبَذَلَ جَسَدًا
وَرُوحًا [تَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا] ^(٢) .
الْقَلْبُ قَدْ عَلَاهُ وَالْحُزْنُ قَدْ وَهَّاهُ ، يَذِمُّ نَفْسَهُ عَلَى هَوَاهُ ، وَبِهَذَا صَارَ مَمْدُوحًا .
أَيْنَ مِنْ يَبْكِي جَنَائِزَ الشَّبَابِ الَّتِي بِهَا اسْوَدَّ الْكِتَابُ ، أَيْنَ مِنْ بَأَى إِلَى الْبَابِ يَمْدُ
الْبَابَ مَفْتُوحًا [تَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا] ^(٣) . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

(١) ت : وَكَأَنَّهُ . (٢) مِنْ ت .

المجلس السادس والعشرون في قصة أهل الكهف

الحمد لله الذي لا يتأثر بالمدى ولا يتغير أبداً ، لم يزل واحداً أحداً ، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، اختار من شاء فنجاه من الردى ، أنقذ أهل الكهف وأرشد ^(١) وهدى ، وأخرجهم بقلق راح بهم وغداً ، فاجتمعوا في الكهف يقولون كيف حالنا غداً ، فأراحهم بالنوم من تعب التعب مُدداً « إذا أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتينا من لدنك رحمةً وهي لنا من أمرنا رشداً ، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ، نحن نقرضك بأنهم بالحق » ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

أحمد ما ارتجز حادٍ وحداً ، وأصلى على محمد أشرف متبوع وأفضل مُقتدى ، وعلى أبي بكرٍ التخذ يأنفقه عند الإسلام يداً ، وعلى عمر العادل الذي ما جار في ولايته ولا اعتدى ، وعلى عثمان الصابر في الشهادة على وقع المدى ، وعلى عليٍّ محبوب الأولياء ومبيد المدى ، وعلى عه العباس أشرف الكل نسباً ومختداً .

قال الله عز وجل : « أم حَبِطَ أَنْ أَحَبَّ الكَهْفِ والرِّقْمِ كانوا من آياتنا عجبا ^(٢) » .

سبب نزولها : أن اليهود سألوا ^(٣) عن أصحاب الكهف فنزلت .
ومعنى : « أم حَبِطَ » : أحسبت . والكهف : المغارة في الجبل إلا أنه واسع فإذا صَغُرَ فهو غار

وفي الرقيم ستة أقوال : أحدها : أنه لوحٌ من رصاص كان فيه أسماء الفتية

(١) ت : فأرشد . (٢) سورة الكهف ٩ . (٣) ب : سألوه .

مكتوبة أيّهم من اطلع عليهم يوماً من الدهر ما قصّتهم . رواه أبو صالح عن ابن عباس ،
وبه قال وهب .

والثاني : أنه اسم الوادى الذى فيه الكهف . قاله قتادة والضحاك .

والثالث : أنه اسم القرية التى خرجوا منها . قاله كعب .

والرابع : أنه اسم الجبل . قاله الحسن ^(١) .

والخامس : أن الرقيم الدواة بلسان الروم . قاله عكرمة .

والسادس : أنه اسم الكلب . قاله سعيد بن جبّير .

ومعنى الكلام : أحسبت أن أهل الكهف كانوا أعجب ^(٢) آياتنا ؟ قد كان في آياتنا
ما هو أعجب منهم .

« إذ أوى الفتية إلى الكهف » أى جمّعه ماوى لهم . والفتية : جمع فتى ، مثل
غلام وغيلة . والفتى : الكامل من الرجال .

واختلف العلماء في بدء أمرهم ومصيرهم إلى الكهف على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم هربوا ليلاً من ملكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام ، ففروا براع
له كلب فقيعهم على دينهم ، فأوّوا إلى الكهف يتعمّدون . قاله ابن عباس .

وقال عبيد بن عمير : تقدّم قومهم فطلبوهم ، فعسى الله عليهم أمرهم ، فكتبوا
أسماءهم في لوح : فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا في سنة كذا في مملكة
فلان . ووضعوا اللوح في خزانة الملك .

والثاني : أن أحد الحواريين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف فلقبه هؤلاء الفتية
فأمّنوا به ، فطلبوا فهربوا إلى الكهف . قاله وهب بن منبه .

والثالث : أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرافهم ، فخرجوا واجتمعوا وراء المدينة
على غير ميعاد ، فقال كبيرهم : إني لأجد في نفسي شيئاً ما أعلن أحداً يحذره . قالوا : ما هو ؟

(١) ب : قاله حسن . (٢) ت : كانوا عجبا .

قال : إن ربِّي ربُّ السموات والأرض . فتوافقوا فدخلوا الكهف فناموا . قاله مجاهد .
قوله تعالى : « فصرَّنا على آذانهم » للمنى أَمْنَام « ثم بعثناهم لنعلم أَى الحزْبَيْنِ »
أى ليعلم خَلَقْنَا . وأراد بالحزبين المؤمنين والكافرين وكان قد وقع بينهم تنازع فى مدة
لبثهم . ومعنى قاموا : خَلَوْا .

وكانت الشمس إذا طلعت تَزَّاور عن كهفهم وإذا غربت تقرضهم أى تَعْدِل عنهم .
وفى سبب ذلك قولان : أحدهما : أن كهفهم كان يلزأ بنات نَمَش^(١) . قاله الجمهور .
والثانى : أن ذلك كان آية . قاله الزجاج . والفجوة : التسع .

« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا » لأن أعينهم كانت مفتحة وهم نيام لثلاث ذنوب . قال ابن
عباس : كانوا يقابون فى كل عام مرتين ، ستة أشهر على هذا الجنب وستة أشهر على
هذا الجنب . وقال مجاهد : بقوا على شق واحد ثلاثمائة عام ، ثم قلبوا تسعين . والوصيد :
الفناء والباب .

« لو اطلعت عليهم لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ مِرَارًا » لأنهم طالت شعورهم وأغفارهم جدا . قال
وهب : خرج الملك وأصحابه فى طلبهم فوجدوهم نياما ، فكانوا كلما أراد أحد أن
يدخل أخذه الرعب ، فقال قائل للملك : أليس أردت قتلهم ؟ قال : بلى قال : فابن عليهم
باب الكهف حتى يموتوا جوعا وعطشا . ففعل .

فأما سبب بعثهم فقال عكرمة : جاءت أمة مُسَلِّمة ، وكان ملكهم مسلما ، فاختلفوا
فى الروح والجسد فقال قائل : بُعث الروح وأما الجسد فتأكله الأرض . وقال قائل : تبعث
الروح والجسد . فتشق اختلافهم على الملك فانطلق فلبس السوح وقعد على الرماد ، ودعا
الله تعالى أن يبعث لهم آية تبين لهم . فبعث الله أهل الكهف .

وقال وهب : جاء راع قد أدركه المطر إلى الكهف ففتح بابه ليأوى إليه النعم ، فرد
الله إليهم أرواحهم .

قال ابن إسحاق : قعدوا فرحين فسلم بعضهم على بعض لا يرون فى وجوههم

(١) بنات نمش : نجوم .

ولا أجسادهم ما يتكبرون ، وإنما هم كهيتهم حين رقدوا ، وهم يرون أن ملكهم في طلبهم فصلوا وقالوا لملئخا صاحب نفقته : انطلق فاستمع مائذً كره به وابتغ لنا طعاما . فوضع ثيابه وأخذ ثيابا يتسكّر فيها ، وخرج مستخفيا متخوفا أن يراه أحد ، فرأى على باب المدينة علامة تكون لأهل الإيمان ، فحِيلَ إليه أنها ليست بالمدينة التي يعرف ، ورأى ناسا لا يعرفهم ، فجعل يتمعّب ويقول : لعل نائم . فلما دخلها رأى قوما يحلفون باسم عيسى فأمدّ ظفوره إلى جدار وقال في نفسه : والله ما أدري ما هذا ؛ عشية أمس لم يكن على الأرض من يذكر عيسى إلا قتل ، واليوم اسمهم يذكره ! لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف ، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا فقام كالحريران وأخرج ورقا وأعطاه رجلا وقال : ينبغي طعاما فنظر الرجل إلى نقش فجعل يتمعّب ، ثم اتّاه إلى آخر فجعلوا يتطارحونه بينهم ويتمعّبون ويتشاورون ، وقالوا إن هذا قد أصاب كزا . ففرّق منهم وغلن أنهم قد عرفوه فقال : أسكوا طعامكم فلا حاجة بي إليه . فقالوا له : من أنت يا فتى ، والله لقد وجدت كزا فشاركنا فيه وإلا أتينا بك السلطان . فلم يدروا ما يقولون فطرحوا كساءه في عنقه وهو يبكي ويقول : فرّق بيني وبين إخوتي ، يا ليتهم يعلمون ما لقيت .

فأتوا به إلى رجلين كانا يدبران أمر المدينة فقالا : أين الكنز الذي وجدت ؟ قال : ما وجدت كزا ، ولكن هذه ورق آباءى ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدري ما شأني ولا ما أقول لكم . وكان الورق مثل أخفاف الإبل فقالوا له : من أنت وما اسم أبيك ؟ فأخبرهم ، فلم يجدوا من يعرفه فقال له أحدهما : أنظن أنك تسخر منا وخزان هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ، فإنّي^(١) سأمر بك فتذبّ عذابا شديدا ثم أوفّقك حتى تمرّف بهذا الكنز . فقال لملئخا : أثبتوني عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقكم^(٢) . قالوا : سل . قال : ما فعل الملك

(١) ت : ولأن . (٢) ب : صدقتم ، وما أثبتته من : ت .

دقيانوس ؟ قالوا : لا نعرف على وجه الأرض اليوم مَلِكًا يسمى دقيانوس ، وإنما هذا ملك قد كان منذ زمان طويل ، وهلكت بعده قرون كثيرة . فقال : والله ما يُصدَّقني أحد بما أقول ، لقد كنا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فَمِينَا ، فلما انتبهنا خرجتُ أشترى لأصحابي طعاما فإذا أنا كاترون ، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي .

فانطلق [معه] ^(١) أهل المدينة ، وكان أصحابه قد ظنوا لإبطانه عليهم أنه قد أخذ ، فبينما يتخوفون ذلك إذ سموا الأصوات وجلبة الخيل ، فظنوا أنهم رُسل دقيانوس ، فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض ، فسبق يميلخا إليهم وهو يبكي فبكوا معه وسألوه عن شأنه فأخبرهم خبره وقص عليهم الخبر ، فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله تعالى وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث .

وجاء مَلِكُهُمْ فاعتنقهم وبكى . فقالوا له : نستودعك الله ونقرأ عليك السلام حفظك الله وحفظ مَلِكُكَ . فبينما الملك قائم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله عز وجل نفوسهم وحجبتهم بحجاب الرعب ، فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم . وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدا يصلي فيه ، وصار عندم عيد في كل سنة .

وقد نهبت قصتهم على أن من قرأ إلى الله عز وجل حرَّسه ولطف به وجعله سبباً لهداة الصالحين ^(٢) .

السلام على البصير

جِدُّوا قَدْ زُيِّنَتْ مَطَايَاكُمْ
لِنَقْلِكُمْ عَنْ دَارِ دُنْيَاكُمْ
وَحَصِّلُوا ^(٣) زَادًا لِمَسْرَاكُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَذْنُو مَنَايَاكُمْ
إِيمَانَكُمْ دَعَى فُطُوبَى لَكُمْ
إِنْ صَحَّ فِي الْإِيمَانِ دَعْوَاكُمْ

(١) من ت . (٢) ت : لهداة الصالحين . (٣) ت : وخلصوا .

يا من يصابه القرآن وقلبه غافل ، وتناجيه الآيات وفهمه ذاهل ، اعرف قدر التكلم وقد عرفت الكلام ، وأحضر قلبك الغائب وقد فهمت اللام .

مكتوب في التوراة : يا عبيدى أما نستحى منى يا أتيتك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشى فتتبدل عن الطريق وتقع لأجله وتقرأه وتتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك منه شيء ، وهذا كتابى أزلته إليك وأنت معرض عنه ، أفكبت أهون عليك من بعض إخوانك !

يا عبيدى : بقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك ونصنى إلى حديثه بكل قلبك ، وها أنا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عنى .

كان السلف لمعرفتهم بالتكلم يلهبون بتلاوة القرآن .

قال عثمان بن عفان رضى الله عنه : لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم .

وكان كهمس بن الحسن يختم في الشهر تسعين ختمة . وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ليلة ثلاث ختمات .

وكان في السلف من يعمه التفكير من كثرة التلاوة فيقف في الآية يرددها .

قام تميم الدارى ليلة إلى الصباح بآية : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ » وقام سعيد بن جبيرة ليلة بآية : « وَامْتَأْتُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرِمُونَ » .

وقال سليمان الداراني : إني لأتلو الآية وأقيم فيها أربع ليال أو خمسا ، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها .

وقال بعض السلف : لى في كل جمعة ختمة ، وفي كل شهر ختمة ، وفي كل سنة ختمة ، ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد .

وقال أسلم بن عبد الملك : محب رجل رجلا شهرين فداراه نائما لا ليلا ولا نهارا ،

فقال : مالى أراك لا تنام ؟ فقال : إن مجائب القرآن أطرن نوى فإخرج من أعجوبة
إلا وقعت فى أخرى .

وقال ابن مسعود : من أراد عِلْمَ الأولين والآخرين فليكثر [تلاوة] القرآن .
بامعراض عن تلاوة القرآن مشغولا باللهو والهذيان ستدرى من يندم يوم الخسران ،
استدرك ماقد فأت من هذا الزمان ، وقم فى الأسعار فلتسعر مع الرحمة شان ، وسل العفو
عما سلف بمدك وكان .

مولاي جشك والرجا ، قد استجار بخصن ظنى
أبني قواضك السقى تمنعوا بها ما كان منى
فانظر إلی بحق لطفك يا إلهى واعف عني
لا تخزني يوم الما د بما جئت ولا يهني

قال بعض السلف : كان لنا جارٌّ من التبعدين قد برز فى الاجتهاد ، فعلى حق
تورمت قدماءه وبكى حتى صرخت عيناه ، فاشتري جارية وكانت تحسن الفناء وهو لا يعلم
قَبِينا هو فى محرابه رقت صوتها بالفناء فطار لَبه ، ورام ما كان عليه من التبعيد فلم يقدر
عليه ، فقالت له الجارية : يا مولاي لقد أبلت شبابك ورفقت لذات الدنيا فى أيام
حياتك ، فلو تمتت بى . قال إلى قولها وترك التبعيد واشتغل بفنون اللذات ، فبلغ ذلك
أخا له كان يواقه فى العبادة فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من الناصح الشفيق والطيب الرفيق ، إلى من سلب حلاوة
الذكر والتلذذ بالقرآن : بلغنى أنك اشتريت قينة بمت بها حظك من الآخرة ، فإن
كفت بمت الجزيل بالتفليس والقرآن بالتیان فإني محذرك هاذم^(١) اللذات ومنفص
الشهوات ، فكأنه قد جاءك على غرة فأبكم منك اللسان وهدمك الأركان وقرب

(١) هاذم : قاطع . وهو كتابة عن الموت .

منك الأكفان ، واحتوشك من بين الأهل والجيران ، وأحذرُك من الصَّيْحة إذا جَبَّتْ
الأمُّ لِمَلِكِ جبار .

ثم طوى الكتاب وبشه إليه ، فوافاه وهو على مجلس سروره ، فأذهله ^(١) وأغصه
بريقه ، فنهض من مجلسه وعاد إلى اجتهداه حتى مات .

قال الذي وعظه : فرأيتُه في المنام بعد ثلاث فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :
الله عوّضني ذو العرش جاريةً حوّراءَ تقيين طوّراً وهنّين
تقول لي اشرب بما قد كنت تأملني وقرّعيناً مع الولدان والمهين
يا من تخلى عن الدنيا وأزجه عن الخطايا وعيد في الطواوين

يا وبع عزيمة نُقِضتْ بالموى عهودها ، ترتّ في درجات السلاّم انمكس صمودها ؛
بينما تمزحها الجذّ يبيس عودها ، لقد سَوَدَتِ الصّحائف في طلب مالا تصادف ، متى تذكر
للتألف ، إلى كم وكَم تخالف ، كم طوى الدهر من طوائف ، إنما يسلم في الشدة من هو
في الرجاء خائف ، إلى متى تضعيع الوقت الشريف ، وتُعرض عن الإنذار والتضويق ،
وتبيح أفضل الأشياء بقدر طفيف ، وتؤثر القاني على الباقي وهذا الرأي السخيف ، أين
لذة فرحك بسدّ رحك ، وأين سرور مرّحك في مُجترحك ، إنما العمر أيام معدودة ،
والسلامة عوارٍ مردودة .

وأى هوّى أو أَى لهوٍ أصبته على لذة إلا وأنت مُفَكِّرةٌ
وترضى على الثوّ السّور وإنما قلب في علم الإله خلافة
ألايتها البساكي على الليت بدمه رويدك لا تمجّل فإنك لاجئة
وما هذه ^(٢) الساعات إلا على الفتى مُنافسه ^(٣) طوّراً وطوراً تُسَكِّرة
أرى صاحب الدنيا مقيماً بمجهل على ثقة من صاحب لا يؤاقره

(١) ت : فأذهله . (٢) ب : وما تغلب الساعات . (٣) ت : تنافسه : تنافسه على غرة .

أين من اعتمد على رضى الأمل وللى واتخذها مالا ؟ مالا ، أين من تنعم بالعزيز
والفقر وجعلهما حالاً ؟ حالاً ، أين من جمع الأموال بعضها فوق بعض ^(١) ، وتصرف
بشهوته فى طول اللى والقرض ، ونسى الحساب يوم السؤال والقرض ، ولم يبال بمد
تئيل غرضه بضياغ الواجب والقرض ، أما حط عن ظهر قصره إلى بطن الأرض ، خلا
والله بقيبجه وحسنه ، وانقبه فى قبره من وسنه ، فانفقت الإفاقة فى إبان الفاقة ، ولا أفاده
التيقظ وقد انقضى وقت التحفظ ، تبدل بالأترب التراب ، وواجه أليم الحساب
والعتاب ، ونديم على ما خلا فى خلاف الصواب ، وتقطعت به الوصل والأسباب ^(٢) ،
فاعتبروا يا أولى الألباب .

سَلِ الأَجْدَاثَ عَنْ صَوْرِ بَلِينَا وَعَنْ خَلْقِ نَعِيمِ فِصْرِنَ طِينَا
وَعَنْ مَلِكِ تَفَرَّرَ ^(٣) بِالْأَمَانِ وَكَانَ بَطْنُ أَنْ سِيمِيشَ حِينَا
لَقَدْ أَبَتْ الْقُبُورُ عَلَى حَزِينِ أَنَاهَا أَنْ تَفُكْ لَهُ رَهِينَا
هِيَ الدُّنْيَا تَفَرَّقُ كُلَّ جَمْعٍ وَإِنْ [أَلِفَ] ^(٤) الْقَرِينَ بِهَا الْقَرِينَا

السلام على قوله تعالى

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن المذهب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله
ابن أحمد ، حدثني أبى ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرني يونس بن سليم ، قال أُمى على يونس
ابن يزيد الأبلَى عن ابن شهاب ، عن عروة بن الزبير ، عن عبد الرحمن بن عبد القادر ،
قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد
أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة . ثم قرأ علينا « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى
ختم الشعر .

(١) بت : إلى بصر . (٢) ب : والأسباب . (٣) : ت تتم . (٤) سقطت من ت

وأخبرنا أحمد بن عبد الباقي ، أنبأنا أحمد بن أحمد ، أنبأنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله ، أخبرنا محمد بن علي بن مسلم ، حدثنا عثمان بن عمر الضبي ، أخبرنا أبو عمر الضريري ، أخبرنا عدى بن الفضل ، عن سعيد الجريري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَنَى جَنَاتٍ عَدَنَ بِيَدِهِ وَبَنَاهَا لِبَنَةِ** من ذهب ولبنة من فضة ، وجعل يَلَامِلَهَا الْمِسْكَ وَتَرَابَهَا الزَّعْفَرَانُ وَحَصَاهَا اللُّؤْلُؤُ ثُمَّ قَالَ : **تَكَلُّي** . فقالت : **« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ »** .

وقال ابن قتيبة : أصل الفلاح : البقاء فالفلحون الفائزون ببقاء الأبد . وقرا أبي بن كعب وعكرمة بضم الألف واللفي أصيروا إلى الفلاح .

لقد ربح القومُ وأنت نائم ، وخِبتَ ورجعوا بالفنائم ، أنت بالليل راقِدٌ وبالنهار هائم ، وغاية ما تشتمى مشاركة البهائم ، نظروا في عواقب الأمور فقبروا أنفسهم قبل القبور ، وخرجوا من ظلام الشبهة إلى أجلى نور ، فما استفهم فإن ولا أدلهم غرور ، عرضوا على النفوس ذكر العرض فاعترضها القلق ، وصوروا إحراق الصور فأحرقهم الفرق ، وتفكروا في نشر الصعائف فآزجهم الأرق ، وتذكروا محدة المخاوف فسالت الحديق ، أطار خوف النار نومهم ، وأطال ذكر العيش الأكبر صومهم ، وهون فكركم في المتاب نصيبهم ، ونصّبهم على الأقدام ذكرُ القيام وأنصّبهم ، أما الأجساد فالخوف قد أعلمها ، وأما العقول فالخذر قد أذهلها ، وأما القلوب فالفكر قد شغلها ^(١) ، وأما السموع فالإشفاق قد أرسلها ، وأما الأكف فقد كفت عماليس لها ، وأما الأعمال فقد والله قبلها ، حوائجهم الخلوات وبضائعهم الصلوات ، وأرباحهم الجنات ، وأزواجهم الحسرات .

قوله تعالى : **« الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ »** .

(١) ب : قد أشغلها .

أصل الخشوع : الخضوع والتواضع . وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال : أحدها : أنه ترك الالتفات في الصلاة . قاله علي عليه السلام . والثاني : السكون في الصلاة . قاله مجاهد . والثالث : النظر إلى مواضع السجود . قاله قتادة .

عرفوا طريق النجاة فوقفوا على قَدَمِ الأدب في اللتاجاة ، فنال كلُّ منهم مارجاه ، فلمهم عنده أعظم قَدَر وجه .

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ ، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، أنبأنا إسماعيل ابن إسحاق ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا يزيد بن إبراهيم عن عمرو بن دينار ، قال : كان عبد الله بن الزبير يوماً يصلي في الحِجْر مُرَخِّياً يديه ، فوَأَى حَجَرٌ قَذَاف فذهب بطائفة من ثوبه ، فما انفلت من صلاته .

قال محمد بن القاسم : وحدثنا عمرو بن بكر الباقلاني ، قال حدثنا محمد بن إسحاق ، قال سمعت يحيى بن زَمِين يقول : كان للملئ بن منصور الرازي يوماً يصلي فوق على رأسه كُورٌ^(١) الزناير فما التفت وما انفلت حتى أتم صلاته فنظروا فإذا رأسه قد صار هكذا من شدة الانتفاخ .

وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع^(٢) لها أهل السوق فما التفت . وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته ، فإذا قام يصلي تكلموا أو وضعوا علماء منهم^(٣) بأن قلبه مشغول عنهم . وكان يقول : إلى متى ألتاك وأنت عني راضي .

إذا اشتغل اللاهوت عنك بشغلهم جملتُ اشتغالي فيك يا مُتْبِقِي شُغْلِي
فن لي بأن ألتاك في ساعة الرضا ومن لي بأن ألتاك والكلُّ لي مَنْ لِي

أخبرنا أبو بكر الصوفي ، أنبأنا أبو سعيد الحري ، أنبأنا أبو عبد الله من باكوية

(١) الكور : موضع الزناير . (٢) ب : ففزع . وما أتته من ت . (٣) ب : منه معرفة . والتصويب من ت .

الشيرازي ، حدثنا عبد الواحد بن بكر ، حدثني نصر بن أبي نصر ، عن هبة الله بن أحمد البندادي ، قال سمعت أحمد بن سعيد الهارمي يقول : صلى أبو زرعة الرازي في مسجده عشرين سنة بعد قدومه من السفر ، فلما كان يوم من الأيام قدم عليه قوم من أصحاب الحديث ، فنظروا فإذا في محرابه كتابة فقالوا له : كيف تقول في الكتابة في المحراب ؟ فقال : قد كرهه قومٌ عن مضي . فقالوا له : هو ذا في محرابك كتابة ، أما علمت به ؟ فقال : سبحان الله ! رجل يدخل على الله تعالى ويدري ما بين يديه !

أخبرنا المحدثان ابن ناصر وابن عبد الباقي ، قالوا أنبأنا أحمد بن أحمد ، أخبرنا أبو نعيم الحافظ ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي حاتم ، حدثني عفان بن الحسين الرضي ، عن رباح بن أحمد المروزي ، قال مرَّ عصام بن يوسف بجاتم الأسم وهو يتكلم في مجلسه فقال : يا حاتم كيف تصلي ؟ قال حاتم : أقوم بالأمر ، وأمشي بالسكينة ، وأدخل بالنية ، وأكبر بالمظنة ، وأقرأ بالترتيل والتفكير ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأسلمها^(١) بالإخلاص إلى الله تعالى ، وأخاف ألا يُتقبل مني ! فقال : تكلم فأنتم تحسن [أن] تصلي .

يا هذا : بين صلاتك وصلاتهم كما بين وقتك وأوقاتهم .

أخبرنا علي بن عبد الله ، أنبأنا ابن النقور ، أنبأنا ابن مدرك ، حدثنا محمد بن علي الكاتب ، أنبأنا أحمد بن يحيى السومني ، حدثنا داود بن الحمر ، حدثنا ميسرة ، عن الزبيدي ، عن الزهري ، عن عطاء بن يزيد ، عن أبي أيوب الأنصاري ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجلين آتيا جُحَمان إلى المسجد فيصليان فينصرف أحدهما وصلاته أوزن من أحد وينصرف الآخر وما تئمل صلاحه متفلاً ذرة » .

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه وأحمد بن غفر ، قالوا أخبرنا عبد الصمد بن اللأمون ، أنبأنا الدار قطني ، حدثنا عمرو بن محمد بن شعيب ، حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثني

(١) كذا بالأصل . ولها : أسلم .

الوليد بن عطاء ، حدثنا عبد الله بن عبد العزيز ، حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيّب ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مُعَمِّلٍ إِلَّا ومَلَكَ عن يمينه ومَلَكَ عن يساره ، فإن أنما عرجاً بها ، وإن لم يتمها ضرباً بها وجهه .

يا غائب القلب فى صلاته ، يا شتيت الهم فى جهاته ، يا مشغولاً بأفاته عن ذكر وفاته ، يا قليل الزاد مع قُرب ماته ، يا من يرحل عن الدنيا فى كل لحظة مَرَحَلَة ، وكتابه قد حوى حق مقدار خَرَدَلَة ، وما ينفع بِنَذِيرٍ والنذر متصلة ، وما برعى للصيغ وكم قد عدّله ، ودروعه متخرقة والسهام مُرْسَلَة ، ونور الهدى قد يَرى وما رآه ولا تأمله ، وهو يأمل البقاء وقد رأى مصير من أمّله ، وأجلّه قد دنا ولكنّ أمّله قد شغلّه ، وقد انمكف على العيب بمد الشيب بصياغة وَوَلّه ، ويحضر بدنه فى الصلاة فأما القلب فقد أهمله ، كن كيف شئت فبين يديك الحساب والزلزلة ، وأنتم جسدك فلا بد للدود أن يأكله ، يا عجباً من فتور مؤمن بالجزاء^(١) والمسألة ، أيقين بالنجاة أم غرور وبّله ، بأدر ما بقى من العمر واستدرك أوّله ، فبقية عمر المؤمن لا قيمة له .

إخوانى : حسن الأدب فى الصلاة دليل على معرفة المخدم ، والنقصات البدن دليل على إعراض القلب ، وقد وصفت لك أحوال الغاشعين ، فهل أنت منهم أو من التافلين .

سجع على قوله تعالى

﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾

سبحان من قوّمهم وأصلحهم ، وعاملوه باليسر فأريحهم ، واعتذروا من التفسير فسأعهم ، وقد أنشئ عليهم ومدحهم ، أفتعّون « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

(١) ب : عن الجزاء .

اغتم القوم الأيام ، واجتنبوا الخطايا والآثام ، وصمتوا عن ردى الكلام ، وصمتوا عن استماع الحرام ، فكأنهم ما يسمعون « الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

كفوا الأكل عن الفساد ، وهجرت الرهوس الرساد ، وحضر القلب للمناجاة . وانقاد ، وأنتم في سكر الرقاد وهم يركعون ويسجدون « الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

ما أوفى تلك الأجوال ، ما أصفى تلك الخصال ، ما أزكى تلك الأعمال ، جمعوا الموم فأما الأموال فلا^(١) يجمعون « الذين هم في صلاتهم خاشعون »^(٢) .

نقوا بالرياضة وهذبوا ، وابتلوا بفراق المحبوب وجربوا ، وأديروا في فنون التكليف وقبوا ، فإذا بعدتهم يوم الحضور وقروا فلذا تصنعون « الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

ما ضر النفوس ما نكأ فيها حين نكأ فيها ، نفو عنها يوم اللقاء ونما فيها ، وندخلها جنة يروق [فيها]^(٣) صافيا ولم فيها ما يدعون « الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

نزلوا والله المقام الأمين ، وكتبوا في أصحاب اليقين ، ونالوا كل مُثَمِّن ثمين ، وأسكنوا القصور وأعطوا الخور العين ، كلها أباكرا ليس فيها عون^(٤) ، قد عوضوا عن حريق القلق الحقيق ، وأبدلوا عن بريق^(٥) السيوف الأباريق ، وقوبلت رياضتهم بالروض الأنيق ، فهم يرمعون فيما يربعون « الذين هم في صلاتهم خاشعون »^(٦) .

إخواني : توائمت وسير القوم حثيث ، وصفت أعمالهم وفلسم كدر خبيث ، ونصحتكم ولكن قد ضاع الحديث ، وما أراكم تسمعون « الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

[ياربنا وقتنا لما وفقت القوم ، وأيقظنا بامولانا من سِنَّة الغفلة والنوم ، وارزقنا الاستعداد لذلك اليوم الذي يرمح فيه الماملون « الذين هم في صلاتهم خاشعون »^(٧)]

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(١) ت : فا . (٢) من ت . (٣) ليست في ت . (٤) اللون : التيب (٥) ت : ما : من يروق . (٦) من ت . (٧) ما بين التوسين ساقط من ب .

المجلس السابع والعشرون

في قصة^(١) نبينا صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره

الحمد لله قاهر للتعجب ومُذِلّ له ، ورافع للتواضع ومُجَلّ له ، القريب من عبّده فهو أقرب من ظِلّه ، وهو عند النكير لا جُلّه حالّ ذُلّه ، لا يمزب عن سمعه وقع القطر في أضغاث طَلّه ، ولا بُنَام ظُلّي البرّ وكَيْشِ صِلّه^(٢) ، ولا يغيّب عن بصره في الدُّجَى ديبُ نَمَلّه ، رفع من شاء بإعزازه كما حطّ من شاء بذلّه ، اختار محمداً من الخلق فكان الكل^(٣) خلقوا من أجلّه « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .
أحمد على أجلّ الإنعام وأقلّه ، وأشهد بوحدانيته شهادة مصدّق قوله بفعله ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله ليقض الكفر وحقّه ، فقام معجزه ينادي : « فأتوا بسورة من مثله » صلى الله عليه وعلى أبي بكر الصديق واصل حبلّه ، وعلى عمر الذي كان يفرق الشيطان من ظِلّه ، وعلى عثمان مجبّز جيش العسرة وعاهد نَمَلّه ، وعلى عليّ أخيه وابن عمه ومقدّم أهلّه ، وعلى عمه العباس صينو أبيه وأصلّه .

اللهم يا من جميع الخلائق مفتقرون إلى فضله ، يا منما بالجزيل على من ليس من أهله ، سامح كلّ منا في جذّه وهزله ، وارزقنا إقدام شجاع ولى^(٤) المدوّ وجمعه ولم يؤلّه ، وارحنا يوم يذهل كلّ خليل عن خِله ، وانقضي والحاضرين بما اجتمعنا لأجله .

قال الله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى »^(٥) .

اعلموا أن نبينا صلى الله عليه وسلم المصطفى على الخلق كلهم . صان الله أباه^(٦) من زَلّة الزنا .

(١) ت : في فضل نبينا . (٢) البنام : صوت الظبي والكيش ؟ صوت الأفعى من جلدها والصل : الحبة . (٣) ت : فكان الخلق كلهم خلقوا . (٤) ولي المدوّ : قرب منه عند التزال . (٥) سورة الفتح . (٦) ب : صان أباه .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار ، أنبأنا أبو محمد الجوهري ، أخبرنا أبو هرير بن حيوية أنبأنا أحمد بن معروف ، أنبأنا الحارث بن أبي أسامة ، أنبأنا محمد بن سعد ، أنبأنا محمد ابن عمر الأشجعي ، أنبأنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة ، عن عبد المجيد بن سهل ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح » .

قال علماء السير : لما حلت به أمة قالت : ما وجدت له رقلاً .

وكانت ولادته يوم الاثنين ليلتين خلتا من ربيع الأول . وقال بعضهم : لم يشر خلق من .

فلما ظهر خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب .

وتوفى أبوه وهو تحمل ، غفلة له خمسة أجمال وقطعة غم وأمّ أيمن كانت تحضنه .

وماتت أمه وهو ابن ست سنين . وكفله جده عبد المطلب ، ومات وهو ابن ثمان سنين وأوصى به أبا طالب .

وكان يسمى في صغره الأمين .

وكانت آيات النبوة تظهر عليه قبل النبوة ، فكان ^(١) يرى النور والضوء ، ولا يمر بحجر ولا شجر ^(٢) إلا قال السلام عليك يا رسول الله . وقال : « إني لأعترف جبراً بمكة كان يسل على قبل أن أبعث ، إني لأعترفه الآن » ^(٣) . ثم رُميت الشياطين بالشهب لمبته .

فأما نسبه صلى الله عليه وسلم فهو : محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، ابن عبد مناف ، ابن قصي ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ،

(١) ت : وكان . (٢) ت : ولا عجرة إلا قالت . (٣) الحديث في صحيح مسلم رقم ٢٢٧٧

ابن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، ابن إلياس ، ابن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان ، بن أدد ، بن الكهنيص ، بن حمل ، بن النبت ابن قيدار ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم عليه السلام .

واسمه صلى الله عليه وسلم : محمد ، وأحمد ، والهاشر ، والمقفي ، والمالحي ، والهاشم ، والمقاب ، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملاح^(١) ، والشاهد والبشير ، والنذير ، والضحوك والقتال^(٢) ، وللتوكل ، والفاتح ، والأمين ، والمصطفى ، والرسول ، والأُمِّي والقَمِّ .

فالهاشر : الذي يحشر الناس وهو يقدّمهم . والمقفي آخر الأنبياء . وكذلك المقاب . والسلام : الحروب . والضحوك اسمه في التوراة وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان طيب النفس فكها . والقَمِّ من القم وهو الإعطاء ، وكان أجود الناس .

فأما صفته صلى الله عليه وسلم فإنه كان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، أزهر اللون ، أشقر ، أدهج العينين ، أجرد ذو مشربة^(٣) .

وكان أجود الناس وأصدقهم لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة .

أرضعته ثؤينة مولاة أبي لهب أياما ثم قدمت حليلة فأكلت رضاعه .

تزوجته خديجة وله خمس وعشرون سنة ، فأنت منه بزيب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والتاسم والطاهر والطيب . وقيل : ولدت له عبد الله في الإسلام ، فلقب بالطاهر والطيب . ولدت مارية إبراهيم .

وَبُعثَ لأربعين سنة فنزل للآل عليه بحراء يوم الاثنين ل سبع عشرة ليلة خلت من رمضان : وكان إذا نزل عليه كُرب [له]^(٤) وتربّد وجهه وعرق جبينه .

(١) أي الذي يجاهد في سبيل الله . (٢) أي الذي يقتل الكفار الذين يمدون من سبيل الله ، دفاعا عن العقيدة والإيمان . (٣) المشربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن . (٤) من به .

ورُئيت الشياطينُ بعدَ عشرينَ يوماً من ميته .

وبقي ثلاث سنين يستتر بالنبوة ثم نزل عليه : « فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ »^(١)
فأعلن الدعاء^(٢) .

ولقى الشذائد من قومه وهو صابر . وأمر أصحابه أن يخرجوا إلى أرض
الحبشة فخرجوا .

وفي الصحيحين أنه كان يصلي وسلاً^(٣) جزوراً قريباً منه ، فأخذهُ عُقْبَةُ
ابن أبي مُعِيْطٍ فَأَلْقَاهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَمَزَلْ سَاجِداً حَتَّى جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَخَذَتْهُ مِنْ ظَهْرِهِ .
فَقَالَ حِينَئِذٍ : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِاللَّاءِ مِنْ قُرَيْشٍ » .

وفي أفراد البخاري : أن عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعِيْطٍ أَخَذَ يَوْمًا بِمَنْكِبِهِ وَتَوَلَّى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ
فَنَفَثَ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَنَجَّاهُ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَهُ عَنْهُ وَقَالَ : « أَتَقْتُلُونِ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ
رَبِّيَ اللَّهُ ! »

فلما مات أبو طالب وماتت خديجة بعده خرج إلى الطائف ، وعاد إلى مكة ، وكان
في كل موسم يخرج فيعرض نفسه على القبائل ويقول : من يؤوبني ؟ من ينصرني ؟ فلأن
قریشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي !

ثم أُسْرِيَ بِهِ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ عَشْرَةَ مِنَ النَّبُوَّةِ ، وَبَايَعَهُ أَهْلُ الْعُقْبَةِ ، وَتَسَلَّلَ أَصْحَابُهُ
إِلَى الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ خَرَجَ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ إِلَى الْفَارِ فَأَقَامَا فِيهِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ أَمْرَهُمْ عَلَى قُرَيْشٍ .
ثُمَّ دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَتَلَقَّاهُ أَهْلُهَا بِالرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ، فَبَنَى مَسْجِدَهُ وَمَنْزِلَهُ .

وَعَزَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ غَزَاةً ، قَاتِلٌ مِنْهَا فِي تَمَعٍ : بَدْرٌ وَأُحُدٌ وَالرَّيْطِيسُ وَالْخَنْدَقُ
وَقَرْيَظَةُ وَخَيْبَرُ وَالْفَتْحُ وَحُنَيْنٌ وَالطَّائِفُ . وَبِمَتْ سِتًّا وَخَمْسِينَ سَرِيَّةً .



وما زال يَلْطَفُ بِالْخَلْقِ وَيَرْيَهُمُ الْمَجْزَاتِ ، فَانْشَقَّ لَهُ الْقَمَرُ ، وَنَبِعَ الْمَاءُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ،

(١) سورة الحجر . (٢) كذا ولعلها : الدعوة . (٣) السلا : القرث . والجزور : الناقة .

وَحَنَّ إِلَيْهِ الْجَنَّةُ ، وَأَخْبِرَ بِالنَّبِيَّاتِ فَكَانَ كَمَا قَالَ .

وفُضِّلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، فَعَلَى بِهِمْ فِي لَيْلَةِ الْمَرَاجِ ، وَهُوَ التَّقَدُّمُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الشَّفَاعَةِ .

أَنْبِيَاءُ عِيدِ الْأَوَّلِ ، أَنْبِيَاءُ الدَّادِي ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَعْيَنَ ، حَدَّثَنَا الْقُرْبَرِيُّ ، حَدَّثَنَا الْبَغَارِيُّ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ ، أَنْبَاءُ سِيَارٍ عَنْ يَزِيدِ الْقَبِيرِ ، أَنْبَاءُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي نَصِيرَتُ بِالرَّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ ، وَأَحَلَّتْ لِي الْفَنَائِمُ وَلَمْ يَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيَ الشَّفَاعَةُ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِ » .

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ ^(١) .

وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْرُقُ بَابَ الْجَنَّةِ ^(٢) » .

وَفِي أَفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَفْشَقُ عَنْهُ الْقَبِيرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ ^(٣) » .
أَنْبِيَاءُ الْكَرُوشِيِّ ، أَنْبَاءُ أَبِي عَاصِمٍ الْأَزْدِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الْفُورَجِيِّ ، أَنْبَاءُ الْجُرَّاحِيِّ ، حَدَّثَنَا الْحَبِيبِيُّ ، حَدَّثَنَا التِّرْمِذِيُّ ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ يَزِيدِ الْكُوفِيُّ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ حَرْبٍ ، عَنْ لَيْثِ بْنِ الرَّبِيعِ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا ، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَقَدُوا ، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أُبْسُوا ، لَوْ أَنَّ الْحَدَّ يَدِي ، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَأْيٍ وَلَا نَفَرٍ » .

قَالَ ابْنُ الْأَثَبَارِيِّ : أَرَادَ لَا أَتَبَيَّحُ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ ، لَكِنْ أَقُولُهَا شُكْرًا وَمِنْهَا عَلَى إِنْصَافٍ رَأْيِي عَلَى .

(١) صحيح البخاري ٦٢/١ ، وصحيح مسلم حديث ٥٢١ . (٢) صحيح مسلم حديث ١٩٦ .

(٣) صحيح مسلم حديث ٢٢٧٨ .

وفي حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسّعه إلا أن يقيمى ^(١) » .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن اللّذهب ، أنبأنا القطيعي ، حدثنا عبد الله بن أحد ، حدثني أبي ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل ابتقى بيوتا ^(٢) فأحسنها وأكملها وأجملها إلا موضع كنبه من زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون ويُبجّجهم البنيان فيقولون : ألا وضمت لها هنا كنبه فيتم بنيانك ؟ فكنت أنا اللمبة » .

أخرجه في الصحيحين ^(٣) .

وفيها من حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تنطفئ قدماه . قالت . وكان ضجّاعه الذي كان ينام عليه في الليل من آدم محشواً ^(٤) .

وفيها من حديث أبي هريرة قال : ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أياما تباعا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا ^(٥) .

وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفلّ اليومَ يلتوي ما يجد دِقلاً ^(٦) يملأ به بطنه ^(٧) .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، أنبأنا الجوهري ، أنبأنا ابن حيويه ، أنبأنا ابن معروف ، أنبأنا الحارث بن أبي أسامة ، حدثنا عمدين سعد ، أنبأنا هشام بن عبد الملك ، حدثنا أبو هاشم صاحب الزعفران ، عن محمد بن عبد الله ، أن أنس بن مالك حدثه أن فاطمة جاءت بكسرة خبز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذه الكسرة ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة . فقال : أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام .

(١) أخرجه أحمد . (٢) ب : بنيانا . (٣) صحيح البخاري ج ٢ / ٢١٨ وصحيح مسلم حديث ٢٢٨٦ (٤) صحيح البخاري ج ١٠١ / ٤ وصحيح مسلم ص ١٦٥٠ (٥) صحيح البخاري ج ١٠١ / ٤ باختلاف . وصحيح مسلم حديث رقم ٢٩٧٠ (٦) الدقل : الردي من التمر . (٧) صحيح مسلم حديث رقم ٢٩٧٨ ط عبد الباقي .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، عن حميد بن هلال ، عن أبي بردة ، قال : أخرجت إلينا عائشة كساءً مُلبداً وإزاراً غليظاً فقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . أخرجاه في الصحيحين ^(١) .

ما ضره من الدنيا ما فات ، وهو سيد الأحياء والأموات .
وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرًا ^(٢) » .
وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطَّ عنه عشر خطيئات » .
وفي حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لله عز وجل ملائكةً سيّاحين يلقونى من أمقى السلام » .
فالحمد لله الذى جعلنا من أمته وحشرنا الله على كتابه وسنته .

الكلام على البسمة

عجبتُ لحرّ النفس كيف يُضامُ وحرّ يخاف الثَّعبَ وهو ينامُ
وراضٍ بأوساطِ الأمور تقاعداً وفيه إلى غايتهنَّ قيامُ
يُسْمُون عيشاً في الغمُولِ سلامةً وصحةً أيامِ الغمُولِ سقامُ
ويستبدون الرزقَ طالَت به يدُ إذا أَسْمِنَ الأجسام وهو سِمَامُ
جزى الله خيراً عارقاً بزمانه تجاربه قد شين وهو غلامُ
دعِ النَّاسَ فيما أجمعوا بعض واحدٍ فتفصّل مما لا يُعدُّ تمامُ

ألا قرين عزّم يبادر ، ألا خدين حرّم يحاذر ، ألا شريف الهمة يأنف ، ألا متجافٍ
عن الرذائل يتجانف .

(١) صحيح البخارى ٢١/٤ وصحيح مسلم حديث ٢٠٨٠ (٢) صحيح مسلم حديث رقم ٤٠٨ .

إخواني : الدنيا دار قلمة لا حصن قلمة ، فَرَحَهَا يَحُولُ وَتَرَحُّهَا يَطُولُ ، لو حَسَّتْ
فكرة عُنَانِهَا فِي مَقَابِحِ أَخْلَاقِهَا لَرَفَضُوهَا لِمُيُوبِهَا وَهَجَرُوهَا لِدُنُوبِهَا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْظُرُوا
عَيْبَ عَيْبِهَا وَلَمْ يَمْلِكُوا خَضَابَ شَيْبِهَا .

تُبْتُ إِلَى خَالِي أَفَرَّ مِنْ ٱلْ دُنْيَا وَإِنِّي بِهَا لَمُفْتَرٌ
نَضَحْتُ لِي خُدْعَةً لِأَتُبِعَهَا وَهِيَ عَنْ الْمَوْبِقَاتِ تَفْتَرُ
من نَزَلَ بِسَاحَةِ التَّنَاعَةِ ذَاقَ حِلَاوَةَ النَّفْسِ ، مِنْ قَرَعَ بِأَنَامِلِ التَّفَكُّرِ بَابَ الْحُزَنِ
فَتَحَّ لَهُ عَنْ رِيَاضِ الْأُنْسِ ، مِرَاعَاةَ الْأَسْرَارِ مِنْ عِلَامَاتِ التَّيَقُّظِ ، لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحٌ
وَمِفْتَاحُ الْحِكْمَةِ طَرْدُ الْهَوَى .

إخواني : فيكم من يترك ما يهوى لما يأمل ؟

وَحَسَمَ تِسْمَةَ الْأَرْزَاقِ فِينَا وَإِنْ ضَعُفَ الْيَقِينُ مِنَ الْقُلُوبِ
وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ رِزْقًا بَسِيدًا أَتَاهُ الرِّزْقُ مِنْ أَمْرِ قَرِيبٍ
فَاجْعَلْ فِي الطَّلَافِ وَكُنْ رَفِيقًا بِنَفْسِكَ فِي مَعَالِجَةِ الْخَطُوبِ
فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِلَّا مِثْلَ شَيْلُو^(١) تَوَاكَلَهُ النَّوَائِبُ بِالثُّيُوبِ
فَفِرَّ بِإِنِّ النَّفْيَةِ إِنْ تَعَثَّرَ فليس بِفَسَائِدٍ رَحِمَ الشَّيْبِ
قال أبو ذر : لك في المال شركاء ثلاثة : القدر لا يَسْتَأْذِنُكَ أَنْ يَذْهَبَ بِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ
مِنْ هَلَاكِ أَوْ مَوْتٍ ، وَالْوَارِثُ يَنْتَظِرُ أَنْ تَضَعَ رَأْسَكَ ثُمَّ يَسْتَأْذِنُكَ وَأَنْتَ ذَمِيمٌ ، وَأَنْتَ
الثَّالِثُ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَكُونَ أَجْزَاءَ الثَّلَاثَةِ فَلَا تَكُنْ ٱ
قال علي بن عبيدة : لَوْلَا لَهَبٌ مِنَ الْحَرَصِ يَنْشَأُ فِي الْقُلُوبِ لَا يَمْلِكُ الْإِعْتِبَارُ أَطْفَأَ
تَوَقُّدَهُ ، مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا عَوْضٌ مِنْ يَوْمٍ يَضْمَعُ فِيهَا يُمْكِنُ فِيهِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ .

الرَّأْيُ أَخْذُكَ بِالْحَزَامَةِ فِي الَّذِي تَبْنِي فَقَصْرُكَ^(٢) مَيْتَةٌ وَذَهَابُ
غَلَبُ الْفَسَادِ عَلَى الْعُقُولِ فَكُذِّبَتْ صُدُقُ الْأَنَامِ وَصُدُقُ الْكُذَّابِ

(١) الشلو : الجسد . (٢) قصرك : غاييتك .

صَرُّوا الجَاحِمَ السَّيُوفَ عَلَى الَّذِي يَفْنَى وَطَالَ عَنِ الْمَوَى الْإِضْرَابُ
وَقَرَّرْنَا آمَانَنَا فَخَالَهَا مَاءٌ بِمَوْجٍ وَكَلْهَنٍ سَرَابُ

يَا نَاسِيَا مَهْلًا عَنْ قَلِيلٍ حَادِثٍ ، حَادِثٌ قَلْبِكَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ حَادِثٍ ، يَا رَاحِلًا وَهُوَ
يُظَنُّ أَنَّهُ مَقِيمٌ لَا بَيْتَ ، يَا نَائِمًا قَدْ أَرْجَحْتَ الْمَقْلَقَاتُ الْبَوَاعِثُ ، يَا لَاعِبًا وَالْإِيَالَى فِي سِيرِهِ
حَثَاثُ ، يَا سَاهِيًا قَدْ عُلِقْتَ بِهِ بَرَانُ اللَّوْتِ الضَّوَابِثُ ^(١) ، يَا مُعْجِبًا بِزَخَارِفٍ فِي ضَمْنِهَا
الْحَوَادِثُ ، يَا مَقْبَلًا عَلَى سَخَّارٍ مِنَ الْمَوَى نَافِثٍ ، يَا غَمُورًا بِالْمَنَى الْخَمْرُ أُمُّ الْغَلْبَانِثُ ، يَا مَطْلُوبًا
بِالْجِدَّةِ وَفَعْلُهُ فَعْلٌ عَابِثٌ ، يَا حَرِيصًا عَلَى الْمَالِ مَالُهُ حَظٌّ وَارِثٌ ، يَا لَكَ وَالْدُنْيَا فَإِنْ حَلَفْنَا
حَلْفَ حَانِثٍ ، لَا تَسْمَعَنَّ قَوْلَهَا فَالْعَزَمُ عَزْمٌ نَاكِثٌ .

قَدْ أَصْبَحْتَ وَنُفَاتَهَا نُفَاتَهَا وَكَذَلِكَ الدُّنْيَا تَحْيِيْبُ سَعَاتَهَا
كَدَّارَةَ أَحْزَانِهَا ضَرَارَةَ أَشْجَانِهَا مَرَارَةَ سَاعَاتَهَا
فَسَقَى يُنْبِتُهُ مِنْ رُقَادٍ مُهْلِكٍ مِنْ قَدْ أَضُرَّ بِمِيعَةٍ هَجَمَاتُهَا
مِنْ يَنْتَبِطُ بِمِيعَةٍ وَأَمَامَهُ نُوْبٌ تَطِيلُ عَنَاءَهُ فُجَاعَاتُهَا
وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى النَّهْيِ فَذَوَاهِبُ الْيَامِ غَيْرُ مُؤَمِّلٍ رَجَعَاتُهَا
أَوْ مَا تَقِيْقُ مِنَ الْغَرَامِ بَمَارِكٍ مَشْهُورَةٍ مَعَ غَيْرِنَا وَقَاعَاتُهَا

يَا مَنْ عُمرُهُ كَلَّمَآ زَادَ نَقْصُ ، يَا مَنْ يَأْمَنُ لِلْوَتِّ وَكَمْ قَدْ قَنَصَ ، يَا مَائِلًا إِلَى الدُّنْيَا هَلْ
سَلَفَتْ مِنْ نَقْصٍ ، يَا مُفْرَطًا فِي الْوَقْتِ هَلَّا بَادَرْتَ الْقِرْصَ . يَا مَنْ إِذَا ارْتَقَى فِي سُلَّمِ الْمَدَى
قَلَّحَ لَهُ الْمَوَى نَكْصَ ، مِنْ لَكَ يَوْمَ الْحَشْرِ إِذَا نُشِرَتِ الْقِصَصُ ، ذُنُوبُكَ كَثِيرَةٌ بَجَّةٌ ،
وَنَفْسُكَ بِغَيْرِ الصَّلَاحِ مَهْتَمَةٌ ، وَأَنْتَ فِي الْعَاصِي إِمَامٌ وَأُمَّةٌ ، يَا مَنْ إِذَا طُلِبَ فِي اللَّتَقِيْنِ
لَمْ يَوْجَدْ نَمَّةٌ ، يَا مَنْ سِيلَحِقُ فِي مَعْرَعِهِ ، وَإِنْ أَبَاهُ ، أَبَاهُ وَأُمَّهُ ، مَتَى تَنْفُشُ هَذِهِ الظَّلْمَةَ

(١) الضَّوَابِثُ : الْفَوَاحِشُ .

والنِّفَّة ، متى تنشق أكرمته أكرمته ذى كرمه ، يامن قد أعماه الهوى ثم أصبته ، يامن لا يفرق بين اللدبع والذمة ، يامن باع فرحه ثم اشترى نعمة ؟ يا عقلاً خرباً يحتاج إلى مومة .

يا آدمي أتدري ما مُنيتَ به أم دونَ ذهنك سترٌ ليس يتجابهُ
يومٌ ويومٌ وَيَفْنَى العُمرُ منطوياً عامٌ جَدِيبٌ وعامٌ فيه إخصابٌ
غيره :

فلا تفرّقتك الدنيا بزخرفها فازُيها^(١) إن بلاها فاقُلْ صابٌ
والحزمُ يَجْنِي أموراً كلُّها شرفٌ والحرصُ يَجْنِي أموراً كلُّها عابٌ^(٢)

السلام على قومه تعالى

﴿ إِنَّمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ^(٣) ﴾

قال الزجاج : المعنى إذا ذُكرت عظمته وقُدْرته وما خوف به من عصاه فرزعت قلوبهم . يقال : وجِلَ يَوجِلُ ويَجِلُ ويَجَلُّ ويَجِلُّ .

وقال السُّدِّي : هو الرجل يهيم بالمصيبة فيذكر الله فينزع عنها .
كان الحسن يقول : إن لله عبداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ،
ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مَرْضَى .

وكان مُنِيظٌ يقول : أنا هم من الله وعبيد وقدم^(٤) فناموا على خوف وأكلوا
على تنقيص .

وقال سَرِيٌّ^(٥) : أكلهم أكلُ الرضى ونومهم نومُ القَرَقِ^(٦) .

قال أبو طارق : شهدت ثلاثين رجلاً ماتوا في مجالس الذكر يمشون بأرجلهم

(٢) الأرى : الصل . (٢) الباب : الباب . (٣) سورة الأنفال ٢ . (٤) وقدم : أمرهم مرضاً شديداً . (٥) أنفرق : الخائفون . (٦) سري بن النعمان السقطي ، كنيته أبو الحسن ، يقال إنه خال الجند وأستاذهم . صاحب معروفا الكرخي ، وهو أول من تكلم ببنداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، وهو إمام البنداديين وشيخهم في وقته . مات سنة ٢٥١ هـ . طبقات الصوفية ص ٤٨ .

صَحَّاحًا إِلَى الْجُلُوسِ وَأَجَافَهُمْ قَرِيبَةً ، فَإِذَا سَمِعُوا الْوَعظَةَ نَصَدَّتْ قُلُوبُهُمْ فَأَنَوا .
وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الْخُوفُ يَمْنَعُ مِنْ أَكْلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ
فَمَا أَشْتَهِيهِ .

وَقِيلَ : صَلَّى ذُرَّارَةُ بْنُ أَبِي أَوْفَى بِالنَّاسِ فَقَرَأَ « الدُّرَّ » فَلَمَّا بَلَغَ : « فَإِذَا نُقِرَ فِي
النَّافُورِ » خَرَّ مَيِّتًا .

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ التَّمِيمِيُّ يَذْكُرُ وَأَبُو وَائِلٍ يَنْفُضُ انْتِفَاضَ الطَّيْرِ .
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ أَشْبَاطٍ ^(١) : لَمَّا أَتَى ذُو الْقَرْنَيْنِ السَّدَّ قَالَ : ذُوْنِي عَلَى أَعْبَدِ رَجُلٍ
فِيكُمْ . فَقَالُوا : فِي هَذَا الْوَادِي رَجُلٌ يَبْكِي حَتَّى نَبْتَثَ مِنْ دُمُوعِهِ الشَّجَرُ . فَهَبَطَ الْوَادِي
فَأَنَاهُ فَوَجَدَهُ سَاجِدًا وَهُوَ يَقُولُ : إِلَهِي أَقْبِضْ رُوحِي فِي الْأَرْوَاحِ وَادْفِنْ جَسَدِي فِي التُّرَابِ ،
وَأَتْرَكْنِي هَمَلًا لَا تَبْهَتُنِي يَوْمَ الْحِسَابِ .

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ : رَأَيْتُ جُوزِيَّةً تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَتَقُولُ : يَا رَبِّ كَمْ مِنْ شَهْوَةٍ
ذَهَبَتْ لَدُنَّهَا وَبَقِيَتْ تَبْعُهَا يَا رَبِّ مَا كَانَ لَكَ عَقُوبَةٌ إِلَّا بِالنَّارِ ؟
فَمَا زَالَتْ كَذَلِكَ إِلَى الصَّبَاحِ .

يَا عَجَبًا كَيْفَ تَنَامُ عَيْنٌ مَعَ غُخَافَةٍ ، أَمْ كَيْفَ تَلْهَوُ نَفْسٌ مَعَ ذِكْرِ الْحَاسِبَةِ .
كَانَ دَاوُدُ الطَّائِي ^(٢) يَقُولُ : فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ هُمُكُ عَطَلٍ عَلَى الْهَمُومِ ، وَحَالَفَ بَيْنِي
وَبَيْنَ السُّهَادِ ، فَأَنَا فِي سَجْنِكَ أَيْهَا الْكَرِيمِ مُطْلُوبٌ .
وَقِيلَ : كَانَ عُتْبَةُ الْفُلَامِ طَوِيلَ الْبَكَاءِ قَقِيلَ لَهُ : اِرْفُقْ بِنَفْسِكَ . فَقَالَ : إِنَّمَا أَبْكِي
عَلَى تَقْصِيرِي .

(١) يُونُسُ بْنُ أَشْبَاطِ بْنِ الْفَيْهَانِيِّ الرَّاهِدِ الْوَاعِظِ ، يَرُوي عَنْ سَلْمَانَ التَّوْرِيِّ وَغَيْرِهِ ، وَتَقَرَّرَ بِحَدِيثِ بْنِ مَعِينٍ
وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : « كَانَ قَدْ دُفِنَ كَتَبَهُ فَكَانَ لَا يَحْيِي » بِحَدِيثِ كَأَيْبِنِي « مِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ ٢/٣٢٨ ط السَّادَةِ .
(٢) دَاوُدُ بْنُ نَصِيرٍ ، أَبُو سَلْمَانَ الطَّائِي ، كَرُوِي زَاهِدٌ ، شَقِلَ قَسَمُهُ بِالْعِلْمِ وَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ ثُمَّ
تَزَمَدَ وَأَفْرَغَ كَتَبَهُ فِي الْفُرَاتِ . مَاتَ سَنَةَ ١٦٥ هـ . . . تَارِيخُ بَهْدَادِ ١١/٢٢١ .

وقيل لعبد الواحد بن زيد : ما نفهم كلامك من بكاء عتبة فقال : أيبكى عتبة على نفسه وأنها أنا ؟! لبس واعظ قوم .
وكان يزيد بن مرثد دائم البكاء فكانت زوجته تقول : وحي ما خصصت به من طول الحزن ملك ما تقر لي عين .

ما كان يقرأ واشي سطر كتاني لو أن دمي لم ينطق بقباني
مأه ولكنه ذوب المسموم وهل ماء بولده نيران حزاني
ليت النوى إذ سقتني سم أشودها سدت سبيل امرئ في الحب يلحاني
قد قلت بالجزع لما أنكروا جزعي ما أبدت الصبر تمن شوقه داني
عجبنا على الربيع نتسقى له مطراً ففاض دمي فأرواه وأغلياني
لما خفيت المواقب على المتقين فزعو إلى القلق واستراحوا إلى البكاء .

قال مالك بن دينار : وددت أن الله عز وجل أخذني يوم القيامة إذا وقت بين يديه أن أسجد سجدة فأعلم أنه قد رضى عني ثم يقول يا مالك كن تراباً .

قد أوبقني ذنوب لست أحصرها فأجعل نعمتها من بعض إحسانك
وارفق بنفسى إذا الجود إن جهلت مقدار زلتها مقدار غفرانك
أعقل الناس محسن خائف ، وأحق الناس مسيء آمن .
كان بشر الحافي لا ينام الليل ويقول : أخاف أن يأتي أمر الله وأنا نائم .
وكلماتهم بذوق الكرى صاح به المجران قم لا تتم

ذكرت نفوس القوم المذاب فأنت ، وتفكرت في شدة المتاب فأنت ، تذكرت ما جنت مما نجت فنجت ، أزجها الحذر ولولا الرجاء ما اطلأنت . آه نفس ضلت بما بلوه ، ثم رجت ما نالوه ، بش ما ظلت ، ما نفس سابقت كنفس تأنت .

طربت لذكرى منك هزّت جوانحي كما يطرب النشوان^(١) كأس مُدام
وما ذكرتك النفس إلا أصابها كلدع^(٢) ضرام أو كوخز سهام
وإن حديثاً منك أحلى مذاقه من الشهد بمزجاً بماء غمام

كيف لا يخاف من قلبه بيد القلب ، من ظن أن عَمَّ يُسَلِّم ، من ظن أن برصيصا^(٣)
يَكْفُر ، رب غرس من النى أثمر ، وكَم من مستحصد تلف ، كَرَّةُ القلب بحكم صولجان
التقليب ، إن وقت الكرة طردت وإن بددت طلبت ، ليَبين سرّ لو وُزن خوف المؤمن
ورجاؤه لا اعتدلا ، نادى نادى البعد ألا « تَقْنَطُوا »^(٤) ويقال للمذنبين « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ
نَفْسَهُ »^(٥) لما قَرَّب جبريل وميكائيل اهتزت لللائكة نفراً بقرب جنسها من جناب
العرزة ، ففُطِع من أغصانها شجرة هاروت ، وكُسِر عُصْنُ ماروت ، وأُخِذ من لُبها كَرَّة
« وَإِنْ عَلَيْكَ أَمْنٌ »^(٦) فتزودت في سفر العبودية زادة الحذر ، وقادت في سبيل
معروفها نَجْب التطوُّع للمتطعين « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ » .

نودي من نادى الإفضال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »^(٨) فسارت نجائب
الأعمال إلى باب الجزاء ، فصيح بالدايل : « وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَغَاكَ »^(٩) فقال : « ما منكم
من يَبْتَغِيه جملة » .^(١٠)



رحم الله أعظماً طالما نصبت وانتصبت ، جن عليها الليل فلما تمسكن وثبت وثبت ، إن
ذكرت عدله ذهب وهربت ، وإن تصوّرت فضله فرحت وطربت ، اعترفت إذ نبتت
عن طاعته أنها قد أذنبت ، وقفت شاكرة لمن لهما على جوده نبتت ، هبت على أرض

(١) ت : كما يطرب الكران . (٢) ت كلدع . (٣) كذا بالأصل
(٤) يشير إلى الآية الكريمة : « قل يا عبادي الذين أسرّوا عسى أنفهم لا تقنطوا من رحمة الله »
سورة الزمر . (٥) سورة آل عمران ٣٠ . (٦) سورة نوح ٧٨ . (٧) سورة الشورى ٤٢ .
(٨) سورة الأنعام ١٦٠ . (٩) سورة الإسراء ٧٤ . (١٠) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري
في صحيحه : « لن يدخل أحد منكم عمله الجنة » .

القلوب عقيمُ الحذر فاقشعرت وندبت ، فبكت عليها سحائب الرجا فاهتزت وربت .
 بحسبك أن قوماً موفى تحميا بذكرهم النفوس ، وأن قوماً أحياء تقسو برؤيتهم القلوب !
 رحل القومُ وبقيت الآثار في الآثار ، سألوا طلول التبعيد عنهم فقالت خلت الديار ^(١) .
 إذا دُمعي شكا البينَ بينَها شكا غيرُ ذي نُطقٍ إلى غير ذي فهمٍ
 جال الفسكُ في قلوبهم فلاح صوابهم ، وذكروا التوفيق فجاء التذكر إعجابهم ،
 وما دوا بالخافة فأصبحت دموعهم شرابهم ، وترنوا بالقرآن فأسى يزهرهم وربابهم ،
 وكَلِنُوا بطاعة الإله فآلِفُوا محرابهم ، وخدموه مبتذلين في خدمته شبابهم ، فيا حسرتهم
 وريحُ الأسفار قد حرَّكت أثوابهم ، وحات قصيص القصص ثم ردت جوابهم .
 نسيم الصبا إن زرت ^(٢) أرضَ أحبي نُفصم عني بكلِّ سلامٍ
 وبلثهم أنى رهين صباية وأن غرامي فوق كلِّ غرامٍ
 وإني ليكفيني طروق خيالم لو أن جفوني مُتعت بتنامٍ
 ولست أبالي بالجنان وباللظى إذا كان في تلك الديار مُقايٍ
 وقد صُممت عن لذات دهرى كلها ويومُ لقاكم ذاك فطرُ صيايٍ

لا يطمعن البطال في منازل الأبطال ، إن لغة الراحة لا تنال بالراحة ، من زرع حصد
 ومن جد وجد .

وكيف يُنال المجد والجسمُ وادعُ وكيف يجاء الخلد والوقر ^(٣) وانفرُ
 أى مطلوب نيل من غير مشقة ، وأى مرغوب لم تبعد على طالبة الشقة ، لئلا
 لا يحصل إلا بالنصب ، واللم لا يدرك إلا بالنصب ، واسم الجواد لا يناله بخيل ، وقلب
 الشجاع [لا يحصل إلا ^(٤)] بعد نصب طويل .

لا يدرك المجد إلا سيد قطن لما يشق على السادات فقالُ

(١) الباردة معرفة في ب والتصويب من ت . (٢) ت : إن جزت . (٣) الوفر : اللال .

(٤) من ت .

أَمْضَى لِلْقَرِيبَيْنِ فِي أَقْرَانِهِ ظَبَّةٌ وَالْبَيْضُ هَادِيَةٌ وَالشَّرُّ ضَلَالٌ^(١)
 يَرِيكَ تَحْيِيرَهُ أَضْمَافَ مَنَظَرِهِ بَيْنَ الرِّجَالِ فَفِيهَا الْمَاءُ وَالْأَلْ^(٢)
 لَوْلَا لِلشَّقَةِ سَادَ النَّاسِ كُلُّهُمْ الْجَوْدُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَقَالٌ
 وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ طَاقَتَهُ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالٌ
 إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرَكْنَا الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجَالٌ
 ذَكَرَ الْبَقَى عُمرَهُ الثَّانِي وَحَاجَتَهُ مَا قَاتَهُ وَفُضِّلَ الْعَيْشُ أَشْغَالٌ^(٣)

سبحان من أيقظ المتقين وخلع عليهم خلع اليقين ، وألحقهم بتوفيقه بالسابقين ،
 فباتوا في جلباب الجدة متسابقين .

سمع على قوله تعالى

« وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ »

كلما أذهب الأعمارَ طلوغهم وغروبهم ، سالت من الأجفان جزعاً غروبهم ،
 وكلما لاحت لهم في مرآة الفكر ذنوبهم تحافت عن المضاجع خوفاً جنوبهم ،
 وكلما نظروا فناءهم مكتوبهم « وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ » .
 دموعهم على الدوام تجرى ، وعِزِّي : لأَرْبِحُنْهُمْ فِي مَعَامِلِي وَتَجَرِّي^(١) ، عَظُمَتْ
 قُدْرَتِي فِي صُدُورِهِمْ وَقُدْرَتِي ، فَاسْتَعَاذُوا بِوَصْلِي مِنْ تَجَرِّي ، عَامَلُوا مَعَامِلَةً مِنْ يَفْهِمْ وَيَدْرِي ،
 فَنُومُهُمْ عَلَى فِرَاشِ الْقَلْبِ وَهَوِيَّهُمْ « إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ » .
 أَمْوَاتٌ عَنِ الدُّنْيَا مَا دُفِنُوا ، أَعْمَضُوا عَنْهَا عِيُونُهُمْ وَحَزَنُوا ، وَلَوْ فَتَحُوا أَجْفَانَهُ
 الشَّرُّ لَفَتَنُوا ، بَاعُوهَا بِمَا يَبْقَى فَلَا وَاللَّهِ مَا غَيَّبُوا ، نَالَهُ لَقَدْ حَصَلَ مَطْلُوبُهُمْ « إِذَا ذَكَرَ
 اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ » .

(١) الظببة : حد السيف . والبيض : السيوف . والسم : الرماح . (٢) الأبيات لأبي الطيب
 الطائي ديوانه من ٥٠٤ ، ٥٠٥ (ط الدكتور هزاع) . (٣) الآل : السراب .
 (٤) ب : لأَرْبِحُنْ فِي مَعَامِلِي تَجَرِّي . والتجر : التجارة .

حبسوا النفوسَ في سجن المحاسبة ، وبَسَطُوا عليها ألسُن الماتبة ، ومدوا نحوها
أَكْفَ للماتبة ، وتحقَّق لمن بين يديه المناقشة والمطالبة ، فارتفعت بالماتبة عيوبهم
« إذا ذَكَرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبهم » .

شاهدوا الأخرى باليقين كَرَأَى الْعَيْنُ ، فبَسَّعُوا العقار وأخرجوا الْعَيْنُ ، وعلَّهوا
بمقتضى الدِّين أن التَّقَى دَيْنٌ ، فدنياهم خراب وأخراهم على الزَّيْنِ ، قد قنعوا بكسرتين
وجرعتين ، هذا ما كورلهم وهذا مشروبهم « إذا ذَكَرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبهم » .
والحمد لله وحده .

الجلس الثامن والعشرون

في فضل أبي بكر الصديق رضى الله عنه

الحمد لله الذى أحكم بحكمته مآطير وبنى وقرب من خلقه برحمته ودنا ، ورضى الشكر من برّيته لنعمته ثمنا ، وأمرنا بخدمته لا لحاجته بل لنا ، يفرغ الخطايا لمن أسأ وجنا ، ويُجزل العطايا لمن كان محسنا ، يبين لقاصديه سبيلا وسُننا ، ووهب لعابديه جزيلا يُقتنى ، وأتاب حامديه الذمما يُحتفى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا ^(١) » .

أحمد مُمِرًا للحمد ومُتلنا ، وأصلى على رسوله محمد أشرف من تردد بين جمع ومي ، وعلى صاحبه أبى بكر المتخلل بالمبا راضيا بالغا ، وهو الذى أراد بقوله تعالى وعنى « ثانی اثنین إذ هما فى النارِ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ^(٢) » وعلى عمر الجدل فى حارة الإسلام فإوتى ، وعلى عثمان الراضى بالقدر وقد دخل ^(٣) بالفناء الفنا ، وعلى حلى الذى إذا بالفنا فى مدحه فالنخر لنا ، وعلى عمه العباس الذى أسس الله قاعدة الخلافة لبنى وبنى .

قال الله تعالى : « إَلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ » إَلَّا تَنْصُرُوهُ بِالتَّغْيِيرِ معه « فقد نَصَرَهُ اللَّهُ » أى أعانه على أعدائه « إِذَا خَرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى اضطروه إلى الخروج بقصدٍ مإهلاكه « ثانی اثنین » قال الزجاج : المعنى فقد نصره الله أحد اثنین ، أى نصره منفردا إلا من أبى بكر . وهذا معنى قول الشعبي : غاب الله أهل الأرض جميعا فى هذه الآية غير أبى بكر .

فأما النار فهو النَّقَب فى الجبل . وهذا النار فى جبل ثور بمكة ، وكان المشركون يُؤذون المسلمين ، فتجهز أبو بكر رضى الله عنه ليلحق بالمدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رِسْلكَ فإنى أرجو أن يؤذَن لى .

(١) سورة الروم . (٢) سورة التوبة ٤٠ . (٣) الأصل : وقد خل . محررة .

ثم خرجا إلى النار فجعل أبو بكر يشق ثوبه ويسد الأثقاب ، فبقى ثوب فسد به بقيه .
فكنا ثلاث ليال في النار ، فخرجت قريش تطلب الآثار ، فلما سمروا بالنار رأوا
نسج المنكبوت فقالوا : لو دخل هاهنا لم يكن نسج المنكبوت على الباب . وقال أنس
ابن مالك رضي الله عنه : أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه رسول الله صلى الله عليه
وسلم فسقرته ، وأمر المنكبوت ففسدت وأمر حامتين وحشيتين فوقتنا على فم النار .
وقال مقاتل : جاء القائف فنظر إلى الأقدام فقال : هنا قدم ابن أبي قحافة والأخرى
لا أعرفها ، إلا أنها تشبه القدم التي في اللقام .

« إذ يقول لصاحبه » يعني بالصاحب أبا بكر بلا خلاف .
أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن للذهب ، أنبأنا القطيعي ، حدثنا عبد الله بن أحمد ،
حدثني أبي ، حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا ثابت ، عن أنس رضي الله عنه أن أبا
بكر رضي الله عنه حدثه قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في النار : لو أن أحدهم
نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . فقال : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .
أخرجاه في الصحيحين ^(١) .

أنا مولاي إمام ضحك من ثناء فضله آى الزمر
صدق المرسل إيماناً به ولما في الله من كان كفر
ثم بالنار له منقبة خصه الله بها دون البشر
ثاني اثنين وقول المصطفى معنا الله فلا تبيد الحذر

قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » والسكينة السكون والطمأنينة . وفي « عليه »
قولان : أحدهما أنها ترجع إلى أبي بكر قاله علي بن أبي طالب وابن عباس . والثاني :
أنها في معنى تنبية ، فالتقدير عليهما كقوله : « والله ورسوله أحق أن يرضوه ^(٢) »
ذكره ابن الأباري . « وأيده » يعني النبي صلى الله عليه وسلم وإنما قالوا ذلك لأن كل

حرف بُرْدَ إِلَى اللاحق به ، فلما كان الانزعاج لأبي بكر وحده حَسُنَ رد هاء السكينة عليه ، ولما كان التأييد بالجنود لا يصلح إلا للرسول رُدَّتْ هاء «أَيده» عليه . ومثله قوله تعالى : « اتَّقُوا اللَّهَ يَا اللَّهُ رُسُلَهُ وَتَمَزُّوهُ وَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ » .
قال العلماء : بمث الله ملائكة صرفت وجوه الكفار عنهما .



واعلم أن أبا بكر معروف الفضل في الجاهلية والإسلام .
ولد بمَنَى . واسمه عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة
ابن كعب ، وعند مُرَّة يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في التسب .
وأمه أم الخير سلى بنت صخر ، أسلمت .

وكانت إليه في الجاهلية الأسبق وهي الدِّيَّات ، وللنَّرم ، وكان إذا احتمل شيئا
فسأل فيه قريشاً صدَّقوه وأَمْضَوْا حَالَةً من نهض معه ، وإن احتملها غيره خذلوه .
ولما جاء الإسلام كان أولَ من أسلم ، ولقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم عَتِيقًا
لحسن وجهه ، وقال : يكون بعدى اثنا عشر خليفة ، أبو بكر لا يلبث إلا قليلا .

وكان على بن أبي طالب رضى الله عنه يحلف بالله أن الله عز وجل أنزل اسم أبي بكر
من السماء « الصَّدِّيق » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرَى به لجبريل : إن
قوى لا يصدقونى فقال له جبريل : يصدقك أبو بكر وهو الصَّدِّيق .

وهو أول من خاصم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
روت أسماء بنت أبي بكر قالت : أتى الصريحُ أبا بكر فقبل له : أدرك صاحبك .
فخرج من عندنا وإن له غداً فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول
ربى الله ؟ فلهووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبي بكر فرجع إلينا فجعل
لايمس شيئاً من غداثه إلا جاء معه وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

وفى الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

«إِنَّ أَمَّنَ النَّاسَ عَلَى» فِي صِحْبَتِهِ وَمَالَهُ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَخَذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَا تَخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ أَخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمُودَتِهِ ، لَا يَبْقَى فِي السَّجْدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ ^(١) .»

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَا أَحَدٌ عِنْدَنَا يَدُ إِلَّا وَقَدْ كَافَأَنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ ، فَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا يَدٌ يَكَاثُهُ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَا نَفَعَنِي مَالٌ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ .» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ : فَهَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِ ، أَنْبَأَنَا أَبُو طَالِبٍ الشَّكَّارِيُّ ، أَنْبَأَنَا عَلِيُّ بْنُ عَمْرِو الْحَافِظُ ، حَدَّثَنَا الْبَغَوِيُّ ، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ بَقِيَّةٍ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَفْيَانَ الْوَاسِطِيُّ ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ ، عَنْ عَطَاءٍ ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْسَى أَمَامَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ : يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَمْسَى أَمَامَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالرُّسُلِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْأَوَّلِ ، أَخْبَرَنَا الدَّوْدِيُّ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ أُعَيْنٍ ، أَخْبَرَنَا الْقُرْبَرِيُّ ، حَدَّثَنَا الْبُخَارِيُّ ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ ، حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ خَالِدٍ ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَاقِدٍ ، عَنْ بَشْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنْ عَائِدِ اللَّهِ أَبِي إِدْرِيسٍ ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رِكْبَتَيْهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ . فَسَلَّمَ وَقَالَ : إِنِّي كَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ . فَقَالَ : يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثًا . ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَدِمَ فَأَتَانِي مِنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ : أَتَمَّ أَبُو بَكْرٍ ؟ قَالُوا : لَا . فَأَتَانِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَمِلَ وَجْهَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَعَّرُ ^(١) حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَنَجَّأَ عَلَى رِكْبَتَيْهِ : وَقَالَ

(١) صحيح البخاري ٢٠٦/٢ وصحيح مسلم حديث ٢٣٨٢ (٢) يصر : يصر من التضرع.

يا رسول الله أنا كنت أعلم مرتين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت وواسى بنفسه وماله . « فهل أنتم تاركوا لى صاحبي » مرتين . فما أودى بعدها ^(١) .

وقد انفرد أبو بكر رضي الله عنه بأن أفتى في حَضْرَةِ النبي صلى الله عليه وسلم وقَدَّمَهُ في الصلاة ، ونص عليه نصًّا خَفِيًّا بإقامته مكانه في الصلاة .

أخبرنا عبد الأول ، أنبأنا الداودى ، أنبأنا ابن أعين ، أنبأنا الفريرى ، حدثنا البخارى ، حدثنا الحُمَيْدِى ، حدثنا إبراهيم بن سعيد ، عن أبيه ، عن أبيه ، عن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعَم ، عن أبيه ، قال أنت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه . فقالت : أرايت إن جئتُ ولم أجِدْكَ . كأنها تقول : الموت . قال : فإن لم تجدني فأنى أبا بكر .

أخرجاه في الصحيحين .

وفي الصحيحين أنه عليه السلام قال لعائشة رضي الله عنها : « ادعى لى أباك وأخاك حتى أكتب لأبى بكر كتابا ، فإنى أخاف أن يقول قائل ويشتمى مُتَمَنِّى ، ويأتى الله والؤمنون إلا أبا بكر » ^(٢) .

واعلم أن خِلَالَ أبى بكر رضي الله عنه معلومة ، من الورع والخوف والزهد والبكاء والتواضع ، وأنه لما استُخْلِفَ أصبح غادياً إلى السوق ، وكان يحلب الحى أغنامهم قبل الخلافة ، فلما بويع قالت جارية من الحى : الآن لا يحلب لنا . فقال : بلى لآحلبنا لكم ، وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلتُ فيه .

وجميع الصحابة رضي الله عنهم اعترفوا ^(٣) بفضله .

(١) صحيح البخارى ٢٠٦/٢ (٢) صحيح البخارى ٢٠٦/٢ ، وصحيح مسلم حديث ٢٣٨٦

(٣) صحيح البخارى ، وصحيح مسلم حديث ٢٣٨٧ .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا أبو طالب ابن غيلان ، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي ، أنبأنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، أنبأنا خالد بن خراش ، أخبرنا حماد بن زيد ، عن يحيى بن عتيق ، عن الحسن بن أبي الحسين ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ودِدْتُ أَنِّي فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ أَرَى أَبَا بَكْرٍ .

يَا أَيُّهَا الرَّاغِبُ لَا تَسْمَعْ مَدْحَ أَبِي بَكْرٍ مِنْ فِيهِ ، اسْمَعْ ، قَوْلَ ، ^(١) عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ .

أنبأنا عبد الأول ، أنبأنا الداودي ، أنبأنا ابن أعين ، حدثنا القزويني ، حدثنا البخاري ، حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان ، عن جامع بن أبي راشد ، حدثنا أبو كيث ، عن محمد بن الحنفية ، قال : قلت لأبي : أَى النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قال : أبو بكر . قلت : ثم من ؟ قال : ثم عمر . قال : وخشيت أن أقول ثم من ؟ فيقول : عثمان : فقلت : ثم أنت . فقال ما أنا إلا رجل من المسلمين .
انفرد بإخراجه البخاري ^(٢) .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز ، أنبأنا أبو الحسين بن الهيثمي ، أنبأنا القاسم بن حباب ، حدثنا أبو علي إسماعيل بن المباس الوراق ، عن أحمد بن منصور بن زاج ، حدثني أحمد بن محمد ، حدثني عمر بن إبراهيم بن خالد القرشي ، عن عبد الملك بن حمير ، عن أسيد بن صفوان ، قال : لما قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسُجِّيَ عَلَيْهِ أَرْتَجَمَ لِلدِّينَةِ بِالْبُكَاءِ كَيَوْمِ قُبُضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : لِمَاءٍ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَسْتَجْلًا مُسْرَعًا مُسْتَجْعًا وَهُوَ يَقُولُ : الْيَوْمَ انْقَطَعَتِ النَّبُوءَةُ ، حَقٌّ وَقَفَ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا بَكْرٍ ، كُنْتَ إِذَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْبِيَاةَ وَنُسْرَاحِهِ وَثَقَتِ وَمَوْضِعُ سِرِّهِ وَمَشَاوَرَتِهِ ، وَكُنْتَ أَوَّلَ الْقَوْمِ إِسْلَامًا وَأَخْلَصَهُمْ إِيمَانًا وَأَشَدَّهُمْ [لِللَّهِ] ^(١) يَقِينًا ، وَأَخْوَفَهُمْ لِلَّهِ وَأَعْظَمَهُمْ غِنَاءً فِي دِينٍ .

(١) ليست في ت . (٢) صحيح البخاري ٢/٢٣٥ .

الله عز وجل ، وأخوطلهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ بهم على الإسلام ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وسمتاً ، وأشرفهم منزلة وأرفعهم عنده وأكرمهم عليه ، فجزاك الله عن رسوله وعن الإسلام أفضل الجزاء .

صدقت رسول الله حين كذبه الناس وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، سمك الله في تنزيله صديقاً فقال : «والذي جاء بالصدق وصدق به» وآسيته حين ينزلوا ، وقت معه على الكآرة حين قعدوا ، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة ، ثاني اثنين صاحبه في الفار ، وللنزل عليه السكينة ، ورقيقه في الهجرة ، وخلفته في دين الله وأمته أحسن الخلافة حين ارتدوا .

فكنت بالأمر ما لم يتم به خليفة نبي ، نهضت حين ومن أصحابه ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، ولزمت منهاج رسوله إذ وهنوا ، كنت خليفة حقاً لن تنازع ولن تضارع ، برغم للنافقين وكبت للحاسدين ، قت بالأمر حين فشلوا فانبعوك فهدوا ، وكنت أخفضهم صوتاً وأعلام فوقاً ، وأقلهم كلاماً وأصدقهم منطقاً وأطولهم صمتاً^(١) وأبلغهم قولاً وأكرمهم رأياً ، وأشجعهم نفساً ، وأشرفهم حملاً . كنت والله للدين بمسوا^(٢) ، أولاً حين نفر عنه الناس وآخرأ حين أقبلوا .

كنت للمؤمنين أباً رحياً ، صاروا عليك عيالاً ، حملت أقال ما عنه ضعفوا ، ورعيت ما أمسوا وعليت ما جهلوا ، وشمرت إذ ظلموا^(٣) ، وصبرت إذ جزعوا وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا برأيك رُشدُم فظفروا ، ونالوا برأيك ما لم يحسبوا^(٤) .

كنت على الكافرين عذاباً صيباً ولهباً ، وللمؤمنين رجة وأنساً وحصناً ، طرت والله

(١) ب : صوتاً . حمزة . والتصويب من ت . (٢) البصوب : أمير النحل .

(٣) ظفروا : ضعفوا . (٤) ت : ما لم يحسبوا .

بعنائها وفزت محباتها ، وذهبت بفضائلها وأدركت سوابقها لم تنقل حجتك ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ولم يزغ قلبك ، فذلك كنت كالجبال لا تمركها العواصف ولا تزيلها القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمن الناس عليه في صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفا في بدتك قويا في أمر الله تعالى ، متواضعا في نفسك عظيما عند الله تعالى ، جليلا في أعين الناس كبيرا في أنفسهم ، لم يكن لأحدهم فيك مَنَمَز ولا لقائل فيك مَهْمَز ولا مخلوق عندك هَوَادَة ، الضميفُ الدليل عندك قوياً عزيز حتى تأخذ بحقه ، القريب والبعيد عندك في ذلك سواء ، وأقربُ الناس عندك أطولهم لله عز وجل وأتقاهم ، شأنك الحق والصدق والرفق ، قولك حُكْمٌ وحُكْمٌ ، وأمرُك حِلْمٌ وحزم ورأيك علم وعَزْمٌ ، اعتدل بك الدين وقوى بك الإيمان وظهر أمرُ الله فسبقت والله سبقا بعيدا وأتعبت من بعدك إقاما شديدا ، وفزت بالخير فوزاً ميبداً .

فجَلَّتْ عن البكاء وعظمت رزيتُك في السماء وهدأت مصيبتك الأنام ، فإن الله وإنما إليه راجعون . رضيتم عن الله عز وجل قضاءه وسلمنا له أمره . والله لن يصاب للمسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبداً ، كنت للدين عزاً وحرزا وكهفاً . فأخلفك الله عز وجل بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم ولا حرمتنا أجرك ولا أضلنا بعدك .

فسكت الناس حتى قضى كلامه ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا : صدقت يا نعتن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أُنْفِقْ لِلَّهِ قَبْلَ إِنْتَاقِكَ الْعَمَّةِ رَفِيقِي الدَّهْرِ رَيْبُهُ وَمَتُونُهُ
قَلْبًا يَنْفَعُ الزَّاهِ بِخَيْلًا غَلِقَتْ فِي الثَّرَى الْمِيلِ رُهُونُهُ^(١)

(١) غَلِقَتْ رُهُونُهُ : اسْتَعْقَبَهَا الرِّهْنُ .

لَوْ نَجَا مِنْ حَكَمِهِ جَاعِلٌ ^(١) لَّا لَّ مَعَاذًا لَهُ نَجَا قَارُونُهُ
خَازِنُو الْمَالِ سَاجِنُوهُ وَمَا كَانَ يَسَى لِسَاجِنٍ ^(٢) مَجُونُهُ
لَمَّا طَبَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَشْرَفِ الْأَخْلَاقِ كَانَ مِنْهَا الْكَرَمُ ، فَأَعْطَى
غَدَمًا بَيْنَ جِبَلَيْنِ ، فَلَمَّا سَارَ فِي قِيَافِ الْجُودِ تَبِعَهُ صَدِيقُهُ نَجَّاهُ بِكُلِّ مَالِهِ فَقَالَ : مَا أَبْقَيْتَ ؟
قَالَ أَبْقَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .

سَبَقَ النَّاسَ إِلَيْهَا صَفْقَةً لَمْ يَمُدَّ رَأْدُهَا عَنْهَا بَقْبَنَ
هَزَّةً لِلْجُودِ صَارَتْ نَشْوَةً لَمْ يَكْدُرْ عَنْدهَا الْعُرْفُ ^(٣) بَيْنَ
طَلَبُوا الشَّاءَ فَوَافَى سَابِقًا جَرَّعُ غَبَّرَ فِي وَجْهِ اللَّشَنِ ^(٤)

جَازَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عَلَى بِلَالٍ وَهُوَ يَمْدُبُ فُجَذَبَ مِفْطَاطِيسُ صَبْرٍ بِلَالٍ
حَدِيدَ صِدْقِ الصُّدُوقِ ، وَلَمْ يَبْرَحْ حَتَّى اشْتَرَاهُ وَكَسَرَ قَفَصَ حَبْسِهِ ، فَكَانَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ يَقُولُ : أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ بِلَالًا سَيِّدَنَا .

تَعَبَ فِي اللَّكَّاسِ فَهَلَاهَا حَلَالًا ، ثُمَّ أَنْفَقَهَا حَتَّى جَمَلَ فِي الْكِسَاءِ خِلَالًا ، قَالَ
لَهُ الرَّسُولُ أَتَسْلِمُ فَكَانَ الْجَوَابُ نَمَّ بِلَالًا : لَا ، وَلَوْلَمْ يَفْعَلْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنَّهُ أَعْتَقَ بِلَالًا ،
أَبُو بَكْرٍ حَبِيبًا ^(٥) فِي اللَّهِ مَالًا وَأَعْتَقَ فِي حُبِّهِ بِلَالًا
وَقَدْ وَاسَى النَّبِيُّ بِكُلِّ فَضْلٍ وَأَسْرَعَ فِي إِبَاجِهِ بِلَالًا : لَا
لَوْ أَنَّ الْبَعْرَ يَقْصِدُهُ بِيَمَضٍ لَّا تَرَكَ الْإِلَهِ بِهِ بِلَالًا ^(٦)

كَانَتْ فَضَائِلُهُ الْبَاطِلَةُ مُسْتَوْرَةً بِقَبَابِ « مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِصُومٍ وَلَا صَلَاةٍ ،
وَلَكِنْ بَشَى » وَقَرَأَ فِي صَدْرِهِ « فَهِيَ بِجَانِسَةٍ لِمَنْقِبَةٍ : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » ^(٧) .
إِنْ كَانَ حُبُّ عَتِيقٍ عَقْدَ النَّوَاصِبِ فَإِنَّمَا نَصِي نَاصِي مِنْ تَسْلٍ نَاصِي ^(٨)

(١) الْأَصْلُ : جَاعِلٌ . عَرَفَةٌ . (٢) الْأَصْلُ : سَاجِنٌ . (٣) الْعُرْفُ : الْمُرُوفُ .
(٤) كَذَا بِالْأَصْلِ : وَالْمَجْرَعُ . الْجَمْعُ . وَالْمَشْنُ : حَلَبٌ مَالِي الْفُرْعِ . (٥) حَبَا : أَعْطَى .
(٦) الْبِلَالُ : التَّدْوَةُ . (٧) سُورَةُ النَّجْمِ ١٠ . (٨) النَّوَاصِبُ : مَنْ يُفْضَلُونَ أَبَا بَكْرٍ ،
وَكَانَ الشَّيْءُ يَرْمِيهِمْ بِبُضْ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

من كانت خير رفيقٍ بخير صاحبٍ كهنا له ومعيها على الثوابِ
له الأمانة بالنص غير غاصبٍ أنشبه سيرا بنسج العناكبِ
وللكينة فيه أهل للثاقبِ مناقبٌ من كالأنيام الثوابِ
جمع يوم الردة شمل الإسلام بعد أن نقى غراب البين ، وجهر عساكر العزم فرمت
على أحسن دَينٍ ، وصاح لسان جده فارتاع من بين الصّفين ، فقال : أقاتلهم ولو بانفتى
هاتين .

عاد به روض القلبي منصرفاً من بعد ما كان القلبي قد ضمحل
سائل به يوم بني حنيفة والبيض في بيض الروس تنفضل
وليس إلا السيف قاضي في الوغى ولا رسول غير أطراف الأسل^(١)
كم خلل رمّ ولولا عزّمه مارم في الإسلام هذاك الخلل
وكم له من نائل يسير ما بين الأنعام ذكره سير متسل
كينة الله عليه أزلت وفضله في سورة الفتح نزل
أقسم بالله يميناً صادقة لو فاضل الأملاك بالصدق فضل

من نهض كنهضته يوم الردة ، ومن عانى من القوم تلك الشدة ، وأى إقدام بشبه
تلك الحدة ، كانت آراؤه من التوفيق مستمدة .

لم يَسْخَوْا بِزِمَامِ أَمْرِهِمْ لَهُ حَتَّى رَأَوْهُ لِكُلِّ خَيْرٍ جَامِعاً
لَمْ يَرْهَبُوهُ وَلَا اتَّقَوْهُ خَافَةً جَيْشاً أَطْلَ وَلَا حُسَاماً قَاطِعاً
كَلّاً وَلَا خَافُوا بِوَائِقِ بَأْسِهِ إِنْ خَافُوهُ وَلَا رَأَوْهُ مَخَادِعاً
لَكِنْهُمْ عَلَوْا شَرِيفَ مَحَلِّهِ عِنْدَ الرَّسُولِ تُقَى وَقَدَرُوا بِأَرْعَا

(١) الأسل : الرماح .

ورأوا نظامَ الدين عن آرائه مُستحكما وسنى الشريعة طارماً
أردى حنيفةً واليامة إذ طفت فأعادَ مأنوس الدمار بَلْأَمِماً
أترى تقدم أبو بكر لكسل ، أو مدح بالبخل ، كلاليل هانت الدنيا لديه إذ عزت
نفسه عليه . لما علم الصديق قُرب المات فرقى المالَ وتخلل بالعبا ، فخرج من الدنيا قبل
أن يُخرج .

بِمَتِ مَمَتِهِ فَمَضَى الْوَرَى فَبَرَى جَرَى جَوَادِ الْجَوَادِ
يَجِدُ الْكَفَّ مِنْ أُمُوَالِهِ وَاقِعاً مِنْهُ وَقَوَعِ السُّتَادِ
فَهُوَ لَا يَفْقَهُ مِنْ سَحِّ النَّدَى بَيْنَانِ سَيِّطَاتِ لَا حِمَاكِ (١)
غَيْرَ لَاهٍ بِاللَّهِ (٢) بَلْ عَالِمٌ أَنْ يَذِلَّ الْمَرْفُ مِنْ خَيْرِ عَتَادِ (٣)
مُسْتَزِيدٌ مِنْ فِعَالِ جَمَّةٍ لَيْسَ فِيهَا لَأَمْرِي مِنْ مُسْتَزَادِ
كُلُّ ذَخِيرٍ لِمَعَاشٍ عِنْدِهِ مُتَّقِيٌّ مِنْ فَضْلِ زَادِ لِمَادِ
سَالِكاً فِي كُلِّ فَجٍّ وَحَدِهِ حِينَ لَا يَوْحِهُ طُولُ انْفِرَادِ
وَكَذَلِكَ الْبَذَرُ يَسْرَى فِي الدُّجَى وَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ نَوْرٌ وَهَادِ
نَزَعَ أَبُو بَكْرٍ تَوْبَ تَحِيْطِ الْهَوَى فَرَزَقَهُ عَلَى ، رَمَى الصَّدِيقُ جِهَازَ الْمَطْلَقَةِ فَوَاقَهُ عَلَى

فِي نَزَعِ الْخَلَامِ .

حَبِّ الْفَقْرِ إِلَيْهِ أَنَّهُ سُوْدُدٌ وَهُوَ بِذَلِكَ الْفَقْرِ يَنْفَى
وَشَرِيفُ الْقَوْمِ مِنْ يُبْقَى لَمْ شَرَفَ الذِّكْرَ وَخَلَّى لِلْمَالِ يَنْفَى
مَا أَطْمَأَنَّ الْوَفْرَ فِي مَحْبُوحَةٍ فَرَأَيْتَ الْجَدَّ فِيهَا مُطْمَئِنّاً
تُهْذِمُ الْأُمُوَالُ مِنْ آسَاسِهَا أَوَّلُ مَا دَامَتِ الْعِلْيَاءُ تُبْقَى
تَوَافَى أَبُو بَكْرٍ وَعَلَى عَلَى رَفَضِ الدُّنْيَا ، فَاسْلُكْ سَبِيلَهُمَا وَجَانِبِ الرَّفَضِ .
وَخَيْرٌ مَا يَذْخُرُ عَبْدٌ لِنَدْرِ حُبُّ أَيْ بَكْرٍ الْإِمَامِ الْمُرْتَضَى

(١) السبغات : التبسة . والجاد : للتبسة . (٢) الله : الطاء . (٣) الأصل : من غير . غرقة .

حب إمامٍ أَوْضَحَ اللهُ به من سبيل الإسلام ما كان غفًا
لم يَعْبُدِ اللّاتَ ولكن لم يَزَلْ معترِفًا بالله من حين نشأ
لأنه كانَ زميلَ المصطفى يجرى على منهاجه حين جرى
حقّ إذا اللهُ اصطفاه مرسلًا أجاب بالتصديق لما أن دعا
وما ارتضاه للصلاة دونهم حتى رآه ذُرْوَةً لا تُرْتَقَى
ثم دَعَوَهُ بعده خليفة عن ملائمتهم وأعطوه الرضًا
قال أَيْقِلُونِي فَلَسْتُ خَيْرَكُمْ فَأَعْظَمُوهَا وَأَبَوْا كُلَّ الْإِبَاءِ
والله إني لَمُوَالٍ حَيِّدٌ رَأَى مثل مَوَالِي عَتِيقًا ذَا السَّنَاءِ^(١)
٥ إمامي^(٢) وَأُنْصِي فِي غَدٍ بما أخاف ورجائي وَاللَّجَأِ^(٣)
وإن دين الرّفْضِ كُفْرٌ مُوبِقٌ فن سحّا من سَكْرَةِ الرّفْضِ نَجَا

لقد بان الهدى ولاحت الطريق ، نشر أهباء البخيل واخرج من المضيق ، وإياك
والدنيا فكم قتلت من صديق ، افضل بها فعل عليّ أو فعل الصديق ، يا هذا من صفة
للؤمن الكرم ، والكريم من أعطى ما لا يجب وأنت تبخل بالواجب ، يا هذا مؤدّي
الدين لا يُحمد ، لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل ، يا هجبا ممن لا يخرج البسير الرذول
كيف يُطلب منه الكثير المحبوب .

إذا ما شَحَّ ذُو الْمَالِ شَحَّ الدَّمَرُ يَلْهِيهِ
إذا لم يُشْمَرْ الْعُودُ قَطَعَ الْعُودُ أَوَّلَى بِهِ

(١) حيدر : يردد علياً عليه السلام . وعتيق : أبو بكر الصديق رضي الله عنه . (٢) الأصل : إمامي .
(٣) اللجأ : اللجأ .

الكلام على قوله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُنْفِكُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ^(١) ﴾

معنى **تُنْفِكُمْ** : أى تَشْغَلُكُمْ . وفى المراد بذكر الله تعالى أربعة أقوال : أحدها : طاعته فى الجهاد . رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثانى : الصلاة للكتابة . قاله عطاء . والثالث : الفرائض كلها . قاله الضحاك . والرابع : أنه على إطلاقه تحفّضهم على إدامة الذكر . قاله الزجاج . قال بعض السلف : كل شئ يشغلك عن الله عز وجل من مال وولد فهو مشغوم عليك .

قوله تعالى : « وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ » فى هذه النفقة ثلاثة أقوال : أحدها الزكاة . قاله ابن عباس . والثانى : النفقة فى الحقوق الواجبة بالسال . قاله الضحاك . والثالث : صدقة التطوع . ذكره للوردى . فيكون [على ^(٢)] هذا القول نذراً على ما قبله واجبا . قوله تعالى : « مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ لَمُوتٍ » أى من قبل أن يماين ما يعلم معه أنه ميت « فيقول رَبِّ لَوْلَا » أى هَلَا « أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ » يريد بذلك الاستزادة فى أجله ليتصدق .

قوله تعالى : « وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ » وقرأ أبو عمرو : « وَأَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ » قال الزجاج : من قرأ « وَأَكُونَ » بالواو فهو على لفظ فاعِدٌ ومن جزم : « وَأَكُنْ » فهو على موضع فاعِدٌ ، لأن المعنى : إِنْ أَخَّرْتَنِي أَصَدَّقْ وَأَكُنْ . قال ابن عباس : « فاعِدٌ » أركى مالى . « وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى أحج مع المؤمنين . قال : وما من أحد يموت قد كان له مال لم يركه وأطلق الحج فلم يحج إلا سأل الرّجْمَةَ عند الموت .



واعلم أن أفضل الصدقة فى حال الصحة والسلامة .

أخبرنا ابن عبد الواحد ، أنبأنا ابن اللّذهب ، أخبرنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا

عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا جرير بن عبد الحميد ، عن عمار بن القزعة ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح صحيح تأمل البقاء وتخاف الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، ألا وقد كان لفلان » .
أخرجه في الصحيحين ^(١) :

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه ، أخبرنا محمد بن علي بن المهدي ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن الصبّاح ، حدثنا محمد بن معن ، حدثنا محمد بن محمد بن حبان ، حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن أبي حويبة الطائي ، عن أبي البرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذي يمتنع عند الموت كمثل الذي يُهْدَى إذا شُبع » .

وقيل لميمون بن مهران : إن فلاناً أعتق كلَّ مملوك له بغنى عند الموت . فقال : يَمُوتُونَ الله مرتين : يبخلون به وهو في أيديهم ، حتى إذا صار لغنيم أسرفوا فيه !
وليم البخل أن ما أخرجه له وما تركه لغيره .

وفي أفراد البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيكم مالٌ وارثه أحبُّ إليه من ماله ؟ » قالوا : يا رسول الله ما منا أحدٌ إلا ما له أحبُّ إليه . قال : « فإنَّ ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخر » ^(٢) .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول العبد : مالي مالي . وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأفنى ، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » ^(٣) .

أخبرنا الكروخي ، أنبأنا الأزدي والفوري ، قال أنبأنا الجراحي ، حدثنا العنبري ،

وصحيح مسلم حديث رقم ١٠٣٢

(٣) صحيح مسلم حديث رقم ٢٩٥٩

(١) صحيح البخاري ١/ ١٨٥

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٩٩

حدثنا الترمذي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها إلا كتفها » (١) .

من علم (٢) فضل الإيثار بالصدقة حمل النفس على الإخراج .

بعث إلى عائشة بمال عظيم ففرقة على الفقراء فقالت جاريتها : لو خبأت درهما نشتري به لحماً نفطر عليه ؟ فقالت : لو ذكركم تبنى لقطلت .

بالجد فاز من فاز ، وبالعزم جاز من جاز ، وما حاز الثناء من المال حاز .

وسائلهم منهم ماذا تقدمهم فقلت فضل به عن غيرهم بأنوا
كاعرضوا للمنايا المئرا أنفسهم فان قوم توقوها وما حانوا
والهج الحمد بالأبطال بينهم أن ليس بينهم المال لإبطال
واحباً لنفى ببخل بما ينفى ، ولفقير لا يصبر على ما يبق .

أعذل إن المال غير محلي وإن النسي عارية فتزود
فكم من جواد يفسد اليوم جوده وساموس قد خوقته الفقر في غد

كم ناداك مولاك وما تسمع ، وكم أعطاك ولكن ما تقنع ، لقد استقرضك مالك
فمالك تجمع ، وضمن أن تنبت الحبة سبعة ما تزرع ، ليكون همك في طلب المال
الإفضال به ، فإن الشريف الهمة لا يطلب الفضل إلا للفضل .

قال أعرابي لأخيه : إن مالك إن لم يكن لك كنت له ، فكله قبل أن يأكلك .
كم تختلف لتختلف ، ترك لمن لا يحمده وقدم على من لا يعبده ، ران على القلوب حب
الدنيا فجمعها كف الشره ، وتمسكت بها أيدي البخل ، فلو تلتحت معنى : « من
ذا الذي يقرض » أو اشتقت إلى أرباح « فيضاعفه » رأيت إنفاق كل محبوب حقيرا
في جنب ما ترجو .

(١) البارة عروة في ب . والتصويب من ت . (٢) ت : من علم فضل الصدقة .

فدبروا لإخواني أحوالكم، وأنفقوا في الخير أموالكم، فإن المال إذا أخذتم في سيركم لغيركم.
يا مالَ كلِّ جامعٍ وحارثٍ أبشر بريبٍ حادثٍ ووارثٍ
إن النفسى والفقرا غيروا لآبثٍ ولا يهابُ الموتُ نَفَثَ نافثٍ
قد يمحذ الجنَّةَ^(١) غير الحارثِ ويُذهقُ الدلو لغير الثابتِ^(٢)
جدُّ الزمانُ وهو مثل العابثِ أقسم أن يُسيءَ غيرَ حاثٍ



أخبرنا محمد بن ناصر، أنبأنا أحمد بن جعفر، حدثنا الحسن بن علي، أنبأنا أحمد بن جعفر
حدثني أبي، حدثنا المنيرة، حدثنا صفوان، عن يزيد بن ميسرة، قال: كان رجل من مضي
جمع ما لا فأوعى ثم أقبل على نفسه وهو في أهله فقال: انسى سنين. فأتاه ذلك الموت فقرع الباب
فخرجوا إليه وهو متمثل بمسكين فقال لهم: ادعوا إلى صاحب الدار. فقالوا: يخرج سيدنا إلى
ملكك أنم مكث قليلا ثم عاد فقرع باب الدار وصنع مثل ذلك فقال: أخبروه أنى ملك
الموت. فلما سمع سيدهم قد فرغا وقال: لئيه بالكلام. فقالوا: ما تريد غير سيدنا بارك الله
فيك؟ قال: لا. فدخل عليه فقال له: قم فأوص ما كنت موصيا فإني قابض نفسك قبل أن
أخرج. قال: فصاح أهله وبكوا ثم قال: انفضوا الصناديق والتوايت وانفضوا أوعية الذهب
والفضة. ففتحوها جميعا فأقبل على المال يلعنه ويسبه ويقول: لعنت من مال! أنت الذى
أنسىته ربى تبارك وتعالى وأغفلتني عن العمل وأخرتني حتى بلغتني أجلي. فتكلم اللال
وقال: لا تسبني، ألم تكن وضيعا في عين الناس فرفعتك؟ ألم يعل عليك من أثرى؟
وكنت تحضر سوق الملوك فتدخل ويحضر عباد الله الصالحون فلا يدخلون؟ ألم تكن
تخطب بنات اللوك والسادات فتُنكح، ويخطب عباد الله الصالحون فلا يُنكحون
ألم تكن تنفق في سبيل الخبيث فلا أنماصى ولو أنفقت في سبيل الله لم أنماص عليك؟
فأنت اليوم ألوهم منى، إنما خلقت أنا وأنتم يا بنى آدم من تراب، فنفطلق بيرة ومنطلق بأثم.

(١) ت: قد يمحذ الحبة. (٢) يدعى: مالا. والثابت المافر.

فنهكذا يقول المال فاحذروا .

كان ملك الموت يأتي الناس في صورة البشر ، فركب بعض الجبارين في جُنْدِه يوماً فلقية ملك الموت فقال : من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت . فقال : دعني آتي أرضي التي خرجتُ إليها ثم أرجع من موكبى . فقال : لا والله لا ترى أرضك أبداً ولا ترجع من موكبك أبداً . قال : فدعني أرجع إلى أهلى . فقال : لا والله لا ترى أهلَكَ أبداً . فقبض روحه .

وبينا رجل ينظر في أصناف ماله طلع ملك الموت فقال : والذى خَوَّلَكَ ما ترى ماأنا بخارج من منزلك حتى أفترق بين روحك وبدنك . قال : فالثَّهْلَةُ حتى أفترقه . قال : هيئات ! انقطعت عنك للهلة .

ولاح ملكُ الموت لرجل فقال لأهله : اجتنبى بصعيفة . فقال ملك الموت : الأمر أعجل من ذلك . فقبض روحه قبل أن يؤتى بالصعيفة .
إخوانى : استذكروا قبل القَوْتِ وانتموا قبل الموت ، وأصيبحُوا فقد أَسْمَعَ الصوت .

سبح على قومه تعالى

(ولَنْ يُؤَخَّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا)

واعجبا لنفس الموت مَوْتُهَا والقبر مَنَزَلُهَا والاعْدُدُ مَدْخَلُهَا ثم يَسُوْءُ عملها «ولَنْ يُؤَخَّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا» .

كم قاطع زمانه بالتسويق ، بانع دينه بالحبسة والريغف ، مشتر الويل بتطيف الطَّيْفِ ، ينشئ العود إذا رأت نفسه ما يُذهلها «ولَنْ يُؤَخَّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا» .

كم مشغول بالقصور يَعمُرُها ، لا يفكر في القبور ولا يذكرها ، بيت الآيالى في فكر الدنياو يسهرها ، يجمع الأموال إلى الأموال يشتريها ، وقع في أشراك اللئالى وهو لا يبصرها ،

أفتلدنيا هذا آخرها وآه لأخرى^(١) هذا أولها «ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها» .
إذا ملك شمس الحياة اللبيب ، قام عن الرريض العليل فأخذ النفس من باطنها
التوبيخ والتأنيب ، فلو رأيتهما تسأل عما بها ولا توجب من يسألها « ولن يؤخر الله نفساً إذا
جاء أجلها » .

آه لساعات شديدة السكرات ، فيها عثرات ليست بنوم ولا سبات ، تنقطع فيها الأثدة
بالوم على الفوات ، وتبكي عينُ الأسف لما مضى من هفوات ، وللريض ملقى على فراش
الحرقات ، فآه ثم آه من جبال حسرات يحملها « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » .
لقد صاح بك الصائح بأخذ غادرٍ وسلب راح ، يكفي ماضى من قبائح ، فاقبل اليوم
هذه النصائح فإن للسكين من يهملها « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » .
والحمد لله وحده .

(١) ت : من أخرى .

المجلس التاسع والعشرون

في فضل عمر بن الخطاب

الحمد لله خالق كل مخلوق ، ورازق كل مرزوق ، سابق الأشياء ، فادونه مسبق ، موجد للنظور ولللبوس والمذوق ، أنشأ آدمى بالقدرة من ماء مدفوق ، وركب فيه العقل يدعو إلى مراعاة الحقوق ، والموى يحث على ما يوجب العقوق ، فاحذر وفاق للشهى فإنه يرمى لا من فوق فوق^(١) ، فسح داود لنفسه في نظرة فاتست أنطروق ، وغفل ابنه سليمان عن طاعته « فطيق مستحاً بالسوق » .

أحمد على ما يقضى ويسوق بما ينم وما يشوق ، وأقر له بالتوحيد هاجراً بنوث ويثوق ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله وقد ازدحت سوق الباطل في أزواج سوق ، فدتغ بمقه أهل الزينج وأرباب الفسوق ، صلى الله عليه وعلى آله ماهب الهواء ولملت البروق ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق ، وعلى عمر القلب بالفاروق . وعلى عثمان الصابر من الشهادة على مر المذوق ، وعلى علي مطلق الدنيا فما غره الزخرف والراوق ، وعلى العباس أقرب الكل نسباً وأخص المروق .

اللهم يا مالك للنساء والشروق ، احفظنا من مساة الحوادث والطروق ، وهب لنا من فضلك ما يصفو ويزوق ، وزد آمالنا من إحسانك فوق ما نرجو وتتوق ، واقفح لى وللعاضرين موق بصر البصيرة لحبيب الموق .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أخبرنا الحسن بن على ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبيد الله بن أحمد ، حدثني أبى ، حدثنا قزارة بن عمر ، حدثنا إبراهيم بن يعقوب بن سعد عن أبيه ، عن أبى سلمة ، عن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه كان فيمن مضى قبلكم من الأمم ناسٌ محدثون

(١) روى نوفاً : رشفاً .

وإنه إن كان في أمتي هذه منهم أحد فإنه عمر بن الخطاب .
أخرجاه في الصحيحين ^(١) .

واعلم أن عمر رضي الله عنه ممن سبقت له الحسن ، وكان مقدما في
الجاهلية والإسلام .

أما في الجاهلية فكانت له الشفاعة والشفاعة ، فإن وقع بين قريش وغيرهم بمثوه
سفيرا ، وإن فاخرهم حتى بمثوه مفاخيرا ورضوا به .
وأما في الإسلام فقضائه كثيرة .

وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد المزي بن رياح بن عبد الله بن قرظ
ابن رزاح بن عدي بن كعب وعند كعب يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم
في النسب .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، أنبأنا أبو محمد الجوهري ، أنبأنا أبو عمر بن حيوية ،
أنبأنا أبو الحسن بن معروف ، أنبأنا الحسين بن القهم ، حدثنا محمد بن سعد ، أنبأنا
إسحاق بن يوسف الأزرق ، حدثنا القاسم بن عثمان البصري ، عن أنس بن مالك رضي
الله عنه قال : خرج عمر متقلبا سيفه فلقبه رجل من بني زهرة ، قال : أين تكمد
يا عمر ؟ فقال : أريد أن أقتل عمدا . قال : وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة وقد
قتلت محمدا ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صباأت وتركت دينك الذي أنت عليه . قال :
أفلا أدلك على العجب يا عمر ؟ إن خنتك وأختك قد صباأت وتركا دينك الذي أنت عليه
ففسخ عمر ذمرا ^(٢) حتى أتاها وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب فلما سمع خباب
حسن عمر توارى في البيت فدخل عليهما فقال : ما هذه الكمينمة ^(٣) التي سمعتم عندكم ؟

(١) صحيح البخاري ، ٢٣٨/٢ : وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم (٢٣٩٨) ونسب
مسلم : « لا كان يكون في الأمم قبلكم عدنون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم » .
وسمى عدنون : ملهون . (٢) ذمرا : فاضبا . (٣) الكمينمة : الصوف الخفي .

قال : وكانوا يقرءون : « طه » فقالوا : ما عدا حديثاً نحدّثناه بينما قال : فأعلمكم ما قد صَبَأْنَا . فقال له خَتَنُهُ : أَرَأَيْتَ يَاعِمْرُ إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ ؟ فَوُثِبَ عَمْرُ عَلَى خَتَنِهِ فَوُطِئَهُ وَطِئًا شَدِيدًا ، فَجَاءَتْ أُخْتُهُ فَدَقَمَتْهُ عَنْ زَوْجِهَا فَفَفَحَهَا نَفْعَةً بِيَدِهِ فَدَمَعَتْ وَجْهَهَا فَقَالَتْ وَهِيَ غَضْبَى : يَاعِمْرُ إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

فلما بَسَّ عَمْرُ قَالَ : أَعْطُونِي هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي عِنْدَكُمْ فَأَقْرَأَهُ . فَقَالَتْ : إِنَّكَ رَجُلٌ وَلَا يَمْسُ إِلَّا لِلطَّاهِرِينَ ، فَمَنْ فَاغْتَسَلَ أَوْ تَوَضَّأَ . فَقَامَ فَوَضَّأَ ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ فَقَرَأَ « طه » حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ « إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ » فَقَالَ عَمْرُ : دَلَوْنِي عَلَى مُحَمَّدٍ . فَلَمَّا سَمِعَ خَبَابَ قَوْلِ عَمْرُ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ فَقَالَ أَبَشِرْ يَاعِمْرُ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ لَيْلَةَ الْخَلِيسِ : اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ بِعَمْرِ بْنِ هَاشِمٍ .

قَالَ : وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّارِ الَّتِي فِي أَصْلِ الصَّفَا . فَاذْهَبْ عَمْرُ حَتَّى أَتَى الدَّارَ قَالَ : وَعَلَى بَابِ الدَّارِ طَلْعَةٌ وَحِمَازَةٌ وَأَنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا رَأَى حِمَازَةَ وَجَلَّ الْقَوْمُ مِنْ عَمْرٍ قَالَ حِمَازَةٌ : نَعَمْ فَهَذَا عَمْرُ فَإِنْ يُرِدُ اللَّهُ بِعَمْرِ خَيْرًا يُسَلِّمُ وَيَقْبِضُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ يَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ يَكُنْ قَتْلُهُ عَلَيْنَا هَيْئًا . قَالَ : وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَاخِلٌ يَوْحَى إِلَيْهِ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَى عَمْرًا فَأَخَذَ بِمِجَازِ ثَوْبِهِ وَحَاوَلَ السَّيْفَ فَقَالَ مَا أَنْتَ مُنْتَهَبٌ يَاعِمْرُ حَقٌّ يَنْزِلُ اللَّهُ بِكَ مَا نُزِلَ بِالْوَلِيدِ بْنِ النَّخْعَةِ ! اللَّهُمَّ هَذَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ . فَقَالَ عَمْرُ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ . فَأَسْلَمَ وَقَالَ : أَخْرَجَ يَارَسُولَ اللَّهِ .

وقد روى أنه لما أسلم قال ^(١) :

(١) يظهر وضع هذا الثمر ، ولا يعرف عند أحد من أهل العلم بالثر .

الحمد لله الذي وجبت له علينا أيدي ما لها غير
وقد بدأنا فكذبنا وقال لنا صدق الحديث نبي عندنا الخير
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ربني عشيّة قالوا قد هدى عمر
وقد نذيت على ما كان من زلل بلطمها حين توتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة والسمع من عيناها تجلان يبتلر
أبقت أن الذي تدعوه خالقها فكاد يسبقني من عبدة دبر
فقلت أشهد أن الله خالقنا وأن أحد فينا اليوم مشهر
نبي صدق أني بالحق من نبي وفي الأمانة ما في عوده خور

قال ابن عباس : لما أسلم عمر كبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل السجد . وقال :
يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده . قال :
فقيم الاختفاء والذي بمثلك بالحق لتخرجن . قال عمر : فأخرجناه في صقين ، حمزة
في أحدهما وأنا في الآخر له كديد^(١) ككديد الطعنين ، حتى إذا دخلنا السجد نظرت
قريش إلى حمزة وعمر فأصابتهن كآبة لم يصبهن مثلهما . قال : فسباني رسول الله صلى الله
عليه وسلم يومئذ الفاروق ، وفرق الله بي بين الحق والباطل .
قال ابن مسعود : ما زلنا أمة منذ أسلم عمر .

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال عمر : واقتربني في ثلاث :
قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت « واتخذوا من مقام
إبراهيم مصلى » وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن
أن يحتجبن . فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه
في الفيرة فقلت لمن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن .

(١) الكديد : الصوت .

فزلت هذه الآية ^(١).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يَبِينَا أَنَا نَأْمُ وَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَعْرِ فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا الْقَعْرِ ؟ قَالُوا لِمَنْ بَنِي الْخَطَّابِ . فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ فَوَلَّيْتُ مُذْبِرًا » . فبكى عمر وقال : أَعَلَيْكَ أَغَارٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ^(٢).

وفيها من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمر : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَتَيْتُكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَعَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَعَجًّا غَيْرَ فَعَجِّكَ ^(٣) » .

قال ابن مسعود : لقي رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الشيطان في زقاق من أزقة المدينة فدعاه الجنى إلى المراءع فصرعه الإنسى ، فقال : دَعْنِي . ففعل . فقال : هل لك في المعاودة ففعل فصرعه فجلس على صدره ، فقال : ما الذى يُبْهِمُ ذُنَا مِنْكُمْ ؟ قال : آية الكرسي . فقال رجل لابن مسعود ؟ من ذاك الرجل أهر هو ؟ فقبس وبسر وقال : ومن عسى أن يكون إلا أهر !

وفي حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عُمَرُ سَرَّاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ » . وفي حديث أبي هريرة عنه عليه السلام قال : « إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَمَلَ الْحَقِّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ » وفي حديث أنس عنه عليه السلام أنه قال : « أَشَدُّ أُمِّي فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ » .

وفي حديث ابن عباس عنه عليه السلام قال : جاء حبريل عليه السلام فقال أقرئ عمر السلام وأخبره أن رضاه عزَّ وُغَضَبَهُ حِلْمٌ .

وفي حديث على عليه السلام أنه قال : اتقوا غضبَ عمر إذا غضب فإن الله يغضب إذا غضب .

وفي حديث عقبة ابن عامر عنه عليه السلام أنه قال : « لَوْ كَانَ بَدْمَى نَبِيٍّ لَكَانَ عُمَرُ » .

وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٣٩٩

(١) صحيح البخارى ج ٢ / ٨٣

وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٣٩٤

(٢) صحيح البخارى ج ٢ / ٢٣٧

وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٣٩٦

(٣) صحيح البخارى ج ٢ / ٢٣٨

كلن عمر رضى الله عنه جدًا كله وكان يُقدم على صاحب الشريعة وينبسط فيجتمعه ،
لعله بصحة قصده .

فمن ذلك : أنه أراد أن يعلى على ابن أبى فرفف في صدره وقال : أتصلى عليه ؟
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأبى هريرة : اذهب بنعل هاتين فنلتيت
من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا به قلبه فيبشّره بالجنة . فذهب فلقبه
عمر فأخبره الخبر فضرب بين يديه حتى خرّ وقال : ارجع فرجع . فقال يا رسول الله
إني أخشى أن يتكلم الناس عليها غفّهم يسلمون . قال : غفّهم .

وفي حديث عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت جبريل
فقلت : أخبرني عن فضائل عمر ؟ فقال : لو كنت معك ما لبثت نوح في قومه ألف سنة
إلا خمسين عاما ما نفلت فضائل عمر وإني مر حنة من حسنات أبى بكر^(١) .
رضى الله عنهما .

تعدّت ولا تخرج^(٢) بكل عجيبة عن البحر أو تلك الغلّال الأوهر
ولا عيب في أخلاقه غير أنها فرائد دُرّ مالمّا من نظائر
يقرّ لها بالفضل كل منازع إذا قيل يوم الجئتم هل من مفاخر
قويت شدة عمر في الدين فسلبت عزائمها ، فلما حانت الهجرة تسلّوا تسلّ القعطا
واختال عمر في مشية الأسد ، فقال عند خروجه : ها أنا أخرج إلى الهجرة ، فمن أراد
لقائي فليلقني في بطن هذا الوادي .



لما ولي الخلافة شمّر عن ساق جِدّه فكظم^(٣) على حوى نفسه ، وحمل في الله
فوق طوّقه .

معيّظ القزماتِ مُذهبت به عزماته نحو الثلى لم يقدر

(١) هذا الحديث موضوع ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل . انظر الآلء المصنوعة ١/١٥٧ . (الطبعة الأدبية) .

(٢) ت : ولا تخرج . (٣) ت : وكظم .

ويكاد من نور البصيرة أن يرى في يومه فلَّ العواقب في غدٍ
نبت الدنيا من وراء ظهره فتخفف من الأثقال لأجل السباق، كان يخطب وفي إزاره
ثقتا عشرة رقعة، كفَّ كفَّه عن المال زاهدا فيه حتى أُمِّلَى أهله .

رأى يوما صبية تمشي في السوق والريح يلقبها لضحكها ، فقال من يعرف هذه ؟
فقال ابنه عبدُ الله : هذه إحدى بناتك . قال : أُمِّي بناتي ؟ قال : بنت عبد الله بن عمر .
قال : فما بلغ بها ما أرى ؟ قال : إساك ما عندك . قال : إساكي ما عندى بمنك أن
تطلب لبناتك ما يطلب الناس ؟ أما والله مالك عندي إلا سنهمك مع المسلمين وسيسك
أو يحجز عنك ، يني ويبتكم كتاب الله !

عَفَّ عن الدنيا وقد تزخرفت مُمَكَّنَةً وعافها وقد قَدَّرَ
مُحْكَمٌ في الناس بفضي بينهم بِمُحْكَمٍ الْكَيِّ وَمَنْصُوصِ الشَّوَرِ
حَدَّثَتْ عَنْهُ مِثْلَ مَا تَحَدَّثَتْ عَنْ كَرَمِ الْأَغْصَانِ حُلَاوَةِ الثَّمَرِ
وفي أفراد البخاري أنه قسم مَرُوطًا بين نساء المدينة فبقي منها مِرْطٌ ^(١) جيد فقال له
بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا المِرْطَ ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي
عندك ، يريدون أم كلثوم بنت علي . قال : أم سَلِيطَ أَحَقُّ بِهِ فَإِنَّهَا مِنْ بَايِعِ رَسُولَ اللَّهِ
صلى الله عليه وسلم وكانت تزفر لنا القرب يوم أحد ^(٢) .

ورآه طلحة يدخل بيتا فلما أصبح دخل طلحة ذلك البيت فرأى مجوزا عياء مُقَمَّدة
فقال : ما صنع عندك ذلك الرجل ؟ فقالت : إنه يتماهني منذ كذا وبأتيني بما يُضِلُّني
ويخرجني الأذى . فقال طلحة : مُكَلِّتُكَ أَمَكْ يَا طَلْحَةُ ! أَعْتَرَاتِ هِرَ تَتَّبِعَ .

وروى ثابت عن أنس قال : بينا امرئ يسَّ بالمدينة إذ مرَّ برحبة من رَحَابِهَا فإذا
هو ببيت من شَعَرٍ ، فدنا منه ، فسمع أنينَ امرأةٍ ورأى رجلا قاعدا ، فدنا منه فسلم عليه
ثم قال : من الرجل ؟ قال : رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب مِن
قَضَلِهِ . قال : فما هذا الصوت في هذا البيت ؟ قال امرأةٌ تَمْنَحُضُ . قال : هل عندها أحد ؟

(١) المِرْطُ : كساء من صوف أو خز . (٢) صحيح البخاري ج ٣ / ٣٠ ، وتزفر : تمهل

قال : لا . فانطلق حتى أتى منزله فقال لا مرأته أم كلثوم بنت علي : هل لك في أجر ساقه
الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة غريبة تمغض ليس عندها أحد . قالت : نعم إن
شئت . قال : فغذى ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدُّهن وجيئني بئزمة^(١)
وشحم وحبوب . فجاءت به فقال : انطلق . وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى إلى
البيت فقال لها : ادخلي إلى المرأة وجاء حتى قعد إلى الرجل فقال له : أوقدي ناراً . ففعل
فأوقدت تحت البئزمة حتى أنضجها وولدت المرأة ، فقالت امرأته : يا أمير المؤمنين بشر
صاحبك بنلام . فلما سمع الرجل بأمير المؤمنين هابةً فجعل يفتحي عنه ، فقال : مكانك كما
أنت . فجعل البرمة عمر رضى الله عنه فوضعها على الباب ثم قال أشبعها . ففعلت ثم
أخرجت البرمة فوضعها على الباب فقام عمر فأخذها فوضعها بين يدي الرجل فقال : كل
ويمك فإنك قد سهرت من الليل . ففعل ثم قال لامرأته اخرجي . وقال الرجل إذا كان
غد فائقنا نأمر لك بما يصلحك . ففعل الرجل فأجازه وأعطاه .

وكان يقول : لومات جدى بطف^(٢) القُرأت تلشيت أن يحاسب الله به عمر .
وكان في وجهه خيطان أسودان مثل الشراك من البكاء . وكان يمرّ بالآية من وزده
بالليل فيبكي حتى يستقط ويبقى في البيت حتى يُعَاد للرض . وكان يصوم الدهر .
قالت عائشة رضى الله عنها : إذا شئت أن يطيب المجلس فليكم بذكر عمر بن الخطاب
رضى الله عنه .

كلُّ يومٍ تجدد ونفرت يشاد وطريف من اللقى وتلاد^(٣)
وكرام من الماسي حسان عجزت عن طلبها الحساد
همم دونه الكواكب تلو عزيمات النار فيها انتقاد
كلما قيل قد دجى ليل خطب فلأرى القاروق فيه زناد

(١) البرمة : قدر من حجارة . (٢) الطف : العاطف . (٣) الطريف : الجديد .
التلاد : القديم

مُفْرَمٌ بِالكَارَمِ الْفَرْ لَمَّا عَمَّ أَبْكَارَهَا إِلَيْهِ الْوَلَادُ
 سَاهِرُ الْعَيْنِ بِالْعَزَامِ يَقْتُلَانِ وَقَدْ قَيْدَ الْعَيُونِ الرِّقَادُ
 قَدْ كَفَّتْهُ لِلنَّاقِبِ لِلدَّحْ إِلَّا مَذْحُنًا مِنْ صِفَاتِهِ يَسْتَفَادُ
 مَا زَالَ الْإِسْلَامُ قَرِيرَ الْعَيْنِ مَا دَامَ مَفْتُوحَ الْعَيْنِ . كَانَ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَنْ يَقِيْتُ
 لِيَأْتِيَنِ الرَّاحِي بِجَبَلٍ صَنْعَاءَ حَفْلَهُ مِنْ هَذَا اللَّالِ وَهُوَ رِغِي مَكَانَهُ .

وَقَبِضَ الْمَلَحْلَ يَنْسَطُ رَاحِيَهُ أَعْدَى الْجَهَامِ جَوْدَهَا فَهَتَّأَ^(١)
 أَوْصَافُهُ تُمْلِي عَلَى مَذَّاحِهِ مَا سَطَّرَ الْجِدُّ لَهُ وَدَوَّنَا
 إِذَا رَوَاهَا الدَّهْرُ فِي أَيْمَانِهِ طَرَبَ إِعْجَابًا بِهَا وَلَحْنَا
 وَإِنْ بِهَا وَرَقَاءَ لَيْلٍ غَرَّاتُ مَدَّ إِلَيْهَا كُلُّ غُصْنٍ قَتْنَا

كَانَ عَمْرٌ بَعْدَ أَعْمَالِهِ الْجَلِيلَةِ يَقُولُ عِنْدَ مَوْتِهِ : الْوَيْلَ لِعَمْرٍ إِنْ لَمْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ !
 وَفِي الصَّحِيحِينَ أَنَّهُ لَمَّا تَوَفَّى قَالَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا خَلَقْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى
 اللَّهُ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ يَا عَمْرُ .

الكلام على قوله تعالى

﴿ وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾

كَانَتْ أَقْدَامُهُمْ فِي الدُّجَى قَائِمَةٌ ، وَعْيُونُهُمْ سَاهِرَةٌ لَا نَائِمَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى الطَّاعَاتِ
 عَازِمَةٌ^(٢) ، وَهَذِهِ أَفْصَالُ النُّفُوسِ الْحَازِمَةِ ، فَوَجِبَتْ لَهَا نَجَاتٌ قِطْعِيَّةٌ جَازِمَةٌ « وَجْوهٌ »
 يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ .

وَجْوهٌ طَالَمَا غَسَلَتْهَا الدَّمُوعُ ، وَجْوهٌ طَالَمَا أَذَلَّهَا الْخُشُوعُ ، وَجْوهٌ أَظْهَرَ عَلَيْهَا
 لِلْأَصْفَرَارِ الْجُوعُ ، خَاطَرَتْ فِي اللَّهَالِكِ فَأَصْبَحَتْ سَائِلَةً « وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ » .

(١) الْحُلُّ : الْجِدْبُ . وَالْجَهَامُ : السَّحَابُ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهِ . وَهَتَّأَ : انْصَبَ مَائُهُ . (٢) ت : عَلَى الطَّاعَةِ
 كُلِّ سَاعَةٍ عَازِمَةٌ .

وجوه أذعنت إذ عنت ولذت، وجوه ألفت السجود فاملت، وجوه توجهت إلينا وعن غيرنا تولت، زالت عنها فترة المجر ونجست، غلت غامة.

سهزم إلى الصباح قد أثر في الوجوه الصباح، واقتناعهم بالخبز التفكر ولواء القراح، قد عمل في الأجسام والأشباح، وخوفهم من اجتراح الجناح قد صيرهم كنفصوص الجناح، وعلى الحقيقة فكل الأرواح من الخوف هائمة.

تجرى دموعهم في الخدود كالياه في الأخدود، وتمل نار الحذر في الكبد فيتمنون عدم الوجود، فهم بين الركوع والسجود ونصب الأقدام القائمة.

يتفكرون في السابقة، ويحذرون من اللاحقة وكأنهم يتقون ساعة، أو كأن السيوف على أعناقهم بارقة، بإشدة قلقهم من الغامة « وجوه يومئذ نامة ».

قال المفسرون: معنى قوله تعالى: « نامة » أى فى نعمة وكرامة لِسْمِهَا فى الدنيا « راضية » المعنى أنها رضيت نواب عملها « فى جنة عالية » المنازل « لا تسمع فيها لأغية » أى كلمة لغو.

قوله تعالى: « فيها عين جارية ».

طلالاً أطالوا البكاء فى الليل، تجرى دموعهم جرى السيل، وتستيق فى همراء الخدود كالخليل، وإنما يكال للمبد على قدر الكيل، فإذا دخلوا الجنة فلكل^(١) عين جارية « فيها عين جارية ».

جنّ الليل وهم قيام، وجاء النهار وهم صيام، وتورّعوا قبل الكلام، وسأوا على الدنيا لدار السلام، فالبطون جائئة والأجساد عارية.

يتزروا بمنز القنوع، وارتدوا برداء الخشوع، واستلذوا بشراب الدموع، ولولا صحو السهر والجوع ما بان عند الجبل هلال « يا ساريه ».

قوله تعالى : « فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ » قال ابن عباس : الواحها من ذهب مُكَالَّةٌ بالزَّبرجد والياقوت ، مرتفعة مالم يحى أهلها ، فإذا أراد صاحبها أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم ترفع .

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « وَفُرُشٌ مَرْفُوعَةٌ » قال : « والذي نفسى بيده إن ارتفاعها كما بين السماء والأرض » .

قوله تعالى : « وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ » وهى الأباريق التى لا عرى لها ، موضوعة عندهم وإنما كانت بلا عرى لأن الشربة ترد الشارب من جهتها وإمسا تراد العروة لِيُمْسَكَ بها الإناء . وقد قال أبو أمامة : إن الرجل ليشهى الشراب فيجىء الإناء فيقع في يده فيشرب ثم يمد مكانه . ثم هناك أباريق بعرى فقد جمع الشبان لهم .

قوله تعالى « وَتَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ » وهى الوسائد واحدها مُصَرِّقَةٌ بضم النون والراء ومِصْرَاقَةٌ بكسرهما . « مَصْفُوفَةٌ » بعضها إلى جنب بعض « وَزَرَائِي » وهى الطنافس لها حبل رقيق « مَبْنُوثَةٌ » كثيرة متفرقة .

يا غافلا عن هذه الدار ، يراضيا عن الصفا بالأكدار ، البدار البدار ، سابق وقوع الموت قبل فوت الاقتدار ، ويحك أمارى سلب الجار ، أما يَشُوقُكَ مدح الأبرار ، أما تخاف الشين أما تحذر العار ، إلى كم هذا الجبل والنفكار ، ما هذا التقاعد واللعيق^(١) قد سار ، إن طوفان الهلاك قد دار حول الدار ، وإن خيرات الأسفار إذا رآها الطرف حار ، يا سكران الموى قد قتل الخمار ، يا بصيرا هو أعمى « فإنها لا تَعْمَى الأبصار » .

روى ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنْ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ لَنْ يَنْظُرَ فِي مَلَكِهِ أَلْبَنَى سَنَةٍ ، وَإِنْ أَفْضَلُهُمْ لَنْ يَنْظُرَ فِي وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ » .

قال المفسرون : لما نمت الله عز وجل الجنة وما فيها يحب الكفار من ذلك فذكرهم صنعته وقدرته فقال : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ » وقال قتادة : ذكر الله عز وجل ارتفاع سُرر الجنة وفرشها فقالوا : كيف يُصمد إليها ؟ فنزلت هذه الآية .

قال العلماء إنما خص الإبل بالذكر لأن العرب لم يروا بهيمة قط أعظم منها ، ولم يشاهد النمل منهم إلا الشاذ ، ولأنها كانت أغنى أموالهم وأكثرها لا تفارقهم ، فيلاحظون فيها العبر الدالة على قدرة الخالق من عجائب خلقها ، وهي على عظمها مُدَلَّلة للحيثل الثقيل ، وتنفاد للصبي الصغير ، وليس في ذوات الأربع ما يحمل وقَّره وهو باريك فيعطيق النهوض به سواها .

يا مقيمًا قد حان ستره ، يا من عساكر الوقت تنتظره ، سيدزل الصعنة السقم ، وسينقلب الوجود العدم ، الساعات مراحل والموت ساحل ، البدار قبل فواته ، اجمع الزاد قبل شتائه :

إذا كنتُ أعلمُ علمًا يقينًا بأن جميع حياتي كساعةٌ
فلم لا أكون ضنينًا^(١) بها وأجعلها في صلاحٍ وطاعةٍ
كم أخطئُ للوت دارًا ؛ كم ترك المعمورَ فقارًا ، كم أوقد من الأسف نارا ، كم أذاق
النمص اللذة مرارا ، لقد جال يمينا ويسارا ، فما حابي فقرا^(٢) ولا يسارا . أين الجيش
المرمرم ، أين الكبير المعظم . إن الزمان يقدح في يلتم ، ألق أخيرا بمن تقدم وبني
يسيرا ثم هدم ، بيننا يرى بحر الأمل لمن نعيم آناه فرآه سرايا فتيم .

أين الذين على عهد الثرى وطنوا وحكموا في لذيذ العيش فاحتكموا
وملكوا الأرض من سهل إلى جبل وخولوا نصبا ما مثلها نسما
لم يبق منهم على ضن القلوب بهم إلا رسوم قبور حشوها ريم

(١) الأمل : طيننا . (٢) ت : فقيرا .

ساروا إلى دار الجزاء على الأعمال ، رحل القوم فأسأل الأطلال ، وإنما كانت فقيت
آجال ، لا يجهون داعياً ، القوم في اشتغال ، غالهم من الليل أقبح ما غال ، آلت أموالهم إلى
أكف الآل ، بضغ الأهل بضائهم وقلها إلى الأقال ، وتلذذوا بكذ غيرهم فكل ساباً
عن شئنا^(١) ، هذا مصيركم عن قريب ما يمر على البال « وتبين لكم كيف فعلنا بهم
وضربناكم الأمثال » .

وَمُسْتَدُونَ^(٢) تَعَارَوْا كَأْسَ الرَدَى ودعا بشر بهم الحسام فاسرعوا
بَرَكَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ بِجَرَانِهِ^(٣) وهفت بهم ربح الخطوب الزرع
خُرْسٌ إِذَا نَادَيْتَ إِلَّا أَنَّهُمْ وعظوا بما يزع الليب فاسمعوا
وَالدَّهْرُ يَنْتَكُ بِالنَّفُوسِ حِمَامَهُ فلن تعد كريمة أو تجمع
مَجْهًا لِمَنْ يُبْقَى ذَخَائِرُ مَالِهِ ويظل يحفظهن وهو مضيع
وَلِنَافِلٍ وَبَرَى بِكُلِّ تَنْبِيَةِ ملقى له بطن الصفاح مضجع
أَتَرَاهُ يَحْسِبُ أَنَّهُمْ مَا أَسَارُوا^(٤) من كاسه أضاعف ما يتجرع

كانكم بالأمور التنظيمية قد حلت ، وبالدنيا التي تولت قد تولت ، وبالنفس العزيزة
عند الموت قد ذلت ، وبماكم أخطأت وكم قد زلت ، متى يقال لهذه الفترة التي قد جلت^(٥)
قد تجلت ، مجها لنفس كلما عقدنا نعمها حلت .

أَوْجَزَ الدَّهْرُ فِي الْعِطَافَاتِ إِلَى أن جعل الصمت غاية الإنجاز
مَنْطَقٌ^(٦) لَيْسَ بِالتَّنْذِيرِ وَلَا الشَّعْرِ ر ولا في طرائق الرجز
وَعَدَتْهَا الْأَيَّامُ كُلَّ حَبِيبٍ وتكون الوعود بالإنجاز
وَاللَّيَالَى هَوَازِي^(٧) رَاجِعَاتٌ في أي جادها وفي هواز

(١) الشئنا : التفرق والنثر . (٢) مستدون : مصدون في الجبال . (٣) الجران : الصخر .
(٤) أساروا : أبوا . (٥) جلت : عظمت . (٦) الأصل : منطلقا . معرفة .

أَوْعَزَ الدَّهْرُ بِالنَّهْءِ إِلَى النَّاسِ فَوَاهَاً لَكَ الْإِيمَانِ
 أَعْرِضُوا عَنْ مَدَامِجِ وَتَهَانِ ظَلَامِي أُولَى بَكُمْ وَالتَّهَانِ
 أَحْضَرُوا قُلُوبَكُمْ لِلنَّصِيحِ وَالتَّوَامِي ، وَاحْضَرُوا يَوْمَ الْأَخْذِ النَّوَامِي ، تَذَكَّرُوا جَمْعَ
 الدَّانِي وَالْقَاسِي ، أَسْمَعْتَ يَا مَنْ يَرْوَحُ فِي الْعَاصِي وَيُنْكَرُ « فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مَذْكُرٌ » .
 وَاجْبِأْ كَيْفَ نَحْدِثُ السَّكْرَى وَقَدْ مَلَأْتَهُمُ الْغَفْلَةَ ، سَكْرَى مَا يَمْقُلُونَ إِلَّا بِطَارِقِ النَّكْرَاءِ ،
 وَكَمْ تُلَى عَلَيْهِمُ الْوَعْظُ ذِكْرَى ، هَيْبَاتُ إِنَّمَا تَنْفَعُ الذِّكْرَى الْمَذْكُرَ .
 أَيُّهَا النَّصِيحُ أَتَرَى الْمَنْصُوحَ أَسْمَ ، بَيْنَ لَهُ قُبْحُ مَا قَدْ جَمَعَ وَضَمَّ ، فَإِنْ أَعْمَلَهُ جَمِيعُهَا
 تَوْجِبُ الدَّمَ ، وَمَتَى رَأَيْتَ النِّسْيَانَ لِلْعَوَاقِبِ قَدْ عَمَ ، يَا مَنْ يَرَى هَوَاهُ الْخَاضِرَ وَيُنْسِي
 مَوْلَاهُ النَّازِلَ ، وَلَا نَاصِرَ لَهُ إِلَّا الْأَخِيرَ نَاصِرٍ ، عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ تَثَبَّتْ وَفَكَرَ ، كَأَنَّكَ بِمَنْزِلِ
 الْقَوَى وَمَقَرِّ النَّفَى وَمَوْقِظِ النَّفَى وَقَاصِمِ النَّفَى وَمَا يَأْتِي فِي زِيٍّ مَتَنَسَكِرَ .
 كَمْ أَجْرَى الْمَوْتُ دَمْعًا وَابِلًا وَرَذَاذًا ، كَمْ قَطَعَ الْبِلَاءُ صَحِيحًا فَجَعَلَهُ جُذَاذًا ، كَمْ مِنْ
 مَتَجَبَّرٍ أَذَلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ مَعَاذًا ، أَنْصَرَفَ صَحَّةَ هَذَا أَمْ تَنْسَكِرَ .
 كَمْ مَوْعُظٌ زُجِرَ فَارْعَوَى ، كَمْ فَاسِدٌ وَبِخٌ فَاسْتَوَى ، كَمْ مُسْتَقِيمٌ بِالْوَعْظِ بَمَدٍّ مَا التَّوَى ،
 عَادُوا إِلَى الزَّلْزِلِ بِمَوَاقِفِ الْهَوَى ، وَالْخَفَةِ أَنْ الْهَوَى يَمْسُكَ « فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مَذْكُرٌ » .
 وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

الجلس المسموع

في فضائل عثمان بن عفان

الحمد لله الذي لم يزل قديماً دائماً ، وخبيراً بالأسرار علماً ، قريب من شاء فجعله صائماً قائماً ، وطرد من شاء فصار في بيته الضلال هائماً ، يفعل ما يريد وإن يأبى العبد راغماً ، ويقبل توبة التائب إذا أمسى نادماً ، أحدهم حدثنا عن التقصير سالماً ، وأصلى على رسوله محمد الذي سافر إلى قاب قوسين ثم عاد غائماً ، وعلى صاحبه أبي بكر الذي لم يزل رفيقاً ملائماً ، وعلى عمر الذي يبعد ربه مُسيراً كائناً ، وعلى عثمان الذي قُتل مظلوماً ولم يكن ظالماً ، وفيه أنزل : « أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آتَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ^(١) » وعلى عليّ الذي كان في العلوم ببحراً وفي الحروب صارماً ، وعلى عه المباس الذي لم يزل حول نصرته حائماً . اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد واجعل ذكر الآخرة لقلوبنا ملازماً ، ووقفنا للتوبة توفيقاً جازماً ، وذكّرنا رحيلنا قبل أن نرى الموت هاجماً ، واقبل صالحنا واغفر لمن كان آتئاً .

أخبرنا هبة الله بن أحمد الحريري ، أخبرنا أبو طالب العشاري ، أنبأنا ابن سمعون ، حدثنا محمد بن يونس المطرزي ، حدثنا يعقوب بن إسحاق المكتّبة ، حدثنا يحيى بن سليمان الحماري ، حدثنا مسهر بن كدّام ، عن عطية ، عن ابن سميد الخلدري رضي الله عنه ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الليل رافعاً يديه يدعو لعثمان بن عفان . يقول : اللهم عثمان رضيته عنه فارض عنه . إلى أن طلع الفجر .

اعلم أن عثمان رضي الله عنه ممن تقدم إسلامه قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، فلما أسلم أخذه عنه الحكم بن أبي العاص فأوثقه رباطاً فلما رأى صلابته في دينه تركه . وهاجر إلى أرض الحبشة المهجرتين ، ومعه فيها رقيقة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن علي ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، أخبرنا
عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا الحجاج ، حدثنا ليث ، حدثني عقيل ، عن
ابن شهاب ، عن يحيى بن سعيد بن العاص ، أن سعيد بن العاص أخبره أن عائشة زوج
النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان حدثاه أن أبا بكر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو مضطجع على فراشه لا بس مِرْط عائشة ، فأذن لأبي بكر وهو على حاله ، فقضى إليه
 حاجته ثم انصرف . قال : وكذا عمر . قال عثمان : ثم استأذنتُ عليه فجلس وقال لعائشة
اجئني عليك ثيابك . قال : فقضيتُ إليه حاجتي ثم انصرفت ، فقالت عائشة : يا رسول الله
مالى لا أراك فرغت لا لأبي بكر ولا لعمر كما فرغت لعثمان ؟ قال : إن عثمان رجل حيي
وإني خشيتُ إن أذنت له على تلك الحالة أن لا يبلغ إلى في حاجته .

قال الليث : وقال جماعة من الناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« ألا نستحي عن تستحي منه الملائكة ؟ »

قال أحمد : وحدثنا أبو قطن ، حدثنا يونس ، يعني بن أبي إسحاق ، عن أبيه ،
عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، قال : أشرف عثمان من القصر وهو محصور فقال : أنشد
بالله من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حراء إذ اهتز الجبل فوقه برجله ثم قال :
اسكن حيراء ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد وأنا معه ؟ فأنشد له رجال . فقال :
أنشد بالله من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بيعة الرضوان إذ بمعنى إلى المشركين
أهل مكة قال : هذه يدي وهذه يد عثمان . فبأيع لي ؟ فأنشد له رجال . ثم قال : أنشد
بالله من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قال : « من يوسع لنا بهذا البيت في المسجد
بيت له في الجنة ؟ فابتمتته من مالى فوسعت به المسجد ؟ فأنشد له رجال . قال : وأنشد
بالله من شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جيش المُسرة قال : من ينفق اليوم
نفقة متقبلة فجهزت نصف الجيش من مالى ؟ قال : فأنشد له رجال . قال : وأنشد
بالله من شهد بثرومة يباع ماؤها لابن السبيل فابتمتها من مالى وأبعتها ابن السبيل ؟
فأنشد له رجال .

وقال عبد الرحمن بن سمرة : جاء عثمان بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيش المُسرة فصبتها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقلبها ويقول ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد هذا .

وقال عبد الرحمن بن خباب : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حثَّ على جيش المُسرة فقام عثمان فقال : يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأفتابها في سبيل الله . ثم حثَّ على الجيش فقام عثمان فقال : يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأفتابها في سبيل الله . قال : ثم حضَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجيش فقام عثمان فقال : يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأفتابها في سبيل الله . قال عبد الرحمن فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النسيب وهو يقول : ما على عثمان ما عمل بعد اليوم .

وروت عائشة رضى الله عنها قالت : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا عائشة لو كان عندنا من يمدتنا ؟ قلت : ألا أبعث إلى أبي بكر ؟ فسكت ثم قال : لو كان عندنا من يمدتنا قلت : ألا أبعث إلى عمر ؟ فسكت ثم دعا وصيفاً بين يديه فسأره فذهب قالت : فإذا عثمان يستأذن فأذن له فدخل . فتناجاه النبي صلى الله عليه وسلم طويلاً ثم قال : يا عثمان إن الله عز وجل مقبضك بقميص ، فإن أراد المنافقون على أن يتخذوه فلا تحمله لهم ولا كرامة . يقولها له مرتين أو ثلاثاً .

وقال مُطرف : لقيتُ علياً فقال لى : يا أبا عبد الله ما أبطأ بك عنا ؟ أحبَّ عثمان ؟ أما إن قلت ذلك لقد كان أوصلنا للرحيم وأتقانا للرب تعالى .

وقال الحسن : رأيت عثمان بن عفان يَقبل في المسجد وهو يومئذ خليفة ويقوم وأثر الحصى بجانبه فنقول : هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين .

قال شُرَحْبِيل بن مسلم : كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته فيأكل الخبز والزيت .

وقال ابن سيرين قالت امرأة عمان حين أطافوا به يريدون قتله : إن تقتلوه أوتركوه فإنه كان يحبي الليل في ركة يجمع فيها القرآن !

وقال ابن عمر : جاء علي^١ إلى عمان يوم الدار وقد أغلق الباب ومعه الحسن بن علي وعليه سلاحه فقال للحسن : ادخل إلى أمير المؤمنين وأقرنه السلام وقل له : إنما جئت لنصرتك فترني بأمرك . فدخل الحسن ثم خرج فقال لأبيه : إن أمير المؤمنين يفرئك السلام ويقول لك : لا حاجة لي في قتال وإمراق الدماء . قال : فززع علي^٢ حمامة سوداء فرمى بها بين يدي الباب وجعل ينادي : « ذلك ليتم أئى لم أخته بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين^(١) » .

وكان علي^٣ رضى الله عنه يقول : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان عن قال الله عز وجل [فيهم] « وزعنا ما في صدورهم من غل^(٢) » .
رأى الرسول في منامه ليلة قتله وهو يقول : أفتزل عندنا الليلة . فأصبح صائماً ، فلما دخلوا عليه ضربه رجل بالسيف فقطع يده فقال : أما والله لأؤول كنت^٤ خطت لفصل^(٣) .

شفت المرأة بالنطق شفت وأكف الزجر بالوعظ كفت
قد رأينا في الدنيا^(١) من عاهدت ورأينا غدورها إذ ما وقت
إن صفت عادت بتكدير الذي قد صفأ يا ونحما ما أنصفت
حلقت أن تخلف الماضي وما أخلفت إلا بأن قد أخلفت
وقفت لهو النفوس ساعة ثم غالت وقت فبا قفت^(٢)
ما يحبنا من مكر مكرها بل محبنا من نفوس عرفت
إخواني : قد أعذرت إليكم الأيام بمن سلب من الأنام ، وأبظت الخطوب

(١) سورة يوسف ٥٢ . (٢) سورة الحجر ٤٧ . (٣) أي : أنه أول من كتب القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم . (٤) الأصل : في الدنيا . (٥) قفت : أعطت . وغالت : أملت .

من غفل ونام ، وما على المنذر قبل الأخذ ملام ، أما علمتم أن هذه الدنيا غدارة ، أما
بَرَدَ لَهَا يَنْفَلِبُ حرارة ، أما رُبِّعَهَا على التحقيق خسارة ، أما يَنْقُصُ الدِّينَ كُلُّما ازدادت
عِمَارَةً ، لا نفرنكم فكم قد غرت سَيَّارَةٌ ، أما قُتِلَتْ أَحِبَّاءُهَا وإليك الإشارة ، إذا قال
حبيبها : إِنْهَا لِي وَمَي . قُتِلَتْهُ وَقَالَتْ اسْمِي يَا جَارَةٌ ، بَيْنَا نَوْرُهَا قَدْ لَاحَ وَسَنَحَ وَمَحَبَّهَا
فِي بَحْرِهَا قَدْ سَبَحَ ، يَسْمَى فِي جَمْعِهَا عَلَى أَقْدَامِ الْمَرْحَ ، كُلُّمَا جَاءَ أَبَاً مِنْ أَبْوَابِهَا فَتُحَ ،
وَكُلُّمَا عَاقَى أَمْرًا مِنْ أُمُورِهَا صُلِحَ ، وَكُلُّمَا لَاحَتْ لَهُ رِيَاضُ غِيَاضِهَا مَرَحَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي لَذَاتِهِ
يُذِيرُ الْقَدَحَ ، قَدْ حَزَنَادَ التَّمَّ فِي حَرَاقِ الْفَرْحِ ، فَمَنْ يَسْتَدْرِكُ مَا فَاتَ وَمَنْ يَدَاوِي مَا جَرَحَ ،
مَا نَفْعُهُ أَنْ تَزَحَّ الْجَفْنُ دَمْعَهُ إِذَا تَزَحَّ .

لَوِ رَأَيْتَهُ وَقْتَ التَّلَفِ شَاخِصًا ، وَفِي سَكْرَاتِ الْأَسَفِ غَائِصًا ، وَقَدْ عَادَ ظِلُّ الْأَمَلِ
قَالِصًا ، وَلَوْنُ السُّرُورِ حَائِلًا نَاقِصًا ، وَلَاحَ صَائِدُ اللَّتُونِ لَطَرِيدَتَهُ قَانِصًا ، يَتَمَنَّى وَقَدْ فَاتَ
الْوَقْتَ ، وَيَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ بَعِينَ لَمَقَاتٍ ، وَيَصِيحُ إِلَى أَنْصِيحَةٍ : قَدْ صَدَقْتَ ، أَمَلُ نَفَاثَةٍ
الْأَمَلِ ، وَنَدِمَ عَلَى الزَّادِ لَمَّا رَحَلَ ، فَلَوْ حَمَلَ حَبْلًا مَا حَمَلَ .

تَمَنَّتْ أَحَالِيبَ^(١) الرِّجَاءِ وَخَيْمَةَ بَنَجْدٍ فَلَمْ يُقَدَّرْ لَهَا مَا تَمَنَّتْ
إِذَا ذَكَرَتْ نَجْمًا وَطَيْبَ تَرَابِهِ وَبَرَدَ حِصَاةِ آخِرِ اللَّيْلِ حَنْتِ



رُبَّ يَوْمٍ مَعْدُودٍ لَيْسَ فِي الْمَدَدِ ، رَحِلَ الْإِخْوَانُ وَمَرُّوا عَلَى جَدَدٍ^(٢) ، هَذِهِ دِيَارُ
سُلُوكِهَا مَا بَقِيَ أَحَدٌ ، مَضَتْ وَاللَّهِ وَالْخَلِيلَ بِفِرْسَانِهَا ، وَتَهَدَّمَتِ الْحِصُونُ عَلَى سُكَّانِهَا ،
وَحَلَّتْ دِيَارُ الْقَوْمِ مِنْ قُطَّانِهَا ، فَجَزَّ عَلَيْهَا وَاعْتَبَرَ بِشَأْنِهَا .

يَا خَلِيلِي أَشْعِدْنِي عَلَى الْوَجْدِ لِي فَقَدْ يُسَمِّدُ الْجَيْمَ الْجَيْمُ
وَقَفَّابِي عَلَى الدِّيَارِ فَمَعْنَدِي مُقْعِدٌ مِنْ سَوَالِمِهَا وَمُقِيمٌ

(١) الأَحَالِبُ : جَمْعُ إِحْلَابٍ وَإِحْلَابَةٌ . قَالَ فِي الْهَاسَنِ : « وَالْإِحْلَابَةُ : أَنْ تَحْلِبَ لِأَهْلِكَ وَأَنْتَ فِي الرَّمْيِ
لِبَانَتِهِ تَبْعٌ بِهِ الْهَيْمُ ، وَقَدْ أَهْلَبَهُمْ ، وَاسْمُ الْإِحْلَابَةِ أَيْضًا .. يُقَالُ قَدْ جَاءَ بِإِحْلَابَيْنِ وَثَلَاثَةِ أَحَالِبٍ »
وَمَعْنَاهُ خَاسٌ بِالْإِبْلِ . الْهَاسَنُ ١/٣٢٠ . وَفِي الْأَصْلِ : أَحَالِبٍ . عُرْفَةٌ . (٢) الْجِدَّةُ : الطَّرِيقُ لِلتَّوَسُّطِ .

تنبيه لنفسك أيها المظلوم ، تيقظ من رقداثك فإلى كم نوم ، حصل شيئا ترضى به ،
«لخصوم ، قتلك هم الدنيا فبئس الهوم ، أتلعب بالأبتر^(١) ولم تشرب درياقي السموم ،
قد بقي القليل فبادر تحصيل لآروم ، هذا حاجم اللوت قد نهيا للهجوم .

يا فقيء المم مع كبره وقليل الحظ من عمره
كن مع الدنيا على حذر فامان للوه في حذره
واخذ زادا لمتنظر شأنه إزعاج منتظره .

أنجلى من الهوى كل يوم عروسا ، وتدير في مجالس النقلة كزوسا ، وتملا بالأموال
كيسا كيبسا ، وتنسى يوما شديدا عبوسا ، كم تلقى فيه هولا وكم ترى بوسا تخشع فيه
الأبصار وقد كانت شوسا^(٢) وينزعج لإلازله^(٣) إبراهيم وموسى ، واخلاق للفرع قد
نكسوا رهوسا ، وجاءوا عراة لا يملكون ملبوسا ، وصار كل لسان منطلق محبوسا ،
يا من تصير غدا في التراب مرموسا ، يا من لا يبعد في لحده غير عمله أنيسا ، يا من سيعود
عوده بعد التلقى يديسا ، يا مؤثرا رذيلًا ومضيعا نفيسا ، من لك إذا أوقد اللوت في الدار
وقطيسا ، وأخل ربنا قد كان يحملك مأنوسا ، فاليدار البدار لقد رحل لك عيسا ، وتب
فالتوبة تطرد الشيطان وما يلبث الله جال مع عيسى .

أفق وابك حانت كبرة ومشيئ أبك لللقى والحق فيك نصيب
أيام من له في باطن الأرض منزل^(٤) آتأس بالدنيسا وأنت غريب
وما الدهر إلا مر يوم وليسلة وما اللوت إلا نازل وقريب

(١) الأبتر : حية خبيثة . (٢) الشوس : جمع شوساء ، وهى التى تنظر بمؤخر العين كبرا .

(٣) ت : لهوله . (٤) ب : في باطن الأمر .

السلام على قومه تعالى والله يدعو إلى دار السلام^(١)

دار السلام هي الجنة وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال : أحدها : أن السلام هو الله ، وهي داره قاله ابن عباس والحسن وقاعدة والثاني : أنها دار السلامة التي لا تنقطع . قاله الزجاج . والثالث : أن تحية أهلها فيها السلام : ذكره أبو سليمان الدمشقي . والرابع : أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام ، ففي ابتداء دخولهم : « ادخلوها بسلام »^(٢) وحين استقرارهم : « وللملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ »^(٣) وكذلك قوله . « إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا »^(٤) . وعندئذ رؤية ربهم عز وجل : « تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ »^(٥) .

عزت الدار وجلّ للزّام ، ونال ساكنها فوق المرام ، فهاشغولها عنها بأضغاث أحلام ، وصل كتاب الملك العالم « والله يدعو إلى دار السلام »
دار الإعزاز والإكرام ، بُنيت لقوم كرام ، لا غُرْم فيها ولا غَرَام ، ما يسكنها من يُضام ، ثمنها لا يشتري بَيْنَ صلاة وصيام ، نعيمها في دوام لغاتها في تمام ، والخور في القصور والخيام ، شهواتها لم تخفّر على الأوهام ، انتبهوا لطلبها يا نيام ، قد جمعت كلّ مشتهى وزادت على كل الغرض المفتهى ، محباً لمن غفل عنها وسها ، انهض لها يا غلام « والله يدعو إلى دار السلام » .

أما أن يصاح أن تَسْتَفِيحاً وأن تأنّين الحَيّ والْقَيُّومَ
وقد ضحك الشَّيْبُ فاحزنْ له وصار مساؤك فيه شروقاً
وركب أُناسهم وقد عرَّسوا على القاع راعي المنايا طروقاً

(١) سورة يونس ٢٥ . (٢) سورة الحجر ٤٦ . (٣) سورة الرعد ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) سورة الواقعة ٢٦ . (٥) سورة الأحزاب ٤٤ .

يُدير عليهم كؤوس اللون صَبُّوا على كرهها أو غَبُوقاً^(١)
وما زال فيهم غُرَابُ الحُكَّامِ يُسمِهم للناسِ نَيْفًا
ويَحْيِلُ في عَرَصاتِ القصور حتى أَعَادَ الفَيْصَاءُ ضَيْقًا
ألا فَازَجِرَ النَّفْسَ عن غَيْبِهَا تَجُوزُ إلى الصَّرَاطِ الدَّقِيقَا
وَدُونِ الصَّرَاطِ لَنَا مَوْفَقٌ بهِ يَتَنَاسَى الصَّدِيقُ الصَّدِيقَا
فَتُبْصِرُ مَا شِيتَ كَفَاً يُعْضُ وَعَيْنَا نَحْوَ وَقَلْبَا خَفُوقَا
إِذَا طُبِّقَتْ فَرَقَهُمْ لَمْ تَكُنْ لِنَسْمَعِ إِلَّا الْبُكَاءَ وَالشَّهْقَا
شَرَابُهُمُ الْمُهْلُ في قَعْرِهَا يَقْطَعُ أَوْصَالَهُمُ وَالْعُرُوقَا
أَذْكَاءُ خَيْرٌ أَمْ الْقَاصِرَاتُ تَحَالُ مَبَاسِمِ السُّيُوفَا
فَصُرْتُ عَلَى حُبِّ أَزْوَاجِهِنَّ مَشْتَاكَةً تَتَلَقَّى مَشُوقَا
وَبَرَّظُنَّ في سَرَاقَاتِ^(٢) الْحَرِيرِ فَخَصِرُ عَيْنَاكَ أَسْمَاً أُرَيْقَا
وَأَكْوَابِهِمْ ذَهَبٌ أَحْمَرٌ يَطْلَفُ بِهَا مُتَرَعَاتٍ رَحِيقَا
إِذَا جَرَّتِ الرِّيحُ فَوْقَ الْكَثِيبِ أَثَارَتْ عَلَى الْقَوْمِ مَشْكَاءَ سَحَابَا
وَيَوْمَ زَلَّاهُمْ يَرْكَبُونَ إِلَيْهِ مِنَ النُّورِ مُجْبَاً وَنُوقَا
كَلُوا وَاشْرَبُوا فَلَقَدْ طَالَا أَقْتَمَ بَدَارُ الْغُرُورِ الْحَقُوقَا

أخبرنا ابنُ الحُصَيْنِ ، أَنبَأَنَا ابنُ اللَّذِيبِ ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بنُ جَعْفَرٍ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ
ابنُ أَحْمَدَ ، حَدَّثَنِي أَبِي ، حَدَّثَنَا أَبُو النُّضْرِ ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ ، عَنْ سَمْعَانَ [عَنْ] أَبِي الدُّدَّةِ أَنَّهُ سَمِعَ
أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدَّثْنَا عَنْ الْجَنَّةِ مَا بَلَاؤُهَا ؟ قَالَ : كَيْفَةُ
فَضَّةٍ وَلَبَنَةٍ ذَهَبٍ ، وَمَلَأُهَا لِلْسَّكِّ الْأَذْفَرِ وَحَصْبًا وَهُوَ الذُّلُوزُ وَالْيَاقُوتُ وَتَرَابُهَا
الزُّعْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْئَسُ وَيُغْلَدُ لَا يَمُوتُ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ^(٣) .

(١) الصُّبُوحُ : الشُّرْبُ أَوَّلَ النَّهَارِ . وَالنَّبَقُ : مَا يَضْرِبُ بِالْمَعَى .
(٢) السَّرَقَاتُ : جَمْعُ سَرَقَةٍ وَهِيَ شَفَّةُ الْحَرِيرِ . (٣) مُسْنَدُ أَحْمَدَ حَدِيثُ ٨٠٣٠ .

وفي حديث آخر أنه ذكر الجنة فقال : « ألا منشئ لها ؟ هي ورب الكعبة
ريحانة تهتز ونور يتلألأ ، ونهر مطرد ، وزوجة لا تموت في حبور ونعيم
مقام أبداً » .

قوله تعالى « وَيَهْدِي مِنْ بَشَاءٍ » عمٌ بالدعوة وخص بالهداية إذ الحكم له
في خلقه .

وفي الصراط المستقيم أربعة أقوال : أحدها : كتاب الله . رواه علي عن النبي
صلى الله عليه وسلم وسلم . والثاني : الإسلام . رواه النُّوَّاسُ بن تَمَّعَان ، عن النبي صلى
الله عليه وسلم . والثالث : الحق قاله مجاهد . والرابع : الخرج من الضلال والشبهة .
قاله أبو العالية .

قوله تعالى : « الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَى وَزِيَادَةً » أحسنوا : عملوا بما أمروا به .
يا من لا يُحْسِنُ أَنْ يُحْسِنَ اسمع صفة المحسن :

أقلقهم الخوف والفرق ، أحرقهم لذكر الموت الأرق ، طعامهم ماحض من
حلل وانفق ، يانورهم في الدجى إذا دحى النَّسَق ، واحسنهم وجُندُ الدمع غُدق
بسور الحدق ، انقطع سيلك الدامع فالت على نَسَق ، وكتبت على صحائف الخلدود
النَّدَرُ لافي ورق ، فإن كان اللداد سواداً فذا اللداد يقق^(١) ، والدة تضرعهم وباطيب
الملتق ، أذاب الخوف أجسامهم فسا أبقى إلا الزَّمَق ، ربحت تجارنتهم وبتاع
الغافل مانق .

وما كل من أوتى إلى العزَّ ناله ودون العلى صَرَبٌ يَدْمَى النواصيا

جرت دموع حُزْنِهِمْ في سواق أسفهم ، إلى رياض صفائهم فأورقت أشجارُ

(١) اليق : القيد اليائس .

وَسَالَمَ ، وَدَمْعُهُمْ تَجْرَى كَالدَّيَمِ كُلِّهَا ذِكْرُوا زَلَّةَ قَدَمٍ ، يَرْعُونَ الْمَهْدَ وَالْقَدَمَ ،
يَحْذَرُونَ نَارًا تُعِيدُ الْجِسْمَ كَالْجِلْمِ ، يَخَافُونَ حَرَّهَا وَمَنْ لَهُ بِتَحِيَّةِ الْقَسَمِ ^(١) ، اللَّيْلُ قَدْ
سَجَى وَالْدَّمْعُ قَدْ سَجِمَ ، يَرَاوَحُونَ بَيْنَ الْجَبِيَّةِ وَالْقَدَمِ ، كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عِنْدَ الْفَقْدِ بَيْنِ
الْقَسَمِ ، نَافَهُ مَا جَعَلَ مِنْ نَامٍ مِثْلَ مَنْ لَمْ يَنْهَ ، جَاعُوا مِنْ طَعَامِ الْهَوَى وَأَذَاكَ التَّغْنَمِ ،
يَاقِيْبِيحُ الْعِزَائِمِ يَاسَيِّئُ الْهَمِّ ، يَأْصِرْخُولُ الصِّفَاتِ يَأْذِي الشَّيْءَ ، كَأَنَّكَ بِكَ تَتَمَنَّى إِذَا
حُشِرْتَ الْمَدَمَ ، نُثِرَتْ عَطَالِي الْأَسْعَارِ فَبَسَطَ الْقَوْمَ حُجُورَ الْأَمَالِ كَاتَبُوا بِالْمَعْمُوعِ
لِجَاهِهِمُ الْطَفُّ جَوَابَ ، اجْتَمَعَتْ أَحْزَانُ السَّرِّ عَلَى الْقَلْبِ فَأَوْقَدَتْ حَوْلَهُ الْأُسْفَ ، وَكَانَ
الدَّمْعُ صَاحِبَ الْخَطْبِ قَتَمَ .

كَانَ عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَثِيرَ الْبُكَاءِ ، فَأَزَالَ يَبْكِي حَتَّى بَكَى الدَّمَّ .
تَقَرَّبَ لَوْ أَنَّ الْمَدَادَ يَجِبُ الْقَارِي !

هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ فِيهِ مَحْذُورٌ يُنَبِّئُكُمُ الْيَوْمَ عَنْ سُقْيِي وَعَنْ أَلِي
أَجَلْتُ ذِكْرَكُمْ عَنْ أَنْ يَدْنُسَهُ لَوْ أَنَّ الْمَدَادَ فَقَدْ سَطَرَتْهُ بَدْمِي
وَلَوْ قَدَرْتُ عَلَى جَفْنِي لِأَجْمَعُهُ طَرَسِي وَأُبْرِئِي عِظَامِي مَوْضِعَ الْقَلَمِ
لَكَانَ هَذَا قَلِيلًا فِي مَحَبَّتِكُمْ وَمَا وَجَدْتُ لَهُ وَاللَّهِ مِنَ الْمَرِّ

نَافَهُ مَا نَالَ الْكَرَامَةَ إِلَّا مَنْ قَالَ لِلْكَرَى : مَهْ . إِنْ أَرَدْتَ لِحَاقِهِمْ فَطَلِقِ الْهَوَى
طَلِاقَ الْبَتَاتِ ، اخْلُ بِنَفْسِكَ فِي بَيْتِ الْفِكْرِ وَخَاطِبِهَا بِلِسَانِ النِّصَحِ ، وَاعْزِمْ عَلَى
الْوَفَاقِ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ ، قِفْ عَلَى بَابِ الْعَصْرِ سَاعَةً وَقَدْ رَكِبَ عَلَى قَلْلِ الْمُسَرِّ
مِفْتَاحَ النِّجَاحِ .

فَأَمَّا الْحَسَنِيُّ فَعَنِ الْجَنَّةِ . وَالزِّيَادَةُ : التَّنْظَرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(١) يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَعْلُومًا »

أخبرنا أبو القاسم الحريري، أنبأنا أبو طالب المَشَارِي حدثنا أبو الحسين بن سمعون، حدثنا محمد بن محمد بن محمد، حدثنا حسين بن بحر، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي كَيْلٍ، عن صُهَيْب رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» قال: إذا دخل أهلُ الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: «يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُتَجَزَّأَكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يُنْقَل موازيننا وَيُبَيِّضْ وجوهنا وَيُجْرَّنا من النار! فيكشَف الحجاب فينظرون إلى الله عز وجل فما شئ أعطوه أحبَّ إليهم من النظر إليه. وهى الزيادة.

انفرد بإخراجه مسلم^(١).

وفى الصحيحين من حديث جَرِير بن عبد الله أنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم [إذ نظر إلى القمر]^(٢) ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم عز وجل كما ترون [هذا]^(٣) القمر لا تُضَامُونَ في رؤيته^(٤).

أخبرنا السَّكُونِيُّ، أخبرنا أبو عاصم الأزدي وأبو بكر التَّوْرَجِيُّ، قالا أخبرنا الجراحى، حدثنا العَبَّاسِيُّ، حدثنا الترمذى، حدثنا سُؤَيْد بن نصر، أنبأنا ابن المبارك، أخبرنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لَبَّيْكَ ربنا وسَمْدُكَ. فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولون: بآلنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم نعطِ أحداً من خَلْقِكَ. فيقول: إني لأعطيكم أفضل من ذلك: قالوا: وأى شئ أفضل من ذلك؟ قال: أحِلَّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً.

(١) صحيح مسلم حديث رقم ١٨١ : ط عبد الباقي . (٢) من صحيح البخارى .

(٣) صحيح البخارى ٢٣١/٤ . وصحيح مسلم حديث رقم ١٨٢ ، ١٨٣ باختلاف . ومعنى تضامون : تزاوجون .

لِ إِلَى وَجْهِكَ شَوْقٌ وَإِلَى قُرْبِكَ طَائِفَةٌ
لَيْسَ لِي وَاللَّهِ يَا سُبُّو لِي بِهِجْرَانِكَ طَائِفَةٌ
لَا وَلَا حَدَّثَتْ عَنْ حَبِكَ قَلْبِي بِطَائِفَةٍ

سميع على قوله تعالى

﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ۖ ﴾^(١)

سبعان من اختار أقواماً للإفادة ، فصارت نسبتهم في تحصيل استفادة ، وما زالت
بهم الرياضة حتى تركوا العادة ، شغلهم غاؤفهم عن كل عادة ، وأنالهم للقائم الأسى
﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ۖ ﴾ .

كلٌ منهم قد هجر مراده ، وشمّر لتصحيح الإرادة ، علت همهم فطلبوا الزيادة ،
وعاملوا محبوبهم برجون وِداده ، ورفضوا مكتوب الحزن وجعلوا الجمع مِدَادَهُ ﴿ الَّذِينَ
أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ۖ ﴾ .

رفضوا الدنيا شغلاً بالدين ، وسلكوا منهاج الهدى ، وسابقوا سباق العابدين ،
فصاروا أئمة للريدين وقادة ﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ۖ ﴾ .

هجروا في محبته كل غرض ، وأقبلوا على أداء للقرض ، والتفتوا إلى الجوهر
معرضين عن القرض ، فأغفلهم الخوف فصاروا كالحرص ، بالله من مرض لا يقبل عبادة
﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ۖ ﴾ .

لورأيتهم والليل قد سحى ، وقد أقبلوا إلى باب المرتضى ، فلم يجدوا دون ذلك الباب
مُرْتَجَاً ، حللوا في غلام الدجى على هجر الوسادة ﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ۖ ﴾ .
سبعان من أنعم عليهم وأعطاهم ، وأعطاهم مناسم وزادهم ، ما ذاك بقوتهم بل هو
أرادهم ، سبقت إرادتهم تلك الإرادة ﴿ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةً ۖ ﴾ .

لطف بهم وهَدَاهُمْ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَرَاعَاهُمْ ، وَعَطَشُوا مِنْ مِيَاهِ الْهُوْىِ فَسَقَامُ ،
وَذَلَّلُوا لَهُ النُّفُوسَ فَرَقَّاهُمْ إِلَى مَقَامِ السَّادَةِ « الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَى وَزِيَادَةَ » .
أَجْرِي لَمْ أَجْرًا لَا يَوَازِي ، وَوَهَبَ لَمْ فِي مَنَازَةِ الْخَطَرِ مَقَازًا ، وَأَنْجِزَ مَوْعِدَهُ
يَوْمَ الْقِسَاءِ لِأَنْجَازَا ، وَجَازَى عِبَادَهُ عَلَى سَابِقِ الْعِبَادَةِ « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
الْحَسَنَى وَزِيَادَةَ » .

المجلس الحادى والثلاثون

فى فضل على بن أبى طالب رضى الله عنه

الحمد لله الذى أصبحت له الوجوه ذليلة عانية، وحذرت النفوس مُجذبة ومتوانية، وعظ فذم الدنيا الحقيرة الفانية، وشوق إلى جنة قُطوفها دانية، وخوف عطاش الموى أن يُسْقُوا من عين آية، أحده على ترويم شأنه وأستعينه من شر شائى وشائنة. وأحصل بتحقيق التوحيد إيمانيه، وأصلّى على رسوله محمد صلاة مبهمة لمزة بانية، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق السابق فى الوفاق والاتفاق وفى الدار والفرقة فى الفار، أربح للفخر بانية، وله فضيلة التخلل والتقال والرأفة والخلافة، صارت ثمانية، وعلى عمر مقيم السياسة على كل نفس جانية، وعلى عثمان الذى اختاره الرسول بعد ابتغى للثانية، وعلى على المنزل فيه «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية»^(١) وعلى عمه العباس المستنقى بشيئته فإذا أسباب الغيث والنوثر دانية.

أخبرنا أبو القاسم السكاتب، أنبأنا أبو على التميمى، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنى أبى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن مُصَنَّب بن سعد، عن سعد بن أبى وقاص، قال: خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فى غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تخلفنى فى النساء والصبيان؟ قال: أما ترضى أن تكون مئى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي^(٢) ١٢٠.

قال أحمد: وحدثنا مُقَتِّبَة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر لأعطين هذه الزاوية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس

(١) سورة البقرة ٢٧٤. (٢) صحيح البخارى ٧٧/٣ وصحيح مسلم حديث رقم ٢٤٠٠.

يَدُوكُونَ^(١) أَيُّهُمْ يُنْطَاها فلما أصبح الناس غدّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يُنْطَاها ، فقال : أين على بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يا رسول الله يشتكي عينيه . قال فأرسلوا إليه . فأتى به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعاه ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال على : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : « انفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم^(٢) » .

قال أحمد : وحدثننا ابن نَصِير ، حدثنا الأعمش ، عن عدوى بن ثابت ، عن زرّ ابن حُبَيْش قال : قال على : والله إنه لمّا عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه لا يُبْغَضُ إلا منافق ولا يَحِبُّ إلا مؤمن^(٣) .

افرد مسلم بإخراج هذا الحديث وانفقا على الحديثين قبله .

اعلم أن علياً رضي الله عنه لا يزاحم في قُرب نسبته وقد أقرّ الكل رِحمته وفضله .
وُبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع سنين فتبّعه ، ولم يزل معه يَكْشِفُ الكروب عن وجهه . وصعد على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى صنماً .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن علي ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا أسباط ، حدثنا نعيم بن حكيم ، عن أبي مريم ، عن علي بن أبي طالب قال : انطلقت أنا والنبي صلى الله عليه وسلم حتى أتينا السكبة فقال لي : اجلس . وصعد على منكبي فذهبت لانهض فلم أقدر ، فرأى مني ضعفاً فنزل وجلس

(١) يدوكون : يخوضون ويصعدون . (٢) صحيح البخاري ٢/٢٤٢ وصحيح مسلم حديث

رقم ٢٤٠٦ (٣) صحيح مسلم حديث رقم ٧٨

إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم وقال : اصمد على منكبي . فصمدت على منكبه . قال :
فنهض في قال : فإنه يحيل إلى أنى لو شئت لملت أفق السماء ، حتى صمدت على البيت وعليه
تمثال صُفْر أو نحاس ، فجعلت أزاوله عن يمينه وشماله وبين يديه ومن خلفه ، حتى إذا
استمكننت منه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقذف به . فقفذتُ به فكسر كما
تكسر القوارير ثم نزلت ، فانطلقتُ أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نَتَقِبُ حَقِ
تَوَارِبِنَا بِالْبُيُوتِ خَشِيَةَ أَنْ يَلْقَانَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ .

وكان الخلق يحتاجون إلى علم على حتى قال عمر رضي الله عنه آه من مُضْطَلَّةِ لَيْسَ
لَهَا أَبُو حَسَنٍ .

فلسا ولئى لم يتغير عن الزهد في الدنيا وكان أحمد بن حنبل يقول : إن علياً
ما زانته الخلالة ولكن هوزانها .

ما زانته للملك إذ حواه بل كل شيء به يُرَّانُ
جرى ففات للوك سباً فليس قدأمه عِساكُ
نالتُ بداه ذرى مَعَالٍ يَمِيزُ عن مثلها العِيانُ

أخبرنا محمد بن أبي منصور، أخبرنا جعفر بن أحمد ، أخبرنا الحسن بن علي ، أن أبانا
أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي ، حدثنا وهيب بن إسماعيل ، حدثنا
محمد بن قيس ، عن علي بن بن ربيعة ، عن علي بن أبي طالب أنه جاءه ابن النُّبَّاح فقال :
يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء . قال : الله أكبر . قال : فقام
متوكئاً على ابن النُّبَّاح حتى قام على بيت المال فقال :

هذا جنائي وخياره فيه وكل جانب يَدُّه إلى فيه^(١)

(١) الجي : ما يجي من الشجر . وهذا التل لسرو بن عدى الخمي ابن أخت جذية بن الأبرش ، وهو
أول من قاله . وأراد على رضي الله عنه : أنه لم يطلع بهي من فيه اللعين بل وضعه في مواضعه .
السان ١٦٩/١٨ .

فأعطى جميع ما في بيت المال للمسلمين وهو يقول : يا صفراء يا بيضاء غرّيتي غيري .
حتى ما بقي فيه دينار ولا درهم ثم أمر بفضحه وصلى فيه ركعتين .

أخبرنا محمد بن عبيد الباقر ، أنبأنا الجوهري ، أنبأنا ابن حيوية ، حدثنا أحمد
ابن معروف ، حدثنا الحسين بن القهم ، حدثنا محمد بن سعد ، أنبأنا الفضل بن دُكَيْن ،
حدثنا الحُرّ بن جُرموز ، عن أبيه ، قال : رأيت علياً وعليه قطريتان^(١) إزار إلى نصف
الساق ورداء مشمّر ، ومعه درّة له يمشي بها في الأسواق يأمرهم بتقوى الله وحسن البيع
ويقول : أوفوا الكيل والليزان .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب الصوفي ، أنبأنا أبو سعيد بن أبي صادق الحبيري ، حدثنا
أبو عبد الله بن باكرية الشيرازي ، حدثنا عبد الله بن فهد بن إبراهيم الساجي ، حدثنا
محمد بن زكريا ، حدثنا العباس بن بَكَّار ، حدثنا عبد الواحد بن أبي عمرو الأسدي ،
عن السكّلي ، عن أبي صالح قال : قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن حَزْة : صف لي
عليّاً فقال : أو تمنّني . قال : بل تصفه . فقال : أو تمنّني . قال : لا أحفيك . فقال :
أما إن لا بُدَّ فإنه كان بمعدّ الذي شديد القوى ، يقول فصلاً ومَحْكَمَ عدلاً ، يتفجر العلم
من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل
وظلمته ، كان والله غزير الدّمة طویل الفِكرَة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يُعْجبه من
الباس ما حَسُنَ ومن الطعام ما جَسِبَ^(٢) ، كان والله كأحدنا يمجينا إذا سألناه ويتدنّا
إذا أتينا ، وبأيتنا إذا دعوانا ، ونحن والله مع تفرّبه لنا وقرّبه منا لا نكلمه هيبَةً
[له^(٣)] ولا نبتديه تعظمة ، فإن تبسّم فمن مثل اللؤلؤ للنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب
المساكين ، لا يطلعُ القويُّ في باطله ولا يياسُ الضيفُ من عدله ، فأشهد بالله لראيته
في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سُجُوفَه وغارت نجومُه ، وقد مثّل في محرابه قابضاً
على لحيته يتنمّل تملل السّلم ويسكى بكاء الحزين وكأنّ اسمه وهو يقول : يا دنيا

(١) القطرية : ثياب خشنه منسوبة إلى قطر : مدينة بالبحرين .
(٢) ما جَسِبَ : ما غلط ،
أو كان بلا آدم . (٣) من ت .

يا دنيا أبى نمرضت أم فى تشوفت^(١)؟ هيهات غرئى غيرى ، قد بئتك ثلاثا لا رجعة
لى فىك ، فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير ، أه من قلة الزاد وبُعد السفر
ووحشة الطريق .

قال : فذرفت دموع معاوية فسايملكها وهو ينشفها بكفه ، وقد اختنق القوم
بالبكاء ، ثم قال معاوية : رحم الله أبا الحسن ! كان والله كذلك ، فكيف حزنك
عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من دُبح ولدها فى جبرها فلا ترقا عيرتها ولا يسكن حزنها^(٢) .

الكلام على البسملة

أهوى علياً وإيماناً تحبته كم مُشرك دمه من سيفه وكفا^(٣)
إن كنت وقحك لم نسمع مناقبه فاسمع مناقبه من «هل أتى» وكفى
كان عليه السلام^(٤) خليقاً بالسيادة ، إن نظرت فى علمه فقد احتاج إليه السادة ،
وإن نظرت فى زهده فلا فراش ولا رسادة .

وحن إليه الملك عند ولادته وصافح كفاً اللئيم وهو فى الهدى
وأحكمه التجريب كهلأ ويافأ يُنقله من شأو يَجِد إلى يَجِد
تنقل منه رتبة بسد رتبة كما ازداد طول الرُنع عقداً على عقده
ولم ير إلا الكدّ راحة نفسه وثيل للئى يُنسَى الفتى نعب الكدّ^(٥)
إذا لاحظَ الغايات عادت فريسة مقيدة من ناظر الأسد الورود^(٦)
كان يشبه القمر الزاهر والبحر الزاخر والأسد الحادير^(٧) والربيع الباكر ، أشبه من
القمر ضوءه وبهائه ، ومن الغراب حدّره ومن الديك سخاهه ، ومن الأسد شجاعته
ومضاهه ، ومن الربيع خصبه وماءه .

(١) ب : تشوفت . (٢) ت : ولا تكن حسريها . (٣) وكف : سال .
(٤) يشير إلى قوله سبحانه « ويعلمون الطعام على حبه مسكناً ويتها وأسبها » سورة الدهر . وروى
أنها نزلت فى علي وفاطمة رضى الله عنهما . (٥) ت : كان على رضى الله عنه .
(٦) الورود : من أسماء الأسد . (٧) الحادير : من أسماء الأسد . كالميد .

لَا لَوْهُ وَمَضَاوُهُ وَغَنَاوُهُ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
فَمَتَى رَأَى زَلَلًا أَمَا لَ وَإِنْ رَأَى نَخَلًا تَقَعْدُ
وَيَخَافُهُ الْقَوْمُ الْبَرَاءُ وَلَا أَخَافَ وَلَا تَهْدُدُ
لَكِنَّهُ لَيْسَ لِلْمَهْمَا بَقَّةٌ فَالْقَرَانِصُ مِنْهُ تَرَعْدُ
وَإِذَا ارْتَأَى فَكُنْ رَأَى وَإِذَا سَهَا فَكُنْ تَقَعْدُ
وَإِذَا تَأَمَّلَ أَمْرَهُ فَهُوَ الشَّهَابُ إِذَا تَوَقَّعْدُ
هَذَا لَقَمْرُكَ سُودِدَ لَكِنَّهُ أَيْضًا مُؤَكَّدُ

كَانَ يُظَنُّ فِي الْكُرْمِ بَحْرًا وَيُنَسَّبُ لِقَطْعِهِ لِلْحُسْنِ سِحْرًا ، إِذَا أَنْشَأَ فَصَلًّا رَأَيْتَهُ يَقُولُ
فَصَلًّا ، وَإِذَا أَصْلَ أَصْلًا^(١) ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِثْلَهُ أَصْلًا ، كَانَ يَقُولُ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ :

إِذَا لِلشَّكَلَاتِ نَصْدُورٌ لِي كَشَفْتُ حَقَائِقَهَا بِالنَّظَرِ
وَإِنْ رَفِيعَتْ^(٢) فِي مَحَلِّ الصَّوَابِ غَمَمَاهُ لَا يَحْمِلُهَا الْبَصَرُ
مُقَنَّمَةٌ بِمِصْرُوبِ الْأُمُورِ وَضَعْتُ عَلَيْهَا صَمِيمَ الْفِكْرِ
لَسَانٌ كَيْفَ شَقَقِ الْأَرْحَى أَوْ كَلَامُ الْحَكَمِ الذِّكْرِ^(٣)

بَادَرُ الْفَضَائِلِ فَكَانَ فِي الْأَوَائِلِ ، وَخَاضَ بِحَرِّ الشَّجَاعَةِ فَلَمْ يَرْضَ بِسَاحِلِ ، وَحَازَ
الْمَعْلُومَ فَخَارَ الْجَوَابِ السَّائِلِ ، وَلَازِمَ السَّهْرِ لِيَسْمَعَ : « هَلْ مِنْ سَائِلٍ » وَزَعِدَ فِي الدُّنْيَا لِأَمِّهَا
أَيَّامَ فَلَاتِلِ .

الْقَائِدُ الْخَلِيلُ تَرْغِيهَا شَكَايَهَا وَالطَّيْمُ الْبَزْلُ بِالْأَيْمُونَةِ الْقَاعِ^(٤)

(١) أَصْلُ : كَانَ لِفَرْبِهِ صِلِيلٌ لِي الْحَرْبِ . وَأَصْلُ : ضَرْبٌ ضَرْبًا غَدِيدًا . (٢) رَقِيتُ : صَعِدْتُ .
(٣) الشَّقِيقَةُ : شَيْءٌ كَالْمَارَّةِ يَمْزِجُهُ الْبَحِيرُ مِنْ لَبِئِهِ إِذَا هَاجَ . وَالْأَرْحَى : فَعْلٌ . تَنْسِبُ إِلَيْهِ النِّجَابِ
الْأَرْحِيَّاتِ . (٤) وَتَرْغِيهَا : تَحْمِلُهَا تَرْغِي ، أَيْ تَصَوْتُ . وَهُوَ لِي الْأَصْلُ صَوْتُ الْإِبِلِ . وَالشَّكَايُ :
لَعَلَّهَا جَمْعُ عَكَاعٍ وَهُوَ جَهْرُ شَكَاةٍ ، وَهِيَ شَوْكَةٌ تَمْلَأُ قَمَّ الْبَحِيرِ لَا وَرَقَ لَهَا . وَالْبَزْلُ : جَمْعُ بَزْلٍ وَهِيَ النَّاقَةُ
الَّتِي تَطْلُعُ تَابَهَا . وَالْأَيْمُونَةُ : الْفَلَاةُ الرَّاسِمَةُ . وَالْقَاعُ : الْأَرْضُ السَّهْلَةُ لِلْمُحَبَّةِ .

مايات إلا على قم ولا اغتمضت عيناه إلا على عزم وإذماع
خطيب تجمة نسلي شقائقه إذا رموه بأبصار وأسماع
يدوق بالعين طعم النوم مضمة إذا الجبان ملا عيناً بتهجام
سبعان من جمع له المناقب والفرائد ، بحر من البراعة ونجم من الشعاع نأقب

جلى الكروب ولت الحروب في الرهج الأشنع الأصهب^(١)
وبحر العلوم وغيظ الخصوم متى يطرع وهم يقلب
قلب في فته يقول^(٢) كشفتة الحبل للصعب
وكان أخاً لنبي الهدى وخص بذاك فلا يكذب
وفي ليلة الفار وآق النبي حشاه إلى القلق الأشهب
وبات دؤبته في الفراش موطن نفس على الأصعب
وعمر بن وقار وأحزابه سقام حيا للوت في يثرب
وسل عنه خير ذات الحصون فترك عنه وعن مرنجب
وسبطاه جدما أحمد ففتح^(٣) بجدهما والأب

كان يغير خونه إذا جن الليل أط^(٤) ، وموسى ولايته إذا رأى خراج ظلم بطأ ،
برى إلى جوفه لقم الشعير لا الدجاج ولا البط ، تربت الدنيا لباسها فزق لباسها وقطأ ،
كان إذا علا كرب الكرب علا عليه وخطأ ، ما برى قلم رأس من رؤساء الكفر قطأ
إلا قطأ^(٥) ، رقم الجهاد في وجهه الكريم ضربه في الزمان كله وخطأ ، فيا حسنه من
مكتوبه ويا شرفه من خطأ ، كان يفتخر بأخوة الرسول ويحق له ما استط .

كريم النجار عفيف الإزار حوى الكرمات وشادا الفخارا

(١) الرهج : النيار : والأشنع : لا تقصر . والأصعب ما به صعبة ومى الحرة . (٢) القول : اللسان .

(٣) فتح : كلة يقال عند الإعجاب والفتور . (٤) ألقت الإبل : أت تبا أوحتنا أوروثة .

(٥) قطأ : قطع .

أعاد وأبدى وللفضل أُنْدَى وللقرب أُرْدَى وللرجح بَارَى
كريم الصنعة ضخم الدسيسة سهل الشريعة لم يَأْتِ عَارَا
غنى للفقير ونعم النصير إذا للمتجبر إليه استجارَا
بخوض النمار ويمحى الدمار ويبقى الفخار ويرعى الجوارَا

طلالت عليه أيام الحياة وكان يستبطن القاتل حباً للقائه ربه ، فيقول : متى يُبْعَث
أشفاها ، وحى إليه فقيل له : خذ حذرَكَ فإن الناس يريدون قَتْلَكَ . فقال : إن الأجل
جُنَّةٌ حصينة . فلما خرج لصلاة الفجر يوم قُتِلَ ألهم أن ترسم :
اَشْدُدْ حَيَاظِيكَ ^(١) لِلْمَوْتِ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا تَفِيكَ
وَلَا تَجْزِعُ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا حَلَّ بِوَادِيكَ

أخبرنا ابن الحُصَيْن ، أنبأنا ابن اللُّذْبِ ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله
ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا وَكِيع ، عن شريك ، عن أبي إسحاق ، عن هُبَيْرَةَ
قال : خطبنا الحسن بن علي فقال : لقد فارقكم ^(٢) رجلٌ بالأمس لم يسبقه الأولون يعلم
ولم يدركه الآخرون ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه بالراية جبريلُ عن يمينه
وميكائيل عن شماله ، فلا ينصرف حتى يفتح له .

الكلام على قوله تعالى

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ^(١) 》 .

الأبرار واحدهم بَرٌّ وبار . وهو الصادق للطبع « يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ » أى من إناء
فيه شراب كان مزاج الكأس كافورا . والطلب من الكافور بَرْدُهُ وريحه .

(١) الفسحة : العطية الجزيلة . والذبيحة أيضا : الحفنة والذبيحة الكريمة . والشرية : مورد الشربة .
كالشربة . (٢) الميازيم : جمع حيزوم وهو : ما استدار بالظهور والبطن .
(٣) ب : فاركم . محرفة والصواب من ث (٤) سورة المدح .

قوله تعالى : « عَيْنًا » قال الأخفش : المعنى . أعنى عينا . وقال الزجاج : الأجود أن يكون المعنى من عين .

قوله تعالى : « يَشْرَبُ بِهَا » أى منها « عباد الله » أى أوليائه « بفَجَرُونَهَا » قال مجاهد : يَفُودُونَهَا إلى حيث شاءوا من الجنة .

قوله تعالى : يُوفُونَ بِالْذِّكْرِ « فيه إضمار [أى] كانوا يوفون بالذِّكْر إذا نذروا فى طاعة الله » وبخافون يوما كان شرُّهُ مستطيرا « أى فاشيا^(٢٢) منشرا فانثقت السموات وتناثرت السكواكب وكورت الشمس والقمر ونُسفت الجبال وغارت المياه وتكسرت كل شئ على وجه الأرض من بناء أو جبل .

قوله تعالى : « وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ » روى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت فى على بن أبى طالب رضى الله عنه أجبر نفسه بسقى نخلا بشئ من شعير ليلة حتى أصبح ، فلما قبض الشعير طعموا ثلثه وأصلحوا منه ما يأكونه فلما استوى أتى مسكين فأخرجوه إليه ، ثم حللوا الثلث الثانى فلما تم أتى يتيم فأطعموه ، ثم حللوا الباقى ، فلما تم أتى أسير من المشركين فأطعموه وطوَّأ فنزلت هذه الآيات .

قوله تعالى : « عَلَى حُبِّهِ » أى على حب الطعام . المعنى : وهم يشتهونه . وقال أبو سليمان الدارانى : على حب الله عز وجل . « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ » قال سعيد بن جبیر : ما تكلموا بذلك إنما عليم الله تعالى من قلوبهم فأنهى عليهم .

واليوم المَبُوس ، الذى تمس فيه الوجوه ، فجعل ذلك من صفة اليوم . والقَمَطَرِير : الشديد . قال أبو عبيدة : المَبُوس القمطرير والقماطر والمصيب والمصبَّب : أشد أشد ما يكون من الألام وأطوله فى البلاء .

« نَقَامُ اللَّهِ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ » بطاعته فى الدنيا « وَلَقَامُ نَصْرَةٍ » أى حُسْنًا وبياضًا

في الوجوه « وسرورا » في القلوب « وجزام بما صبروا » على طاعته « جنة وحريرا » وهو لباس أهل الجنة والأرائك : السرر في الجبال . والزهرير : البرد الشديد « ودانية » وجزام دانية « عليهم ظلالها » أى قرية منهم ظلال أشجارها « وذلك قُطوفها » يتناولون منها قايما وقعودا ومضطجعين . والأكواب : الأباريق التى لا عرى لها « كانت قوارير » أى تلك الأكواب قوارير ولكنها من فضة . قال ابن عباس : لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، وقوارير الجنة من فضة في صفاء القارورة^(١) .

وقال الفراء : هذا على التشبيه ، للمق كأنها من فضة أى لها بياض الفضة وصفاء كصفاء القوارير .

وفي قوله تعالى : « قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا » قولان : أحدهما : قَدَّرُوهَا في أنفسهم لجاءت على ما قَدَّرُوا . قاله الضمن . قال الزجاج : جعل الإناء على قدر ما يحتاجون إليه . والثاني : قَدَّرُوهَا السَّعَاةُ والخدم على قَدَرٍ ما يحتاج إليه السادة ، فلا يزيد على ريتهم فيثقل الكف ولا ينقص منه فيطلب الزيادة « وَيُسْقَوْنَ فِيهَا » أى في الجنة « كأسًا كأن ميزاجها زَنْجَبِيلًا » وهو معروف في الدنيا ، وهو عروق تسرى في الأرض يؤكل رطبها ، والعرب تضرب المثل بالزنجبيل والخمر بمزوجين .

وكان طعم الزنجبيل به إذ ذُقت وسلافة الخمر فشراب الجنة على برَد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك .

« عَيْنًا فِيهَا » أى يسقون عينا . وسلسبيل : اسم العين وهو صفة لماء كان على غاية السلامة . قال مجاهد : سلسبيل : حديدة الجفريّة . وقال ابن الأنباري : السلسبيل : صفة للماء لسكّيه^(٢) وسهولة مدخله في الخلق ، يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل . حكى الماوردي أن عليا رضى الله عنه قال : معنى الكلام سَلَّ سَبِيلًا إليها .

(١) ت : القوارير (٢) ت : لسلسه .

قوله تعالى : « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ » من المُلْد ومنه ^(١) اَنْطَلَّة وهي القُرط « إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْتَشَرِينَ فِي الْغَدَمِ » حَسِبْتَهُمْ لَوْلَا مَنُوتُورَا . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ^(٢) « بِعَنَى فِي الْجَنَّةِ » رَأَيْتَ نَعِيَا « لَا يوصف » وَمُلْكَا كَبِيرَا « واسعلا لا يريدون شيئا إِلَّا قَدَرُوا عَلَيْهِ وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مَلَكٌ إِلَّا بِاسْتِئْذَانٍ .

قوله تعالى : « عَلَيْهِمْ نِيَابٌ » يعنى أهل الجنة . والسندس : رَفِيقُ الدِّيَابِجِ . والإستيرة : غَلِيظُهُ . والخضرة : لون بين البياض والِسَوَادِ فَيُحْصَلَحُ لِمَعِينٍ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَلْوَانِ وَقَدْ أَلَسَ الْقَوْمُ الْأَسَاوِرَ « وَسَقَامَ رِجْلُهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » لَا يُخَذُّونَ مِنْهُ وَلَا يَبُولُونَ « إِنَّ هَذَا » الَّذِي وَصَفَ مِنَ النِّعَمِ « كَانَ لَكُمْ جَزَاءً » بِأَعْمَالِكُمْ « وَكَانَ سَمِيحًا » فِي الدُّنْيَا بِطَاعَةِ اللَّهِ « مَشْكُورًا » قَالَ عَطَاءٌ : شَكَرْتُمْ ^(٣) عَلَيْهِ وَأَنْبِئْتُمْكُمْ أَفْضَلَ الثَّوَابِ .

وقد ذكرنا أن هذا نزل في حق علي رضي الله عنه وأهل بيته لإيثارهم بالطعام .

كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ خَاطَبَ فَاطِمَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَنْتَظِرُ بِهَا الْقَضَاءَ . فَذَكَرَ ذَلِكَ لِمَعْرٍ فَقَالَ : رَدَّلِي يَا أَبَا بَكْرٍ . فَنَظَّطِبَهَا حَمْرًا . فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِأَبْنِي بَكْرٍ . فَقَالَ أَهْلُ عَلِيٍّ لَعَلِّي : اخْطُبِ فَاطِمَةَ . فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ : مَا حَاجَتُكَ ؟ فَقَالَ : ذَكَرْتُ فَاطِمَةَ . فَقَالَ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا . فَخَرَجَ فَأَخْبَرَ النَّاسَ بِمَا قَالَ . فَقَالُوا : قَدْ أَعْطَاكَ الْأَهْلَ وَالْمَرْحَبَ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا تُصَدِّقُهَا ؟ قَالَ : مَا عِنْدِي مَا أُصَدِّقُهَا . قَالَ : « فَأَيْنَ دِرْهَمُكَ الْخَطْمِيَّةُ ^(٤) » . قَالَ : عِنْدِي . قَالَ : أُصَدِّقُهَا بِهَا . فَتَزَوَّجَهَا فَأَهْدَيْتَ إِلَيْهَا وَمَعَهَا سِتْرًا وَمِنْهُ رَمَقَةٌ مِنْ أَدَمَ حَشَوْهَا لَيْفَ وَفَرَمَةً وَمِنْخَلٌ وَقَدَحٌ وَرَحَى وَجِرَابَانِ . وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ وَمَا لَهَا فَرَاشٌ

(١) كَذَا فِي ت . وَب : وَنِهِمْ مِنَ الْخَلْدَةِ . (٢) ب : شَكَرْتُمْ .

(٣) الْخَطْمِيَّةُ : التَّخْيِيلُ أَوْ الَّتِي تَكْسِرُ السُّيُوفَ ، أَوْ تَنْبِئُ لِلْ حُلَّةِ بَنِ عَرَابٍ ، رَجُلٌ كَانَ يَسْلُ الْمَرْوَعِ .

غير جلد كبش بنامان عليه بالليل وتَمَلَّف عليه الناضح بالنهار ، وكانت هي خادمة نفسها .

تالله ما ضرها ذلك .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : « ألا تَرْضَيْن أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين » ^(١) ؟

أخبرنا عبد الأول ، أخبرنا الداودي ، حدثنا ابن أعين ، حدثنا الفربري ، حدثنا البخاري ، حدثنا الوليد بن عتيقة ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن أبي مليكة عن السَّوَر بن تَحْرمة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني » .

أخرجاه في الصحيحين ^(٢)

لما تَبَخَّرَ جمالُ فاطمة في جلبابِ كالها ، حين شُرُوعِ الشَّرْع في وصف جلالها ، أنهض الصديقُ خاطبا لها في خطابه فسكت الرسول عن جوابه ، فبهض عمر نهوضَ الليث في غابه فلم يمه فاشتد الجوى به ، فلما قل على أقدامه نعلطيتها وجدَّ الوحى قد سبقه قُدَّامه : « إن الله أمرني أن أزواج فاطمة من علي » فتزوجها في صفر وبنى بها في ذي الحجة ، فولدت له الحسن في نصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وولدت الحسين ثلاث خلون من شعبان سنة أربع .

وفي الصحيحين من حديث البراء قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحا الحسن بن علي على عاتقه وهو يقول : « اللهم إني أحبه فأحبه » ^(٣) .

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه التزم الحسن وقال :

(١) صحيح البخاري ٢/٢٤٩ وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٤٤٩

(٢) صحيح البخاري ٢/٢٤٧ وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٤٤٢

« اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه » .

وفي أفراد البخارى من حديث عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حق الحسن والحسين : « هارِ تَهاى » ^(١) .

وقد روى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة » .

وكان على بن أبى طالب يقول : الحسن أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم والصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان أسفل من ذلك .

وفي حديث أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم جَلَّلى الحسن والحسين وعليهما وفاطمة كساء ثم قال : اللهم هؤلاء أهلُ بيتي وخاصتى أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . فقالت أم سلمة : وأنا معهم ؟ قال : إنك إلى خير .

وكان أحمد بن حنبل إذا سئل عن علي [وأهل بيته] ^(٢) . قال : أهلُ بيت لا يقاس بهم أحد .

يَا بَنِي بَنِي النَّبِيِّ الصَّغْفَرِي
حُبُّكُمْ يَنْفِي عَنِ الْمَرْءِ الظَّنَّ ^(٣)
إِنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا مِتَنًا
حُبُّكُمْ شُكْرٌ لِهَاتِيكَ ^(٤) لِيَنْ
أَنْتُمْ مَنْ لَمْ يُرَدْ مُطْعَى الْمَدَى
غَيْرُ وَدِّ النَّاسِ إِلَّا كَمْ تَنْ
أَنَا عَبْدُ الْحَقِّ لَا عَبْدُ الْهَوَى
لَعَنَ اللَّهُ الْهَوَى فِيمَنْ لَعَنَ

أما وقف المسكين ببابهم أثر على فوافقت فاطمة .

مَلِكٌ حَازَ الْعَلَا وَأَذَلَّ الْعِدَى
وَاسْتَعْبَدَ الزَّمَنُ
طَبَنُهُ بِالْجُودِ مُنْمَنَجْ
هَلْ رَأَيْتَ الْمَاءَ وَالْبَنَاءَ

(١) صحيح البخارى ٢٤٨/٢ (٢) من ب . (٣) الظن : التهم . (٤) الأصل : لهاتيك .

كُنْهُ تَهَوَّى السَّاحَ وَلَوْ أَنْفَقْتُ مِنْ غَيْرِ ظَهْرٍ غِسَى
خُلِقْتُ لِلْجُودِ رَاحَتُهُ فَأَرْتِكَ الْمَارِضَ الْهَيْتَا^(١)
مَا يَرِيدُ الْوَاصِفُونَ لَهُ حَیَّرَتْ أَوْصَافُهُ الْقَطَنَاءَ
أَنْطَقْتُ مِنْهُ الصَّغُورَ فَلَا حُجْبَ أَنْ تُخْرِسَ اللَّسَانَ
لَمَّا جَاءَتْ الْمَدْبِجَةُ عَلَى الْإِيثَارِ وَوَصَفَ نَعِيمَ الْجَنَّةِ لَمْ يَذْكُرْ فِي ذَلِكَ الْحُورَ حَفَظًا أَقْلَبَ
فَاطِمَةَ ، وَكَيْفَ يُذَكِّرُ الْحُورَ وَهِيَ مَمَالِكُ مَعَ الْحُرَّةِ .

سَبَّحَانَ مَنْ كَسَا أَهْلَ الْبَيْتِ نُورًا وَجَمَلَ عَلَيْهِمْ خَدَقَاتِ الرِّجْسِ وَشُورًا ، فَلِذَا
تَلَقَّوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَلَقَّوْا حُبُورًا « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » .
أَدَخَرْنَا لَكُمْ نَعِيمًا مَقْبِيًا ، وَمَنْعْنَا لَكُمْ فَضْلًا جَزِيلًا عَمِيًا ، وَجَزَيْنَا مَنْ كَانَ لِفَقْرِهِ
رَحِيًا ، أَوْ لَسَمَ قَدْ أَطْعَمْتُمْ مَسْكِينًا وَبَيْتًا وَرَحِمْتُمْ مَأْسُورًا « وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » .
مَنْ مِثْلَ عَلِيٍّ مَنْ مِثْلَ فَاطِمَةَ ، كَمْ صَبَّرَا عَلَى أُمُوجِ بِلَايَا مُتَلَاطِمَةٍ ، وَأَثَرَا الْفَقْرِ وَنَارِ
الْجُوعِ حَاطِمَةٍ ، فَلَهُمْ نَصْرَةُ الرَّجَاءِ وَالْأَهْوَالُ لِلْوَجْهِ خَاطِمَةُ ، يَا سُرَّتَانِ مَا أَقْلَبَ
حَزَنَهُمُ سُرُورًا « وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » .

كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ عَلِيٌّ أَعَزَّ النَّاسِ
عَلَيْهِ ، وَجَمَلَ اللَّهُ رِيحَانَتَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَدَيْهِ ، فَلِذَا أَحْضَرَهُمُ الْحَقُّ غَدًا عِنْدَهُ وَلَدَيْهِ أَكْرَمَهُمْ
إِكْرَامًا عَظِيمًا مَوْفُورًا ، « وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » .

وَأَهْبِجَا إِذْ كَرَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ نَعِيمُ الْجَنَّتَيْنِ مِنَ الْمَلْبُوسِ وَالشَّرُوبَاتِ وَالطَّعُومَاتِ ،
وَالْأَرَائِكِ وَالْقُصُورِ وَالْمِيُونَ الْجَارِيَاتِ ، وَلَمْ يَذْكُرِ النِّسَاءَ وَهِيَ غَايَةُ اللَّذَاتِ ، أَحْقَارًا
لِفَاطِمَةَ أَشْرَفَ الْبَنَاتِ ، وَمَنْ يَصِفُ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ لَا يَذْكُرُ حُورًا « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً
وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » .

(١) الْمَارِضُ : السَّجَابُ . وَتَلَقَّى : الْعَدِيدُ الْمَرَّةَ .

المجلس الثاني والثلاثون

في فضل عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الواحد القديم ، الماجد العظيم ، اللئان الكريم ، الرحمن الرحيم ، أنعم بالمطايا
فإنعامه حميم ، وستر الخطايا فهو الغفور الرحيم ، ابتلى بما شاء وهو بما يكون عليهم ، فالواجب
في بلائه الرضا والتسليم ، سافرت عائشة مع الرسول وكان يخصها بالتقديم ، فانزحت لشغلها
وانشغل بها عظيم ، غلبوا هودجها ظناً أن في الكيناس الرِّيم^(١) ، فصادفها صفوان^٢
فصدّر الرجل سليم ، فبافها قولُ من بات يَأفك ويهتك الحرم ، فإزال السليم يبيكي
بكاء السليم ، حتى بدا هلال الهدى في ليل البلاء البهيم « لا تحسبوه شراً لكم بل هو
خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي نولى كبره منهم له عذاب عظيم^(٣) » .

أحمد كلما عنت النافلين غفلاتهم ، وأصلى على رسوله محمد الذي هلكت به عزّام
ولائمهم ، وعلى صاحبه أبي بكر الذي سلّت إليه قبل الموت صلّاتهم ، وعلى عمر الذي
تقومت بمذله حالاتهم ، وعلى عثمان مقبول اللال إذ مالت بالبغلاء آفاتهم ، وعلى عليّ
الزاهد في الدنيا إذ منعت أربابها شهواتهم ، وعلى أزواج النبي الطاهرات اللاتي نزهت
جهنهم « النبي أوثى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم^(٤) » وعلى محمد العباس أخذ
البيمة له على الأنصار إذ أحدثت مناسكهم .

قال الله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » أجمع القسرون على
أن هذه الآية وما يتلّق بها بعدها نزلت في قصة عائشة . والإفك : الكذب ،
والعصبة : الجماعة .

وفي الخطّاب بقوله « لا تحسبوه شراً لكم » قولان : أحدهما : عائشة وصفوان

(١) الكيناس : مأوى الطي (٢) سورة التوراة ١١ (٣) سورة الأحزاب ٦ .

ابن المعل . والثاني : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعائشة . والعنف : أنكم تُؤْجرون فيه ، والأجر يفعل للمكروه .

وفي هذا تلميح للإنسان لما يصيبه من المكروه ، ولعلهم أنه ما سلم أحد من شر الناس .

« لكل امرئ منهم » بمعنى من المعصية الكاذبة « ما اكتسب من الإثم » أى جزاء ما اجتراح من الذنب على قدر خوضه فيه .



واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقدم عائشة على جميع أزواجه .

وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيتك فى المنام ورجل يملك فى سرة من حرير فيقول : هذه امرأتك . فأقول : إن بك من عند الله عز وجل بُخْصَةٌ » (١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة أول من تزوج فولدت له القاسم وعبد الله وهو الطيب والطاهر ولد فى الإسلام فلقب بالقبين . ومن الإناث : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، ولم يتزوج على خديجة حتى ماتت فتزوج سودة بنت زمعة ثم عائشة . ولما كبرت سودة أراد طلاقها فسألته أن يدعها فى أزواجه وجعلت ليها لعائشة . وتزوج عائشة وهى بنت ست سنين وتزوج حفصة فطلقها تطليقة فقال له جبريل : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامه . فراجعها وتزوج أم سلمة وأم حبيبة وزينب بنت جحش وزينب بنت جحش بنت جحش : خزينة وجويرة بنت الحارث . وكان قد أصابها فى غزاة بنى المصطلق . فوفقت فى سهم ثابت بن قيس فساكنها ، ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابها وتزوجها فلما سمع الناس بذلك : أرسلوا ما فى أيديهم من سبأيا بنى المصطلق فأعقب بتزويجها إياها مائة أهل بيت . وتزوج صفية بنت حيى وميمونة بنت الحارث وبنى بها

بَسْرَفٍ وَقَدَّرَ اللَّهُ مَوْتَهَا فِي ذَلِكَ لِلْوَضْعِ .

ولما تمعت خديجة في تربية الأولاد أتاه جبريل فقال له : « اقرأ عليها السلام من ربها ومُنَى وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاصْحَبٍ فِيهِ وَلَا نَصَبٍ ^(١) » .

ولما خطب زينب بنت جحش قالت : ما أنا صانعة شيئا حتى أؤامر ربي . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن في نكاحها . فجاء الرسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها . وكانت صَوَّامة قوامه تعمل بيدها وتتصدق . ولما تزوج أم حَبِيبَةَ قدم أبو سفيان المدينة في الخُدَيْبِيَّةِ فطوت فراشَ رسوله الله صلى الله عليه وسلم وقالت : إنك نجس .

وكان أثر السكك عنده عائشة لأنها جمعت الجمالَ والسكك في التَّكَاةِ والفطنة والعلم والنصاحة ، فبقي بها وهي بنت تسع سنين .

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة أنها قالت : « يا رسول الله رأيت لوزنت واديًا فيه شجرة قد أكل منها ووجدت شجرة لم يؤكل منها في أيها كنت تُرْمَعُ بغيرك ؟ قال : في التي لم تُرْمَعُ منها » . تعنى أنه لم يتزوج بغيرها .

أخبرنا يحيى بن علي ، أنبأنا ابن المُسَلِّمَةِ ، أخبرنا المُخَلَّصُ ، أخبرنا البَقَوِيُّ ، أخبرنا وهب بن بَقِيَّةٍ ، حدثنا خالد بن عبد الله الطحَّانُ ، عن خالد الحذاء ، عن أبي عثمان التَّهْدِيُّ ، عن عمرو بن العاص أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من أحبُّ الناس إليكَ يا رسول الله ؟ قال : عائشة . قال : فمن الرجال ؟ قال : أبوها . قال : ثم من ؟ قال : عمر » .

أخرجه في الصحيحين ^(٢) .

أخبرنا أبو منصور القَزَّازُ ، أنبأنا عبد العزيز بن علي الجَرَيْمِيُّ ، حدثنا المُخَلَّصُ ، حدثنا البَقَوِيُّ ، حدثنا أبو بكر بن خَلَّادٍ ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا شُعْبَةُ ، عن

(١) صحيح مسلم حديث ٢٤٣٢ (٢) صحيح البخاري ٣٠٦/٢ وصحيح مسلم كتاب الفضائل ، حديث رقم ٢٣٨٤

عمر بن مُرّة ، عن أبي موسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُضِلَ عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .
أخرجاه في الصحيحين ^(١) .

وفيها من حديث عائشة أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يومَ عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) .

وفيها من حديثها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كنتُ لكِ كَأبي ذَرَعٍ لَأُمِّ ذَرَعٍ ^(٣) » .

وفيها من حديثها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسأل في مرضه الذي مات فيه أين أنا غداً ؛ أين أنا غدا ؟ يريد يومَ عائشة . فَأُذِنَ لَهُ أَزْوَاجُهُ يَكُونُ حَيْثُ شَاءَ ، فَكَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ حَتَّى مَاتَ عِنْدَهَا ^(٤) .

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأُمِّ سَلَمَةَ : « لَا تُؤْذِبِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي خَلْفِ امْرَأَةٍ مِنْكُمْ غَيْرَهَا ^(٥) » .

وقال أبو موسى ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثُ قط فسالنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً .

وقال عروة : ما رأيتُ أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ، ولا بحلال ولا بحرام ، ولا بشعر ، ولا بحديث العرب ولا بنسبٍ من عائشة .

-
- | | |
|------------------------|---|
| (١) صحيح البخاري ٢/٢١٩ | وسحيح مسلم كتاب الفضائل ، حديث رقم ٢٤٤٦ |
| (٢) صحيح البخاري ٢/٦٤ | وسحيح مسلم كتاب الفضائل حديث رقم ٢٤٤١ |
| (٣) صحيح البخاري ٣/١٨٥ | وسحيح مسلم حديث رقم ٢٤٤٨ |
| (٤) صحيح البخاري ٣/٦٨ | وسحيح مسلم حديث رقم ٢٤٤٣ |
| (٥) صحيح البخاري ٢/٢٢٠ | |

وكانت غزيرة الكرم . قسمت يوماً سبعين ألفاً وهي تَرَقَع دِرْعُهَا .
وكانت كثيرة التمبذ ^(١) وكانت لها فصاحة .

أخبرنا محمد بن ناصر الحافظ ، أخبرنا ثابت بن يندار ، أخبرنا محمد بن أحمد بن غالب
البرقاني ، قال : قرأت على أحمد بن حباب الخوارزمي ، حدثنا أبو يعقوب البغدادي ،
حدثنا الحسين بن علي الميالي ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام بن عروة ، لا أدري ذكره
عن أبيه أم لا . الشك من أبي يعقوب قال : بلغ عائشة أن أقوما يتناولون أبا بكر
فأرسلت إلى أزفة « جماعة » ^(٢) منهم فلما حضروا أسدلت أستارها ثم دنت لحديث
الله تعالى وصلت على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعدلت وقرعت ثم قالت : أبي
وما أبيه ! أبي والله لا يسلطوه الأبد ^(٣) ، ذاك طُود مُنيف وفرع مُديد ، هبّات كذبت
الظنون أنجح إذ كدّيتهم وسبق إذ ونيذمتهم سبق الجواد إذا استولى على الأمد [الغاية] فتي
قريش ناشئاً وكفها كهلاً ، بفك عانيها ، ويريش مُملقها [فقيرها] ورأب شُبهها ^(٤)
حتى حلّبت قلوبها ، ثم استشرى في الله تعالى فابرحت شكيمته وحيتته ذات الله تعالى
حتى اتخذ بفنائها مسجداً يحى فيه ما أمات المبطون .

وكان رحمه الله غزير الذمّة وقيد الجوارح شجيّ الشّيع ، فانقضت إليه نسوان
مكة وولداها يسغرون منه ويستهنون به « الله يستهنون بهم ويمدّم في طغيانهم
يتمهون » فأكبرت ذلك رجالات قريش فعجنت له قسيها وفوت له سهامها وانتكّلوها
غرضاً ، فما قلوا له صفاء ولا قصفوا له قناة ، ومرّ على سيّانه .

حتى إذا ضرب الدين بجرّانه وألقى برّكه ورست أو تادّه ودخل الناس فيه أفواجا
ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا اختار الله لنبيه ما عنده ، فلما قبض الله تعالى نبيه صلى الله عليه
وسلم نصب الشيطان رؤّاقه ومدّ طنبه ونصب حباله ، وغلن رجال أن قد تحققت أطماعهم

(١) بمدّها في زيادة . ويكتبك في مدحها العظيم الشأن ، ما تزل في ذلك من القرآن .

(٢) ما بين القوسين تفسير قريش ، وسأني إعادة لمسنا التفسير بعد نهاية الحديث ولعل إنباه هنا من
تصرف الناسخ . (٣) ج : الأبدى . (٤) الأصل : وبدأت شيبها . معرفة .

ولات حين الذي يزجون فأنى والصدق بين أظهرهم اقسام حاسرا مشمرا ، فجبع حاشيته ورفع قُطْرِيَه فردَ نشز الإسلام على غَرْب ، ولم شَمْتَه بطبه ، وأقام أودَه بِشَقافه ، فأبذَرَ النفاق بوطانه ، وانتاش الدين فنمسه ، فلما أراح الحق إلى أهله وقرر الرموس على كواهلها وحقن الدماء في أحبا أمته منيته ، فسَدَّ ثَلَمته بنظيره في الرحمة وشقيقه في السيرة والمذلة ، ذاك ابنُ الخطاب ، لله دَرَأَم حلت به ودَرَت عليه ، فقد أُوْحِدت به ، ففتخ الكفرة وديخها ، وشرَّد الشُّرك شذَر مَذَر ، ونَفَّج الأرض ونَمَحها ، فقامت أكلها ولقطت حبها ، ترأمة ويصدف عنها ، وتصدى له وبأهاها ، ثم زرع فيها وودعها كما صَحَّيها ، فأروني ما تريبون ، أى يوم تنقمون : أيوم إقامته إذ عدل فيكم ؟ أم يوم ظلمته فقد نظر لكم ؟ استغفر الله لى ولكم .

وفى هذا الحديث من الغريب : الأُزفة : الجماعة . ويُعْطَوْه : ينالوه . وأُكْدِمْ خَيْبَم . وونيتم : فترتم . والأمد : الغاية . والملقى : الفقير . ويرأب : يجمع . والشَّمْب : المتفرق . واستشرى : احتد وانكش . فما برحت : أى ما زالت شكيمته ، وهى الأتفة والحمية . والوَيْقِذ : الليل . والشحى : الحزين . والنشيج : صوت البكاء . واثثلوه : أى مثلوه غرضا للرى . وفَلَّوا : كسروا . والصفاة : الصخرة للنساء . وقولها على سبائه : أى على حدّه . والجبران : الصدر . وهو البرك . ومعنى : فرفع حاشيته وجمع قُطْرِيَه : تحزم للأمر وتأهب . والقُطْرُ : الناحية . فرد نشز الإسلام على غَرْب : كذا وقع فى الرواية . والصواب على غرة أى غلة . والطب : الدواء . والأود : العوج . والثفاف : تقويم الرماح . وابذَرَ : تفرق . وانتاش الدين : أزال عنه ما يخاف عليه . ونمسه : رفعه . والأهب : جمع إهاب وهو الجلد . وأرُحِدت : أى جاءت به مفقدا لا نظير له . ففتخ الكفرة : أذلها . وديخها : أى دُوخها . ومعنى شذَر مَذَر : التفريق . ونَمَح : شق . ومثله نَفَّج . والأكل : الخيل . وترأمة : تمطف عليه .

الكلام على البسملة

بأدر الألام فاله من اللوث قريب
 بينا يتخطر في أهل الحى لا يستدرب
 إذ حواه اللحد يوماً مفرداً فهو غريب
 خذ نصيباً قبل أن يهـ عزك الدهر للصيب
 واحذر الأخرى هو ل يومه يوم عصب
 يوم لا ينلم مغرو ولا يتنجو مريب
 أطلع الناصح إذ نا ذلك فالوث عجب
 كم ترى نسمك التفسح وكم لا تستجيب

يا من لا يمتط بسلف آثانه ، يا من لا يعتبر بتلف أودانه ، يا أسير أغراضه وقتيل
 أهوائه ، يا من هجرت الأطباء عن إصلاح دانه ، يا مشغولاً بذكر بقائه عن ذكر فناءه ،
 يا مغروراً قد حلّ للمات بفنائيه ، يا مستجباً بثوب محمته يمشى في خيالاته ، يا معرضاً عن
 نصيحه مُتمتلاً لأعدائه ، يا من يلهو بأمله ، ويا من أجله من ورائه ، يجمع العيب إلى
 الشيب وهذا من أفصح رائه ، كم رأيت مستلباً من سروره وتعماته ، كم شاهدت
 مأخوذاً عن أحبابه وأبنائه ، بينا هو في غروره دبّ اللوث في أعضائه ، بينا جرع
 اللذة فيه شَرِقَ بمانه ، بينا ناظر النظير يُمنجه صار عبرةً لنظرائه ، ماله ضيّع ماله
 وبقي في بلائه .

باتت هُمومى تنرى طوارقها أكف عيني والدمع ساقها^(١)
 هما طريقان فآثر دخل الجنة حقت به حدائقها
 وفرقة في الجحيم مع تبع الشيطان بشقى بها موافقها

(١) الأبيات لأمية بن أبى الصلت ديوانه ٤٢ مع اختلاف

اقترَب الودْعُ والقلوبُ إلى الـ هو وَحُبُّ الحَيَاةِ سائقها
ما رَغْبَةُ النفسِ في البقاء وإن عاشت قليلا فالوْتُ لاحقها
أيامها غايةً إليه ويَحْدُوها حائِثًا إليه سائقها
وكل ما جمعت وأعجبها من عَيْشِها مرةً مُفَارِقُها
يوشك من فرٍّ من مَنِيَّتِهِ في بعض غِرَّاتِهِ يوافِقُها
من لم يمت عَبْطَةً^(١) يمت هرماً للوْتُ كأس وللره ذاتُها

يا من تجرَّ على مولاة وتمرد ، واستلَّ سيفَ البنى وجَرَّد ، كم يُنعمُ عليك فتنسَى
وتجحد ، كم تشيعُ من ميت وترى لحدَّ مُلْحَد ، يا قليل الزاد وألوية الرَّحيل مُعَد ، يا من
بين يديه النار بالأحجار توقد ، يزل اللطف في جمع^(٢) تَمَلِّكُ وقبيحُ فَعَلِكُ يَصْمد ،
يا قليل الانتفاع بالوعظ إلى كم تزود .

يا قبيحُ للتجرد كم عليها تتمرَّد
كم تُراعيك ونوْلُك وللإحسان تجحد
كم أناديكَ بوعظي أترى قلبك جَلَدُ
كم ترى أنت على الله مر إليه تنزود
أوما تجزع من نا ر على الماصين توقد
فحق تحذر في الإـ راف ما مثلك يُوعَدُ

لقد نطقت النَّيِّرُ بالعَبْر ، ولقد خَبَرَ الأمرَ من عنده خَبَر ، وإنما ينفع البصر ذابصر ،
فاجبوا لمقصِّرِ عمره في قَصَر ، يا من لا يرى من توبته إلا الوعود ، فإذا تاب فهو عن
قريب يمود ، أرضيت بغوث الخير والسمود ، أعددت عُدَّةً لتزول الأخدود ، أما

(١) مات : عبطة : بغير داء . (٢) ح : في جم تملك .

عانت أن الجوارخ من جُلَّةِ الشهود ، تالله إن حوض اللوت عن قريب مورود ، والله ما الزاد في الطريق بموجود ، والله إن القيامة تشيب للولود ، والله إن العمر محبوس ممدود ، والوجه غدأ بين بيض وسود ، إلى كم هذا الضأ والمراح ، أبقى الشب موضعا للمزاح ، لقد أغنى الصباحُ عن الصباح ، وقام حربُ اللون من غير سلاح ، اعوجت القناة بلا قنا ولا صَفاح ، فعاد ذو الشَّيبة بالضعف تخين الجرح ، ونطقت ألسنُ القناه بالوعظ المبراح ، وأسفا صمَّت السامع وللواعظ فصاح ، لقد صاح لسانُ التعذير : يا صاح يا صاح ، وأنى بالفهم لسكران غير صاح ، أشكرك الهوى سُكرا لا بزاح ، أو ما تفيق حتى يقول اللوت لا أبراح ، متى يظهر عليك سِما المتقين ، متى تترقى إلى مقام السابقين ، كأنك بك تذكر قولى وقد عرق الجبين ، وغابت الآمال وعيثت الشمال باليمين ، وزرق البصر وجاء الحقُّ اليقين ، ولا ينفع الانتباه حينئذ يا مسكين ، يا من يعظ وكأنه ما يسمع ، يا مشغولا بما يفنى يحوى ويجمع ، يا من شاب وما ناب في أى شيء قطع ، يا غافلا واللوت على أخذته قد أزعج ، ستعرف يوم عَرَضَ الكتاب وسوء الحساب عين من تدمع ، أراك يوم الرحيل إذا ضاق رحب السبيل ما تصنع ، أراك بماذا تنق هوَل ذلك المبرح ، بمجا لك تؤثر ما يفنى وتعلم ما يبقى أنفع ، يا من أماراتُ طَرَّده من وجه صدّه تلع ، لقد نادانا لسانُ حالك بدوام القبيح من أفعالك غير أنا فيك نلع .

كم تَمْدِلُون وَعَذْلُكُمْ لَا يَنْفَعُ سَاعَ الْخَدَشِ فَعَلُّوْا مِنْ يَسْمِ

السلام على قوله تعالى

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (١)

قد ذكرنا أن هذا نزل في حق عائشة حين قُذفت . وكِبْرُهُ بمعنى مُعْظَمُهُ . وقد قرأ ابن عباس كِبْرُهُ بضم الكاف ومما لفتان . والذي تولى كِبْرُهُ ذلك ابن أبي .

أخبرنا ابن الحُصَيْن، أخبرنا أبو علي التميمي، أنبأنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَمَرٌ، عن الزُّهْرِيِّ، أخبرني سعيد بن المسيَّب وعُروَةُ بن الزُّبَيْر وعَلْقَمَةُ بن وقاص وعبيد الله [بن عبد الله^(١)] ابن عُتْبَةَ عن حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهلُ الإنك ما قالوا فبرأها الله عز وجل مما قالوا، كلهم حدثني بطائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اختصاصا، وقد وعيتُ عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعضُ حديثهم يصدِّق بعضا.

ذكروا: أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا^(٢) أفرع بين نسائه فأتين خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة: فأفرع بيننا في غزاة نخرج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أُحَلُّ في هَوْدَجِي وأنزل فيه، فسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه فقل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل فقامت حين أذنوا بالرحيل فشيت حتى جاوزت الجيش. فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحيل فلمستُ صدرى فإذا عقدم جزع أظفار^(٣) قد^(٤) انقطع، فرجعت فالتفت عِقدى، فحبستني ابتضاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هَوْدَجِي فحولوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه. قالت: وكان النساء إذ ذاك خِفاً لم يهبلن^(٥) ولم يَنهشن اللحم، إنما يأكلن المُلَقَّة^(٦) من الطعام، فلم يستسكروا نفوسهن ثقل اليهودج حين رحلوه ورفعوه، كنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا.

ووجدت عِقدى بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مُجيب،

(١) من ت. (٢) ت: إذا أراد سفرا. وهي موافقة لرواية الصحيحين.

(٣) الجزع: الحز. والأظفار: نبت طيب الرائحة. ورواية مسلم: ظفار، وهي بلد باليمن.

(٤) ب ج: وقد انقطع. (٥) يهبلن: يتقلن، وهو لفظ البخاري.

(٦) الملقاة: ما عسك النفس، أي القليل.

فَبَسَّمتُ منزلي الذي كنت فيه فظننت أن القوم سَيَفْقِدُونِي فيرجعون إلى فَبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عَيْنِي فَمَسَّتْ ، وكان صفوان بن المَعْلَل السُّلَمِيُّ ثم الذُّكْوَانِي قد عَرَسَ^(١) من وراء الجيش فَأَذْلَجَ فَأَصْبَحَ عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حين رَأَيْتِي ، وقد كان يراني قبل أن يُضْرَبَ حُلِّي الحِجَابِ ، فاستدققتُ باسترجاعه حين عَرَفَنِي فَمَثَرْتُ وجهي بِعِجْلَابِي ، والله ما كَلَّفَنِي كَلِمَةً ولا سَمِعْتُ منه كَلِمَةً غير استرجاعه ، حتى أَنَاخَ راحلته فوطئته على يدها فركبتهَا ، فأنطلق يَقُودُ إلى الراحلة حتى أَتَيْنَا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في حَرِّ الظَّهيرة ، فهلك من هلك في شَأْنِي ، وكان الذي تولى كِبَرَهُ عبد الله ابن أَبِي بن سُلُول .

فَقَدِمْتُ المدينة فاشتكت حين قَدِمْتُهَا شَهْرًا ، والناس يفيضون في قول أهل الإِفْكَ ولا أَشهر بشيء من ذلك ، وهو يرييني في وَجَعِي أَنِي لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللَّطْفَ الذي كنت أرى منه حين أَشْتُكِي ، إِنَّمَا يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول : كيف تَبِيسُكم ؟ فذاك يرييني ولا أَشهر بالشهر ، حتى خرجت بعدما تَقَهَّيْتُ وخرجت مع أم مِسْطَحَ قَبْلَ اللَّأَصِصِ وهو مُتَبَرِّزنا ولا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إلى ليل ، وذلك قبل أن تَتَخَذَ الكُفَّيْنِ قَرِيبًا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ، وكنا نتأذى بأَكْفَفَاتِ أن تَتَخَذَهَا عند بيوتنا ، فأنطلقت أنا وأم مِسْطَحَ وهي بنت أبي رُمَ بن عبد المطلب ، وأما بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مِسْطَحَ ابن أُنْثَانَةٍ ، فَأَقْبَلَتْ أنا وبنت أبي رُمَ قَبْلَ يَتِيٍّ حين فرغنا من شَأْنِنَا فَمَثَرْتُ أم مِسْطَحَ في مِرْطَها فقالت : تَبِيسُ مِسْطَحَ . فقالت لها : بئس ما قلت ! تَبِيسُ رجلا قد شهد بدرًا ؟ قالت : أَى هَتَاهُ أو لم تَسْمَعِ ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بقول أهل الإِفْكَ طازدَدْتُ مَرَضًا إلى مرض . فلما رجعت إلى بيتي فدخل حُلِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كيف تَبِيسُكم ؟ قلت : أَنَاذَنِي أن آتَى أبوي ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتقين الخبر من قَبْلِهِمَا . فَأَذِنَ لِي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحُفَّتْ أبوي فقلت لأمي : يَا أُمَّتَاهُ

(١) عرس : أَمَامَ .

ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أرى بنيت هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيت عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قلت سبعان الله أو قد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فيكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرّقا لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحى يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله والذى يعلم فى نفسه لم من الود فقال : يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيع الله عليك والنساء سواها كثير وإن سألت الجارية تصدّك . قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بربيرة فقال : أى بريرة هل رأيت من شئ يرّيك من عائشة ؟ قالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغيصه^(١) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن محبين أهلها فتأفى الداجن فتأكله .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعز من عبدالله بن أبى فقال وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل يتي ؟ فوالله ما علمت على أهل إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهل إلا معى . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا فقلنا أمرك . قالت : فقام سعد ابن عبيدة وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد ابن معاذ : لأمرك لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل . فقام أسيد بن حضير ، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبيدة : كذبت لعمرو الله لنقتله ، فإنك منافق تبادل عن النافقين . فتار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفضهم حتى سكتوا وسكت .

(١) أغصه : أغميه .

قالت : وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء قاتل كبدى .

قالت : فيبدا هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نهم جالس . قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل وقد لبث شهر لا يوحى لى إليه فى شأنى شيء ، قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله عز وجل ، وإن كنتِ أملتِ بذنب فاستغفرى الله وتوبى لى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاتله قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : إنى والله قد عرفتُ أنكم قد سمعتم بهذا حتى استغفرى أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقون بذلك ، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ والله عز وجل يعلم أنى بريئة تصدقون ، فإنى والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : « فصبّر جميل والله المستعان على ما تصفون » . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى .

قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله عز وجل مُبرئى براءتى ، ولكن والله ما كنت أعلم أن ينزل فى شأنى وحى يُبلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله عز وجل فى بأمر يُبلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله عز وجل بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء^(١) عند الوحى

(١) البرحاء : الشدة .

حتى إنه لَيَتَعَدَّرُ منه مثل الجَلَّانِ من العرق في اليوم الشاقِّ من ثَقَلِ القول الذي أنزل عليه . قالت : فلما سُرِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، قالت : فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك . فقالت لى أمى : قومي إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحد إلا الله عز وجل الذي أنزل براءتى .

فأنزل الله عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » المشر الآيات ^(١) ، فأنزل الله هذه الآيات [فى] ^(٢) براءتى . قالت : فقال أبو بكر : وكان ينفق على مسطح لقراجه منه وفقره ، والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة . فأنزل الله تعالى : وَلَا يَأْتِلْ أُولَؤِا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ إِلَى قَوْلِهِ . « لَا تَحِبُّونَ أَنْ يَنْفَرُ اللَّهُ لَكُمْ » . فقال أبو بكر : والله إني لأحب أن ينفر الله لى . فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال : لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم عن امرى ما علمت وما رأيت وما بَلَغَكَ ؟ قالت : يا رسول الله أخشى نَمْعِي وبَصَرِي ، والله ما علمتُ إلا خيرا . قالت عائشة : وهى التى كانت تُسَامِينِ من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فقصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حنفة بنت جحش تحارب لما فهلكتُ فيمن هلك .

هذا حديث متفق على صحته ^(٣) .

ونحن نسأل الله تعالى أن يعصمنا من اعتقاد من لا يسمى فإنهم تصاريهم عند ذكر عائشة محمى .

أخبرنا ابن الحصين ، أنبأنا ابن اللذَّيب ، حدثنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبد الله بن حنبل ،

(١) كذا فى ت . وق ب ج : عشر آيات . (٢) من ت . (٣) صحيح البخارى ٨٥/٢
وسحيح مسلم حديث رقم ٢٧٧٠

حدثني عبد الله بن أبي مليكة ، أنه حدثه ذَكْوَانُ حَاجِبُ عَائِشَةَ أَنَّهُ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنَ عَبَّاسٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى عَائِشَةَ فَنُجِثَتْ وَعِنْدَ رَأْسِهَا ابْنُ أَخِيهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قُلْتُ : هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ يَسْتَأْذِنُ . فَأَكْبَ عَلَيْهَا ابْنُ أَخِيهَا فَقَالَ : هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَهُوَ تَمُوتُ فَقَالَتْ : دَعْنِي مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . فَقَالَ : يَا أُمَامَةُ إِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ مِنْ صَالِحِي بَنِيكَ يَسْلَمُ عَلَيْكَ وَيُودِّعُكَ . فَقَالَتْ : إِذْنٌ لَهُ إِنْ شِئْتُ . فَأَدْخَلَتْهُ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ : أَبْشِرِي ، مَا يَبْنِيكَ وَيَبْنِي أَنْ تَلْقَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَحِبَّةَ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ الرُّوحُ مِنَ الْجَسَدِ ، كُنْتُ أَحَبَّ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحِبُّ إِلَّا طَيِّبًا وَسَقَطَتْ فَلَدَتْكَ لَيْلَةُ الْأَبْوَاءِ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَضِيحَ فِي الْمَنْزِلِ وَأَصْبَحَ النَّاسُ لَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقِيمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَبِيحِكَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ رَأْدَتَكَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ جَاءَ بِهَا الرُّوحُ الْأَمِينُ فَأَصْبَحَ لَيْسَ مَسْجِدٌ مِنْ مَسَاجِدِ اللَّهِ يُذَكَّرُ فِيهِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا يَتْلَى فِيهِ آثَاءُ اللَّيْلِ وَآثَاءُ النَّهَارِ . فَقَالَتْ : دَعْنِي مِنْكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوُدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسَاءً مِنْهَا .

إِخْوَانِي : فَضَائِلُ عَائِشَةَ كَثِيرَةٌ بِمَعْضَى يَكْفِيهَا ، وَبِحَسَبِهَا أَنْ اللَّهَ أَنْزَلَ آيَاتٍ تَتْلَى فِيهَا . أَخْبَرَنَا ابْنُ الْحَصَنِ ، أَنبَأَنَا ابْنُ اللَّذْهِبِ ، حَدَّثَنَا أَحَدُ بَنِي جَعْفَرٍ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَحْمَدَ ، حَدَّثَنِي أَبِي ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ ، عَنْ مُجَالِدٍ ، عَنْ الشَّعْبِيِّ ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ فَرَسٍ وَهُوَ يَكْلَمُ رَجُلًا . قُلْتُ : رَأَيْتُكَ وَاضِعًا يَدِيكَ عَلَى مَعْرِفَةِ فَرَسٍ دِخِيَةِ السَّكَلِيِّ وَأَنْتِ تَكْلَمُهُ . قَالَ : وَرَأَيْتِ؟ قَالَتْ : نَعَمْ . قَالَ : ذَلِكَ جَبْرِيلُ وَهُوَ يَقْرَأُكَ السَّلَامَ . قَالَتْ : وَعَلَيْهِ السَّلَامُ ^(١) .

انْفَرُوا إِخْوَانِي : كَيْفَ لَمْ يَرَا جُهَاً بِالسَّلَامِ لِأَجْلِ زَوْجِهَا ، فَمِنْ هَذِهِ حَالِهَا مَعَ جَبْرِيلَ كَيْفَ يَحُوزُ عَلَيْهَا الزُّورُ وَالْأَبَاطِيلُ ؟ أَمَّا أَهْلُ السَّفَةِ فَعَلَوْهُمْ بِالْفَرْحِ عِنْدَ ذِكْرِ عَائِشَةَ طَائِشَةً ، وَأَمَّا الرَّافِضَةُ فَتَأْخُذُمْ حَتَّى نَافِضَةٌ .

(١) زَادَ أَحَدٌ فِي مَسْنَدِهِ ٧٥/٦ : وَرَحِمَةُ اللَّهِ وَرَكَاتُهُ جَزَاءُ اللَّهِ خَيْرًا مِنْ صَاحِبٍ وَدَخِيلٍ ، فَتَمَّ الصَّاحِبُ وَنَعَمْ الدَّخِيلُ . وَالدَّخِيلُ : الضَّعِيفُ .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقندي ، قال أنشدني عامر بن الحسين لنفسه :
 وحق من بئلها النبي ومن والدّها المرتضى أبو بكر
 لا حلت عن يدحق لما أبداً حق أوارى في ظلمة القبر
 قد تينت أن والدّها يشفع في صبيحة الحشر
 طاهرة تنقى إلى نسب شرفه الله منه بالقصر
 لما رموها لا در درم بازور والإفك عصبه الشر
 برأها الله من مقالهم بنير شك في تحكم الذكّر
 فالما شبة بإجلها وحق طه ولية القدر
 وكم لما من فضيلة نطق بها وذكر يبق على الدهر
 قالت نوى النبي خالفة ما بين سحري وملقى تحوي^(١)
 فلا رمى الله من تنقصها فاله في الماد من عذر
 وأى عذر لبدع رجس مذهبه شتم زوجة الطهر

سبع

هي اختيار العظيم العلّ للنبي ، ومذمّولتها تُعرف بالعرز الأبي ، ولها عقل الكبار
 في من الصبي ، وهل يضرها قول الجهول النبي ، أو يفتح في ربح السك الذكي إلا بهم
 « والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .
 ما تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم بكراً سواها ، ولا أحب زوجة كعبه إلاها ،
 جاء بها الملك في سرقة لجلاها ، وتكلم الله ببراءتها سبعان من أعطاه ، وما يرى
 الأصماء بالشقم إلا سقيم « والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .
 واحبها لمبغضها من هم ، إن فهمت قولي قلت إن هم ، ضرهم والله ما صدر عنهم ،
 خفت والله عقولهم والآفة نهم « والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .

ما خفى على حُسادها طهارة ذيلها ، غير أن الطياع الردية فى ميلها ، همت عليها
الأحزان برجيلها وخيلها ، فسكانت طولَ نهارها وليلها تبكى بكاء اليتيم .
مدوا أبنوعهم إلى عرضها فسالوا ، وأكثروا القولَ ظاهراً وباطناً واحتالوا ،
ونوعوا أسباب القذف وتكلموا وأطالوا ، وهى على طهارتها مما قالوا فى مقعد مقيم .
تكلموا فيها بترهات ، وراموا ذمَّ السماء وهيبات ، يا عائنها إن عرفت عيباً فهات ،
كفانا الله شرَّ عقوق الأمهات فإنه قبيح ذميم «والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم» .
ما كان سوى غيـمٍ ثم نـجلى ، وانصرف الحزن وتولى بالفرح الذى تولى ، وليس
للمدوح أحسنَ الحلى وتحلى ، وحمل القاذف إثمًا وكلاً ، أيقده العقلاء فى أمهاتهم ،
القاذفون كلأهى منهم عقيم «والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم» .
حُوشيت من ريب أو فجور ، إنما زيدت بما جرى فى الأجور ، تنزهت أمُّ العُدول
أن تجور ، إنما وقمت فى أغباش ليل ظلامٍ دنجور ، ثم بان النور فى سورة النور ، فنزل
فى الكلام القديم : «والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم» .

المجلس الثالث واشمولونه

في فضل الصحابة رضى الله عنهم

الحمد لله القديم الأحدي ، العظيم الصمدى ، الدائم الأبدى ، القائم سرمدى ،
رفع بقدرته السماء وأجرى بحكمته الماء ، وعلم آدم الأسماء ، وأمكنه من العيش الحى ،
نغالف بالآكل الصواب ، فكشّف الخلف عنه الجلباب ، ففرج وما يعرف الباب لشؤم
ارتكاب المنهى ، ويستدرك سالف القوات حتى عقلت على تلك المعبرات رحة الأراح
انلقى ، فاحذر من الأفعال الخبيثات فإنها سبب الاتيئات ، وتعلق بالمستغاث ينقذك من
جهل الماء فإنه سريع الفرج ، إذا اشتد الأمر ضيقاً فرج « وما جعل عليكم في الدين
من حرج » رفقاً بالضعيف والقوى .

من لاذ بجنابه مريضاً صليح ، من عاذ ببابه سائلاً فتح ، سبحانه لقد جاد وسمح وحق
على الفاجر الشقي ، ذلّ لجلاله من شمع ، وقلّ لسكاه من بذخ ، وخرج الليل بقدرته وانسلخ
عن النهار النقي ، تفرّد بالإنعام والجود ، وأذلّ الأعناق له بالسجود ، وتزعم عن مشابهة كل
موجود بالوجود الأزلي ، سمد من بطاعته يلوذ ، ونجا من بحر يمه يموذ ، وأمره في خلقه
نفوذ ، فاحيلة المرمي ، يعلم خفى الخفى من السر ، ويسمع أنين المضطر في الضر ، ويرى
دبيب الذر في البر تحت أخفاف اللطى ، لا يمزب عن سمه خفى الرّكز^(١) ، ولا يمنع
أمره حصين الحرز ، تعالى أن يشابه المخلوق في المعجز بالعز الأبدى ، يوصف بالحياة
والكلام والسمع والنفس ، وجلّت صفاته عنه توهم الخلدس ، إنما هو وحى أنزله روح
القدس على قلب النبي ، يرزق النمل في الرمل والفرخ في العش ، ويبيث المزن بالوئيل
والودق والطنس^(٢) ، خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على
العرش ، لا كاستواء البشرى .

(١) الركز : الصوت الحفى . (٢) الويل : لاطر الشديد . والودق : الطر . والطنس : الطر الضعيف .

يحاسب العباد يوم القصاص ، ويسأل عن خلق الرءاء ودقيق الإخلاص ، ويثقل في الجنة لأهل الاخلاص فيلحقه الرائي وباعزة المرتى ، بيده ملك الطول والمرض ، وإذا أجمع الخلائق ليوم المرض ، حار من في السموات ومن في الأرض ، وانفصت مشيدات اللبى .

موصوف بالرضا ويحذر منه السخط ، معروف بالكرم فأياك والفتن ، شرط عليكم التقوى فم بالذى شرط ، فإنه لا ينسى أجر التقى .

لا يخفى عليه خاتنة الاعط ، ولا يحتجب عن سمعه خلق اللفظ ، وقد تزجرك عن انطاليا بأبلغ العظ ، ونهالك بالمقل والحسى ، تنزه عن المنصر وللزاج والطبع ، وتقدم عن الجوارح وإن وصف بالبصر والسمع ، ولا تُعرف صفاته إلا بالنقل والسمع ، لا برأى البدعى .

قضى بالقضاء قبل خلق الخلق وفرغ ، وأزل القرآن والزمن التز قد فرغ ، لينذركم به ومن بلغ بالسان العربى ، وهو المكتوب السموع المعروف ، المحفوظ للتو للأوف ، والتكلم به بالكلام موصوف ، تنزه عن الجرس والى . مسطور في الصعاف والأوراق ، منزل من الملك الخلاق ، أنزله من فوق السبع الطباق على الرسول الأمى ، كتاب معظم مبارك لا يدانى في لفظه ، ولا يشارك بكشف نوره ، كلما تدارك عن بصر البصيرة عى العى ، نزل بأمر الملك الجليل على النهى النبىء النبيل ، وسهلت تلاوته أى تسهيل حق على الصبى ، به فاقت هذه الأمة على الأمم ، وبه نُشر لهذا العالم العلم ، ومن حكمته عطلت على القلوب ديم فاهزت وربت بالرى ، فركب فيها أغراس الإيمان ، وأوردت أغصان الإيقان ، وانحلت موصات الإشكال بالبيات ، حتى وصل إلى فهم الأنجى .

منع حافظيه اللب والهو ، ودفع عن متدبريه البطالة والنسو ، فمن استغنى به عن غيره فهو فى العيش الرضى ، لأنه لأجل ما تحركت به الأفواه ؛ كيف لا والتكلم به هو

الله ، يكون مخلوقاً وقد اتصف به الإله ؛ ويل للمعتزلي .
لا يَخْلُقُ عن كثرة التكرار ولا يبلى ؛ لا يَقْدِرُ أَنْ يَخْلُقَ عَلَى مِثْلِهِ حاشاً وكلاً ، تعرف
للملائكة كل بيت فيه يُنْقَلَى كمرقهم بالكوكب الدرّي .
فاسلك في اعتقادك طريق السلف المرغبي ، وخذ بملازمة السنن بالسنة السوي ،
هذا مذهبٌ للسلم وعقد الحنبلي .

أحمد على انهم القوي ، واستعينه من الشيطان الرجيم القوي ، وأشهد له بالتوحيد
شهادة زاد صفاتها على الوصف المرفي ، وأن محمداً عبده ورسوله استخرجه من العنصر
الزكي فبشر بولادته انشقاق الإيوان الكسروي ، وبجله بنور الهيئة قبل الزي ،
ونصره بالرعب قبل للشرق ^(١) ، وأرسله بالدليل الجلي والحكم الشرعي ، وزهده
في مجالسة الفنى النفى ، ورغبه في محبة الفقير من الدنيا الغلي ، وعاتبه في صهيّب
الروى وبلال الحبشي والفقير الضعيف القوي « ولا تطرد الذين يدعون ربهم
بالفداء والعشي » ^(٢) .

وصلى الله على محمد القرشي الهاشمي المكي الزمزمي الأبطحي الدقي التهامي ، وعلى
صاحبه المخصوص بفضيلة « نافي اثنين » وهو في القبر مضاجعه كهاتين ، كيف لا وقد
كانا رفيقين في الزمان الجاهلي ، وعلى الذي كانت الشياطين تفرق من ظله وتفرق هيبة
من أجله ، إذا سمعوا خفق نمله هربوا من الأخوذى ^(٣) وعلى مصابر البلاء من أيدي
الأعداء الذي يستحي منه ملائكة السماء . سلام الله على ذاك الحبي ، وعلى الذي ملئ علما
وخوفاً ، وعاهد على ترك الدنيا فأوفى ، ونحن والله نحميه أوفى من حب الرافضي ، وعلى
جميع أصحابه وأزواجه وأتباعه على منهاجه ما قام مكلف بالفرض الرسمى ، واستقام
نبت في الأرض بالوسى ^(٤) . وسلم .



(٢) الأخوذى : الخفيف الماذن

(٣) سورة الأنعام ٥٢ .

(٤) للشرق : السب .

والفصل للأمور . (٤) الوسى : مطر الريح .

قال الله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشِدَّاءُ على الكُفَّار »^(١) قال ابن عباس : شهد له بالرسالة . وقوله « والذين معه » يعنى أصحابه « أشِدَّاءُ » وهو جمع شديد . والرجاء جمع رَجِمَ . والمعنى أنهم يَمْلُظُونَ على الكفار ويؤاذون بينهم « ترام رُكَّما سُجَّداً » يصف كثرة صلاتهم « يَبْتَغُونَ فَضْلاً من الله » وهو الجنة « وَرِضْواناً » وهو رضا الله عنهم .

« سِيَمَاءُ » أى علامتهم « فى وجوههم » وهل هذه العلامة فى الدنيا أو فى الآخرة؟ فيه قولان : أحدهما : فى الدنيا . ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنها السَّمت الحسن رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس . وقال مجاهد : هو الخشوع والوقار والتواضع . والثانى : أنه نَدَى العُظُور وَرَى الأرض . قاله سعيد بن جُبَيْر . وقال أبو العالِية : لأنهم يسجدون على التراب . والثالث : أنه الشَّهْوم وهو اصفرار الوجه من أثر السَّهَر . وهو مذهب الحسن وعكرمة .

القول الثانى : أنها فى الآخرة . ثم فيها قولان : أحدهما : أن موضعَ السجود من وجوههم يكون أشدَّ وجوههم بياضاً يوم القيامة . قاله عطية العَوْفى . وروى عن ابن عباس أنه قال : صلاتهم تبدو فى وجوههم يوم القيامة ..

والثانى : أنهم يبعثون غُرّاً مُحَجَّلِينَ من أثر الوضوء . قاله الزجاج ويدل عليه ما روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَنْتُمْ الْغُرَّةُ الْمُحَجَّلُونَ يوم القيامة من لِسَابِغِ الوضوء ؛ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِيلْ غُرَّتَهُ وَتَحَجَّلِهِ »^(٢) .

قوله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فى التَّوْرَةِ » أى صفتهم . والمعنى : أن صفة محمد وأصحابه فى التوراة هكذا .

فأما قوله : « وَمَثَلُهُمْ فى الْإِنْجِيلِ » ففيه ثلاثة أقوال : أحدها : أن هذا المثل المذكور

أنه مثلهم في التوراة هو مثلهم في الإنجيل . قاله مجاهد . والثاني : أن المتقدم مثلهم في التوراة ، فأما مثلهم في الإنجيل فهو كزرع . قاله الضحاك . والثالث : أن مثلهم في التوراة والإنجيل كزرع . ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى « أَخْرَجَ شَطْأَهُ » أى فراخه . يقال قد أَشْطَأَ الزرع فهو مُشْطِئ . إذا أفرخ « فَأَزْرَهُ » أى ساواه وصار مثل الأم « فَاسْتَقْلَطَ » أى غَلَطَ « فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ » وهو جمع ساق .

وهذا مثل ضربه الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم إذ خرج وحده فأئذه بأصحابه ، كما قوى الطاقة من الزرع بما نبت منها حتى كثرت وغلظت واستعصمت .

وفيمن أريد بهذا المثل قولان : أحدهما : أن أصل الزرع عبد المطلب .

أخبرنا هبة الله بن أحمد الحريرى ، أنبأنا محمد بن على بن الفتح ، أخبرنا الحسين بن شمعون ، أنبأنا أبو بكر محمد بن محمد بن جعفر بن محمد ، حدثنا أبو العباس عيسى بن إسحاق الأنصارى ، حدثنا الحسين بن الحارث بن حُلَيْب الهاشمى ، عن أبيه ، عن داود ابن أبى هند ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله عز وجل : « شَطْأَهُ » قال : أصلُ الزرع عبد المطلب ، أخرج شطأه : أخرج محمدا صلى الله عليه وسلم « فَأَزْرَهُ » بأبى بكر « فَاسْتَقْلَطَ » بممر « فَاسْتَوَى » بثمان « عَلَى سُوقِهِ » على بن أبى طالب .

والثانى : أن المراد بالزرع محمد .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البرزاز ، أنبأنا أبو حمر الجوهري ، أنبأنا الحسين بن محمد ابن عبيد ، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخزومى ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ؛ حدثنا على ابن إبراهيم ، حدثنا الحسين بن على الهمداني ، حدثنا محمد بن عبد العزيز ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « كَزَرَعَهُ » قال : الزرع محمد . « أَخْرَجَ شَطْأَهُ » أبو بكر « فَأَزْرَهُ » بممر « فَاسْتَقْلَطَ » بثمان « فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ » بعلى « يَجِبُ الزَّرْعُ » قال : المؤمنون

« لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » قال : يقول عمر لأهل مكة : لا يُعبد الله عز وجل بعد يومنا هذا سرّاً .

قال مالك بن أنس : مَنْ أصبح وفي قلبه غيظٌ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية .

واعلم أن فضائل الصحابة على جميع صحابة الأنبياء ظاهرة وكان لسببهم سببان : أحدهما : خلوص البواطن من الشك بقوة اليقين . وإلى هنا أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما سبقكم أبو بكر بكثيرِ صومٍ ولا صلاة ولكن بشيءٍ وقر في صدره » .

والثاني : بذل النفوس للمجاهدة والاجتهاد .

وقد عُلِمَ ما جرى لموسى مع أصحابه وعُلِمَ صبر صحابتنا .

ولما استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم بدر قال المقداد : والله لو ضربت بطوننا حتى تبلغن برك الفماد^(١) لتأبناك ، ولا نقول كما قال قوم موسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا » .

وكان أبو طلحة يوم أحد يقول : نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ . وقتل يومئذ زوجُ امرأة وأبوها وابنها وأخوها فقالت : يا رسول الله لا أبالي إذ سَلِمْتَ مِنْ عَطْبِ

قال ابن مسعود : إن الله نظر في قلوب المباد فوجد قلبَ محمد خيرَ قلوب المباد ، فاصطفاه لنفسه فابعثه برسائته ، ثم نظر في قلوب المباد بعد قلب محمد فوجد قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب المباد فجعلهم وزراء نبيه صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عمر : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرَ هذه الأمة ، أبرَّها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ونقل دينه .

قال أبو زرعة : شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع أربعون ألفاً

(١) برك الفماد : أقصى ممور الأرض . أو موضع .

من الصحابة ، وشهد معه تهوك سبعمون ألفا ، وقُبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ، ممن روى عنه وسمع منه .

أخبرنا محمد بن عبد الملك ويحيى بن علي ، قالا أخبرنا ابن المُسَلِّمَة ، أنبأنا أبو طاهر الخُلَّص ، حدثنا البَغَوِيُّ ، حدثنا محمد بن عَبَّاد المَسَكِيُّ ، حدثنا محمد بن طلحة المدِينِيُّ ، عن عبد الرحمن بن سالم بن عبد الله بن عَوْثِم بن ساعدة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اختارني واختار لي أصحابا ، فعمل لي منهم وزراء وأنصارا ، فمن سبهم فمليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يومَ القيامة صَرْفاً ولا عدلاً » .

تفرد برواية هذا الحديث محمد بن طلحة ، وكان ثقة .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدكم ولا تصيفه^(١) » .
أخبرنا هبة الله بن محمد ، أخبرنا الحسن بن علي ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن محمد بن إسحاق ، حدثني صدقة بن يسار ، عن عقيل بن جابر ، عن جابر بن عبد الله فيما يذكر من اجتihad أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فُتَيْشِينَا داراً من دور المشركين فأصبنا امرأة رجل منهم ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً وجاء صاحبها وكان غائبا فذكر له مصابها غلغ لا يرجع حتى يهريق في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دماً .
فما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق فنزل في شُئْب من الشعاب وقال : من رجل يَكْلُؤُنَا فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقالا : نحن يا رسول الله . قال فخرجا إلى قم الشَّعْب دون العسكر . ثم قال الأنصاري للمهاجري : أنكفئني آخره وأكفئك أوله ؟ قال فقال للمهاجري : بل اكفئ أوله وأكفئك آخره . فنام المهاجري وقام الأنصاري فافتتح سورة من القرآن ، فبينما هو فيها يقرأها

جاء زوجُ المرأة فلما رأى الرجلَ قائماً عرف أنه ربيبة^(١) القوم ، فنزع له السهم فيضمه فيه . قال : فينزعها فيضمه وهو قائم يقرأ في السورة التي هو فيها ولم يتحرك كراهية أن يقطعها ، قال : ثم عاد له زوج المرأة الثالثة بسهم فوضعه فيه ، ثم ركب وسجد ثم قال لصاحبه : اقم قد أثبت . قال : جلس المهاجرى فلما رآها صاحب المرأة قال فقال له أخوه : أنه قد نذر به ، وإن الأنصارى يفوح دما من رَمَيَات صاحب المرأة قال فقال له أخوه : يغفر الله لك ! ألا كنتَ آذنتني أولَ مارماك ؟ قال : فقال : كنت في سورة من القرآن قد افترضتها أصلي فيها ، فكرهتُ أن أقطعها ، وأيم الله لو لا أن أضيعَ نَفَرًا أمرني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها .

فسبحان من خصهم بهذه الفضائل وحرسهم من التصور والذائل .

السلام على البسوة

وعظمتك أجداتٌ صُنَّتْ ونعمتك أزمنةٌ مضتْ
وتكلمتُ عن أعظم تبلى وعن صؤورٍ سبتْ
وأرسلتُ قبركَ في القبر وأنت حيٌّ لم تمُتْ
ولربما انقلب الشما ت غلٌّ بالقوم الشمت^(٢)

يا مؤثرا على العرض العرض ، يا صهيحا قد قتله المرض ، يا جامعا للمال والعمر قد انقرض ، يا هدف البلايا سينصاب العرض ، يا بائسا الدين بئيل العرض ، من لك إذا ضقت عند الموت بالأموال ذرعا ، وحالت منك الحلى وأجذب المرعى ، واجتث البلاء منك أصلا وفرعا ، سالت الأماقي إذا لم ينفع الراق دما ، ولم يستطع للأذى ردا ولا لردى دفا ، وأخرس الموتُ منك لسانا وأسمٌ تنمنا ، وأضحى شين التراب بمد لين الشياب لك ذرعا ، وأصبحت لقي بين القوم في الثرى صرعى ، يا من [هو] غرض الآفات

(١) الربيبة : الطليعة . (٢) الصيات : الفرح بيلة العدو . والشمت : الشامتون .

رَشَقَهُ سَهَامَهَا رَشَقًا ، لَا يَدُ مَا وَصَفْنَا حَتْمًا وَحَقًا ، فَتَاهَبَ لِفَنَاءِ قَتْلِ مَا تَبَقَى ، وَتَهَيَّأَ لِلْبَلَى
فَبَعِيدَانِ أَنْ تَتَوَقَّى ، وَأَصِيخُ لِهَاتِفِ الدَّيْرِ فَقَدْ حَادَثَتْكَ نَطْقًا ، وَبَادِرِ السَّلَامَةِ فَيَسْتَجِيلِ
الصَّفُورُنَقَا ، وَاحْذَرِ عَلَى نَفْسِكَ أَنْ تَخْسِرَ وَأَنْ تَشْقَى ^(١) ، وَاعْمَلْ لِيَوْمِ تَرَى فِيهِ مَدَامَعَ
الْخَلَائِقِ لَا تَرَقَا ، وَهَمٌّ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ وَأَكْرَمِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ الْأَتَقَى ، إِنْ أُعْطِيتْ بَخَلْتُ بِالْمَالِ
وَبَطَرْتُ ، وَمَتَى نَبْتُ رِيشُ رِيَاشِكَ نَبْتُ أَرْضِ الشُّكْرِ فِطْرْتُ ، كَيْفَ بِكَ يَوْمَ
تُسْكُو بِهَا جِبَاهَهُمْ ، مِنْ لَكَ حِينَ تَوْبِيخُ : « هَذَا مَا كُنْتُمْ » :

تَرَمَّ الْمَالُ وَالْإِرْضُ فَلَمْ
لَا سَلِمَ الْمَالُ إِذَا الْعَرْضُ تُلِمَ
قَدْ كُنْتُ نَادِيكَ وَالْأَمْرُ أَمَمُ
فَلَمْ تُطِيعِ رَبِّي رَأَى مِنْهُمْ
تَمَعُكَ وَاعِ وَبَعَقَكَ الصَّمَمُ
مَوَارِدُ الْجَهْلِ مَصَادِرُ النَّدَمِ
وَمَنْ رَمَى بِالْمَوْقِفَاتِ لَمْ يَتَمَّ

قال كعب : إذا وضع العبد الصالح في قبره احتوشته أماله الصالحة ، فتجىء ملائكة
العذاب من قِبَلِ رجليه فتقول الصلاة : إليك عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال القيام
لله عز وجل . فيأتونه من قِبَلِ رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه
لله عز وجل في دار الدنيا . فيأتونه من قِبَلِ جسده فيقول الحج والجهاد : إليك عنه
قد أنصب نفسه وأثعب بدنه . ويأتونه من قِبَلِ يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبي
فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقفت في يد الله عز وجل . فيقال له : نعم
هنيئا طبت حيا وميتا . وتأتيه ملائكة الرحمة تفرشه فراشا من الجنة ودينارا من الجنة ،

(١) ب : أو أن تشقى . وما أنبهته من ت .

وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةٌ بِصَرِهِ ، وَيُؤْتَى بِقَنْدِيلٍ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَسْتَضِيءُ بِنُورِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .
وَقَفَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ عَلَى الْمَقَابِرِ فَقَالَ : يَا أَهْلَ الْقُبُورِ ، أَصَبَحْتُمْ نَادِمِينَ عَلَى مَا خَلَفْتُمْ
فِي الْبُيُوتِ ، وَأَصْبَحْنَا نَقْتُلُ عَلَى مَا نَدَمْتُمْ عَلَيْهِ ، فَا إِعْجِبْنَا وَإَعْجِبْكُمْ !

يَا أَيُّهَا الْوَاقِفُ بِالْقُبُورِ بَيْنَ أَنْاسٍ غُيِّبَ حُضُورِ
قَدْ أَتَّكَلُوا فِي خَرَبٍ مَمْنُورٍ بَيْنَ الثَّرَى وَجَنْدِلِ الصَّخُورِ
يَنْتَظِرُونَ صَيْعَةَ النَّشُورِ لَا تَكُ عَنْ حِظِّكَ فِي غُرُورِ

قَالَ بَعْضُ السَّالِحِينَ : صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ فِي اللَّيْلِ ثُمَّ وَضَعْتُ رَأْسِي عَلَى قَبْرِ نَمٍ نَمَتْ ،
فَإِذَا صَاحِبُ الْقَبْرِ يَقُولُ : لَقَدْ أَذِيقُنِي مِنْهُ اللَّيْلَةَ ، إِنَّكُمْ تَعْمَلُونَ وَلَا تَعْمَلُونَ ، وَنَحْنُ نَعْمَلُ
وَلَا نَعْمَلُ وَلَا نَقْدِرُ عَلَى الْعَمَلِ ، إِنْ الرِّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ رَكْعَتُهُمَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .
ثُمَّ قَالَ : جَزَى اللَّهُ أَهْلَ الدُّنْيَا عَنَّا خَيْرًا أَقْرَبُهُمْ مَنَا السَّلَامَ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْنَا مِنْ دَعَائِهِمْ
نُورَ أَمْثَالِ الْجِبَالِ .

كَانَ الرِّبِيعُ بْنُ أَبِي رَاشِدٍ يَخْرُجُ إِلَى الْجَبَّانِ فَيَقِيمُ طُولَ النَّهَارِ وَبَرَجَ مَكْتَبًا فَيَقُولُ لَهُ
إِخْوَانُهُ وَأَهْلُهُ : أَيْنَ كُنْتَ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ فِي الْمَقَابِرِ ، نَظَرْتُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ سَمِعُوا
حَا نَحْنُ فِيهِ .

طَالَمَا صَبَرُوا عَلَى الْغُدُودِ وَهَزَا أَلْ
ثَمَّ أَمْسَوْا وَفَدَّ الْقُبُورَ سَكَانَ أَطْلُبَا
كَمْ كَرِيمٍ مِنْهُمْ يَرَى الْوَعْدَ بِجَلَا
رَدَّ عَنْ غَرْبِ اللَّامِ خَلِيلِي
وَتَنَحَّيْتُ عَنْ طَرِيقِ الْإِلَهِ
أَرْضَ فِي يَوْمِ تَحْفَلِي وَرُكُوبِ
فِي الثَّرَى نَحْتُ جَنْدِلٍ مَنصُوبِ
مُسْتَقْلٍ لِكَثْرَةِ الْوُهُوبِ
إِنْ نَفْسِي صَارَتْ عَلَى حَيَّيْنِي
وَالْمَلَأَمِي وَقَلْتُ لِلنَّفْسِ تَوَيَّ

الكلام على قوله تعالى

﴿ وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

روى مسلم في صحيحه^(١) من حديث سعد بن أبي وقاص قال : نزلت هذه الآية في وفي ابن مسعود وصُهَيْب وعمار والمقداد وبلال ، قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء ، فاطردم عنك . فدخل من ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ، فنزلت هذه الآية^(٢)

أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، أخبرنا أحمد بن أحمد الخداد ، أخبرنا أبو نعيم أحمد ابن عبد الله ، حدثنا أبو بكر الطلي ، حدثنا عبيد بن غنام ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أحمد بن الفضل ، حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدي ، حدثنا سعيد الأزدي ، عن أبي الكنود ، عن خباب بن الارت قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي هو وعيينة ابن حِصْنِ الْقَرَارَى فوجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً مع عمار وصُهَيْب وبلال وخبَّاب في أناس من ضفء المؤمنين ، فلما رأوهم حقروهم فغفلوا به فقالوا : إن وفود العرب تأتيك ، فتستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد ، فإذا جئناك فأقنهم عنا . قال : نعم . قالوا : فاكذب لنا عليك كتاباً . فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية ، إذ نزل جبريل عليه السلام فقال : « وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » إلى قوله تعالى : « وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا » الآية . فرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة ودعانا فأتيناه وهو يقول : سلام عليكم فدعونا منه حتى وضعتا رُكبتنا على ركبته . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركتنا ، فأنزل الله عز وجل : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ » قال : فكنا بعد ذلك نعد

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٤١٣ باختلاف (٢) ت : فأنزل الله تعالى هذه الآية .

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بلغنا الساعة التي كان يقوم فيها قننا وتركناه ولا نصبر إذاً حق تقوم .

قوله تعالى : « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » المراد بهذا الدعاء خمسة أقوال : أحدها : أنه الصلاة المكتوبة . قاله ابن عمر وابن عباس . والثاني : ذكر الله عز وجل . قاله النخعي . والثالث : عبادة الله عز وجل . قاله الضحاك . والرابع : تعلم القرآن غدوة وعشية . قاله أبو جسر . والخامس : دعاء الله بالتوحيد والإخلاص وعبادته . قاله الزجاج .

قوله تعالى : « يريدون وجهه » أي يريدونه بأعمالهم . كانوا يصبرون على الجبابة ، ويخلصون الطاعة ، ولا يضيعون ساعة ، فإذ فُحرم إذا قامت الساعة .

أخبرنا السجزي ، أخبرنا الدراوردي ، أنبأنا السرخسي ، حدثنا القريبي ، حدثنا البخاري ، حدثنا يوسف بن عيسى ، حدثنا ابن فضيل ، عن أبيه ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : لقد رأيت سبعين رجلاً من أهل الصفّة ما منهم رجل عليه رداء إلا أزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم فيها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ السكعين فيجسمه بيده كراهية أن ترى عورته .

أفرد بإخراجه البخاري .

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال : إن كنا لنفرح بيوم الجمعة ، كانت لنا مجوز تأخذ أصول السكّ فتجعله في قدر لها وتجعل فيه حبات من شير ، إذا صلينا زرناها قربة إلينا^(١) .

وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص قال : كنا نفرز مع النبي صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الخبلة وهذا السر^(٢) .

(١) صحيح البخاري ٢٤٥/٣ .

(٢) صحيح البخاري ١٠١/٤ ، وصحيح مسلم حديث رقم ٢٩٦٦ .

سرقه در أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها ، وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوتقوها ،
وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها ، وخلصوا أعمالهم من أشرار الرياء وأطلقوها ،
وقهروا^(١) بالرياضة أغراض النفوس الردية فحققوها ، فمن إبعاد مثلهم وقع نهي النبي
« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » .

صعدت بمحافهم من الأكدار ضافية ، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص ضافية ،
وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متعافية ، والناس في أخلاط والقوم في عافية ، ففاق الموتى
منهم على الرئيس القرشي « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » .

دموعهم بالأحداق مُحْدَقَة ، ورووسهم في الأسعار مُطْرَقَة ، وأكفهم بما تنسكب
في الخير مُنْفَقَة ، ونفوسهم بمد الجدة من اللوم مشفقة ، يردون من حياض المصافة
على أوفى الرئي « يدعون ربهم بالغداة والعشي » . خلصوا الأعمال من الأكدار تفلأ
وقرأوا ، واجتهدوا في طاعة مولام ليرضى ، وحضوا أنفسهم لطلب الحظ الأحظ حصاً ،
وغضوا أبصارهم عن غش^(٢) الشهوات غصاً ، فإذا أبصرتهم رأيت أجساداً مَرَضَى
وعيوناً قد ألفت السهر فاكاد تظلم غمضاً ، بادروا أحرامهم ليملهم أنها ساعات تنقضي ،
فأمدم بالمرن السرمدي « يدعون ربهم بالغداة والعشي » .

ابتلام فرضوا وصبروا ، وأنتم عليهم فاعترفوا^(٣) وشكروا ، وجاءوا بكل
ما يرضى ثم اعتذروا ، وجاهدوا العدو فاقشعت الحرب حتى ظفروا ، فنالوا غاية
الإمكان في المكان الملى « يدعون ربهم بالغداة والعشي » .

لله دَر أناس أخلصوا العمل^(٤) على اليقين ودانوا بالذى أمروا
أولام نعماً فازداد شكرهم ثم ابتلام فأرضوه بما صبروا
وفؤا له ثم وافوه بما عملوا إذا سيوفهم^(٥) يوماً إذا نُشِرُوا

(١) ب : قهروا . (٢) ت : عن غرض . (٣) ب : فرضوا . (٤) ت : عملا .

(٥) ت : وأله سيوفهم .

قال سعد بن أبي وقاص : لقيت عبد الله بن جحش يوم أحد فقال : يا سعد ألا تدعو الله عز وجل ؟ فدعا عبد الله فقال : يا رب إذا لقيت العدو غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه أهائله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجذع أنفي وأذني ، فإذا لقيتك غداً قلت : يا عبد الله من جذع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك . فتقول : صدقت . قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لملتقان في خيط .

وأقبل مصعب ابن عمير يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قطعة من ثيامة^(١) قد وصلها بإهاب^(٢) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيت هذا وما بمكة فتى أنتم عند أبيه منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في حب الله ورسوله . ولما كان يوم أحد كان معه لواء المهاجرين ، فضربه ابن قيسة فقطع يده ، ومصعب يقول : « وما محمد إلا رسول » فأخذ اللواء بيده اليسرى وحقى عليه فغضب يده اليسرى فقطعها ، فحقى على اللواء وهو يقول : « وما محمد إلا رسول » فقتل ولم يوجد له كفن إلا ثيامة كانوا إذا وضموها على رأسه خرجت رجلاه ، وإذا وضموها على رجله خرج رأسه ، فجعلوا على رجله شيئاً من الإذخر^(٣) .

ولما نهى الناس للخروج إلى غزوة مؤتة جعل المسلمون يقولون : سمحكم الله ودفع عنكم . فقال ابن رواحة :

لكنني أسألُ الرحمن مغفرةً وضربةً ذات فرغ^(٤) تقذف الزبدًا
أو طعنةً بيدي حَرَّانٍ مُجْبِزةٍ بحربةٍ تُنفذُ الأجشاء والكبدًا
حتى يقولوا إذا مرَّوا على جدِّي أُرشدك^(٥) الله من غارٍ وقد رشدًا
« أخبرنا محمد بن ناصر وعلي بن أبي عمر ، قال أنبأنا رزق الله وطراد ، قالاً حدثنا أبو الحسين بن بشران ، أنبأنا ابن صفوان ، حدثنا أبو بكر القرشي ، حدثني أبي ، حدثنا عبد القدوس بن عبد الواحد الأنصاري ، حدثنا الحكم بن عبد السلام ، أن جعفر

(١) الثمرة : بريدة من صوف غليظ . (٢) الإهاب : الجلد . (٣) الإذخر : نبت .

(٤) ذات فرغ : واسمة . (٥) ابن هشام : أُرشدته .

ابن أبي طالب حين قُتل دعا الناسُ : يا عبد الله بن رَواحة . وهو في جانب المعسكر
ومعه ضلع جمل يَهشهُه ، ولم يكن ذاق طعاما قبل ذلك بثلاث . فرمى بالضلع ثم قال :
وأنت مع الدنيا ! ثم تقدم فقاتل فأصيب بإصبعه فأرتجز :

هل أنت إلا إصبعٌ دَمِيَّتِ وفي سبيلِ الله مالقيتِ
يا نفسُ ! لا تُقتلِي تموتِ هذا حياضُ الموت قد صليتِ
وما غنيتِ فقد لقيتِ إن تفصلي ففعلها هُديتِ
وإن تأخرتِ قد شقيتِ

ثم قال يا نفس إلى أي شيء تنوقين ؟ إلى فلانة ؟ فمضى طالق ثلاثا . وإلى فلان وفلان ،
غلطان له ، [فهم أحرار] وإلى مجنب^(١) حائط له ، فهو لله ورسوله :

يا نفس مالك تكُرهين الجنة طائفةً أو لُفكرهه
قد طال ما قد كنتِ مطعنة هل أنت إلا نُظفة في شنة^(٢)
قد أجلب الناسُ وشدوا الرنة^(٣)

لله در أقوام تَمَيَّوا فأرجموا ، وزهدوا فأبصروا ، جَلَّتْ أبصارهم فشاهدوا ، وأعطوا
سلاح المونة فجاهدوا ، وتأملوا الدنيا وسبروها ، وعرفوا حالها وخبروها ، فصَدَّتْ
نفوسهم ، ما صَدَّها ما كانت تميد وأقبلت على قِبلة الاعتذار في مناجاة « ظلمتُ نفسي »
فغضبت بالدنيا وجه عشاقها ، وشتمت في سوق الجِلْد عن ساقها ، ونَفَضَتْ لتصحيح عملها
مُخَدَّع الخديعة ، ونَفَضَتْ يد أهلها من سَرابِ بَقِيعة ، غَدَّتْ^(٤) رُكائب سيرها في إدلاج
سُرَّاحها ، وزادها نشاطا حادى الهمة لها حذاها ، فسبقت إلى الخلال الكرائم ووصلت
إلى الإفضال وأنت نائم .

(١) ب : مجنب . (٢) الشنة : القرية الخلق - ضرب ذلك مثلا لنفسه في جسده .

(٣) الرنة : الصوت . والرواية هنا مخالفة لرواية ابن هشام في سيرته ٢١/٤ في الترتيب ، وفيها نفس

(٤) ب : غدوت .

• قالت الكرماتُ لستُ لُحفاً ، ولكن لصامداً لى صَدَا
وُبِكَدَ الجَمَانُ والروحُ والجنا • طوبلا ولا يرى الكدَّ كَدَا

يا هذا لو صَحَّتْ منك العزعة أوقعتُ في جيش الهوى هزيمة ، إن في البدن مُضغَّة
إذا صَلَّحت صَلَّحَ البدنُ وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ البدنُ ألا وهى القلب ، يا هذا متى حصل
الفسادُ في رأى الملكِ تَشَتَّتَ الأعوان ، ومتى رُمى القذَرُ في فُوَّةِ النهرِ أثرٌ في المَشَارِع .
وإذا كان في الأنايب خُلْفَةٌ وقع الطُّبْنُ في رهوس الصَّغَارِ

يا هذا إن أردت لقاءنا في حضرة القدس ، واشتاق سمحك إلى نفحات الأنس ، فمُ
عن لذات النفس وشهوات الحس ، واصبر على قطع تفاوز الحزن واستأنس ببينك في بيت
الوجد ، وقضِ نهار اللقى بمعادنة الفكر ، واقطع أمل الهوى بقهر العزم ، واقرع فضول
السلام بسوط الصمت ، وأقم على طرف طَرْفك حاجب النفض ، وانهد إلى كلب
الشهوات كسر الصبر ، وفرغ دار عزلك من شواغل القلب ، فإذا سمعت ضجيج
محبوس النفس يستغيث من سجن الزهد لشدة الحصر فصيح [به] ^(١) : يا صاح صبرا
على ضيق الحبس ، لعلك تخرج إلى رياض « اجلس على خزائن الأرض » .

وقد صُمْتُ عن لذات دَهْرِي كلها ويومُ لِقَاكم ذاك فطر صيامي

المجلس الرابع والثمانون

في فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم

الحمد لله خالق الجامد والحساس، ومُبدع الأنواع والأجناس، القوي في سلطانه الشديد الباس، المزه عن السفة والنماس، المخرج رطب الثمار من يابس الأغراس، نفذ قضاؤه فلم يمتنع بأحراس، وقهر عزه كل صعب المراس لا يمتزب عن سمعه حركات الأضراس، ولا ديب ذر بالليل، في مطاوى قرطاس، نفذت مشيئته فكم مجتهد عاد بالياس، يفعل ما يريد لا بمقتضى تدبير الخلق والقياس، قدم نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم عن كل نبي دبر وساس، فسبعان من أجل له العطا، وجعله خير نبي حارب وسطا، وقال لأمته: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس».

أحمد حمداً يدوم بدوام الحفظات والأنفاس، وأصلى على رسوله محمد الذي شرعه مستقر ثابت الأساس، وعلى صاحبه أبي بكر الثابت العزم وقد ارتد الناس، وعلى عمر قاهر الجبابة الأشواس، وعلى عثمان الصابر يوم الشهادة على مرير الكاس، وعلى علي أهدى الجماعة إلى نصير أو قياس، وعلى عه وصينو أبيه العباس.



قال الله تعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا»^(١) الكاف في قوله: «كذلك» كاف التشبيه، فالكلام معطوف على قوله: «ولقد اصطفيناك في الدنيا» والتقدير: فسما اخترنا لإبراهيم وذريته واصطفيناهم: كذلك جعلناكم أمة وسطا أى عدولا خيارا. ومثله: «قال أوْسطُهُمْ»^(٢) أى خيرهم وأعدلهم.

مُوسَى يَرْضَى الْأَنَامَ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ لِاحْدَى اللَّيَالِي بِمُؤَمَّرٍ

وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغزو والتقصير مذمومان .
 « لتكونوا شهداء على الناس » وفيه قولان : أحدهما لتكونوا شهداء يوم القيامة
 للأنبياء على أممهم بأنهم قد بلغوا .

أخبرنا ابن الخَصِين ، أنبأنا ابن اللُّذْبِ ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله
 ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا وَكِيع ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد
 الخُدْرِي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُدْعَى نوحٌ عليه السلام يوم القيامة
 فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون :
 ما أتانا من نذير . فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمه . فذلك قوله تعالى :
 « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » . قال : الوسط : العدل . قال : فُدْعَوْنَ فَيُشْهِدُونَ له
 بالبلاغ . قال : « ثم أشهد عليكم » .

قال أحمد : وحدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال :
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يَجِيءُ النَّبِيُّ يوم القيامة ومعه الرجل والنبي ومعه
 الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا .
 فيقال له : هل بلغت قَوْمَكَ ؟ فيقول : نعم . فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد
 وأمه . فيدعى محمد وأمه . فيقال لهم : هل بلغ هذا قَوْمَهُ ؟ فيقولون : نعم . فيقال :
 وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نَبِيٌّ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرِّسْلَ قد بَلَغُوا . قال : فذلك قوله
 عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » قال : يقول : عدلاً « لتكونوا شهداء
 على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

القول الثاني : لتكونوا شهداء لمحمد على الأمم اليهود والنصارى والمجوس ،
 ويكون الرسول شهيدا عليكم بأعمالكم . قاله مجاهد

واعلم أنه كما فضّل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء فضّلت أمتنا على سائر الأمم .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسين بن علي ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن هَمَّام بن مُنْبِه ، حدثنا أبو هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي فُرض عليهم فاختلقوا فيه فهدانا الله له ، فهم لنا فيه تبع ، فالיום لنا واليهود غداً وللنصارى بعد غد » .

قال أحمد : وحدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنا أبو إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة حراء نحواً من أربعين فقال : **أَرْضُونْ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ** . قلنا : نعم . قال : **أَرْضُونْ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟** قلنا : نعم . قال : **فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ** وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود أو السوداء في جلد ثور أحمر » .

قال أحمد : وحدثنا إسماعيل ، أنبأنا أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **مِثْلُكُمْ وَمِثْلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَرَجُلٍ اسْتَمْتَلَ عُجَالاً فَقَالَ : مَنْ يَمْلِكُ لِي مِنْ صَلَاةِ الصَّبِيحِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيَرَاطٍ ؟ أَلَا فَعَمِلْتُ الْيَهُودَ .** ثم قال : **مَنْ يَمْلِكُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْمَصْرِ عَلَى قِيَرَاطٍ ؟ أَلَا فَعَمِلْتُ النَّصَارَى .** ثم قال : **مَنْ يَمْلِكُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْمَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيَرَاتَيْنِ ؟ أَلَا فَأَنْتُمْ الَّذِينَ عَمَلْتُمْ .** فغضب اليهود والنصارى فقالوا : نحن كنا أكثر حملاً وأقلَّ عطاءً . قال : هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : **إِنَّمَا هُوَ فَضْلِي أَوْتِيهِ مَنْ أَشَاءَ .**

واعلم أن فضيلة هذه الأمة على الأمم للتقدمة وإن كان ذلك باختيار الحق لها وتقديمه إليها إلا أنه جعل لذلك سببا، كما جعل سبب سجود الملائكة لآدم عليه بما جهلوا، فكذلك جعل لتقديم هذه الأمة سببا هو العطفة والقهم واليقين وتسليم النفوس .

واعتبر^(١) حالهم بمن قبلهم : فإن قوم موسى رأوا قدرة الخالق في شق البحر ثم قالوا : « اجعل لنا إلها » . ثم مال كثير منهم إلى عبادة السجّل . وعرضت لهم غزاة فقالوا : « اذهب أنت وربك فقاتلا » ولم يقبلوا التوراة حتى منق عليهم الجبل . ولما اختار سبعين منهم فوقع في نفوسهم ما أوجب تزلزل الجبل بهم .

ولهذا لما صعد نبينا صلى الله عليه وسلم إلى جِراء في جماعة من أصحابه تزلزل الجبل فقال : « اسكن فاعليك إلا نبي أو صديق أو شهيد » . فكانه أشار إلى أنه ليس عليك من يشككك قوم موسى .

ومن تأمل حال بني إسرائيل رآهم قد أسروا بقول « حطة » فقالوا : « حنطة » وقيل لم : « ادخلوا الباب سجدا » فدخلوا زحفا . وقالوا عن نبيهم : هو آذر^(٢) . ومن مذهبهم التشبيه والتجسيم وهذا من أعظم التفتيل ، لأن الجسم مؤلف ، ولا بد للمؤلف من مؤلف .

ومن غفلة النصارى : اعتقادهم أن الله تعالى جوهر والجوهر بمائل ، ولا يمثل للخالق . ثم يقولون : عيسى ابنه وقد علم أن الابن بعض ، والخالق سبحانه لا يتجزأ فلا يقبض . ثم قد علموا أن عيسى لا يقوم إلا بالطعام ، والإله من قامت به الأشياء لا من قام بها . وقد عرف يقين امتنا وبدلهم أنفسهم في الحروب وطاعة الرسول ، وحفظهم للقرآن ، وأولئك كانوا لا يحفظون كتابهم ، فلهذا فُتّلوا .

فهم أول أمة يدخلون الجنة . وقد قال عليه السلام : « أهل الجنة مائة وعشرون صفًا ، أمثى منهم ثمانون صفًا » .

(١) ب : فاعتبر . (٢) الأذر : العظيم الحبيب .

أخبرنا ابن الحُصَيْن ، أنبأنا ابن اللّٰذْبِ ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثني أبي ، حدثنا يزيد ، حدثنا بهز بن حكيم بن معاوية ، عن أبيه عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا إنكم تُوفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى » .

فالحمد لله الذي أعطانا بحجوده وفضله ^(١) ما لَسْنَا من أهله .

الكلام على البسمة

لِلْفَقْصِ من أعمارنا ما يَكْثُرُ والدمر يُوسِنَا ونحن نُوْمَلُ
تَمْشِي اللَّتُونُ رُوَيْدَهَا لَتَفْرَتَنَا أبدأً فَتُدْرِكُنَا ونحن نُهْرُولُ
يا مُعْجِبَا بالعيش طال بقاءهُ بطراً بقاءُكَ في اللّٰئِيَةِ أطولُ
عن جَانِبَيْ دُنْيَاكَ فَرُغْبَ إِنَّهُ أُوْدَى الحَرِيصُ وما نجا المتوَكِّلُ
وَإِذَا الْجَفَوْنَ تَخَلَّصَتْ مِنْ مُجْمَلِ الشَّبَهَاتِ خَلَّصَ نَفْسَهُ مِنْ يَمْعَلُ
دُنْيَا تَسْرُ بِمَا يَضُرُّ بِمَثَلِهِ واسمٌ لها شَهْدٌ وَمَعْنَى حَنْظَلُ

يا هذا : الدنيا دار الحزن ودائرة الفتن ، ساكنها بلا وطن واللييب قد فطن ، أين من مالٍ إلى حب المال بالآمالِ وصَبَاً ، وأصبح بين غَبُوقِهِ وَصَبُوحِهِ لا يَعْرِفُ وَصَبَاً ، وتقلب بمجهل في روضتي هَوًى وَصَبَاً ، وأضحى علم شهواته على قباب عزه منتصباً ، وظلَّ ربيع ربمه بوفور جمعه خصباً ، وكلما دعى إلى نفعه في عاقبته آتَى ، أما شارك بمصرعه الفاجع له أُنَا وأبَا ، أما صار إذ رحل نبأ ^(٢) ، أترأه تزود لمذهبه إذ أذهب ذهباً ، لقد لقي والله إذ نصب الموت شرَّكَ نَسَبَاً ، أين من رضى خلال البطالة بضلاله رَبَّماً وَفَنّاً ، أما أدرك التلفُ في أسوأ حاله ثياباً وَفَنّاً ، لقد غادره جفاؤه لِمَا يَنْفَعُهُ جَنّاً ، لا يجد لمرضه إذ تمسك من جلته شِفَاً ، أين من كان مجلسه بين الناس في الصدور ، أين من كانت هِمَّتُهُ نِضَارَ القصور ، أما استلبه الموتُ من للمازل والقصور ، أين من كانت تقوى بسقائه الظهور ^(٣) ،

(١) ت : عطاء لَسْنَا من أهله . (٢) كذا بالأصل . ولعل نبا : نبأ . أى صار خبراً من الأخبار .

(٣) كذا بالأصل . وهى معرفة في ج .

أما عدم الظهور عند الموت حين الظهور ، حام الحام حول حمار فلم ينفعه الحصى ، ورام راميهِ تَراميه فرماه إذ رمى ، وصاحت به هاتفتُ الفراق بملء فيها ، ولغظته المنازل كأن لم يكن فيها ، كأن لم تعلق راحته براحة الهوى إذ زلَّ قدمه في التلف وهوى ، وكأنه ما عزم على غرض ولا نوى إذ جذبته بأيديها النوى ، وكأنه ما تمرك من مراد ولا النوى حين أدر كـمـسكون التلف والنوى^(١) ، انبت والله حبل بقاءه بأقطع اللدى ، وانتظر منظوم حياته وانقطع اللدى ، فأخرج عن الإنس كأنه ليس من الجنس ، وكفَّ كفه في الرُئس بعد تصرف الخمس ، وأصبحت منازلُه إذ لم يصبح بها ولم يُمس كان لم تنن بالأس .

أخى إنما الدنيا محلة نفصة ودار غرور آذنت بفراق
تروذ أخى من قبل أن تسكن الثرى ويلتف ساق للسمات بساق
ما أقرب ما هوات ، ما أبعد ما قد فات ، ما أغفل الأحياء مما حل بالأموات .

يا غافلين عن القنا ليس القنا عنكم بغافل

أخبرنا يحيى بن على اللدير ، أخبرنا عبد الصمد بن المأمون ، أخبرنا الدارقطني ، حدثنا الحسين بن إسماعيل ، حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو أسامة ، عن بُريد ، عن^(٢) أبي بردة ، عن أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجلٍ أتى قومه فقال : يا قوم إنى رأيت الجيش بينى وأنا النذير الريان ، فالنجاه . فأطاعه طائفة من قومه فأذبلوا وانطلقوا على مهلبم ففجأوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكاهم فصبغهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق » .
أخرجاه في الصحيحين^(٣) .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه من أحد يموت إلا يدم قالوا :

(١) النوى : الملاك .

(٢) الأصل : من يزيد بن أبي بردة . بحرفة والتصويب من صحيح البخارى ٢١١/٤ .

(٣) صحيح البخارى ٢١٠/٤ وصحيح مسلم حديث رقم ٢٢٨٣ .

فاندته يا رسول الله؟ قال: إن كان حسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان سيئا ندم أن لا يكون تزاع.

يا من لا يسمع قولَ ناصح، أما هذا الشيب دليلٌ واضح، لمن تحدث والقلب غائب، ليتنا نعلم مُستقره فنكاتب، قلنا له: بياضُ الشيب قد فضحك فضحك، يجمع التفسير إلى التفريط ويضم، وينوى فعل الذنوب فيعزم ويهم، ويملك تأمل هلال الهدى فاخفي ولاغم، واسمع واعظ العبر فقد زرع الجبال الشم، وأيقظ قلبك الفافل وهيهات لاتسمع الشم، وعُم في بحر حزنك على ذنوب تُم، فلقد بالغنا في زجرك يا من بالزجر قد أم، فإذا رضيت أن تكون لنفسك مُبيرا^(١) فلحق الله غلثا أشفق من الأم.

السلام على قومه تعالى

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾^(٢)

في «كنتم» قولان: أحدهما: أنه بمعنى الماضي. ثم فيه خمسة أقوال: أحدها: كان وصفكم في البشارة بكم قبل وجودكم: أنكم خير الناس. قاله الحسن.

والثاني: كنتم في سابق علم الله تعالى وحكمه. قاله ابن مقسم.

والثالث: كنتم في اللوح المحفوظ قد كتبتم خير أمة.

والرابع: كنتم مذ كنتم. والمعنى: ما زِلْتُمْ. قاله ابن الأنباري.

والخامس: وجدتم وخلقتم خير أمة.

القول الثاني: أن معنى «كنتم»: أنتم. مثل قوله تعالى «وكان الله غفورا رحيمًا» قاله الزجاج. وقال ابن قتيبة: وقد يأتي الفعل على بنية الماضي وهو ذاهب أو مستقبل كقوله: «كنتم» ومعناه أنتم ومثله «إذ قال الله»^(٣) أي وإذ يقول. ومثله: «أتى

(١) سيرا: مهلكا. ول ب: مشيرا والفتحة: الأم من الرضاع. (٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة المائدة ١١٠.

أمرُ الله^(١) ومثله: « من كان في الهدى^(٢) » ومثله « فسقناه إلى بلد ميت » أى قنسوه.
قال أبو هريرة: في قوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس »: يجيئون بهم والأغلال
في أعلانهم فيدخلون في الإسلام.

قال عطية: يشهدون للأتبياء بالتبليغ.

اعلم أن الخيرية تشمل أمتنا أولاً وآخرها وإن كان للأول فضل السبق.

أخبرنا الكُروخي، أنبأنا ابن عامر الأزدي وأبو بكر النورجي، قال أنبأنا
الجرّاحي، حدثنا الشعبوي، حدثنا الترمذي، حدثنا قتيبة، عن حماد، عن ثابت البناني،
عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مثل أمتي مثل المطر لا يذرى أوله
خيرٌ أم آخره ».

فإن قيل: هذا يوجب تردداً في تفضيل الصحابة؟ فالجواب: أنه أراد تقرب آخر
الامة إلى أولها في الفضل، كما تقول: لا أدري: أوجه هذا الثوب خير أم مؤخره؟ وقد
علم أن وجهه أفضل، لكنك تريد تقرب مؤخره من وجهه في الجود. ذكره
ابن قتيبة.

فأما فضل الصحابة فلا يُشك فيه إذ لم صبر على الحق لا يشاركهم فيه أحد.

كان بلال يذب في الرمضاء ويقولون له قل: اللات والعزى. وهو يقول: أحد
أحد. وكان عم الزبير يعلق الزبير ويدخن عليه بالنار ويقول: ارجع إلى الكفر
فيقول: لا أرجع.

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الخطيب، أنبأنا
أحمد بن يوسف، أنبأنا الحسين بن صفوان، أخبرنا أبو بكر القرشي، أخبرنا علي
ابن الجعد، أخبرنا عمرو بن الشعر، حدثني إسماعيل السدي، قال سمعت أبا أراكة
قال: صليت مع علي رضي الله عنه صلاة الفجر فلما سلم افتل^(٣) عن يمينه ثم مكث كان

(١) سورة النحل ١. (٢) سورة مريم ٢٩. (٣) اقبل: انصرف.

عليه كآبة ، حتى إذا كانت الشمس على حائط السجد قيد رُمح قلب يده فقال : والله لقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أرى اليوم أحداً يشبههم ، لقد كانوا يصعبون سُمتاً غُيِّرا بين أعينهم أمثال رُكب المُرْزى ، قد باتوا لله سُجّداً وقياماً يتلون كتاب الله ، يراوون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله ما ذُوا كما يُميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبيل ثيابهم ، والله لكان القوم باتوا غافلين . ثم نهض فما رُئى بعد ذلك مُفترقا بضحك ، حتى ضربه ابن مُلجم .



ولقد جاء من بعد الصحابة سادات برزوا في العلم والعمل .
كان أبو مسلم الخولاني قد علّق في مسجده سوطاً يمتدّ به نفسه كلما فترت ويقول :
أنظن الصحابة أن يتأثروا بمحمد دوننا ؟ والله لأزاحمهم عليه زحاما حتى يهلكوا أنفسهم قد قد خلّفوا رجالا .

وكان عامر بن عبد قيس يصلّي كل يوم ألف ركعة .
وكان كهّمس^(١) يختم في الشهر سبعين ختمة .
وصلى سليمان التيمي الفجر بوضوء المشاء أربعين سنة .
وكان سُفْيَان الثَّوْرِي غاية في العلم والعمل فنقله الخوف فصار يبول الدم ، فحمل ماؤه إلى الطيب فقال : هذا لا يشبه ماء المساكين هذا ماء الرهبان ، هذا رجل فتّت الحزن كبده .

وحمل ماء سَرَى السَّقَطِي إلى الطيب فلما نظر إليه قال : هذا بول عاشق . قال حمله :
فصمت وغشى على . ثم رجعت إلى سَرَى فأخبرته فقال : قاله الله ما أبهره .
إذا أنا واجهتُ الصَّبَا عادِرْدُها مِنْ حَرِّ أنفاسي عليه لميبُ
وقد أكثرت في الأخطاء قولمَ ومالي إلا أن أراك طيبُ

(١) كهّمس بن الحسن التيمي : من تابعي التابعين ..

يسلم قلبي الممّ فهو حليّته وبين جنوني والرقادِ حُروبُ
كان أبو عبيدة الخواص يقول : واشوقه إلى من يراني ولا أراه .
وكان ولهاث الجنون يقول : عدمت قلباً يحب غيرك ، وشكلتُ خواطر
أنست يسواك .

وقيل لبعض عقلاء المجانين : لم تُسميت مجنوناً ؟ فقال : لما طال حبسي عنه في الدنيا
يُسميت مجنوناً لخوف فراقه .

قلبي يحبك ما بيني ق وجفن عيني ما بينام
قد طال فيك الليل ق ما يقال له انصرام
والنجم فيه راكد والفجر بمنم الظلام
ليل بغير نهاية ولكل مفتاح ختام
في وصلك العيش المذى وعجرك الموت الزوام

قال الثعلبي : جُزئت براهب قتل : لمن تمبّد ؟ فقال : ليعسى ، قلت : ولم ؟ قال :
لأنه بقي أربعين يوماً لا^(١) يأكل . فقلت : فمذّها على . فأقت تحت صومته أربعين
يوماً لم آكل فأسلم .

أخبرنا أبو ممر الأنصاري ، أنبأنا محفوظ بن أحمد الفقيه ، قال : قال لنا أبو علي
الحسن بن غالب الحيري ، سمعت أبا سعيد أحمد بن المبارك البزاز يقول : سمعت حمى محمد
ابن أحمد يقول : رأيت في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم في جامع الخليفة وإلى جانبه
رجل مكتهل عنه فقيل : هو عيسى بن مريم وهو يقول للهي صلى الله عليه وسلم :
أليس من أمّي الرهبان ؟ أليس من أمّي الأحبار ؟ أليس من أمّي أصحاب الصوامع ؟
فدخل أبو الحسين بن سمون^(٢) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : في أمّتك مثل هذا ؟
فسكت . فانقبت .

(١) ب : لم يأكل . (٢) الأصل : ابن سمون . محرفة . والتصويب من سفة الصفوة لابن الجوزي
٢/٢٦٩ . وهو أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عيسى بن سمون ، من عباد بغداد تولى سنة ٣٨٧هـ .
(٣٢ - البصرة)

كانت قلوبهم بالحق متمثلة، وأنوارهم على الظواهر متألقة، كلما هدكت حاشم نوحهم
هطلت غاشم شجّوهم، دموعهم في الدجى ذوارف لما بين أيديهم من المخاوف، يفسلون
بالسكاء ذنوب الصخائف، خوفهم شديد وما فيهم غالف، إذا جن الليل فالتقدم
واقف، يحنون إلى الحبيب حنين شارف^(١)، الدمع ماعيد والحزن ماسع، يفرعون
إلى التذكر إذا مسهم طائف، أحوالهم عجائب وأمورهم طرائف، كم بينهم وبين قوم
موسى؟ أنقدوا يا صيآرف.

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا إلينا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت الصماء فيهم جزوا بها وإن أنموالا كدروها ولا كدوا
وحدثتني يا سعدُ عنهم فزدتني من حديثك يا سعدُ
علموا أن الدنيا متاع ينفى فمبروها وما عمروها للكنى، واشتغلوا بدار كلما نقصت
هذه تُبني، طرق الوعظ أسماهم فتلعنوا للمنى، يأخذون أهبة الرحيل ولا يأخذون
عرض هذا الأدنى، لا يكبر عندهم ترام بين الساكنين والزّمنى، لو تأملتهم رأيت
ضلوفاً على الحبة تُحنى، حلف صادقهم على هجر الهوى فلا والله ما استثنى، وأقبلوا على
قدم الفقر فلما رآهم أغنى، ذكروا الجنة فاشتاقوا ولا شوق قيس إلى لُبني.
قال النبي صلى الله عليه وسلم: « اشتاقت الجنة إلى علي وعمرار وسلمان ».

إلى الزهاد في الدنيا جنان ألفد تشاقت
عبيد من خطاياهم إلى الرحمن أباقي
حدثهم نحوه الرغبة والرغبة فاشتاقوا
وراءت لهم الدنيا وعاقبتهم فما انماقوا
عليهم حين تلقاهم سكيكات وإطراق
يصبجون إلى الله ودمع العين مهراق

توقمهم وقد مالت بسُكْرِ القومِ أحداً
وقد قاموا فلا يَهْجُ عٌ من قد ذاق ماذا

قال عبد الواحد بن زيد : هجنا مرةً على نهر من العباد في بعض السواحل ففترقوا حين رأونا فارتبنا على تلك الجزيرة وبنا تلك الليلة ، فاكنا نسمع عامة الليل إلا الصراخ والنفور من النار ، فلما أصبحنا طلبناهم وتبعنا آثارهم فلم نر أحداً !

نفذت أبصارُ بصائرهم بنور النيب إلى مشاهدة موصوف الوعد ، تملقت أكفُ الآمال بما عاينت نواظرُ القلوب ، فأخصوا البطون وغضوا الجفون ، وأهلوا الموع على تملل تلسوع ، لو رأيهم من خوف البين على أرجاء^(١) الرجا ، المموع كالسيل والليل قد دجا ، ذكروا ظلم النفوس والظلام قد سجا ، فمال القلب إلى اليأس فتوى الحجا ، فهب عليهم نسيمُ الظن فرجاً فرجاً .

وقفنا فن بالك أجابت دموعه ومعتم بالصبر لم يملك المبرأ
وميت سائر أجفانه يمينه ومُنق على أحشائه يده اليسرى
ومن طائش لم يُعَدِّ الدمعُ وجده وشراً يكما ما استنفذ الأدمع فلزراً^(٢)
وقد ملقت^(٣) خوص الركب لبيننا فلم نستطع ضعفاً لشاردها زجراً

قال بعض الصالحين : لقيت غلاماً في طريق مكة يمشى وحده فقلت له : ما معك مؤنس ؟ قال : بلى . قلت : أين هو ؟ قال : أُمّى وخَلْفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ؟ قلت : أما معك زاد ؟ قال : بلى . قلت : أين هو ؟ قال : الإخلاص والتوحيد والإيمان والتوكل . قلت : هل لك في مراقبتي ؟ فقال : الرفيق يشغل من الله عز وجل ولا أحب أن أرافق من يشغلني عنه طرفة عين . قلت : أما تتوحش في هذه البرية ؟ قال : إن الأنس بالله قطع عني كلَّ وَحْشة ، فلو كفتُ بين السباع ما خِفْتُها . قلت : ألك

(١) ت : على رجا الرجا . (٢) ب : الأدمع الفراء . (٣) ملقت : سارت سيرا شديداً .
و ب : تلت . والنفس : النائرة الأعين . والركاب : الإبل .

حاجة ؛ قال : نعم إذا رأيته فلا تسكمني قلت : ادع لي . قال : حجب الله طرفك عن كل معصية وألم قلبك الفكر فيما يرضيه . قلت : حبيبي أين ألقاك ؟ قال : أما في الدنيا فلا تحدث نفسك بقلائي ، وأما الآخرة فإنها تجتمع للثقلين فإن طلبتني هناك فاطلبني في زمرة الظالمين إلى الله عز وجل . قلت : وكيف علمت ؟ قال : بنص طرفي له عن كل مُحَرَّم واجتنب في كل مُنْكَر ومأثم ، وقد سأله أن يجعل جنق النظر إليه . ثم صاح وأقبل يسمى حتى غاب عن بصري .

وما تلوم جسي عن لقائكم إلا قلبي إليكم شيق عجل
وكيف يقعد مشتاق يحرُّكه إليكم الحافزات الشواق والأمل
فإن هضت فإلى غيركم وطَّر وإن قدمت فإلى غيركم شغل
وكم نمرض لى الأقوام بدمكم يستأذنون على قلبي فما وصلوا

مجمع

سبحان من قدَّمنا على جميع الناس ، وسقانا من معرفته أروى كأس ، وجعل نبينا أفضل نبي رعى وساس ، فلما فضله على الأمة وأنعم علينا بعلو الهمة قال لنا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

أف الأُم مثل أبي بكر الصديق ، أو عمر الذي أغص كسرى بالريق ، أو عثمان الصابر على مرِّ المذيق ، أو على بحر العلم الفمر العميق ؛ أو مثل حمزة والمعبس . أفهم مثل طلحة والزبير القرينين ، أو سمد وسعيد هيات من أين ، ألم صبر حَبَاب وخُيَّيب ومن مثل الاثنين ، إن شَبَّهناهم بهم أبدنا القياس . هل شجرة الرضوان في أشجارهم ، هل وقعة بدر من أنهارهم ، إنما عرضت لهم غزاة في جميع أعمارهم ، وجهادنا مع الأنفاس « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

أين أصحاب الأنبياء من أصحابنا ، هيات ما القوم من أضرابنا ، ولا نوابهم

في الأخرى مثل نوابنا ، نُتق الجبل فقالوا : أَقْلْنَا ونحن قلنا في كتابنا على العيينين والراس
« كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

ردوا كتابهم وقد سَطَر وصكّ ، وطلبوا جبا وقيد المجر قد فُكّ ، وشكّوا عند
الجبل وما فينا من يشك ، إن تشبيه السك باللك^(١) وسواس . غرم التنفيل وتناهى
فاعتقدوا للخالق أشباها ، فقالوا يوم اليمّ « اجعل لنا إلهًا » وماق عقائدنا نحن التباس .
آثر الصعابة^(٢) الفقر والحاجة ، واشتغلوا عن الدنيا بالطاعة ، وسألت النصارى
مائدة للمجاعة ، إنما طلبوا قوت الأضراس .

أعند رهبانهم كزهد أُوَيْس ، أفي متبذّئهم كناصر بن قيس ، أفي خائفهم كافضيل ،
هيات ليس ضوء الشمس كاللقباس .

أفهم مثل بشر ومعروف ، أفي زهادهم مذكور معروف ، أفي طوائفهم طائفة
صَلَتْ^(٣) وقد صَلَّصَتْ^(٤) السيوف ورثت الأقواس .

أفهم مثل أبي حنيفة ومالك ، أو كاشافي الهادي إلى السالك^(٥) ، كيف لا يخلصه
وهو أجل من ذلك ما أحسن بنيانه والأساس .

أفهم أغلّى من الحسن وأنبل ، أو ابن سيرين الذي بالورع تُقْبَل ، أو كأحمد الذي
بذل نفسه وسبيل ، تالله ما فيهم مثل ابن حنبل ، ارفع صوتك بهذا ولا بأس « كنتم خير
أمة أخرجت للناس » .

اتهى الجزء الأول من كتاب التبصرة للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
وبليه الجزء الثاني وأوله : « الطبقة الثانية »

(١) اللك : نبات يصح به . (٢) ت : أصحابنا . (٣) ت : من صلت . (٤) ب : صلت .
(٥) ب : إلى السالك .

فَهْرِسُ الْمُضْمُونَاتِ

الصفحة	الموضوع
٨ - ١	مقدمة المؤلف
	الطبقة الأولى فيها أربعة وثلاثون مجلساً :
١١	المجلس الأول في ذكر آدم عليه الصلاة والسلام .
١٨	الكلام على البسملة : (مختارات وعظية وشعرية)
٢٤	الكلام على قوله تعالى « التائبون العابدون الحامدون »
٣٠	سجع على قوله تعالى : « التائبون العابدون »
٣٢	المجلس الثاني في قصة قابيل وهابيل
٣٨	الكلام على البسملة : (مختارات)
٤٢	الكلام على قوله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم »
٤٦	سجع على قوله تعالى : « الذين يُنفقون في السَّراءِ والسرِّاءِ »
٤٩	المجلس الثالث في ذكر إدريس عليه السلام
٥٣	الكلام على البسملة (مختارات)
٥٦	الكلام على قوله تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض »
٦١	سجع على قوله تعالى : « وما تُنفى الآياتُ والنذرُ عن قوم لا يؤمنون »
٦٢	سجع على قوله تعالى : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم »
٦٤	المجلس الرابع في ذكر نوح عليه الصلاة والسلام
٦٩	الكلام على البسملة (مختارات)
٧١	سجع على قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ محضراً »
٧٤	الكلام على قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه »

الصفحة	الموضوع
٧٧	الجلس الخامس في قصة عاد
٨١	الكلام على البسملة (مختارات)
٨٤	الكلام على قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون »
٨٥	سجع على قوله تعالى « إِنَّمَا يُؤْخَرُكُمْ يَوْمَ تَشْهَدُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »
٩١	سجع على قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولِيُخَوِّنُوا بِهِ »
٩٣	الجلس السادس في قصة نوح
٩٦	الكلام على البسملة (مختارات)
٩٨	الكلام على قوله تعالى : « واستمع يوم ينادي للنادي »
١٠٤	سجع على قوله تعالى : « فذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ »
١٠٥	الجلس الخامس في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام
١١١	الكلام على البسملة (مختارات)
١١٤	الكلام على قوله تعالى : « قلنا يا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ »
١١٦	سجع على قوله تعالى : « قلنا يا نَارُ كُونِي بَرْدًا .. »
١١٩	الجلس الثامن في قصة بناء الكعبة
١٢٦	الكلام على البسملة (مختارات)
١٢٩	الكلام على قوله تعالى : « فِي يَوْمٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ »
١٣٤	سجع على قوله تعالى : « يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ »
١٣٥	الجلس التاسع في ذكر إسحاق وقصة الذبح
١٣٩	الكلام على البسملة (مختارات)
١٤٣	الكلام على قوله تعالى : « لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ »
١٤٨	سجع على قوله تعالى : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »
١٥٠	الجلس العاشر في قصة لوط عليه السلام

الصفحة	الموضوع
١٥٣	الكلام على البسملة (مختارات)
١٥٦	الكلام على قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم »
١٦٣	سجع على قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم »
١٦٥	المجلس الحادى عشر فى قصة ذى القرنين
١٧٠	الكلام على البسملة (مختارات)
١٧٣	الكلام على قوله تعالى « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة »
١٧٧	سجع على قوله تعالى « فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم »
١٧٨	المجلس الثانى عشر فى قصة يوسف عليه السلام
١٨٢	الكلام على البسملة (مختارات)
١٨٥	الكلام على قوله تعالى : « وقضى وبك ألا تعبدوا إلا إياه »
١٨٩	سجع على قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »
١٩١	المجلس الثالث عشر فى قصة أيوب عليه السلام
١٩٥	الكلام على البسملة
١٩٧	الكلام على قوله تعالى : « إني جزيتهم اليوم بما صبروا »
٢٠٢	سجع على قوله تعالى : « إني جزيتهم اليوم بما صبروا »
٢٠٤	المجلس الرابع عشر فى ذكر قصة شمعب عليه السلام
٢٠٨	الكلام على البسملة (مختارات)
٢١١	الكلام على قوله تعالى « كلا إذا بلغت التراقي »
٢١٦	الكلام على قوله تعالى « ما عندكم يتفقد وما عند الله باق »
٢١٨	المجلس الخامس عشر فى قصة موسى عليه السلام
٢٢٥	الكلام على البسملة (مختارات)
٢٢٧	سجع على قوله تعالى : « إن الأبرار لى نعم »

الصفحة	الوضع
٢٣٠	سجع على قوله تعالى : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم »
٢٣١	» » » : « يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ »
٢٣٣	المجلس السادس عشر في قصة موسى والخضر
٢٣٨	الكلام على البسملة (مختارات)
٢٤١	» » قوله تعالى : « يطوف عليهم ولدان مخلدون »
٢٥١	المجلس السابع عشر في قصة قارون
٢٥٤	الكلام على البسملة (مختارات)
٢٥٦	» » قوله تعالى : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا »
٢٦٣	المجلس الثامن عشر : في قصة بلعام
٢٦٥	الكلام على البسملة (مختارات)
٢٦٧	» » قوله تعالى : « فاعتبروا يا أولي الأبصار »
٢٧٤	المجلس التاسع عشر في قصة داود عليه السلام
٢٧٩	الكلام على البسملة (مختارات)
٢٨١	» » قوله تعالى : « أيعجب الإنسان أن يترك سُدَى »
٢٨٧	المجلس العشرون في قصة سليمان عليه السلام
٢٩٢	الكلام على البسملة (مختارات)
٢٩٦	» » قوله تعالى : « القارعةُ ما القارعةُ »
٣٠٣	المجلس الحادي والعشرون « في قصة بلقيس »
٣٠٧	الكلام على البسملة (مختارات)
٣٠٩	» » قوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة »
٣١٣	سجع على قوله تعالى « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر »
٣١٥	المجلس الثاني والعشرون في قصة سبأ

الصفحة	الموضوع
٣١٨	الكلام على البسلة (مختارات)
٣٢٠	» » قوله تعالى « رفيع الدرجات »
٣٢٦	الجلس الثالث والعشرون في قصة يونس عليه السلام
٣٣٢	الكلام على قوله تعالى « أفرايت إن متعتهم سنين »
٣٣٧	سجع على قوله تعالى : « ما أغنى عنهم ما كانوا يمتنعون »
٣٣٩	الجلس الرابع والعشرون في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام
٣٤٣	الكلام على البسلة (مختارات)
٣٤٦	» » قوله تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعا »
٣٥٢	الجلس الخامس والعشرون في قصة مريم وعيسى عليهما السلام
٣٥٧	الكلام على البسلة (مختارات)
٣٥٩	» » على قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا »
٣٦٦	الجلس السادس والعشرون في قصة أهل الكهف
٣٧٠	الكلام على البسلة (مختارات)
٣٧٤	الكلام على قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون »
٣٨٠	الجلس السابع والعشرون في قصة نبيينا صلى الله عليه وسلم
٣٨٦	الكلام على البسلة (مختارات)
٣٨٩	» » قوله تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »
٣٩٦	الجلس الثامن والعشرون في فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه
	الكلام على قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم
٤٠٨	عن ذكر الله »
٤١٤	الجلس التاسع والعشرون في فضل عمر بن الخطاب
٤٢٢	الكلام على قوله تعالى « وجوه يومئذ ناعمة »

الصفحة	الموضوع
٤٢٨	الجلس الثلاثون في فضائل عثمان بن عفان
٤٣٤	الكلام على قوله تعالى : « والله يدعو إلى دار السلام »
٤٤١	الجلس الحادى والثلاثون في فضائل على بن أبى طالب
٤٤٥	الكلام على البسملة (مختارات)
٤٤٨	« » قوله تعالى « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا »
٤٥٥	الجلس الثانى والثلاثون في فضائل عائشة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم
٤٦١	الكلام على البسملة (مختارات)
٤٦٣	« » قوله تعالى « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »
٤٧٢	الجلس الثالث والثلاثون في فضل الصحابة رضى الله عنهم
٤٧٩	الكلام على البسملة (مختارات)
٤٨٢	« » قوله تعالى « ولا تعطروا الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى »
٤٨٨	الجلس الرابع والثلاثون في فضائل أمة محمد صلى الله عليه وسلم
٤٩٢	الكلام على البسملة
٤٩٤	الكلام على قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »

تصويبات واستدراكات

الصفحة	السطر	الصواب
٣٧	٦	ابن للذهب
وكذا في صفحات ١٥٣، ١٦٩، ١٨٩، ٢٠٧، ٢٠٨، ٣٠٤، ٣٧٤		
٨٤	١٧	عن بُرَيْد
٩٠	١٩	نادٍ القصور
١٢١	١٢	حدثنا أبو عبد الله القَرَبْرِيّ
١٣٩	١٩	تَنْتَذِي
١٤٦	٩	كَاتَشًا
١٥٥	٩	تَفْصِي
١٦١	٩	أبو سعد الحِمْيَرِيّ
١٨٣	١٣	«تِيَار» كذا بالأصل ولعلها: «تَبَار» بمعنى هلاك.
٢٢٥	٢٠	هَلَا
٢٣٩	١٧	أبو سَعْد بن أَبِي صَادِق .
٢٨٠	٨	كَيْفَ يَسْتَمْتِر
٣٥٨	١٠	وَمَذَكَّرُوها ودَعَاها
٣٧٢	١٧	والطبيب
٤٤٨	١٦	«كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا»
٤٦٣	٢	«مَحْبُوس» كذا بالأصل ولعلها: محسوب
٤٦٩	هامش	والدخيل: الضيف .

